بسام العسلي

فن الحرب الإسلامي

أيام الحروب الصليبية



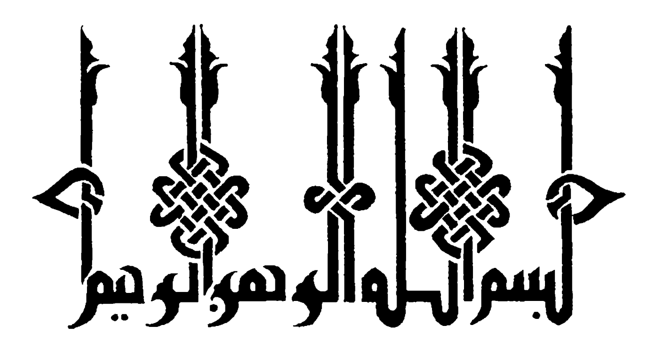
المجلد الرابع





أيام الحروب الصليبية

٤


بسم الله الرحمن الرحيم

بسّام العسلي



أيّام الحروب الصّليبيّة

المجلد الرابع

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الاولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الفكر
بيروت
لبنان

المكاتب : البناية المركزية - هاتف : ٢٤٤٧٣٩ - ص.ب : ١١/٧٠٦١
المطابع والمعمل : حارة حريك - شارع عبد النور - هاتف : ٣٩٠٦٦٣ | ٨٣٨٢٠٢ | ٨٣٧٨٩٨
برقيا : فكسي - تلكس : ٤١٣٩٢ فكر FIKR 41392 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ★ واقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ. وٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْل وَلا تُقَٰتِلُوهُمْ عِنْد ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّى يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ. فَإِنْ قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ★ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِينَ للهِ. فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّٰلِمِينَ★﴾

صدق الله العظيم ـ سورة البقرة ـ الآية: ١٩٠ ـ ١٩٣.

المقدمـــة

حاول الباحثون الغربيون تحديد سبب معين لاندلاع نار الحروب الصليبية القديمة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. فمنهم من زعم أن هذه الحروب قد جاءت نتيجة استيلاء الأتراك السلاجقة على بلاد الشام، وسيطرتهم على طريق حجّ الفرنج إلى القدس. ومنهم من زعم أن ما ظهر من ضعف دولة الروم ـ البيزنطيين ـ في معركة ملازكرد والتي انتصر فيها السلطان ألب أرسلان السلجوقي على امبراطور الروم أرمانوس سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م كان هو السبب في استثارة الغرب لتجريد الحملات الصليبية. وحاول آخرون ايجاد هذا السبب في وسط الغرب ذاته، فالفقر والجهل وسيطرة الكنيسة والانغلاق الفكري مقابل ما كان يعيشه العالم الإسلامي من تقدم فكري ورفاه اقتصادي وتطور اجتماعي قد استثار شهوة النهب والتدمير في وسط قيادات الغرب، ومارست الكنيسة دورها لتوجيه الجهود ضد المسلمين. وقد لا تكون هناك حاجة لدحض هذه المزاعم أو اقرار بعضها، ودحض بعضها الآخر. والحقيقة هي أن منطق التاريخ لا يقبل مثل هذا التجديد الزمني والمكاني للأحداث، فتيار التاريخ المتدفق، ونسيجه المتصل يرفض الانقطاع ويمتنع عن التجزئة. فلقد كانت الأماكن المقدسة تحت حكم العرب المسلمين منذ قرون. وحاصر العرب المسلمون عاصمة الروم مرات كثيرة. ولم تكن قضية حفنة من الحجاج ـ حتى لو وجدت مثل هذه القضية ـ جديرة بتجريد مثل هذه الحملات الضخمة. ولو كان الأمر كذلك أيضاً، لما كانت للفرنج حاجة لإقامة أماراتهم ومملكتهم في بلاد الشام. ولما أوغلوا في عمق بلاد الشام فحاولوا الوصول إلى بغداد أو الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، ولما حاولوا احتلال مصر ودمشق.

يظهر استعراض النسيج التاريخي المتصل أن أرض الأندلس، وجزائر البحر الأبيض

المتوسط، كانت هي المهد المبكر للحروب الصليبية. وقد عملت الكنيسة ـ روما ـ باستمرار على توجيه الجهد وحشد القوى ضد المسلمين. غير أن انتصارات المسلمين على الجبهات كافة، دفعت قوى الفرنج الصليبين لمهادنة المسلمين أحياناً، أو اتخاذ سياسة دفاعية في مواجهتهم في أحيان أخرى. حتى إذا ما أحرز الفرنج انتصارهم الكبير على المسلمين فانتزعوا منهم طليطلة سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م. وجدت الكنيسة أن الفرصة قد باتت مناسبة أو مؤاتية للانتقال إلى الهجوم الشامل، وضرب المسلمين في عقر دارهم بالاستيلاء على بلاد الشام. ووقف البابا ايربان الثاني في مجمع كليرمونت ـ بفرنسا ـ سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م. فأعلن بندائه الشهير بداية الحروب الصليبية عندما قال:

« فلينهض الغرب لنجدة إخوانه المسيحيين في الشرق » .

وما هي إلا أربع سنوات حتى وصلت طلائع الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام.

هكذا لم يكن إعلان البـابا للحرب الصليبية إلا ثمرة مخاض طويل، وإلا نتيجة جهود مستمرة عبر أزمنة متتالية، بدأت بمسرح الصراع الرئيسي على أرض أندلس المسلمين، وامتدت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط، وانتهت على أرض بلاد الشام، حيث القاعدة الأساسية لانطلاق جيوش الفتح العربي ـ الإسلامي.

اصطدمت جحافل الفرنج الصليبيين بجند المسلمين في كل مكان، وهبت جيوش المدن الإسلامية لمقاومة قوات الغزو، وظهرت منذ البداية محاولات لتنسيق التعاون بين جيوش المدن الإسلامية، واصطدمت هذه المحاولات بعقبات كثيرة حتى استطاع الزنكيون الانطلاق من الموصل إلى حلب ومنها إلى دمشق ثم مصر، فأمكن تشكيل جبهة اسلامية متماسكة أوقفت مد الفرنج، وانتزعت منهم بعض إماراتهم (الرهاء). مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثانية، وجاء الايوبيون في أعقاب الزنكيين الذين مهدوا لهم سبيل الحكم. فتابعوا حمل راية الجهاد في سبيل الله، ووصلوا أوج قوتهم في معركة حطين وإعادة فتح القدس. وتبع ذلك تحول حاسم. حيث ظهر وجود الفرنج في بلاد الشام بأنه وجود ضعيف، مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثالثة، وجاء بعد

ذلك المماليك فتابعوا السير على درب الجهاد وقد اتضحت معالمه وتحددت أهدافه. فقادوا جموع المسلمين لخوض أكبر معركة ضد المغول ـ التتار (عين جالوت) وتبع انتصار المسلمين هجوم عاصف على بقايا الفرنج. ولم تنجح الحملات المتتالية إلا في إطالة أمد الحرب وإلا في التعرض للمزيد من الخسائر على طرفي جبهات الصراع المسلح. إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج من بلاد الشام. إلا أن ذلك لم يضع نهاية للصراع. فقد شرع الأتراك العثمانيون في ممارسة دورهم برفع راية الجهاد، وانطلقوا من شمال بلاد الشام وآسيا الصغرى، فأمكن لهم نقل ثقل الصراع المسلح إلى أوروبا. وجابهوا هناك الحملات الصليبية المتتالية ودمروها. ولم يكن فتح القسطنطينية (اسلام بول) إلا ثمرة من ثمار تحول مسرح الصراع المسلح من بلاد الشام إلى شرق أوروبا.

هكذا، اشتركت الشعوب الإسلامية من عرب وبربر، كرد وترك، ديلم وفرس، وسواهم من أمم الأرض في احباط الحملات الصليبية ودحرها. وقد اجتهد الباحثون والمؤرخون في تصنيف هذه الحملات ـ في إطارها الزمني ـ فكان منها التصنيف التالي:

١ ـ **الحملة الصليبية الأولى:** سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وانتهت باحتلال انطاكية والقدس ومدن الساحل في بلاد الشام.

٢ ـ **الحملة الصليبية الثانية:** ٥٤٢ ـ ٥٤٤ هـ (١١٤٧ ـ ١١٤٩ م) وقد جاءت بعد إعادة فتح الرهاء وطرد الفرنج منها على أيدي الزنكيين. وقد حاولت هذه الحملة الاستيلاء على دمشق.

٣ ـ **الحملة الصليبية الثالثة:** ٥٨٥ ـ ٥٨٨ هـ (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) وقد جاءت بعد انتصار المسلمين في حطين وإعادة فتح القدس. ولم تحقق نتائج هامة.

٤ ـ **الحملة الصليبية الرابعة:** ٥٩٩ ـ ٦٠١ هـ (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) اتجهت إلى القسطنطينية واستولت عليها ودمرتها، واكتفت بهذا الإنجاز

٥ ـ **الحملة الصليبية الخامسة:** ٦١٦ ـ ٦١٨ هـ (١٢١٩ ـ ١٢٢١ م) وقد حاولت الإستيلاء على مصر لعزلها عن المشرق الإسلامي، وانتهت الحملة إلى الفشل.

٦ ـ **الحملة الصليبية السادسة:** ٦٢٦ ـ ٦٢٧ هـ (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م). أعادت القدس إلى حكم الفرنج، مع شريط أرضي يربطها بالساحل ـ حيث إمارات الفرنج.

٧ ـ **الحملة الصليبية السابعة:** ٦٤٦ ـ ٦٥٢ هـ (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م) حاولت للمرة الثانية احتلال مصر ـ وفشلت في المنصورة.

٨ ـ **الحملة الصليبية الثامنة:** ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) انتهت بالفشل أمام تؤنس.

٩ ـ **الحملة الصليبية التاسعة:** ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) هاجمت الاسكندرية في مصر ونهبتها ودمرتها وعادت إلى قبرص.

١٠ ـ **الحملة الصليبية العاشرة:** ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في نيقوبوليس.

١١ ـ **الحملة الصليبية الحادية عشرة:** ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في فارنا.

لم تتوقف الحملات الصليبية بفتح الأتراك المسلمين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م. ولا باستيلاء الفرنج الصليبيين على غرناطة سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م. وانما استمرت بعد ذلك في إطار حملات منظمة ضد أقطار المغرب العربي الإسلامي (المغرب والجزائر وتؤنس وبرقة) وهي الحملات التي قادها الاسبانيون والبرتغاليون. غير أن هذه الحملات لم توضع في إطار الحملات الصليبية. وكذلك الأمر بالنسبة للحملات الصليبية التي جرت تحت رايات (الاستعمار الغربي) والتي تركزت على أقطار العالم العربي ـ الإسلامي خاصة وأقطار العالم الإسلامي بصورة عامة. مما حمل الكثير من المؤرخين على تصنيف هذه الحملات تحت عنوان (الحملة الصليبية الثانية عشرة) وبذلك منحت الهجمة الإسرائيلية الجديدة التي أقامت الكيان الصهيوني على أرض فلسطين اسم (الحملة الصليبية الثالثة عشرة) باعتبار أن الصهيونية هي رأس الحربة في الحملة الصليبية الجديدة. بينما يطلق آخرون على الهجمة الصهيونية الحديثة عنوان (الحملة الصليبية العاشرة) لربطها مباشرة بالحملات التي وصلت إلى بلاد الشام مع تجاوز ما بين الحملات القديمة والهجمة الجديدة من حملات صليبية مختلفة.

لقد حظيت تجربة الحملات الصليبية القديمة باهتمام الباحثين في الأزمنة الحديثة. ـ في أقطار الغرب عامة ـ. وقد صدرت خلال النصف القرن الماضي ـ أي منذ إقامة الكيان الصهيوني على وجه التحديد ـ مجموعة ضخمة من المؤلفات والكتب والأبحاث، فهل جاء هذا الاهتمام المباغت بصورة تلقائية ـ عفوية ـ؟.
أم جاء في إطار خطة مبرمجة هدفها استثمار الدروس المستخلصة من تلك التجربة؟

للاجابة على هذه التساؤلات، وأمثالها، قد يكون من الضروري مقارنة الممارسات الإسرائيلية ـ الصهيونية ـ الحديثة، بما جرى على أرض فلسطين خلال الحملات الصليبية القديمة، وعندئذ يظهر التشابه المثير في سلوك هذه مع تلك وممارساتها. وعلى سبيل المثال لا الحصر: ممارسة الارهاب ضد العرب المسلمين خاصة، وتنظيم الطوائف الدينية المتطرفة، وتغذية ودعم المذاهب الطائفية في الوسط الإسلامي. ومحاولات عزل مصر عن العالم العربي ـ الإسلامي، ومحاولات الوصول إلى ما وراء نهر الأردن بحجة تأمين العمق الاستراتيجي. وتصعيد الهجوم على القوى المضادة للصليبية مع كل تعاظم في الوعي الإسلامي الخ... ومن المحتمل القول أن هذا التشابه هو من الأمور الطبيعية بسبب الوضع الخاص الذي تعيشه اسرائيل مع ذاك الذي عاشته الكيانات التي أقامها الفرنج في الحملات القديمة. فعندما تتشابه الظروف فانها تفرز ردود فعل سياسية واقتصادية واجتماعية متشابهة. غير أن ذلك لا يزيل اليقين في محاولات أصحاب المشروع الصهيوني الافادة من تجربة الحملات الصليبية القديمة، واستثمار الدروس المستخلصة منها، وتوظيفها لمصلحة الحملة الصليبية الجديدة.

تظهر من خلال ذلك أهمية العودة إلى التجربة التاريخية الذاتية، في مجال فن الحرب سواء على مستوى السياسة الاستراتيجية أو على مستوى إدارة الحرب والأعمال القتالية، بل وحتى على المستوى التعبوي ـ التكتيكي ـ. ولقد تطورت الأسلحة تطوراً مذهلاً. كما تطورت طرائق إدارة الحرب والعمليات بما يتناسب مع تطور الأسلحة، غير أن الأسس الثابتة بقيت محتفظة بأهميتها الكاملة.

لقد كان الصراع بين الفرنج الصليبيين من جهة والعرب المسلمين من جهة ثانية، مجالاً لحوار الارادات المتصارعة، قذف فيه الفرنج بكل ما توافر لهم من القوى، وقذف فيه المسلمون بما يعادل تلك القوى. وارتبطت نتيجة الصراع في النهاية، بالطرف الأكثر تصميماً والأكثر عناداً، فكسب المسلمون الجولة النهائية، وبرهنوا على أنهم الطرف الأقوى في الحوار، اعتماداً منهم على حقهم وعلى عدالة قضيتهم. وعرف الفرنج هذه الحقيقة، فاضطروا مرغمين على الانسحاب من حلبة الصراع - ولو إلى حين -. ولقد تطورت أساليب الحوار وتنوعت. ولعل هذا ما يمكن تعلمه من التجربة الذاتية، وهو الاعتماد على اسس الصراع الثابتة وتطوير العوامل المتحولة - أو غير الثابتة - بما يتناسب مع الظروف المحلية والدولية.

لقد جرى حوار الارادات المتصارعة بين المسلمين والفرنج في إطار سياسة استراتيجية هجومية - دفاعية. وأظهر المسلمون تفوقهم في الأساليب الهجومية، واعتمد الفرنج على الوسائل الدفاعية (الحصون والقلاع). فكان الحوار على مستوى الأعمال القتالية هو حوار بين الهجوم والدفاع. ولكن ذلك لا يعني أن المسلمين قد التزموا بالهجوم دائماً، وأن الفرنج أخذوا بأساليب الدفاع باستمرار، بل كان الأخذ بالهجوم وتفضيله على الدفاع، أو المزج بين الهجوم والدفاع مرتبطاً بكل مرحلة من مراحل الصراع، وبما يستجد فيه من العوامل.

لقد امتد مسرح الأعمال القتالية على امتداد الجبهات الاسلامية، بداية من أرض الأندلس ومروراً بأقطار المغرب العربي الإسلامي وجزائر البحر الأبيض المتوسط، ونهاية بأرض بلاد الشام. واستمر هذا الصراع طوال قرون متتالية. ولهذا فقد يكون من الصعب التعرض لكل ما تضمنته هذه الحرب الشاملة من وقائع وأعمال. وحتى ما جرى على أرض بلاد الشام هو أكثر اتساعاً من أن يشمله بحث. ولهذا كان لا بد من التوقف عند الأحداث الرئيسة، وتجاوز بعض الأحداث الثانوية. ونظراً لما كان للحصون والقلاع من دور في هذه الحرب الشاملة فقد ظهر أنه من المناسب التركيز على بعضها وليس كلها، وتجاوز ما كان دوره ثانوياً، أو ما كان متشابهاً، ولقد زالت أهمية القلاع والحصون بتطور الوسائط النارية، واستعيض عنها بالحفر عميقاً في باطن

الأرض ـ وهو ما يمثله خط بارليف والخنادق العميقة والواسعة في الجولان ـ. وبقي الحوار مستمراً بين أساليب الحرب الهجومية ووسائط الحرب الدفاعية. وبقيت عوامل الصراع وأساليب الحوار متشابهة. ومن هنا تظهر فائدة إفراد فصل خاص للقلاع والحصون في الحروب الصليبية القديمة.

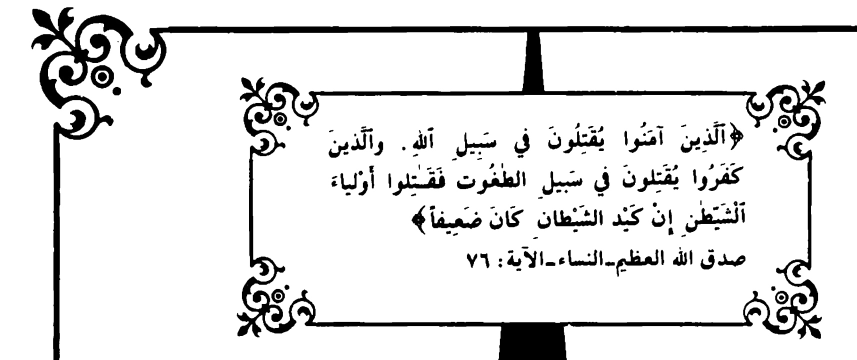
لقد احتفظت تجربة الحملات الصليبية القديمة بأهميتها وفائدتها، لا من حيث استطالة أمدها ـ لمدة قرنين من عمر الزمن على أرض الشام وحدها ـ ولا من حيث اتساع مسرح عملياتها ـ الذي شمل ـ الأندلس والمغرب العربي ـ الإسلامي وبلاد الشام وأوروبا الشرقية وجزر البحر الأبيض المتوسط أيضاً. ولا من حيث اشتراك عدد كبير من الأقوام والشعوب على طرفي جبهات الصراع. وإنما أيضاً وبالاضافة إلى العوامل السابقة الاستمرارية في الصراع واتصال تلك التجربة بما يحدث اليوم، وإذا كان هناك من ينكر مثل هذا الاتصال، ويتجاهل مثل هذه الاستمرارية ـ عن ضعف وتخاذل، فإن الغرب ذاته لازال يعلنها بشكل أو بآخر، تلميحاً أحياناً وتصريحاً في أحيان أخرى على شكل هجوم سياسي أو اعلامي، ولعل ذلك هو العامل الأساسي في فشل كل حوار مع الغرب الصليبي المتعصب والمتعجرف. وليس الاصرار العنيد على تكرار مقولة: (بقاء اسرائيل واستمرارها وخلودها ـ على ما يزعمون) انما لاقناع العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة، بأن أصحاب المشروع الإسرائيلي ـ الصهيوني ـ قد أفادوا من تجاربهم المستمرة بحيث أنهم لن يكرروا جلاءهم عما احتلوه في حملتهم الجديدة. وقد رد تعالى ـ عزّ من قائل ـ على مقولتهم في محكم تنزيله:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ★ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ★ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ★ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾

صدق الله العظيم★.

بسام العسلي

★ الجزء السابع والعشرون ـ سورة القمر ـ الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.


﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ. وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ
ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾
صدق الله العظيم ـ النساء ـ الآية: ٧٦

الفصل الأول

١ ـ الموقف على جبهتي الصراع.

لطالما أجهد الباحثون الغربيون والمؤرخون أنفسهم في محاولة لتحديد بداية دقيقة للحروب الصليبية القديمة. وقد لا تكون هناك حاجة لتحديد مثل هذه البداية، زمنياً، إذ من المعروف تاريخياً أن الحرب بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية قد أخذ شكل حرب صليبية منذ البدايات الأولى للفتح، واستمر هذا الصراع في صعود وهبوط، طوال العهد الأموي والعهد العباسي. أما على جبهة الغرب، فقد عرفت أرض الأندلس صراعاً مريراً طوال العهد الأموي حتى إذا ما كان عهد ملوك الطوائف، وتمزقت الأندلس إلى ممالك اسلامية متصارعة، انتقل (نصارى الأندلس) للهجوم بدعم وتوجيه من الكنيسة التي حاولت حشد القوى لدول النصارى في جبهة واحدة، وكانت هذه الدول تخوض بعضها ضد بعض حروباً مستمرة، فنجحت الكنيسة في فرض السلام الداخلي، وتوجيه العداء نحو الخارج، وقد وجد هذا العداء له متنفساً على أرض الأندلس. وقد تشجع الأساقفة بما حققوه من نجاحات، حتى إذا ما كان انعقاد مجمع كليرمونت (١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٠٩٥) وجد ثلثمائة من رجال الدين أن الفرصة قد حانت لإعلان الحرب الصليبية ـ وأطلق البابا (ايربان الثاني)[١] صيحته الشهيرة: «فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق»[٢] وبدأت عجلة الحرب الصليبية بالتوجه نحو الشرق. وقد أبرز المؤرخون الغربيون مجموعة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت

---

(١) البابا ايربان الثاني: (URBAIN II) واسمه اودو ـ دولاجري: (ODO-DE-LAGERY) ولد سنة: ١٠٤٢ م في شاتيون سيرمارن (CHATILLON-SUR-MARNE) ـ وانتخب لمنصب البابا سنة ١٠٨٨ م، وأصبح سنة ١٠٩٥ م السيد الروحي للعالم المسيحي وذلك باعلانه الحرب الصليبية في مجمع كليرمونت CLERMONT ـ ومات سنة ١٠٩٩ م.

(٢) انظر الفصل الثاني في تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ـ ص: ١٤١ ـ ١٧٥.

اسهاماً كبيراً في توجه الفرنج الصليبيين نحو الشرق الذي كان ينعم بحالة من الرفاهية والتطور الاجتماعي والاقتصادي مما جعل امراء الغرب وملوكهم يستجيبون لنداءات الكنيسة التي كان يهمها حشد المقاتلين تحت غطاء فكري وعقائدي مناسب. وقد وجد فرسان الغرب، وبؤساؤهم، على السواء فرصة لهم في اقتحام عالم يختلف عن عالمهم. وقد تعرض الباحثون والمؤرخون المسلمون من جانبهم للحرب الصليبية في بداياتها على أرض المشرق، فكان مما كتبوه: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة - ١٠٨٥م - فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس. ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة - ١٠٩١م - جزيرة صقلية وملكوها. وتطرقوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً، وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره، فلما كان سنة تسعين وأربعمائة - ١٠٩٧م - خرجوا إلى بلاد الشام. وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل - بلدوين البولوني - جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب - رجار الفرنجي[١] - الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى أفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك، فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك، وقالوا: وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إذا وصلوا إليّ احتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندي أيضاً. فإن فتحوا البلاد كانت لهم. وصارت المؤنة لهم من صقلية، وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم. ويقول لي حاكم مصر الفاطمي - تميم - غدرت بي ونقضت عهدي. وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا. وبلاد أفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها. وأحضر رسول بردويل وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل

---

(١) رجار - هو روجر الأول: (ROGER I) ابن تانكرد - دوهوتفيل ملك صقليا - و (TANCREDE DE HAUTEVILLE) وقد ولد سنة ١٠٤٠م واستولى على صقلية وأقام فيها مملكة: (١٠٧٠ - ١١٠١م) وخلفه روجر الثاني: (١١٠١ - ١١٥٤م).

ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. فأما أفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود. فتجهزوا وخرجوا إلى الشام. وقيل إن أصحاب مصر من الفاطميين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية - السنة - وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من الوصول إلى مصر وملكها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين. والله أعلم»[1].

لم يكن ملك صقلية هو الملك الوحيد الذي وضع هدفين له من التحرك الصليبي الشامل: إبعاد جموع الصليبيين عن حدود مملكته، واستثمارهم قدر المستطاع لدعم قدرته وامكاناته. وإنما سار معظم ملوك الغرب على هذا الاتجاه ذاته، ففرضوا قيوداً صارمة على تحرك جيوش الفرنج حتى لا تتعرض ممالكهم للنهب والتدمير. وكذلك فعل أيضاً ملك الروم البيزنطيين الذي أراد الافادة من قوة الفرنج لتدمير قوة السلاجقة التي فرضت وجودها على آسيا الصغرى. وظن أن الدعوة الصليبية ستوفر له دعماً يضمن له تحقيق هدفه. ولكنه ارتاع عندما علم أن جيوشاً بأكملها من الفرنج تشق طريقها نحو بلاده، بدلاً من الفرسان الفرادى والجماعات الصغيرة والتي توقع انحيازها إلى قواته. وقد صورت المصادر التاريخية موقف ملك الروم - الكسيوس أو الكسيس - بالكلمات التالية:

«لم يفرح الكسيوس بجيوش الفرنج، لأنه علم بالتجربة أن الفرنج هم عنصر متقلب الأهواء متعطش للحصول على المال، ولا يحفل بالوفاء بما يعقده من الاتفاقات. وعلى الرغم من شدتهم بالهجوم، فإن هذه الشدة ليست في بعض الأحوال من المزايا الطيبة. وانزعج البلاط البيزنطي لما علم - على حد قول الأميرة أنه كومنين: أن كل القبائل المتبربرة في الغرب بأسره - من وراء بحر الادرياتي حتى عمودي هرقل في مضيق جبل طارق - أخذوا يتحركون كتلة واحدة، مجتازين أوروبا نحو آسيا وجلبوا معهم أسراتهم.

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة تسعين وأربعمائة.

ولم يكن امبراطور الروم وحده هو الذي انزعج لذلك، بل شاركه في انزعاجه أفراد رعيته. وكان ذلك طيرة منذرة حيث تناقل الناس بأن أرتالاً ضخمة من الجراد تجتاح أوروبا، فلا تمس الحبوب وإنما تلتهم الكروم. وفسَّر المنجمون ذلك بناء على ايعاز من بلاط الامبراطور حتى لا يشيع اليأس والقنوط، بأن الفرنج لن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين الأخيار، الذين رمز لهم بـالقمـح مصـدر خبـز الحيـاة. وسـوف يحطمون المسلمين، وهم قوم جرى تشبيه شهوانيتهم بالكروم. والواقع أن ما أشاعته الأميرة (أنه) من تفسير، يشوبه بعض الريبة، غير أن تشبيه الفرنج بالجراد هو أمر بالغ الوضوح. ولهذا فقد شرع الامبراطور الكسيوس في اتخاذ التدابير الضرورية بهدوء، من أجل تأمين المواد التموينية، وإقامة المستودعات على امتداد الطرق التي ستسلكها جيوش الفرنج، مع تنظيم الحراسة لمنع الفرنج من تخريب القرى وسلب السكان. وبالرغم من ذلك فقد حدثت مجموعة من الاشتباكات الصغرى بين جند الامبراطور الكسيوس وبين الفـرنـج، ولم يكـن بـوسـع الصليبيين مقـاومـة جيـوش الامبراطور المشهورة بحسن اعدادها وتجهيزها.

وأفاد الامبراطور من ذلك، ففرض على (جودفري ـ وبلدوين) [1] وكبار القادة أن يحلفوا له يمين الولاء، وأن يعترفوا به سيداً على كل ما يفتحونه من

---

(١) من المعروف أن قوات الحملة الصليبية الأولى قد انتظمت في خمسة جيوش:

أ ـ جيش المتطوعين من كل أوروبا ـ وتولى قيادته بطرس الناسك: (PIERRE L'ERMITE) مع وولتر المغلس: (GAUTHIER SANS AVOIR) وقد دمره المسلمون التركمان في نيقية.

ب ـ جيش اللورين والالامان ـ وهو أكبر الجيوش وتولى قيادته بودوان ـ دوهينّو BAUDOUIN DE HAINAUT وغودفردي ـ دوبويون GODEFROY DE BOUILLON.

ج ـ جيش فرنسا الشمالية: وتولى قيادته ـ كونت دوفير ماندوا COMTE DE VERMANDOIS ـ ودوق نورماندي DUC DE NORMANDIE.

د ـ جيش البروفانس ـ وتولى قيادته كونت تولز CONTE DE TOULOUSE ـ وأديمار دومونتي ADEMAR DE MONTEIL.

هـ ـ جيش النورمان في إيطاليا وصقلية، وتولى قيادته ـ بوهمند BOHEMONDE DE TARENTE وتنكرد دوهوتفيل ـ (TANCREDE DE HAUTEVILLE).

بلاد . وأن يسلموا لموظفي الامبراطور كل ما استردوه من بلاد - كانت أصلاً من بلاد الامبراطور ثم فتحها المسلمون -.

وجرى هذا القسم في يوم عيد القيامة (٢ - نيسان - ابريل - ١٠٩٧ م) وتلقى الصليبيون بعد ذلك هدايا كثيرة من الأموال. واحتفى بهم الامبراطور في مأدبة فاخرة.

لم يكن لدى الامبراطور الكسيوس سوى وقت قصير لمعالجة موقف جديد، فقد علم أن جيشاً مختلطاً من اتباع جودفري، الذين آثروا الرحيل عبر ايطاليا، قد وصلوا إلى الضواحي الواقعة بأطراف القسطنطينية، وقد أظهروا من الشراسة ما أظهره جودفري من قبل. فقرر الكسيوس اخضاعهم قبل أن ينضموا إلى جودفري، وأمكن له السيطرة على تحركاتهم بعد قتال قصير. ثم أمر بنقلهم بحراً إلى العاصمة حيث انحازوا إلى سائر الجماعات الصليبية الصغرى التي وصلت، بعد أن شقت طريقها في البلقان. وبذل الامبراطور كل ما عنده من كياسة، وأغدق الهدايا الوفيرة، كيما يحمل زعماءهم على أن يحلفوا له يمين الولاء والطاعة. ولما ارتضوا ذلك آخر الأمر، زاد الامبراطور في جلال هذه المناسبة، بأن دعا بلدوين وجودفري لشهود الاحتفال. فاشتد حنق زعماء الغرب، وزادت شراستهم وحدّتهم، إذ جلس أحدهم على عرش الامبراطور، وعندئذ انبرى بلدوين لتأنيبه ولفت نظره إلى أنه أصبح من أتباع الامبراطور، وطلب إليه أن يراعي تقاليد البلاد. غير أن هذا القائد صار يتمتم في غضب:

إذ كيف يجوز للامبراطور أن يجلس، على حين أن عدداً كبيراً من القادة الشجعان يظلون واقفين؟

ولما علم الكسيوس بهذه الملاحظة، بعد أن جرت ترجمتها له، طلب أن يتحدث إلى الفارس. ولما أخذ الفارس يتباهى ببسالته التي لم تنثلم في مبارزة فردية، تلطف الامبراطور معه، ونصحه بأن يلتمس خططاً أخرى عند لقائه مع الأتراك المسلمين.

تصور هذه الحالة وأمثالها تصويراً دقيقاً تلك العلاقات التي كانت قائمة بين امبراطور الروم البيزنطيين وبين قادة الفرنج الصليبيين وجندهم . ولا ريب أن

أولئك الفرسان الأحلاف القادمين من الغرب، اشتد تأثرهم بما للبلاط البيزنطي من الأبهة والعظمة، وبما اتسم به رجال البلاط من الطباع الرزينة والتصرفات المهذبة، مع الحرص على مراعاة المراسيم، غير أنهم نفروا من ذلك. وكان ما أصاب كبرياءهم من الجراح هو الذي جعلهم غلاظ الطباع، يميلون إلى المشاكسة، شأن الأطفال الشرسين.

يمكن الانتقال إلى صورة أخرى تمثل قوة من القوى التي كان لها دورها الكبير في الحملة الصليبية الأولى، وهي قوة النورمان في ايطاليا وصقلية. وهذه قوة لم تحفل في أول الأمر بدعوة البابا ايربان للحروب الصليبية، نظراً لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت فيما بينهم في جنوب ايطاليا، عقب وفاة روبرت جويسكارد، فالمعروف أن روبرت هذا كان قد طلق زوجته الأولى التي انجب منها بوهمند. وأوصى بدوقية ـ أبوليا ـ إلى ابنه روجر بورصا من زوجته الثانية سيجلجايتا. فأعلن بوهمند الثورة على أخيه روجربورصا، وعزم على أن يستخلص لنفسه اوترانتو (طارنت) في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة، وذلك قبل أن يلجأ عمهما أمير صقلية ـ روجر ـ إلى تسوية الأمور بينهما. ولم يعترف بوهمند بالهدنة التي فرضها البابا، فاستمر في العمل سراً وخلسة على مناهضة أخيه روجر بورصا. ثم حدث في صيف سنة ١٠٩٦م، أن اتفقت الأسرة الملكية كلها على أن تنزل العقاب بمدينة ـ أمالفي ـ الثائرة عليهم. وكانت المرسومات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قد صدرت فعلاً. واجتاز البحر جماعات صغيرة من الايطاليين من جنوب شبه الجزيرة نحو الشرق. ثم أدرك بوهمند أهمية الحركة الصليبية حين وصلت جيوش الصليبيين المتحمسة والقادمة من فرنسا، واستقرت في ايطاليا، حيث أدرك بوهمند عندها أن من مصلحته الافادة منها، لاسيما وأن عمه أمير صقلية ـ روجر ـ لن يسمح له مطلقاً بأن يضيف إلى أملاكه دوقية أبوليا. فرأى أنه من الخير له بأن يقيم مملكة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وما اتصف به الصليبيون الفرنسيون من الحماسة، قد أثار عدوى الحماسة إلى الجنود النورمان المرابطين أمام ـ أمالفي ـ. ولقي النورمان التشجيع من بوهمند، فأعلن أنه سوف يشترك في الحملة الصليبية، ودعا بوهمند جميع المسيحيين المؤمنين

للانضمام إليه. وخلع بوهمند أمام الجيش رداءه الأحمر الثمين، ومزقه قطعاً صغيرة، جعل منها صلباناً لقادته. وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه. وحذا حذوهم عدد كبير من أتباع أخيه واتباع عمه صاحب صقلية ـ روجر ـ الذي جأر بالشكوى من أن الحركة الصليبية قد سلبته جيشه.(١).

يظهر من ذلك أن الكنيسة قد نجحت ـ في فرنسا خاصة وربما بحكم مجاورتها للاندلس ـ بإثارة الحماسة لدى الجماهير من أجل الاشتراك في الحملة الصليبية الأولى. ولقد انضوت تحت راية الصليبية أمم شتى، وكل يبحث عن الحل لمشكلاته على حساب المسلمين وبلادهم: الفقراء أرادوها للحصول على الثروة، والامراء للحصول على اقطاعات وإمارات وممالك، والروم ـ البيزنطيين لازالة خطر المسلمين من الأتراك السلاجقة. فكم بلغ عدد الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى؟.

لقد تناقضت الروايات في تقويم الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية. وأشارت بعض المصادر إلى أن جموع بطرس الناسك قد ضمت بين صفوفها نحواً من عشرين ألفاً ـ فيهم عدد كبير من غير المحاربين. أما الجيوش الصليبية الرئيسة، وهي جيوش ريموند وجودفري، وشمال فرنسا فقد زاد عدد مقاتلي كل منها على عشرة آلاف، ونقص جيش بوهمند عن ذلك قليلاً. كما انضمت إلى هذه الجيوش جموع أخرى أقل عدداً» بحيث بلغ عدد الذين اجتازوا بلاد الروم البيزنطيين في طريقهم إلى بلاد الشام بين صيف ١٠٩٦ وربيع ١٠٩٧ م قد تراوح بين ستين ومائة ألف صليبي.

ومقابل ذلك، كان الموقف على الجبهة الإسلامية مثيراً للغاية، حيث كانت الصراعات الداخلية تمزق المجتمع الإسلامي تمزيقاً خطيراً. ولاسيما بين أهل السنة، وبين المتشيعين حكام مصر (الفاطميين). وكانت بلاد الشام هي مسرح الصراع، حيثُ كان يحاول كل طرف فرض سيطرته عليها. واستطاع جند السلطان ملكشاه ـ التركمان بقيادة تتش بالاستيلاء على حمص وطرابلس وسواها من مدن الشام: (سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩١ م). ولكن عسكر المستنصر بالله حاكم مصر تمكنت من إعادة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٢٠ ـ ٢٢٣ و ٢٤٣.

الاستيلاء على مدينة صور في السنة التالية كما بقيت القدس تحت حكم مصر. وفي سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. استطاع حكام مصر أن يفرضوا على حكام بلاد الشام - حتى حلب - سيطرتهم، والدعاء لهم على المنابر، وبقيت كل مدينة من مدن بلاد الشام مستقلة بحكمها وجيشها، وفي حرب مع المدن الاخرى - على نحو ما حدث سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. عندما سار أمير حلب رضوان بن تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق لمحاربة أخيه دقاق بن تتش والاستيلاء على دمشق. وكان هذا هو الموقف يوم وصلِ الفرنج في السنة التالية.

٢ ـ المسلمون في مواجهة الصدمة الأولى.

وصل بطرس الناسك وجيشه إلى القسطنطينية قبل بقية جيوش الفرنج. وعبر البوسفور إلى القسم الآسيوي. واقترح امبراطور الروم على بطرس أن ينتظر في موضعه وصول الجيوش الرئيسة للفرنج. ولكن جند بطرس لم يلتزموا بنصيحة بطرس. وبدأت جموع الالمان والايطاليين تحت امرة قياداتها بالمنافسة والسباق مع جموع الفرنسيين للإغارة على الأراضي الزراعية التي كانت تحت حكم الأتراك المسلمين، فنهبوا القرى، وطرقوا أبواب عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان ـ مدينة نيقية ـ فنهبوا القرى بالضواحي، واستاقوا ما صادفوه من الماشية والأغنام، وقتلوا السكان بوحشية بشعة ـ بمن فيهم المسيحيين ـ وقيل أنهم قاموا بشواء الأطفال على السفافيد. وخرجت من المدينة سرية من الجيش التركي لقتالهم: غير أنها ارتدت على أعقابها بعد قتال عنيف. ثم عاد الصليبيون إلى قاعدتهم ـ في كيفيتوت ـ حيث باعوا ما غنموه إلى رفاقهم وإلى البحارة البيزنطيين. وكان ما أحرزه الفرنسيون من الغنيمة الثمينة كافياً لإثارة شهية الألمان، فخرجت قوة منهم في أواخر أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٠٩٦ م، ومعهم عدد من القسس والأساقفة، وتجاوزوا في سيرهم مدينة ـ نيقية ـ. وانطلقوا للنهب حتى وصلوا إلى قلعة كبيرة حملت اسم ـ اكسير يجوردون ـ وحاولوا الإستيلاء عليها لما عرفوا أنها زاخرة بالمؤن من جميع الأنواع؛ ونجحوا في اقتحامها، وقرروا اتخاذها قاعدة لهم من أجل الإغارة على الأراضي المجاورة. ولما علم السلطان قلج أرسلان بذلك. وجه جيشاً لاسترداد القلعة التي كانت تحتل رعناً مرتفعاً. وتستمد ماءها من نبع يقع خارج الأسوار، ومن نبع بالوادي الذي يجري تحتها. واستطاع الجيش التركي أن ينزل الهزيمة بقوات كمين نصبه الفرنج. وطوق القلعة وحرّم حاميتها من الوصول إلى الماء. واستبد اليأس بالألمان بعد أن اشتد بهم الظمأ حتى أشرفوا على الهلاك. ولم تنفعهم نصائح القسس بالصبر، ففتحوا الأبواب بعد أن حصل قائدهم ـ رينالد ـ

على وعد بالإبقاء على حياته إذا تخلى عن المسيحية. وقتل كل من يرفض الدخول في الإسلام. وتقرر ارسال رينالد وأصحابه الذين اعتنقوا الإسلام إلى حلب وانطاكية وإلى خراسان أيضاً.

وصلت أنباء استيلاء الألمان على قلعة - اكسيريجوردون - إلى بقية قوات الصليبيين المقيمين في - كيفيتوت - ولكن أنباء استرداد القلعة لم تصلهم. وأشاع الأتراك بواسطة جواسيسهم أن قوة الألمان قد نجحت في احتلال - نيقية - ذاتها. وأنها أخذت في اقتسام الغنائم فيما بينها. وأدى ذلك إلى ما توقعه الأتراك المسلمون من حدوث اضطراب في معسكر كيفيتوت، حيث طلب الجند السماح لهم بالإسراع إلى نيقية، ولم يتمكن القادة من كبح جماح جنودهم. إلى أن جرى فجأة اكتشاف ما نزل بقوة الألمان في قلعة اكسيريجوردون - حيث قتل معظم أفراد القوة البالغ عددهم ستة آلاف جندي. وعندها تحولت الاثارة إلى ذعر. واجتمع قادة الجيش للتشاور فيما يفعلونه بعد ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية للحصول على معونة مادية. واشتدت ثائرة الجيش وحماسته للانتقام لما وقع في اكسيريجوردون. غير أن والتر المفلس حثّ زملاءه على انتظار عودة بطرس. وفي تلك الأثناء شاع أن الترك السلاجقة قد اقتربوا بجيوشهم من كيفيتوت. فاجتمع مجلس الحرب مرة أخرى، وقرروا بضغط من الجيش الثائر الخروج للقاء الأتراك المسلمين وتحرك الجيش الصليبي بأكمله من كيغيتوت عند بزوغ الفجر من يوم ٢١ تشرين الأول - اكتوبر - ١٠٩٦ م. وقد زاد عدد أفراده على عشرين ألف رجل. ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى. وسار الجيش على طريق نيقية عبر واد ضيق تكتنفه الغابات حتى وصل قرية دراكون التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن معسكر الفرنج في كيفيتوت.. واندفعت قوة الفرسان في المقدمة، وتبعها الجيش بدون نظام، وجلبة الجند وضوضاؤهم تسبقهم إلى بعيد. وفجأة انهالت السهام من الغابة فأصابت خيول فرسان المقدمة أو قتلتها؛ وسادت الفوضى والاضطراب، وسقط الفرسان عن ظهور الخيل. وأظهر فرسان الفرنج - أو بعضهم على الأقل - شجاعة فائقة في قتال المسلمين الذين انقضوا عليهم. ولكن الذعر هيمن على الجيش بصورة عامة، ولم تمض فترة طويلة

حتى شرع جيش الفرنج بكامله في التماس طريق النجاة ـ دون نظام ـ والفرار نحو معسكر كيفيتوت، فيما كان الترك المسلمون يطاردونهم حتى بلغوا معهم معسكرهم، ولم تحدث في المعسكر مقاومة كبيرة، ولقي كثير من جند الفرنج مصرعهم، وقتل معهم قِسَسُهُــمْ قبــل أن يتهيأ لهم الوقت للتحرك والسير. والتجأ فريق منهم إلى الغابات المجاورة، فيما هرع آخرون إلى البحر، ولم يفلت منهم إلا القليل ـ وأسر الترك المسلمون صبيان الفرنج وفتياتهم وجندهم الذين وقعوا في الأسر بعد أن انتهت الشدة الأولى من القتال. على أن ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل كانوا أحسن حظاً من الآخرين، إذ نجحوا في الوصول إلى قلعة مهجورة تقع على شاطىء البحر، وتجردت من أبوابها ونوافذها. غير أن اللاجئين الذين استمدوا من اليأس قوة، بادروا بإقامة التحصينات من أشجار الغابات المحيطة بهم، وتمكنوا من إيقاف هجمات المسلمين. وصمدت القلعة، غير أن كل شيء في سائر الجهات الأخرى كان قد انتهى في منتصف النهار. فملأت جثث القتلى الطريق ما بين موقع المعركة والبحر. وكان فيمن هلك والتر المفلس وعدد كبير من قادة الجيش وامرائه. واستطاع أحد الروم ـ البيزنطيين ـ الذين كانوا برفقة الجيش، أن يعثر على قارب في الماء. فأقلع به إلى القسطنطينية، وروى خبر المعركة إلى كل من بطرس الناسك والامبراطور البيزنطي الكسيوس الذي أصدر أمره على الفور بإرسال عدد من السفن الحربية لنقل قوات ضخمة وانقاذ من بقي من القوات. ولما وصلت قوات الروم، رفع الترك الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل. وحملت السفن من تبقى حياً من جيش الفرنج الصليبيين، وعادت بهم إلى القسطنطينية، حيث جرى انزالهم بالضواحي بعد أن نزع الأسلحة منهم.

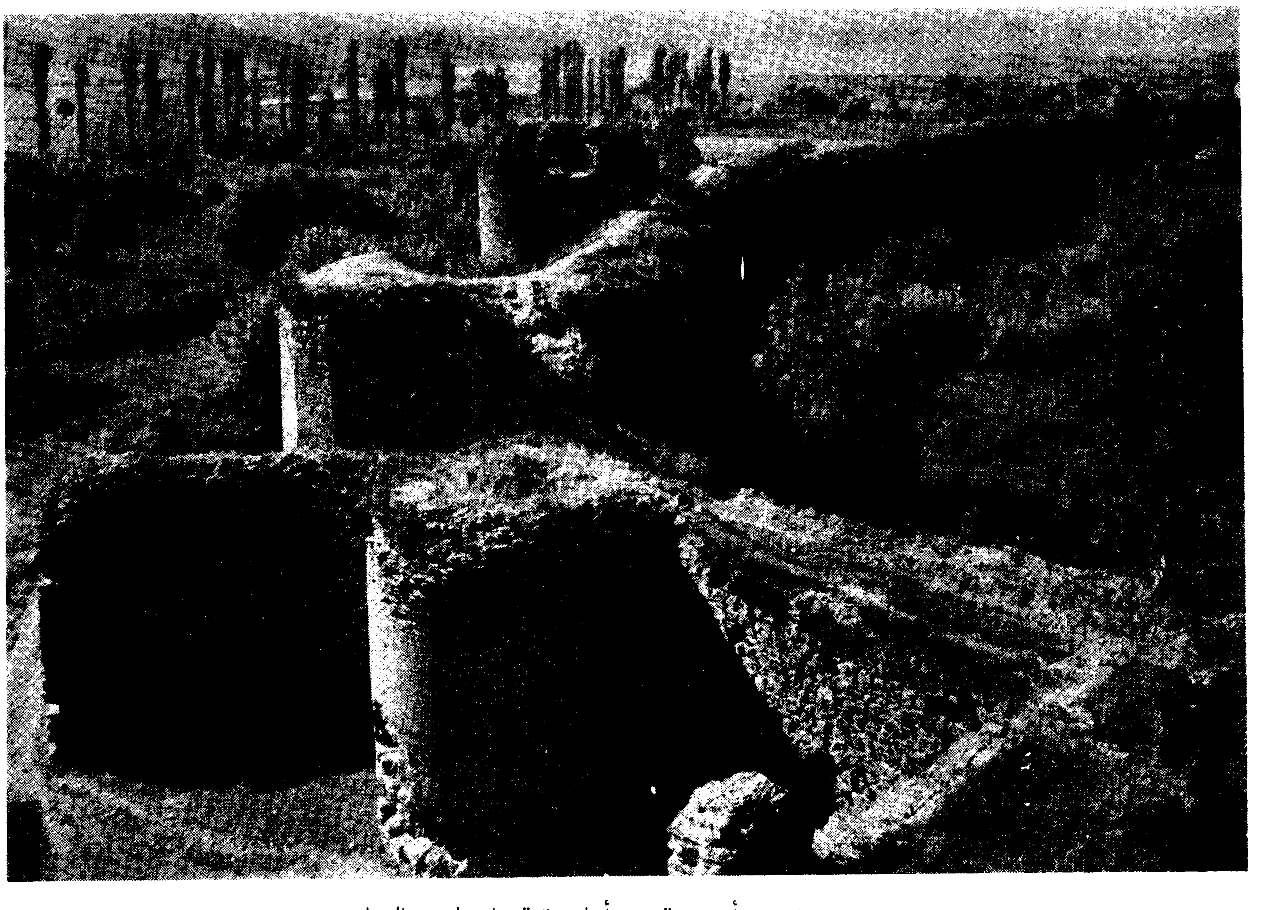
كانت هذه هي نهاية حملة الشعوب الصليبية. ولكن هذه النهاية لم تكن أكثر من بداية للملحمة الحملات الصليبية. فقد دمّر الأتراك المسلمون في آسيا الصغرى جيشاً واحداً، فيما كانت بقية الجيوش بعيدة عن مسرح الأحداث. ثم أخذت في الوصول تباعاً إلى المعسكر الذي أقامه لها الامبراطور البيزنطي ـ الكسيوس كومنين ـ في (بليكانوم) مع مطلع فصل الربيع من سنة ١٠٩٧ م. وكان جيش اللورين والألمان ـ بقيادة جودفري دوبويون ـ هو أول جيش وصل إلى معسكر الحشد، ولحق به

جيش النورمان الذي تولى قيادته (بوهمند دوتارنت). وكان لا بد لهذه الجيوش من أن تدين بالعرفان لامبراطور الروم الكسيوس، باعتباره السيد الأعلى للمسيحية - لما قدمه من دعم ومساعدة لجيوش الفرنج أثناء عبورها لبلاده، حيث كانت مستودعات التموين تقدم لها ما تحتاجه من الطعام والمساعدة طوال مسيرها من غرب بلاد الروم إلى شرقها. كما حرص ملك الروم على اعداد الأدلاء من أجل مرافقة جيوش الحملة أثناء مسيرها لقتال المسلمين. وقد غادر جيش اللورين - بقيادة أميره جودفري - قاعدته في بليكانوم وذلك يوم ٢٦ نيسان - ابريل - ١٠٩٧ (٤٩١ هـ) متوجهاً إلى (نيقوميديا)[١] حيث توقف فيها ثلاثة أيام بانتظار وصول جيش - بوهمند - الذي تولى قيادته - تانكرد - وانضم إليه بطرس الناسك ومن تبقى معه من جموعه. أما بوهمند فإنه مكث بضعة أيام في القسطنطينية ليدبر مع الامبراطور الكسيوس أمر امداد الجيش بالمؤن. وصحب الجيش الصليبي قوة من المهندسين البيزنطيين ومعهم أدوات الحصار. ثم قاد جودفري الجيش من نيقوميديا إلى - كيفيتوت - ثم انحرف جنوباً، مخترقاً الدرب الذي هلك فيه رجال بطرس، ولا زالت عظامهم تغطي مدخل الدرب وتمنع المرور فيه. وإذ خشي جودفري أن يلقى مصير من سبقه على هذا الدرب، فقد التزم بنصيحة امبراطور الروم، وأخذ باسباب الحذر والحيطة في سيره، فكان يدفع أمامه الكشافة والمهندسين لتطهير الدرب وتوسيعه، وتقرر وقتذاك تمييزه بإقامة سلسلة من الصلبان الخشبية، لتكون دليلاً للحجاج الذين يقدمون مستقبلاً. ووصل جودفري إلى (نيقية)[٢] يوم ٦ - أيار - مايو -. ووقف أمام المدينة التي اشتهرت منذ القرن الرابع الميلادي بقوة تحصيناتها، والتي امتدت أسوارها بطول أربعة أميال وقامت على حراستها وحمايتها مجموعة من الأبراج بلغ عددها ٢٤٠ برجاً، وقد دأب الروم البيزنطيين على صيانتها واصلاحها باستمرار حتى استولى عليها الأتراك

---

(١) نيقوميديا: (NICOMEDIE) هو الأسم القديم لمدينة ازميت: (IZMIT) أو مدينة الخوجة علي - حالياً - (KOUJA-ELI) وهي مدينة تركية تقع على بحر مرمره.

(٢) نيقية: (NICEE) وتعرف باسم ازنيك: (IZNIK) وهي مدينة في آسيا الصغرى - الأناضول - وقد اتخذها قلج أرسلان سلطان السلاجقة عاصمة له.



ازنيك ـ أو نيقية ـ. أول عقبة على طريق الصليبيين.

السلاجقة، وهي تقع على الطرف الشرقي من بحيرة أسكان، وارتفعت أسوارها الغربية من خلال المياه الضحلة، فكونت شكلاً خماسياً غير منتظم.

أقام جودفري معسكره ونظمه لحصار الجهة الشمالية من السور، وترك لجيش تانكرد مهمة اكمال الحصار من جهة السور الشرقي. وبقيت جهة السور الجنوبي حرة بانتظار وصول جيش ريموند. وكان معظم سكان نيقية من المسيحيين، إلا أنه توافرت لها حامية ضخمة من الأتراك المسلمين. وقد شعر قائد الحامية بالحاجة للامداد والدعم، فوجّه الرسل الذين وقع أحدهم في قبضة الفرنج الصليبيين، وطلب من السلطان دفع العساكر إلى المدينة من الأبواب الجنوبية قبل أن يكتمل تطويقها. ولكن ريموند وصل وجيشه يوم ١٦ - أيار - مايو - ١٠٩٧ م، ووزّع قواته أمام السور الجنوبي. ولم يمض يومان أو ثلاثة حتى انحاز إلى جيشه بوهمند وعساكره. وزادت كثافة قوات الجيش الصليبي بمن انضم إليه من النورمان والفرنسيين. وصار يعمل على أنه كتلة واحدة، على الرغم من أنه لم يكن للجيش وقتذاك قائد عام واحد. فكانت القرارات والأوامر تصدر عن الأمراء بعد اجتماعهم في هيئة مجلس. ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف خطير، وتحرك في تلك الاثناء الامبراطور الكسيوس إلى - بليكانوم ليكون في موقع متوسط بين عاصمته وبين نيقية.

عندما وصلت أول قوة تركية لنجدة حامية (نيقية) وجدت بأن الحصار قد اكتمل من جهة البحر، فاشتبكت لفترة قصيرة مع عسكر - ريموند - ثم انسحبت إلى موقع مشرف على معسكر الفرنج، وأخذت في انتظار وصول الكتلة الرئيسة للجيش بقيادة السلطان قلج أرسلان ذاته، وأثناء ذلك أصدر امبراطور الروم - الكسيوس - تعليماته إلى قائده - بوتوميتس - للاتصال بالحامية التركية في المدينة. وقام قائد الحامية التركية بتسهيل مهمة بوتوميتس، وإدخاله إلى المدينة. وجرت مفاوضات حول شروط الاستسلام، غير أن المفاوضات توقفت عندما علم قائد الحامية التركية بوصول جيش السلطان إلى ضواحي المدينة (يوم ٢١ - أيار - مايو). حيث حاول هذا الجيش اقتحام دائرة الحصار من جهة الجنوب. ودارت معركة ضارية استمرت طوال اليوم، وأسفرت عن وقوع خسائر فادحة في قوات الطرفين، غير أن جيش المسلمين لم ينجح

في بلوغ هدفه، فقرر السلطان قلج أرسلان الإفادة من ظلمة الليل للإنسحاب نحو الجبال، والتخلي عن محاولة فك الحصار بالقوة، بعد أن عرف ضخامة جيش الفرنج وقوته، وأرسل إلى قائد الحامية تعليمات للتفاوض مع الروم للإنسحاب وتسليمهم المدينة ـ إذا كان من المحال الاستمرار في المقاومة ـ.

حاول الفرنج تشديد الحصار بعد نجاحهم في منع قوات السلطان من الوصول إلى (نيقية) كما حاولوا في الأيام التالية نقب أحد الأبراج الواقعة إلى الجنوب. ونجح النقابون في حفر قاعدة هذا البرج، غير أن الحامية الإسلامية كانت تصلح في الليل ما يخربه الفرنج في النهار. وتبين للفرنج أن الحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة كانت تحصل على ما تحتاجه من المواد التموينية عن طريق البحيرة. فطلب الفرنج من الامبراطور البيزنطي ارسال السفن لمنع وصول الامدادات إلى المسلمين، فاستجاب الامبراطور لطلبهم وأرسل اسطولاً صغيراً بقيادة بوتـوميتس، وكلفه في الوقت ذاته بمعاودة الاتصال مع قائد الحامية المدافعة عن المدينة بهدف منع الفرنج من تخريب المدينة ونهبها والإساءة إلى رعاياه المسيحيين الذيـن كـانـوا بحمايـة المسلمين. وجـرت المفاوضات حول شروط التسليم. فيما كان الفرنج يعدون العدة للقيام بهجوم شامل حددوا موعده يوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ. وعندما أشرقت شمس هذا اليوم، شاهد الفرنج الصليبيون اعلام امبراطور الروم وقد ارتفعت على الابراج. ذلك أن الأتراك استسلموا أثناء الليل. ودخلت قوات الروم إلى المدينة ـ ومعظمها من البجناك ـ عبر الابواب المطلة على شاطىء البحيرة. ويظهر أن قادة الفرنج كانوا على علم بالمفاوضات، ولم يستنكروها، لأنهم رأوا أنه ما من حاجة بهم لاضاعة الوقت، وخسارة الرجال من أجل اقتحام مدينة لن يسمح لهم بامتلاكها. غير أنهم بقوا في جهل تام بالمراحل الختامية للمفاوضات. ولكن سائر العساكر أدركوا أنهم خدعوا، وأنه جرى صرفهم عن غنيمتهم، إذ كانوا يأملون في نهب كنوز نيقية، ولكنهم بدلاً من ذلك حرموا من دخول المدينة إلا بمجموعات صغيرة ـ لا يزيد عدد أفرادها على العشرة، وتحت المراقبة الصارمة لجهاز شرطة امبراطور الروم. وكانوا يأملون في الحصول على فدية ضخمة من النبلاء الأتراك، غير أنهم رأوا هؤلاء وهم ينقلون مع امتعتهم تحت حراسة

شديدة إلى القسطنطينية أو إلى حيث كان الامبراطور ينزل في بليكانوم. فاشتدت كراهية الصليبيين للامبراطور. على أنه خفف من حدة هذه الكراهية ـ إلى حدٍ ما ـ ما اشتهر به الامبراطور من السخاء، إذ بادر الكسيوس بإصدار الأوامر بأن يصرف فوراً لكل محارب صليبي منحة من المؤونة. كما دعا القادة الصليبيين إلى القدوم إلى بليكانوم ومنحهم مقادير كبيرة من الذهب والجواهر مما غنمه من أموال السلطان السلجوقي ـ قلج أرسلان ـ واستبدت الدهشة بهؤلاء القادة لرؤية اكداس الذهب التي كانت من نصيبه. ومقابل ذلك طلب الامبراطور الكسيوس إلى الفرسان الذين لم يحلفوا بعد يمين الولاء له، أن يبادروا إلى ذلك، فأذعن لطلبه عدد كبير من صغار السادة المقطعين، الذين لم يشأ أن يزعجهم بذلك عند اجتيازهم القسطنطينية. على أن الصليبيين صدمهم ما كان من معاملة الأمبراطور للأسرى الأتراك، إذ سمح لموظفي قصر السلطان وكبار القادة بافتداء أنفسهم. أما السلطانة ـ ابنة الأمير جكا ـ فجرى استقبالها في حفاوة بالقسطنطينية ـ. وكان لا بد أن تبقى بها حتى تصلها رسالة من زوجها، عن الموضع الذي تلحقه به. وتقرر إنفاذها مع أبنائها إلى السلطان دون دفع الفدية★.

على كل حال، ورغم ما أصاب الفرنج من خيبة الأمل في أنهم لم يستولوا بأنفسهم على مدينة نيقية، ولم يتمكنوا من اغتنام ثرواتها، فإن اعادة هذه المدينة لحكم الصليبيين ولو لمصلحة الروم، قد ملأهم غبطة وسروراً وأملاً في المستقبل. وأرسلت الرسائل إلى الغرب للإعلام بأن هذا الموضع المبجل قد عاد للمسيحية مرة أخرى. وتلقى الناس هذا النبأ وتناقلوه بحماسة شديدة، فقد أحرزت الحملة الصليبية أول نجاح لها. فأخذ الجند في التدفق على معسكر الفرنج. كما أن المدن الإيطالية التي بقيت حتى ذلك

★ لقد اعتبر امراء الغرب وقادتهم أن امبراطور الروم يتصرف بوجهين مختلفين، وأنه ليس مخلصاً لقضية الصليبيين. وذلك أنهم كانوا يجهلون مثل هذا النوع من السلوك الذي طالما أخذ به المسلمون في تعاملهم مع أسرى اعدائهم، ومع امرائهم وملوكهم خاصة، مما حمل هؤلاء على التعامل مع المسلمين بالنهج ذاته. لقد علم المسلمون ملوك الروم أدب الحرب وتقاليد الحرب التي كان يجهلها الغربيون وملوكهم وقادتهم.

الوقت شديدة الحذر، وبالغة الميل إلى التمهل في تقديم ما وعدت به من المساعدة، أخذت تظهر مزيداً من الاهتمام بالحركة الصليبية.

تحركت مقدمة الفرنج بعد مضي اسبوع واحد على احتلال نيقية (يوم ٢٦ حزيران - يونيو) وتبعتها بقية قوات جيش الفرنج في اليومين التاليين. وكان على هذه القوات أن تصل إلى (دوريليوم) [١] حيث كانت تتفرع منها الطرق نحو الشرق، سواء للوصول إلى وادي الفرات وأرمينيا، أو للوصول إلى أنطاكية عبر دروب جبال طوروس (اللكام). وقد تخلف عن الجيش عدد من الصليبيين الفرنج، فيهم جرحى معركة نيقية - حيث انضموا إلى جيش امبراطور الروم الذي ألحقهم بالقائد بوتوميتس بعد أن كلفه بإعادة تحصين نيقية، واقامة حامية قوية فيها.

عقد أمراء جيش الفرنج مؤتمراً لهم للتشاور في قرية لويكي عند الجسر القائم على النهر الأزرق. وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين أو مجموعتين المجموعة الأولى بقيادة بوهمند والمجموعة الثانية بقيادة ريموندكونت تولوز - وسار الجيش على الفور نحو دوريليوم، تتقدمه المقدمة ومعها الادلاء والمهندسين البيزنطيين.

عمل السلطان قلج أرسلان بعد فشله في انقاذ حامية عاصمته - نيقية - على الانسحاب نحو الشرق، لاعادة تنظيم قواته، وعقد صلحاً مع الأمير الدانشمندي الذي كان يحاربه من قبل، وذلك لمواجهة العدو المشترك، ثم توجه من جديد نحو الغرب، وقد حشد كل ما استطاع حشده من القوى. واتخذ مواقعه في واد قرب دوريليوم يوم ٢٠ حزيران - يونيو - استعداداً لمواجهة الفرنج الصليبيين الذين لا بد لهم من المرور عبر هذا الوادي لمتابعة تقدمهم ولم يلبث الجيش الصليبي أن تقدم وأقام معسكره في سهل - ساري سو - على الأغلب في مساء يوم ٢٦ حزيران - يونيو - وعند شروق الشمس من اليوم التالي، اندفع فرسان الترك من جانب مرتفع - كردجا شهر - المشرف على معسكر الفرنج وهم يكبّرون ويهللون، فوجدوا أن الفرنج قد أخذوا

(١) دوريليوم: (DORYLAEUM) وبالفرنسية: (DORYLEE) وباليونانية: (DORULAION) وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى - الأناضول - وتقع بالقرب من مدينة أسكي شهر حالياً وعلى بعد مسافة ميلين إلى الشمال الشرقي منها.

أهبتهم، وبادر غير المقاتلين منهم للتجمع في وسط المعسكر الصليبي حيث توافرت ينابيع المياه، وقامت النساء بمهمة نقل المياه للمحاربين في الخط الأمامي. وتقرر نصب الخيام فوراً، وصدرت الأوامر إلى الفرسان بالترجل عن خيولهم، فيما توجه الرسل إلى الجيش الصليبي الثاني لحثّه على التعجيل بالسير. وجمع قائد الجيش ـ بوهمند ـ قادته، وتحدث إليهم عن الاستعدادات لخوض قتال شديد شاق. وطلب إليهم أن يلتزموا في بداية الأمر خطة الدفاع. وأثناء ذلك كان الأتراك المسلمون قد أكملوا تطويق معسكر الصليبيين الذين تراءى لهم أن عدد الترك لا حصر له، واستخدم المسلمون على ما اعتادوا عليه من الأساليب التكتيكية، فكان رماتهم ينطلقون إلى الخط الأمامي، فيقذفون بسهامهم، ثم يتراجعون لإفساح المجال لغيرهم، وهكذا استمر انهيار سيل السهام على الفرنج. ولما ارتفع النهار، واشتدت الحرارة، شعر الفرنج بأنهم لن يتمكنوا من الصمود طويلاً. فقد نجح المسلمون الترك بتطويق المعسكرات فبات من المحال عليهم التماس طريق النجاة، ولم يعد أمامهم إلا الاسترقاق والأسر إذا ما اضطروا للإستسلام. ودفعهم الخوف من هذا المصير البائس للتعاهد على القتال حتى الموت. ولكن ما إن انتصف النهار حتى بدأت طلائع الجيش الصليبي الثاني في الوصول إلى ميدان المعركة. ولم يتمكن الأتراك المسلمون من منع الاتصال بين الجيشين الصليبيين. وانتقل الفرنج الصليبيون للهجوم على امتداد الجبهة الواسعة، وكانت قوة من الصليبيين بقيادة أسقف لوبويه ـ أدهيمر ـ قد انفصلت عن كتلة الجيش الرئيسة، وصحبت الأدلاء والكشافة، وشرعت في التسلل عبر الشعاب والممرات الجبلية، حتى إذا ما وصلت إلى مؤخرة جيش الأتراك، بوغت هؤلاء مباغتة أذهلتهم وحملتهم على الفرار، وتحطمت مقاومة الأتراك، ولم يلبث أن شرع جيشهم بالفرار إلى الشرق، وتخلوا عن خيامهم ومعسكرهم الذي ضمّ سرادقات السلطان والامراء، بما ذخرت به من الثروة والغنيمة. واستولى الفرنج على ذلك كله. وانتصر الفرنج انتصاراً حاسماً دفعوا ثمنه غالياً. فقد سقط على أرض المعركة عدد كبير من أمرائهم وفرسانهم. مما أرغمهم على الاعتراف بشجاعة الأتراك المسلمين والاعجاب ببطولتهم وكفاءتهم. وذهب بعضهم إلى وصفهم بأنهم:

«من أروع العناصر وأكثرها شجاعة ـ لو كانوا مسيحيين».

أما السلطان قلج أرسلان، فإنه تابع انسحابه بقواته نحو الشرق بعد أن أدرك أنه غير قادر على ايقاف الفرنج الصليبيين. والتقى أثناء انسحابه بقوات من الترك الذين قدموا من سوريا للاشتراك في المعركة، فشرح لهم أن ما لدى الفرنج من الجند والقوة هو أكبر بكثير مما كان يتوقعه. ولجأ وجيشه إلى التلال بعد أن دمروا المدن والقرى التي في طريقهم حتى لا يجد فيها الفرنج الصليبيون ما يقتاتون به عند تقدمهم★

★ ★ ★

أعاد الجيش الصليبي تنظيم قواته بعد معركة دوريليوم، وأخذ قسطه من الراحة، ثم استأنف مسيره يوم ٣ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) وقد حرص على أن يتقدم على شكل رتل متصل حتى يتجنب ما سبق أن تعرض له من الخطر في دوريليوم. وأخذ يشق طريقه صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول. وتعرض الجند لصعوبات جمّة بسبب أدوات الحرب الثقيلة التي كانوا يحملونها، واجتيازهم لأقاليم مقفرة موحشة. علاوة على صعوبة العثور على التموين والمياه في أقاليم عمل الأتراك المسلمون على تخريبها وتدمير مواردها الحياتية، إلى أن وصلوا إلى قونية في منتصف شهر آب ـ أغسطس ـ. وبعد استراحة قصيرة تابع الجيش الصليبي سيره حتى وصل إلى (هرقلة) حيث تعرض لهجوم صغير شنّه الأتراك ـ الدانشمنديون ـ على شكل اغارة، انسحب بعدها الأتراك «وومض في السماء مذنّب مؤذناً بانتصار الصليبيين».

وعقد قادة جيش الفرنج مجلساً لهم في هرقلة تقرر فيه أن تسير الكتلة الرئيسة للجيش إلى انطاكية على محور قيصرية ـ كومانا ـ كوكسن أو جكشن

★ قتل قلج أرسلان بعد ذلك سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م وذلك بعد هزيمته في معركة مع خصمه الدانشمندي ـ جاولي مسقاوو ـ وكان جيشه يضم خمسة آلاف مقاتل بينما كان جيش جاولي يضم أربعة آلاف مقاتل. ويظهر ذلك ضعف كافة القوى المتصارعة بالمقارنة مع ما حشده الفرنج الصليبيون من القوى.

حالياً ـ مرعش ـ بينما قرر تانكرد وبوهمند السير على محور آخر للوصول إلى ممرات طوروس.

استقبل الأرمن جند الصليبيين في كل مكان بالحفاوة البالغة والترحاب الكبير. وهذا مما ساعد جيش الفرنج الصليبيين على بلوغ أهدافه دون صعوبات ومشاق، ومكنه من القضاء على إغارات مجموعات التركمان المتفرقة. والمعروف أن بلدوين البولوني كان قد أقام صداقات مسبقة مع زعماء الأرمن. كما كان هؤلاء الزعماء، وخاصة أمير الرها ـ توروس ـ وصهره أمير ملطيه ـ جبريل ـ قد أوفدوا إلى روما رسلاً للحصول على دعم البابا وتأييده، وها هو الدعم يصل على شكل حملة صليبية ضخمة، وظن الأرمن أن اخوانهم في الدين سيقدمون لهم المساعدة للاستقلال بأمورهم، ولمقاومة هيمنة الأتراك المسلمين وقد أفاد بلدوين من ذلك، فتحرك من هرقله بقوة صغيرة (مائة فارس ومائتي راجل) وتبعه تانكرد بقوة صغيرة أيضاً (خمسمائة فارس وألفي راجل ـ مشاة). وبعد مسيرة صعبة وشاقة، وصل بلدوين إلى الرها حيث استقبله توروس وتبنّاه. ومنحه سلطات واسعة، ولكن ما لبث بلدوين أن طمع بالحكم، ودبر مؤامرة قتل فيها توروس. وشكل مجلساً من الفرنج للحكم، واستبعد الأرمن من مراكز السلطة وعاملهم باحتقار مما دعاهم للثورة التي تمكن بلدوين من إجهاضها في مهدها. وقتل المشتركين فيها. ولم يعد الندم يفيد الأرمن شيئاً، لقد استقدموا اخوانهم في الدين لنصرتهم على المسلمين. وها هم يشعرون بالحنين لتلك الرابطة التي كانت تربطهم بالمسلمين. وزاد الشعور بالتباعد بين الأرمن وبين هؤلاء الفرنج القادمين من الغرب، والذين ما إن علموا بما حققه بلدوين من النجاح في إقامة أول دولة صليبية في الرها، حتى أسرع عدد كبير منهم بالتخلي عن حصار انطاكية والإسراع إلى الرها، حيث كان بلدوين يغدق عليهم الأموال والاقطاعات ليدعم مركزه وقوته. ولو كان ذلك على حساب الأرمن حلفاء الفرنج الصليبيين وأنصارهم. وشرع بلدوين بالعمل لتوسيع حدود امارته. وكان لا بد له من الاصطدام بالمسلمين في الإمارات المجاورة لإمارة الرها.

٢ ـ الفرنج في بلاد الشام.

أقام الفرنج على حصار أنطاكية فصل الشتاء (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨ م). واشتد بهم الضيق حتى وصلوا إلى مرحلة اليأس من امكان اقتحام المدينة التي أتقن أميرها ـ ياغي سيان ـ الدفاع عنها وحصنها وأعدها اعداداً رائعاً غير أن خيانة أحد الأرمن واسمه زراد أو بروز به ـ كما يذكره ابن الأثير (وفيروز كما ذكره تاريخ الحروب الصليبية) وهو رجل اعتنق الإسلام حديثاً على ما يظهر أو تظاهر باعتناقه ووصل إلى مرتبة جيدة في جيش ياغي سيان ـ اتصل باخوانه السابقين في الدين، وساعدهم على اقتحام المدينة وجرت مذبحة رهيبة حتى لم يبق في المدينة أحد من المسلمين★

أقام الفرنج بانطاكية، لتنظيم أمورها، ولحل مشكلة خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية، ثم ارتحلوا عنها يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٠٩٨ م. ووصلوا بعد أربعة أيام إلى (معرة النعمان) فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية، ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سـور المدينة، ووقع القتال عليه، فلم يضر المسلمين ذلك، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار، امتنعوا بها، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه، فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور، ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلالم، فلما علوه تحير المسلمون، ودخلوا دورهم، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف. وسبوا السبي الكثير، وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً،

★ انظر القسم الثاني من الكتاب (الحصون والقلاع ـ انطاكية) والكامل في التاريخ ابن الأثير احداث سنة ٤٩١ و ٤٩٢ و ٤٩٣ هـ ـ وتاريخ الحروب الصليبية ١/٣٠٣ ـ ٣٧٠.

وساروا إلى عرقة، فحصروها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها، وراسلهم صاحب شيزر ـ منقذ ـ فصالحهم عليها. وساروا إلى حمص، وحصروها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها.

كان حكام مصر ـ الفاطميون ـ يعتقدون أن باستطاعتهم التفاهم مع الفرنج الصليبيين للعمل معاً ضد الأتراك المسلمين ـ أهل السنة ـ. كما كان الامبراطور البيزنطي الكسيوس قد نصح الفرنج ـ مذ وصلوا إلى القسطنطينية ـ بالسعي للوصول إلى اتفاق مع الفاطميين في مصر ـ باعتبارهم أشد الناس عداء للترك، ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين، وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية، والراجح أن الفرنج الصليبيين لم يأخذوا بهذه النصيحة في بداية الأمر، غير أنه حدث في أوائل فصل الربيع من سنة ١٠٩٨م (٤٩٢هـ) أن وصلت سفارة مصرية إلى معسكر الصليبيين أمام انطاكية، أرسلها كبير وزراء الخليفة الطفل المستعلي ـ الأفضل ـ وتقدمت السفارة بعرض لاقتسام الامبراطورية السلجوقية، فيحوز الفرنج شمال بلاد الشام، بينما تحصل مصر على فلسطين، ويظهر أن الوزير الأفضل قد اعتبر الصليبيين مثلهم مثل العساكر المرتزقة الذين يعملون في خدمة أمبراطور الروم الكسيوس، فافترض أن هذا التقسيم الذي قام على أساس ما كان معروفاً من وضع الأمور في القديم، قبل غزوات الترك المسلمين، سوف يلقى قبولاً تاماً. وقد استقبل امراء الغرب سفراء الأفضل بالمودة والحفاوة، ولكنهم لم يلتزموا بتبني أي موقف خاص، ومكث المصريون في المعسكر الصليبي بضعة أسابيع، عادوا بعدها إلى مصر، ومعهم سفارة صغيرة من الفرنج وقد حملت معها الهدايا الوفيرة ـ جاء معظمها مما غنمه الفرنج من بلاد المسلمين. واستخلص الصليبيون من المفاوضات ما يعود عليهم من المزايا والفوائد، من خلال تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية للمضي في هدفهم من أجل الوصول إلى القدس.

كانت القدس تحت حكم الأمير سقمان ابن أرتق التركماني، التابع لأمير دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان. فلما ظفر الفرنج بالأتراك على انطاكية، وقتلوا فيهم،

ضعف الترك وتفرقوا، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا إليهم ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي، وحصروه، ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجنيقاً، فهدموا مواضع من أسوار القدس، وقاتلهم أهل البلد، فدام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، ثم دخل المصريون القدس بالأمان، وملكوه في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٥ م). وانسحب سقمان وايلغازي ابنا ارتق ومن معهما إلى دمشق، ثم ساروا إلى الفرات. واستناب المصريون لحكم القدس رجلاً اسمه افتخار الدولة. ولكن ما إن مضت سنتان ونيف حتى وصل الفرنج الصليبيون إلى القدس - بعد أن حصروا في طريقهم عكا فلم يقدروا عليها - وحصروا القدس نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من جهة الشمال - ضحوة النهار من يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة (١٠٩٨ م) وركب الناس السيف. وأصبحت القدس في قبضة الفرنج★.

لم يكن هذا ما يتوقعه الحكم الفاطمي في مصر، ولهذا فعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء الفرنج على القدس، وطرد الحامية المصرية منها، وذبح أهلها. جمع أمير الجيوش الأفضل جنده وحشد قواته وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم. فأعادوا الرسول بالجواب، وعجلوا بالمسير في أثره. وطلعوا على المصريين عقيب وصول الرسول. ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم ولا من حركة، ولم يكونوا على أهبة القتال. فتنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم. وأعجلهم الفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا ما في معسكرهم من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان. ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً. فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه، وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر. ونازل الفرنج عسقلان، وضايقوها، فبذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار - وقيل عشرين

★ انظر القدس في الفصل الثاني - الحصون والقلاع - وانظر قراءات في آخر الكتاب (القدس في يومين مشهودين).

ألف دينار، ثم عادوا إلى القدس، ليعيدوا تنظيم أمورهم، وليعملوا على تنظيم إدارة البلاد التي احتلوها. واتفقوا على إقامة مملكة في القدس ـ وتم اختيار ـ جودفري ـ ليكون أول ملك لمملكة القدس. ولو أن جودفري تظاهر بالامتناع عن اتخاذ لقب ملك، واكتفى بلقب حامي القبر المقدس.★ وهكذا نجح الفرنج في إقامة مملكة لهم في القدس ملكها جودفري، مع إقامة إمارة في الرها بحكم الأمير ـ الكونت بلدوين ـ وإمارة ثالثة في انطاكية أميرها بوهمند.

وكان ذلك هو بداية الصراع لا نهايته. فقد أخذت كل إمارة في التوسع على حساب بلدان المسلمين، وكان لا بد من الصدام بقوى المسلمين المتفرقة، والتي استطاعت في كثير من الأحيان احراز انتصارات مثيرة وذلك على نحو ما حدث سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) حيث كان حاكم ملطيه الأمير جبريئيل الأرمني قد طلب من أمير انطاكية بوهمند أن يدعمه لمقاومة أمير سيواس الأمير الدانشمندي غازي جشتكين (أو أنوشتكين). وكان من الطبيعي أن يعمل الأمير جبريئيل على طلب الدعم من بوهمند الذي تقع إمارته على مسافة بعيدة، وألا يطلب مثل هذا الدعم من أمير الرها المتاخم لحدود امارته، نظراً لما ظهر من أطماع أمير الرها بلدوين، ولما قام به من أعمال ضد أمير أرمينيا السابق ـ توروس ـ بصورة خاصة وضد الأرمن بصورة عامة. وعلى كل حال، فقد رحّب ـ بوهمند ـ بهذا الطلب الذي يفسح له المجال لمنافسة أمير ملطية في نفوذه، فتولى قيادة خمسة آلاف من الرجاله★ وهو يعتقد أنه يستطيع أن يقهر الترك بقوة صغيرة العدد، فسار دون اكتراث، وارتقى التلال التي تفصل ملطية عن وادي نهر أقسو. حيث اصطدم بأمير الدانشمند الذي كان قد تربص له وقواته بذلك الموضع فانهزم بوهمند ـ بيمند ـ وأسر. ثم وصل من البحر سبعة قمامصة ـ جمع

★ انظر الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٤٩٣ هـ ـ ويذكر أن تاريخ الحروب الصليبية قد أنقص من هذا العدد على نحو ما جرت عليه عادة المستشرقين وذلك للانتقاص من قيمة النصر، حيث ورد فيه ما يلي: «لم يصطحب ـ بوهمند ـ معه إلا ثلثمائة فارس وأتباعهم من الرجالة» تاريخ الحروب الصليبية: ٤٥٣/١. أما عن قائد المعركة المسلم. فقد ذكر عنه ما يلي: «هو كمشتكين بن الدانشمند طايلو. وقيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلماً للاولاد».

كونت ـ من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند، فاتوا قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فيها اسمعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنج، وجعل له كميناً وقاتلهم، وخرج الكمين عليهم، فلم يفلت أحد من الفرنج ـ سوى ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها، وأسر صاحبها. ثم خرج إليه عسكر الفرنج من انطاكية فلقيهم وكسرهم. وكانت هذه الوقائع في شهور قليلة. وبقي صاحب انطاكية ـ بيمند ـ في أسر الدانشمند حتى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) حيث أطلق الدانشمند سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار، وبشرط اطلاق سراح ابنة أمير انطاكية السابق ـ ياغي سيان ـ. فلما عاد بيمند إلى انطاكية قويت نفوس أهلها الفرنج، ولم يكد بيمند يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وما جاورها يطالبهم بالاتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند.

تابع الفرنج الصليبيون تنفيذ مخططاتهم التوسعية، وأعمال الابادة للمسلمين في كل مكان، فعندما فتح الفرنج مدينة سروج التابعة لإمارة الرها (سنة ٤٩٤ هـ) قتلوا أهلها ونهبوا ما فيها. وعندما فتحوا طرطوس (أو أنطرطوس) وهي من أعمال طرابلس، قتلوا من بها من المسلمين (سنة ٤٩٥ هـ) وحاولوا فتح حمص في هذه السنة أيضاً فعجزوا عن ذلك.

أما على جبهة الجنوب، فقد استمر الفرنج في توسعهم فملكوا (سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية واللاذقية. أما طرابلس فقد بقيت تحت الحصار، ولم يبق للمصريين غير قيسارية. مما أثار حاكم مصر. فأرسل أمير الجيوش ـ الأفضل ـ جيشاً بقيادة أحد مماليك أبيه ـ واسمه سعد الدولة ويعرف بالطواشي ـ لقتال الفرنج الصليبيين، فاصطدم بهم في موضع بين الرملة ويافا ـ وكان جيش الفرنج بقيادة مقدمهم بلدوين ـ بغدوين ـ وتصافوا واقتتلوا، وحملت الفرنج حملة صادقة فانهزم المصريون، وتردى فرس سعد الدولة، فسقط سعد الدولة ميتاً أثناء انهزامه. وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين. فأرسل الأفضل بعده جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالي، فالتقى بالفرنج بيازوز قرب الرملة، فانهزم الفرنج

وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين. فلما رأى بلدوين شدة الأمر، خاف من القتل أو الأسر، وألقى نفسه في المروج، واختفى فيها، فلما ابتعد المسلمون، خرج من مخبئه إلى الرملة. وسار شرف المعالي بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه سبعمائة من أعيان الفرنج - وفيهم بلدوين الذي هرب متخفياً إلى يافا عندما وصل جيش المعالي بن الأفضل - وقاتل ابن الأفضل من بقي خمسة عشر يوماً ثم أخذها، فقتل منهم أربعمائة صبراً، وأسر ثلثمائة فنقلهم إلى مصر. ثم اختلف أصحابه في مقصدهم، فقال قوم نقصد القدس ونتملكه، وقال قوم نقصد يافا ونملكها. فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة القدس، فندبهم بلدوين للغزو، فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي، فلم يكن يقوى بحربهم، إلا أن الفرنج هالهم ما شاهدوه من قوة تحصينات عسقلان، وخافوا من هجوم ليلي يشنه عليهم المسلمون، فانسحبوا إلى يافا، وعاد الأفضل إلى أبيه في مصر. وفي السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) خرج الفرنج من الرها، وافترقوا فرقتين، وأغاروا على الرقة وقلعة جعبر في يوم واحد. واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بين أيديهم من المسلمين. أما في الجنوب، فقد نجح الفرنج بالاستيلاء على جبيل. ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وأخذوا أموالهم، ثم استولوا على عكا وملكوها بالسيف، قهراً، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. أما حاكمها فقد رجع إلى مصر.

قد يكون من طبيعة الأمور في مراحل الانهيار التي تنتاب الشعوب أحياناً أن تختلط الأمور بعضها ببعض، وأن تضيع القيم، فيحاول الخصوم المتنافسون الاستعانة بالاعداء ضد الأصدقاء.

وهذا ما حدث في هذه السنة (٤٩٧ هـ) عندما توفي حاكم دمشق وأميرها دقاق بن تتش بن ألب أرسلان، فتولى قائد الجيش - الأتابك طغتكين - الوصاية على ابن دقاق الطفل، وطمع عم الطفل - بكتاش بن تتش - بحكم دمشق، فقصد بعلبك وجمع الرجال وانضم إليه حاكم بصرى الأمير أيتكين الحلبي، وسارا إلى حوران، ولحق بهما كل من يريد الفساد. واتصلا بملك القدس بغدوين - بلدوين - فسار إليهما واجتمعوا واتفقوا، غير أن بكتاش وايتكين لم يريا من بلدوين غير التحريض على

الافساد في أعمال دمشق وتخريبها. فلما يئسا من نصره عادا من عنده، وتوجها إلى الرحبة (الميادين حالياً) فملكها بكتاش. واستقام أمر طغتكين بدمشق، وأحكم الأمر، وأحسن إلى الناس، وبثّ فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً. وتكررت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبين عسكر ملك القدس بلدوين ـ بغدوين ـ فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. فلما كانت سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م جمع أمير دمشق ـ طغتكين ـ جيشه وسار به لتدمير حصن كان قد أقامه بلدوين بين بلاده وبين دمشق للإغارة منه على أقاليم المسلمين. فتصدى له أمير الجليل بقواته، واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق. فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به. فقال طغتكين لجنده: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجالة نفوسهم، وصعدوا إلى الحصن وضربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم. وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي. وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس. ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل. وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً. فزين البلد أربعة أيام. وخرج منها إلى رفنية وهو من حصون الشام وقد تغلب عليه الفرنج وصاحبه ابن اخت صنجيل ـ سانت جيل الكونت ريموند ـ الذي كان مقيماً على حصار طرابلس، فحصره طغتكين وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج. وشعر ـ طغتكين ـ أنه بات قادراً على تصفية الحساب مع صاحب بصرى أيتكين الحلبي الذي تعاون مع بكتاش بن تتش ودفعه للتحالف مع ـ أعداء الدين ـ من أجل العمل ضد دمشق ـ على نحو ما سبق ذكره ـ. فسار طغتكين بجيشه إلى بصرى وحصرها، فهادنه أهلها واستمهلوه لتسليم البلد إليه، فوافقهم حتى إذا ما حان الموعد المحدد، تسلم طغتكين بصرى، فأحسن إلى أهلها، ووفى لهم بما وعدهم، وبالغ في إكرامهم، وكثر الثناء عليه والدعاء له، ومالت النفوس إليه وأحبوه.

جرى الصراع على جبهة الشمال بصورة مشابهة لما كان عليه في جبهة الجنوب. فقد تولى أمير انطاكية طنكري ـ تانكرد ـ قيادة جيشه، وسار به إلى حصن أرتاح وعمل

على حصره ـ وبه نائب أمير حلب رضوان بن تتش. وضيق الفرنج على المسلمين، فأرسل نائب الأمير بحصن ارتاح إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه، ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة، وسبعة آلاف من الرجالة منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة، فساروا حتى وصلوا إلى قنسرين وبينهم وبين الفرنج قليل. فلما رأى طنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد رضوان أن يجيب بالموافقة، ولكن اصبهبذ صباوو منعه من ذلك فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الفرنج من غير قتال، ثم قالوا نعود ونحمل عليهم حملة واحدة، فإن كانت لنا وإلا انهزمنا. فحملوا على المسلمين، فلم يثبت المسلمون وانهزموا وقتل منهم وأسر كثير، وأما الرجال ـ المشاة ـ فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلهم الفرنج، ولم ينج إلا الشريد فأخذ أسيراً وهرب من في أرتاح إلى حلب وملكه الفرنج (سنة ٤٩٨ هـ).

كان أمراء المسلمين يخوضون حروبهم ـ بعضهم ضد بعض ـ بحثاً عن النفوذ والسلطة أحياناً، وتحت غطاء الصراع المذهبي بين المتشيعين في مصر وأهل السنة في أحيان أخرى، وقد جاء الآن عامل جديد هو الصراع ضد الغزاة ـ الفرنج الصليبيين، ففرض وجوده بقوة، وأيقظ الوعي لدى جماهير المسلمين، ولدى امرائهم أيضاً، على الواقع الجديد، حيث ظهرت الحاجة لحشد قوى المسلمين ضد العدو المشترك. وكان لا بد ـ على ما يظهر ـ من انقضاء فترة زمنية للتحول الكامل، والارتفاع عن مستوى الصراعات المحدودة والعقيمة ـ بين المسلمين بعضهم ضد بعض ـ لمجابهة الخطر الأكثر تهديداً، والأكثر الحاحاً. غير أن بعض امراء المسلمين استمر في مواقعه القديمة، واتخذ من العامل الجديد ذريعة هي حشد القوى ضد العدو المشترك: وذلك للاستيلاء على ممتلكات الأمراء المسلمين المناوئين له.

وهذا ما ظهر أيضاً سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م. عندما نجح أمير حلب ـ رضوان ابن تتش ـ في حشد قواته للانتقام لهزيمته السابقة، وانضم إليه الاصبهبذ صباوو، وأمير

سنجار ألبي بن أرسلان تاش، وأمير حامية بغداد ايلغازي بن أرتق. فقال لهم ايلغازي ابن أرتق:

« الرأي هو أن نقصد بلاد الموصل وما والاها - والتي كانت تحت حكم جكرمش والذي كان يرتبط بصلة المصاهرة مع أمير سنجار ألبي بن أرسلان - فنملكها، ونتكثر بعسكرها والأموال - لقتال الفرنج). ووافقه ألبي، فسار إلى نصيبين في عشرة آلاف فارس. وكان جكرمش قد جعل فيها أميرين من أصحابه في عسكر، فتحصنوا بالبلد وقاتلوا من وراء السور، فأصاب سهم ألبي بن أرسلان، فجرح جرحاً شديداً، فانسحب إلى بلده سنجار. وأثناء ذلك استطاع جكرمش حشد قواته وإقامة عسكره في ظاهر الموصل واستعد للحرب. وعمل جكرمش في الوقت ذاته على استخدام الأساليب الديبلوماسية لمجابهة الموقف، فأرسل الرسائل إلى كبار قادة الأمير رضوان، فاستمالهم. كما أرسل رسائل إلى أصحابه بنصيبين للقيام بخدمة رضوان بن تتش وتأمين متطلبات جيشه والاحتراز منه في الوقت ذاته. ثم كتب إلى رضوان ذاته رسالة جاء فيها: « لقد تعرضت للحصار من قبل، وتمكنت من التغلب عليه. واقترح عليكم القاء القبض على ايلغازي الذي عرفت أنت وغيرك فساده وشرّه. وأنا معك ومعينك بالرجال والأموال والسلاح ». ولم يكن الأمير رضوان يطمح إلى ما هو أكثر من ذلك. فعمل على استدعاء ايلغازي، وقال له:

« هذه بلاد ممتنعة، وربما استولى الفرنج على حلب. والمصلحة هي في مصالحة جكرمش واستصحابه معنا. فإنه يسير بعساكر كثيرة ظاهرة التجمل ونعود إلى قتال الفرنج، فإن ذلك مما يعود باجتماع شمل المسلمين ».

فقال له ايلغازي وقد قويت نفسه بكثرة من اجتمع عنده من التركمان: « إنك جئت بحكمك، وأنت الآن بحكمي، لا أمكنك من المسير بدون أخذ هذه البلاد. فإن أقمت وإلا بدأت بقتالك ». غير أن الأمير رضوان كان قد اتخذ استعداداته، فأمر بالقاء القبض على ايلغازي، وعندما حاول جنده التركمان التمرد، ولكن حركتهم فشلت فتفرقوا. وعاد رضوان إلى حلب. وعندما احتاج إلى الدعم وأرسل إلى

جكرمش يطلب إليه الوفاء بالوعد، وارسال جيش لقتال الفرنج، راوغ جكرمش بالإجابة وامتنع عن ارسال جيشه ـ للمحافظة على حكمه.

أفاد الفرنج من ذلك، فتمكنوا من الاستيلاء على (حصن أفامية). كما أفاد ملك الروم من ذلك. فخرج بجيشه من القسطنطينية ووصل إلى عمورية وملطية، وقتل في غزاته مائة ألف من المسلمين. وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يسأله الصلح. وقام ألب أرسلان بعقد هذا الصلح الذي تضمن أن يقدم الخليفة لملك الروم مائة ألف دينار وأربعة آلاف ثوب من مختلف الأصناف وثلثمائة رأس من البغال.

لقد حاول أمراء المسلمين في هذه الفترة الانتصار بالفرنج في قتالهم بعضهم ضد بعض. مع الإفادة من التناقضات والخصومات التي ظهرت بين الفرنج من جهة وبينهم وبين الروم من جهة أخرى.

وعلى سبيل المثال، فقد وقعت حرب بين الروم وبين أمير انطاكية بيمند ـ بوهمند ـ (سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م) ودارت معارك طاحنة انتهت بانتصار الروم على الفرنج. وبعد سنتين (أي في سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م). سار أمير التركمان جاولي سقاوو من الموصل بعد أن استولى عليها، وقد قرر الاستيلاء على حلب. فما كان من أمير حلب رضوان بن تتش إلا أن كتب إلى أمير انطاكية ـ تانكرد ـ:

«يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع، ويحذره منه، ويعلمه أنه على قصد حلب، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام. وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه».

فأجابه طنكري ـ تانكرد ـ وخرج من انطاكية بجيشه وأرسل إليه رضوان ستمائة فارس للقتال معه. فلما علم جاولي بذلك أرسل إلى الكونت صاحب الرها يستدعيه لمساعدته. فلحق به صاحب الرها وهو على منبج. ودارت معركة انتصر فيها جيش انطاكية: «وقتل من المسلمين خلق كثير».

هكذا، حدث نوع من التعاون أو التحالف بين أمير انطاكية تانكرد وبين أمير حلب رضوان، ومثله بين أمير الموصل وأمير الرها. وفي هذه السنة ذاتها (٥٠٢ هـ =

١١٠٨ م) حدثت هدنـة أيضاً بين أمير دمشـق طغتكين وملـك القـدس بغـدويـن ـ بلدوين ـ بعد حرب شديدة بين جيشيهما ، فقد سار طغتكين إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت ملك القدس، فتحاربا واقتتلا . وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير مّن الرجالة ـ المشاة ـ. وكان ابن اخت ملك الفرنج في أربعمائة فارس وألفي راجل، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون ، فترجل طغتكين، ونادى بالمسلمين وشجعهم، فعاودوا الحرب، وكسروا الفرنج، وأسروا ابن أخت الملك وحمل إلى طغتكين الذي عرض عليه الإسلام، فامتنع به وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار وإطلاق خمسمائة أسير ، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام، فلما لم يجب قتله بيده. وأرسل إلى الخليفة ببغداد الأسرى. ثم اصطلح طغتكين وبغدوين على وضع الحرب أربع سنين. وأراد طغتكين الإفادة من هذه الهدنـة، فـوجـه جيشـه للاستيلاء على حصـن عـرقـه ـ مـن أعمال طرابلس ـ. فتوجهت لمقابلته قوة من جيش الفرنج الذي كان يحاصر طرابلس. فانهزم عسكر طغتكين ونهب الفرنج ثقلهم ورحالهم ودوابهم. ووصل جيش طغتكين إلى حمص على أقبح حال من التقطع ولم يقتل منهم أحد لأنهم لم يقاتلوا. ولما وصل طغتكين إلى دمشق بعد الهزيمة أرسل إليه ملك القدس يقول له:

« لا تظن أني أنقض الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة، فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة » .

لقد استطاع الفرنج بهذه التحالفات تقييد حرية العمل العسكري لامراء المسلمين في مراكز القوى الثلاث الرئيسة ـ دمشق وحلب والموصل ـ ومنع هؤلاء الأمراء من التعاون ضد الخطر المشترك، وافادوا من ذلك لتوسيع مجال حرية عملهم العسكري، وقد حدث بعد هزيمة دمشق مباشرة أن سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر ، فخرج ملك القدس بجيشه وأخذ كل من فيه ولم يسلم منهم إلا القليل. وفي السنة التالية (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) استولى الفرنج على طرابلس بعد حصار طويل ★ كما استولوا على بيروت وجبيل وبانياس. وتشكلت بذلك إمارة صليبية جديدة في طرابلس، بقيت

★ انظر في الفصل الثاني قصة (طرابلس) وسواها من القلاع والحصون.

تابعة لملك القدس. وفي السنة التالية استولى الفرنج أيضاً على مدينة صيدا وحصن الأثارب ـ من أعمال حلب ـ وحصن زردنا ـ وسواهما وذبحوا من بهم من المسلمين.

وصلت تحديات الفرنج إلى درجة مثيرة ومؤلمة، وحاول أمراء المسلمين اتقاء شر الفرنج بعقد هدنة معهم، غير أن الفرنج امتنعوا عن الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها، فصالحهم صاحب حلب الملك رضوان بن تتش على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم صاحب شيزر ـ ابن منقذ على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها. ثم إن مراكب أقلعت من ديار مصر فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة، فوقع عليها مراكب الفرنج فأخذوها، وغنموا ما مع التجار وأسروهم.

ولئن رضي أمراء المسلمين مثل هذا الذلّ والعار، فقد رفضته جماهير المسلمين الذين سارت جماعة منهم من حلب إلى بغداد، مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد. وسير من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان. فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة، ومعهم أهل بغداد، فمنعهم حاجب الباب من الدخول، فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع، وكسروا شباك المقصورة، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة أيضاً.

فأرسل الخليفة المستظهر بالله، إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه، فتقدم السلطان محمد حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون إلى قتال الفرنج. فلما دخلت السنة الجديدة (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) وصل إلى الموصل جيش تبريز بقيادة الأمير سكمان القطبي. والأمير ايلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همذان وما جاورها

وأمير مراغة ـ أحمد يل ـ وكوتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربل، والأمير ايلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود ومودود، فاجتمعوا ما عدا الأمير ايلغازي فإنه سير ولده إياز. فلما اجتمعوا ساروا إلى بلد سنجار، وفتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم، وحصروا مدينة الرهـا. فاجتمعت الفرنج جميعها، فارسها وراجلها، وساروا إلى الفرات ليعبروا وليدافعوا عن الرهـا، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة جمع المسلمين، فامتنعوا عن العبور وأقاموا على الفرات. فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرهـا إلى حـرّان ليطمـع الفـرنـج ويعبروا الفـرات إليهـم ويقاتلوهم، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الرهـا، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي الميرة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا ـ وحملوا معهم كل من فيه عجز وضعف وفقر، وعادوا إلى الفرات وعبروه إلى الجانب الشامي. وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً، وكان سبب ذلك أن الفرنج لما عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان بن تتش ـ صاحب حلب ـ فاستعاد ما أخذه الفرنج من أعمال حلب ونهب منهم وقتل، فلما عادوا وعبروا الفرات فعلوا بأعماله ما فعلوا. أما جيش بغداد (أو جيش محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ـ والذي كان يعرف باسم العسكر السلطاني) فإنه لما علم بعودة الفرنج، وعبورهم الفرات، سار إلى الرهـا وألقى عليها الحصار، فوجد أن المقاومة قد أعيد تنظيمها وتزايدت قدرتها بما توافر لها من الدعم والامداد ووفرة المقاتلين. فأدرك أنه لن يتمكن من إخضاع حامية الرهـا. فرحل عنها وعبر الفرات وقام بحصار قلعة تل باشر طوال خمسة وأربعين يوماً، ثم رحل عنها ووصل إلى حلب. فأغلق الملك رضوان أبواب المدينة، ورفض الاجتماع بقادة الجيش. ومرض هناك سكمان القطبي، فانسحب بجيشه، وتوفي عند بالس فحمل إلى عاصمته ـ تبريز ـ. ورحل بقية الجيش السلطاني ـ إلى معرة النعمان.

واجتمع أمير دمشق طغتكين بقادة الجيش فاطلع على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الفرنج سراً. ووجد في أمير الموصل مودود حليفاً مخلصاً.

فبقي معه إلى أن تفرق الجيش السلطاني، وكان صاحب شيزر يتعرض لحصار الفرنج فسار طغتكين ومودود بجيشهما إلى شيزر، ونزلا بالقرب من معسكر الفرنج، وحاولا دفع الفرنج للمعركة، غير أن هؤلاء امتنعوا عن القتال لما رأوه من قوة جيش المسلمين، وانسحبوا إلى أفامية، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه في مؤخرتهم. وعاد طغتكين إلى دمشق، كما عاد مودود إلى الموصل.

وتابع امراء مراكز القوى الثلاث صراعهم ضد الفرنج، ووقع العبء الأكبر في هذه المرحلة على عاتق دمشق التي كان يجب عليها مجابهة مطامع الفرنج سواء على تخوم فلسطين أو في الأقاليم البعيدة مثل ـ طرطوس ـ التي بقيت صامدة في وجه الفرنج. فكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها. وقصد حصن الحبيس (أو حبيس جلدك) وهو من أعمال دمشق وقد ملكه الفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه. وقد استطاع طغتكين تهديد الفرنج في الجليل، مما أرغم الفرنج على رفع الحصار عن طرطوس والعودة إلى بلادهم لحمايتها. وكان نصراً محدوداً أحرزه طغتكين، غير أنه نصر مؤقت. فقد كان باستطاعة الفرنج دائماً الإفادة من كل فرصة متوافرة لضم المزيد من أراضي المسلمين لممتلكاتهم. لقد خاض الفرنج حتى الآن حرباً هجومية، فيما كانت حرب المسلمين حرباً دفاعية. وكان باستطاعة الفرنج اختيار المكان المناسب والزمن المناسب لعدوانهم المباغت، فيما كانت ردود المسلمين متفرقة اختيار المكان المناسب والزمن نصراً حاسماً، ولا تمكنت من استعادة اقليم من الأقاليم التي استولى عليها الفرنج.

٤ ـ المخاض المسير في الموصل.

مضت فترة خمسة عشر عاماً والمسلمون في بلاد الشام يعيشون الابتلاء، وقد حاولوا التكيف مع الواقع الجديد الذي فرضه الفرنج الصليبيون، ولكن التحدي كان أكبر من القدرة على التكيف. وكانت استجابة المسلمين دون مستوى التحدي المفروض. فكان لا بد من مضي فترة أخرى من المعاناة قبل أن تتحدد معالم النهج الصحيح الذي يجب الأخذ به، والسير عليه. لقد بدأت نذر هذا النهج في الظهور وسط المسلمين منذ وصول الفرنج إلى آسيا الصغرى (الأناضول) ثم تقدمهم إلى انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. وها هي سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م تطل على مسلمي بلاد الشام وهم في ضنك وضيق شديدين. فقد خرج ملك القدس بغدوين ـ بلدوين ـ بجيشه وتابع الغارات على ريف دمشق، ونهبه وخربه. وانقطعت المواد عن دمشق، وغلت الأسعار فيها، وقلت الأقوات، فأرسل طغتكين إلى صديقه أمير الموصل ـ مودود ـ يشرح له الحال ويستنجده ويحثّه على سرعة الوصول إليه، فجمع مودود جيشه وانضم إليه جيش سنجار بقيادة أميرها تميرك، والأمير أياز بن ايلغازي وسار فعبر الفرات، وخرج طغتكين بجيشه والتقى بجيش مودود عند بلدة سلمية، واتفق الرأي على قصد ملك القدس بلدوين. فساروا إلى الأردن. ونزل المسلمون عند الأقحوانة. وسار بلدوين وجيشه بقيادة جوسلين ومعه المقدمين والفرسان المشهورين، وتم اللقاء عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الفرنج انهزموا وكثر القتل فيهم والأسر، وممن أسر ملكهم بلدوين فلم يعرف، فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق من الفرنج في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم. ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية، فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت نفوسهم وعاودوا الحرب فطوقهم المسلمون وأحاطوا بهم من كل ناحية. وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية، فأقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب،

فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم، فلم يخرج منهم أحد. فسار المسلمون إلى بيسان، ونهبوا بلاد الفرنج ما بين عكا وبين القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى. وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم، فعادوا ونزل الأمير مودود بمرج الصفر، وأذن للعسكر في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه. ودخل دمشق للإقامة عند طغتكين إلى الربيع. وعندما أقبل يوم الجمعة، ذهب مع طغتكين لأداء الصلاة. فلما فرغوا من الصلاة. وخرج مودود إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه وجرحه أربع جراحات، وقتل الباطني وقطع رأسه وأحرق. وكان الأمير مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال: «لا لقيت الله إلا صائماً». فمات من يومه. ودفن في تربة دقاق بدمشق، ثم حمل إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة، ثم حمل إلى أصبهان. وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين عندما علم بقتل الأمير مودود:

«إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها».

وأفاد ملك القدس بلدوين من الاضطراب الذي أعقب اغتيال الأمير مودود لاستئناف أعماله العدوانية، وعلم أن قفـل عظيم - قافلة - قد خرجت من دمشق تريد الذهاب إلى مصر. فاعترض طريقها واستولى عليها، ولم ينج منها إلا القليل.

عندما علم السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بقتل ابنه مودود في دمشق وجه جيشاً بقيادة الأمير اقسنقر البرسقي إلى الموصل وأعمالها، والياً عليها، وسير معه ولده الأمير مسعود، وأمره بقتال الفرنج، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته.

فوصل إلى الموصل، واتصلت به عساكرها وفيهم عماد الدين زنكي بن اقسنقر وكان له الشجاعة في الغاية. كما انضم إليه أمير سنجار - تميرك -. وسار البرسقي إلى

جزيرة ابن عمر فتسلمها من نائب الأمير مودود، وسار معه إلى ماردين، فنازلها البرسقي حتى أذعن له صاحبها ايلغازي، وسير معه عسكراً مع ولده إياز. فسار عنه البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس، فنازلها، وقاتلها، وصبر له الفرنج، وأصابوا من بعض المسلمين غرة، فأخذوا منهم تسعة رجال وصلبوهم على سورها. فاشتد القتال حينئذ. وحمي المسلمون، وقاتلوا، فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم، وأقام عليها شهرين وأياماً، وضاقت الميرة على المسلمين، فرحلوا من الرها إلى سميساط، بعد أن خربوا ريف الرها وسروج وسميساط. وأظهر أمير مرعش الطاعة، فعاد البرسقي إلى - شحتان - وقبض على أياز بن أيلغازي لأنه لم يحضر أبوه، ونهب سواد ماردين. وتصادف في تلك الفترة (من سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م) أن مات كونت مرعش وكيسوم ورعبان فاستولت زوجته على المملكة، وتحصنت من الفرنج - باعتبارها من الأرمن - وأحسنت إلى الأجناد، وراسلت اقسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه. فسير البرسقي إليها أمير الخابور سنقر دزدار، فلما وصل إليها أكرمته وحملت إليه مالاً كثيراً، وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الفرنج، فهاجموا أصحاب سنقر - وهم نحو مائة فارس - واقتتلوا قتالاً شديداً، ظفر فيه المسلمون بالفرنج، وقتلوا منهم أكثرهم. وعاد سنقردزدار وقد أصحبته الملكة بالهدايا للملك مسعود والأمير البرسقي، وأذعنت بالطاعة. ولما عرف الفرنج ذلك، عاد كثير ممن عندها إلى أنطاكية. علم ايلغازي باقدام آقسنقر البرسقي على أسر ابنه إياز، فسار إلى حصن كيغا واستنجد بقائدها وحاكمها الأمير ركن الدولة داود. فأنجده وسارا معاً بعد أن حشدا جيشاً كبيراً من التركمان، فلقيا البرسقي، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه، فانهزم البرسقي وعسكره، وخلص أياز بن إيلغازي من الأسر.

فأرسل السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان إلى ايلغازي يتهدده ويتوعده، فخافه وسار إلى الشام، ليأمن بحماية حميه صاحب دمشق طغتكين. فأقام عنده أياماً، وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان محمد لأنه نسب إليه قتل ولده. مودود. فاتفقا على الامتناع والالتجاء إلى الفرنج والاحتماء بهم،

فراسلا صاحب انطاكية، وحالفاه. فحضر عندهما على بحيرة قدس عند حمص. وجددوا العهود. وعاد إلى انطاكية، وعاد طغتكين إلى دمشق.

عندما علم السلطان محمد بتحالف أمير دمشق ـ طغتكين ـ مع الفرنج، حشد جيشاً ضخماً بقيادة أمير همذان ـ برسق بن برسق ـ ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وانضم للجيش جند الموصل والجزيرة، وأصدر السلطان محمد أمره إلى قائده بالبداءة بقتال ايلغازي وطغتكين وقتلهما، فإذا فرغ من ذلك قصد بلاد الفرنج وقاتلهم وحصر بلادهم ـ وسار الجيش فعبر الفرات مع بداية سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. ووصل إلى حلب فوجد أن ايلغازي وطغتكين قد دعما حاميتها بألفي فارس. فسار الأمير برسق بن برسق عندما أدرك أنه من الصعب عليه الاستيلاء على حلب، وقصد مدينة حماة التي كانت تحت حكم أمير دمشق طغتكين. فحصرها، وفتحها عنوة، ونهبها ثلاثة أيام، وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص، الذي سلم أياز بن ايلغازي إلى برسق. وسار ايلغازي وطغتكين إلى انطاكية واستنجدا بحاكمها ـ روجيل، أو روجر ـ. ووصل إلى انطاكية في تلك الفترة ملك القدس بغدوين وأمير طرابلس وغيرهما من قادة الفرنج في جيش كثيف. وحشدوا قواتهم في قلعة أفامية لمدة شهرين، ثم تفرقوا لما رأوا أنه لا قبل لهم بمهاجمة جيش المسلمين الكبير الذي يقوده برسق. فعاد إيلغازي إلى ماردين، وعاد طغتكين إلى دمشق، ورجع الفرنج إلى بلادهم. ولما رأى برسق تفرق الجيوش قرر انتزاع كفرطاب وأفامية من قبضة الفرنج، فسار إلى كفرطاب وحصرها، فلما اشتد الحصار على الفرنج، ورأوا الهلاك، قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم ودخل المسلمون البلد عنوة، وأسروا حاكمها وقتلوا من بقي فيها من الفرنج، وسار برسق بجيشه إلى قلعة أفامية، فرآها حصينة فعاد عنها إلى المعرة، وهي تحت حكم الفرنج أيضاً. وانفصل الأمير جيوش بك وسار إلى وادي بزاغة فملكه. وسار برسق بجيشه عن المعرة إلى حلب، وتقدمهم ثقلهم ودوابهم على جاري العادة، والعساكر في أثره متلاحقون وهم آمنون لا يظنون أحداً يقدم على الاقتراب منهم. وكان أمير انطاكية ـ روجر ـ لما علم بحصار كفرطاب، سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للدفاع عن كفرطاب وحمايتها، ووصل إلى مخيم المسلمين،

فوجده خالياً من المقاتلين، فنهب جميع ما في المخيم، وقتل كثيراً من حرس المخيم وغلمانه. ووصل المقاتلون المسلمون متفرقين. فأخذ الفرنج في قتل كل من يصل تباعاً. ووصل الأمير برسق ومعه مائة فارس تقريباً. فلما رأى الموقف صعد إلى تل هناك ومعه أخوه زنكي، وأحاط بهم السوقية والغلمان، واحتموا بهم، ومنعوا الأمير برسق من النزول، فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول، والنجاة بنفسه، فقال: «لا أفعل، بل أقتل في سبيل الله، وأكون فداء المسلمين». فغلبوه على رأيه، فنجا هو ومن معه. فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، ثم عادوا، وتمموا الغنيمة والقتل، وأحرقوا كثيراً من الناس. وتفرق العسكر. وأخذ كل واحد جهة. ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من ـ كفرطاب ـ ذلك، قتلوهم. وكذلك فعل الموكل بأياز بن ايلغازي قتله أيضاً.

وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام، فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر، فأتاهم ما لم يكن في الحساب. وعادت العساكر عنهم إلى بلادها. وسار الفرنج ـ من القدس، فملكوا رفنية وهي من أرض الشام التابعة لحكم طغتكين، وقووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها.

فاهتم طغتكين لذلك. وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب لها والتخريب. فأتاه الخبر عن خلو رفنية من عسكر يمنع عنها، وليس فيها إلا قوة من الفرنج الذي تركوا لحمايتها والدفاع عنها، فسار طغتكين في قوة خفيفة من الفرسان، فلم يشعر من بها إلا وقد هجم عليهم ودخل البلد عنوة وقهراً. وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً، فقتل البعض وترك البعض. وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين.

لقد أدرك السلطان محمد، كما أدرك طغتكين، خطأ سلوكهما، فقد كان سلوك السلطان محمد عاملاً دفع طغتكين للتعاون مع الفرنج، كما أدرك أن العبور إلى الفرنج وقتالهم من خلال القضاء على حاكم مسلم، هو عمل عقيم، وأدرك طغتكين أنه من الخطورة بمكان التعاون مع أعداء الدين الطامعين في بلاده. وعرف الطرفان أن الفرنج هم المستفيدين الوحيدين من خلافات

المسلمين ومن ضعفهم وتفرقهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يسرع طغتكين إلى بغداد لعقد صلح مع السلطان محمد (سنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م). وهنا حدث حادث مثير أبرز دور الباطنيين - الإسماعيلية - في ايقاع الفرقة بين أمراء المسلمين وحكامهم.

فقد عملوا على قتل الأمير مودود وهو في ضيافة طغتكين وبصحبته. وعندما كان طغتكين بضيافة السلطان محمد - ببغداد - حضر جماعة من الأمراء مجلس السلطان ومعهم صاحب مراغة - أحمديل بن ابراهيم بن وهسوذان الروادي الكردي. الذي جلس إلى جانب طغتكين، فأتاه رجل تظاهر بأنه متظلم، وبيده رقعة، وهو يبكي، وسأل أحمديل أن يوصل الرقعة إلى السلطان، ولما مدّ أحمديل يده لأخذ الرقعة، انقض عليه الرجل وضربه بسكين في يده، فجذبه أحمديل، وتركه تحته. فوثب رفيق للباطني وضرب أحمديل سكيناً أخرى، فأخذتها السيوف. وأقبل رفيق ثالث وضرب أحمديل ضربة أخرى. فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه.

وظنّ طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل، وأن ذلك جرى بأمر السلطان محمد. فلما علموا أنهم من الباطنية - الإسماعيلية - زال هذا الوهم.

لقد تبين لمراكز القوى الإسلامية أن الموصل هي مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين. وكانت الموصل تحت حكم السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، فلما توفي سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م★ انتقل الحكم إلى ابنه السلطان محمود. فسار على نهج أبيه وأخذ بسيرته. وكان لا بد للسلطان محمود من قضاء فترة لإعادة

★ السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٧٤ - ٥١١ هـ = ١٠٨١ - ١١١٧ م) كان عادلاً حسن السيرة شجاعاً. عرف خطر الباطنية - الاسماعيلية - فجرد الحملات لاخضاعهم وإبادتهم، وقتل كثيراً منهم بعد أن استفحل أمرهم وخافهم الناس واتقى الحكام شرهم بمهادنتهم. عندما شعر بدنو أجله كتب وصية أوصى بها للحكم لابنه محمود - وكان عمره يومها أربع عشرة سنة - وأمر ابنه في وصيته بالعدل والاحسان. وقد حاول طغرل بن محمد منازعة أخيه السلطان محمود السلطة والحكم، فأخضعه ثم اصطلحا، كما حاول أخوه مسعود أيضاً منافسته.

تنظيم سلطته، وتسوية الصراعات التي عادة ما كانت تنشب بين الإخوة المتنافسين على السلطة والحكم. علاوة على تلك الصراعات التي كانت تنشب بصورة طبيعية أو غير طبيعية مع الطامعين بحكم هذا الاقليم أو ذاك. هذا فيما كان الصراع مع الفرنج يتطور باستمرار على الجبهات الأخرى. ففي هذه السنة (٥١١ هـ) قاد ملك القدس بجيشه وسار به إلى مصر، وبلغ تنيس، وسبح في النيل، فانتقض جرح كان به، فلما أحس بالموت عاد إلى القدس. ولم يلبث أن مات (سنة ٥١٢ هـ) وأوصى بغدوين - بلدوين - بالحكم من بعده للكونت بردويل صاحب الرها السابق - وكان هذا الكونت قد جاء إلى القدس لزيارة بيعة قمامة - كنيسة القيامة - فتصادف مجيئه مع وفاة بغدوين، فتسلم أمور المملكة. وخلال هذه الفترة، كان أمير دمشق طغتكين قد سار بجيشه من دمشق لقتال الفرنج، فنزل باليرموك. ولما كان الملك الجديد للفرنج - بردويل - يحتاج لفترة من الاستقرار، فقد أرسل الرسل إلى طغتكين بطلب المهادنة. فاشترط طغتكين إلى الفرنج التخلي له عن جبل عوف والحنانة والصلت والغور، فرفض الفرنج، فسار طغتكين إلى طبرية، فنهبها وما حولها، وسار منها إلى عسقلان التي كانت تحت حكم المصريين وبها حامية منهم. فتوقف بها طغتكين وأقام مع الحامية المصرية طوال شهرين على أمل مجابهة قوات الفرنج، فلما رأى طغتكين امتناع الفرنج عن القتال، عاد بجيشه إلى دمشق. وما إن وصلها حتى علم بأن مائة وثلاثين فارساً من الفرنج قد استولوا على حصن من حصونه يعرف باسم (الحبس) ويعرف أيضاً باسم (حصن جلدك). وانهم قصدوا - أذرعات - فنهبوها. فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طغتكين قوة، فابتعدوا عن طريق هذه القوة وانسحبوا إلى جبل هناك، فنازلهم تاج الملوك، وجاءه أبوه طغتكين، ونصحه بإفساح المجال أمام الفرنج للهرب، غير أن تاج الملوك طمع بالفرنج وشدد قبضته عليهم، فلما أيس الفرنج، قاتلوا قتال مستقتل، ونزلوا من الجبل، وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً. وعاد الفل إلى دمشق على أسوأ حال.

فسار طغتكين إلى حلب وبها إيلغازي، فاستنجده وطلب منه التعاضد على الفرنج، فوعده المسير معه.

فبينما هو بحلب، أتاه الخبر بأن الفرنج قصدوا حوران من أعمال دمشق. فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا. فاتفق طغتكين وإيلغازي على أن يعود طغتكين إلى دمشق وحماية بلاده. وعود ايلغازي إلى ماردين وجمع العساكر، والاجتماع على حرب الفرنج. فصالح ايلغازي من يليه من الفرنج. وعبر إلى ماردين لجمع العساكر. كما عمل - إيلغازي - على إرسال رسول الى بغداد لاستنفار المسلمين على الفرنج، وذكر ما فعله الفرنج بالمسلمين في الديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة عند الرهاء، وقتلوا أميرها ابن عطير، فسيرت بذلك الكتب الى السلطان محمود الذي كان منصرفاً لاخضاع تمرد أخيه طغرل في ساوة وزنجان. وأفاد الفرنج من غياب ايلغازي، فساروا بجموعهم من أنطاكية، وملكوا بزاغة وغيرها، وأخربوا بلد حلب ونازلوها. ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد، لكنهم منعوا من ذلك، وصانعوا الفرنج، ووافقوا على أن يقاسموا الفرنج على أملاكهم التي بباب حلب. وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا، وأثناء ذلك كان ايلغازي قد نجح في حشد عشرين ألفاً من العساكر ومن المتطوعة للغزاة. فسار بهم من ماردين إلى الشام عازماً على قتال الفرنج. فلما علم الفرنج قوة عزم المسلمين على لقائهم - وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل - ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب - بموضع يقال له تل عفرين - بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات. وظنّ الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق، فأخلدوا إلى المطاولة - المماطلة - وكانت تلك هي عادتهم كلما رأوا قوة من المسلمين، وراسلوا ايلغازي وقالوا له:

«لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك».

فأعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته وقصدهم، ففعل ذلك، وسار إليهم، ودخل المسلمون من الطرق الثلاثة، ولم تعتقد الفرنج أن احداً يصل إليهم لصعوبة المسلك، فلم يشعروا إلا وأوائل المسلمين قد انقضت عليهم، فحمل الفرنج حملة منكرة، فولوا منهزمين، فلقوا باقي العسكر متتابعة، فعادوا معهم. وجرى بينهم حرب شديدة، وأحاطوا بالفرنج من جميع

جهاتهم، وأخذوهم بالسيف من سائر نواحيهم. فلم يفلت منهم غير نفرٌ يسير، وقتل الجميع وأسروا، وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم. وحملوا إلى حلب. فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار. فلم يقبل منهم. وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة★. ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقيهم ايلغازي أيضاً فهزمهم، وفتح منهم حصن الأثارب وزردنا وعاد إلى حلب. تعرض الفرنج لهزيمة مماثلة في الجنوب، في هذه السنة ذاتها (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) وذلك عندما خرج قائد حامية تل باشر - الكونت جوسلين - بقوة من مائتي فارس، أغار بها على طائفة من قبيلة طي يعرفون - ببني خالد - بالقرب من طبرية. فأخذهم وأخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة، فأخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فدفع جوسلين قوة من مائة وخمسين فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر، وواعدهم الفجر ليباغتوا بني ربيعة. وعلم بنو ربيعة ذلك وأرادوا الرحيل، فمنعهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً. فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج معتقدين أن جوسلين قد سبقهم، أو أنه سيدركهم، فأضل الطريق، وتساوت القوتان، فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم، فجعلوا أكثرهم رجالة - مشاة - وظهر من أميرهم شجاعة وحسن تدبير وجودة رأي، فقتل من الفرنج سبعون وأسر إثنا عشر من مقدميهم، بذل كل واحد في فداء نفسه مالاً جزيلاً، وعدة من الأسرى، وأما جوسلين فإنه ضلّ في الطريق، وبلغه خبر الوقعة، فسار إلى طرابلس، فجمع بها جمعاً، وسار بهم ليلاً إلى عسقلان، وأغار على بلدها، فهزمه المسلمون هناك فعاد مفلولاً.

عمل الخليفة المسترشد بالله على ارسال - خلعة - إلى نجم الدين ايلغازي - (سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) مع شكره على ما يفعله من غزو الفرنج.

وسار ايلغازي لقتال الفرنج وقد حشد جيشاً كبيراً، فاصطدم بالفرنج عند موضع

★ أكثر الشعراء من مدح أيلغازي لما حققه من نصر، ومما قيل في هذا النصر:

قل ما تشاء فقولك المقبول — وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته — وبكى لفقد رجاله الانجيل

اسمه ذات البقل من أعمال حلب، فاقتتلوا واشتد القتال، وانتصر المسلمون.

ثم اجتمع ايلغازي وأتابك طغتكين ـ صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في معرة قنسرين يوماً وليلة.

ثم أشار طغتكين بالافراج عن الفرنج حتى لا يدفعهم اليأس إلى أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين، وربما يظفرون بهم. وكان طغتكين يخاف من جودة خيل الفرنج، ومن سرعة انصراف التركمان، وكان إيلغازي بدوره لا يطيل المقام في بلد الفرنج، لأنه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود. فإذا طال مقامهم تفرقوا. ولم يكن لدى ـ ايلغازي ـ من الأموال ما يفرقها عليهم. ولهذا أخذ بنصيحة طغتكين، وأفرج لهم. ثم عاد ايلغازي إلى حلب، ورجع طغتكين إلى دمشق.

تابع الفرنج تحدياتهم واستفزازاتهم، وتابع المسلمون تصديهم للعدوان ومقاومتهم له. ففي السنة ذاتها توجه جيش من الروم، بقيادة عفراس الرومي، فاصطدم بجيش من المسلمين بقيادة بلك بن أرتق عند قلعة سرمين. وانتصر المسلمون، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل وأسر عفراس وكثير من جنده. كما قام صاحب الرها ـ جوسلين ـ بالاغارة على جيوش العرب والتركمان، وكانوا نازلين بصفين غربي الفرات، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً، ولما عاد خرب بزاغة، ومقابل ذلك، استطاع أمير دمشق ـ طغتكين ـ أن يفرض سيطرته على بلدة تدمر وقلعة الشقيف.

بقيت الموصل هي مركز القوى الاكثر أهمية في الصراع ضد الفرنج، غير أن الاضطرابات التي وقعت في بداية حكم السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان. فلما استقر له الأمر، أخذ في البحث عمن يستطيع سدّ هذا الثغر، وقرر تعيين أقسنقر البرسقي أميراً على مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) وأمره بمجاهدة الفرنج، وأخذ البلاد منهم، وأرسل إلى سائر الأمراء بطاعته، فسار اقسنقر

البرسقي إلى الموصل في عسكر كثير، وملكها، وأقام يدبر أمورها ويصلح أحوالها.

وبقيت مصر وهي بعيدة نسبياً عن الصراع، منصرفة إلى صراعاتها الداخلية، وزاد الأمر سوءاً باغتيال أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي★ على أيدي الباطنية. وبقي على دمشق وحلب قيادة الصراع وحدهما. ففي الجنوب تمكن أمير دمشق طغتكين من الايقاع بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر، وأرسل من الأسرى والغنيمة للخليفة وللسلطان محمود. وفي الشمال، وجه أمير حلب ايلغازي جيشاً بقيادة ابن أخيه ـ بلك ابن بهرام ـ إلى مدينة الرهـا، فحصرها، وبها الفرنج، وبقي على حصارها مدة، فلم يظفر بها، فرحل عنها. فجاءه إنسان تركماني وأعلمه أن صاحب الرهـا جوسلين قد جمع من عنده من الفرنج وهو عازم على مباغتته، وكان قد تفرق عن بلك أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس، فوقف مستعداً لقتالهم. وأقبل الفرنج، ودخلوا في أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه. فلم تتمكن مع ثقل الفرسان والسلاح من الاسراع والجري. فرماهم أصحاب بلك بالنشاب، فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسلين، وجعل في جلد جمل، وخيط عليه، وطلب منه أن يسلم الرهـا فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبه إلى ذلك، وحمله إلى قلعة (خرتبرت) فسجنه بها، وأسر معه جماعة من فرسانه. ولما علم ملك القدس ـ بغدوين ـ بأسر أمير الرهـا، سار بجيشه. (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) فأعد بلك ابن بهرام بن أرتق عدته، وخرج لمقابلته ـ قرب دياربكر ـ وجرت معركة قاسية انتهت بهزيمة الفرنج وأسر ملكهم، ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، فحملهم بلك إلى سجن (خرتبرت) ليلتقوا هناك بأمير الرهـا جوسلين وغيره. وسار بلك عن خرتبرت

★ الأفضل بن بدر الجمالي (٤٥٨ ـ ٥١٥ هـ = ١٠٦٥ ـ ١١٢١ م) كان هو صاحب الأمر والحكم بمصر بعد أبيه بدر الجمالي. وكانت مدة ولايته بعد أبيه ثمانية وعشرين سنة، قتله ثلاثة من الباطنية ـ الاسماعيلية ـ لأنهم اتهموه بتضييع أمامهم، وترك معارضة أهل السنة والنهي عن مقاومتهم وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها. فكثر الغرباء في مصر لما عرف عنه من العدل بين الرعية وحسن السيرة. وقد عمل الحاكم الفاطمي الآمر بأحكام الله على مصادرة أمواله بعد اغتياله. واعتقل أولاده السبعة.

إلى حراز، فملكها، وأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند، فأمكن لهم ملك القلعة، واتخذ الملك بغدوين من الليل ستاراً للهرب ومضى إلى القدس. وعلم بلك بما حدث فعاد بجيشه وحصر (خرتبرت) وضيق على من بالقلعة واستعادها من الفرنج، وجعل فيها من يحفظها، وعاد عنها.

أظهر الأمير أقسنقر البرسقي كفاءة في إعادة تنظيم الموصل وما يتبعها. فما كان من السلطان محمود إلا أن ضم إليه مدينة واسط وأعمالها. فوجه اقسنقر إليها عماد الدين زنكي بن اقسنقر. واستطاع الفرنج بعد حصار متطاول الاستيلاء على مدينة صور (سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) مما زاد من طمعهم، وقويت نفوسهم، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام. واستكثروا من الجموع. وقصدوا حلب، فما كان من البرسقي إلا أن أسرع إليها. واتفق مع أهلها على تسليمها له★ ورحل الفرنج عن حلب، عندما عرفوا قوتها. وعمل البرسقي على انتزاع كفرطاب من الفرنج (سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م) وعاد إلى الموصل حيث عمل الباطنية على قتله في السنة التالية. ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين مسعود بن البرسقي - الذي كان ينوب عن أبيه بحكم حلب - يعلمه بقتل والده، قبل أن يصل إليه الخبر. وكان قد علم به الفرنج قبله لشدة عنايته بمعرفة الأحوال الإسلامية. وربما لاتصال الفرنج بالباطنية - الإسماعيلية - واستخدامهم لهم★★ وعلى كل حال، فإن المنية عاجلت عزّ الدين مسعود بن البرسقي، فتوفي في السنة التالية (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م). وأصبح عماد الدين زنكي أميراً على الموصل، وما ضمته الموصل من الأقاليم، فانصرف عماد الدين زنكي لإعادة

★ انظر (قلعة حلب) في الفصل الثاني.

★★ اغتيل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي بمدينة الموصل يوم الجمعة الثامن ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م. وكان يصلي الجمعة مع العامة، فوثب عليه بضعة عشر نفساً فجرحوه بالسكاكين. وكان آقسنقر مملوكاً تركياً، خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها. ويصلي من الليل متهجداً. وعندما علم ابنه عزّ الدين مسعود بن البرسقي، سار إلى الموصل، وأحسن إلى أصحاب أبيه، وأقر وزيره المؤيد أبا غالب على وزارته، وأطاعه الأمراء والأجناد، وانحدر إلى خدمة السلطان محمود، فأحسن إليه وأعادهْ. ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه.

تنظيم أمور دولته واعدادها للحرب. واستكثر من الجند، وأعاد تنظيم أمور ولاية الموصل، ثم سار إلى حلب فنظم أمورها. وأصبحت الموصل والجزيرة والشام تحت قيادة واحدة، فشرع عماد الدين زنكي في توحيد بلاد الشام تحت قيادته، وساعده على ذلك وفاة أمير دمشق طغتكين (سنة ٥٢٢ هـ). فسار عماد الدين إلى حماه، وضمها لحكمه. وعمل في سنة ٥٢٤ هـ على إعادة فتح حصن الأثارب. وسواه من الحصون التي كانت ذات ضرر كبير على المسلمين.

٥ ـ الزنكيون وقيادة الجهاد.

انطلق الزنكيون من الموصل، وشرعوا في حشد القوى وتنظيمها، ولما فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشامية ـ حلب وأعمالها وما ملكه ـ وقرر قواعده، عاد إلى الموصل وديار الجزيرة، ليستريح عسكره. ثم أمرهم بالتجهز للغزاة، فتجهزوا وأعدوا واستعدوا، وعاد إلى الشام، وقصد حلب، فقوي عزمه على قصد حصن الأثارب ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين. وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، بينها وبين أنطاكية. وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية. فسار عماد الدين إليه ونازله. فلما علم الفرنج بذلك، جمعوا فارسهم وراجلهم، وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها. فحشدوا وجمعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه، فلما فرغوا من أمرهم، ساروا نحوه، فاستشار عماد الدين أصحابه فيما يفعل، وكل أشار بالعود عن الحصن، إذ أن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يدري على أي شيء تكون العاقبة. فقال لهم عماد الدين:

« إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بد من لقائهم على كل حال ».

ثم ترك الحصن، وتقدم إليهم، فالتقوا واصطفوا للقتال، وصبر كل فريق لخصمه. واشتد الأمر بينهم، ثم أن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين، فظفروا، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة. ووقع كثير من فرسانهم في الأسر. وقتل منهم خلق كثير. وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: **« هذا أول مصاف عملناه معهم، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم »**. وعاد عماد الدين بعد المعركة إلى حصن الأثارب ففتحه عنوة، وقتل وأسر كل من فيه. وأخربه وجعله دكاً. ثم سار منه إلى قلعة حارم **ـ وهي بالقرب من أنطاكية ـ فحصرها، فبذل أهلها ـ الفرنج ـ نصف دخل بلد**

حارم وهادنوه، فأجابهم إلى ذلك. وعاد عنهم وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع.

عندما كانت الأمور تسير بنجاح في الشمال، سارت الأمور في الجنوب على الاتجاه المضاد، فقد نجح الباطنية في طعن حاكم دمشق ـ تاج الملوك بوري بن طغتكين ـ وجرحوه جرحين، برأ أحدهما، وتنسر الآخر، وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية (٥٢٦ هـ = ١١٣١ م) اشتد ضعف تاج الملوك بوري وتوفي، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسمٰعيل، وطمع الفرنج بشمس الملوك واستضعفوه، وعزموا على نقض هدنة كانت قائمة بينهم، فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق ـ بمدينة بيروت ـ وأخذوها. فشكى التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرر القول فيه، فلم يردوا شيئاً. فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن جمع عسكره وتأهب، ولا يعلم أحد أين يريد، ثم سار وسبق خبره (سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) ونزل على بانياس وقاتله لساعته، وزحف إليه زحفاً متتابعاً، وكان الفرنج غير متأهبين. وليس في قلعة بانياس من المقاتلة من يحميها. وقرب من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فنقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن، وتحصنوا به. فقتل من البلد كثيراً من الفرنج وأسر كثيراً، ونهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً، ليلاً ونهاراً، حتى فتحها بالأمان، وعاد إلى دمشق. أما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون إليه، فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

بينما كان شمس الملوك اسمٰعيل يقوم بعملياته الناجحة في الجنوب، كان ملك الفرنج ـ ملك القدس ـ قد خرج بخيالته ورجالته من القدس، وسار بهم إلى أطراف أعمال حلب. فلما علم نائب عماد الدين زنكي في حكم حلب ـ الأمير أسوار ـ خرج بجيشه، وانضم إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قنسرين، فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة. وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب. فأعاد الأمير

أسوار تنظيم قواته وخرج إليه فيمن معه من العسكر. فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم من الفرنج منهزماً إلى بلادهم. وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر. ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى وكان يوماً مشهوداً. ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للاغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم، وأوقع بهم، وقتلهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسر من لم يقتل، وعاد وجنده إلى حلب سالمين.

لقد تحول الموقف لمصلحة المسلمين، ووجد المسلمون أن لديهم القدرة لمهاجمة بلاد الفرنج. فخرج جمع كبير من التركمان من الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس، فخرج لقتالهم القمص - الكونت - صاحب طرابلس في جوعه، فانسحب التركمان وأفسحوا له المجال لمطاردتهم ثم عادوا إليه وقاتلوه فهزموه، وأكثروا القتل في جنده، ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرين، فتحصنوا بها وامتنعوا عن التركمان، فحصرهم التركمان فيها، فلما طال الحصار عليهم، نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سراً، فنجوا وساروا إلى طرابلس، وترك الباقين في بعرين لحمايتها والدفاع عنها. فلما وصل إلى طرابلس كاتب الفرنج، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، وتوجه بهم نحو التركمان لابعادهم عن بعرين. فلما علم التركمان بذلك، قصدوهم وقاتلوهم، وقتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج على الهزيمة. فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية إلى رفنية، فتعذر على التركمان اللحاق بهم إلى وسط بلادهم، فعادوا عنهم راجعين.

تابع شمس الملوك اسمعيل جهاده في الجنوب. فقاد جيشه في السنة التالية (٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م) واستولى بهجوم مباغت على شقيف نيرون في الجبل المطل على بيروت وصيدا. وعظم أخذه على الفرنج، فجمعوا عساكرهم، وساروا إلى حوران فخربوا أمهات البلد ونهبوا أماكنهم. وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون، جمع هو أيضاً وحشد، وانضم إليه جمع كثير من التركمان وغيرهم، فنزل بإزاء الفرنج. وجرت بينهم مناوشة استمرت عدة أيام. ثم إن شمس الملوك نهض ببعض عسكره، وترك الباقي قبالة الفرنج وهم لا يشعرون، وقصد بلدهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد، فنهب وخرب وأحرق وسبى النساء والذرية، وامتلأت أيدي من معه من

الغنائم، واتصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا ورحلوا في الحال، لا يلوي أخ على أخيه، وطلبوا بلادهم. وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج. فوصل سالماً. ورأى الفرنج بلادهم خراباً ففت في أعضادهم وتفرقوا، وراسلوا في تجديد الهدنة، فهادنهم شمس الملوك. ويظهر أن (شمس الملوك) قد شعر أن صراع دمشق ضد الفرنج قد استنزف قدرتها، فكتب إلى عماد الدين زنكي، وعرض عليه تسليم دمشق إليه واستحثه على سرعة الوصول. وأخلى المدينة من الذخائر والأموال ونقل الجميع إلى مقر قيادته. وتابع ارسال الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول إليه. وقال له: «**إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج**». فسار زنكي. وشاع الخبر، فامتعض أصحاب أبيه وجده، وأقلقهم. وذكروا الحال لوالدته، فساءها ذلك، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر. ثم إنها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه، فلما رأته على ذلك أمرت غلمانه بقتله، فقتل، وأمرت بإلقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، ولما قتل (شمس الملوك)★ ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري. وأثناء ذلك كان عماد الدين زنكي قد تحرك بجيشه من الموصل، وعبر الفرات، استجابة لدعوة شمس الملوك، وأرسل الرسل للاتفاق على قواعد التسليم، فرأى الرسل أن الموقف قد تبدل بقتل شمس الملوك، وقد استقبل أمير دمشق الجديد رسل عماد الدين استقبالاً لائقاً، وأكرمهم، وأعادهم بأجمل هيئة. ونقل الرسل إلى عماد الدين ما رأوه من استقرار الوضع في دمشق، وأن الكلمة متفقة بين أهلها على الطاعة. فلم يحفل عماد الدين بما سمعه، وسار إلى دمشق، فنازلها وحصرها، وأجفل أهل السواد إليها، واجتمعوا فيها على محاربته. ونزل عماد الدين أولاً شمالي دمشق، ثم انتقل إلى ميدان الحصى، وزحف وقاتل، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقاً تاماً على محاربته، وقام (**معين الدين أنز**) مملوك طغتكين جد أمير دمشق بإدارة

★ شمس الملوك اسمعيل ابن تاج الملوك بوري بن طغتكين (٥٠٦-٥٢٩ هـ = ١١١٢-١١٣٤ م) أظهر كفاءة قيادية عالية في الحرب - مع صغر سنه - ولكنه ركب طريقاً من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم في أعمال البلد، وبالغ في العقوبات لاستخراج الأموال. وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس ولهذا فرح أهل الشام - حتى خاصته - عندما تم قتله.

الحرب بكفاءة عالية، وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال ما لم يكن متوقعاً أو معروفاً. ووصلت في تلك الفترة رسالة من الخليفة إلى عماد الدين تأمره بعقد صلح مع أمير دمشق، فانسحب عماد الدين زنكي ورجع إلى الموصل.

تابع عماد الدين زنكي توجيه الجهد ضد الفرنج، ففي سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير أسوار نائبه بحلب، وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا إلى اللاذقية، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها؛ والاحتراز، فنهبوا ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم. وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم. وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والحلي والأموال فيخرج عن الحد. وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها. ولم يسلم منها إلا القليل. وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين، فامتلأ من الأساري والدواب، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً.

قاد عماد الدين زنكي جيشه في السنة التالية (٥٣١ هـ = ١١٣٦ م) وألقى الحصار على (قلعة بعرين) وهي تحت حكم الفرنج وتقع على مقربة من مدينة حماه، ومن أمنع الحصون وأقواها، ولما نزل عليها قاتلها وزحف إليها، فجمع الفرنج ـ فارسهم وراجلهم ـ وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم لابعاد عماد الدين زنكي عن قلعة بعرين، فلم يرحل عنها، وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج. وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم المسلمون، ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء حتى الأخبار. فكان من به منهم لا يعرف شيئاً عن أخبار بلادهم، لشدة ضبط الطرق، وهيبة عماد الدين على جنوده.

فما كان من رهبانهم وقسوسهم إلا أن ساروا إلى بلاد الروم وبلاد الفرنج

ومن والاها من بلاد النصرانية، مستنفرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، لعدم المحامي عنها. وأن المسلمين ليس لهم نية إلا قصد القدس.

فحينئذ اجتمعت النصرانية، وساروا على الصعب والذلول، وقصدوا بلاد الشام مع ملك الروم. وأما ما كان من عماد الدين زنكي، فإنه جد في قتال الفرنج، فصبروا، وقلت عليهم الميرة والذخيرة، ذلك أنهم لم يكونوا على استعداد لمثل هذا الحصار، وكانوا يعتقدون أنه ما من أحد يقدر عليهم، بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجبهم إلى ذلك، فلما علم باقتراب ملك الروم من حدود بلاد الشام، واجتماعه بمن بقي من الفرنج، أعطى لمن في الحصن الأمان، وفرض عليهم تسليم الحصن، ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا وسلموا إليه. فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم.

وعمل زنكي في مدة مقامه عليهم، على فتح المعرة وكفرطاب، وانتزعهما من الفرنج. وكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي، لأن الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلما ملكها زنكي أمن الناس، وعمرت البلاد وعظم دخلها، وكان فتحاً مبيناً توجه زنكي بإعادة أراضي المعرة إلى أصحابها الأصليين، الذين كانوا يملكونها قبل استيلاء الفرنج الصليبيين عليها.

كان لا بد لملك الروم ـ الكسيوس ـ من تسوية حسابه مع أمير أنطاكية وأمير الدروب في أرمينية وذلك قبل دخول بلاد الشام. فسار إلى (نيقية) وحصرها، فصالحه أميرها على مال يؤديه له. وسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الأرمني ـ صاحب قلاع الدروب ـ فحصرهما وملكهما. ورحل إلى عين زربة، فحصرها وملكها عنوة، وملك تل حمدون، وعمل على نقل أهله إلى جزيرة

قبرص، وعبر ميناء الاسكندرونة، فحصر مدينة انطاكية، وضيق على أهلها، فترددت الرسل بين صاحب انطاكية - ريموند - وبين ملك الروم، وتصالحا، ورحل ملك الروم إلى بغراس. وتوجه منها إلى بلاد الشام (سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) وخاف الناس خوفاً عظيماً، وقصد ملك الروم (بزاغة) فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب. فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك عماد الدين زنكي فاستغاثوا به واستنصروه، فسير معهم كثيراً من جنده، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها. ثم إن ملك الروم قاتل بزاغة ونصب عليها منجنيقات، وضيق على من بها، فملكها بالأمان، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى، وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها - نحو أربعمائة نفس - وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى، فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات، فدخنوا عليها وهلكوا في المغاير. ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم، وأقاموا ثلاثة أيام، فلم يروا فيها طمعاً، وعادوا خاسرين، فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها، فملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بزاغة، والأسرى، ومعهم جماعة من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة. فلما علم حاكم حلب - الأمير أسوار - رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب. فأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم، وخلص الأسرى والسبي وعاد بهم إلى حلب. أما عماد الدين، فإنه نظم قوة خفيفة من الفرسان، لمطاردة مؤخرات الروم، وقطع الامداد عنهم، فسار ملك الروم إلى شيزر وحصرها وأقام عليها أربعين يوماً، فلما فشل في فتحها، ترك المجانيق وآلات الحصار، وعاد إلى بلاده.

أصبحت معظم بلاد الشام تحت حكم عماد الدين زنكي، وقد حاول ضم دمشق لحكمه وحصرها - كما سبق ذكره - غير أنه فشل في مسعاه، فلما كانت سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م، شهدت دمشق أحداثاً مثيرة، اجتذبت إليها إنتباه عماد الدين زنكي. وحملته على إعادة المحاولة لضم دمشق إليه. فقد قام غلمان صاحب دمشق - شهاب

الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغتكين ـ بقتله وهو على فراشه. فعمل **(معين الدين أنز)** على استدعاء أخيه جمال الدين محمد بن بوري الذي كان يحكم بعلبك ليملك دمشق بعد أخيه. فحضر في أسرع وقت، ودخل البلد، وحلف له الجند وأعيان الرعية. وسكن الناس، وفوض أمر دولته إلى (معين الدين أنز) وزاد في علو مرتبته وكان أنز خيراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام.

لم يكن عماد الدين زنكي بحاجة لما يحفزه للعمل، غير أن رسالة من زوجته (زمردخاتون) ★ والتي هي أم شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ـ المقتول ـ وصلت إلى عماد الدين أعلمته فيها شدة وجدها لقتل ولدها وحزنها عليه، وطلبت إليه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها. فلما قرأ عماد الدين الرسالة التي جاءته من حلب، وكان يومها بديار الجزيرة، بادر في الحال من غير توقف ولا تريث، وسار مجداً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بعلبك بعد أن حاول إغراء (معين الدين أنز) لتسليم دمشق مقابل بذول عظيمة يقدمها له فرفض

★ هي زمردخاتون ابنة جاولي ـ من زعماء التركمان ـ تزوجها تاج الملوك بوري. فولدت له شمس الملوك اسمعيل وجمال الدين محمد وشهاب الدين محمود. وكان هناك رجل اسمه يوسف بن فيروز ـ قد تمكن من أمور الدولة أيام بوري ثم في أيام ابنه اسمعيل بعده واتهم بأم شمس الملوك، فأراد شمس الملوك قتل أمه. فبلغها الخبر، فقتلته خوفاً منه والله أعلم. وعلى كل حال فقد عمل أمير من أمراء دمشق ـ واسمه ترواش ـ على قتل يوسف بن فيروز سنة ٥٣٠ هـ ولما رأى أتابك عماد الدين زنكي تمكنها من الحكم، أرسل إلى صاحب دمشق شهاب الدين يخطب إليه أمه ليتزوجها، وحملت إليه وهو في حمص فتزوجها سنة ٥٣٢ هـ ـ وإنما حمله على التزوج بها أن يملك دمشق بالاتصال إليها، فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها. فلما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ ـ عادت من حلب إلى دمشق، ثم زارت بغداد، وسارت من هناك إلى الحجاز، وجاورت بمكة سنة، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م كانت كثيرة البرّ والصدقات والصلاة والصوم. وهي أخت الملك دقاق بن تتش لأمه: وقد بنت مدرسة الخاتونية خارج دمشق ـ وإلى الغرب منها. وقل ما بيدها في آخر أيام حياتها حتى أنها كانت تتقوت من عملها في غربلة القمح والشعير.

معين الدين أنز العروض، مما حمل عماد الدين على السير إلى بعلبك، فلما وصلها نازلها، وضيق عليها، وجد في محاربتها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً، ترمي ليلاً ونهاراً حتى أشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان الأتراك، فقاتلهم، فلما أيسوا من معين ونصير، طلبوا الأمان، فأمنهم، فسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها، وملكها، غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم إلا القليل، فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم، وحذروه، لاسيما أهل دمشق. فقالوا: «**لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء**» فازدادوا نفوراً وجدوا في محاربته عندما رجع إليهم، بعد أن فتح بعلبك. ونزل على قرية داريا ـ في ظاهر دمشق، (سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) فالتقت الطلائع، واقتتلوا، وكان الظفر لعسكر زنكي. وعاد الدمشقيون منهزمين وقد قتل كثير منهم. ثم تقدم زنكي من البلد، فلقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجال الغوطة، فقاتلوه، فانهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومن سلم عاد جريحاً، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم. لكن عاد زنكي وأمسك عن قتال دمشق عشرة أيام، وتابع ارسال الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد، فمال إلى أن يسلم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوفوه عاقبة فعله، وأن يفعل ويغدر كما فعل بأهل بعلبك، فلما لم يسلموا إليه عاود القتال والزحف. وتصادف أن مات صاحب دمشق وولي بعده (**مجير الدين أبق**) ابن صاحبها جمال الدين، وتولى ترتيب دولته (**معين الدين أنز**) فلم يظهر لموت جمال الدين أثر مع أن عددهم على باب المدينة.

ورأى (معين الدين أنز) أن زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، فراسل الفرنج واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتفقوا على محاربة زنكي، وأبعاده عن دمشق، وبذل لهم بذولاً، منها أن يسير إلى بانياس ـ التي كانت تابعة لحكم زنكي ـ وأن يأخذها ويسلمها لهم. كما خوفهم من زنكي إن ملك دمشق. فعلموا صحة قوله. وعرفوا أنه إن ملك دمشق لا يبقى لهم معه بالشام مقام.

واجتمع الفرنج، وعزموا على المسير إلى دمشق ليلتقوا بصاحبها وعسكرها،

ويتعاونوا على قتال زنكي. وعندما علم زنكي بذلك، سار إلى حوران لقتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين. فلما عرف الفرنج خبره، لم يفارقوا بلادهم. فلما رآهم زنكي على هذه الحال، عاد إلى حصر دمشق، ونزل (بعذرا) شمالي دمشق، فأحرق عدة قرى من المرج والغوطة. ورحل عائداً إلى بلاده ـ الموصل ـ. ووصل الفرنج إلى دمشق. واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي. فسار معين الدين أنز في عسكر دمشق إلى بانياس. وحصرها، وقاتل حاميتها، وضيق عليها، حتى أخذها وسلمها إلى الفرنج. ولما سمع زنكي بحصر بانياس، عاد بسرعة إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها. وأقام هناك. فلما عاد عسكر دمشق بعد أن ملكوا بانياس وسلموها للفرنج، فرق زنكي عسكره، وأطلقهم للإغارة على حوران وأعمال دمشق، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان ليلاً، وباغت حامية دمشق ولما يعرف أحد خبره. فلما أصبح الناس ورأوا عسكره، اجتمعوا على السور، وفتحت الأبواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه. ولم يقدم زنكي على خوض المعركة لأن معظم جنده كانوا قد تفرقوا في البلاد. وانصرفوا للنهب والتخريب، وكان قصده من الاغارة على دمشق هو منع عسكرها من مغادرتها، والهجوم على عسكره وهم متفرقون. فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة. ثم أحجم زنكي عنهم، وعاد إلى خيامه. ثم رحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم. لأنهم طرقوا البلاد وأهلها غافلون. فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلاده.

انصرف عماد الدين لإعادة تنظيم أمور قاعدته الأساسية ـ الموصل ـ فأخضع لحكمه المناطق المتاخمة لحدود امارته، وأعاد فتح ماردين وحلين والموزر وغيرها من القلاع التي كانت خاضعة لحكم أمير الرها ـ الكونت جوسلين ـ ورتب أمور الجميع، ووضع فيها من الأجناد من يحميها ويدافع عنها. وقصد مدينة آمد وحاني. وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه، ومحصراً لما لم يفتحه، وينتظر الفرصة المؤاتية لتحقيق أكبر أهدافه وهو إعادة فتح الرها.

كان ضرر الفرنج قد عمّ بلاد الجزيرة، واستطار شرهم، ووصلت غاراتهم إلى أداني الجزيرة وأقاصيها حتى بلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت ممتلكاتهم

بهذه الديار تمتد من قرب ماردين إلى الفرات. وتشمل فيما تشمله الرهـا وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحملين والفرادي وغيرها. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات تحت حكم أمير الرهـا ـ جوسلين ـ الذي كان مقدم الفرنج وقائد جندهم والمتحكم بأمورهم لما عرف عنه من الشجاعة والمكر. وعرف عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع فتح الرهـا إلا إذا عاجلها بهجوم مباغت، وبات يتحين الفرصة المناسبة، حتى إذا ما توافرت له المعلومات عن مغادرة أمير الرهـا لبلده، قام بهجومه، وحاصرها وفتحها عنوة★. وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الفتح المبين، فقد تم تدمير أول إمارة للفرنج على أرض الشام. وكان ذلك نذراً خطيراً قرع أبواب الغرب الصليبي بعنف. ففتح الفرنج أبوابهم وأطلقوا حملتهم الصليبية الثانية.

لم ينعم أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر طويلاً بانتصاراته. فقد قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة★★ وشعر الفرنج بالفرحة الكبرى، وتناقلوا البشائر بموته. ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم كانوا مفرطين في تفاؤلهم. فقد عمل ولداه ـ سيف الدين غازي ونور الدين محمود ـ على اقتسام إدارة ممتلكاته، فأخذ سيف الدين غازي ولاية الموصل، فيما جعل نور الدين محمود من مدينة حلب قاعدة له. ومضى على نهج أبيه في محاربة الفرنج. وكان أول عمل له هو إعادة فتح الرهـا. التي حاول ـ جوسلين ـ استعادتها، فأحبط محاولته. ودمر الرهـا.

★ انظر الفصل الثاني: (القلاع والحصون ـ الرهاء).

★★ قتل أتابك عماد الدين زنكي لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م. وقد زاد عمره على ستين سنة، قتل والده وهو صغير، فأظهر كفاءة عالية. وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها، وامتلأت أهلاً وسكاناً. وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك. وكان أيضاً شديد الغيرة على نساء الأجناد، وكان يقول: إن لم تحفظ نساء الأجناد فسدن، لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار. وكان أشجع خلق الله. وكان الأعداء محيطين ببلاده محدقين بها، وكلهم يقصدها ويريدون أخذها. فلم يقنع بحفظها، حتى أنه لا ينقضي عليه عام حتى يفتح من بلادهم. وقد اختلطت ولايته بالأعداء من كل جهاتها. فكان يقصد هذا مرة، وهذا مرة، ويأخذ من هذا، ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه

٦ ـ التحول الحاسم .

بدأ نور الدين محمود عهده بمواجهة الحملة الصليبية التي توجهت إلى دمشق ـ وهي الحملة الصليبية الثانية ـ على أمل التعويض عن ضياع إمارة الرهـا من قبضة الفرنج. واستطاع المسلمون احباط هجوم الفرنج وتدمير قواتهم، بفضل تعاون أمير دمشق (معين الدين أنز) مع نور الدين محمود . وما إن انزاح الخطر عن دمشق، حتى سار نور الدين إلى (حصن العزيمة) لإعادة فتحه وانتزاعه من قبضة الفرنج. وكان السبب في ذلك هو أن ملك الالمان كان قد اصطحب معه في الحملة الصليبية الثانية، ابن حاكم طليطلة ـ الفونسو ـ والذي كان جده قد استولى على طرابلس الشام وحصن العزيمة. فأراد هذا الابن اتخاذ حصن العزيمة مقراً له لتكوين امارة صليبية يحكمها . فسار إليه نور الديـن ومعـه معين الديـن أنـز ، وأرسلا إلى سيـف الديـن ـ وهـو بحمـص ـ يستنجدانه ، فأمدهما بجيش كثيف، فنـازلـوا الحصـن وحصروه وبـه ابـن الفـونسـو ـ الفنش ـ فامتنع به، وزحف إليه المسلمون غيـر مرة، وتقدم إليه النقابون فنقبوا السور ، فاستسلم حينئذ من به من الفرنج، وملكه المسلمون، وأخذوا كل من به من فارس وراجل وصبي وامرأة ـ وفيهم ابن الفنش ـ وأخربوا الحصن (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م) وعادوا إلى سيف الدين. وكان مثل ابن الفنش كما قيل: **« خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين »** .

لقد كان ذلك تحولاً حاسماً في خط مسار الحرب ضد الفرنج، إذ استطاع المسلمون تدمير أكبر حشد للفرنج على أبواب دمشق، وأحبطوا أهداف الحملة الصليبية الثانية،

= طرفاً من بلده. وأشاع الأمن في بلاده، وعانى في حياته كثيراً من الخطوب، فما أصابه الوهن ولا الضعف. واستعان بالاكفاء من الرجال ممن عرف تقواهم وعدلهم في الرعية وحسن سياستهم للأمور. وكان عماد الدين يساوي عسكره في مأكله ومشربه ومسيره ونومه، ويسبقهم في خوض غمار الحرب.

وانتقلوا إلى الهجوم. غير أن طريق الصراع لا زال طويلاً وشاقاً. ولكن معالم الطريق باتت واضحة كل الوضوح. وظهر ذلك من خلال اعمال نور الدين محمود وانجازاته.

أراد الفرنج القيام بتظاهرة قوة للتعويض عن هزائمهم، فحشدوا جوعهم وساروا إلى حلب للإغارة عليها. فعلم نور الدين فسار إليهم بجيشه، والتقوا - ببغرى - القريبة من حلب، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وأجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم، وأسر جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل، وأرسل من الغنيمة والأساري إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد. وإلى السلطان مسعود وغيرهم★.

لقد كان على نور الدين محمود بعد ذلك أن ينصرف لبعض المشكلات الداخلية. فقد توفي أمير الموصل، سيف الدين غازي بن أتابك بن زنكي (سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) فتولى أخوه (قطب الدين مودود) إمارة الموصل، الأخ الأصغر لنور الدين محمود. ويظهر أن نور الدين كان يخشى خروج أخيه على طاعته، فانطلق مسرعاً إلى سنجار، وليس معه إلا قوة صغيرة من الفرسان الخفيفة، حيث حصل على الدعم اللازم الذي يمكنه من التحرك إلى الموصل. واجتمع قطب الدين مع أركان دولته، وحشد جيشه وسار إلى سنجار وهو يقصد سنجار. واجتمع قطب الدين بأركان دولته، وقال لهم:

«ليس من الرأي قتال نور الدين فنحن الذين عظمنا مكانته عند السلطان وما يقوم به من الغزو، وجعلنا أنفسنا دونه. كما أنه هو الذي أظهر للفرنج عظمتنا وقوتنا، وأنه تابع لنا، وهو لا يزال يقول لهم: إن كنتم كما أحب وإلا

★ وقال ابن القيسراني في هذه الوقعة قصيدة طويلة، مطلعها:

يا ليت أن الصد مصدود	أولا فليت النوم مردود
وكيف لا يثنى على عيشنا الـ	ـمحمود والسلطان محمود.
وصارم الإسلام لا ينثني	إلا وشلو الكفر مقدود.
مكارم لم تك موجودة	إلا ونور الدين موجود.
وكم له من وقعة يومها	عند الملوك الكفر مشهود.

سلمت البلاد لصاحب الموصل، وحينئذ يفعل بكم ويصنع. فإذا لقيناه، وهزمناه، طمع السلطان فينا، وقال: هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به وإذا به أضعف منهم. وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج وقالوا: إن الذين يحتمي بهم هم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة».

وأشار عليهم بالصلح. وسار هو إليه واصطلح معه. وسلم نور الدين بلدة سنجار إلى أخيه قطب الدين، وتسلم مقابل ذلك مدينة حمص والرحبة - الميادين حالياً - ولم يكن نور الدين يريد غير ذلك، وعاد نور الدين إلى حلب، وحمل معه ما كان قد ادخره أبوه - عماد الدين - من الخزائن، وكانت كثيرة جداً.

صار باستطاعة نور الدين متابعة جهده وجهاده ضد الفرنج الصليبيين، **فقاد جيشه** إلى - حارم - وخاض معركة قاسية، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وقتل أمير انطاكية. وفي السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠م) نجح نور الدين بفتح حصن أفامية.

جابه نور الدين محمود مأزقاً من مآزق الحرب الصعبة (سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) عندما سار بجيشه لقتال جوسلين الذي كان فارس الفرنج غير مدافع، وقد جمع الشجاعة والرأي، فلما علم بتحرك نور الدين جمع الفرنج فأكثر، والتقى بجيش نور الدين واقتتلوا شمال حلب. فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان في جملة من أسر سلاح نور الدين، فعمل - جوسلين - على ارسال سلاح نور الدين إلى ملك قونية - مسعود بن قلج أرسلان - وقال له:

«هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

فلما علم نور الدين بذلك، عظم عليه الأمر، وأعمل الحيلة على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان. وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيداً، فلحقت به طائفة منهم، وظفروا به. فصانعهم على مال يؤديه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب - أبو بكر بن

الداية ـ فأعلمه الحال، فسير جنداً معه وباغتوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً، وأحضروه عنده. وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه في شمال حلب. فملكها وهي: تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاتا ودلوك ومرعش ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله. وقد تم فتح ذلك كله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج. فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو★.

حاول الفرنج في السنة التالية (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) استعادة ما فتحه نور الدين من بلاد جوسلين، فجمعوا جموعهم وساروا لقتاله، ووقعت معركة عند (دلوك). واقتتل الفرنج والمسلمون أشد قتال رآه الناس. وصبر الفريقان، ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير، وعاد نور الدين إلى دلوك ففتحها وأعادها إلى حكم المسلمين.★★.

★ أكثر الشعراء من مدح نور الدين لما قام به من أعمال ـ من ذلك قول القيسراني من قصيدة طويلة:

كما أهدت الأقدار القمص أسره ... وأسعد قرن من حواملك الأسر
طغى وبغى عدواً على غلوائه ... فأوبقه الكفر أن عدواه والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق على النسرين لو أنها وكر
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لافل حده ... وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبحت البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء له طهر

★★ مما قيل في نصر نور الدين على الفرنج:

أعدت بعصرك هذا الأنيـ ... ـق فتوح النبي وأعصارها
فواطأت يا حبذا أحد بها ... وأسررت من بدر أبدارها
وكان مهاجرها تابعيـ ... ـك وأنصار رأيك أنصارها

بقي الاستيلاء على دمشق هو الهدف الأول في مخططات نور الدين محمود ـ بمثل ما كان عليه لدى والده عماد الدين ـ غير أن نور الدين سلك نهجاً جديداً لبلوغ هدفه، وزاد من تصميمه لبلوغ هدفه ما حدث من تطورات في الجنوب، فقد استولى الفرنج الصليبيون على (عسقلان) سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وتدهور الموقف الداخلي على جبهة مصر. وكانت دمشق تعترض سبيل أي تحرك لقوات نور الدين بين بلاد الشام ومصر. ولهذا عمل نور الدين على توثيق صلاته بأمير دمشق مجير الدين، واستماله حتى وثق به، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة، حتى إذا ما شعر بأنه أصبح متمكناً من مجير الدين، أخذ في تدمير جهاز الدولة التي يعتمد عليه مجير الدين وذلك عن طريق مجير الدين ذاته. فكان يقول له: «إن فلاناً قد كاتبني في تسليم دمشق». فكان مجير الدين يبعد الذي قيل عنه ويأخذ إقطاعه. وكان آخر هؤلاء الأمراء عطاء بن حفاظ السلمي الخادم والذي اشتهر بشجاعته وشهامته. فلما أبعده مجير الدين وقتله، سار نور الدين إلى دمشق؛ وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستمالهم، فوعدوه بالتسليم إليه. فلما حضر نور الدين إلى دمشق، أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، ويسلمهم قلعة بعلبك مقابل نجدتهم له لابعاد نور الدين. وشرع الفرنج في حشد فارسهم وراجلهم، ولكن نور الدين تحرك بسرعة أكبر، وتسلم دمشق. فعاد الفرنج بخفي حنين (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وسار مجير الدين إلى العراق، وأقام ببغداد.

لقد مضت فترة زادت على الستين عاماً، منذ أن استولى الفرنج على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ولما تقدم مصر لقتال الفرنج ما يتناسب مع قدراتها، ومع امكاناتها، وانصرفت لصراعاتها الداخلية، غير أن ذلك لم يصرف المسؤولين فيها عن متابعة ما كان يحدث على الساحة الإسلامية في بلاد الشام. ولقد أنعشت انتصارات

= فجـــددت إســلام سلمانهــا وعمـــر جســـدك عمارهـــا
ومـــا يـــوم أنـــب إلا كـــذا ك بـــل طـال بـالنـوع أشبـارهـــا
صـــدمـت عـــزيمتهـــا صـــدمـة أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا
وفي تـــل بـــاشر بـــاشرتهم بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا
وإن دالكتهـــم دلـــوك فقـــد شـــددت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

نور الدين محمود الأمل في قلوب المسلمين. ولقد برز ذلك في مناسبات كثيرة ـ منها على سبيل المثال اسهام وزير مصر الصالح بن رزيك والذي قتل سنة ٥٥٨ هـ في الصلح بين نور الدين زنكي صاحب الشام وبين قلج أرسلان ـ حيث أرسل الصالح بن رزيك رسالة ـ شعرية ـ★ إلى قلج أرسلان ينهاه عن قتال نور الدين محمود، وينصحه بالتعاون معه لمصلحة المسلمين. وعلى كل حال، فقد تدهور الموقف على جبهة مصر تدهوراً خطيراً (سنة ٥٥٨ هـ) بحيث كان فيها ثلاثة وزراء في وقت واحد هم: العادل بن الصالح بن رزيك، وشاور، وضرغام. وكان لا بد من تفجّر الصراع بين هؤلاء الوزراء الثلاثة، وما يتبعهم من مراكز القوى. وأدى هذا الصراع إلى قتل العادل ابن الصالح بن رزيك، وسيطر ضرغام على الموقف، مما أرغم خصمه شاور على الهرب من مصر، واللجوء إلى نور الدين محمود لينتصر له من خصمه ضرغام.

★ كان مما تضمنته الرسالة الشعرية الطويلة التي أرسلها الصالح بن رزيك ـ وزير مصر ـ إلى قلج أرسلان:

نقـول ولكـن أيـن مـن يتفهـم	ويعلـم وجـه الرأي والرأي مبهـم
ومـا كـل مـن قـاس الأمـور وسـاسهـا	يـوفـق للأمـر الذي هـو أحـزم
ومـا أحـد في الملـك يبقـى مخلـدا	ومـا أحـد مما قضـى الله يسلـم
أمن بعـد مـا ذاق العـدا طعـم حـربكـم	بفيهـم وكـانـت وهـي صـاب وعلقـم
رجعتم إلى حكـم التنـافس بينكـم.	وفيكـم مـن الشحنـاء نـار تضرم
أمـا عنـدكم مـن يتقـي الله وحـده	أمـا في رعـايـاكم مـن النـاس مسلم
تعـالـوا لعـل الله ينصر دينـه	إذا مـا نصرنـا الديـن نحـن وأنتم
وننهـض نحـو الكـافـريـن بعـزمـة	بـأمثـالها تحـوي البـلاد وتقسم

لا ـ عشر سنوات من تاريخ مصر

عندما تولى الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله منصب الخلافة سنة ٥٥٥ هـ = ١١٥٩ م. لم يكن له من السلطة والخلافة إلا اسمها ورسمها، فقد كانت أمور الخلافة قد انحلت منذ زمن بعيد، ولهذا لم يكن غريباً أن تتصارع مراكز القوى بمعزل عن إرادة دار الخلافة، ولهذا أيضاً فعندما انتصر الوزير ضرغام على الوزير شاور، وخرج شاور هارباً إلى بلاد الشام، لم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة للخليفة العاضد لدين الله. وكان باستطاعة شاور أن يفاوض نور الدين محمود، وأن يتقدم إليه مستجيراً به على خصمه، على أساس أن عودته للسلطة هي عودة شرعية طالما أنها تعتمد على القوة المادية من جهة وعلى مباركة الخليفة الفاطمي من جهة ثانية. وكان الوزير يتمتع بكامل السلطة التي تسمح له بالتفاوض، وعلى كل حال، فقد تقدم شاور إلى نور الدين بعرض سخي:

أن يكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر، وأن يكون الجيش الذي سيرسله نور الدين إلى مصر تابعاً لنور الدين وخاضعاً لأوامره، وأن يلتزم شاور بأوامر نور الدين وتوجيهاته.

استقبل نور الدين الوزير شاور بالحفاوة والترحاب، وأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه. غير أن تردد في قبول عرض شاور ـ على ما أشار إليه ابن الأثير بقوله: **« كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ـ فيدفعه لقبول العرض ـ وتارة يمنعه خطر الطريق، وتخوفه من عدم وفاء شاور إذا ما استقر له الأمر بما تضمنه عرضه. ثم قوي عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها ».**

كان لا بد من اختيار قائد تتوافر له كفاءة قيادية عالية لقيادة الجيش الذي تقرر

ساله إلى مصر. ووقع اختيار نور الدين على (أسد الدين شيركوه)★ وأمره (**بأن يعيد شاور إلى منصبه، وأن ينتقم له ممن نازعه**). وسار أسد الدين بجيشه (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) وقاد نور الدين محمود جيشه، إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق حتى يمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين وجيشه. فكان قصارى جهد الفرنج هو حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسد الدين وجيشه إلى مدينة بلبيس، فخرج إليهم ناصر الدين أخو الوزير ضرغام ومعه جيش مصر. ودارت معركة انتصر فيها أسد الدين، وعاد ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة وقتل عند مشهد السيدة نفيسة. وعاد شاور إلى الوزارة، وتمكن منها. وأقام أسد الدين وجيشه بظاهر القاهرة. فغدر به شاور، وعاد عما كان قد تعهد بتقديمه لنور الدين وجيشه. ليس ذلك فحسب، بل إنه أرسل إليه أمراً بالعودة إلى بلاد الشام. فامتنع أسد الدين عن الاجابة، وطلب منه الوفاء بما تعهد بتقديمه. ولما لم يجبه شاور، أرسل أسد الدين إلى نوابه أمراً باحتلال - بلبيس - والإقامة فيها، ونظم جهاز الحكم في البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إذا ما ملك نور الدين بلاد مصر. فلما وصلتهم رسالة شاور، أسرعوا لاغتنام الفرصة، وتجهزوا وساروا، فلما علم نور الدين بتحرك الفرنج نحو مصر، سار بجيشه إلى

★ أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب، هما ابنا شاذي من بلدوين من أذربيجان، وأصلهما من الأكراد الزوادية. وهذا القبيل هم أشرف الأكراد. فقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز قائد حامية بغداد. فرأى من نجم الدين عقلاً وافراً وحسن سيرة - وكان أكبر من شيركوه - فجعله قائداً لحامية قلعة تكريت، وتصادف أن مني زنكي بن آقسنقر بهزيمة في معركة ضد قراجا الساقي سنة ٥٢٦ هـ - فقام نجم الدين بإعداد السفن لزنكي حتى عبر دجلة. وحفظ لهما زنكي هذا الجميل. وضمهما لخدمته. فلما ملك قلعة بعلبك، جعل أيوب قائداً لحاميتها. وصار من أكبر الأمراء عند نور الدين. وكذلك أخوه أسد الدين شيركوه الذي كان في خدمة عماد الدين زنكي - والد نور الدين - فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها، فزاده حتى صار له حمص والرحبة - الميادين - وغيرهما، وجعله مقدم جيشه. وأسهم أسد الدين وأخوه أيوب في فتح دمشق مما زاد من مكانتهما عند نور الدين. فلما أراد توجيه جيش إلى مصر. اختار أسد الدين لقيادته. وتوفي أسد الدين سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٦٤ هـ).

أطراف البلاد التي أخضعها الفرنج لحكمهم. فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ما ملك نور الدين مصر، هو خطر أكبر. ولهذا تركوا في بلادهم من يحميها وسار ملك القدس على رأس جيشه إلى مصر. وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة القدس - والحج - فاستعان بهم الفرنج، فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم في البلاد لحمايتها والدفاع عنها.

فلما اقترب الفرنج من مصر، انسحب أسد الدين بجيشه إلى بلبيس، فأقام بها وحمى مؤخراته، والتقى جيش مصر بجيش الفرنج وضربوا حصاراً على أسد الدين وجيشه، واستمر الحصار طوال ثلاثة أشهر، وأسد الدين ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا فصل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

فبينما هم كذلك، إذ أتاهم خبر هزيمة الفرنج في حارم - على يد نور الدين وجيشه - وفتح حارم، وتوجه نور الدين بجيشه إلى بانياس، فخاف الفرنج، وأرادوا العودة إلى بلادهم لحمايتها. فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين. فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالفرنج في بلاد الشام، ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه.

نظم أسد الدين انسحاب جيشه من - بلبيس - ووقف لحماية انسحاب المؤخرة، وليس في يده إلا قضيب - لت - من حديد. فما كان المصريون والفرنج يرقبونه باعجاب، وتقدم إليه جندي من الفرنج الذين جاؤوا عن طريق البحر، وقال له:

«أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقية؟».

فأجابه أسد الدين شيركوه:

«يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله. كنت والله أضع السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال. وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد

ضعفوا وفني شجعانهم، فنملك بلادهم. ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء ـ يقصد قادته ـ لخرجت إليكم من أول يومهم. ولكنهم امتنعوا».

فرسم جندي الفرنج شارة الصليب على وجهه، وقال: «كنا نعجب من فرنج هذه البلاد، ومبالغتهم في صفتك، وخوفهم منك. والآن فقد عذرناهم» ثم رجع.

سار أسد الدين شيركوه إلى الشام، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه، أو ينالوا منه ظفراً، فعاد عن ذلك الطريق.

عاد أسد الدين لخدمة نور الدين زنكي، وهاجس الحديث عن مصر وضرورة العودة إليها لم يفارقه. وتمكن من اقناع نور الدين لتوجيه الجيش مرة أخرى إلى مصر. فأذن له، وضم إليه جماعة من الأمراء، وقوة من ألفي فارس. وسيَّر معه جمعاً لمرافقته خوفاً من حادث يتجدد عليهم فتضعف قوة المسلمين. وسار أسد الدين بجيشه إلى مصر، وترك بلاد الفرنج على يمينه (سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م) وتوجه عندما وصل مصر إلى بلدة ـ اطفيح ـ وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة، وتصرف بالبلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

فما كان من شاور إلا أن أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين.

فساروا إلى مصر والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم حتى وصلوا وعبروا إلى الجانب الغربي من النيل، فسار أسد الدين وجيشه نحو الصعيد حتى وصل ـ البابين ـ وسار في اثره جيش مصر وجيش الفرنج، وكانت جواسيس أسد الدين التي تركها وراءه توافيه، تباعاً بعدد افراد قوات العدو، وعددهم. فلما رأى كثرتهم عزم على قتالهم، ولكنه خاف من أن تضعف نفوس أصحابه عن القتال في هذا الموقع الخطر والذي لا تتوافر فيه شروط جيدة تعادل ما به من شروط سيئة ـ منها: قلة العدد والبعد عن الوطن وخطر الطريق. فاستشار أسد الدين أصحابه، فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام. وقالوا له: «إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على

الظن، فإلى أين نلتجىء؟ وبمن نحتمي؟ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح هو عدو لنا». وعندها نهض صاحب برغش وهو أحد الأمراء من مماليك نور الدين واسمه شرف الدين برغش، وكان معروفاً بشجاعته، وقال:

«من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يبقى في بيته مع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية ـ راتب ـ وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوّهم. وتسلّمون بلداً مثل مصر إلى الكفار. والحق بيده».

فقال أسد الدين: «هذا هو الرأي وبه أعمل» وقال ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب مثل قوله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال. فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج، وهو على تعبية، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه:

«إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أني فيه. فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، وانسحبوا من أمامهم. فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم».

اختار أسد الدين من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفتان، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على مؤخرة الفرنج والمصريين ـ من الفرسان والمشاة ـ فهزمهم، ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من مطاردة القلب رأوا عسكرهم مهزوماً والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً ـ وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر ومعهم عساكر الفرنج.

انطلق أسد الدين بجيشه من البابين، وسار إلى ثغر الاسكندرية، وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال. ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها، واستناب بها ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب. وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله، وأقام به. عمل الفرنج والمصريون بعد هزيمتهم على الانسحاب من البابين إلى القاهرة، حيث أعادوا تنظيم قواتهم، وجمعوا قوات جديدة، وساروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقلّ الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم. وكان شاور قد أفسد بعض من كان مع أسد الدين من التركمان.

فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح. وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج ألا يقيموا بالبلاد، وألا يتملكوا منها ولو قرية واحدة.

فأجابوا إلى ذلك. واصطلحوا وعاد أسد الدين إلى الشام، وتسلم المصريون الاسكندرية.

لكن شاور اتفق مع الفرنج على النكث بشروط الاتفاق مع أسد الدين، فاستقر الأمر بين شاور والفرنج على أن تقيم حامية لهم بالقاهرة. وأن تكون أبوابها بيد الفرنج، حتى يمتنع نور الدين عن ارسال جيشه من جديد إلى مصر، وكذلك أن يقدم شاور للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار. وقد جرى ذلك كله بالاتفاق مع شاور ودون الرجوع إلى الخليفة الفاطمي العاضد الذي لم يكن له معه حكم لأن شاور قد حجر على الخليفة وحجبه عن الأمور كلها.

وعاد الفرنج إلى فلسطين وقد خلفوا وراءهم في القاهرة حامية قوية ضمت جماعة من مشاهير فرسانهم.

استقبل كثير من المصريين هذا الاتفاق بالاستياء وعدم الرضى، حتى أن الكامل شجاع بن شاور ذاته لم يكن راضياً عما فعله أبوه، فأرسل مع بعض الأمراء إلى نور

الدين ينهي إليه محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنه يفعل هذا، وبذل مالاً يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحمل إليه مالاً جزيلاً، واستمر على ذلك. وعلى كل حال. فلقد سارت الأمور في مصر لمصلحة نور الدين والمسلمين. فقد عمل الفرنج بعد أن تمكنوا في مصر، على حكم المسلمين حكماً جائراً. وركبوهم بالأذى العظيم. ولما رأى الفرنج ذلك، وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ـ املريك ـ والذي لم يكن للفرنج مذ وصلوا إلى بلاد الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء ـ يستدعونه ليملك مصر، وأعلموه خلوها من الموانع، وهونوا أمرها عليه، فلم يجبهم. فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها. فقال لهم:

«الرأي عندي أن لا نقصدها. ولا طمع لنا فيها طالما أن أموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين. وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين. ولئن صار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام».

فلم يقبلوا قوله. وقالوا له: «ليس في مصر من يحميها ـ وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا منها. وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة». فسار ملك القدس ـ املريك، أو مري ـ على كره منه بعد أن حشدوا قواتهم وقاموا بتظاهرة خداعية بأنهم يريدون التوجه إلى حمص، ثم ساروا بسرعة حتى وصلوا إلى مدينة ـ بلبيس ـ وحصروها وملكوها قهراً ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وعمل جماعة من أعيان المصريين ـ منهم ابن الخياط وابن فرجلة ـ على الكتابة إلى الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوة منهم لشاور. مما شجع الفرنج على المضي في تقدمهم نحو القاهرة. ولكن المصريين الذين علموا بما فعله الفرنج في بلبيس من القتل والنهب والأسر، خافوا من أن يفعل بهم الفرنج بمثل ما فعلوه بأهل بلبيس، فقرروا المقاومة والامتناع عن تسليم البلد، واتفقوا على القتال والدفاع. وبذلوا جهدهم. ولما شعر الوزير شاور بشدة المقاومة أمر باحراق مدينة مصر (في التاسع من صفر سنة أربع وستين

وخمسمائة = ١١٦٨ م) وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة. وأن ينهب البلد، فانتقلوا. وبقوا على الطرق. ونهبت المدينة، وافتقر أهلها، وزالت عنهم نعمتهم وذهبت أموالهم. وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد لدين الله رسالة إلى نور الدين يستغيث بها، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل مع الرسالة شعور النساء، وقال: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج».

شدد الفرنج الحصار على القاهرة، وضاق شاور ذرعاً بالمقاومة، وضعف أمره، فلجأ إلى الحيلة، وأرسل إلى ملك الفرنج رسالة عبر فيها عن مودته ومحبته، وأكد أن هواه معه لخوفه من نور الدين ومن الخليفة العاضد لدين الله، وذكر أن المسلمين لا يوافقونه على التسليم للفرنج، وأشار عليه بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين، **فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويمهل بالبعض،** واستقر الاتفاق بينهم على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت على شاور، وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين. وقالوا: «نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي بنور الدين». وعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً. وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر. فلم يتجمع له إلا خمسة آلاف دينار، لأن دور أهل مصر كانت قد احترقت، ونهب وسلب ما سلم منها، فباتوا وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط. أما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم. ولهذا تعذرت عليهم الأموال.

استمر أهل مصر خلال ذلك في ارسال الرسائل إلى نور الدين، وشرحوا له ما نزل بالمسلمين من البلاء، وبذلوا له ثلث بلاد مصر. وأن يبقى أسد الدين وجيشه في مصر، مقابل منحهم الاقطاعات من البلاد المصرية ـ علاوة على الثلث.

كان نور الدين بحلب لما وصلته رسائل الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، فأرسل

الرسل لاستدعاء أسد الدين شيركوه من حمص. وكان أسد الدين قد تلقى رسائل مماثلة من أهل مصر وأعيانها، فخرج من حمص قاصداً نور الدين بحلب، فالتقى برسل نور الدين قرب حلب، فرجع وإياهم، وعجب نور الدين من حضور أسد الدين في الحال، وسرّه ذلك وتفاءل به. وأمره بالتجهز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأطلق يده في اختيار الجند وأخذ ما يحتاجه من المال. فاختار ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق، حيث أعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من راتبه ـ جامكيته ـ. وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء، منهم مملوكه عزّ الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه الذي رافق عمّه في هذه الحملة على كره منه★. وسار أسد الدين بجيشه مجداً من رأس الماء، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم خائبين.

وعلم نور الدين بعودهم فسره ذلك. وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر، وحفظاً لبلاد الشام وغيرها.

ودخل أسد الدين الى القاهرة، واجتمع بالخليفة العاضد لدين الله الذي خلع عليه. ثم عاد أسد الدين الى خيامه. وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره

★ حكى صلاح الدين قصته في هذه الحملة بعد أن أصبح أميراً على مصر، فقال: « ... لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر. أحضرني وأعلمني الحال. وقال: امضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثه أنت على الاسراع فما يحتمل الأمر التأخير. ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى. فأمره نور الدين بالمسير. فلما قال له نور الدين ذلك، التفت عمي إلي، فقال: تجهز يا يوسف. فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها مالا أنساه أبداً. فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فتأمر به. فأمرني نور الدين وأنا أستقيل. وانقضى المجلس، وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة فأعطاني ما تجهزت به. فكأنما أساق إلى الموت » الكامل في التاريخ إحداث سنة ٥٦٤ هـ.

الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة. ولم يكن باستطاعة شاور القيام بأي عمل مضاد نظراً لكبر جيش أسد الدين، ونظراً لحصول أسد الدين على دعم الخليفة العاضد وتأييده. ولهذا لم يجرؤ على اظهار ما في نفسه، ولكنه شرع في مماطلة أسد الدين بتنفيذ ما بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين. واستمر في الركوب كل يوم إلى أسد الدين والسير معه، وقطع الوعود. ثم إنه عزم على أن يوجه دعوة لأسد الدين والأمراء الذين معه، والقبض عليهم، وتولي قيادة جندهم بنفسه لحماية البلاد من الفرنج. فنهاه ابنه الكامل وقال له: «والله لئن عزمت على هذا الأمر، لأعلمن شيركوه». فقال له أبوه: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً» فأجابه ابنه الكامل:

«صدقت! ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. فإنه ليس بينك وبين عودة الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه. وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد».

فترك شاور ما كان عزم عليه. وكان قادة جيش أسد الدين يتوجسون شراً كلما شاهدوا ـ شاور ـ في معسكرهم. فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعزّالدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، فنهاهم أسد الدين فسكنوا، واتفق أن جاء شاور الى معسكر أسد الدين على عادته، فلم يجد أسد الدين في خيمته، وقام جمع من العسكر بخدمته وأعلموه بأن أسد الدين قد مضى لزيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولقيه صلاح الدين وجرديك فسارا مع شاور لمسافة قصيرة، ثم ألقياه أرضاً وأخذاه أسيراً، وهرب من كان معه من الحرس. ولكنهما لم يتمكنا من قتله قبل الحصول على موافقة أسد الدين، فتوكلوا بحفظه، وسيروا إلى أسد الدين من يعلمه بما حدث. فحضر، فرأى أنه لا بد من إكمال ما بدأ صلاح الدين وجرديك بتنفيذه. وعلم الخليفة العاضد لدين الله بما حدث، فأرسل إلى أسد الدين وطلب منه ارسال رأس شاور، وتتابع الرسل بذلك، فقتل شاور، وأرسل رأسه الى العاضد. ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما هاله، وما أخافه على نفسه، فقال لهم: «إن أمير

المؤمنين ـ يعني العاضد ـ يأمركم بنهب دار شاور». فتفرق الناس عنه، وساروا إلى دار شاور لينهبوها. وكان الكامل بن شاور قد دخل وإخوته إلى قصر أبيهم واعتصموا به، فكان آخر العهد بهم، وعندما علم أسد الدين بقتلهم شعر بالحزن والأسف، لما كان يحمله من التقدير والحب للكامل ـ وكان يقول:

«وددت أنه بقي حياً حتى أحسن إليه جزاء صنيعه».

استقبل الخليفة العاضد في قصره أسد الدين شيركوه، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار أسد الدين بخلع العاضد الى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع. واستعمل على أعماله من يثق إليه من أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره. ولكن المنية عاجلته قبل أن ينعم بالهدوء والاستقرار والملك. فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م. أسرع الخليفة العاضد فجمع مستشاريه لمناقشة الموقف بعد وفاة أسد الدين، وكان في الجيش جماعة من الأمراء كلهم يرى في نفسه أنه الأفضل لتولي الوزارة. ولكن مستشاري العاضد وأصحابه قالوا للعاضد:

«ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من صلاح الدين يوسف، والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد. ثم نأخذ صلاح الدين أو نخرجه».

وأخذ العاضد بهذا الرأي. واستدعى صلاح الدين، وأحضره عنده، وخلع عليه، وولاّه الوزارة بعد عمّه. ورفض معظم أمراء الجيش الخضوع لصلاح الدين. ولكن الفقيه عيسى الهكاري تمكن من اقناع معظم الامراء بالخضوع لصلاح الدين. وعاد من أصرّ على الرفض الى بلاد الشام، ليعمل مع نور الدين الذي تقبل الأمر بالرضى، وشرع بالكتابة إلى صلاح الدين بلقب الاسفهسلار ـ قائد الجيوش ـ صلاح الدين. وفعل مثل ذلك كافة أمراء الجيش بالديار المصرية. واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه وأحبوه. وضعف أمر الخليفة العاضد، ثم أرسل

صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته والقيامة بأمره ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات المصريين، فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة.

جابه صلاح الدين يوسف مشكلة صعبة فور تسلمه الوزارة. فقد كانت أمور قصر العاضد والحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه، في قبضة خصي سوداني لقبه ـ مؤتمن الخلافة ـ ويظهر أن اسناد الوزارة إلى صلاح الدين قد حرمه وكثيرين من كبار المصريين من امتيازاتهم، فاتفقوا على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد، والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه، وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه، وأقاموا ينتظرون جوابه. وسار ذلك المراسل إلى ـ البئر البيضاء ـ فلقيه جندي تركماني، ورأى هذا الجندي مع المراسل نعلين جديدين، فأخذهما منه. وقال في نفسه: «لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين، فإنه رث الهيئة» وارتاب به وبهما، فأتى به صلاح الدين، ففتقهما فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه، وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في جيشه لقتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيه، فيقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من أمامه، فلا يبقى لهم باقية. فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه، فقيل له: إنه رجل يهودي. فأحضر صلاح الدين هذا اليهودي وأمر بضربه واستجوابه، فأشهر اليهودي إسلامه، ثم اعترف وأخبره الخبر. وأخفى صلاح الدين معرفته بالأمر. واستشعر مؤتمن الخلافة افتضاح أمره، فلازم القصر لا يبارحه إلا برفقة صلاح الدين الذي لم يظهر له شيئاً. فلما طال الأمر، خرج مؤتمن الخلافة من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه. فلما علم به صلاح الدين، أرسل إليه جماعة؛ فأخذوه وقتلوه، وأتوا برأسه، وعمل صلاح الدين فوراً على عزل جميع الخدم الذين كانوا يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض. وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره. فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة ـ للجنسية ـ ولأنه كان يتعصب لهم. فحشدوا وجمعوا، فزادت عدتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب

جند صلاح الدين، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرين، وكثر القتل في الفريقين. فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالها وأولادهم. فلما أتاهم الخبر بذلك، ولوا منهزمين. فركبهم السيف، وأخذت عليهم مداخل الطرق والدروب، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، ونقلوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة، أخو صلاح الدين الأكبر، في طائفة من الجند، فأبادهم بالسيف. ولم يبق منهم إلا القليل الشريد. وأمن صلاح الدين شرهم.

عندما علم فرنج الشام بامتلاك أسد الدين شيركوه لمصر، فخافوا وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما استجد من ملك الأتراك لمصر، وأنهم خائفون على القدس. وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان للتحريض على الحركة. فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها قاعدة يملكون بها الديار المصرية. وجاؤوا إلى دمياط وحصروها وضيقوا على من بها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر. وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخافة ويقول:

إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في أثري، والفرنج أمامي فلا يبقى لنا باقية».

فسير نور الدين العساكر إليها أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج بالشام فنهبها وأغار عليها، واستباحها. فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً وأهلها بين قتيل وأسير. وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً (من سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، وقال ذات مرة:

« ما رأيت أكرم من الخليفة العاضد ، أرسل إلي مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » .

جاء رد صلاح الدين على الفرنج في السنة التالية (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) حيث قاد جيشه ، وخرج من مصر إلى فلسطين للإغارة على بلاد الفرنج ، فهاجم أعمال عسقلان والرملة وهاجم ربض غزة ، فنهبه ، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين ، لردّه عن البلاد ، فقاتلهم صلاح الدين وهزمهم ، وهرب ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً . وعاد إلى مصر ، وعمل مراكب مفصلة ، وحملها قطعاً على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب ، وألقاها في البحر ، وحصر أيلة براً وبحراً ، وفتحها واستباح أهلها وما فيها . وعاد إلى مصر .

ثبّت قدم صلاح الدين يوسف بمصر ، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ، وصار يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش ، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة للعاضد ، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله .

فامتنع صلاح الدين ، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم ، لميلهم إلى العلويين (المتشيعين) . وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين إذْ كان يخشى أن يدخل نور الدين إلى مصر ويأخذها منه ، فكان يريد بقاء العاضد معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه . فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك ، لم يقبل عذره ، وألح عليه بقطع الخطبة ، وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته ، واتفق أن مرض العاضد لدين الله في هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته ، استشار امراءه ، فمنهم من أشار به ، ومنهم من خافه ، إلا أنه لم يكن هناك من يجرؤ على مخالفة أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي عرف ـ بالأمير العالم ـ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للخليفة العباسي ، قال : « أنا أبتدىء بالخطبة له » . **فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسائة (١١٧١ م)** صعد المنبر قبل

الخطيب ودعا للمستضيء، ففعلوا ذلك - فلم ينتطح فيها عنزان. وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا. وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا:

«إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته».

فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة. ولما توفي، جلس صلاح الدين للعزاء. واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكان بهاء الدين قراقوش قد رتبه وحفظه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين. وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء. وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير... بالإضافة إلى الكتب النفيسة المعدومة المثل. فباع صلاح الدين جميع ما فيه. ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه.

وصلت البشائر إلى بغداد معلنة عودة وحدة المسلمين تحت راية أهل السنة والجماعة، وزالت الفرقة، وزينت بغداد عدة أيام، وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه. وسيرت الخلع مع - عماد الدين صندل - وهو من خواص خدم الخلافة العباسية إلى نور الدين وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة، وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية. ومعها الأعلام السوداء - شعار العباسيين -.

وطويت صفحة الدولة العلوية - الفاطمية -★.

★ كانت مدة هذه الخلافة منذ ظهر المهدي بسجلماسة - بالمغرب - في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين. إلى أن توفي العاضد في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة. (١١٧١ م) مائتان واثنتان وسبعون سنة، وشهر تقريباً. وجميع من خطب لهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية أربعة هم المهدي والقائم والمنصور والمعزّ إلى أن سار إلى مصر. ومنهم بمصر المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر المستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد. وكان العاضد من أفضل الخلفاء. وصفه صلاح

سار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشوبك - وبينه وبين الكرك يوم - وحصره وضيق على من به من الفرنج. وأدام القتال، وطلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما علم نور الدين بما فعله صلاح الدين، سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين:

«إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها. ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك أو لا، فقد لا تقدر على الامتناع عليه. والمصلحة الرجوع الى مصر».

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذ الحصن من الفرنج. وكتب إلى نور الدين يعتذر باضطراب الأوضاع في البلاد المصرية، وأن الشيعة العلويين عازمون على الوثوب بها، وأنه يخاف عليها من البعد عنها من أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجوهم، وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار. فلم يقبلها نور الدين منه، وتغير عليه، وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها، وظهر ذلك، فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء. وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم. فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام ابن أخي صلاح الدين - واسمه تقي الدين عمر - فقال:

«إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد».

ووافقه غيرهم من أهلهم. فتصدى لهم نجم الدين أيوب وشتمهم، وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين:

«أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه،

= الدين بقوله: «لقد اتصف بالكرم ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، وانقياده».

ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فإذا كنا نحن كذلك فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروج خيولهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإذا أراد سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاب مع نجاب ـ تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك. وما ههنا من يمتنع».

وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا. فلما خلى أيوب بابنه صلاح الدين. قال له:

«بأي عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا علم عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى عليه؟ وأما الآن، إذا بلغه ما جرى، وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا. والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل».

ففعل صلاح الدين ما أشار به. فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره. وبقي صلاح الدين وأهله في خوف من قدوم نور الدين إلى مصر. فاستقر الرأي بينهم على امتلاك بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فان تمكنوا من منعه، أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها. فجهز شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ـ أخو صلاح الدين الأكبر ـ جيشاً، وسار به إلى أسوان، ثم إلى بلد النوبة. فنازل قلعة اسمها ـ ابزيم ـ فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة لأنهم ليس لهم جنة ـ دروعاً ـ تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها شمس الدولة وأقام بها. ولم ير للبلاد دخلاً يرغب فيه، وتحمل المشقة لأجله، وليس لديهم إلا الذرة يقتاتون بها، فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش، مع مباشرة الحروب، ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد إلى مصر بما غنم. وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري (وذلك سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م). وفي هذه الفترة، كان قد تم اتفاق بين نور الدين وصلاح الدين على حصر الكرك. على أن يخرج صلاح الدين من مصر، ويسير نور

الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه. فسار صلاح الدين عن مصر، لأن طريقه أبعد وأشق، ووصل إلى الكرك وحصره.

وأما نور الدين فانه لما وصله كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرق الأموال، وجمع المواد التموينية وما يحتاج إليه الجيش وسار إلى الكرك، فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان. فلما علم صلاح الدين بقربه، خافه هو وجميع أهله، واتفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف. فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك، فعظم عليه وعرف المراد من العود، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً بل قال له: «**حفظ مصر أهم عندنا من غيرها**» وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه.

أدت هذه الظروف إلى زيادة مخاوف صلاح الدين وأهله من أن يأخذ نور الدين مصر من أيديهم. فاتفقوا على توجيه حملة إلى اليمن بقيادة شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، حتى تكون اليمن لهم عدة إن أخرجهم نور الدين من مصر. ولما كان لا بد لصلاح الدين من أن يستأذن نور الدين للقيام بمثل هذا العمل، فقد أرسل إليه يستأذنه بحجة قصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية. فأذن له نور الدين بذلك. وتجهز شمس الدولة، وأعد المواد التموينية وحشد ما يحتاجه من السلاح والآلات والجند. وسار من مصر إلى مكة أعزّها الله تعالى، وتحرك منها إلى زبيد، فخرج إليه عبدالنبي فقاتله، ولم يثبت أهل زبيد للقتال وانهزموا. ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم، فنصبوا السلالم، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب، وأخذوا عبدالنبي أسيراً، وأخذوا معه زوجته المعروفة باسم الحرة، والتي اشتهرت بصلاحها وصدقاتها الكثيرة. واستخرج عبدالنبي أموالاً كثيرة أعطاها لشمس الدولة، وكذلك فعلت زوجته الحرة.

أقام شمس الدولة في ـ زبيد ـ فترة قصيرة عمل خلالها على تنظيم الأمور فيها، وأقام الخطبة العباسية، وأصلح أحوالها، ثم سار بجيشه إلى عدن، وهي على البحر، ولها مرسى عظيم. وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وكان اسم صاحبها ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها، لعاد شمس الدولة وجيشه خائبين، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم وانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه، وأخذو صاحبه ياسراً أسيراً. وأرادوا نهب البلد. فمنعهم شمس الدولة، وقال:

«ماجئنا لنخرب البلد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها».

فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها، وثبت ملكه، واستقر أمره. وعاد شمس الدولة بجيشه إلى زبيد، حيث عمل على حصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تعز، وهي من أحصن القلاع. كما ملك قلعة النعكر وقلعة الجند وغيرها من المعاقل والحصون والقلاع. وجعل في كل قلعة نائباً من أصحابه. وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان. وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مساراتها بعيداً عن مصر (سنة تسع وستين وخمسمائة = ١١٧٣ م) بدأت السحب في التجمع في سماء مصر ذاتها، فقد جمعت المصلحة المشتركة ـ أو الحقد المشترك ـ بين جماعة من الشيعة، مع جماعة من الجند المصريين، وحاشية القصر، بالإضافة إلى جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر ـ على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، خرج إليهم صلاح الدين بنفسه، مما يفسح للمتآمرين المجال لإعلان الثورة بالقاهرة ومصر، وإعادة الدولة العلوية ـ الشيعية ـ فلا يبقى لصلاح الدين مقام مقابل الفرنج. أما إذا أقام صلاح الدين واكتفى بإرسال الجند لمقابلة الفرنج، فعندها تقوم قوات الثورة باعتقاله لعدم وجود

من يحميه أو يدافع عنه. ووضع المتآمرون في حسبانهم ابتعاد قسم من الجيش في اليمن، وكذلك غياب شمس الدولة في قيادة جيش اليمن، إذ كان باستطاعته أن يحل محل أخيه الأصغر صلاح الدين في حال اعتقاله أو قتله. وأرسل المتآمرون إلى الفرنج يستدعونهم، غير أن أحد هؤلاء ـ واسمه زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية ـ توجه إلى صلاح الدين وأعلمه بتفاصيل الاتفاق وعما تم ترتيبه من تعيين وترتيب لاشغال مناصب الخلافة والوزارة والحجابة والدعوة والقضاء الخ... عند تنفيذ المؤامرة. فأمره صلاح الدين بملازمة المتآمرين ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول. ففعل ذلك، وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه. ثم وصل رسول من ملك الفرنج ـ من فلسطين ـ بهدية ورسالة إلى صلاح الدين، بالظاهر، وللاتصال بتلك الجماعة من المتآمرين بالباطن. وكان ملك الفرنج يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الأمر. فوضع صلاح الدين على رسول ملك الفرنج من يثق إليه من النصارى، وداخله. فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته. فقبض حينئذ على المقدمين في هذه المؤامرة وصلبهم. ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) واحتبط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله. وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده، فلم يتعرض لهم صلاح الدين، ولم يشعرهم أنه يعرف عنهم شيئاً.

يظهر أن ملك صقلية لم يعرف أن صلاح الدين قد كشف المؤامرة، وصلب مقدميها، فأرسل اسطولاً كبيراً ضم مائتي سفينة (شانية وجمعها شواني) تحمل الرجال، وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وست مراكب كبار تحمل آلة للحرب، وأربعين مركباً تحمل المواد التموينية، وفيها من المشاة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألفاً وخمسمائة. ووصل هذا الأسطول وحولته إلى الاسكندرية وباغتها بهجومه. فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول، غير أن الوالي منعهم من الابتعاد وأمرهم بملازمة السور. ونزل الفرنج إلى البر، وتقدموا إلى المدينة، ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد. ورأى الفرنج من

شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم. وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين، يستدعونه لدفع العدو عنهم. ودام القتال طوال اليوم، وتجدد القتال في اليوم التالي، وتمكن الفرنج من الوصول بدباباتهم إلى قرب سور المدينة. ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الاسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث، فتح المسلمون باب البلد، وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وهم غارون. وكثر الصياح من كل الجهات، فارتاع الفرنج، واشتد القتال، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، وصبروا للقتال. فأنزل الله نصره عليهم، وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار. وعاد أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح في رجالتهم. وأما صلاح الدين فإنه عندما علم نزول الفرنج بالاسكندرية، سار بجيشه وسير مملوكاً له ومعه ثلاثة نجائب ليجد السير عليها إلى الاسكندرية يبشر بوصوله. وسير طائفة من الجيش إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها. فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر، والناس قد رجعوا من القتال. فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين وجيشه مسرعين. فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال، وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح. وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في جيشه، فسقط في أيديهم، وزادوا تعباً وفتوراً، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام، ووصلوا إلى خيام الفرنج فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في مشاة الفرنج، فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم، وركب وغرق بعضهم. وغاص بعض المسلمين في الماء، وخرق بعض شواني الفرنج، فغرقت. فخاف الباقون من ذلك، فولوا هاربين. واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تـل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار، فقلبهم أهل البلد وقهروهم. فصاروا بين قتيل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم.

عندما كان صلاح الدين منصرفاً لقتال الفرنج في الوجه البحري. وقعت ثورة في

الجنوب، (في سنة سبعين وخمسمائة أيضاً = ١١٧٤ م) حيث اجتمعت الرعية في الصعيد ومعهم السودان والعرب وغيرهم خلق كثير تحت زعامة رجل اسمه ـ الكنز ـ الذي بدأ تمرده بقتل أحد أمراء صلاح الدين ـ وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين ـ من كبار أمراء صلاح الدين أيضاً، فلما فرغ صلاح الدين من أمر الفرنج وجه جيشاً كثيفاً بقيادة جماعة من الأمراء ـ بقيادة أبي الهيجاء ـ لقتال الكنز، فسار الجيش حتى وصل مدينة طود، وقاتل من بها قتالاً شاقاً وقتل كثيراً منهم، وأذلهم بعد العز، فقهروا واستكانوا. ثم سار الجيش إلى قتال الكنز، فقاتله وقتله هو ومن معه من الأعراب وغيرهم. وأمنت بعده البلاد، واطمأن أهلها.

كم تغيرت دنيا المسلمين خلال هذه السنوات العشر، لقد كانت مصر حليفة للفرنج أحياناً، وبعيدة عن الصراع في معظم الأحيان. وإذا بها ما بين سنة ٥٥٩ و ٥٦٩ هـ (١١٦٢ ـ ١١٧٣ م) تتحول إلى قاعدة صلبة من قواعد المسلمين. وقد أمكن لها بفضل هذا التحول، وبعد زوال الخلافة الفاطمية والقضاء عليها، الالتقاء مع بلاد الشام على صعيد الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج، وصحيح أن مصر واليمن قد باتت تحت حكم الأيوبيين بينما كانت الشام تحت حكم الزنكيين، ولكن بقي الزنكيون هم الأقوى، وكان باستطاعة نور الدين دائماً توجيه الجهد المشترك ضد العدو المشترك.

٨ ـ العدو الأكبر للفرنج.

لقد ظهر للفرنج أن نور الدين محمود هو أكبر عدو لهم. وأنه تجاوز بعدائه جميع من سبقه من الأمراء ومن قادة المسلمين الذين عرفهم الفرنج منذ وطئت أقدامهم تراب الشام. وقد استطاع نور الدين تحقيق انتصارات كثيرة على جيوش الفرنج، وقتل كثيراً من أمرائهم وقادتهم، وانتزع منهم كثيراً من قلاعهم وحصونهم، غير أن الأهم من ذلك هو تنسيق التعاون بين مسلمي الشام ومصر، وحشد كافة القوى ضد الفرنج الصليبيين. وقد ظهر ذلك واضحاً خلال الأعمال القتالية التي خاضها الفرنج على أرض مصر.

تعرض نور الدين محمود لأول وأكبر هزيمة في حياته سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م. في الموقعة المعروفة باسم موقعة البقيعة ـ تحت حصن الأكراد. حيث ضرب نور الدين حصاراً على هذا الحصن، وذلك قبل توجهه إلى طرابلس لحصارها ـ على ما كان يعتزم ـ. فبينما الناس يوماً في خيامهم، وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفقوا على مباغتة المسلمين بهجوم نهاري، حيث يكون المسلمون آمنين. فركبوا من وقتهم، ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم، وساروا مجدين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم. فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك. فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال، فرهقهم الفرنج بالحملة، فلم يثبت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معاً إلى معسكر نور الدين، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم، فأكثروا القتل والأسر. وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي ـ القائد البيزنطي قسطنطين كولومان ـ فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم، فقاتلوا محتسبين في زعمهم، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه، ونزل نور الدين

على بحيرة قدس بالقرب من حمص، وبينه وبين موقع المعركة أربع فراسخ، وتلاحق به من سلم من الجند. وقال له بعضهم: «ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونحن على هذا الحال». فوبخه نور الدين وأسكته وقال:

«إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم. ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام».

ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه ـ بحسب أقوالهم ـ فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة. وكل من قتل أعطي أقطاعه لأولاده. وأما الفرنج، فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد انتصارهم، لأنها أقرب البلاد إليهم. فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم، قالوا لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها. ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه ـ انفاقه ـ قال له بعضهم:

«إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت في هذا الوقت بها لكان أصلح».

فغضب من ذلك وقال:

«والله إني لأرجو النصر بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم».

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح، فلم يجبهم، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم.

استطاع نور الدين الوفاء بقسمه، وثأر لنفسه وللمسلمين عندما وجه في السنة التالية لهزيمته (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. ثم حشد

جيشه الذي أعاد تنظيمه، وأرسل إلى أخيه صاحب الموصل قطب الدين مودود وإلى صاحب حصن كيفا ـ فخر الدين قرا أرسلان، وإلى صاحب ماردين نجم الدين ألبي، وإلى غيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم، فساروا إليه بجيوشهم، فسار بهم نور الدين إلى حصن حارم الذي حاول قبل ذلك أن يفتحه ولكن الحظ لم يحالفه، فحصره وضيق عليه، وأسرع الفرنج فاحتشد جيش انطاكية وجيش طرابلس بالاضافة إلى جيش الروم. واستطاع نور الدين الانتصار على تجمع جيوش الفرنج، وفتح حارم، ثم أتبعها بفتح بانياس. وفي سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م. فتح نور الدين حصن المنيطرة من بلاد الشام. وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه في قوة خفيفة من الفرسان ـ جريدة ـ وحصر الحصن وجد في قتاله، فأخذه عنوة وقهراً، وقتل من به وسبى وغنم غنيمة كثيرة، فإن الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون. ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه في قلة من الجند لأسرعوا إليه، وإنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرق الفرنج وأيسوا من ردّه. وفي سنة ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م. وبينما كان أسد الدين شيركوه يخوض صراعاً مريراً في مصر، قام نور الدين بفتح صافيتا وعريمة، وتمكن بذلك من إرغام الفرنج على الانسحاب من مصر. وعمل في سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م على فتح قلعة جعبر التي كانت من أمنع القلاع وأحصنها على الفرات. ورغم أنها لم تكن في قبضة الفرنج إلا أن امتلاكها زاد من قوة نور الدين. وعندما توجه الفرنج لحصر دمياط سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م. قام نور الدين بإلقاء الحصار على الكرك. وتصادف في تلك الفترة أن سار صاحب قلعة ألبيرة ـ شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن أرتق ـ ومعه مائتي فارس. للالتحاق بجيش نور الدين، ووصل إلى قرية اللبوة القريبة من بعلبك، فأراد أخذ قسط من الراحة، وخرج متصيداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام، فاشتبك معهم، واشتد القتال، وصبر الفريقان وكان صبر المسلمين أكبر، إذ لا يمكن القول أن الفرنج قد صبروا وعدد فرسانهم ألف ثلاثمائة مقابل ثلاثمائة فارس من فرسان المسلمين. وكثر القتل بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمهم القتل والأسر. فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى

وبالأسرى إلى نور الدين. فركب نور الدين والعسكر فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس صاحب حصن الأكراد ـ مقدم طائفة فرسان الاسبتارية ـ وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين.

لقد كان نور الدين يشغل نفسه طوال الوقت بجهاد الفرنج وبحشد القوى، وحثّ امراء البلاد وتحريضهم للعمل ضد أعداء الدين، وقد أعطى بذلك الأمثولة التي يجب على امراء البلاد والأقاليم الأخذ بها، والسير على نهجها، ولهذا لم يكن موقفه غريباً من أتابك شمس الدين أيلدكز ـ صاحب همذان وبلد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري يوم حاول هذا التدخل في شؤون الموصل، فأرسل إليه مع رسوله:

«لا تتدخل، وعند الفراغ من اصلاح البلاد يكون الحديث معك على باب همذان. فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها. وقد بليت أنا بالفرنج وليس لي مثل ربع بلادك، والفرنج أشجع العالم. فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت، وإزالة الظلم عن المسلمين» ★.

وكذلك موقفه من عزّ الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ـ صاحب ملطية وسيواس وأقصرا وغيرها والذي تقاعس عن جهاد الفرنج المجاورين له. فقصد محاربته والاستيلاء على بلاده، ثم جرى الصلح على شرط فرضه نور الدين:

«أن ينجده بعساكر إلى الغزاة».

وقال له: **«أنت مجاور الروم، ولا تغزوهم، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي»** ★★.

ليس ذلك فحسب، بل إنه استعان بالأرمن لقتال الفرنج، فعمل على تعيين مليح ابن ليون الأرمني أميراً على بلاده المجاورة لحلب ـ والتي كانت معروفة باسم بلاد

★ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ست وستين وخمسمائة.

★★ المرجع السابق ـ احداث سنة ثمان وستين وخمسمائة.

الدروب ـ واعترض بعض قادة نور الدين على هذا التعيين، فرد عليهم نور الدين بقوله:

«أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لنمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له».

وبرهن مليح بن ليون على ولائه ووفائه فلازم نور الدين، وشاركه في حروبه ضد الفرنج. ومقابل ذلك كان مليح يستعين بنور الدين ويستنصر به ضد من يجاوره من الأرمن والروم. وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً (سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) وجعل عليه بعض أعيان البطارقة من أقاربه ـ فلقيه مليح ومعه طائفة من جند نور الدين فقاتله وصدقه القتال، فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والأسر. وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد. وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله. وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه.

هكذا اتسعت حدود البلاد التي يحكمها نور الدين، وطالت مملكته وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها. ثم إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا ربما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم، يكون الفرنج قد بلغوا غرضهم.

ومن أجل ذلك اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي (سنة سبع وستين وخمسمائة = ١١٧١ م) وهي التي يقال لها المناسيب، وتطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده. حتى يصل الخبر إليه في يومه. وأجرى الجرايات ـ الرواتب ـ على المرتبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين.

لقد حرص نور الدين على أن يكبح جماح الفرنج الصليبيين باستمرار، وأن يضيق

عليهم قدر استطاعته، وبحسب ما يتوافر له من القدرات والامكانات، فكانت كل زيادة في هذه القدرات والإمكانات تساعده على تحقيق المزيد من النجاحات والانتصارات ـ في ميادين القتال ـ ومقابل ذلك أيضاً كان كل انتصار يحققه على الفرنج يساعده على اكتساب المزيد من الدعم والتأييد من جماهير المسلمين ـ ومن أمرائهم ـ. وهذا ما يوضح حرص نور الدين على بذل جهد متوازن وفي آن واحد على الجبهتين الداخلية والخارجية. ولقد تطلب ذلك العمل المتواصل للإفادة من كل فرصة لتقييد حرية عمل الفرنج العسكرية، وزيادة حرية العمل العسكري لقوات المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث سنة ٥٦٧ هـ = ١١٧١ م حيث خرج مركبان من مصر إلى الشام، فأرستا بمدينة لاذقية، فأخذهما الفرنج وهما مملوأتان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا. فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجار، فغالطوه، واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء، وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه. فلم يقبل نور الدين مغالطتهم، وجمع العساكر وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعريمة، فأخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون، غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعرقة. فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس، فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم. وحدث مثل ذلك أيضاً سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م. عندما اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين. وكان قد برز ونزل هو وجيشه بالكسوة. فسار إليهم مجداً، وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم، وسار نور الدين فنزل في عشترا وسير منها سرية إلى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها، فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم. فلما وصلوا كان قد

فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر ، وأدركهم الفرنج ، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم، فاشتد القتال وصبر الفريقان: الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيستردوها ، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها . فلما طال القتال بينهم، وابتعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين، عاد الفرنج ولم يستردوا منها شيئاً .

يظهر ذلك بوضوح سبب غضبة نور الدين من سلوك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بعد أن ملكه مصر ، وفتوره في غزو الفرنج من ناحيته ، فقد اعتقد أن صلاح الدين يؤثر بقاء الفرنج بينه وبين بلاد الشام، ليمتنع بهم. ولهذا أرسل إلى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة بطلب العساكر للغزاة. وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام؛ ويسير هو بعساكره إلى مصر . فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له. وترك الدنيا لأهل الدنيا ، واكتفى من دنياه بما قدمه لآخرته★

كان نور الدين في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها . فقال له القطب النساوي الفقيه :

★ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر (٥١١ - ٥٦٩ هـ = ١١١٧ - ١١٧٣م) مات بعلة الخوانيق، ودفن بقلعة دمشق. ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين. طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله حتى قيل فيه بأنه ليس بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ، أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وأما شجاعته فاليها النهاية، بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها. فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها. وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوري بالموصل. وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق. وبنى الخانكاهات في جميع البلاد. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً . ويكاتبهم بخط يده. كان يصلي كثيراً بالليل، ولا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، شكت له زوجته من الضائقة ـ فقال لها: «ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك».

« بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام . فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف » .

فقال نور الدين :

« ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلي مَن حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو » .

وحفظ الله البلاد والإسلام ، وسخر للإسلام وأهله رجالاً من أمثال نور الدين محمود ، فجاء صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وورث عنه مملكته ، وسار على نهجه ، ولقد ترك موت نور الدين محمود شعوراً لدى الفرنج بالارتياح ، كمثل ذلك الشعور الذي تركته وفاة والده من قبله ، وكمثل الشعور الذي سيعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك ، غير أن حقيقة واحدة لم يدركها الفرنج الصليبيون ـ يومئذ ـ ولم يدركوها من بعد أيضاً ، وهي أن الملك لله وحده ، وأن الدين لله ، يسخر له من عباده من يقومون بحفظه ضد أولئك الذين يعملون على محاربته ويحاولون اطفاء نوره .



٩ ـ صلاح الدين والإرث الكريم.

انتقل نور الدين إلى الرفيق الأعلى. وعرف صلاح الدين أنه بات هو أقوى الأمراء والحكام في مصر والشام. وظهر ذلك في رسالته التي وجهها إلى الحكام والأمراء ـ وجاء فيها:

«لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إلي، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته. ولو لم يعجل عليه الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي ـ الملك الصالح اسماعيل ـ دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها. وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده».

وأرسل صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الملك الصالح اسماعيل يعزيه بوفاة والده نور الدين، ويهنئه بالملك، وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له ـ في مصر ـ كما كانت لأبيه من قبل.

كان الملك الصالح اسماعيل عندما توفي والده يبلغ من العمر أحد عشر عاماً (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) فبايعه الأمراء والمقدمون في دمشق. وحلفوا له. وأطاعه الناس. وتولى تربيته وإدارة مملكته الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك (المعروف بابن المقدم).

جاءت الظروف الداخلية لتخدم صلاح الدين، ولتعمل على مساعدته، **فقد عمل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي** على الاستقلال بأمور البلاد الجزرية ـ الجزيرة الشامية وعاصمتها الموصل ـ ووجه سيف الدين تهديده لحلب، مما دعى (ابن المقدم ـ الذي كان مريضاً بحلب) إلى الانتقال **بالملك الصالح**

اسماعيل إلى حلب. ووجه سيف الدين غازي عندها قواته إلى دمشق، مما دفع حكام دمشق للاستنصار بصلاح الدين. وكتبوا إليه يستدعونه لتسليمه البلد، وأسرع صلاح الدين بقواته حتى إذا اقترب من دمشق، خرج كل من بها من المعسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد فأعلن: (أنا مملوك الملك الصالح، ما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه). وسار منها إلى حمص وحماه فامتلكهما بعد أن أعلن لامرائهما: «أنه في طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه». ثم سار إلى حلب. وأدرك الملك الصالح ما يريده صلاح الدين، فجمع أهل حلب، وقال لهم:

«قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبته لكم، وسيرته فيكم. وأنا يتيمكم. وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق...».

وقال من هذا كثيراً. وبكى فأبكى الناس. فبذلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده. وجدوا في القتال. وهم أهل شجاعة، قد ألفوا الحرب، واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم. فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن، فلا يقدر على ملك البلد أو الاقتراب منها.

اتصل مقدم جيش سيف الدين غازي (واسمه سعد الدين كمشتكين) إلى مقدم الإسماعيلية (سنان) وبذل له أموالاً كثيرة لقتل صلاح الدين. فأرسل سنان جماعة من طائفته إلى معسكر صلاح الدين، فرآهم أمير اسمه خمارتكين - صاحب قلعة بوقيس - فعرفهم لأنه كان جارهم في بلاد كثيرة، وكان غالباً ما يجتمع بهم، ويتردد عليهم لقتالهم. فلما رآهم قال لهم: «ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟» فهجموا عليه وجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا.

استمر صلاح الدين في حصار حلب شهراً ونيف، فلما طال الحصار، عمل (سعد الدين كمشتكين) على إطلاق سراح أمير طرابلس - الكونت ريموند سانت جيل - مقابل مائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين - وكان نور الدين

قد أسره منذ سنة ٥٥٩ هـ فتم إطلاق سراحه الآن ـ سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م. فلما وصل إلى بلده، اجتمع الفرنج عليه يهنؤونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتفق أن مات في تلك الفترة ملك القدس ـ املريك أو ايمري ـ. فتولى الكونت ريموند سانت جيل تدبير الملك. وجاءته رسالة من حلب تقترح عليه قصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين حتى يرحل عن حلب. فسار ريموند بالفرنج إلى حمص، واضطر صلاح الدين لرفع الحصار والسير نحو الجنوب فوصل إلى حماه، ثم إلى الرستن، فلما علم الفرنج بقربه رحلوا. وتقدم صلاح الدين من حمص إلى بعلبك، فملكها.

كان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين قد أرسل إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجده على صلاح الدين، لما بلغه استيلاء صلاح الدين على دمشق وحمص وحماه، فجمع سيف الدين غازي جيشه وسار إلى حلب، حيث انضم إليه جيش حلب. وسار لقتال صلاح الدين الذي عمل عندما علم بتحرك جيش الجزيرة وجيش حلب، على ارسال رسالة إلى سيف الدين عرض فيها تسليم حمص وحماه مقابل احتفاظه بدمشق، ولكن سيف الدين لم يجب إلى ذلك، وقال:

«لا بد من إعادة جميع ما أخذ من بلاد الشام، والعود إلى مصر».

وكان صلاح الدين يعمل خلال ذلك على حشد قواته والاستعداد للحرب، فلما أنهى استعداداته، سار لقتال سيف الدين، والتقى به بالقرب من مدينة حماه، بموضع يقال له قرون حماة ودارت معركة قاسية انتصر فيها صلاح الدين، وغنم معسكر خصمه وما احتواه من الغنائم الكثيرة والأسلحة العظيمة، والخيول الفارهة. وعاد المنهزمون إلى حلب.

ومنح صلاح الدين جيشه فترة قصيرة للراحة، ثم سار به إلى حلب، فنازلها وحاصرها وقاتل أهلها. وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه عن السكة ـ النقود ـ في بلاده. ودام محاصراً لهم. فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام. ولهم ما بأيديهم منها،

فأجابهم إلى ذلك. وانتظم الصلح. ورحل عن حلب، فلما وصل إلى حماه، وصلت إليه خلع الخليفة مع رسوله.

عندما رجع سيف الدين غازي إلى الموصل، أعاد تنظيم قواته، وفرق الأموال في جنده، واستنجد بامراء ماردين وحصن كيفا وسواهما، فأمكن لهم حشد ستة آلاف فارس. فسار سيف الدين بهم إلى نصيبين، وأطال المقام حتى انقضى الشتاء، وضجر العسكر، ونفدت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، لما كانوا يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة. ثم سار إلى حلب، فنزل إليه مدبر دولة الملك الصالح (سعد الدين كمشتكين) ومعه جيش حلب. وكان صلاح الدين في قلة من الجند لأنه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) وسير جنده إلى مصر. فأرسل يستدعيهم. فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه. لكنهم تريثوا وتأخروا عنه، فجاءته قواته. فسار من دمشق إلى ناحية حلب. فالتقى الجيشان عند تلّ السلطان على طريق حماه - وعلى بعد مرحلة من حلب -. وكان سيف الدين قد سبقه. فلما وصل صلاح الدين كان وصوله وقت العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة. فأشار جماعة على سيف الدين بقتالهم وهم على هذا الحال، ولكن مقدم جيش الموصل - عزّ الدين محمود ويعرف باسم زلفندار - عارض ذلك وقال: «ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة غداً بكرة نأخذهم كلهم». فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل زلفندار أعلامهم في وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها. فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان سيف الدين قد انهزم، فلم يثبتوا، وانهزموا ولم يلو أخ على أخيه. ولم يقتل بين الفريقين على كثرتهم غير رجل واحد. وسار سيف الدين إلى حلب وترك فيها قوة بقيادة أخيه عزّالدين مسعود، لدعم الملك الصالح، وعاد إلى الموصل. وأما صلاح الدين، فإنه لما استولى على أثقال جيش الموصل، سار إلى بزاغة فاستولى عليها، كما استولى على منبج، وسار منها إلى إعزاز فحاصرها وضيق عليها، ونصب عليها المنجنيقات، وبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه، إذ وثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه بسكين في رأسه فجرحه،

فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله. فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، ولكنه لم يتمكن من منعه من الضرب تماماً، ولكن ضربات الباطني أصبحت ضعيفة، وبقي الباطني يضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. فكانت الضربات تقع على حافة السترة الواقية ـ الكراغند ـ فتقطعها، ولكن الزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته. وجاء أمير من أمرائه ـ اسمه يازكش ـ فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضاً، وثالث فقتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته، ثم تفقد جنده، فمن عرفه أبقاه في خدمته، ومن أنكره أبعده. ولازم حصار أعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كل يوم أشد قتالاً مما قبله، حتى أذعن أهل أعزاز، وسلموا إليه القلعة.

قاد صلاح الدين جيشه بعد ذلك إلى حلب، وحاصرها، وجد في قتال أهلها. وقاتله أهل حلب بعناد، وصبروا شهراً ونيف، وكثر القتل في الطرفين، إلى أن سارت الرسل في الصلح فتم الاتفاق في العشرين من المحرم (سنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م) وشمل الاتفاق الملك الصالح في حلب وسيف الدين في الموصل وصاحب الحصن وصاحب ماردين واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر. وبعد أن تم الصلح، جاءت الأخت الصغرى ـ وكانت طفلة، إلى صلاح الدين، فأكرمها، وحمل لها شيئاً كثيراً. وقال لها: «ما تريدين؟». فقالت: «أريد قلعة أعزاز». وكانوا قد علموها ذلك. فسلمها إليها ورحل إلى قلعة مصياف ـ مصيات ـ لأخذ ثأره من الإسماعيلية الذين أرادوا قتله أكثر من مرة، فنهب بلاد الإسماعيلية. وأرسل سنان مقدم الأسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي ـ صاحب حماه وخال صلاح الدين ـ يتوسطه بالصلح، ويتهدده. واستجاب صلاح الدين لطلب الصلح وقد شعر بأن جنده قد تعبوا لكثرة المشاق. فصرفهم إلى بلادهم. وعاد هو إلى مصر بجيشه.

أفاد الفرنج من هذه الصراعات الداخلية، ومن انصراف المسلمين عنهم، فهاجوا أعمال دمشق، وانتصر جيش دمشق في معركة صغرى كما انتصر الفرنج في معركة مماثلة، فلما كانت السنة التالية (٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) خرج صلاح الدين بجيشه من مصر بهدف غزو الفرنج، وسار مجداً حتى وصل إلى عسقلان، فأطلق جيشه، فنهبوا

وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مغيرين، فلما رأوا أن جند الفرنج لم يخرجوا لقتالهم. طمعوا وانبسطوا وساحوا آمنين. ووصل صلاح الدين إلى الرمله عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره، ولم يرعه إلا والفرنج قد أشرفت بأبطالها وفرسانها[1] على جيشه، ولم يكن مع صلاح الدين إلا قوات قليلة، فاشتبكت قوات صلاح الدين مع الفرنج. وقتل عدد من أبطال المسلمين، وانسحب صلاح الدين بقواته مستفيداً من ظلمة الليل، فسار عبر الصحراء إلى مصر. ولقي وجنده في الطريق مشقة شديدة، وقل عليهم القوت والماء. وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير. وأما العسكر الذي كانوا قد دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير.

وصل في تلك الفترة إلى عكا فيليب كونت فلاندر ومعه جيش صغير، وذلك من أجل الحج. وحاول ملك القدس ـ بلدوين ـ وبارونات الفرنج إغراءه لقيادة حملة ضد مصر ولكن فيليب كونت فلاندر رفض كل عروض ملك القدس وإغراءاته. وبعد زيارته للقدس سار إلى طرابلس. وهناك وافق على أن يرافق كونت طرابلس ـ ريموند ـ بالهجوم على حماه. وتصدى أهل حماه ـ ومعهم جند صلاح الدين ـ لحملة الفرنج، وقاتلوهم قتالاً شديداً. وهجم الفرنج بعض الأيام على طرف من حماه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً. فاجتمع أهل البلد مع العسكر، وساروا إلى تلك الناحية، واشتد القتال، وعظم الخطب على الفريقين، واستقتل المسلمون، وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حينئذ خائبين، وساروا إلى حارم فحصروها. وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم. فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام، وربما يسلم القلعة من بها إليه، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها. ورجع فيليب كونت فلاندر إلى بيت المقدس، ليقضي عيد القيامة، ثم استقل من اللاذقية سفينة حملته إلى القسطنطينية.

جمع الفرنج جمعهم من الرجالة والفرسان، وقصدوا مدينة حماه من جديد (سنة

٥٧٤ هـ = ١١٧٨ م) طمعاً في النهب والغارة، فنهبوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا. فلما سمع العسكر المقيم بحماه، ساروا إليهم وهم قليل، متوكلين على الله تعالى، فالتقوا واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل والأسر فيهم، واستردوا ما غنموه من السواد. وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام، ووصل إلى ظاهر حمص، فحملت الرؤوس والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا.

عمل ملك الفرنج - بلدوين ملك القدس - على جمع قواته، وسار بها إلى دمشق. فأغار على أعمالها، فنهبها وأسر وقتل وسبى من المسلمين، فأرسل صلاح الدين قوة من جيشه بقيادة ابن أخيه فروخشاه، وأمره أنه إذا قارب الفرنج أن يرسل إليه يخبره - بواسطة الحمام الزاجل - ليسير إليه، وطلب إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج. فسار فروخشاه بمن معه، ولم يشعر إلا والفرنج قد أحاطوا به، فاضطر إلى القتال، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس، وألقى فروخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يترك القيادة لسواه، فانهزم الفرنج، وانتصر المسلمون عليهم، وقتل من مقدميهم جماعة، ومنهم همفري - سيدتبنين - الذي كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب. وكان بلاء صبّه الله على المسلمين، فأراح الله من شرّه، وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فروخشاه ألف فارس. وأثناء ذلك، أغار البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على المسلمين في ريف شيزر، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان، فأجحف بأموالهم. وكان صلاح الدين على بانياس، فسير ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماه، كما أرسل ابن عمه ناصر الدين محمدٍ بن شيركوه إلى حمص. وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو.

قرر الفرنج تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود إمارة دمشق، فتم تحصين تل هونين على الطريق الممتد من بانياس إلى تبنين. وشرع ملك القدس - بلدوين - بتشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن - بين بحيرة الحولة وبحر الجليل - كما تتحكم في المخاضة التي زعم الفرنج الصليبيون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب والملاك والتي أطلق عليها الفرنج أيضاً اسم (مخاضة الأحزان). وتعهد الفرنج لصلاح

الدين بألا يقوموا مطلقاً بتحصين موضع العبور، وأراد ملك القدس الالتزام بما تعهد به لصلاح الدين، وأن يشيد القلعة في موضع آخر، غير أن طائفة فرسان الداوية غلبوه على أمره، وتقدم المسلمون من فلاحين ورعاة أغنام إلى صلاح الدين بالشكوى لما يقوم به الفرنج من نقض للعهود والأيمان، فعرض صلاح الدين على ملك القدس بلدوين مبلغ ستين ألف دينار، ثم زادها إلى مائة ألف دينار ليثنيه عن عمله. فلما رفض الملك العرض، أقسم صلاح الدين بأنه سوف يعمل ما بوسعه لمنعه. وسار بجيشه في سنة ٥٧٥ هـ (ربيع سنة ١١٧٩ م) فألقى الحصار على قلعة مخاضة الأحزان. غير أن استحكاماتها الدفاعية بلغت من القوة والمتانة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة أيام، فعسكر أمام بانياس. وأرسل من موقعه هذا قوات للاغارة على الجليل، وتدمير المحاصيل الزراعية في الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت. فقام الملك بلدوين بحشد كل قوات المملكة، ودعى ريموندكونت طرابلس للانحياز إليه، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين، حيث علما أن فروخشاه وجماعة من المغيرين، في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحركا صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون - بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن. غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة، على تل يقع شمالي بانياس، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن، من ذعر قطعان الأغنام وتشتتها، فأدرك أن جيش الفرنج لا بد وقد اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته. وبينما كان جيش الفرنج يخوض معركته ضد فروخشاه (يوم ١٠ حزيران - يونيو - ١١٧٩) كان الكونت ريموند والداويه يتقدمون نحو نهر الأردن. وظهروا بصورة مباغتة أمام صلاح الدين. فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم. ردّهم على أعقابهم، فولوا الأدبار مذعورين إلى جيش الفرنج الذي يقوده الملك بلدوين، والذي اضطر للارتداد أيضاً، ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار. واستطاع الملك بلدوين والكونت ريموند وبعضاً من قواتها عبور نهر الليطاني واللجوء إلى قلعة شقيف أرنون، الواقعة على مرتفع على الضفة الغربية، وتعرض للقتل أو الأسر كل من تبقى من جيش الفرنج وراء نهر الليطاني - بعد التضييق عليهم وحصرهم. على

أن جماعة من الفارين لم يتوقفوا عند قلعة شقيف أرنون، بل مضوا في طريقهم إلى الساحل، فالتقوا برينالد سيد صيدا في عسكره، فأخطروه بأن الوقت قد فات، ولم يسعه إلا العودة، على الرغم من أنه لو استمر في سيره إلى نهر الليطاني، لكان بوسعه أن ينقذ عدداً كبيراً من الفارين الآخرين.

لقد وقع في أسر صلاح الدين عدداً من كبار قادة الصليبيين، منهم مقدم الداوية أودوسانـت أماند - الذي يعتبر تهوره وحماقته السبب الأساسي للهزيمة -. وبلدوين سيد ببنه، وهو سيد الجليل. ولم تلبث كونتيسة طرابلس - والدة هيو - أن افتدته بخمسة وخمسين ألف دينار صوري. وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف ديناراً، فدية عن بلدوين صاحب ببنة، وهي فدية ملك، نظراً لما كان لبلدوين من أهمية بالغة الشأن عند صلاح الدين. ولم تمض إلا بضعة شهور حتى تم إطلاق سراح بلدوين، مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين، فضلاً عن وعده بالتماس المال المطلوب للفدية. وجرى الاقتراح بمبادلة أودو بأحد كبار الأسرى المسلمين. غير أن مقدم الداوية بلغت به الغطرسة أنه لم يقبل بأن يساوي أحد في القيمة. فظل في الحبس بدمشق حتى قضى نحبه في السنة التالية.

عاد صلاح الدين من موقع المعركة إلى بانياس، وتجهز للدخول إلى حصن مخاضة الأحزان ومحاصرته، فسار إليه، وأحاط به، وبثّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمنجنيقات. فقال له جاولي الأسدي، وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمراء:

«الرأي أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت».

فقبل رأيه، وأمر فنودي بالزحف إليه والجد في قتاله، فزحفوا واشتد القتال، وعظم الأمر، فصعد إنسان من العامة، بقميص خلق، في باشورة الحصن، وقاتل على السور لما علاه، وتبعه غيره من أضرابه، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية، فألح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم، وإزاحتهم عنه. وأدركهم الليل. فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا. فلما كان الغد وأصبحوا، نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، وانتظروه يومين، فلم يسقط. فأمر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ٥٧٥ هـ (٢٩ - آب - أغسطس - ١١٧٩ م). ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا. وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفي أثره وألحقه بالأرض ★.

أرسل ملك القدس - بلدوين - إلى صلاح الدين بطلب عقد الهدنة، وذلك بعد أن قام الأسطول المصري بغارة ناجحة على سفن الفرنج الراسية في ميناء عكا. وبعد أن شنّ المسلمون غارة عنيفة على الجليل. وتحددت الهدنة لمدة سنتين. ووافق صلاح الدين، فوقعها ممثلون عن بلدوين وصلاح الدين في سنة ٥٧٦ هـ (في شهر أيار - مايو - ١١٨٠ م).

لقد كان هدف ملك الفرنج - بلدوين - من عقد هدنة مع صلاح الدين، هو كسب الوقت لإقامة جبهة صليبية قوية ومتماسكة تستطيع مجابهة القوة المتعاظمة للمسلمين، وكان صلاح الدين يحتاج بدوره لمثل هذه الهدنة لإعادة تنظيم جبهته الداخلية. وتوجه - في فصل الخريف - صوب الشمال - إلى الفرات - حيث وقع

★ أكثر الشعراء من مديح صلاح الدين لتدمير حصن مخاضة الأحزان. فقال النشو بن نفاذة:

هلاك الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسير صلبانها.
ولو لم يكن قد دنا حتفها ... لما عمرت بيت أحزانها.

وكذلك قول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها وهي تحلف.
نصحتكم والنصح للدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.

شجار بين الأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، الذي أضحى حليفاً لصلاح الدين، وبين السلطان السلجوقي قلج أرسلان، إذ كان نور الدين قد تزوج من ابنة السلطان السلجوقي، غير أنه أهملها، ووقع في غرام فتاة تمتهن الرقص★. وعقد صلاح الدين مجلساً قرب سميساط، وشهد هذا المجلس أمراء الأراتقة، ورسل من قبل السلطان قلج أرسلان، وسيف الدين أتابك الموصل، وروبين صاحب أرمينية، وأقسم جميع الحاضرين على مراعاة السلام بينهم في السنتين التاليتين. وتوجه صلاح الدين بجيشه بعد فراغه من أمر قلج أرسلان إلى بلاد ابن ليون الأرمني، وكان السبب في ذلك هو أن ابن ليون هذا، كان قد استمال قوماً من التركمان المسلمين، وبذل لهم الأموال، وسمح لهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة، والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبال وعرة. ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله. ونزل صلاح الدين على النهر الأسود. وبثّ الغارات على بلاده. فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخربه وأحرقه. وعلم صلاح الدين بذلك فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي، وإعادة أموالهم، على أن يعودوا عن بلاده. فأجابه صلاح الدين إلى ذلك،

★ وردت القصة في الكامل في التاريخ - ابن الأثير - أحداث سنة ست وسبعين وخمسمائة. كما يلي: «جاء رسول قلج أرسلان إلى صلاح الدين وقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندي، ليس رسالة عن صاحبي - قلج أرسلان - وأحب أن تنصفني. فقال له صلاح الدين: قل. فقال رسول قلج أرسلان: يا مولانا، ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية. ما يكون عذرك عند الله تعالى؟ ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم؟ وأحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا؟ الخ...» فقال له صلاح الدين: «والله الحق بيدك. وان الأمر لكما تقول. اجتمع أنت به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون، وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله». ومضى الرسول. وتم الصلح، وتعهد صاحب حصن كيفا - نور الدين - باخراجِ المغنية بعد سنة، وصرفها، ونفذ تعهده عند حلول الأجل المتفق عليه.

واستقر الحال، وأطلق الأسرى، وأعيدت أموالهم. وعلم صلاح الدين بوفاة أخيه شمس الدولة نورانشاه بن أيوب ـ في الاسكندرية، فرجع مسرعاً إلى مصر، بعد أن استخلف بالشام ابن أخيه عزّ الدين فروخشاه ـ أو فرخشاه ـ.

لقد استطاع صلاح الدين تنظيم جهاز جاسوسية دقيق ومحكم أمكن له بواسطته معرفة ما كان يجري على جبهة الفرنج من نزاعات وصراعات داخلية. وتوافرت له المعلومات عن تداعي سلطة امبراطورية الروم ـ البيزنطيين ـ وتمزقها. مما أبهج أمير أرمينية وانطاكية، واحتفلا بزوال ضغط بيزنطة بأن تشاجر كل منهما مع الآخر. إذ ما كاد أمير انطاكية بوهمند الثالث يعلم بوفاة الامبراطور البيزنطي ـ مانويل (في ٢٤ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١١٨٠ م) حتى افترق عن زوجته اليونانية، كما يتزوج من امرأة خليعة من أنطاكية اسمها سبيللا، ومع أن بطريرك انطاكية ـ ايمري ـ لم يكن راضياً عن زواج بوهمند من اليونانية، إلا أنه ارتاع لارتكاب جريمة الزنا، فقطع بوهمند من الكنيسة، وفرض الحرمان الديني على مدينة أنطاكية، وتوافر لنبلاء أنطاكية من الأسباب ما يحملهم على كراهية سبيللا، إذ كانت جاسوسة تتقاضى دخلاً من صلاح الدين مقابل ما تقدمه من معلومات عن قوة جيوش الفرنج وتحركاتها. وقام هؤلاء النبلاء بمساندة البطريرك ايمري. واندلعت الحرب الأهلية. وابتهج صلاح الدين لما وقع بين امراء الفرنج في الشمال. إذ لم يعد باستطاعة الروم، ولا فرنج الشمال، أن يقوموا بأي عمل مزعج لإمارات المسلمين.

كان لزاماً على مملكة بيت المقدس، في هذه الأحوال، أن تحافظ على الهدنة التي وقعت على وثيقتها (سنة ٥٧٦ هـ) وأن تتمسك بها قدر المستطاع ـ غير أن رينالد شاتيون الذي كان وقتئذ سيداً على إقطاع إقليم ما وراء الأردن وعاصمته الكرك ـ والذي وصفته المصادر الإسلامية بقولها: «كان البرنس أرناط صاحب الكرك من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين»★ لم يكن بوسعه أن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته. فبمقتضى شروط الهدنة، أضحى للتجار المسلمين

★ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٦ هـ.

والمسيحيين الحرية في أن يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر. على أن رينالد ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية الوافرة الثروة وهي تسير مطمئنة آمنة قرب إقطاعه. ففي سنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م، استجاب رينالد لداعي الاغراء، فقاد قواته صوب الشرق، وقد عزم على المسير في البرّ إلى تيماء، ومنها إلى مدينة النبي ﷺ، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فلما وصل إلى قرب واحة تيماء، انقض على قافلة كانت تسير مطمئنة إلى مكة المكرمة، واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية. ولعله فكر أيضاً في المضي لمهاجمة المدينة، غير أن نائب صلاح الدين في دمشق - فروخشاه - سارع إلى حشد جيش دمشق، وسار إلى نواحي إمارة الكرك ونهب بلاده وخربها، وعاد إلى طرف بلادهم، فلما علم رينالد شاتيون بذلك أسرع بالعودة إلى إقطاعه. وأقام فروخشاه ليمنع البرنس رينالد من المسلمين. فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر، علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه، وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فروخشاه إلى دمشق.

قدم صلاح الدين احتجاجاً إلى ملك القدس - بلدوين - عن نقض اتفاقية الهدنة، وطلب التعويض. وأقر الملك بلدوين عدالة الاحتجاج. وعلى الرغم من محاولة - رينالد شاتيون - عرض وجهة نظره والدفاع عنها، فانه رفض أداء كل ما يصلح سلوكه أو يقومه. ولقي رينالد من التأييد من أصدقائه في حاشية الملك ما حمل بلدوين الضعيف على تجاهل الموضوع. لكن صلاح الدين لم يتجاهله، وحرص على متابعته، وحدث بعد بضعة شهور أن ساءت الأحوال الجوية، فأرغمت قافلة من السفن كانت تقل ألفاً وخمسمائة حاج صليبي على الجنوح الى الأراضي المصرية قرب دمياط، دون أن تعلم ما حدث من انتهاك للهدنة. فأمر صلاح الدين بتكبيلهم جميعاً بالأغلال. ثم أرسل إلى بلدوين يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم عند ردّ المتاجر التي نهبها رينالد، ولكن رينالد رفض للمرة الثانية أن يعيد شيئاً. فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه.

لقد ارتبط ذلك بحدوث تطورات داخلية على جبهة الشام، استدعت بدورها قدوم صلاح الدين إليها. فقد توفي أمير الموصل سيف الدين غازي بن مودود (سنة ٥٧٦ هـ) ولحق به في السنة التالية صاحب حلب (الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين

محمود)★. وظهر احتمال تفكك الأسرة الزنكية أو تجدد محاولاتها للسيطرة على بلاد الشام. إذ ما كاد ينتشر نبأ وفاة الملك الصالح اسماعيل حتى هرب تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين من مدينة منبج إلى مدينة حماه. ولكن حماه بدورها أعلنت ثورتها على الحكم الأيوبي وولاءها للزنكيين، واستدعت الحاكم الجديد لحلب ـ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ـ لتسليمه البلد. فأشار عسكر حلب على عزّ الدين بقصد دمشق. وأطمعوه في غيرها أيضاً من بلاد الشام التي آلت إلى حكم صلاح الدين، وأعلموه محبة أهلها له وللزنكيين، ولكنه امتنع عن كل تحرك وقال: «بيننا وبين صلاح الدين يمين، فلا نغدر به». ولما كان أجل الهدنة يقترب من نهايته فقد كان لزاماً على صلاح الدين التحرك قبل انتهاء الهدنة لمجابهة المستجدات.

★ الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود (٥٥٨ ـ ٥٧٧ هـ = ١١٦٢ ـ ١١٨١ م). توفي وعمره تسع عشرة سنة، مرض واشتد مرضه، ووصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي. فقال: «لا أفعل» واستفتى الفقهاء فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك. فقال له: «أرأيت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر». فقال الفقيه: لا فرد عليه الملك الصالح: «والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه عليَّ» ولم يشربه. فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء وسائر الأجناد، ووصاهم بتسليم حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك. فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبه ويؤثره، وهو تولى تربيته. وليس له غير سنجار. فلو أعطيته حلب لكان أصلح. وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان، ولا حاجة به إلى بلدك» فردّ عليهم الملك الصالح: «إن هذا لم يغب عني. ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام ـ سوى ما بيدي ـ ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام. وعز الدين أقدر على حفظها».

١٠ ـ نادت الشام، فوداعاً يا مصر

نادت الشام نداءها، وخرج صلاح فلبى النداء، وأقام خيمته بظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته وأرباب الآداب، فمن بين مودع له، وسائر معه وكل منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وما هم بصدده من السفر، وكان في الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين، وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه، وتطير، وتنكد المجلس على الحاضرين. وصدقت نبوءة المعلم. فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات، مع طول المدة بين خروجه من مصر وبين وفاته.

أنهى صلاح الدين استعداداته، وغادر مصر يوم ٥ محرم ٥٧٨ هـ (١١ ـ أيار ـ مايو ـ ١١٨٢) وتبعه من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام، وغيره عالم كثير. فلما سار جعل طريقه على أيلة، فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير. فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشن الغارات بأطراف بلادهم ـ وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك. وكان حاكم دمشق ـ فروخشاه ـ قد علم بأن الفرنج قد جمعوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك. بالقرب من الطريق الذي سيسلكه صلاح الدين، لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة، وربما أعاقوا المسلمين عن الوصول إلى دمشق، بأن يقفوا على بعض المضايق. وبذلك خلت بلادهم من ناحية الشام. فجمع فروخشاه جيش الشام، وقصد بلاد الفرنج ـ في الجليل ـ وأغار عليها، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر، وسبى النساء، وغنم الأموال، وظفر بعشرين ألف رأس من

الماشية ـ. وهاجم أثناء عودته حصن حبيس جلدك، المنحوت في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن وشق فروخشاه نفقاً في الصخرة فأضحى الحصن تحت رحمته، ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من نصارى البلاد، حريصة على أن تموت من أجل قضية الفرنج، فانها بادرت الى التسليم. وأرسل فروخشاه إلى صلاح الدين بالبشاره، ولقيه في الطريق، ففت ذلك في عضد الفرنج، وانكسرت شوكتهم. وسار صلاح الدين وفروخشاه إلى دمشق، حيث أمضى صلاح الدين فيها ثلاثة أسابيع، لاعطاء جنده قسطاً من الراحة، ثم سار بهم إلى طبرية ـ ونزل بالقرب منها، وخيم في الأقحوانة من الأردن. فسار ملك القدس بجيشه بعد أن استدعى البطريرك والصليب المقدس، ليبارك أسلحته وجيوشه. واتجه إلى الضفة الغربية لنهر الأردن. فوجه صلاح الدين قوة بقيادة ابن أخيه فروخشاه إلى بيسان، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها وقتل وسبى، وشنّ غارة شعواء على الغور، فعم أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا عكا. ووصل جيش الفرنج بقيادة ملك القدس بلدوين إلى سفح الجبل الذي تتربع عليه قلعة كوكب الهوى. فأرسل إليهم صلاح الدين الرماة ليرموا عليهم بالنشاب، فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتال. فأمر ابني أخيه: تقي الدين عمر وعزّالدين فروخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً. ثم إن الفرنج انحازوا غلى حاميتهم. فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم. عاد عنهم إلى دمشق، ولم يتوقف فيها إلا لفترة قصيرة. وانطلق منها إلى بيروت بعد أن أمر أسطوله بمصر ـ بواسطة الحمام الزاجل، بالتقدم إليها، فنهب بلدها وحصرها براً وبحراً عدة أيام. وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر وهو عليها بأن الفرنج قد حشدوا أسطولهم في ميناء عكا وفي ميناء صور، واتجهوا إلى مياه بيروت، فأمر أسطوله بالعود إلى مصر. ورفع الحصار عن بيروت. ولما كانت الهدنة مع أمراء الشمال ـ الزنكيين ـ قد انتهت وانقضى أجلها، فقد سار صلاح الدين بجيشه، وتظاهر أنه يريد السير إلى حلب، ولكنه انحرف فجأة وتحرك إلى الفرات، فعبره عند البيرة، فهوت أمامه مدن الجزيرة: الرها وسروج ونصيبين. ثم مضى في سيره إلى الموصل، وشرع في منازلة المدينة التي صمدت وقاومت.

وارتاع الخليفة الناصر لما حدث من صراع بين المسلمين (الزنكيين والأيوبيين) فحاول التفاوض في أمر الصلح، وتجهز شاه أرمن السلجوقي وأمير ماردين لإرسال قوة لانقاذ الموصل، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار، وهاجمها وفتحها بعد حصارها لمدة اسبوعين. وتابع فتوحاته فاستولى على ديار بكر - أكبر حصون الجزيرة وأوفرها ثروة وبها أروع مكتبة في العالم الإسلامي. وأعاد تنظيم أمور الجزيرة. وأفاد الفرنج من ابتعاد صلاح الدين في الشمال فساروا نحو دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى قرية داريا القريبة من دمشق، وأرادوا تخريب جامعها - ذو الشهرة الذائعة - فأرسل نائب صلاح الدين في حكم دمشق وفداً من النصارى لمقابلة ملك الفرنج - بلدوين - وابلاغه:

« إنكم ان أخربتم الجامع جددنا عمارته، وأخربنا كل بيعة - كنيسة - لكم في بلادنا. ولا نمكن أحداً من عمارتها ».

فتركوه. وعلم صلاح الدين بهجوم الفرنج، فلم يرجع، وقال:

« يخربون قرى، ونملك عوضها بلاداً، ونعود نعمرها، ونقوى على قصد بلادهم ».

أفاد صاحب الكرك أرناط - رينالد شاتيون - من هذا الموقف، وشرع في تنفيذ حلم طالما راوده، وهو الهجوم على الديار المقدسة، وكان قد صنع اسطولاً من السفن في الكرك، ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض، فحملها إلى بحر إيلة - ايلات - وجمعها في أسرع وقت، وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة، وسيرها، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة قامت على حصن إيلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء، فنال أهله شدة شديدة، وضيق عليهم، وأما الفرقة الثانية، فانها سارت إلى عيذاب. وأفسدوا في السواحل. ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار. **وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً - لا تاجراً ولا محارباً -.**

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب، ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمر

أسطولاً، وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين **ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب**، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفراً فيه، شجاعاً كريماً. فسار حسام الدين لؤلؤ مجداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على إيلة، فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقاتلهم، فقتل بعضهم، وأسر الباقي. وسار من وقته بعد الظفر، بقص أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها، وقتلوا من لقوه عندها وساروا إلى غير ذلك المرسى، ليفعلوا كما فعلوا فيه.

وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز - مكة والمدينة - حرسهما الله تعالى، وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن. فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم، سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك، خرجوا إلى البر، واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم، وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة - مشاة - فظفر بهم وقتل أكثرهم. **وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها - عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم.**

تتابعت الأنباء على صلاح الدين تحمل إليه الأخبار السيئة، ومنها وفاة ابن أخيه أمير دمشق (عز الدين فروخشاه) - في جادي الأول من السنة ذاتها (٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م) فلم يصرفه شيء عن هدفه، وأعاد - شمس الدين محمد بن المقدم - إلى حكم دمشق، ومضى هو بجيشه إلى آمد، وأمكن له الاستيلاء عليها (في العاشر من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة = ١١٨٣ م). واستولى بعدها على تل خالد وعينتاب. ولم يلبث أن استولى على (حلب وحارم) أيضاً★.

وبذلك أصبح صلاح الدين حاكماً على البلاد - ما بين برقة غرباً ونهر دجلة والفرات شرقاً، وخضعت لحكمه المدن الكبرى الثلاث: القاهرة ودمشق

★ انظر، قلعة حلب، قلعة حارم - في الفصل الثاني.

وحلب. ولقي صلاح الدين التأييد من الخليفة العباسي ببغداد، وسعى سلطان السلاجقة ببلاد الأناضول (آسيا الصغرى) إلى كسب صداقته، ولم يكن لامراء السلاجقة بالشرق من القوة ما يدفعهم إلى مقاومته. ولم تعد الامبراطورية البيزنطية مصدر خطر له. ولم يتبق له سوى أن يقهر الدخلاء - الفرنج الصليبيين - الذين صاروا وصمة عار في جبين الإسلام، بتملكهم فلسطين وساحل بلاد الشام.

وقعت خلال هذه السنة معركتان كان فيهما الظفر للمسلمين، فقد خرج اسطول المسلمين من مصر، وأوغل في البحر، فلقوا سفينة عليها ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم، وصبر الفريقان. وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم، واحتفظوا ببعضهم أسرى وغنموا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين. وحدث أيضاً أن سارت مجموعة كبيرة من مقاتلي الفرنج من نواحي الداروم وهدفهم الوصول إلى مصر للإغارة والنهب، فعلم بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق صدر وإيلة، فانتزح الفرنج من بين أيديهم، ونزلوا بماء يقال له - العسيلة - وسبقوا المسلمين إليه. فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة، فمطروا منها حتى رووا. وكان الزمان قيظاً والحر شديد في برّ مهلك، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج، فنصرهم الله عليهم، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى.

ما إن فرغ صلاح الدين من أمر حلب، حتى جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي - وهو صبي - وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج، وكان أكبر الأمراء عنده، وسار إلى دمشق ومعه جند الشام والجزيرة وديار بكر، ثم سار إلى الفرنج فعبر نهر الأردن (يوم ٩ جمادى الآخرة ٥٧٩ هـ=١١٨٣ م) فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأحرقها وخربها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وأقاموا معسكرهم في مواجهته، فحين رأوا كثرة جنده لم يقدموا عليه، فأقام عليهم

بالسهام وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأقاموا على ذلك خمسة أيام. ثم عاد المسلمون عنهم على أمل إغراء الفرنج بالخروج للقتال واستدراجهم. فلما رأى الفرنج انسحاب المسلمين، لم يطمعوا في الوصول إليهم. ورجع صلاح الدين وجيشه إلى دمشق، حيث منح جنده فترة قصيرة للراحة، وللاستعداد وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب - وهو نائبه بمصر - يأمره بالخروج بجميع جنده إلى الكرك، وسار هو بجنده إلى الكرك، وكثر جمعه، وتمكن من حصره.

كانت الكرك يومها تحتفل بعقد قران الأميرة ايزابيلا التي بلغت وقتذاك الحادية عشرة من عمرها، على همفري سيد تبنين الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر. وعزم رينالد شاتيون على أن يهيء كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعته بالكرك، والتي تعتبر العروس وريثة لها. فأخذت الضيوف تتوافد على القلعة. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف - مثل ملكة القدس ماريا كومنينا والدة العروس - كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، فإنهم قدموا لحضور العرس على أمل بذل محاولة أخيرة لرأب الصدع بين أمراء الفرنج وقادتهم - مقدميهم - وتبع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر امارات الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن هذه الاحتفالات عطلها فجأة ما ورد من أنباء مزعجة عن اقتراب صلاح الدين بجيشه من الكرك.

لقد أصبح تدمير الكرك وقائدها الجاحد هو الهدف الأول في مخططات صلاح الدين. إذ طالما بقي الحصن الضخم في يد رينالد شاتيون، فإن باستطاعته اعتراض الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية ما بين الشام ومصر. ويظهر أن الفرنج الصليبيين كانوا يتوقعون هجوم المسلمين، ولهذا فعندما وصل جيش صلاح الدين ولحق به جيش أخيه العادل الذي قدم من مصر، أسرع الفلاحون والرعاة من المسيحيين السوريين فاقتادوا أغنامهم ومواشيهم ودخلوا بها إلى المدينة، ولاذ عدد كبير منهم بفناء القلعة. فبادر صلاح الدين على الفور إلى مهاجمة المدينة السفلى، وشق لنفسه منفذاً إليها. ولم يستطع رينالد شاتيون أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظلّ يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر القائم على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى

والقلعة. حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره. وأمر صلاح الدين بنصب المنجنيقات على ربضه. واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً. فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه ـ يردمه ـ ولكن أحداً لم يتمكن من الاقتراب منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والأحجار من المنجنيقات، فأمر أن يبني بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف لالقاء ما يردم الخندق، فيما كانت المنجنيقات التسعة للمسلمين تتابع الرمي باستمرار ـ في الليل والنهار ـ.

وأثناء ذلك، استمرت احتفالات العرس تجري بداخل القلعة، ولم ينقطع الرقص ولا الغناء، وأعدت والدة العريس ستيفاني أطباقاً من طعام العرس وبعثت بها إلى صلاح الدين، الذي أرسل مقابل ذلك يسأل عن أي الأبراج ينزل بها العروسان. وأصدر أمره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار. وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده.

وأرسل الفرنج المحصورين بالكرك الى الملك بلدوين بالقدس يستمدونه ويطلبون منه المعونة العاجلة، ويعرفونه عجزهم عن حفظ القلعة، وما هم به من ضعف، فاستدعى بلدوين الجيش الملكي، وأسند قيادته إلى كونت طرابلس ريموند، وأصر على أن يحمل على محفة كيما يبقى مع رجاله ـ إذ كان وقتها مريضاً للغاية ـ وأسرع الفرنج ـ فارسهم وراجلهم ـ بالهبوط متجاوزين أريحا، ثم ارتقوا جبل النبي★. ولما علم صلاح الدين بمسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويشتبك معهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك. فقرب منهم، وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه، وأقام ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم. فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ. وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم. فساروا ليلاً إلى الكرك. فلما علم صلاح الدين ذلك

★ جبل النبي: هو الجبل الذي يقع على بعد اثني عشر ميلاً من مصب نهر الأردن، وتشير الروايات إلى أن النبي موسى عليه السلام قد توفي على هذا الجبل.

وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم. فأحاط بهم، وجند المسلمين ترميهم علم أنه لا يتمكن حينئذ منهم، ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخرّبها وقتل فيها وأسر وسبى وأكثر.

توجه صلاح الدين من جديد لمنازلة حصن الكرك في صيف السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م). وانحاز إلى جيشه كتائب بعث بها الأمراء الأراتقة، غير أن الاستحكامات الضخمة للكرك صمدت للحصار. ولم يتمكن صلاح الدين من إغراء الفرنج بالخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة. وأدرك صلاح الدين أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من المسيحيين، فعاد إلى دمشق، بعد أن ترك قوة للإغارة على الجليل، ولتمضي في نهب البلاد الواقعة إلى الجنوب حتى نابلس.

أدرك الفرنج الصليبيون ما حدث من تحولات في غير مصلحتهم، بسبب تماسك الجبهة الإسلامية مقابل تمزق الجبهة الداخلية للفرنج الصليبيين، وتزايد الصراعات بين الأمراء والبارونات، مع استنزاف قدرة الفرنج في الحروب المستمرة، فتم تشكيل وفد للذهاب إلى أوروبا من أجل استنفار القوى وتوجيه حملة صليبية جديدة، وضم الوفد بطريرك القدس ـ هرقل ـ ومقدما طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية. واستقبل امبراطور الغرب ـ فريدريك الأول ـ وملك فرنسا هنري الثاني الوفد بكل مظاهر الحفاوة والتشريف. وعندما قدم هذا الوفد بياناً بما ينتظر الإمارات الصليبية في الشام من الأخطار، وما تتعرض له من التهديدات، التمس عاهلا الغرب الاعذار التي تمنعهما من الاشتراك في الحملة التي لم تتمكن من حشد سوى عدد قليل من الفرسان.

واجتمع كل امراء الفرنج وقادتهم في القدس (سنة إحدى وثمانين وخمسائة ـ أيار ـ مايو ـ ١١٨٥) بمناسبة موت ملك القدس بلدوين وتنصيب جاي لوزنجيان ملكاً جديداً. وتبين للجميع أنه ما لم تقدم حملة صليبية ضخمة، فليس بوسع مملكة تكاد تهلك جوعاً أن تواجه الحرب. فوافقوا على اقتراح كونت طرابلس ـ ريموند ـ بأن يلتمسوا من صلاح الدين عقد هدنة لمدة أربع

سنوات. ووجد صلاح الدين أن من مصلحة المسلمين عقد مثل هذه الهدنة في تلك الفترة. فوافق عليها. وتقرر من جديد استئناف التجارة بين إمارات الفرنج وما يجاورها من بلاد المسلمين، وما تدفق من القمح من بلاد المسلمين هو الذي أنقذ الفرنج الصليبيين من الهلاك جوعاً.

أفاد صلاح الدين من الهدنة لتسوية بعض أمور جبهته الداخلية، فتوجه إلى حلب، ومنها الموصل. لكنه عندما وصل إلى (حران) أصابه مرض شديد، حتى أيس أهله من عافيته، فحلف الناس لأولاده، وجعل لكل منهم شيئاً من البلاد معلوماً. وجعل أخاه الملك العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق بعد أن ملك ميافارقين. وشعر صلاح الدين خلال مرحلة مرضه، وبعد أن عوفي، بالحاجة لإعادة تنظيم مملكته فنقل أخاه الملك العادل من حلب إلى مصر - ومعه الملك العزيز، ونقل أخاه الأفضل من مصر إلى دمشق.

عاد بعض الرخاء إلى فلسطين بفضل الهدنة التي انعقدت بين الفرنج وبين المسلمين، إذ نشطت من جديد التجارة بين داخل البلاد وبين مينائي عكا وصور. وظهر أن المنطقة مقبلة على فترة من الهدوء، عندما تلبدت السحب القادمة من سماء إمارات الفرنج.

لقد كان من المعروف - للمسلمين - ما كان بين الفرنج من صراعات ومنافسات زاد من حدتها ما برع به بطريرك القدس - هرقل - وملكة القدس سبيللا من حبك للمؤامرات والتي أدت إلى دفع كونت طرابلس - ريموند - للتحالف مع صلاح الدين (سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أيضاً). وقد وردت قصة هذا التحالف في المصادر العربية كما يلي:

« كان القمص صاحب طرابلس - واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي - قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية. وانتقل إليها، وأقام عندها بطبرية. ومات ملك الفرنج بالشام، وكان مجذوماً، وأوصى بالملك إلى ابن أخت له. وكان صغيراً، فكفله القمص ريمند، وقام بسياسة الملك وتدبيره، لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأناً ولا

أشجع ولا أجود رأياً منه، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير، فاتفق أن الصغير، فانتقل الملك إلى أمه ـ سبيللا ـ فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به. ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه كي ـ جاي ـ فتزوجته ونقلت الملك إليه، ووضعت التاج على رأسه. وأحضرت البطرك ـ هرقل الذي كان عشيق أمها ـ والقسوس ومقدمي الاسبتارية والداوية والبارونية، وأعلمتهم أنها قد ردّت الملك إليه، وأشهدتهم عليها بذلك، فأطاعوه ودانوا له، فعظم ذلك على القمص ـ ريموند ـ وسقط في يديه، وطولب بحساب ما جبى من الأموال مدة ولاية الصبي، فادعى أنه أنفقه عليه. وزاده ذلك نفوراً. وجاهر بالمشاققة والمباينة. وراسل صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج. ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد. وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة. وكان عنده جماعة من الأسرى من فرسان القمص، فأطلقهم، فحل ذلك عندهم أعظم محل. وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على خطأ ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم».

كان من الأفضل للفرنج، في مثل ما كانت عليه حالهم، أن يلتزموا بشروط الهدنة التي عقدوها مع المسلمين. وهي الهدنة التي ضمنت حماية القوافل التجارية بالتنقل بحرية وأمن ما بين القاهرة ودمشق. ولكن حدث في نهاية سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أن ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة تحت حراسة قوة صغيرة من جند مصر ـ لحمايتها من إغارات البدو ـ وبينما كانت تتجه إلى مؤاب، انقض عليها رينالد شاتيون بصورة مباغتة، فقتل جند الحراسة، وحمل إلى قلعته بالكرك التجار وعائلاتهم وما في حوزتهم من الأمتعة. وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كل ما سبق أن حازه. وأظهر صلاح الدين حرصه على مراعاة شروط الهدنة عندما بلغته أنباء الاعتداء على القافلة. وأرسل إلى رينالد شاتيون طلباً لاطلاق سراح جميع الأسرى، وتقديم تعويض عن خسائرهم. ولكن رينالد شاتيون رفض استقبال رسل صلاح الدين. فتوجهوا إلى القدس، ورفعوا شكواهم واحتجاجهم إلى الملك جاي.

واستمع جاي للشكوى، وأمر رينالد شاتيون بأداء التعويضات، غير أن رينالد لم

يحفل بأمر الملك، لما يعلمه بأن الملك جاي يدين إلى مساندته في اعتلاء العرش والاحتفاظ به. ولم يكن بوسع جاي أن يفرض على رينالد شاتيون أن يطيعه. فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به ـ وكان هذا النذر هو النذر الثاني، إذ سبق لصلاح الدين أن أقسم على قتل رينالد شاتيون إن أظفره الله به، يوم قام بالعدوان على الأماكن المقدسة.

أصبح وقوع الحرب أمراً لا مفر منه بعد أن تم انتهاك الهدنة بمثل هذه الصورة الوقحة. فأسرع كونت طرابلس ـ ريموند ـ لعقد هدنة مع صلاح الدين شملت إمارة زوجته بالجليل، وذلك على الرغم من أن السيادة على الجليل كانت تابعة لملك القدس جاي ـ. كما أسرع أمير انطاكية بوهمند إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين. وأثناء ذلك، كان صلاح الدين قد كتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد. وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان. **ثم خرج من دمشق ـ أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م**. وسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به القوات من بلاد الشام. فعين لقيادتهم ولده الملك الأفضل، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان، إلى بصرى، حيث توافرت له المعلومات أن صاحب الكرك ـ رينالد شاتيون ـ يريد الهجوم على قافلة الحجاج المسلمين لأخذها، ثم لينتقل بعد ذلك لمهاجمة القوات القادمة من مصر لمنعها من الالتحاق بصلاح الدين. وكان في الحجاج جماعة من أقاربه ـ منهم ابن أخت صلاح الدين، محمد بن لاجين ـ. فلما علم رينالد باقتراب صلاح الدين من الكرك، لم يفارق بلده، وانقطع عما طمع فيه، فوصل الحجاج سالمين. وبثّ سراياه عندها إلى ناحيتي الكرك والشوبك وغيرهما، فنهبوا وخربوا وأحرقوا، والبرنس رينالد محصور لا يقدر على المنع عن بلده. ولزم سائر الفرنج طرق بلادهم خوفاً من جيش الأفضل من جهة، ومن جيش صلاح الدين من جهة ثانية.

لم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يطمئن إلى تحالفه مع كونت طرابلس ـ ريموند ـ ما لم يضع هذا التحالف موضع الاختبار. ولهذا أصدر أمراً إلى ابنه

الأفضل بتوجيه قوة استطلاعية إلى بلد عكا ـ ينهبونه ويخربونه ـ وجهّز الأفضل قوة من الفرسان أسند قيادتها إلى صاحب حران و الرهـا ـ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ـ وأضاف إليه قايماز النجمي ودلارم الياقوتي وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. ولما كان لا بد لهذه القوة من اجتياز أراضي الكونت ريموند في الجليل. فقد جرى إخطاره واستئذانه. ولم يكن بوسع الكونت ريموند رفض هذا الطلب المثير للحرج والحيرة. وكل ما اشترطه ريموند، هو أن تجتاز قوة المسلمين أراضيه قبل شروق الشمس، وأن تعود من إغارتها قبل حلول الظلام، وينبغي ألا تلحق القوة أضراراً بأي مدينة أو قرية في البلاد التي يجتازونها والتي تتبع إمارته. كما أرسل مبعوثين من قبله للطواف باقطاعه، والطلب الى السكان بالبقاء طوال اليوم مع قطعانهم داخل الأسوار، وألا يتطرق إليهم الخوف. وشاهد ريموند من قلعته في الصباح المبكر من أواخر صفر (**الأول من أيار ـ مايو**). الأمير مظفر الدين كوكبري على رأس سبعة آلاف فارس وهم يجتازون القلعة فرحين مبتهجين. وما إن وصلت هذه القوة إلى **عيون كريسون** ـ مابين صفورية وكفركنة ـ حتى بوغتوا بهجوم قوة فرسان الداوية والاسبتارية مع قوات اخرى من فرسان الفرنج. وتصدى المسلمون للهجوم. ودارت معركة تشيب لها المفارق السود. ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الفرنج وتحولت هزيمتهم إلى مذبحة قتل فيها معظم الفرنج، وأسر الباقون ـ وفيمن قتل مقدم الاسبتارية روجر ـ ومارشال الداوية ـ جيمس مايللي ـ. وكانا من فرسان الفرنج المشهورين ولهما النكايات العظيمة في المسلمين، ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا. وشهد ريموند قوة المسلمين وقد عادت في المساء عن طريق طبرية ـ وقد رفع فرسان المقدمة على اسنة رماحهم رؤوس فرسان الداوية، وعادوا إلى قواعدهم قبل حلول الظلام، دون أن يلحقوا ضرراً بأي بناء في الأقليم. وابتهج المسلمون لهذا النصر العظيم على فرسان الداوية والاسبتارية ـ الذين كانوا جمرة الفرنج ـ وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك. ومقابل ذلك، اهتز الفرنج بعنف لهذه الهزيمة التي نزلت بأفضل فرسانهم. وبعث ملك القدس ـ جاي ـ إلى كونت طرابلس ريموند، البطرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى

صلاح الدين. وقالوا له: « إنك لا شك قد أسلمت، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج، يقتلون الداوية والاسبتارية، ويأسرونهم، ويجتازون بهم عليك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه ». ووافقهم على ذلك من عند ريموند من جند طبرية وطرابلس، وتهدده البطرك بالحرمان، وأن يفسخ عليه نكاح زوجته، إلى غير ذلك من التهديد. فلما رأى الكونت شدة الأمر عليه، خاف واعتذر، وتنصل وتاب، فقبلوا عذره، وغفروا له زلّته، وطلبوا منه الموافقة على حرب المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم. فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم، والاجتماع بهم. وسار معهم إلى ملك الفرنج ـ في القدس ـ واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم. وإذ تأثر أمير انطاكية بوهمند بما حدث، فقد نكث بدوره اتفاقه مع صلاح الدين على الهدنة. ووعد بارسال كتيبة من قواته. وأرسل ابنه ريموند ليلحق بكونت طرابلس ريموند ـ الذي كان عراباً له عند التنصير ـ. وبدأ الفرنج بحشد فارسهم وراجلهم في عكا، بحيث لم ينقص شهر حزيران ـ يونيو ـ سنة ١١٨٧ م حتى اجتمع بالمعسكر الصليبي الذي أقيم أمام عكا، ألف ومائتا فارس بكامل أسلحتهم، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين المتخففين المعروفين باسم ـ التركبولية ـ ونحو عشرة آلاف من المشاة ـ الرجالة ـ. وتقررت دعوة البطريرك هرقل للقدوم بالصليب المقدس، غير أنه قال بأنه معتل الصحة. وعهد بالأثر المقدس إلى مقدم كنيسة القمامة ـ القيامة ـ كيما يسلمه إلى أسقف عكا. على أن أعداءه رووا أنه آثر البقاء مع عشيقته باشيا.

١١ ـ يوم حطين.

ما إن تلقى صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية حتى عاد عن الكرك، إلى المعسكر الذي أقامه في بانياس ـ بقيادة ابنه الأفضل. والذي التحق به سائر الأمراء وجندهم. فاستعرض القوات التي بلغت عدتها اثني عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية ـ الراتب ـ سوى المتطوعة، فنظم هذه القوات، وتولى بنفسه قيادة قلب الجيش، وأسند قيادة المجنبة اليمنى لابن أخيه تقي الدين عمر، وأسند قيادة المجنبة اليسرى للأمير مظفر الدين كوكبري زين الدين، كما نظم المقدمات والطلائع والمؤخرة. وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته، وسار من بانياس بتنظيم القتال إلى خسفين، ومنها توجه إلى الأقحوانه ـ عند الطرف الجنوبي لبحر الجليل، ودفع كشافته واستطلاعه إلى الأرجاء لجمع كل ما يتعلق بأخبار قوات الفرنج الصليبيين. وعلم صلاح الدين بأن جيش الفرنج قد تحرك من عكا، وأنه نزل بصفورية فجمع أمراءه واستشارهم، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ـ تجنب المعركة ـ وأن يعمل على إضعاف الفرنج واستنزاف قوتهم بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة. وقال له بعض أمرائه: «الرأي عندي أن نجوس بلادهم، وننهب ونخرب ونحرق ونسبي. فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار، وأقبل يريد قتال المسلمين. والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسنة عنّا». فقال صلاح الدين:

«الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار. فإن الأمور لا تجري بحكم الانسان. ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا. ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد».

ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها (وهو يوم الخميس لسبع بقين

من ربيع الآخر = ٢ تموز - يوليو). فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم يرَ منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم. فنزل وأمر الجند بالنزول. فلما جنه الليل، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال. ونزل في قوة من الفرسان إلى طبرية، وقاتلها، ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليله. ولجأ من بها إلى القلعة التي لها، فامتنعوا بها، وفيها صاحبتها - الكونتيسة ايشيفا زوجة الكونت ريموند - ومعها أولادها، فنهب المدينة وأحرقها. فلما علم الفرنج بذلك اجتمعوا للمشاورة، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية. فقال لهم الكونت ريموند:

«إن طبرية لي ولزوجتي. وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها، ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة. وإنه إن أخذ طبرية فانه لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها. وإن هو أقام بها، فإنه لا يقدر على المقام إلا بجمع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان وهم بعيدين عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها. ونفتك من أسر منا».

ردّ رينالد شاتيون - أرناط - على حجة الكونت ريموند المنطقية والمقنعة بقوله: «قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب».

فما كان من الكونت ريموند إلا أن قال:

أنا واحد منكم؛ إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون».

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم. فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموه - في صفورية - وقربوا من عساكر الإسلام. فلما علم صلاح الدين بذلك عاد عن

طبرية إلى معسكره وكان قريباً منه، وقد أدرك أنه حقق هدفه، إذ كان قصده من محاصرة طبرية أن يفارق الفرنج معسكرهم الذي يتوافر فيه الماء والطعام، وأن يقودهم إلى ميدان المعركة الذي اختاره لقتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء الذي كان هو الأكثر أهمية بالنسبة للمقاتلين ـ وخيولهم ـ في حرّ الصيف اللاهب. فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء. وكانوا قد دمروا صهاريج المياه. ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد ـ وهو يوم السبت ـ وقد أخذ العطش منهم. وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر. وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم. ونظم صلاح الدين الحراسة تلك الليلة، وأفاد من الظلمة لنشر قواته على التلال المجاورة، وبات معسكر الفرنج مطوقاً من كل جهاته؛ حتى لم يعد باستطاعة أحد الخروج من الفخ.

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (الرابع من تموز ـ يوليو ـ ١١٨٧م) وقد أخذوا أهبتهم للحرب، وتقدموا بتنظيم القتال إلى جيش الفرنج.

ودنا بعضهم من بعض. فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى رماة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. واندفعت قوة من فرسان الفرنج ومشاتهم وهي تريد الوصول إلى طبرية على أمل ورود الماء. فلما عرف صلاح الدين هدفهم، صدّهم عن مرادهم، ووقف وجنده في مواجهتهم، وطاف على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله، ويقفون عند نهيه. وحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه الناس. ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً. فلما رأى كونت طرابلس ريموند شدّة الأمر، علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعة على الخروج من المعركة، وحملوا على من يليهم. وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية

تقي الدين عمر، فلما رأى حملة الفرنج، أمر جنده بافساح المجال لهم للخروج من المعركة، ثم عاد فأقفل الطريق أو الثغرة، واتخذ ريموند وأصحابه طريقهم إلى طرابلس.

كان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً، فاحترق الحشيش الذي كان كثيراً، وهبت الريح فحملت حرّ النار والدخان. واجتمع على الفرنج العطش وحرّ الزمان وحرّ النار وحرّ القتال. وزاد من بؤسهم هرب الكونت ريموند حتى كادوا يستسلمون. ولم يلبث باليان إبلين ورينالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج ميدان المعركة، فكانا آخر من هرب. ولم يعد عند الصليبيين بارقة أمل، ومع ذلك ظلوا يقاتلون أثناء انسحابهم إلى قمتي التل المعروفتين بقرني حطين، حيث تقرر نقل خيمة الملك جاي ـ الحمراء اللون ـ ونصبها بأعلى القمة، والتف الفرسان حوله وقد علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الاقدام عليه. فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم، لولا لطف الله بهم. إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً. وأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها. فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين ـ عند قرني حطين ـ وحاولوا أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم بها، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعوهم عمّا أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير. وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه ـ صليب الصلبوت، ويزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم ـ مشاتهم ـ. فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

وحكى الملك الأفضل ولد صلاح الدين قصة الفصل الأخير من المعركة ـ كما شهدها ـ فقال: «كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، فنظرت إليه وقد علته كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته

وتقدم وهو يصيح ـ **كذب الشيطان** ـ فعاد المسلمون على الفرنج ورجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: **هزمناهم**. فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت إلي والدي وقال: **اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة**. وبينما هو يقولها إذا الخيمة قد سقطت. فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه. وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً. وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم. وجلسوا على الأرض. وصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك جاي، وأخوه، والبرنس أرناط ـ رينالد شاتيون ـ صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضاً صاحب جبيل وابن هنفري ـ همفري ـ ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية. وكثر القتل والأسر فيهم. **فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً**. وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة = ١٠٩٧ م. بمثل هذه الوقعة».

انتهت المعركة، وعاد صلاح الدين إلى خيمته، حيث استقبل فيها الملك جاي وشقيقه الكندسطبل أملريك ـ ورينالد شاتيون، وابن زوجته همفري سيدتبنين، فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة. فحياهم صلاح الدين في لطف وبشاشة، وأجلس الملك جاي إلى جانبه، وإذ شهد ما حلّ به من الظمأ، ناوله كأساً امتلأ بالجلاب الذي أثلجه ما وضع به من قطع الثلج الوارد من جبل الشيخ ـ حرمون ـ فشرب منه جاي. ثم سلمه إلى رينالد الذي كان يجلس إلى جانبه، ووفقاً للتقاليد العربية في الضيافة، فإنه متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك معناه الابقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين بأن قال للمترجم:

إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ». ثم كلم البرنس رينالد - وقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقال له:

« كنت نذرت أن أقتله إن ظفرت به مرتين: إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً ».

وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وسحب وأخرج فلما قتله ارتعدت فرائص الملك جاي، وظنّ أنه سيحل دوره. فطمأنه صلاح الدين بقوله:

« إن الملك لا يقتل ملكاً غير أن ما ارتكبه ذلك الرجل من الغدر والخيانة قد تجاوز كل حد ».

ثم أصدر صلاح الدين الأوامر بأن لايتعرض للأذى البارونات العلمانيون، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والمروءة. غير أنه لم يود الابقاء على حياة أحد من الفرسان الرهبان - باستثناء مقدم الداوية -. والمعروف أنه كان بجيش صلاح الدين جماعة من الزهاد والمتصوفين، فعهد إليهم صلاح الدين بالاجهاز على الأسرى من الداوية والاسبتارية، فاغتبطوا للقيام بهذا العمل. فلما تم ذلك، تحرك صلاح الدين بجيشه من حطين، وما تناثر على ساحة القتال من جثث القتلى أصبح طعاماً للضباع والصقور. وجرى حمل الأسرى إلى دمشق، حيث تهيأت للبارونات أسباب الراحة في معتقلهم. بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق. وبلغ من كثرة الأسرى بهذا السوق أن هبط سعر الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير. وأضحى بوسع الشخص أن يشتري أسرة سليمة بأكملها مؤلفة من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتين بثمانين ديناراً. بل إن أحد المسلمين اعتبر ما أجراه من مبادلة نعليه بأسير صفقة غير رابحة.

هكذا غربت شمس يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٤ تموز - يوليو - ١١٨٧ م) وقد تم على أرض حطين تدمير أضخم جيش صليبي لم يحشد الفرنج مثله من قبل. وضاع منهم صليب الصلبوت، وارتقى صلاح الدين الأيوبي إلى مرتبة عظماء أمراء المسلمين وحكامهم.

١٢ ـ الحملة الصليبية الثالثة.

انطلق المسلمون لاستثمار انتصارهـم في حطين، فـأخـذوا في فتـح قلاع الفـرنـج وحصونهم، وطرد الفرنج من كثير من المدن التي سبق لهم احتلالها، وانطلقت جيوشهم من الجليل إلى القدس ثم إلى الساحل، ومنه إلى الشمال وهي تجتاح كل ما تستطيع اجتياحه، وتعرض عما يمتنع عليها فتحه. وعلى سبيل المثال فعندما فرض صلاح الدين الحصار على صور، وطال أمد حصارها ولم تستسلم «**رحل عنها وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره، فرحل عنه**».

بينما كان المسلمون يعيشون في بلادهم حلاوة انتصاراتهم المتتالية، كانت رسل الفرنج تنطلق صوب الغرب ـ تباعاً ـ وهي تحمل تفاصيل معركة حطين وما تبعها من فتح المسلمين للقدس. وزعر الغرب الصليبي لهذه الكارثة التي لم يكن يضعها في حسابه على ما يظهر، رغم التحذيرات المتتالية التي أرسلتها مملكة القدس وامارات الفرنج، والتي أنذرت بتعاظم قدرة المسلمين. وتزايد قوتهم، وكان في جملة رسل الفرنج إلى الغرب اسقف مدينة صور ـ جوسياس ـ الذي غادر صور في صيف سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) قاصداً بلاط ملك صقلية (وليم الثاني) الذي ما إن عرف بتفاصيل ما حدث حتى ارتدى ثوباً من الخيش، واعتزل الدنيا لمدة أربعة أيام، خرج بعدها من عزلته، ووجه إلى رفاقه الملوك يحثهم على الاشتراك في حملة صليبية جديدة (ثالثة). بينما أخذ في الاعداد لتوجيه حملة إلى بلاد الشام بأسرع ما يمكن. ولما كان في تلك الفترة يخوض حرباً ضد الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس، فقد بادر إلى عقد صلح مع الامبراطور. وبينما كان اسقف صور ـ جوسياس ـ يتابع بفرح جهد ملك صقلية، بلغه نبأ موت البابا ايربان الثالث (في ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١١٨٧ م). إذ كانت شدة الصدمة أقوى من قدرة احتمال البابا، فمات كمداً. وبادر خليفته في البابوية (غريغوري الثامن) فأرسل كتاباً دورياً ـ تعميماً ـ إلى جميع المؤمنين

بالغرب، اورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الأرض المقدسة وصليب الصلبوت. وحرص على أن يذكر الذين يقرؤون كتابه، بأن ما حدث منذ أربعين سنة (عندما طرد المسلمون الفرنج من إمارة الرهـا والحملة الصليبية الثانية) كان نذيراً بذلك. وأضحت الحاجة ماسة إلى بذل جهود ضخمة.

«فليكفر كل انسان عن خطاياه، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء، بأن يتخذ الصليب» ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء، بينما تصير سلعهم في الدنيا في حماية المقر المقدس.

واختتم كتابه بالدعـوة إلى الصيـام كـل يـوم جمعـة، لمدة خمس سنـوات، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت. وسوف يصوم أيضاً يوم الاثنين أهل بيته وأسرات الكرادلة.

وتقرر أيضاً أن يتوجه من روما مبعوثون آخرون، ليفرضوا على جميع امراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات. وترددت الرواية أن جميع الكرادلة أقسموا أنهم سوف يكونون من أوائل الذين يتخذون الصليب، وسوف يقودون الجيوش الصليبية إلى فلسطين باعتبارهم مبشرين متسولين.

لم يعش البابا غريغوري الثامن ليشهد نتيجة جهوده، إذ مات ولما يمض سوى شهرين على بابويته، فتم اختيار أسقف براينيست لمنصب البـابـويـة بـاسم (كليمنـت الثالث). وقد بادر البابا الجديد إلى الاتصال بكبار ملوك الغرب، لتحريضهم على تجاوز خلافاتهم، وتوجيه حملة صليبية جديدة. وأثمرت هذه الجهود المكثفة فتم عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا.

وتقرر أن يسير الجيشان معاً، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الأحمر على أرديتهم، بينما اتخذ العساكر الانكليز الصليب الأبيض، واختار الفلمنكيون الصليب الأخضر. وفرض الملكان ضرائب خاصة في نهاية كانون الثاني - يناير - ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) عرفت باسم عشر صلاح الدين، وهي نسبة عشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة، تجبى من الرعايا في فرنسا وانكلترا.

وبينما كانت تجتاح الغرب حمى الأعداد للحملة الصليبية الثالثة، كان امبراطور الغرب ـ فريدريك بربروسه ـ قد أعد حملة من ألمانيا، وتولى قيادتها. وتلقى الصليب من يد الكاردينال اليانو. وسار بجيشه في سنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م، عن طريق المجر ـ ثم بلاد البيزنطيين، فيما كانت بقية قوات الغرب تسير عبر البحر إلى بلاد الشام. ولكن الجيش الالماني لم يتجاوز انطاكية، فقد مات فريدريك بربروسه في سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. وتمزقت حملته تحت وطأة ضربات المسلمين. وشعر صلاح الدين بنوع من الارتياح، فقد كان يشعر بالقلق من التقاء قوات الحملة الصليبية، هذه القادمة من الشمال، وتلك القادمة عن طريق البحر، وقد وصل ملك فرنسا ـ فيليب أغسطس ـ إلى عكا في يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ ١١٩١، بينما وصل ملك انكلترا ـ ريتشارد قلب الأسد بعد اسبوع من ذلك (سنة ٥٨٧ هـ). وكان الصراع على أشده حول عكا. وقد يكون من المناسب العودة بهذا الصراع إلى بدايته (في أحداث سنة ٥٨٥ هـ) كما تعرضت لها أوابد المسلمين.

سار صلاح الدين بجيشه إلى قلعة (شقيف أرنون) في ربيع الأول من سنة ٥٨٥ هـ ـ وهذه القلعة هي من أمنع الحصون. فنزل بمرجعيون، فجاءه رينالد ـ أرناط ـ صاحب الشقيف، وصاحب صيدا، وكان من أعظم الناس دهاءً ومكراً. فدخل إليه واجتمع به، وأظهر له الطاعة والمودة، وقال له: «أنا محب لك، ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس ـ صاحب صور ـ ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده. فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده. وحينئذ أحضر أنا وهم عندك، ونسلم الحصن إليك. وأكون أنا وهم في خدمتك، نقنع بما تعطينا من إقطاع». فظنّ صلاح الدين صدقه وأجابه إلى ما سأل وأمهله ثلاثة أشهر لتسليم القلعة وأقام صلاح الدين بمرجعيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب انقضاء الهدنة بين صاحب انطاكية البيمند ـ بوهمند ـ فأمر ابن أخيه تقي الدين بالسير فيمن معه من الجند، ومن ينضم إليه من بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء أجل الهدنة. وكان أيضاً منزعج الخاطر، كثير الهم، لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور، وما

يتصل بهم من الامداد في البحر. ولما عرف صلاح الدين خديعة رينالد ـ أرناط ـ عند انقضاء أجل المدة المحددة لتسليم قلعة الشقيف، أرسله إلى سجن دمشق. وترك قوة لحصار القلعة. وسار إلى صور في قوة من الفرسان الخفيفة، من شجعان أصحابه، حيث بلغه أن الفرنج في صور قد جمعوا جموعهم، للسير إلى صيدا. فاصطدموا بقوة لمسلمين التي تركها صلاح الدين في مواجهة صور، وقاتلهم المسلمون على مضيق هناك، ومنعوهم، **وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة.** وقتل من المسلمين أيضاً جماعة. وعندما وصل صلاح الدين إلى صور، كانت المعركة قد انتهت، وعاد الفرنج إلى قاعدتهم في صور. فأقام صلاح الدين في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم، ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين، فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة ـ للاستطلاع ـ ولينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل، ليعمل بمقتضى ما يشاهده، وظنّ من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف والحرب، فساروا مجدين، وأوغلوا في أرض العدو مبتعدين وفارقوا الحزم، وخلفوا السلطان صلاح الدين وراء ظهورهم، وقاربوا الفرنج. فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعوا ولم يقبلوا.

وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، وأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ـ فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين، وليس وراءهم ما يخاف. فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن أبادوهم. وقتل معهم جماعة من المعروفين.

وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم، وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم، رحمهم الله ورضي عنهم، فلما رأى صلاح الدين ذلك، انحدر في جيشه من الجبل وحمل على الفرنج، فألقى الفرنج أنفسهم في الماء، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل. وعزم السلطان صلاح الدين على مصابرتهم ومحاصرتهم، فتسامع الناس، فقصدوه، واجتمع معه خلق كثير. فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور. فلما

عادوا إليها، رجع صلاح الدين إلى تبنين ثم إلى عكا ينظر حالها، ثم عاد إلى المعسكر في مرجعيون.

وعلم صلاح الدين وهو في معسكره أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين ـ متفرقين ـ. فكتب إلى من بعكا من الجند، وواعدهم في يوم معين (ثامن جمادي الآخرة سنة ٥٨٥ هـ) **ليلاقوا الفرنج من الجانبين، ورتب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب، واختار جماعة من شجعان جنده، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج، قاتلوهم شيئاً من قتال، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم، وانسحبوا من وجههم، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين، ثم يعطفوا عليهم، ويخرج الكمين من خلفهم، فخرجوا على هذه العزيمة.**

فلما تراءى الجمعان، والتقت الفئتان، أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، وثبتوا، وقاتلوهم، وصبر بعضهم لبعض، واشتد القتال وعظم الأمر، ودامت الحرب، وطال على الكمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم، وخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين، وإليهم قاصدين، فأتوهم وهم في شدة الحرب، فازداد الأمر شدة على شدة، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي، وكانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم، وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين، فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون، فأتوهم وقاتلوهم، فقتلوهم. وجاء المسلمون من الغد إلى موضعهم فرأوا القتلى.

خرج الفرنج على الصعب والذلول براً وبحراً، يحفزهم الباعث الديني والنفساني لقتال المسلمين، وجاؤوا من كل فجّ عميق، فلولا لطف الله تعالى بالمسلمين، وإهلاكه لملك الألمان لما خرج إلى الشام، لكان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين. واجتمع الفرنج بصور يموج بعضهم في بعض، ومعهم الأموال العظيمة، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم. فضاقت عليهم صور ظاهرها وباطنها. وأرادوا قصد صيدا، فلما فشلوا في مسعاهم، اتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها. فساروا إليها بفارسهم وراجلهم وقضّهم وقضيضهم، ولزموا البحر في مسيرهم، لا

ينارقونه في السهل والوعر الضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، ولتكون عدة لهم إن جاءهم ما لا قبل لهم به، ركبوا فيها وعادوا. وسار المسلمون الذين كانوا يحاصرون صور على أثر الفرنج، يتخطفون المنفرد منهم ويأخذونهم. وعلم صلاح الدين بمسير الفرنج إلى عكا، فقاد جيشه وقاربهم، ثم جمع أمراءه واستشارهم:

« هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون؟ أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ » .

فقالوا: « لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم، فإن الطريق وعر وضيق، ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم. والرأي أننا نسير في الطريق المهيع، ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم ». فعرف صلاح الدين ميل قادته إلى الراحة المعجلة، فوافقهم. وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون، وقال:

« إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم، ولا نيل الغرض منهم، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا » .

فخالفوه، فتبعهم، وساروا على طريق كفركنا، فسبقهم الفرنج. وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم. فلو أن جند المسلمين اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا، لكان بلغ غرضه وصدّهم عنها.

رأى صلاح الدين عندما وصل إلى عكا أن الفرنج قد وصلوا إلى عكا، ونزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق. فنزل صلاح الدين عليهم، وضرب خيمته على تل كيسان، وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية، وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأثقال بصفورية، وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة، وأتاه ابن أخيه تقي الدين، وأتاه أيضاً صاحب حران والرها ـ مظفر الدين

ابن زين الدين كوكبري ـ. وكانت الأمداد تصل إلى المسلمين في البر، وتأتي الفرنج في البحر.. وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك، وما عداها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض.

وكان يوم (٥ شعبان ٥٨٥ هـ) من الأيام المشهودة، ففي هذا اليوم، باكر صلاح الدين الفرنج بالقتال، واستدار عليهم من سائر جهاتهم، واستمر القتال حتى الظهر، وصبر الفريقان صبر حار له من رآه. فلما كان وقت الظهر، حمل عليهم تقي الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم، وركب الفرنج بعضهم بعضاً، لا يلوي أخ على أخيه، والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم، واجتمعوا بهم، وأخلوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد. ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه. واتصلت الطرق، وزال الحصر عمن فيه.

وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه. فإن للصدمة الأولى روعة، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر، أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا: نباكرهم غداً ونقطع دابرهم. وقتل في هذا اليوم من الفرنج جماعة كبيرة.

نهض المسلمون لقتال الفرنج من الغد (وهو سادس شعبان) عازمين على بذل جهدهم، واستنفاد وسعهم في استئصالهم، فتقدموا على تعبيتهم، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين، قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألح المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدم الفرنج إليهم، ولا فارقوا مرابضهم. فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم. ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم، فكمنوا في معاطف النهر ونواحيه، فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم (يوم ١٦ شعبان) حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم، وغنموا ما كان معهم،

وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع. واستمر المسلمون كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه. والفرنج لا يخرجون من معسكرهم ولا يفارقونه. ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: «إن عسكر مصر لم يحضروا، وهذا هو الحال مع صلاح الدين، فكيف إذا حضروا؟ الرأي هو أن نلقى المسلمين غداً، لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر، ووصول الامداد إليهم». وكان كثير من جند صلاح الدين بعيد عنه، بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة صاحبها البيمند - بوهمند - عن أعمال حلب - وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضاً. وهناك جند مقابل صور لحماية ذلك البلد، فيما بقي جند مصر لحماية ثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما. وهذا مما أطمع الفرنج في الخروج لقتال المسلمين الذين كانوا يوم صبحهم الفرنج بهجومهم، كعادتهم، منهم من يتقدم إلى القتال، ومنهم من هو في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته سواء لزيارة صديق أو تحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه وغير ذلك. فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض، قد ملؤوها طولاً وعرضاً، وتوجهوا إلى ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر، فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين، حذر هو وأصحابه، فتقدموا إليه، فلما قربوا منه تأخر عنهم. فلما رأى صلاح الدين الموقف وهو في القلب. أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب، فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب، وأن كثيراً منهم قد ساروا نحو الميمنة مدداً لهم، عطفوا على القلب، وحملوا حملة رجل واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، وثبت بعضهم، واستشهد جماعة من الأمراء والفقهاء والشجعان، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم، فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل، فوضعوا السيف فيمن لقوه. وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين، أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين، ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها، وانهزام العساكر بين أيديهم، فكانوا انهزموا أجمعين، ثم إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعوا خوفاً أن ينعزلوا عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أن

الميمنة وقفت مقابل الفرنج، فاضطر بعضهم للوقوف مقابلها، وحملت الميسرة على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم واللحاق بهم، وعادوا إلى طرف خنادقهم. فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفوهم وهم راجعون، فقاتلوهم. وثار بهم غلمان المعسكر. وكان صلاح الدين لما انهزم القلب، قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، **فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى، وفي جملة الأسرى مقدم الداوية، فأمر صلاح الدين بقتله. وكانت عدة القتلى - سوى من كان إلى جانب البحر - نحو عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات، كنّ يقاتلن على الخيل، فلما أسرن وألقي عنهن السلاح عرفن أنهن نساء.**

وأما المنهزمون من المسلمين، فمنهم من رجع إلى طبرية، ومنهم من جاوز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق. ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة، لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم. على أن الباقين بذلوا جهدهم، وجدوا في القتال، وصمّموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم، لعلهم يفزعون منهم، فجاءهم النداء بأن رجالهم وأموالهم قد نهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه، فنهبوه، وأتوا عليه. وكان في عزم صلاح الدين أن يباكر الفرنج القتال والزحف. فلما رأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، ويسعون في جمعها وتحصيلها، أمر بالنداء باحضار ما أخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والثياب والسلاح وغير ذلك، فرد الجميع إلى أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، وسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقين منهم، وأعادوا تنظيم قواتهم.

جافت الأرض من نتن ريح قتلى الفرنج لكثرتهم، وفسد الهواء والجو، ووجدت الأمزجة فساداً. وانحرف مزاج صلاح الدين وأصابه المرض ونال منه بشدة، فحضر

عنده الأمراء، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع، وترك مضايقة الفرنج، وحسنوه له، وقالوا: «قد ضيقنا على الفرنج، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا، والرأي أن نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود، فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرّنا. وإن أقاموا عاودنا القتال، ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه. ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد، ولو وقع إرجاف لهلك الناس، والرأي على كل تقدير البعد عنهم». ووافقهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه، ورحلوا إلى الخروبة (رابع شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ) وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط، وأعلمهم بسبب رحيله. فلما رحل هو وجنده، أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض، وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر، فيما كانت مراكبهم تحاصرها من البحر أيضاً، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق. وجاؤوا بما لم يكن في الحساب. وكان المسلمون الذين تركوا في مواجهة الفرنج، يتوجهون لقتالهم كل يوم، والفرنج لا يتحركون، ولا هم لهم إلا حفر الخندق وإقامة السور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم. وعمل المسلمون على اعلام صلاح الدين أولاً بأول بما كان يفعله الفرنج، ويعظمون الأمر عليه، غير أن المرض كان يمنعه من الحركة. وأشار عليه بعضهم بأن يرسل جنده بكامله إلى عكا ليمنع الفرنج من حفر الخندق وإقامة السور، وقتالهم، وأن يبقى هو في موضعه - في الخروبة - فقال لهم:

«إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير».

تحرك جيش مصر بقيادة الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب إلى عكا فوصلها في منتصف شوال، فقويت نفوس الناس به وبمن معه، واشتدت ظهورهم. وأحضر معه من آلات الحصار والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً، وجمع صلاح الدين جنداً كثيراً من المشاة من البلاد الشامية، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل. ووصل بعده الاسطول المصري ومقدمه حسام الدين لؤلؤ، وكان شهماً شجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على سفينة

كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة ومواد تموينية عظيمة، فأدخلها إلى عكا. فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول المصري، وقوي جنانهم.

أقام صلاح الدين في - الخروبة - إلى أن ذهب الشتاء، فلما دخل صفر من سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. علم الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد. ووجدوا أن جيش المسلمين في مواجهتهم هو جيش صغير، وأن الوحل في عكا كثير ويشكل عائقاً أمام المسلمين إذا ما تحركوا لدعم الجيش المقابل لعكا. فقرروا الخروج من خندقهم، ومباغتة جند المسلمين، عند العصر، فقاتلهم المسلمون، وحموا أنفسهم بالنشاب، وأحجم الفرنج عنهم حتى فني نشابهم، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد، فاشتد القتال وعظم الأمر، وعلم المسلمون أنهم لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل، إلى أن جاء الليل، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم. ولما علم صلاح الدين بما حدث، ندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم. فجمع جنده الذين وصلوا من دمشق وحمص وحماة وغيرها، وسار بهم من الخروبة نحو عكا، فنزل بتل كيسان، وقاتل الفرنج كل يوم، ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين. وكان الفرنج مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة، وقد جمع أخشابها من الجزائر، إذ أن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها (في العشرين من ربيع الأول ٥٨٦ هـ) فأشرفت على السور، وقاتل من بها من عليه، فانكشفوا وشرعوا في ردم - طم - الخنادق.

وكاد الفرنج يملكون البلد عنوة وقهراً، فأرسل المسلمون رجلاً سبح في البحر، وجاء إلى صلاح الدين، وأعلمه ما هم فيه من الضيق. وما أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب صلاح الدين وجنده وتقدموا إلى الفرنج، وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا، وبذلك خفّ الأمر عمن بعكا، ودام القتال ثمانية أيام

متتابعة، وسئم الفريقان القتال، وملوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً، وتيقن المسلمون من استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج، فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها، فلم يفد ذلك، ولم يغن عنهم شيئاً. وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك.

فأتاهم الله بنصر من عنده، وأذن من إحراق الأبراج، وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: «هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها». وكان بعكا لأمر يريده الله، **فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا، شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها، حضر عند الأمير قراقوش، وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها، وقال له: «يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه». وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظاً بقوله، وحرد عليه، وقال له: «قد بالغ أهل هذه الصنعة في الرمي بالنفط وغيره، فلم يفلحوا». فقال له من حضر: «لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله». فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره. فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار. فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يرقصون ويصيحون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج، ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار، فاشتعل البرج. وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص. فاحترق هو ومن فيه.**

فلما احترق البرج الأول، انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم، فأحرقه. وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم يرَ الناس مثله. والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل. وحمل

ذلك الرجل - الدمشقي - إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة، فلم يقبل منه الحبة الفرد، وقال:

« إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه » . وأرسلت الكتب إلى البلاد بالبشائر.

أرسل صلاح الدين باستدعاء العساكر الشرقية، فجاءه جند سنجار وديار الجزيرة، ثم جاءه جند الموصل، ثم جند أربل، وكان كل جند إذا وصل يتقدم إلى الفرنج وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون. ووصل الاسطول من مصر، **فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في جيشه بكامله، وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول، ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً. وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله.**

وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح. وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك. إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين. ووصل الأسطول الإسلامي سالماً.

أعاد الفرنج تنظيم قواتهم، وخرجوا بفارسهم وراجلهم، وبعددهم الكثير الذي لا يحصى، وقصدوا عسكر مصر (في ٢٠ جمادي الآخرة) فنظم الملك العادل أبو بكر قواته للقتال والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانحاز المصريون عنهم، ودخل الفرنج خيامهم، ونهبوا أموالهم، فعطف المصريون عليهم، فقاتلوهم من وسط خيامهم، فأخرجوهم عنها. وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا، **وكانوا متصلين كالنمل، فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم، وأخذتهم السيوف من كل ناحية، فلم ينج منهم إلا الشريد، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل.**

وكانت عساكر الموصل بقيادة علاء الدين خرم شاه بن عزّالدين مسعود. قريبة من جيش مصر. فحملوا أيضاً على الفرنج، وبالغوا في قتالهم، ونالوا منهم نيلاً كثيراً.

هذا جميعه، ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاصة التي مع صلاح الدين، ولا أحد من الميسرة وكان بها عسكر سنجار وإربل وغيرهم بقيادة عماد الدين زنكي. ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة، خمدت جمرتهم، ولانت عريكتهم، وأشار المسلمون على صلاح الدين بمبادرتهم القتال مبكراً من الغد، ومناجزتهم القتال وهم على هذه الحال من الهلع والجزع. فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر، وما صار إليه أمرهم من القلة والذلة، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم. وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهناً على وهنهم وخوفاً على خوفهم، فلما كان بعد يومين، أتت الفرنج أمداد في البحر مع الكونت هنري ابن أخي ملك فرنسا لأبيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه، ووصل معه من الأموال شيئاً كثيراً يفوق الإحصاء، فجند الأجناد، وبذل الأموال، فعادت نفوس الفرنج قوية واطمأنت. وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا وحفظوا مكانهم. ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج لقتال المسلمين، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة (في ٢٧ جمادى الآخرة) ليتسع المجال، وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى، ثم نصب الكونت منجنيقاً ودبابات وعرادات، فخرج من بعكا من المسلمين، فأخذوها، وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج، وأراد الكونت بعد أخذ منجنيقاته أن ينصب منجنيقاً، فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون الفرنج من عمل ساتر يختفي وراءه من يرمي بالمنجنيق، فعمل تلاً من تراب بعيداً عن البلد، وأخذ الفرنج في تقديم التل إلى البلد بالتدريج، ويستترون به، حتى وصل إلى المسافة التي يمكن للمنجنيق منها أن يرمي بحجارته على البلد، ونصبوا وراء التل منجنيقين.

كانت المواد التموينية ـ الميرة ـ قد قلت بعكا خلال هذه الفترة، فأرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية، يأمرهم بارسال الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا، فتأخر انفاذها. فسير صلاح الدين إلى نائبه ببيروت في ذلك، فأرسل سفينة ضخمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا لباس الفرنج وتشبهوا بهم، ورفعوا عليها الصلبان، فلما وصلوا إلى عكا لم يشك

الفرنج أنها لهم، فلم يتعرضوا لها، فلما جازت ميناء عكا أدخلها من بها من المسلمين، ففرح أهل عكا وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها، إلى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية.

وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأخذت وأسرت بنواحي الاسكندرية. وأخذ المسلمون من كان معها أسرى. ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من البابا - وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره، وقوله عندهم كقول النبيين، لا يخالف، والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه - يأمرهم بملازمة ما هم بصدده، ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوة وطمعاً. وتتابعت الأمداد إلى الفرنج، وجمعوا جمعاً كثيراً، فعزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها، وخرجوا (يوم ١١ - شوال - ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م) وهم كالرمل كثرة وكالنار جرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون - وهو على ثلاثة فراسخ من عكا -. وكان قد عاد إليه من فرق عساكره، لما هلك ملك الألمان، ولقي الفرنج على تعبية حسنة: فكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه. وكان في الميسرة صاحب سنجار عماد الدين زنكي وصاحب حماة تقي الدين وصاحب جزيرة ابن عمر - معزالدين سنجرشاه، مع جماعة من الأمراء، واتفق أن أصاب صلاح الدين ألم كان ينتابه في جوفه - مغس - مما أرغمه على البقاء في خيمة صغيرة تم نصبها له على تل مشرف على الجيش. فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر، **فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها، فارتاعوا لذلك، واستقبلتهم عناصر الاستطلاع والمقدمات، فأمطرتهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربي النهر، ولزمهم جند الاستطلاع والمقدمات - الجاليشية - يقاتلونهم، والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض هذه العناصر من المسلمين دفع الفرنج للقيام**

بالهجوم عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال، فيكون الفصل ويستريح الناس.

ولكن ظهر أن الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، وباتوا ليلتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكا، ليعتصموا بخندقهم، ولكن عناصر استطلاع المسلمين طاردتهم واشتبكت معهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم. فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يخرجوا بعد ذلك منها، عاد المسلمون إلى خيامهم، وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً.

نصبت جماعة من المسلمين كميناً للفرنج، قرب عكا، (يوم ٢٣ شوال). وأغارت قوة من المسلمين على الفرنج، فخرجت قوة للفرنج ضمت أربعمائة فارس، فتصدت لها قوة من المسلمين واشتبكت معها، ثم تظاهرت بالانسحاب والتراجع، وتبعهم الفرنج حتى جازوا موضع الكمين، فخرجوا عليهم، فلم يفلت منهم أحد.

اشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان، منهم مستحفظ بيروت الأمير أسامه الذي كان يحمل إليهم الطعام وغيره، ومنهم أمير صيدا سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب. وكذلك من عسقلان وغيرها، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم لهياج البحر -.

خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم، وذلك لما هجم الشتاء وعصفت الرياح، فسيروها إلى بلادهم مثل صور وإلى الجزائر مثل قبرس، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسأمة، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها، وإخراج من فيها. وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني - السفن - وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم. فدخل إليها

عشرون أميراً. وكان بها ستون أميراً، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا.

وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم. وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، فكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا، نعتوهم بأنواع شتى، تارة بإقامة معرفة، وتارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب.

فانحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا، وانقطع الطريق - إلا من سابح يأتي بكتاب -. وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة، ويأمرهم بالمقام، فإنهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل.

وصلت امدادات الفرنج من الغرب، إلى الفرنج القائمين على حصار عكا، وكان أول من وصل ملك فرنسا - فيليب أغسطس - في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٨٢ هـ = ١١٩١ م.

ولم يكن في الكثرة التي ظنوها، وإنما كان معه ست سفن كبيرة فقويت به نفوس من على عكا منهم. ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها. وكان صلاح الدين بشفرعم، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن الزحف على عكا. وأرسل إلى مستحفظ بيروت - الأمير أسامة - يأمره بتجهيز ما عنده من السفن الكبيرة - الشواني - والمراكب، وشحنها بالمقاتلين، وتسييرها في البحر لمنع الفرنج من الوصول إلى عكا. ففعل ذلك، وسير السفن، فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوأة بالرجال من أصحاب ملك انكلترا - ريتشارد قلب الأسد - الذي كان قد تأخر بقبرس، وأرسلهم أمامه، فاقتتلت سفن المسلمين مع مراكب الفرنج، فانتصر المسلمون عليهم، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال. وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا. وأما

الفرنج القائمين على حصار عكا فانهم لازموا قتال من بها، ونصبوا عليها سبع منجنيقات (٤ جمادى الأولى). فلما رأى صلاح الدين ذلك، انتقل من شفرعم ونزل عليهم، لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم، فقرب منهم، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بعكا من المسلمين.

ثم وصل ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد (في ١٣ جمادى الأولى) ومعه خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً، فعظم به شرّ الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي المسلمين منه بالداهية التي لا مثل لها. ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والأقوات، فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل، فلقيها ملك انكلترا مصادفة، فقاتلها، وصبر من فيها على قتالها، فلما أيسوا من الخلاص، نزل مقدمها - وهو يعقوب الحلبي - إلى أسفلها فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر، فغرق جميع ما فيها. . . .

مضى عامان وأهل عكا في ضيق وكرب وحصار، وأدرك أمير عكا - سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب - أنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة، فقرر الدخول في مفاوضات مع الفرنج لتسليم عكا، فخرج إلى ملك فرنسا ومعه عدة من الأمراء، وعرض تسليم البلد والسماح لأهله المسلمين بالخروج من البلد واللحاق بالمسلمين، فلم يوافق ملك فرنسا، وعاد - المشطوب - إلى عكا، وقد ضعفت نفوس أهلها وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم. ثم أن الأمير بن عزّ الدين الأسدي وابن عز الدين جاولي ومعهم جماعة من الأمراء، خرجوا ليلاً من عكا ولحقوا بمعسكر صلاح الدين، فازداد الناس وهناً إلى وهنهم وضعفاً إلى ضعفهم، وأيقنوا بالهلاك. وأرسل الفرنج إلى صلاح الدين لتسليم عكا بشرط اطلاق أسرى من الفرنج بعدد من كان من المسلمين بعكا، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت. ووافق صلاح الدين، ولكن الفرنج عادوا واشتطوا في الطلب، فأرسل صلاح الدين إلى أهل عكا وأمرهم بالخروج من عكا يداً واحدة، وأن يتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي

يخرجون منها بجيشه ويقاتل الفرنج فيها، وشرعوا في ذلك، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، فلما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح، فبطل ما عزموا عليه لظهوره وافتضاح سرّه. وزحف الفرنج بجدهم وحديدهم إلى عكا، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون ـ وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر ـ فحملوا على الفرنج من جميع جهاتها طلباً منهم أن يشتغل الفرنج عن الذين بعكا، وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم، وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم، ومالوا إلى جهة البلد، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم، فعاد الفرنج إلى خنادقهم، ومنعوا المسلمين وتركوا في مواجهة عكا من يقاتل أهلها. فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع، ولا يدفع عنهم ضراً، خرج إلى الفرنج، **واتفق معهم على تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم، وأنفسهم، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينار للمركيز صاحب صور. فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه. واتفقوا على أن تكون مدة تحصيل المال وإطلاق سراح الأسرى إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم، ودخلوه سلماً يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فلما دخلوه وملكوه غدروا واحتجزوا من فيه من المسلمين وأموالهم، وحبسوهم. وأظهروا أنهم يفعلون ذلك حتى يتسلموا ما تم الاتفاق عليه.**

وراسل الفرنج صلاح الدين في إرسال الأموال والأسرى وصليب الصلبوت حتى يطلقوا من عندهم، فشرع في جمع المال، وكان هو الأمان له، إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار، جمع الأمراء واستشارهم. فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك. فراسلهم صلاح الدين في ذلك، فقال الداوية: «لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا». وقال ملوكهم: «إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب، فلنا الخيار فيمن عندنا». فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً.

أضحى ريتشارد قلب الأسد حريصاً على أن يغادر عكا، وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له. فانشرح صدره لما تهيأ له من الذريعة للتخلص منهم، فأعلن في برود شديد يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ (٢٠ ـ آب ـ أغسطس ـ ١١٩١ م) أي بعد أن مضى ما زاد على اسبوع على عودة الرسل إليه، أن صلاح الدين نقض عهده، وأمر بالاجهاز على سبعمائة وألفي أسير من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا. فاشتدت حماسة عساكره للقيام بهذه المجزرة، وأقبلوا على تنفيذها في جذل وسرور.

ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم. ولم يبقوا على حياة أحد ـ سوى بعض الأعيان ـ وبعض الرجال الأشداء للإفادة منهم في أعمال السخرة، وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لانقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فانهم لم يستطيعوا الوصول إليهم. ولما انتهت المذبحة. غادر الانكليز البقعة، وتقدم المسلمون للتعرف على إخوانهم الشهداء، ودفنهم.

قاد ريتشارد الجيش الصليبي يوم الخميس ٢٩ رجب (٢٢ ـ آب ـ أغسطس) وغادر عكا، وقد تغيب عن مرافقته عدد كبير من البارونات المحليين. وكان الفرنسيون بقيادة دوق برغنديا في مؤخرة الجيش، قد خرجوا من عكا ساخطين، فما من أحد من العسكر يريد مغادرة المدينة التي ظلوا يعيشون فيها حتى الشهر الأخير في راحة ونعيم، بما توافر فيها من الخبز والطعام، وبمن تكاثر فيها من النساء الساقطات لاشباع شهواتهم. وما من أحد منهم ارتاح لما سمعه من أنه لم يسمح بأن يصحبهم من العاملات في المعسكر سوى الغسالات، غير أن قوة شخصية ريتشارد قهرتهم. أما صلاح الدين فمازال معسكراً في شفرعم، التي تحكمت في الطريقين الرئيسين الممتدين من الساحل، فيتجه أحدهما إلى طبرية ودمشق، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة إلى بيت المقدس.

عندما علم صلاح الدين برحيل الفرنج، نادى في عسكره بالرحيل، فساروا، ودفع أمامه عناصر الاستطلاع والمقدمات بقيادة ابنه الملك الأفضل ومعه عدة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس، ووقعوا على مؤخرة قوات الفرنج ـ ساقتهم ـ فقتلوا منها جماعة، وأسروا جماعة، وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير، فبطل ارسال المدد. وعاد ملك انكلترا ـ ريتشارد ـ إلى ساقة الفرنج فحماها، وجمعهم، وساروا حتى وصلوا **حيفا**، فنزلوا بها. ونزل المسلمون بقرية قريبة منهم ـ اسمها قيمون ـ. وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل، ثم ساروا إلى قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم، ويقتلون على من قدروا عليه منهم، لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا. فلما قاربوا **قيسارية**، لاصقهم المسلمون، وقاتلوهم أشد قتال، فنالوا منهم نيلاً كثيراً. ونزل الفرنج بها. وبات المسلمون قريباً منهم. فلما نزلوا، خرج من الفرنج جماعة فابتعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في الاستطلاع، فقتلوا وأسروا منهم. ثم سار الفرنج من **قيسارية إلى أرسوف**، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها، ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق. فلما وصل الفرنج إليهم، حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم. فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا إقامة الخيام وقت الحرب قريباً من ميدان المعركة، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم. فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير، والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنها هزيمة، لتبعتهم، واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون، ولكن كان بالقرب من المسلمين غيضة كثيرة الشجر، فدخلوها، وظنّها الفرنج مكيدة، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، وقتل من الفرنج كونت كبير ـ الفارس جيمس أفيسنيز ـ. وقتل من المسلمين مثله. فلما نزل الفرنج، نزل المسلمون وأعنة خيولهم بأيديهم، ثم سار

الفرنج إلى يافا فنزلوها، ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها. وسار صلاح الدين عنهم إلى الرملة ـ واجتمع بأثقاله بها، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان، وقالوا له: « قد رأيت ما كان منا بالأمس ـ عند الهزيمة في أرسوف ـ وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لا شك يقاتلونا عنها، وينزلون عليها. فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها. ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها ». فلم تسمح نفسه بتخريبها، وندب الناس إلى دخولها والدفاع عنها، فلم يجبه أحد إلى ذلك، وقالوا:

« إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد، لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا ».

لما رأى صلاح الدين ذلك، سار إلى عسقلان، وأمر بتخريبها (في ١٩ شعبان ٥٨٧ هـ) وألقيت حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية مالا يمكن حصره، وعفي أثرها حتى لا يبقى للفرنج فيها مطمع. ولما علم الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها. وكان المركيز ـ كنراد مونتفيرات ـ لما أخذ الفرنج عكا، قد أحس من ملك انكلترا بالغدر به، فهرب من عنده ولجأ إلى مدينة صور، وهي له وبيده ـ وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة وهو الذي أثار هذه الحروب كلها، فلما خربت عسقلان، أرسل إلى ملك انكلترا يقول له: « مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً، ويتقدم على الجيوش. تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها، ولو أنك سرت إليه مجداً فأبعدته عنها لملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار، فإنه ما خرّبها إلا وهو عاجز عن حمايتها وحفظها. وإني لو كنت معك، وحق المسيح، لكانت عسقلان اليوم بأيدينا، لم يخرب منها غير برج واحد ».

عندما فرغ صلاح الدين من تخريب عسقلان، رحل عنها (يوم ٢ رمضان ٥٨٧ هـ) ومضى إلى الرملة، فخرب حصنها، وخرّب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس

فأعاد تنظيم أمورها ودعم دفاعاتها وزودها بالذخائر والأسلحة والرجال. وعاد إلى معسكره. وخرج ملك انكلترا من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم، فصدمتهم قوة من المسلمين وقاتلتهم قتالاً شديداً حتى كاد ملك انكلترا يؤخذ أسيراً، فحماه بعض أصحابه، ودفعوا حياتهم ثمناً لحمايته. ووقعت معركة أخرى بين طائفة من جند ريتشارد وبين المسلمين، كان النصر فيها للمسلمين. ولما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها، وشرعوا في عمارتها، رحل من معسكره إلى النطرون (١٣ ـ رمضان) وخيّم به، فراسله ملك انكلترا بطلب المهادنة. فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين، فاستقرت القاعدة أن ملك انكلترا يزوج أخته ـ الملكة جوانا، أو اليانور كونتيسة بريتاني ـ من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك انكلترا، مضافاً إليها مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها. وأن يرضى الداوية والاسبتارية بما يقع الاتفاق عليه. فعرض العادل ذلك على صلاح الدين، فوافق عليه. فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك انكلترا ـ الملكة جوانا ـ وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة ـ وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم ـ. وكان العادل وملك انكلترا يجتمعان بعد ذلك، ويتجاريان حديث الصلح. وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له، فاستحسن ذلك. ولم يتم بينهما صلح.

كان ملك انكلترا ـ ريتشارد ـ يفعل ذلك خديعة ومكراً، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد القدس، فسار صلاح الدين ومعه قوة من الفرسان الخفيفة إلى الرملة، وترك الأثقال بالنطرون. وقرب من الفرنج، وبقي عشرين يوماً ينتظرهم، فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات، في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج ـ وعاد صلاح الدين إلى النطرون. ورحل الفرنج من يافا إلى الرمله على عزم قصد القدس (يوم ٣ ذي القعدة) فقرب بعضهم من بعض، فعظم الخطب واشتد الحذر، فكان كل ساعة يقع الانذار في المعسكرين بوقوع المعركة، فلقوا من ذلك شدة شديدة. وأقبل الشتاء فحجز بينهما. ولما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم،

والأمطار متوالية متتابعة، والناس منها في ضنك وحرج من شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال بعدها عن أوطانها، أذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة والاستعداد. وسار هو إلى القدس فيمن بقي معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد، فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بالمسجد الأقصى، مجاور بيعة القمامة ـ كنيسة القيامة ـ وقدم إليه عسكر مصر، فقويت نفوس المسلمين بالقدس. وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون (يوم ٣ ذي الحجة) على عزم القدس. فكانت بينهم وبين مقدمات المسلمين ومفارز استطلاعهم وقعات واشتباكات، وأسر المسلمون في وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدين لما دخل القدس، أمر بعمارة سوره، وتجديد ما تداعى منه، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل. وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله. فوضع ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وأرسل صاحب الموصل أتابك عزّ الدين مسعود جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة. وكذلك جميع الأمراء. ثم إن الحجارة قلت عند العمال، فكان صلاح الدين يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر. فكان يجمع عنده من العمال في اليوم الواحد أكثر ممن يعملون قدر عدة أيام.

علا الفرنج إلى الرملة (في ٢٠ من ذي الحجة). وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل. فلما ابتعدوا عنه، كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الامدادات والمواد التموينية، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم. ثم إن ملك انكلترا قال لمن معه من الفرنج الذين أقاموا من قبل في الشام: «صوروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها». فصوروها له. فرأى الوادي المحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال. فسأل عن الوادي وعن عمقه، فأخبر أنه عميق وعر المسالك، فقال: «هذه مدينة لا يمكن حصرها، طالما بقي صلاح الدين حياً، وطالما بقيت كلمة المسلمين مجتمعة. لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة، بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه، وإن نحن افترقنا، فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر، جمع صلاح الدين جيشه،

وهاجم إحدى الطائفتين، ولا تستطيع الطائفة الأخرى تقديم المساعدة لأنها إن فارقت مكانها، خرج المسلمون من القدس فغنموا ما فيه معسكرها، وإن تركوا فيه من يحميه وساروا إلى أصحابهم، وإلى أن يعبروا الوادي ويلحقوا بهم، يكون صلاح الدين قد فرغ منهم. هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه الجند من التموين والامداد». فلما قال لهم ذلك، علموا صدقه، ورأوا قلة الأطعمة والتموين عندهم، وما يجري للجالبين لها على أيدي المسلمين، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة. فعادوا خائبين خاسرين.

أراد ملك انكلترا ريتشارد تغطية فشله في الوصول إلى القدس، فقرر بناء عسقلان. فسار بجيشه إليها (في محرم سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م). وشرع في تشييد تحصيناتها وخرج بقوة من الفرسان الخفيفة لمهاجمة عناصر استطلاع المسلمين، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض. وبقي صلاح الدين مقيماً في القدس، إلا أن سراياه ما برحت تقصد الفرنج، فتارة تواقع طائفة منهم، وتارة تقطع التموين عنهم، ومن جملتها سرية خرجت على قافلة كبيرة للفرنج فأخذتها وغنمت ما فيها. وكان صلاح الدين قد أرسل إلى مقدم طائفة الاسماعيلية - سنان شيخ الجبل - لقتل ملك انكلترا أو قتل المركيز كنراد مونتفيرات، مقابل عشرة آلاف دينار. فوجد سنان أن قتل ملك انكلترا ليس في مصلحته، لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج، ويتفرغ له ولطائفته، ولكنه رغب في الحصول على المال، فقرر قتل المركيز كنراد فأرسل رجلين في زي الرهبان، واتصلا بصاحب صيدا وصاحب الرمله باليان ابن بارزان، وكانا مع المركيز بصور، وأقاما معهما ستة أشهر وهما يظهران النسك والعبادة، ووثق بهما المركيز، **فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ (٢٨ نيسان - ابريل - ١١٩٢) أقام أسقف بوييه مأدبة عشاء، حضرها المركيز، وأكل طعامه، وشرب مدامه، وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً وثيقة. وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي بها - فاتفق أن المركيز حمل إليها لمعالجة جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله، وقتل الباطنيان بعده.**

ونسب الفرنج قتله إلى ملك انكلترا، لينفرد بملك الساحل الشامي. فلمأ قتل ولي بعده الملك كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكند هري- الكونت هنري كونت شامبانيا - وتزوج بالملكة - ايزابيللا - وهو ابن أخت ملك فرنسا من أبيه، وابن أخت ملك انكلترا من أمه، وملك الكونت هنري بلاد الساحل، وأصبح ملكاً على الفرنج.

ما إن فرغ الفرنج من تسوية مشكلاتهم الداخلية، حتى وجه ملك انكلترا - ريتشارد - الدعوة إلى الملك هنري - ملك القدس والفرنج - ليلحق به في عسقلان -. وترددت شائعة عن قيام ابن أخ لصلاح الدين بالخروج على طاعة السلطان واستقلاله باقليم الجزيرة. فقرر ريتشارد أن يقوم بهجوم مباغت على حصن الداروم الساحلي والذي يبعد عشرين ميلاً من عسقلان. غير أن هنري ومن معه من الجيش الفرنسي أضاعوا الوقت في اللهو والعبث في عكا. ولهذا لم ينتظر ريتشارد وصولهم، ومضى في زحفه براً وبحراً وأمكن له بعد قتال مرير استمر خمسة أيام أن يقتحم المدينة السفلى، واستسلمت حامية القلعة. ولم يتعلم ريتشارد شيئاً من مروءة صلاح الدين أو من فضائل المسلمين، فتم ذبح رجال الحامية، وجرى تعليق بعضهم على شرفات الحصن. وفرض على سواهم الأسر.

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الداروم وهي آخر حصن بقي في قبضة المسلمين على ساحل فلسطين، دون مشقة كبيرة، مما رفع من الروح المعنوية للصليبيين، فقرروا مجدداً الزحف على القدس. ووصل هنري والعساكر الفرنسيون إلى الداروم بعد يوم من استيلاء ريتشارد عليها، فعاد الجيش إلى عسقلان، واتفق الانكليز والفرنسيون على مهاجمة القدس. وسار الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان، واجتاز الرملة، ووصل إلى النطرون فتوقف فيها، وتلقى صلاح الدين - في القدس - امدادات من الجزيرة والموصل، فلجأ الجانبان إلى المناوشات

وعلم ريتشارد أن قافلة ضخمة للمسلمين قادمة من الجنوب إلى القدس، فانقض

عليها عند أبار الخويلفة الواقعة في أقليم مقفر على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من حبرون ـ ولم يكن المسلمون مستعدين للهجوم، واستولى ريتشارد على القافلة بعد معركة قصيرة وحاسمة. فصار لدى الفرنج كميات ضخمة من المؤن، وبضعة آلاف من الجياد والإبل، وعاد الجيش الصليبي منتصراً إلى معسكره في بيت نوبة. وارتاع صلاح الدين لضياع القافلة التي أمدت الفرنج بالقدرة لمتابعة الهجوم على القدس ولكن الانباء التي كانت تصل تباعاً للملك ريتشارد عن تدهور الموقف في بلاده ـ انكلترا ـ حمله على العودة إلى يافا. وجرت مفاوضات من جديد ـ تخللها هجوم المسلمين على يافا ثم نجاح ريتشارد في استعادتها.

اقتنع ملك انكلترا بأنه من المحال عليه تحقيق أكثر مما حققه، وأنه لا سبيل له لاستعادة القدس، وليس باستطاعته مفارقة ساحل البحر، وليس للمسلمين بلد يطمع فيه. وقد طالت غيبته عن بلاده وظهرت أمور استدعت عودته، فأرسل إلى صلاح الدين بطلب الصلح، فلم يجبه صلاح الدين ظناً منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكراً، على نحو ما فعل من قبل، ورد عليه صلاح الدين بطلب المصاف والحرب. فأعاد ريتشارد رسله مرة بعد مرة، وتوقف عن بناء عسقلان وغزة والداروم والرملة. وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة، فأشار هو وجماعة الأمراء على صلاح الدين بالإجابة إلى الصلح، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل. وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم، ونفذ من نفقاتهم، وقالوا له: « إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده. فإن تأخرت إجابته إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر، نحتاج للبقاء هنا سنة أخرى، وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين».

استطاع أمراء صلاح الدين اقناعه بالاستجابة لطلب ريتشارد. وعلم صلاح الدين أن خصمه مصاب بالحمى، فأرسل إليه الخوخ والكمثرى، والثلج من جبل الشيخ ـ حرمون ـ لتبريد أشربته، وحضر رسل الفرنج، وعقدوا الهدنة، وتحالفوا على هذه القاعدة، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان إبلين ـ الذي كان صاحب الرملة ونابلس وهنري كونت شامبانيا، ومقدما الاسبتارية والداوية، **وعقدت الهدنة**

يوم ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ (٢ - أيلول - سبتمبر - ١١٩٢ م) وحددت بمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر. أولها يوم التوقيع على الهدنة.

وأقرت الهدنة للصليبيين احتفاظهم بالمدن الساحلية جنوباً حتى يافا. وأضحى للحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة. وللمسلمين والمسيحيين الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر. أما عسقلان فكان لا بد من تدميرها.

قال باليان إبلين لصلاح الدين عندما وقع على اتفاقية الهدنة: «ما عمل أحد في الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق».

أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة القدس، بعد التوقيع على الهدنة، فزاروها وتفرقوا. وعادت كل طائفة إلى بلادها. وأقام الكونت هنري ملكاً على الفرنج، وكان خير الطبع قليل الشرّ رفيقاً بالمسلمين محباً لهم. وسار صلاح الدين إلى القدس، فأحكم أمورها، وأمر ببناء مدرسة وبيمارستان ورباط فيها. وصام رمضان بالقدس. وعاد إلى دمشق، ففرح به أهل دمشق فرحاً شديداً، لطول غيبته، وذهاب العدو عن بلاد الإسلام. ولكن رحلة العمر انتهت، فانتقل صلاح الدين إلى الرفيق الأعلى★.

بذلك بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه ثانية إلى بلاد الشام مثل هذا الحشد الهائل من القوات، ومثل هذا اللفيف من الملوك والأمراء. ومع أن أوروبا الغربية بأسرها اتحدت في ذلك الجهد الكبير، فان ما حصلت عليه

★ صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م) توفي عن ٥٧ عاماً قضاها في الجهاد في سبيل الله. مات ولم يخلف في خزائنه غير دينار صوري، وأربعين درهماً، أنفق كل ما تحصل لديه للجهاد، فأخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج، ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر. ولد في تكريت. وتوفي في دمشق - وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

من نتائج كان ضئيلاً. فكل ما حصلت عليه هذه الحملة هو إعادة احتلال عكا، والمدن الساحلية حتى يافا. ولكن الدرس غير المباشر لهذه الحملة كان كبيراً. فقد استنزفت الحملة قدرات المسلمين وامكاناتهم، وأوقفت مدهم المتصاعد. فكان لا بد من انقضاء فترة أخرى قبل تصعيد حركة الجهاد الإسلامي من جديد.

١٢ - الصليبيون في دمياط.

انصرف الفرنج والمسلمون إلى أمورهم الداخلية - طالما أنه لم تعد هناك قضايا خارجية يشتغلون بها، ولقد كان للفرنج مشكلاتهم المعقدة، والتي لم تكن على كل حال أقل حجماً أو تعقيداً من مشكلات المسلمين. وكان صلاح الدين يدرك ذلك، فحرص على تحقيق التماسك لدولته بأن جعل الأمر فيها لابنه الأفضل، فلما شعر بدنو أجله، استدعى الأمراء وكبار القادة، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بالإخلاص لدولته ولبنيه من بعده. وألزمهم بالقسم على ذلك★. ولكن تلك الاجراءات المسبقة التي اتخذها صلاح الدين لم تكن ثابتة ولا مستقرة. فعندما توفي صلاح الدين، **كان معه بها ولده الأكبر الأفضل** نور الدين علي، وحلف له الجند، وملك الساحل والقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم.

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها واستقر ملكه بها. وكان ولده **الظاهر غازي بحلب** فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك. ولم يكن قد بقي على قيد الحياة من أخوة صلاح الدين، عند وفاته سوى: **طغتكين**، الذي سبق أن خلف نورانشاه في الإمارة على اليمن. ثم **العادل**، الذي كان من الطموح ما جعل صلاح الدين يرتاب

★ كان نص القسم كالتالي: «إنني من وقتي هذا، قد أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي للملك الناصر - صلاح الدين - وانني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي. ووالله انني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء. والله على ما أقول وكيل».

النوادر السلطانية - ابن شداد - نشر الدكتور الشيال، ص: ٢٤٥.

فيه. فترك له اقطاع الرهـا وما حولها من بلاد الجزيرة، بالاضافة إلى اقطاع البلاد الواقعة وراء نهر الأردن. وحاز أبناء أخوة صلاح الدين وأبناء عمومته اقطاعات صغيرة. أما الأميران الزنكيان: عزالدين وعماد الدين، فحازا الموصل وسنجار، فيما استقر الامراء الأراتقة في ماردين وحصن كيفا، وبقيت خلاط في قبضة أشهر أمراء صلاح الدين ـ الامير بكتمر ـ.

وبوفاة صلاح الدين أخذت الجبهة الإسلامية بـالتـداعـي والتمـزق. فبينما ظهـر التحاسد بين أبناء صلاح الدين، تحرك الشمال الشرقي لإعادة حكم الزنكيين في شخص أمير الموصل عز الدين، الذي سانده بكتمر والأمراء الأراتقة. ولم ينقذ الأيوبيين إلا ما اتخذه العادل من التدابير العاجلة والناجعة، والتي مارست فيها يد القدر لعبتها، حيث توفي الأميرين عز الدين وبكتمر في السنة ذاتها (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م). ولكن، ومع زوال هذا الخطر، ظهر التمزق في الجنوب، حيث خرج الملك العزيز بجيشه من مصر، وهاجم دمشق. فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو صاحب الديار الجزريه، يستنجده، وكان الأفضل يثق بعمه الثقة كلها ويعتمد عليه الاعتماد كله. فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماه، وأسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيرها. فلما رأى العزيز اجتماعهم عرف أنه لا يستطيع الاستيلاء على دمشق، وترددت الرسل حينئذ في الصلح، وتم الاتفاق على أن تكون القدس وما يجاورها من أعمال فلسطين للملك العزيز حاكم مصر، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل، وأن يعطي الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية. وكان الخاسر الوحيد في هذه الصفقة هو الملك الأفضل، كما أن الملك العادل لم يكسب شيئاً في هذه الجولة، سوى أنه أصبح الحكم فيما ينشب بين إخوته من خلافات.

عاد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، فقاد جيشه في السنة التالية (٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) وخرج به من مصر قاصداً دمشق، وأسرع الأفضل مرة أخرى لطلب

النجدة من عمه الملك العادل، ولم يستمع لنصح أخيه الظاهر غازي صاحب حلب الذي قال له:

«أخرج عمنا من بيننا، فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد. وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فانه عمي مثل ما هو عمك. وأنا زوج ابنته. ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك». فأجابه الأفضل: «أنت سيء الظن في كل أحد. أي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح الذكر الحسن».

سار العادل لنجدة الأفضل، وانحاز أمراء الملك العزيز إلى العادل والأفضل، مما أرغم الملك العزيز على الفرار والعودة إلى مصر. ولكن الأفضل وعمه العادل سارا إلى مصر وانضم جند مصر إلى الملك الأفضل، فخاف العادل من امتلاك الأفضل لمصر بالاضافة الى الشام، فمنع الصدام بين الاخوين. وأجرى اتصالات سرية مع العزيز، وتم الاتفاق على إعادة القدس لحكم الأفضل، بالاضافة إلى جميع البلاد بفلسطين والأردن، وأن يبقى العادل مع ابن أخيه العزيز في مصر. ولكن هذا الاتفاق الجديد لم يعمر طويلاً. فقد اتفق العادل مع العزيز على توجيه جيش للاستيلاء على دمشق. وتم تنفيذ ذلك سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٦ م) واعتزل الأفضل بمدينة صلخد وانصرف للعبادة والتقوى. وتدخلت يد القدر مرة أخرى لمصلحة الملك العادل، فقد توفي الملك العزيز بعد سنتين في سنة (٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م). وأصبح الملك العادل ملكاً على مصر والشام، وأخضع سائر الأمراء الأيوبيين لحكمه. وأعاد تنظيم المملكة، فتولى الكامل - أكبر أبناء العادل - الحكم في مصر. وتولى ثاني أبنائه - المعظم عيسى - حكم دمشق. بينما تولى ابنه الثالث - الأشرف - حكم معظم بلاد الجزيرة. وبذا عادت الوحدة الإسلامية تحت قيادة الملك العادل الذي لم تكن له مثل كفاءة أخيه صلاح الدين، ولكن ربما كان أكثر منه مكراً ودهاء.

لقد أفاد العادل من الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد فلما مات صلاح الدين تم تجديد هذه الهدنة لمصلحة الطرفين. ولكن حدث في سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٧ م، ما أوجب نقض هذه الهدنة.

كانت مدينة بيروت تحت حكم الأمير أسامة. فدأب على ارسال السفن الكبيرة ـ الشواني ـ لقطع الطريق على الفرنج. فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر. فلم يمنعا أسامه من ذلك، فأرسل فرنج الشام إلى ملوكهم ـ في قبرص وأوروبا ـ يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون. وقالوا لهم: « إن لم تنجدونا أخذ المسلمون البلاد ». فأجابهم الفرنج بارسال امدادات كثيرة. ولم يلبث ملك الألمان هنري السادس أن وجّه حملة ضخمة، بقيادة القس كنراد ـ فلما علم العادل بذلك، أرسل بطلب جيش مصر وجيش الجزيرة والموصل، فجاءته الأمراء، واجتمعوا على عين جالوت، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال (سنة ٥٩٣ هـ).

ورحلوا إلى يافا، وملكوا المدينة، وامتنع من بها من المقاتلين بالقلعة التي لها، فخرب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها. وأخذوا كل ما بها غنيمة وأسراً وسبياً. ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا، فوصلهم الخبر بها بملك المسلمين لها، وكان سبب تأخرهم أن ملكهم ـ هنري كونت شامبانيا ـ سقط من موضع عال بعكا، فمات. فاختلفت أحوالهم، وتأخروا لذلك. وعاد المسلمون إلى عين جالوت، **فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت**، فرحل العادل والعسكر (في ذي القعدة) إلى مـرجعيـون، وعزم على تخريب بيروت. فسار إليها جمع من العسكر، وهدموا سور المدينة، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك، وتكفل بحمايتها والدفاع عنها. ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا. وعاد عسكر المسلمين من بيروت. فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا، وجرى بينهم مناوشة، فقتل من الفريقين جماعة، وحجز بينهم الليل، وسار الفرنج إلى بيروت، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين. فملكها الفرنج صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال. فكانت غنيمة باردة. فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها. وسار جند المسلمين إلى صور، وأقاموا عليها، فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج. فلما علم الفرنج بذلك، سارت قوات الحملة الألمانية من بيروت، إلى صور وأقاموا عليها، ونزل المسلمون عند قلعة هونين. وسمح الملك العادل لجند الجزيرة والموصل بالعودة إلى بلادهم، ظناً منه

أن الفرنج يقيمون ببلادهم. وأراد أن يعيد جند مصر أيضاً، فجاءته المعلومات بأن الفرنج ـ الألمان ـ يريدون محاصرة حصن تبنين والاستيلاء عليه. فسير العادل قوة لحمايته والدفاع عنه. وسار الفرنج من صور ونازلوا تبنين (أول صفر سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م). وقاتلوا من به، وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم. ولما رأى المسلمون المدافعون عن حصن تبنين ما أحدثه الألمان من نقوب خربت القلعة، ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف. بادروا إلى إجراء مفاوضات مع قائد الألمان ـ القس كنراد ـ وعرضوا عليه تسليم القلعة بمن في سجونها من أسرى الصليبيين والذين بلغ عددهم خمسمائة أسير، مقابل الإبقاء على حياة رجال الحامية وممتلكاتهم الشخصية. غير أن كنراد أصرّ على التسليم بدون قيد ولا شرط.

وإذ حرص بارونات الفرنج على الاحتفاظ بصداقة العادل، وخافوا مما تثيره المذبحة في رجال الحامية من الدعوة إلى الجهاد، أرسلوا إلى السلطان العادل ينذرونه أن الألمان لن يبقوا على حياة أحد من رجال الحامية.

فاستمات المسلمون في الدفاع عن الحصن، ووصل دعم من مصر، وشعر الألمان بالتعب والإرهاق، وخفت حماستهم، وأظهر عدد كبير من قادتهم رغبته بالعودة إلى ألمانيا. وفي تلك الأثناء وردت إلى عكا الأنباء بوفاة امبراطور المانيا هنري السادس. فقرر كنراد ورفاقه التخلي عن الحصار، والانسحاب إلى صور ومنها إلى عكا. ولكن هذا الانسحاب أخذ شكل هزيمة وفرار خوفاً من الصدام مع جيش مصر. ولم تنقض إلا بضعة أيام حتى شرع الجيش الألماني بركوب السفن من عكا راجعاً إلى بلاده.

وفشلت الحملة الألمانية فشلاً ذريعاً، إذ لم تحقق تلك الانتصارات الرائعة التي كانت تحلم بتحقيقها عند قدومها. ولم تفعل شيئاً سوى احتلال بيروت. وخلفت وراءها ـ في عكا ـ طائفة دينية جديدة حملت اسم (فرسان التيوتون) الذين أقاموا بحي خاص في عكا، واشتروا بعدئذ قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على صور، وأطلقوا عليها اسم (شتاركنبرغ).

كانت زوجة هنري كونت شامبانيا ـ ايزابيللا ـ قد تزوجت بعد موت زوجها

(في ١٠ ـ أيلول سبتمبر ـ سنة ١١٩٧ م) بملك قبرص ـ املريك ـ لتوحيد مملكتي الفرنج (القدس وقبرص). ولهذا فما إن انسحبت القوة الألمانية حتى بادر املريك في إجراء المفاوضات مع العادل لعقد هدنة جديدة، **وتم عقد هذه الهدنة في شعبان ٥٩٤ هـ (أول ـ تموز ـ يوليو ـ سنة ١١٩٨ م)**. ونصت هذه المعاهدة، على أن تبقى يافا في حكم المسلمين مقابل الاعتراف ببقاء بيروت وجبيل للفرنج، ويقتسم الطرفان مدينة صيدا، **وتقرر أن يكون أجل المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر**.

لم تكن الحملة الصليبية الألمانية السابقة سوى مقدمة لما كانت تعده ألمانيا. ففي سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م. وجه تيبالدكونت شامبانيا الدعوة إلى أصدقائه وجيرانه الأمراء للحضور إلى حفل في قلعة ايكري على نهر الأين. وجرى في الحفل بحث توجيه حملة صليبية جديدة. واستجاب الحضور لهذه البادرة الصادرة عن ابن أخ ـ غير شقيق ـ لريتشارد قلب الأسد، وابن اخت ـ غير شقيقة ـ لملك فرنسا فيليب اغسطس، وشقيق ملك فلسطين السابق ـ هنري كونت شامبانيا. وجرى اخطار البابا ـ انوسنت الثالث ـ بالاتفاق على توجيه هذه الحملة، ووضعت هذه الحملة هدفاً لها هو توحيد الكنيسة البابوية مع كنيسة القسطنطينية، وكان ذلك أمراً بالغ الأهمية بالنسبة للبابا الذي طالما عمل أسلافه على بذل الجهود لتوحيد الكنيسة، وحرمان الكنيسة الشرقية ـ الارثوذكسية ـ من استقلاليتها. فاتخذ انوسنت الثالث خطوة تمهيدية لذلك بأن استهل المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث، عن توحيد الكنيستين.

وكان الكسيوس الثالث هذا قد دبر مؤامرة ضد أخيه الامبراطور إسحق، فعزله وسمل عينيه وألقى به في السجن مع ابنه الكسيوس الصغير (سنة ٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) فلما كانت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م ـ هرب الكسيوس الصغير من السجن في القسطنطينية، واتخذ طريقه إلى بلاط اخته ايرين انجلينا، زوجة فيليب دوق سوابيا. وتصادف في تلك الفترة أن مات تيبالدكونت شامبانيا، فأجمع الامراء والبارونات على انتخاب بونيفاس مونتفيرات ليكون قائداً للحملة. وقام بونيفاس مونتفيرات بزيارة فيليب دوق سوابيا الذي قدم له شقيق زوجته الكسيوس الصغير، وأظهر له رغبته في إعادة الكسيوس إلى عرش القسطنطينية، وبذلك تصير الامبراطورية الشرقية تابعة

للامبراطورية الغربية ـ الألمانية ـ ويتحقق بذلك الحلم الذي عجز عن تحقيقه امبراطور الغرب السابق ـ هنري السادس ـ. وتم الاتفاق على أن تتوجه هذه الحملة إلى القسطنطينية.

لقد تطلب إعداد الحملة وقتاً طويلاً، ولم تصل قواتها إلى القسطنطينية حتى صيف سنة ١٢٠٣ م فهرب الكسيوس الثالث، وتم تنصيب الكسيوس ابن اسحق امبراطوراً ـ باسم الكسيوس الرابع، وإذ عجز هذا عن تلبية نهم حلفائه الفرنج الذين جاؤوا به إلى الحكم، قامت ثورة ضده، وتم قتله (في شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٠٤). وقام الفرنج بهجوم على القسطنطينية ودمروها تدميراً مريعاً. وقد تعرضت المصادر التاريخية لوصف بعض ما حدث بقولها:

« ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ، إذ ظلّت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدنية المسيحية، فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية، وحفلت بما أجراه صناعها المهرة من الروائع. والواقع أن البنادقة ـ أهل البندقية ـ أدركوا قيمة هذه الروائع، فاستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم ونقلوه إلى مدينتهم، فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور. أما الفرنسيون والفلمنكيون، فتسلطت عليهم شهوة التدمير، فاندفعوا كالكلاب المسعورة يجوبون الشوارع، ويقتحمون الدور، ينتزعون كل ما يلمع ويبرق. أو ينقضوا على مستودعات النبيذ لينتشوا منها. وهم في سيرهم يدمرون كل ما لا يستطيعون حمله، وكانوا كالعاصفة لا يتوقفون إلا لينهبوا أو يقتلوا. وامتدت يد النهب والتدمير حتى الأديرة والكنائس والمكتبات.

بل حدث في كنيسة القديسة صوفية ذاتها، أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة. وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والايقونات. وبينا كانوا يتناولون الشراب في أواني المذبح مبتهجين، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك، وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة. وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أديرتهن.

ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع. وظلّت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام. حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم. وهتف المؤرخ نكيتاس في صدق: إن المسلمين لأكثر منهم رحمة»★ «وليس بوسع أحد أن يحصي الذهب والفضة، ولا الصحون والجواهر، ولا الثياب الحريرية الفاخرة، أو المنسوجات الحريرية الثمينة، أو الثياب المصنوعة من فراء الفندس. أو الفراء الرمادي الفضي، أو فراء السنجاب... إنه منذ خلق الله العالم، لم ينزع من مدينة واحدة من الأشياء مثلما أخذ من القسطنطينية. وتقرر تقسيم كل هذه الغنيمة وفقاً لأحكام المعاهدة؟ بأن صار للفرنج الصليبيين ثلاث أثمانها، وللبنادقة ثلاث أثمانها، بينما صار الربع من نصيب الامبراطور المقبل».

هكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة باسم الحملة الصليبية الرابعة سنة ستمائة للهجرة (١٢٠٤ م) بتدمير القسطنطينية. وخاب أمل الفرنج بالشام من إمكان حصولهم على دعم جديد بالقدرة البشرية المقاتلة. كما خاب أمل المسيحيين في المشرق. فقد حدث عكس ما كان يتوقعه البابا والفرنج، وعوضاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، زاد الانقسام عمقاً واتساعاً. والأهم من ذلك، هو زوال هيبة دولة الروم التي كانت تعتبر نفسها حامية للمسيحية ضد المسلمين في الجنوب، وضد البرابرة في الشمال.

يمكن أن يضاف إلى هذه الحملة التي عرفت أيضاً باسم ـ الحملة المنحرفة ـ لانحرافها عن قتال المسلمين لقتال المسيحيين، تلك الحملة التي اشتهرت باسم (**حملة الأطفال**). والتي بدأت التبشير لها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٢ م) عندما تقدم صبي اسمه ستيفان وعمره اثنتي عشرة سنة ويعمل راعياً، إلى ملك فرنسا فيليب أغسطس، الذي كان يعقد محكمته في مدينة كلوي الصغيرة، وقدم إليه رسالة زعم أن المسيح

★ انظر الكامل في التاريخ ابن الأثير ـ أحداث سنة ستمائة ـ وتاريخ الحروب الصليبية: ١٩٥/٣ ـ ٢٣٥. وذكر أبو شامة ـ أن البنادقة باعوا قدراً كبيراً من الغنيمة للمسلمين. (أبو شامة: ١٥٤/٢).

بشخصه قد أعطاها له، وأمره بأن يمضي فيدعو إلى الحرب الصليبية. ولم يهتم ملك فرنسا بالراعي الصغير، وطلب إليه أن يعود إلى داره. والمعروف أنه في الخمس عشرة سنة السابقة ظلّ المبشرون يطوفون بالقرى، يحضون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في اسبانيا أو في بلاد الشام. فكان من اليسير أن يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة أنه بوسعه أيضاً أن يكون مبشراً، وأن يبز بطرس الناسك، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والتعظيم ما جعله أسطورة من الأساطير. ولهذا لم ينزعج الصبي ستيفان من استخفاف الملك به. فشرع في التبشير عند مدخل دير القديس دينية ذاته، وأعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي، وسوف تجف البحار أمامهم، وسوف يجتازون البحر مثلما فعل موسى عندما اجتاز البحر الأحمر، فيصلون سالمين الى الأرض المقدسة. وقام بعدئذ بجولة في أنحاء فرنسا، فاستجاب له آلاف الأطفال الذين لم يتجاوز عمر الواحد منهم الثانية عشرة ربيعاً. وكان معظمهم من ابناء الفلاحين السذج، باستثناء عدد قليل من الصبيان الذين انحدروا من أسر النبلاء، ففروا من دورهم، ولحقوا باستيفان وأتباعه (الأنبياء الصغار). وكان معهم أيضاً فتيات صغيرات وبضعة قسس صغار، فضلاً عن جماعة قليلة من الحجاج الذين يكبرونهم في العمر، اجتذبت بعضهم التقوى، بينما كان الدافع للآخرين، على ما يبدو، الرحمة. ومن المؤكد أن هناك جماعات أخرى لم تنضم إليهم إلا لتشارك في الهدايا التي سوف تنهمر عليهم جميعاً. وقدمت الجماعات متزاحمة إلى مدينة - فندوم - التي احتشد فيها ثلاثين ألف طفل، وقد رأس كل جماعة منها قائد حمل العلم الفرنسي الأحمر القديم، والذي اتخذه ستيفان شعاراً لحملته الصليبية. وسارت الحملة نحو الجنوب - في حزيران - يونيو - ومات عدد كبير من الأطفال على جانبي الطريق من الجوع والعطش، حتى وصلوا إلى مرسيليا. وأسرعوا نحو البحر ليعبروه، ولكن البحر لم ينشق لهم. وحدث بعد بضعة أيام أن جاء تاجران من تجار مرسيليا - اسم أحدهما هيو الصلب، واسم الثاني وليم الخنزير، فعرضا على الأطفال نقلهم بالسفن إلى فلسطين. وقبل ستيفان العرض بفرح كبير. ومضت ثماني عشرة سنة دون أن ترد عنهم أنباء.

ظهر في تلك الفترة ذاتها حركة مشابهة في ألمانيا تزعمها طفل اسمه نقولا ـ من قرية ببلاد الراين. واشتهر نقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من البلاغة والفصاحة، فمضى في دعوته وتبشيره عبر بلاد الراين من أقصاها إلى أقصاها، وأمكن له جمع حشد من الأطفال ـ في كولونيا ـ. وتجهز للمضي إلى ايطاليا والبحر. على أن متوسط العمر للأطفال الألمان قد زاد قليلاً على ما كان عليه عمر أقرانهم من الفرنسيين. كما أن نسبة الفتيات زادت عندهم عما كانت عليه لدى الفرنسيين. وكان بينهم من أبناء الأشراف مازاد في العدد على ما كان عند الفرنسيين. وانحاز إليهم أيضاً عدد أكبر من ذوي السمعة السيئة ومن المتشردين والعاهرات. وانقسمت الحملة الى قسمين ـ تولى نقولا نفسه قيادة القسم الأول الذي ضم عشرين ألف طفل، وسار بهم من الراين إلى بازل، فمدينة جنيف إلى أن وصلوا جنوه، وكانت رحلة شاقة هلك فيها قسم من الأطفال. أما القسم الثاني من الحملة فاجتاز وسط سويسرا، واخترق ممر سانت جوثار. ووصلوا إلى البحر عند انكونا، ولما لم ينفرج لهم البحر، ساروا إلى برنديزي.

عثر أطفال القسم الأول من الألمان على سفينتين نقلت عدداً كبيراً من الأطفال الذين لم يعرف بعد ذلك مصيرهم لفترة طويلة. وركب آخرون البحر أيضاً على سفن متفرقة. فيما استقر عدد كبير من الأطفال في جنوه. وفي سواها من المدن الايطالية.

وصل إلى فرنسا سنة ١٢٣٠ م قسّ قدم من الشرق، وأخذ يروي قصة غريبة: إذ قال أنه كان أحد القسس الصغار الذين رافقوا ستيفان إلى مرسيليا، وأنه استقل معهم السفن التي قدمها التاجران إلى الأطفال. وعددها سبع سفن. ولم تنقض إلا بضعة أيام عليهم في البحر حتى جابهتهم عاصفة دمرت سفينتين على جزيرة سانت بيترو. أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة، فلم تلبث أن وقعت في قبضة اسطول إسلامي من الجزائر. وأدرك الأطفال أنهم لم يحملوا إلى تلك الجهات إلا بناء على اتفاق مسبق، كما يباعوا أسرى. فتم نقلهم جميعاً إلى بوجيه على شاطىء الجزائر. حيث تم بيع عدد كبير منهم عند وصولهم، فأمضوا حياتهم في الأسر. على حين جرى حمل الآخرين على السفن ـ ومنهم القس ـ فنقلوا إلى مصر. حيث اشترى أمير الاسكندرية الجانب

الأكبر من الحمولة، فاستخدمهم في زراعة أراضيه، وذكر القس أنه لازال منهم على قيد الحياة زهاء سبعمائة. وأنه لم ينقل منهم إلى بغداد سوى جماعة قليلة العدد. وكان القسس الصغار، والفئة القليلة التي تعرف القراءة والكتابة، هم الأوفر حظاً من سواهم. إذ أن حاكم مصر العادل بن السلطان الكامل، كان مهتماً باللغات الأجنبية، فاشتراهم واستبقاهم عنده، واستخدمهم على أنهم مترجمون ومعلمون وكتاب، ولم يرغمهم على اعتناق الإسلام. فأقاموا بالقاهرة. وتبعاً لذلك جرى إطلاق سراح هذا القس الذي عاد إلى فرنسا ليقص قصة (حملة الأطفال).

لقد ساعد فشل الحملة الصليبية الرابعة، وانصراف السلطان العادل لتوطيد دعائم الدولة الأيوبية، على حرص الفرنج والمسلمين، سواء بسواء، على المحافظة على شروط الهدنة، وتجديدها كلما اقتضى الأمر.

ولكن ذلك لم يمنع حدوث معارك صغرى، واشتباكات محدودة. ففي سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م. وهي السنة التي سارت فيها القوات الصليبية إلى القسطنطينية ودمرتها، وصلت إلى عكا جموع من الفرنج، وهدفها مهاجمة القدس وانتزاعها من قبضة المسلمين. فغادر الفرنج عكا، ووصلوا إلى نواحي الأردن، فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام، وسبوا وفتكوا. وكان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع الجند من الشام ومصر. وسار بمن معه من القوات فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام. ونزل الفرنج بمرج عكا، وأغاروا على كفركنا، فأخذوا كل من بها وأموالهم، والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل. فبقوا على ذلك حتى دخلت سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م، حيث اصطلح هو والفرنج، ونزل العادل للفرنج عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها، وأعطاهم الناصرة وغيرها. وسار إلى مصر، فقصد الفرنج مدينة حماه، فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، فقاتلهم، وكان في قلة من الجند، فهزموه وأدخلوه حماه، فخرج العامة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة، وعاد الفرنج إلى الساحل. حيث وجهوا قوة بحرية إلى مصر، فنهبوا مدينة فوه، وأقاموا خمسة أيام وهم ينهبون ويسبون

وعساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، وليس لهم سبيل للوصول إليهم بسبب عدم وجود السفن. ثم عاد الفرنج بما غنموه إلى عكا.

كانت شروط الهدنة قائمة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) عندما قام الفرنج في قبرص بالاستيلاء على عدد من سفن الاسطول المصري، وأسر من فيها. ولما كان ملك قبرص هو ملك الفرنج بالشام، فقد أرسل إليه الملك العادل احتجاجاً، جاء فيه: « نحن صلح، فلم غدرتم بأصحابنا؟ » وطلب إليه ردّ ما أخذوا. فاعتذر ملك قبرص بأن الفرنج الذين استولوا على القسطنطينية هم المسؤولين عن العملية، وأنه لا سلطة له عليهم. ولكن حدث في تلك الفترة أن عاد حكم قبرص إلى صاحب عكا والفرنج بالشام. فأعاد العادل مراسلته، فتجاهل ملك عكا وقبرص الطلب. مما حمل السلطان العادل على قيادة جيشه، والخروج به من مصر إلى الشام. وكان الفرنج قد حشدوا قوات كبيرة بطرابلس، وحصن الأكراد، وأكثروا الإغارة على مدينة حمص وريفها. ونازلوا على مدينة حمص. فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة، ولا يقدر على دفعهم أو منعهم، فاستنجد بملوك الشام، فلم ينجده إلا صاحب حلب الظاهر غازي الذي أرسل جيشاً إلى حمص للدفاع عنها. وسار الملك العادل بجيش مصر إلى عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق سراح أسرى المسلمين وغير ذلك، ثم سار العادل إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس (قطينة) وجاءته عساكر الشرق وديار بكر والجزيرة. فحاصر موضعاً يسمى القليعات، وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه، وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه. ودخل الشتاء، وعادت العساكر إلى أوطانها. وسار العادل إلى دمشق.

استمرت الهدنة حتى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) حيث قدم ملك قبرص (يوحنابريين) إلى عكا، ليعقد قرانه على ملكة القدس (ماريا). حيث تم عقد القران في صور. وبينما كان رجال البلاط يشهدون حفلة التتويج، أغار الملك المعظ ‹‹ شه على ضواحي عكا، غير أنه لم يهاجم المدينة ذاتها، وفي صيف سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م. وافق الملك يوحنابريين لبعض أتباعه بالاشتراك مع طائفة فرسان الداوية بالاغارة على دمياط في مصر. غير أن هذه الحملة لم تظفر بشيء.

وجرت المفاوضات مع الملك العادل، فتم ابرام عقد لهدنة مدتها خمس سنوات، على أنه لم يبدأ تنفيذها إلا في صيف سنة ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م. وأرسل يوحنابريين في الوقت ذاته رسائل إلى البابا. (في روما) يطلب إليه أن تكون الحملة الصليبية الجديدة مستعدة للقدوم إلى فلسطين عند انقضاء أجل الهدنة.

كان البابا أنوسنت قد أدرك النتائج الخطيرة لتوجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، وعرف أنه من المحال استعادة القدس بحملات الأطفال، فشرع في التحريض لتنظيم الحملة الصليبية الخامسة. وكان دوق برغنديا، ودوق اللورين أول من استجاب للدعوة، وشرعا في الاعداد للحملة الموعودة. وانصرف البابا انوسنت لحل الخلاف بين جنوه وبيزا - حتى تسهما معاً في نقل قوات الحملة إلى فلسطين. وكتب إلى السلطان العادل، يحذره بما سوف يحل به من الغضب، إن هو لم يتنازل للفرنج عن القدس. ولكن العادل تجاهل هذا التحذير، وفيما كان الاعداد للحملة يسير نحو نهايته، مات البابا انوسنت الثالث (سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م). فخلفه هونوريوس الثالث (واسمه الكاردينال سافيللي). وأخذ على عاتقه تنسيق التعاون بين ملوك أوروبا وامرائها لتوجيه الحملة في الوقت المناسب.

أخيراً بعد عشرين عاماً من السلم المضطرب بين الفرنج والمسلمين في بلاد الشام، وبعد اعداد استمر أربع سنوات، وصلت إلى عكا طلائع الحملة الصليبية الخامسة (سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م). وقد ضمت هذه الحملة قوات من سائر أنحاء أوروبا، ومن فرنسا والمجر والنمسا بصورة خاصة.

وأصدر ملك عكا (يوحنابريين) تعليماته إلى القوات المحتشدة بالسير فوراً إلى الجليل. وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ثم سار منها إلى اللد. وتوجهت قوات الفرنج لقتاله، فسار العادل نحوهم، عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم. فساروا هم وسبقوه، وعندها نزل العادل على بيسان من الأردن، فتقدم إليه الفرنج عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد، فلما رأى

العادل قربهم منه، تجنب الاشتباك معهم خوفاً من هزيمة تنزل بقواته الضعيفة العدد، وكان حازماً كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق، ليقيم بالقرب منها، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر. فوصل إلى مرج الصفر ونزل فيه. وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، ولم يفارقوا بلادهم، ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه. فلما أقدموا، بوغت المسلمون بوصولهم. ولم يتمكن من النجاة إلا القليل. وأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت، وكانت كثيرة، وغنم الفرنج غنائم ضخمة. ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وبثوا السرايا في القرى، فوصلت إلى خسفين ونوى (في سهل حوران) ونازلوا بانياس وأقاموا على حصارها ثلاثة أيام. ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا. فأقاموا أياماً للراحة، ثم ساروا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين. فنهبوا البلاد: صيدا والشقيف، وعادوا إلى عكا.

سير الملك العادل قطعة جيدة من الجيش إلى نابلس بقيادة ابنه المعظم عيسى الذي كان يحكم دمشق، وذلك ليمنع الفرنج من الوصول إلى القدس. ولكن الفرنج لم يعودوا إلى القدس، بل تحركوا من عكا، ومعهم آلات الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور القريبة من عكا، فحاصروها وزحفوا إليها، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها، وكادوا يملكونه. فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم، فعادوا عن القلعة، وتركوها، ورجعوا إلى عكا. وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً. وعندها توجه الملك المعظم إلى قلعة الطور، فخربها، إلى أن ألحقها بالأرض، نظراً لقربها من عكا، ولتعذر حمايتها والدفاع عنها.

كان مجمع لاتيران الكنسي قد أوصى عند إعداد الحملة الصليبية الخامسة أن تكون مصر هي الهدف لهذه الحملة. وكان ذلك هو ما أوصى به أيضاً ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد عندما جاء في الحملة الثالثة إلى فلسطين. ذلك أنه إذا ما تم القضاء على المسلمين في مصر، فسيفقد المسلمون أغنى أقاليمهم، ولن يتمكنوا من الاحتفاظ بأسطول لهم في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ولن

يكون بوسعهم بالتالي الاحتفاظ بالقدس في قبضتهم إزاء تعرضهم لهجوم مزدوج من السويس وعكا.

أكمل الفرنج الصليبيون استعداداتهم، ونظموا قواتهم، وركبوا البحر من عكا. ووصلوا إلى برّ الجيزة في صفر سنة ٦١٥ هـ (أيار - مايو - ١٢١٨) - وكان النيل يفصل بينهم وبين دمياط التي تقع على بعد ميلين من مصبّ النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة. ودلّت تجربة الفرنج (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) على أنه من المحال الانتصار على المقاومة في دمياط ما لم يتم الهجوم عليها في البر والبحر في آن واحد. وكان المسلمون قد أقاموا في النيل برجاً كبيراً لحماية دمياط، ودعموه بالسلاسل المصنوعة من الحديد الغليظ، والتي اتصلت عبر الماء بسور دمياط، لتمنع المراكب القادمة من البحر أن تصعد في النيل إلى ديار مصر.

شرع الفرنج فور نزولهم على أرض الجيزة ببناء سور وخندق ليمنعهم ويحميهم من هجمات المسلمين، وانطلقوا للهجوم على البرج الذي كان مشحوناً بالمقاتلين، وعملوا آلات وأبراج يزحفون بها في المراكب إلى البرج ليقاتلوه ويملكوه. وجاء الملك الكامل ابن الملك العادل - صاحب مصر - فنزل بالعادلية القريبة من دمياط، ودفع جنده إلى دمياط لمنع الفرنج من العبور إلى أرضها. واستمر الفرنج في قتال حامية البرج، فلم يظفروا بشيء، وكسرت آلاتهم وأبراجهم، ولكنهم تابعوا رغم ذلك محاولاتهم وهجماتهم طوال أربعة أشهر، إلى أن تمكنوا أخيراً من الاستيلاء على البرج. فلما تم لهم ذلك، قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر إلى النيل، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً، امتنعوا به من سلوك النيل، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً حتى تمكنوا من قطعه، وعندها أحضر الكامل عدة مراكب كبيرة، وملأها، وخرقها فأغرقها في النيل، فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه. ولما رأى الفرنج ذلك، توجهوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجري عليه قديماً، فحفروا ذلك الخليج، وعمّقوه، ووصلوا به النيل بالبحر. وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له - بورة - على أرض الجيزة. - مقابل المنزلة - التي أقام فيها الملك الكامل معسكره، وذلك ليقاتلوه من هناك، فانهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه طالما

بقيت دمياط تحجز بينهم وبينه. فلما وصلوا إلى - بورة - حادوه فقاتلوه في الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، ولم يتغير على أهل دمياط شيء حيث كانت الامدادات والمواد التموينية تصل إليها بانتظام. كما كان النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، وبقي أهل دمياط ممتنعون، لا يصل إليهم من الفرنج ضرر أو أذى.

توفي الملك العادل★ في جمادي الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة (٣١ - آب - أغسطس - ١٢١٨ م) والصراع على أشده بين المسلمين والفرنج على أبواب دمياط. فضعفت نفوس الناس. وكان أكبر أمير بمصر هو عماد الدين أحمد بن علي - من الأكراد الهكارية - ويعرف بابن المشطوب، فاتفق مع مجموعة من الأمراء على خلع الملك الكامل، وتنصيب أخاه الفائز بن العادل، ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد، وعلم الكامل بالمؤامرة، فغادر المنزلة ليلاً ومعه قوة من الفرسان الخفيفة، وسار إلى قرية يقال لها - شمون طناح - فنزل عندها، وأصبح العسكر، فافتقدوا سلطانهم، ولما لم يجدوه، ركب كل انسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا لسرعتهم أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم - إلا اليسير الذي يخف حمله، وتركوا الباقي على حاله من المواد التموينية، والحبوب والسلاح والدواب والخيام وغير ذلك، ولحقوا بالكامل. وأصبح الفرنج من الغد فلم يروا من مقاتلي المسلمين أحداً على شاطىء النيل كجاري عادتهم، فوقفوا في ذهول لا يعرفون ماذا حدث، ولا

★ الملك العادل أبو بكر بن أيوب (٥٤٠ - ٦١٥ هـ = ١١٤٥ - ١٢١٨ م) استخلفه أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لما سار إلى الشام، ثقة به واعتماداً عليه، وعلماً بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة. فلما توفي أخوه صلاح الدين ملك دمشق، ثم ملك مصر ودمشق وسائر بلاد الشام. كان عاقلاً ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة. صبوراً حليماً ذا أناة، يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه. وقسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل محمداً، وجعل ابنه المعظم عيسى بدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة، وجعل لابنه الملك الأشرف موسى بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط. وأعطى لولده الحافظ أرسلان شاه قلعة جعبر. فلما توفي الملك العادل ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه. واتفقوا اتفاقاً حسناً، ولم يجر بينهم الاختلاف ما جرت العادة أن يحدث بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق إلى الآخر. مما زاد من ملكهم. وأطال من أمد الدولة الأيوبية.

يستطيعون له تفسيراً أو تأويلاً، حتى جاءهم من أخبرهم حقيقة الموقف، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين، بغير منازع ولا ممانع وذلك يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ. فغنموا ما في معسكر المسلمين، وكانت غنيمة ضخمة يصعب حصرها أو إجراء احصاء لها، والأهم من ذلك هو أن هذه الغنيمة قد جاءت الفرنج دون جهد ولا عناء. ولكن وبينما كان الكامل يغادر مصر، وقد فقد كل ثقة بجنده وقادته، وصل الملك المعظم عيسى على رأس جيش دمشق ولما يمض على حركة التمرد أكثر من يومين، فوجد الناس وهم في أمر مريج، ولما وقع الكامل على أخيه المعظم عيسى، استرد شجاعته، وقوي أزره وثبت جنانه، وأقام بمنزلته، ومضى لمعالجة الموقف، فأمكن له السيطرة عليه دونما عناء، وجاء المعظم عيسى بابن المشطوب، فأبعده عن مصر، وسيره إلى الشام، وألحقه بجند أخيه الملك الأشرف★. وقامت العرب خلال ذلك بالتجمع بقبائلها المختلفة، ونفذت المهمة التي أسندها إليها ابن المشطوب وهي نهب البلاد المجاورة لدمياط، وقطع الطريق، وممارسة الأعمال التخريبية، فكانت أعمالهم أشد ثقلاً على المسلمين من أعمال الفرنج. وكان مما زاد من الكارثة التي نزلت بدمياط، أنه لم يكن بين أهلها أحد من الجند، لأن السلطان وجنده كانوا عندها يمنعون العدو من الوصول إليها. فأتتهم حركة العصيان والأعمال التخريبية بصورة مباغتة، فلم يدخلها أحد من الجند ليقف مع أهلها ويشد من أزرهم. وأحاط الفرنج بدمياط، وقاتلوا أهلها براً وبحراً، وعملوا عليهم من جديد خندقاً يحميهم من هجمات المسلمين المباغتة - وكانت هذه عادتهم. واستمروا في القتال، واشتد الأمر على أهلها، وتعذر عليهم الحصول على المواد التموينية والذخائر، وتعبوا من القتال، وسئموا من

★ يظهر أن عماد الدين أحمد بن علي - المعروف بابن المشطوب، لم يتعظ بما ألحقه من الضرر بالمسلمين نتيجة تآمره على الكامل، ولم يستفد من الفرصة التي اتيحت له لاصلاح نفسه، فسار مع طبيعته التآمرية، إذ لم يكد يستقر عند الملك الأشرف بالجزيرة، حتى أخذ في التآمر مع مظفر الدين الذي كان ينازع أخيه ملكه في الموصل، ضد الأشرف الذي انتصر للأخ - بدر الدين - باعتباره الملك الشرعي. وانتصر الأشرف، فهرب ابن المشطوب إلى سنجار حيث تم اعتقاله، والقي به في السجن بحران إلى أن مات سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م.

ملازمته، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة.

ومع هذا صبر أهل دمياط صبراً لم يسمع بمثله، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض. ودام الحصار عليهم حتى يوم ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م. فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم، ونفاذ الأقوات عندهم. فسلموا البلد إلى الفرنج بالأمان. وخرج منهم من بقيت لديه قدرة للسير وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة.

ما إن ملك الفرنج دمياط وأقاموا بها، حتى بثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون، فجلى أهل البلاد عنها، وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أصبحت حصوناً لا ترام. وسمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط، فأقبلوا على أصحابهم يهرعون من كل فجّ عميق. وأقام الكامل بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها. وعاد الملك المعظم إلى الشام، ودمّر في طريقه تحصينات القدس (في ذي القعدة سنة ٦١٦ هـ) وذلك لأن الناس كافة **قد خافوا الفرنج. وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف في شرق الأرض وغربها، فقد أقبل المغول التتار من المشرق حتى وصلوا إلى أذربيجان ونواحي العراق، وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية، مع دعم الحصون المانعة بها من الأعداء. وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على الهلاك. وصاروا يتوقعون البلاء صباح مساء. وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ولات حين مناص وقد أحاط بهم العدو من كل جانب. ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها. وإنما منعوا منه فثبتوا.**

تابع الكامل جهده وجهاده، وكتب إلى أخويه: صاحب دمشق المعظم عيسى، وصاحب الجزيرة وأرمينية وغيرهما الأشرف موسى، يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يتمكنا من الحضور فليرسلا جيوشهما إليه. واعتذر الأشرف موسى، فسار إليه أخوه المعظم عيسى ليقنعه بارسال الدعم إلى أخيهما الأكبر بمصر. فرآه

مشغولاً عن انجاد أخيه بما دهاه من الفتنة، وما يواجهه من تمرد الملوك والأمراء على طاعته، فعذره، وعاد عنه إلى دمشق. وبقي الأمر كذلك مع الفرنج حتى تمكن الأشرف موسى من السيطرة على الموقف وإخضاع أعمال التمرد وتسوية الأمور، فاستقامت له الأمور سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م فسار بجيشه من الجزيرة إلى دمشق. وعندها قال له قادة جنده وأمراءه بأن يعود بهم إلى بلاده خوفاً من حدوث حركات تمرد جديدة، فرفض رأيهم، وقال لهم: **«قد خرجت للجهاد، ولا بد من إتمام ذلك العزم»**. وسار إلى مصر.

كان الفرنج قد غادروا دمياط - براجلهم وفارسهم، وقصدوا الملك الكامل، ونزلوا مقابله، بينهما خليج من النيل يسمى - بحر أشمون - وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم على وشك امتلاك الديار المصرية. ووصل الأشرف موسى إلى مصر، فلما علم أخوه الكامل بقربه، توجه إليه واستقبله، واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما. وعقد الكامل مؤتمراً مع الأشرف لمناقشة الموقف، وتم الاتفاق بينهما على التقدم نحو رافد من روافد النيل يعرف باسم - بحر المحلة -. فاقترب المسلمون من الفرنج، وقاتلوهم. ونزلت سفن المسلمين إلى النيل فقاتلت سفن الفرنج، واستولت على ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا وتفاءلوا، وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوهم. وكان الكامل قد تمكن من بناء اسطول قوي أرسله في الصيف الفائت (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م) من فرع رشيد إلى قبرص، حيث عثر على اسطول للفرنج الصليبيين في ليماسول، فشنّ عليه هجوماً مباغتاً، أدى إلى اغراق كل السفن أو أسرها، كما وقع في أيدي المسلمين آلاف عديدة من الأسرى. وتقدم اسطول للبنادقة لاعتراض الاسطول الإسلامي، وليهاجم مينائي رشيد ودمياط. ولكن هذا الأسطول فشل في محاولته. وبذلك، وبانضمام جيش الجزيرة إلى جيش مصر، امتلك المسلمون التفوق في البر والبحر.

كان القتال بين المسلمين وبين الفرنج مستمراً حول دمياط، فيما كانت الرسل تتردد بين الطرفين للاتفاق على أساس للصلح، **وأظهر الملك الكامل استعداده للتنازل عن**

القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ـ ما عدا الكرك ـ مقابل الانسحاب من دمياط وتسليمها للمسلمين.

ولكن الفرنج طمعوا بالحصول على أكثر مما تضمنه هذا العرض السخي، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها. وقالوا أيضاً: «لا بد من الحصول على الكرك». وبينما الأمر على هذا بين عرض وامتناع، اضطر المسلمون لقتال الفرنج، وكان الفرنج يعتمدون على قوتهم واقتدارهم، فلم يستصحبوا معهم من المواد التموينية والذخائر ما يكفيهم لأكثر من أيام قليلة، ظناً منهم أن المسلمين لن يستمروا في مقاومتهم، وأن القرى والريف جميعه يبقى في أيديهم، يأخذون منه ما يريدون من التموين. وعرف المسلمون ذلك، فدفع الكامل قوة إلى ناحية معسكر الفرنج، ففجرت النيل، وأغرقت الأرض، حتى لم يعد للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق. فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل ـ عند أشمون ـ وعبر جند المسلمين عليها، فسيطروا على الطريق الذي يسلكه جند الفرنج إذا ما أرادوا العود إلى دمياط. فلم يبق لهم خلاص، وأحكم المسلمون الحصار على الفرنج. وتقدم مركب كبير للفرنج ـ من أعظم مراكبهم يسمى مرمة ـ وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من المواد التموينية والأسلحة وما يحتاج إليه جند الفرنج. فتصدت له سفن المسلمين، وقاتلوا الفرنج، فظفر المسلمون بمركب ـ مرمة ـ وبما معها من الحراقات، وأخذوها. فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم، وأدركوا أنهم ضلّوا الصواب عندما فارقوا دمياط، وساروا في أرض مجهولة. وتابع جند المسلمين حصارهم للفرنج، واستمروا في استنزاف قوتهم برمي النشاب، والإغارة على أطرافهم. فلما اشتد الأمر على الفرنج، أحرقوا خيامهم، ومجانيقهم، وأثقالهم. وصمموا على مهاجمة المسلمين، ومقاتلتهم، واختراق دائرة الحصار للعودة إلى دمياط، ولكنهم وجدوا أنه من المحال عليهم تحقيق هذا الهدف، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم، ولإحكام المسلمين قبضتهم على طريق انسحاب الفرنج وتراجعهم. ولما أيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأنه أصبح من المتعذر عليهم الحصول على ما يحتاجونه من الطعام والتموين، وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها، ذلّت نفوسهم، وتنكست

صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم، عاودوا الاتصال بالملك الكامل وأخيه الأشرف، **وطلبوا الأمان لتسليم دمياط بغير عوض.**

تحرك جيش دمشق بقيادة الملك المعظم، وسار نحو مصر، فيما كانت الرسل تتنقل بين الطرفين للاتفاق على تسليم دمياط التي توجه إليها المعظم مباشرة، ظناً منه أن أخويه وجيشيهما قد نزلوها - وقيل بأن المعظم قد علم وهو في طريقه إلى مصر أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم -. وأقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط، فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج، ولم يطل بهم الأمر حتى عرف أنه جيش الملك المعظم فاشتد ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاناً ووهنا، **وتمموا الصلح على تسليم دمياط. وذلك يوم ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ (٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٢١ م) وانتقل ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن، وعدتهم عشرون ملكاً. ودخل المسلمون دمياط، وكان يوماً مشهوداً.**

أقامت الحملة الصليبية الخامسة في دمياط أربع سنين - غير شهر -. وخرجت دون أن تحقق أي كسب أو مغنم. وزالت الغمة عن المسلمين - ولو إلى حين -.

لقد وصل الفرنج الصليبيون، في مرتين على الأقل، إلى حافة النصر. وأظهر السلطان الكامل استعداده للتنازل عن القدس وعن معظم أرجاء فلسطين. وقد تمسك الفرنج بشرط استعادة - الكرك - وحصون ما وراء نهر الأردن، على أساس أنه من المحال الدفاع عن القدس ما لم تقم على حمايتها قلاع شرقي الأردن وحصونها. وربما كانت وجهة النظر هذه سليمة - من الناحية الاستراتيجية -. ولكن التمسك بها حرّم الفرنج الصليبيين من الحصول على أية فائدة من حملتهم، التي كان أتعس ضحاياها، هم أقل الناس جناية وذنباً، فقد حمل الفرنج مع حملتهم هذه، أحقادهم ومشاعرهم غير النبيلة، والتي انتقلت بالعدوى إلى المسلمين. ولهذا فما إن انسحبت قوات الفرنج من دمياط، حتى طغت على مصر موجة جديدة من التعصب عند المسلمين، لتخوفهم من قدوم الصليبيين من الغرب. وعلى الرغم مما اشتهر به الكامل من التسامح، فقد تعرض

القبط والملكانيين في مصر لقيود بالغة الشدة، زادت في عجزهم وضعفهم. فتقرر عليهم أن يؤدوا ضرائب باهظة، وجرى اغلاق الكنائس، وتعرضت كنائس كثيرة للنهب. ولم يستطع التجار الايطاليون أن يستردوا وضعهم السابق بالاسكندرية، لأن مواطنيهم شجعوا الحملات الصليبية وساعدوها. ومع أنهم عادوا إلى متاجرهم. فانهم لم يعودوا موضع ثقة الناس.

لقد تضمنت اتفاقية انسحاب الفرنج من دمياط عقد هدنة مدتها ثماني سنوات بين الفرنج والمسلمين، ولكن هذه الهدنة لم تشمل الايوبيين بحلب ولا السلاجقة في الموصل.

وكان من غريب المصادفات، أن وصلت إلى دمياط بعد توقيع الاتفاقية قوة من مالطا ـ حملتها أربعون سفينة ـ. وقد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان باستطاعة هذه القوة تغيير مصير الحملة. ولكن الفرنج شعروا بالأسف لوصول هذا الدعم بعد فوات الأوان. وعاد ملك قبرص وعكا (يوحنابريين) إلى عكا يجر أذيال الخيبة، فيما تحرك قائد الحملة ـ نائب البابا الكاردينال بيلاجيوس ـ نحو شمال بلاد الشام وهو يتجرع مرارة الهزيمة.

١٤ ـ انهيار الأيوبيين .

ظهر من خلال حصار الفرنج لدمياط ، اتفاق أولاد السلطان العادل اتفاقاً حسناً . مما كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام والدفاع عنها ، وسرّ الناس أجمعون بذلك ، فلما انسحبت قوات الحملة الصليبية الخامسة من مصر . بقي الملك الكامل في مصر ، وعاد الملك المعظم عيسى إلى دمشق ، كما عاد الملك الأشرف موسى إلى ديار الجزيرة ، ولكن هذا الاتفاق لم يستمر طويلاً . وظهرت بوادر الخلاف والشقاق . فقد سار الأشرف من الجزيرة إلى أخيه الكامل بمصر ، ومرّ على أخيه بدمشق ، ولم يستصحبه معه ، وأطال المقام بمصر ، مما أثار الشك في نفس المعظم ، فسار إلى حماه لضمها إليه ، فأرسل إليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارهاً ، فازداد نفوراً ، وقيل إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه . ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله ـ رضي الله عنه ـ كان قد غضب على الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن ، عندما أظهر استهانته بأمير الحاج العراقي في مكة المكرمة ، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما ، وقاطعهما ، وكتب إلى صاحب اربل ـ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي ـ لعلمه بخصومته للملك الأشرف ، فاستماله إليه . وزاد على ذلك أيضاً تعاظم سلطة جلال الدين بن خوارزمشاه ، وامتداد ملكه في الشرق ، فصار يشكل خطراً على الملك الأشرف ، ورأى الملك الأشرف أن باستطاعة أخيه الملك المعظم عيسى حرمانه من الدعم الذي قد يصله من مصر إذا ما دعت الحاجة ، كما أن باستطاعته أيضاً منع عساكر حلب ودمشق من دعمه ، وعلم أن الخليفة وجلال الدين قد كتبا إلى الملك المعظم واستمالاه اليهما ضد أخويه الكامل والأشرف ، فعظم الأمر على الأشرف وسار إليه واستماله وأصلحه . فلما علم الكامل بذلك ، عظم الأمر عليه ، وظنّ أن اتفاقهما ضده ، ثم إنهما راسلاه ، وأعلماه بنزول جلال الدين بن خوارزمشاه على خلاط ، وعظما الأمر عليه . وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق بين أولاد العادل . وانقضت سنة

٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م، وأقبل الشتاء، وأخذ الناس في انتظار فصل الربيع لمعرفة ما سينتج عن هذا الصراع الخفي. وجاءت السنة التالية (٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م) فتوفي الملك المعظم عيسى، وولي بعده ابنه داود، ولقب بالملك الناصر. وكان عمره قد قارب عشرين سنة، وبايعه جند دمشق وأهلها.

كان الامبراطور الألماني فريدريك الثاني قد نظم حملة وسار بها إلى قبرص. وشرعت قوات الحملة بالانتقال إلى عكا. فكثر جمعهم، وكان قد وصل قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً من الفرنج، فلما توفي المعظم وولي بعده ابنه، الملك الناصر داود، طمع الفرنج، وخرجوا من عكا وصور وبيروت وساروا إلى مدينة صيدا - وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب - فاستولوا عليها وعمروها وأزالوا عنها حكم المسلمين، وقد تم لهم ذلك بسهولة نظراً لتخريب الحصون القريبة منها: تبنين وهونين وغيرها وبذلك عظمت قوة الفرنج وزاد طمعهم. واستثمر الكامل هذا التدهور فسار بجيشه من مصر إلى الشام، ووصل إلى القدس، ثم سار عنها إلى مدينة نابلس، ووضع حامية قوية من قواته في كل من المدينتين. وخاف الملك الناصر داود أن يهاجمه عمه الملك الكامل، بعد أن انتزع منه القدس ونابلس وبعض فلسطين، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وطلب إليه الحضور إلى دمشق، فسار إليه في قوة من الفرسان الخفيفة، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويعلمه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لاغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب. وقال:

«إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فأنهم لم يكن في البلاد عما يريدونه. وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا. وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح القدس. فصار لنا بذلك الذكر الجميل على مرّ الأيام. فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا. وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى؟. ثم إن الفرنج لن يقفوا حينئذ عند حدود ما أخذوه، بل سيتجاوزوه إلى غيره. وحيث أنك قد حضرت أنت، فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد. ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته» وانسحب من نابلس. ونزل

على تل العجول. قرب غزة، فخاف الأشرف والناس كافة بالشام، وعلموا أنه إن عاد إلى مصر استولى الفرنج على القدس وغيره مما يجاوره، لا مانع دونه. فسار الأشرف بنفسه إلى أخيه الكامل في تل العجول. فأقاما بمكانهما. وشرعا في اجراء الاتصالات مع الامبراطور فريدريك الثاني الذي كان قد وصل إلى عكا في السنة السابقة، وأوفد الكامل إلى عكا سفارة برئاسة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وكلفه باطالة أمد المفاوضات قدر المستطاع. وانقضت عدة شهور في مساومات، في جو ساده الشك من جانب الكامل والخداع من جانب فريدريك، وأظهر الرجلان رغبتهما كل في التعرف على اسلوب حياة الآخر، ولم يكن كل منهما مستعداً لتفجير الحرب طالما أنه بالمستطاع تجنبها وتفاديها.

غير أنه كان لزاماً على كل منهما أن يبذل كل جهد ممكن في التشدد وذلك حتى يحافظ على مكانته وهيبته تجاه شعبه. وتعرض فريدريك لضغط كبير من جانب الفرنج، إلا أنه استطاع مجابهة هذا الضغط لمعرفته بأن جيشه ليس بالقوة الكافية للقيام بحملة كبيرة. وكان الكامل من جانبه يتجنب اللجوء إلى استعراض القوة أو استخدامها طالما أنه لم يسيطر بعد على دمشق، فكان مستعداً للتنازل للمسيحيين عن امتيازات تسمح له للمضي في سياسته الهادفة لإعادة توحيد الدولة الأيوبية، والسيطرة عليها. على أن هذه التنازلات يجب أن تبقى ضمن حدود مقبولة أو معقولة. فلما طلب فريدريك استعادة كل فلسطين. أخبره فخر الدين ـ سفير الملك الكامل ـ بأنه ليس بالمستطاع الاساءة إلى مشاعر المسلمين إلى هذا الحد. وعندها حاول الامبراطور فريدريك دفع الأحداث للتسارع وذلك باجراء تظاهرة عسكرية ـ لاستعراض القوة ـ فحشد كل القوات التي استطاع حشدها في سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م. وسار بها على امتداد الساحل إلى يافا، التي شرع في بناء تحصيناتها ودعم دفاعاتها. ورفض الكامل الخضوع للابتزاز، فقطع المفاوضات. ولم يستأنفها من جديد إلا بعد أن دفع فريدريك تعويضاً عن الخسائر التي نزلت بالقرى نتيجة قيام جند فريدريك بنهبها. وبرهن فريدريك في نهاية الأمر على أنه يتفوق على الكامل في مجال المساومة.

وأمكن له التوقيع على معاهدة للصلح مع الكامل في مطلع سنة ٦٢٦ هـ =

١٢٢٩ م. وتضمنت نصوص المعاهدة تنازل الكامل للفرنج الصليبيين عن القدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهي عند يافا على البحر، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل بما اشتمل عليه من القلاع والحصون مثل مونتفورت وتبنين وما تبقى من المناطق الاسلامية المحيطة بمدينة صيدا. على أن يبقى المسجد الأقصى في قبضة المسلمين الذين لهم حق التردد عليه، وممارسة فرائضهم الدينية فيه بحرية. وأضحى باستطاعة فريدريك اعادة بناء أسوار القدس. وقضت المعاهدة باطلاق سراح الأسرى المحتجزين لدى الجانبين. وأن يكون أجلها عشر سنوات بالتقويم الفرنجي (أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري). ولم تشمل هذه المعاهدة إمارة أنطاكية ولا إمارة طرابلس.

استطاع الامبراطور فريدريك، المقطوع من الكنيسة، أن يعيد بذلك للفرنج الصليبيين الأماكن المقدسة، دون أن يوجه ضربة واحدة. على أنه ما من معاهدة لقيت من الرفض ومن المقاومة، من المسلمين والفرنج على السواء، ما لقيته هذه المعاهدة.

فقد انتشرت موجة من الغضب عمت كل أرجاء بلاد المسلمين. ورفع الملك الناصر داود راية الرفض، في دمشق، وأعلن الحداد العام لما تعرض له الإسلام من الخيانة، بل إن أئمة الكامل ذاته، أعلنوا جهاراً أن هذه المعاهدة هي إساءة للإسلام وأهله.

ولم يتمكن الكامل من الدفاع عن نفسه إلا بتقديم أعذار تافهة لم تلق القبول من جمهور المسلمين حيث زعم أنه لم يتنازل للفرنج إلا عن دور وكنائس خربة، بينما احتفظ للمسلمين بمقدساتهم. وكذلك قوله بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الاقليم.

أما الفرنج الصليبيون فقد أدركوا من جانبهم بأنه ما من فائدة من استعادة القدس طالما بقيت الحصون والقلاع في شرقي الأردن تحت حكم المسلمين. وهيمن عليهم الحزن لأنهم لم يستعيدوا القدس بقوة السلاح.

ولهذا لم يستقبل الفرنج المعاهدة بما كان يتوقعه فريدريك من البهجة والحبور. وما من أحد تجرأ على تقديم اقتراح برفع قرار الحرمان من الكنيسة عن الرجل الذي قدم للعالم الصليبي مثل هذه الخدمة.

احتفل الامبراطور فريدريك الثاني بدخوله القدس يوم ١٧ - آذار - مارس - سنة ١٢٢٩ م. ولم يرافقه إلا عساكره من الألمان والايطاليين، وعدد قليل من امراء الفرنج المحليين. ولم يشترك من الطوائف الدينية العسكرية سوى طائفة فرسان التيوتون - الألمان -. واستقبل الامبراطور عند باب القدس، قاضي نابلس شمس الدين، الذي سلمه باسم الملك الكامل مفاتيح المدينة. ثم اجتاز الموكب الصغير الشوارع الخالية من الناس، حتى بلغ دار الاسبتارية القديمة، التي اتخذها الامبراطور فريدريك مقراً له.

لم تظهر على مدينة القدس ظواهر البهجة، فقد هجر المسلمون المدينة، وابتعد المسيحيون بحجة أن عودة الفرنج لن تجلب لهم الخير، وتوجه فريدريك في صبيحة اليوم التالي إلى كنيسة القيامة، التي لم يكن بها أحد من القسس. وتقدم فريدريك بثبات. فوضع التاج الملكي - تاج ملك القدس - على مذبح الجلجلة ثم تناوله بيديه ووضعه على رأسه. وعندما عاد الامبراطور إلى مقر إقامته، أصدر أمره لاصلاح برج داود، وباب اصطفان، وسلم المقر الملكي الملاصق لبرج داود إلى فرسان التيوتون. وأظهر خلال إقامته في القدس رغبة لزيارة المشاهد الإسلامية.

فقام السلطان الكامل بالايعاز إلى مؤذن المسجد الأقصى بعدم رفع الأذان خلال إقامة الامبراطور في القدس. ولكن الامبراطور فريدريك احتج على ذلك، وطلب بألا يمتنع المسلمون عن ممارسة شعائرهم الدينية، **وقال إنه لم يحضر إلى القدس، إلا رغبة في سماع المؤذن وهو يدعو المسلمين للصلاة في جوف الليل.**

ولما دخل ساحة الحرم الشريف، تبعه رجل من رجال الدين المسيحي، فانتهره الامبراطور وطرده بعنف وقسوة، وأصدر أمره باعدام كل قسيس يجتاز عتبة الحرم الشريف بدون أذن المسلمين. وبينما كان الامبراطور يطوف بقبة الصخرة، شاهد ما

أمر صلاح الدين بنقشه من كتابة حول القبة ـ من الفسيفساء ـ والتي تسجل **تطهير** البناء من الكفار الملحدين، فسأل الامبراطور مبتسماً:

«من يكون هؤلاء الكفرة الملحدون».

وإذ شاهد أسياخاً بأعلى النوافذ، أعلموه بأنها **قد وضعت لابعاد الطيور. فقال: «والآن قد بعث الله لكم الخنازير».** فاستخدم بذلك اللفظ ـ أو التعبير ـ الذي يستخدمه المسلمون في وصف المسيحيين. والمعروف أنه كان في حاشية الامبراطور جماعة من المسلمين، منهم معلمه في الفلسفة وهو عربي مسلم.

ومع أن المسلمين أبدوا اهتماماً بالتعرف على الامبراطور، غير أنه لم يترك أثراً عميقاً في نفوسهم، إذ أن مظهره خيّب ظنّهم وتوقعهم، وقالوا إنه بوجهه الأحمر الناعم، وعينيه الحولاوين، لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق.

عاد فريدريك الثاني إلى بلاده بعد شهرين. وجابه الفرنج في القدس مأزقاً صعباً، فقد كان من المحال عليهم حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل.

ودأب المجاهدون المسلمون على مهاجمة الفرنج الصليبيين. ونظم شيوخ المسلمين في حبرون ونابلس إغارة على القدس، ولما يمض أكثر من بضعة أسابيع على رحيل فريدريك إلى بلاده، فهرب الفرنج الصليبيون إلى برج داود للاحتماء به، ولم ينقذهم إلا قدوم قوة من صيدا وعكا. وأنكر أمراء المسلمون أن تكون لهم علاقة بهذه الاغارة.

وهكذا استمر الصراع بين المسلمين والفرنج، بعيداً عن إرادة الملوك الأيوبيين، وخارجاً على إرادتهم، فيما كانوا هم منصرفون لصراعاتهم. فقد استطاع الملك الأشرف أن ينتزع من أخيه الناصر داود ملك دمشق (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م).

وحصل الناصر داود عوضاً عن دمشق على مملكة في وادي نهر الأردن واقليم ما وراء نهر الأردن ـ وعاصمته الكرك ـ. وأصبح للكامل السيطرة على أخيه الأشرف وابن أخيه داود. فانصرف لتوطيد سلطته في الجزيرة. وحقق انتصاراً كبيراً على **ملك**

الخوارزمية - جلال الدين خوارزمشاه (سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م). وظن المسلمون في بلاد الشام أن الدولة الأيوبية مقبلة على عهد من الاستقرار، ولكن حدث في سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م أن توفي حاكم حلب - الملك العزيز بن الظاهر غازي. فتولت صفية خاتون - شقيقة الكامل - الوصاية على حفيدها الصغير الظاهر الثاني. وأمكن لها الحصول على دعم كافة الامراء الايوبيين الصغار - باستثناء الناصر داود الذي وقف إلى جانب عمه الكامل. وبينما كان الصدام المباشر بين المعسكرين الأيوبيين على وشك الوقوع، توفي الملك الأشرف (سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م). وتولى الحكم في دمشق أخوه الأصغر الصالح اسمٰعيل ولم يترك الكامل فرصة أمام الصالح اسمٰعيل لإعادة تنظيم المعسكر المضاد له فزحف على دمشق سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م. وأضافها إلى مملكته، ومنح ابن أخيه الصالح اسمٰعيل مقابل ذلك إقطاعاً في بعلبك. غير أن الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره، فمات وهو في الستين من عمره.

لقد اعتبر الكامل بأنه هو المسؤول - إلى حد كبير - عن صرف المسلمين عن الجهاد ضد الفرنج، وتوجيه جهدهم للمحافظة على الدول الايوبية، ولتوحيدها تحت سلطانه. ولقد جاءت وفاته لتزيد من تعقيد الموقف. فقد كان الصالح أيوب، الابن الأكبر للكامل، في شمال بلاد الشام، عندما توفي والده، فبادر بالسير إلى دمشق التي استولى على الحكم فيها الجواد - ابن أخ الكامل - وأمكن له الاستيلاء عليها، وطرد الجواد منها. وأخذ في الاعداد للمسير إلى مصر لينتزع الحكم فيها من شقيقه العادل الثاني الذي كان قد استقر في مصر. ولكن عمه - الصالح اسمعيل - تمكن من احداث ثورة في دمشق ضد الصالح ايوب الذي لجأ إلى الناصر داود من أجل دعمه ومساعدته. ووافق الناصر داود على مساعدته، ودعمه بالقوات. فسار الصالح ايوب إلى مصر، وأفاد من سوء إدارة العادل الثاني، فعزله عن الحكم (سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م). وأصبح الصالح أيوب ملكاً على مصر. وكافأ الناصر داود على ما قدمه له من المساعدة بأن منحه حكم بلاد فلسطين والأردن.

بقي الصالح اسمعيل ملكاً على دمشق، مما ساعد على تمزق الجبهة الإسلامية في بلاد الشام، خلال السنوات العشرة التالية، وذلك لاستمرار الصراع بين العم الصالح

اسمعيل، وابن أخيه الصالح أيوب. وامتد بساط الفوضى والاضطراب على شمال أرض الشام بسبب نشاط الخوارزمية في أعمال التدمير حيثما ساروا، متذرعين بأنهم تلقوا التوجيهات من الصالح أيوب لممارسة التخريب ونشر الفوضى. أما في الجزيرة، فلم يكن للمظفر الأيوبي ـ أمير ميافارقين ـ إلا نصيب زهيد من السلطة والنفوذ، وحاول تورانشاه ابن الصالح أيوب أن يحكم أملاك جده بالجزيرة، غير أن مدناً كثيرة وقعت تحت حكم سلطان السلاجقة كيخسرو الثاني. واتخذ الناصر يوسف، الذي خلف أخاه سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م على حكم حلب، خطة الدفاع، بينما انصرف أميرا حماه وحمص إلى مجابهة خطر الخوارزمية.

أوشك أمد المعاهدة التي كانت قد عقدت بين فريدريك الثاني والكامل، على الانتهاء، في وسط هذه الدوامة من الاضطرابات العنيفة. مما شجع البابا ـ غريغوري التاسع على ارسال مندوبين من قبله إلى فرنسا وانكلترا (سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) لتوجيه حملة صليبية جديدة. ولكن ملكي فرنسا وانكلترا لم يكونا على استعداد لقيادة حملة صليبية، بصورة شخصية، غير أنهما قدما كل دعم وتشجيع لدعاة هذه الحملة. وأمكن خلال فترة قصيرة تجهيز قوة كافية ضمت في قيادتها نخبة نبلاء فرنسا، **وعلى رأسهم تيبالدكونت شامبانيا وملك نافار، الذي كان ابن أخ هنري كونت شامبانيا، وبذا كان ابن عمة ملوك فرنسا وانكلترا وقبرص.**

وكان تيبالد يأمل في ركوب البحر إلى فلسطين من ميناء برنديزي الايطالي، غير أن الصراع الذي نشب بين الامبراطور فريدريك الثاني وبين البابا، أرغم قوات الحملة على ركوب البحر من مرسيليا ومن ميناء ايج مورت. وجابهت الحملة خلال رحلتها أعاصير عاتية أرغمتها على التأخر، فلم تصل إلى عكا حتى بداية ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٣٩ م. وانعقد في عكا على الفور مؤتمر لمناقشة أفضل السبل للإفادة من هذه القوة المقاتلة الجديدة.

ووجد امراء الفرنج أن الظروف مناسبة جداً للإفادة من قوة الحملة العسكرية لخدمة الأغراض السياسية، فما نشب من صراعات ومنازعات بين ذرية الكامل الأيوبي، مهدت السبيل للمساومة، وذلك للحصول على تنازلات

سخية من كل مراكز القوى الإسلامية المتصارعة، أو من كل واحد منها على انفراد.

ولكن قوات الحملة ما جاءت إلا للحرب والقتال، وهي لا تريد سلوك النهج المهين الذي أخذ به فريدريك الثاني. ولهذا اتفق حضور المؤتمر على توجيه الحملة إلى مصر، وذلك للإفادة من كراهية الناس لملك مصر العادل الثاني، **وأيد بعض الأمراء الاقتراح بتوجيه الحملة إلى دمشق باعتبارها العدو العنيد للفرنج.**

ولكن لا بد للجيش الصليبي من تحصين قلاع الجليل قبل السير إلى دمشق، ولهذا تقرر الهجوم على مصر أولاً ثم التوجه للهجوم على دمشق.

خرجت الحملة من عكا في ٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٣٩ م. واتجهت نحو الحدود المصرية، وعلم بطرس كونت بريتاني أثناء المسير الى يافا - من أحد الجواسيس - أن قافلة اسلامية وافرة الثروة تسير على امتداد نهر الأردن في طريقها إلى دمشق. فبادر بطرس بالركوب على الفور، وسار ومعه مائتي فارس، ونصب كميناً لهذه القافلة. واصطدم حرس القافلة الأشداء بقوة الكمين، وأظهروا بطولة فائقة حتى أن بطرس كاد يلقى مصرعه، ولكن قوة الكمين المتفوقة بعددها، والتي أفادت من المباغتة، تمكنت في نهاية الأمر من الاستيلاء على القافلة التي اشتملت على قطيع كبير من الماشية والأغنام. فاقتاد بطرس غنيمته، وعاد منتصراً إلى يافا التي بلغها وقتذاك رفاق الحملة. ولقي انتصاره ترحيباً كبيراً، نظراً لأن مؤونة الجيش كانت آخذة في النفاذ، غير أن هذا الانتصار أثار عداء صاحب الكرك الناصر داود، كما أثار حاكم مصر العادل الذي بادر بارسال جيش كبير إلى غزة بقيادة الأمير ركن الدين. وكذلك فقد اغتاظ هنري كونت بار من انتصار بطرس كونت بريتاني فقرر المبادرة بالهجوم على الجيش المصري في غزة، ووضع خطة سرية للهجوم لم يطلع عليها إلا جماعة قليلة من أصدقائه - من سادة شرقي فرنسا -. واتخذ استعدادته للبدء بتنفيذ خطته عند حلول الظلام من يوم ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٣٩ م. وسار بقوته التي ضمت ألف راجل وخمسمائة فارس، وأفاد من ضوء القمر ليتقدم بسرعة، وعندما علم قائد الحملة - تيبالد كونت شامبانيا - بخروج هذه القوة، حشد قواته تحت أسوار

عسقلان، لمجابهة أي احتمال، ولدعم قوة هنري كونت بار إذا ما تطلب الأمر.

وصلت قوة هنري كونت بار، مع الفجر، إلى مسافة غير بعيدة من غزة. فتوقفت في منخفض بين التلال الرملية المجاورة لساحل البحر ـ من أجل الراحة ـ. واستطاع جواسيس الأمير ركن الدين انذاره في الوقت المناسب، فأرسل رماته للالتفاف حول التلال الرملية، وتطويق قوة الفرنج، وشعر كونت يافا والتر الذي كان يرافق الحملة بحركة جند المسلمين، فأمر جنده بالتراجع سراعاً لأنه ليس بامكان الخيول التحرك بحرية وسط كثبان الرمل. وتبعه سائر الفرنج، ولكن هنري كونت بار لم يرغب في التخلي عن جند المشاة ـ الرجالة ـ الذين قادهم إلى الكمين المنصوب، ولم يبق معه إلا بعض أصدقائه الخلص. ولم تستغرق المعركة وقتاً طويلاً، فسقط الفرسان وخيولهم بين التلال الرملية، وتبعهم المشاة المثقلون بالأسلحة، وقتل منهم أكثر من ألف رجل ـ منهم هنري كونت بار ـ ووقع في الأسر نحواً من ستمائة رجل، جرى نقلهم إلى مصر ـ كان من بينهم كونت مونتفورت، والشاعر فيليب نانتيل، الذي أمضى أيامه في الحبس وهو ينظم قصائد الشعر في ذم الطوائف الدينية العسكرية، حيث وجه لها اللوم ـ عن عاطفة لا عن منطق ـ لما أصاب هذه الحملة من الفشل.

حاول تيبالدكونت شامبانيا التحرك فوراً من عسقلان، عندما وصلته فلول القوات الممزقة في الهجوم على غزة. ولكن قادة الفرنج المقيمين في الشام امتنعوا عن التحرك، فاضطر للعودة إلى عكا ـ بصورة بطيئة ـ بعد أن تناقص عدد جنده.

كان أمير الكرك الناصر داود قد انتقم في هذه الفترة للقافلة التي هاجمها الفرنج، فزحف على القدس، واحتل المدينة دون مقاومة تذكر، غير أن الحامية المرابطة بالقلعة قاومت الحصار طوال سبع وعشرين يوماً، اضطرت بعدها للاستسلام ـ وقد حصلت على الأمان بالانسحاب إلى الساحل. ودمر الناصر داود البرج الذي جدد الفرنج عمارته ـ برج داود ـ وكذلك التحصينات والسور ـ عند باب اصطفان ـ وعاد بقواته إلى الكرك.

تحرك تيبالد بقواته، بعد المعركة التي وقعت في غزة، صوب الشمال الى طرابلس. وعندما وصلها علم باندلاع القتال بين ملك دمشق الصالح اسمعيل وبين ملك مصر

السلطانُ الصالح أيوب، فأسرع تيبالد لاغتنام الفرصة من أجل الحصول على مساومة رابحة، وقاد جيشه إلى عيون صفورية ـ في الجليل ـ. ولم ينتظر طويلاً حتى وصله اقتراح من الصالح اسمعيل لعقد معاهدة هجومية، إذ كان الصالح اسمعيل يخاف من اشتراك الصالح أيوب مع الناصر داود للهجوم على دمشق، فإذا ما عمل الفرنج على حراسة الحدود المصرية عند الساحل، وإذا ما أمدوه بالأسلحة، فإنه سيتنازل لهم عن الحصنين الكبيرين، هونين وصفد وما يقع بينهما من التلال. ولما كان لطائفة فرسان الداوية علاقاتها المالية والتجارية مع دمشق، فقد أمكن له توجيه المفاوضات بين المسلمين ـ في دمشق ـ وبين تيبالد، وحصلوا على عمولتهم بمنحهم مدينة صفد. وارتاع المسلمون في صفد وهونين لما حدث، ورفضت حامية هونين الاستسلام للفرنج، فجاء الصالح اسمعيل بجيشه وحاصر القلعة وأرغم حاميتها على الاستسلام، وسلمها للفرنج، وغضب المسلمون وغادروا المدينة، والتحق رجلان من كبار علماء الدين ـ منهم خطيب المسجد الجامع بمصر، احتجاجاً على تصرف الصالح اسمعيل الذي غدر بالمسلمين وسلم مدنهم لعدوهم.

إذا كانت طائفة فرسان الداوية قد حققت مكسباً باستيلائها على صفد، فيجب ألا تقصر الطائفة المنافسة لها ـ وهي طائفة فرسان الاسبتارية ـ للحصول على مكسب مماثل، فتوجهت سفارة منها إلى الصالح أيوب في مصر، والذي ابتهج لاستقبال هذه السفارة من أجل تحطيم التحالف الذي أقامه الصالح اسمعيل مع الفرنج. فعرض على السفارة اطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في يده في غزة، وأن يكون لهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها، مقابل التزام الحياد. وعندئذ وقع مقدم الاسبتارية مع ممثلي السلطان الصالح أيوب، الاتفاق في عسقلان. وفرح تيبالد بهذا الاتفاق الذي ضمن للفرنج الصليبيين مكسباً جديداً، بالاضافة إلى تحرير عدد من أصدقائه في طليعتهم أملريك مونتفورت. وغضب الفرنج ـ بتحريض من الداوية ـ لتخليهم عن الاتفاق مع دمشق، التي ظلّت باستمرار العدو الصلب للفرنج، فكان عقد اتفاق صداقة معها أكثر أهمية من الاتفاق مع الصالح أيوب. ولم يحتمل تيبالد ردة الفعل الغاضبة للفرنج، فغادر عكا (في ايلول ـ سبتمبر ـ ١٢٤٠ م) ٦٣٨ هـ. وعاد إلى بلاده.

لم يمض على رحيل تيبالد أكثر من بضعة أيام، حتى وصل إلى عكا (يوم ١١ تشرين الأول - اكتوبر - ١٢٤٠ م) شقيق هنري الثالث ملك انكلترا - وهو ريتشارد ايرل كورنوال - والذي كانت أخته زوجة ملك ألمانيا وامبراطور الغرب فريدريك. وقد ارتاع ريتشارد بمجرد وصوله إلى عكا، لما شاهده من الفوضى بسبب تفجر الصراع بين الداوية وبين الاسبتارية. حيث وقف معظم الفرنج في الشام إلى جانب الداوية، مما دفع الاسبتارية لطلب الدعم من طائفة فرسان التيوتون ومن أنصار الامبراطور فريدريك الثاني. وهرع ريتشارد الى عسقلان لدراسة الموقف، فالتقى هناك برسل السلطان الصالح أيوب الذين تقدموا إليه بطلب التصديق على المعاهدة التي عقدها الصالح أيوب مع الاسبتارية.

غير أنه أصر على أن يقر المصريون على ما تنازل به أمير دمشق الصالح اسمعيل من البلاد للفرنج، وذلك بحجة استرضاء امراء الفرنج - وباروناتهم -. كما أصر بأن يضيفوا إليها ما تبقى من الجليل - بما في ذلك قلعة شقيف أرنون، وجبل الطور وطبرية -. ولما كان أمير الكرك الناصر داود قد انتزع من الصالح اسمعيل ما كان له من السيطرة على شرقي الجليل، فانه لم يعد باستطاعة الصالح اسمعيل الامتناع عن كل تنازل عن بلاد أخرى.

وبذا استعادت مملكة القدس كل ما كان لها من أراض غربي نهر الأردن، والتي امتدت جنوباً حتى أرباض غزة - باستثناء نابلس واقليم السامرة -.

وظلّت القدس مجردة من التحصينات. فشرع الفرنج في إعادة بناء قلعة طبرية. وأكملوا أيضاً بناء تحصينات عسقلان. وقام ريتشارد باعادة تنظيم أمور المملكة، وعين حكاماً للمدن التي استعاد الفرنج حكمها. وأقام في فلسطين حتى منتصف عام ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م ثم عاد إلى بلاده، وقد أعاد النظام والأمن للفرنج في بلاد الشام -.

طمع الفرنج بالمسلمين بعدما حققوه من مكاسب لم تكلفهم ولو قطرة دم واحدة. ورفضت طائفة فرسان الداوية الالتزام بالهدنة التي تم عقدها مع الصالح أيوب. فأغار فرسانها في سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م على مدينة حبرون الإسلامية. ورد الناصر داود

ـ صاحب الكرك ـ على هذه الإغارة بأن أرسل قواته لقطع الطريق المؤدي إلى القدس، ولجباية رسوم من حجاج الفرنج وتجارهم عند اجتياز هذا الطريق. فرد فرسان الداوية على ذلك بأن خرجوا من يافا (في ٣٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٤٢ م) وانقضوا على نابلس، واستباحوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا مسجدها. فاكتفى الصالح أيوب بارسال جيش ألقى الحصار على يافا لفترة من الزمن، ثم رجع عنها. وكان ذلك انتصاراً للداوية الذين استمروا في ممارسة ضغوطهم على امراء الفرنج لاستئناف المفاوضات من جديد مع حاكم دمشق الصالح اسمعيل. وكان قد نشب في هذه الفترة بين حاكم مصر الصالح أيوب وصاحب الكرك الناصر داود، ووجد الداوية الذين أصبحت لديهم كفاءة عالية في استثمار التناقضات والخصومات بين أمراء المسلمين، أن هناك فرصة جديدة قد سنحت لهم، فحصلوا خلال مفاوضاتهم مع الصالح اسمعيل والناصر داود والصالح أيوب على موافقة منهم جميعاً باخراج المسلمين من المسجد الأقصى، وإعادته لحكم الفرنج الصليبيين.

وكتب مقدم الداوية ـ ارمان بريغورد ـ رسالة مثيرة لاوروبا (في نهاية سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) أورد فيها ما جرى من انجاز كبير، وذكر بأن طائفة الاسبتارية قد شرعت بإعادة تحصين القدس. وكانت فرصة للامبراطور فريدريك للتنديد بالداوية الذين تحالفوا مع المسلمين، وهم الذين أنكروا عليه تحالفه مع المسلمين، ووقفوا ضده.

تشجع الداوية بما حققوه من انجاز، فلما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسمعيل (في سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م) قام الداوية بتحريض أمراء الفرنج للوقوف إلى جانب الصالح اسمعيل، والذي انضم إليه كل من صاحب الكرك الناصر داود، وصاحب حمص المنصور ابراهيم. وقدم المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لابرام المحالفة، وليعرض على الفرنج ـ بالنيابة عن الحلفاء الأيوبيين ـ نصيبهم في مصر، حينما تحل الهزيمة بالصالح أيوب. وجرى استقبال الأمير المسلم المنصور ابراهيم بكل مظاهر التشريف، وتكفل الداوية بمعظم الضيافة.

لم يقف الصالح أيوب جامداً أمام هذا التحدي، بل تحرك بسرعة أكبر، وحصل

على حليف أقوى من الفرنج، وهذا الحليف هو فرسان الخوارزمية الذين كانوا قد أقاموا في شمال بلاد الشام وانتشروا بين حران والرها. فحرضهم الصالح أيوب للهجوم على دمشق، واستجاب الخوارزمية لطلب الصالح أيوب الذي احتفظ بعلاقات جيدة معهم، على خلاف سائر الأمراء الأيوبيين، الذين حدوا من نشاط الخوارزمية، وقيدوا حريتهم في العمل. وانطلق حوالي ألف فارس من الخوارزمية الشجعان، وأخذوا في تدمير البلاد واحراق القرى حتى وصلوا إلى دمشق، وإذ أدركوا أنهم لا يستطيعون تدمير دمشق أو مهاجمتها، تابعوا انحدارهم نحو الجنوب. فاجتازوا طبرية بعد أن استولوا عليها، وعبروا الجليل، ووصلوا إلى القدس. وإذ أدرك بطريرك القدس - روبرت - ما يتهدد القدس. سارع مع مقدمي طائفتي الداوية والاسبتارية لتحصين المدينة، ودعم الحامية المدافعة عنها. ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً. فقد اقتحم أبطال الخوارزمية القدس (يوم ١١ تموز - يوليو - سنة ١٢٤٤ م) ووقع القتال في الشوارع، ولم يتأخر الخوارزمية كثيراً عن الوصول إلى دير الأرمن (المعروف باسم دير القديس يعقوب) فأجهزوا على الرهبان والراهبات. وقتل قائد حامية المدينة عندما حاول الانطلاق من القلعة للهجوم على المسلمين، وقتل معه قائد الاسبتارية. ولما لم تقدم نجدات من الفرنج، استغاثت الحامية التي استمرت في مقاومتها بأمير الكرك الناصر داود - الذي كان أقرب الحلفاء المسلمين من القدس. ولكن الناصر لم يرغب في التدخل لمصلحة الفرنج. غير أنه تدخل لدى فرسان الخوارزمية لمنح الأمان للحامية حتى ينسحبوا بأمان إلى الساحل إذا سلموا القلعة.

وغادر القدس حوالي ستة آلاف من رجال الفرنج الصليبيين وأطفالهم ونسائهم، في يوم ٢٣ - آب - أغسطس - ١٢٤٤. وبينا كان الفرنج يتحركون على الطريق إلى يافا، تطلعت جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الفرنج وهي ترفرف على أبراج المدينة. وإذ اعتقدوا أن هناك نجدة قد وصلت بطريقة من الطرق إلى القدس، أصرّ معظمهم على الرجوع إلى المدينة، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة، فهلك منهم ألفي إنسان، وتعرض من بقي منهم حياً، لهجمات المجاهدين المسلمين الذين كانوا يسيطرون على

الطرق ـ فلم يصل منهم إلى يافا سوى ثلثمائة رجل. وعادت القدس نهائياً للمسلمين. ولم يدخل أبوابها جيش صليبي إلا بعد سبعة قرون عندما قاد الجنرال اللنبي الهجمة الصليبية الحديثة، ودخل المدينة المقدسة (سنة ١٩١٧) ليقول: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لقد تفجر غضب المسلمين على الفرنج الصليبيين. وزالت من نفوسهم تلك الرحمة التي لازمتهم في حروبهم كلها، وجاء حصاد ما زرعه الفرنج الصليبيون من الحقد والكراهية، فانطلق فرسان الخوارزمية يقتلون كل من يعترض سبيلهم، واقتحموا كنيسة القيامة ـ أو بيعة القمامة كما كانوا يسمونها، وقتلوا كافة القسس الذين رفضوا مغادرة المدينة، ونبشت قبور ملوك الفرنج الذين دفنوا في القدس ونثرت عظامهم. واشتعلت النيران بالكنيسة، وأحرقت كنائس أخرى، وتعرضت دور الفرنج ودكاكينهم للنهب، ولما أنجز فرسان الخوارزمية أعمالهم، غادروا المدينة، ليلحقوا بالجيش المصري الذي كان يحتشد أمام مدينة غزة.

عمل الفرنج خلال ذلك على حشد قواتهم أمام عكا، وانضم إليها جيشا حمص ودمشق بقيادة أمير حمص المنصور ابراهيم، ثم انضم إليهم جيش الكرك بقيادة الناصر داود، وشرعت القوات المتحالفة بالسير على الطريق الساحلي نحو الجنوب. وحرص الناصر داود ـ وجيشه من البدو ـ على البقاء منعزلاً عن سائر القوات المتحالفة، بينما تميزت علاقة الفرنج والمنصور ابراهيم ورجاله بالزمالة الكاملة ـ أو رفقة السلاح ـ.

زجّ الفرنج في جيشهم أكبر جمع أمكن لهم حشده منذ معركة حطين. فبالإضافة لقوات صور ويافا وفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون أرسلت كل من إمارتي طرابلس وأنطاكية قوات إلى هذا الجيش المشترك.

اتخذ الجيش المصري موضعه أمام غزة، بقيادة أمير مملوكي صغير، **وهو ركن الدين بيبرس البندقداري**، وقد ضم هذا الجيش خمسة آلاف من نخبة الجند المصري، فضلاً عن جموع الخوارزمية. ووقع الالتحام بين الجيوش المتحاربة يوم ١٧ تشرين

الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٤٤ م، عند **قرية الحربية★** الواقعة في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة. فبادر الفرنج وحلفاؤهم لعقد مؤتمر للقادة، واقترح المنصور ابراهيم ببقاء الجند في مواقعهم، وتحصين معسكرهم لمجابهة هجمات الخوارزمية الذين كانوا عادة ما يتجنبون الصدام بالمواقع المحصنة، ونظراً لاعتماد جيش مصر على الخوارزمية فإنه قد يضطر للانسحاب إذا ما تم احباط هجمات فرسان الخوارزمية. ووافق عدد كبير من قادة الفرنج على اقتراح المنصور ابراهيم قائد جيشي دمشق وحمص. ولكن كونت يافا وولتربريين أصرّ على القيام بهجوم مباشر، معتمداً على تفوقه عددياً على الجيش المصري، ومدفوعاً برغبته الجامحة للقضاء على الخوارزمية والانتقام منهم، مع إذلال الصالح أيوب في الوقت ذاته، فاتخذ وولتربريين طريقه للهجوم، وتحركت الجيوش المتحالفة بأكملها وقد اتخذت تشكيل القتال، حيث اتخذ الفرنج أماكنهم في الميمنة، فيما اتخذ جيش دمشق وجيش حمص مواقعهما في القلب ووقف جيش الكرك في الميسرة. وقد تصدى جيش مصر للهجوم، بينما انطلق فرسان الخوارزمية للهجوم على المسلمين المتحالفين مع الفرنج. وصمد في القتال المنصور ابراهيم وجيشه وحافظ على مواقعه، ولكن جيش دمشق أسرع في الانسحاب والفرار، وتبعه جيش الكرك، ولم يتأخر جيش حمص عن اللحاق بمسلمي دمشق والكرك، وتركوا الفرنج وحدهم، حيث قام الخوارزمية بالالتفاف على جناح الفرنج الصليبيين. ودفعوه نحو المصريين، وما هي إلا ساعات قليلة حتى تحطم جيش الفرنج بكامله، رغم ما أظهره جنده من الصمود والشجاعة. وسقط على أرض المعركة عدد كبير من القادة: منهم مقدم الداوية ومارشالهم ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. ووقع في الأسر كونت يافا ومقدم الاسبتارية وقائد جيش طرابلس ـ ولاذ بالفرار قائد الفرسان فيليب مونتفورت، والبطريرك، ولحق بهما من بقي على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية الثلاث؛ فأبحروا إلى يافا.

وقدر عدد القتلى بخمسة آلاف قتيل، والراجح أنهم كانوا أكثر من ذلك. ونقل ثمانمائة أسير تقريباً إلى مصر.

★ وهي المعروفة عند مؤرخي الفرنج باسم: (LA FORBIE).

أسرع جيش مصر الظافر إلى عسقلان التي أقامت فيها حامية قوية من طائفة الاسبتارية. وقد صمدت التحصينات التي تم دعمها أمام هجمات المصريين المتتالية، فألقوا الحصار عليها بعد أن جلبوا السفن من مصر لاحكام الحصار براً وبحراً. وأثناء ذلك، سار فرسان الخوارزمية إلى يافا وقد حملوا معهم أسيرهم ـ كونت يافا وولتربريين ـ وهددوا بشنقه إن لم تستسلم الحامية، غير أن الكونت بريين صاح برجاله أن يصمدوا في القتال. ولما كانت تحصينات يافا على درجة كافية من القوة، مما يجعل من الصعب اقتحامها؛ فقد انسحب الخوارزمية بأسيرهم الذي أبقوا على حياته إلى حين.

خسر الفرنج في معركة الحربية ـ غزة ـ كل ما أحرزته لهم ديبلوماسيتهم من انجازات ومكاسب على امتداد عشرات السنين الأخيرة.

والأهم من ذلك، هو أنهم فقدوا على أرض المعركة نخبة قدرتهم البشرية المقاتلة، مما جعلهم عاجزين عن تأمين الدفاع إلا عن المدن الساحلية، وبعض الحصون والقلاع الداخلية، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر إلا معركة حطين. وكان باستطاعة سلطان مصر الافادة من هذا الموقف لطرد الفرنج من بلاد الشام كلها، ولكنه أعطى الأفضلية للتغلب على خصمه في دمشق ـ الصالح اسمعيل ـ مما أتاح الفرصة للفرنج للبقاء سنوات أخرى على أرض بلاد الشام.

تابع الخوارزمية اغاراتهم على بلاد الفرنج في فلسطين، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا. ثم تحركوا إلى داخل البلاد، لينضموا إلى جيش مصر الذي كان يحاصر دمشق. والمعروف أن جيش مصر بقيادة الأمير معين الدين، كان قد اجتاح فلسطين، وجرد أمير الكرك الناصر داود من كل بلاده الواقعة غربي نهر الأردن، ثم وصل إلى دمشق (في نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٢٤٥ م) واستمر حصارهم لدمشق ستة شهور، وأمر الصالح اسمعيل ـ أمير دمشق ـ بقطع الجسور التي تحجز مياه نهر بردى، فتحولت الأراضي الواقعة خارج أسوار دمشق إلى مستنقع يصعب اختراقه. غير أن الصراع المحكم الذي فرضه جيش مصر أثار قلق التجار وسواهم من السكان، مما حمل الصالح اسمعيل على قبول شروط الصلح (في أوائل تشرين الأول ـ

اكتوبر - سنة ١٢٤٥). فتخلى عن دمشق مقابل الحصول على إمارة بعلبك وحوران، واعترافه بسيادة الصالح أيوب.

أصبح باستطاعة الصالح أيوب أن يوجه جهده لقتال الفرنج، فأرسل جيشه إلى فلسطين سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م، فاستولى على طبرية وقلعتها التي أعاد الفرنج تحصينها حديثاً. ولم يلبث جيش مصر أن أعاد فتح جبل الطور وحصن شقيف أرنون، ثم تحرك نحو عسقلان التي كان الفرنج قد أعادوا ترميم أسوارها ودعموا تحصيناتها ووضعوا بها حامية من الاسبتارية. فأسرعت قبرص لارسال قوة بحرية من ثماني سفن كبيرة حملت مائة فارس. كما أرسلت عكا سبع سفن كبرى مع خمسين سفينة خفيفة. وتحركت بالمقابل من مصر قوة بحرية ضمت إحدى وعشرين سفينة كبيرة لاحكام الحصار على عسقلان من جهة البحر. لكن القوة البحرية المصرية اصطدمت بعاصفة، فتحطمت بعض السفن على رمال الشاطىء، واضطرت السفن الباقية للعودة إلى مصر. وأضحى باستطاعة الاسطول الصليبي أن يقلع إلى عسقلان دون خوف. فأمد الحامية بالدعم والتموين. ولكن سوء الأحوال الجوية أرغم اسطول الفرنج على العودة إلى عكا. وأفاد المصريون من حطام السفن لصنع المجانيق وأدوات الحصار فأمكن لهم اقتحام القلعة. وتم قتل معظم حامية عسقلان، ووقع الباقون في الأسر. وتم بناء على أوامر السلطان الصالح أيوب تدمير حصن عسقلان، فأضحى خراباً موحشاً. ولم يتابع الصالح أيوب استثمار هذا النصر. وقام بزيارة القدس. وأمر باعادة بناء أسوارها، ثم غادرها إلى دمشق، حيث أقام بها طوال فصل الشتاء من سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م وربيع سنة ١٢٤٩ م. وقدم عليه كل امراء الشام يبذلون له الولاء والطاعة.

ساد الهدوء امارات الفرنج في بلاد الشام، بسبب ضعف قدرتها البشرية المقاتلة وما نزل بها من الخسائر. وبالمقابل، لم يكن الصالح أيوب متعجلاً لتصفية وجود الفرنج على أرض الشام. وظهر أن هذا الهدوء قد يستمر طويلاً ما لم تحركه رياح الغرب. ولكن رياح الغرب لم تكن ساكنة ولا مستقرة. وما لبثت أن قذفت بأعصار جديد، تمثل في حملة ملك فرنسا لويس التاسع (سانت لويس). وهي الحملة التي جعلت من مصر هدفاً لها، بعد أن أمسكت مصر بمفاتيح الحرب والسلم.

١٥ ـ ملك فرنسا أسيراً في المنصورة.

كان ملك فرنسا لويس التاسع في الثلاثين من عمره، عندما وقع فريسة لحمى الملاريا التي كادت تودي بحياته (في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٤٤م). وإذ أشرف على الهلاك نذر أن يقود حملة صليبية إذا ما شفي من مرضه. وعندما استرد لويس صحته، شرع في الاعداد للوفاء بما قطعه على نفسه من النذر. وتلقى الفرنج أنباء الاعداد للحملة الصليبية بالبهجة والحبور. فقد اشتدت الحاجة وقتذاك إلى دم جديد يرفد الصليبية بالقدرة على العيش أياماً أخرى.

استغرقت استعدادات الملك ثلاث سنوات، إذ تقررت جباية ضرائب استثنائية للانفاق على الحملة، ولم يعف من أدائها رجال الكنيسة، مما أثار غضبهم. وكان لا بد من تنظيم حكومة البلاد، فتقرر أن تتولى الوصاية مرة أخرى ـ الملكة الوالدة بلانش ـ التي ثبتت كفايتها وقدرتها على الحكم أثناء وصايتها على ابنها عندما كان صغيراً. وكان على الملك أيضاً أن يحل بعض المشاكل الخارجية، إذ كان لا بد من اقناع ملك انكلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه في الحملة الصليبية.

أما العلاقات مع أمبراطور الغرب وملك ألمانيا ـ فريدريك الثاني ـ فكانت بالغة الدقة. فالمعروف أن الملك لويس قد حظي بتقدير الامبراطور فريدريك وامتنانه، لموقفه موقف الحياد من الصراع الذي دار بينه وبين البابا، غير أنه كان على لويس أن يهدد بالتدخل حينما اقترح فريدريك على حلفائه (في سنة ١٢٤٧ م) أن يهاجموا البابا ذاته في ليون. وبالاضافة إلى ذلك، فقد كان فريدريك هو والد الملك الشرعي للقدس ـ كنراد ـ. فكان لا بد للملك لويس من الحصول على إذن منه لدخول بلاده.

ويظهر أن المبعوثين الفرنسيين قد أعلموا الامبراطور فريدريك على الحملة

التي يعد لها الملك لويس، فما كان من الامبراطور إلا أن أرسل المعلومات عنها إلى السلطان الصالح أيوب، وذلك على الرغم مما أظهره الامبراطور فريدريك من العطف على الحملة، ومساعدتها. وكان لا بد للملك لويس أيضاً أن يلتمس السفن اللازمة لنقل الحملة الصليبية إلى الشرق. فوافقت جنوه ومرسيليا، بعد مفاوضات جرت معهما، على أن تمدا الحملة بما تحتاجه من السفن. أما البنادقة الذين أصابهم الجزع فعلاً لكل خطة تؤدي إلى قطع علاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر. فقد زاد في كراهيتهم لكل ما حدث. وغادر الملك لويس في نهاية الأمر باريس سنة ٦٤٦ هـ (١٢ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٤٨ م) ثم أبحر من ميناء ايج مورتز، قاصداً جزيرة قبرص، وصحبه في الرحيل الملكة واثنان من إخوته (هما روبرت كونت أرتوا وشارل كونت أنجو) وعدد كبير من الامراء الفرنسيين. بالاضافة إلى عدد من الامراء الانكليز مع قواتهم. ووصل الاسطول الملكي إلى ليماسول في ١٧ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٤٨ م. وبدأت القوات تتدفق تباعاً على قبرص. كما توجه إلى قبرص مقدموا الطوائف الدينية وعدد من أمراء الفرنج في بلاد الشام. واستقبل ملك قبرص ـ هنري ـ جميع القادمين، بكل مظاهر الود، وأعد لهم الضيافة اللائقة.

جرت مناقشة خطة الحملة، فوافق جميع الامراء والقادة على أن تكون مصر هي هدف الحملة. إذ كانت مصر أخصب أقاليم الدولة الأيوبية، وأيسرها منالاً عند الهجوم. وتذكر الفرنج أثناء مناقشاتهم ما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة عندما عرض السلطان الكامل التنازل عن القدس مقابل الانسحاب من دمياط.

وعندما تم الوصول إلى الاتفاق بصدد هدف الحملة، أراد الملك لويس أن يشرع فوراً بالتوجه للقتال. غير أن مقدمي الداوية والاسبتارية وامراء ـ بارونات ـ الفرنج في بلاد الشام، أقنعوه بضرورة التمهل والتريث، فقد اقترب موسم العواصف الشتوية، وبات من الخطر الاقتراب من شاطىء الدلتا الذي يزخر بالجسور الرملية بالاضافة الى قلة الموانىء. وعلاوة على ذلك كله، فقد كان امراء الفرنج في الشام ومقدمي الطوائف الدينية يرغبون في حمل الملك لويس على التدخل بالصراع الذي نشب بين الايوبيين. إذ

كان حاكم حلب الامير الناصر يوسف قد طرد ابن عمه الأشرف موسى من حمص، واستولى على المدينة. فاستنجد الأشرف بالسلطان الصالح أيوب الذي قدم من مصر، وأرسل جيشاً لاسترداد حمص. وكان الداوية قد دخلوا فعلاً في مفاوضات مع السلطان الصالح أيوب لدعمه بقوات إضافية مقابل التنازل للفرنج عن بعض الأراضي.

غير أن الملك لويس لم يظهر استعداداً للقيام بهذا الدور الديبلوماسي، إذ أنه لم يختلف عن سائر الفرنج الصليبيين الذين ظهروا في القرن الماضي، فهو لم يقدم إلا لقتال المسلمين، لا للغوص في مستنقع الديبلوماسية. وأمر الداوية بقطع مفاوضاتهم مع السلطان الصالح أيوب.

أرسل الملك لويس رجاله لجمع المؤن والذخائر، وأمكن جمع ما يكفي لشهر أو شهرين على الأكثر، وحينما حلّ الربيع من سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م طلب إلى الجاليات المحلية من التجار الايطاليين أن يمدوه بالسفن، وامتنع البنادقة الذين رفضوا فكرة القيام بالحملة على مصر رفضاً كاملاً منذ البداية، تقديم أي دعم أو مساعدة. ولم تلبث أن تفجرت حرب حقيقية بين الجنويين والبيازنة على امتداد ساحل بلاد الشام، وتعرض الجنويون الذين اعتبرهم الملك لويس سنده الأساسي، لأسوأ نتائج هذه الحرب. واستطاع سيد أرسوف ـ يوحنا ابلين ـ السيطرة على الموقف بعد ثلاثة أسابيع من الاقتتال. وفرض على الجاليات الايطالية في عكا هدنة لمدة ثلاث سنوات. وهكذا لم يتم الحصول على السفن اللازمة لنقل الحملة إلا في نهاية شهر أيار ـ مايو ـ ١٢٤٩ م. واستقبل الملك لويس في نيقوسيا خلال هذه الفترة من قصده من الزائرين والسفارات، فبعث إلى ملك أرمينية هيثوم بالهدايا النفيسة، كما استجاب لطلب أمير أنطاكية بوهمند، بأن دعمه بجماعة من الرماة ـ بلغ عددهم ستمائة ـ من أجل حماية إمارته من هجمات المسلمين التركمان. ووصلت الى نيقوسيا في قبرص ـ امبراطورة اللاتين بالقسطنطينية ـ ماريابريين ـ والتمست من الملك لويس مساعدتها ضد الامبراطور البيزنطي في نيقية. وأظهر الملك لويس عطفه عليها، إلا أنه أخبرها بأنه ينبغي أن تكون الأسبقية لتوجيه الحملة الصليبية لقتال المسلمين. ثم وصل آخر الأمر إلى قبرص أمير أخايا وليم هاردوين في أربع وعشرين سفينة وكتيبة من الفرنج، من

شبه جزيرة المورة، إذ أن دوق برجنديا كان قد أمضى فصل الشتاء مع وليم هاردوين في اسبارطة، وأقنعه بأن يلحق بالملك لويس في قبرص.

ضاقت الجزيرة بنزلائها الفرنج، وأصبحت كالمحشر، وكادت تنفذ كميات الطعام التي جمعت لتزويد الحملة الموجهة إلى مصر. واحتشد في خليج ليماسول اسطول ضم مئة وعشرين سفينة كبيرة لنقل الجند، مع عدد كبير من السفن الصغيرة. وشرع جيش الفرنج في اتخاذ أماكنه عليها، **ولكن عاصفة عاتية شتّتت السفن، وعندما صعد الملك لويس سفينة القيادة (مونتجوا) يوم ٣٠ أيار - مايو - ١٢٤٩ (٦٤٧ هـ) لم يقلع معه سوى ربع عدد الجيش، بينما أبحر إلى مصر سائر رجال الحملة متفرقين. ووصل اسطول الملك الى أمام دمياط يوم ٤ حزيران - يونيو -.**

كان الصالح أيوب قد أمضى فصل الشتاء في دمشق، وكان يأمل في أن يتمكن جيشه من الاستيلاء على حمص قبل أن تصل قوات الفرنج. وتوقع أن يهبط الملك لويس على سواحل بلاد الشام - في عكا - فلما تأكد أن قوات الحملة قد سارت إلى مصر، رفع الحصار عن حمص، وسار سراعاً إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تلحق به. ولما كان الصالح أيوب مريضاً يعاني من مرض السل الذي وصل إلى مرحلة متقدمه، فأعاقه عن قيادة الجيش بنفسه، أمر وزيره المتقدم في العمر، فخر الدين - صديق فريدريك الثاني - أن يتولى القيادة، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر، وأرسل إلى دمياط كميات كبيرة من الذخائر والتموين، وشحنها برجال قبيلة بني كنانة وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، واتخذ مقره في أشمون طناح، الواقعة على الفرع الرئيسي لنهر النيل وإلى الشرق منه.

تقدم كبار مرافقي الملك لويس ومستشاريه، عندما وصل إلى أمام دمياط، وتوسلوا إليه - بالحاح - ألا يهبط إلى البر قبل أن تصل بقية السفن التي تقل جنده. غير أنه رفض التأجيل. وبدأت عملية النزول على الرمال الواقعة غربي مصب النهر، في فجر يوم ٥ حزيران - يونيو - ١٢٤٩ م. واصطدمت قوات الانزال بمقاومات

متفرقة لم تلبث أن تحولت إلى معركة ضارية على ساحل البحر. غير أن ما التزم به المقاتلون الفرنسيون من نظام بالغ الجرأة، وعلى رأسهم الملك، وما أبداه فرسان الفرنج الذين انضموا من بلاد الشام إلى الحملة ـ بقيادة كونت يافا يوحنا ابلين ـ من الشجاعة والاقدام، أرغم المسلمين على التراجع بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة.

أفاد فخر الدين من ظلمة الليل لينسحب بجنده إلى دمياط، بعد أن اجتاز إليها جسراً من السفن. وإذ أدرك فخر الدين ما استبد بأهل دمياط من الذعر، وما هيمن على حامية المدينة من القلق والاضطراب، قرر الجلاء عن دمياط، وتبعه كل المسلمين المدنيين، بعد أن أشعل هؤلاء النيران في الأسواق، غير أنهم تجاهلوا أوامره فلم يدمروا جسر السفن. وعلم الفرنج الصليبيون في صبيحة اليوم التالي، من المسيحيين الذين لزموا دورهم، أن دمياط قد تجردت من كل أسباب الدفاع. فاجتازوا الجسر في موكب النصر الى المدينة.

ابتهج الفرنج لاستيلائهم على دمياط، ودهشوا إذ أمكنهم احتلالها بسهولة ويسر، وهيمن عليهم جو من التفاؤل بالاستيلاء على مصر كلها. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم استثمار نصرهم في تلك الفترة الزمنية، فقد اقترب وقت فيضان النيل، وأفاد لويس من التجربة المريرة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة، فرفض متابعة التقدم ما لم تهبط مياه الفيضان ويعود النيل إلى حالته الطبيعية. وبالاضافة إلى ذلك، فانه كان ينتظر وصول امداد من فرنسا بقيادة أخيه ـ الفونسو كونت بواتو ـ. وتم خلال ذلك تحويل مدينة دمياط مرة أخرى إلى مدينة مسيحية على نحو ما سبق حدوثه سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م، فأصبح المسجد كاتدرائية تم تعيين قسيس لها. واختصت الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة بأحياء في المدينة. وتم توزيع المكافآت النقدية على كبار سادة الفرنج. وحاز كل من الجنويين والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات.

ونجح البنادقة في الحصول على مكافأة مماثلة بعد أن أظهروا ندمهم على سلوكهم العدائي السابق من الحملة. ولقي الاقباط المسيحيون رعاية من الملك لويس، فرحبوا بحكمه. أما الملكة ـ زوجة لويس ـ والتي كانت قد توجهت مع سائر السيدات

المرافقات للحملة الصليبية إلى عكا، حينما غادر الجيش الصليبي جزيرة قبرص، فقد تقرر استدعاءها لتلتحق بالملك في دمياط. وظلّت دمياط طوال شهور الصيف في حالة من الركود. وتأثر الجنود بحرارة الدلتا الرطبة، وتفشت فيهم الأمراض، فيما أخذت المؤن في التناقص والنفاذ.

نزل الروع بالعالم الاسلامي لضياع دمياط، وبادر السلطان الصالح أيوب فعرض على الفرنج استرداد دمياط مقابل التنازل للفرنج عن القدس. ولكن الملك لويس رفض هذا العرض، إذ أنه مازال مصراً على عدم التعاون مع أي مسلم.

عمل الصالح أيوب على انزال العقاب الصارم بالمسؤولين عن ضياع دمياط، فأمر باعدام أمراء بني كنانة، وعزل فخر الدين وكبار قادة المماليك، فحاول المماليك القيام بثورة على الصالح أيوب. لكن فخر الدين منعهم وأحبط عملهم، فما كان من الصالح أيوب إلا أن أعاده إلى ما كان له جزاء اخلاصه. واندفع جند المسلمين إلى المنصورة - وهي المدينة التي شيدها السلطان الكامل في الموضع الذي انتصر فيه على الحملة الصليبية الخامسة. وتم حمل الصالح أيوب في محفة إلى المنصورة حتى يتمكن من الاشراف على تنظيم الجيش وتوجيه الأعمال القتالية. وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف، وتقدموا حتى وصلوا أسوار دمياط، وقتلوا كل جندي من الفرنج أمكن لهم العثور عليه خارج أسوار دمياط. فاضطر الملك لويس لاقامة الحواجز، وحفر الخنادق حول معسكره، لحمايته من اغارات البدو.

هبطت مياه النيل في نهاية شهر تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ). ووصل في تلك الفترة ثاني أشقاء الملك الفونسوكونت بواتو. ومعه الامدادات وقوات الدعم من فرنسا. فتقرر الزحف على القاهرة. وانطلق الجيش من دمياط (يوم ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر-) وسار على الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة. وبقيت بدمياط حامية قوية، كما بقيت فيها الملكة مرغريت، وبطريرك القدس.

توفي السلطان الصالح أيوب بعد ثلاثة أيام من انطلاق الفرنج من دمياط★ وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة. فقد كان ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه بعيداً في إقليم الجزيرة. ولكن جاريته - زوجته - شجرة الدر اتفقت مع الأمير فخر الدين ورئيس الخصي على كتمان وفاة الملك، واستقدام ابنه، وأخذت البيعة له من جميع الأمراء والقواد. وصار الأمير فخر الدين قائداً عاماً (أتابكا) له.

وتشجع الفرنج لما وصلتهم هذه المعلومات، إذ ظنوا أن هذه الحكومة الضعيفة المكونة من امرأة وقائد كهل. ستنهار بسرعة، فأصروا على أن يزحفوا على القاهرة.

تعترض الطريق من دمياط الى القاهرة - على ما هو معروف - مجموعة كبيرة من القنوات ومن فروع النيل، أكبرها المعروف باسم البحر الصغير، والذي يتشكل من الفرع الرئيسي للنيل - جنوبي المنصورة - ثم يسير مجتازاً - اشمون طناح - إلى بحيرة المنزلة. فيعزل بذلك ما يعرف باسم جزيرة دمياط.

احتفظ فخر الدين بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير، وأرسل قسماً من الخيالة - الفرسان - لإثارة الاضطراب في صفوف الفرنج عند اجتياز كل قناة، وتمكن الفرنج من تجاوز العقبات المتتالية. ثم تقدم الملك لويس بحذر وبصورة بطيئة نحو فارسكور حيث وقعت بالقرب منها يوم ٧ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٤٩ م حيث تراجعت قوة فرسان المسلمين. وأصر الداوية على مطاردة فرسان المسلمين المنسحبين، ورفض الملك ارجاء مثل هذه المطاردة، غير أن الداوية تحدوا أوامر الملك ومضوا حتى صادفوا صعوبة في الاتصال برفاقهم فتوقفوا، ووصل الملك بجيشه إلى البرمون يوم ١٤ كانون الأول - ديسمبر - وأقام معسكره بعد اسبوع على ضفاف البحر الصغير، مقابل المنصورة.

★ توفي الصالح أيوب يوم ١٤ رمضان ٦٤٧ هـ = ٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٤٩ م. وقد توفي بالمنصورة. وكانت أمه سودانية. اشتهر بالعبوس والميل إلى العزلة، كان دائماً معتل الصحة ولكنه كان حاكماً توافرت له كفاءة قيادية عالية. واعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية.

ظل الجيشان ستة أسابيع، يواجه أحدهما الآخر، عبر البحر الصغير. وقد حاول الفرسان المسلمون اجتياز البحر الصغير الى جزيرة دمياط، وراء البحر الصغير، لضرب مؤخرة جيش الفرنج، غير أن الفرنج تمكنوا من احباط هذه المحاولة. وفي تلك الأثناء أمر الملك لويس باقامة جسر على البحر الصغير، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع، فإن ما لجأ إليه المسلمون من إلقاء القذائف من الشاطىء المقابل، ولاسيما النار الاغريقية، بلغ من العنف والشدة، ما دعى الفرنج إلى التخلّي عن العمل.

وصل إلى معسكر الملك لويس في مطلع شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٥٠ م رجل من أقباط مصر. وعرض على الملك أن يكشف له عن مكان مخاضة لعبور البحر الصغير، مقابل خمسمائة دينار. وشرع الفرنج في عبور المخاضة، في فجر يوم ٨ شباط ـ فبراير ـ وبقيت قوة كبيرة من الجند لحماية المعسكر ـ بقيادة دوق برجنديا ـ. بينما ارتحل الملك لويس مع الجيش الصليبي الزاحف، وتولى أخوه روبرت كونت أرتوا قيادة مقدمة الجيش التي ضمت كتيبة من طائفة فرسان الداوية وكتيبة انكليزية بقيادة الدوق وليم سالسبوري. وتلقى روبرت أوامر صارمة من أخيه الملك لويس بألا يهاجم المصريين إلا بعد الحصول على إذن بذلك. وتمكن الفرنج من عبور مخاضة البحر الصغير بعناء كبير ومشقة شديدة. وما إن انتهى عبور المقدمة حتى قرر ـ روبرت كونت أرتوا ـ مهاجمة معسكر المسلمين، للإفادة من ظلمة الفجر، وتحقيق المباغتة. وحاول الداوية معارضته بحجة الالتزام بأوامر الملك، غير أن روبرت أصر على تنفيذ الهجوم على المعسكر الذي لم يكن يبعد أكثر من ميلين. واندفع فرسان الفرنج، واقتحموا معسكر المسلمين وقتلوا كثيراً من الجند قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم. وهرب آخرون قبل أن يكملوا ارتداء ثيابهم ليجدوا في المنصورة ملاذاً لهم.

أما القائد فخر الدين، فانه ما إن سمع الجلبة والضجيج، حتى وثب إلى صهوة جواده، ولما يكمل ارتداء ثيابه أو يضع درعه، وقذف بنفسه في المعركة، فأحاطت به طائفة من الفرسان الداوية، ومزقت جسده بطعنات رماحها وسيوفها.

قرر قائد المقدمة ـ روبرت كونت أرتوا ـ استثمار هذا الظفر والهجوم على المنصورة، ولم يأخذ بتوسلات مقدم الداوية أو قائد الكتيبة الانكليزية لانتظار عبور الملك والجيش المخاضة. واضطر الداوية مرة أخرى لاتباع أوامر ـ شقيق الملك روبرت ـ وكذلك فعل قائد الكتيبة الانكليزية وليم سالسبوري.

لم تتأثر قوات المسلمين لاستشهاد قائدها ـ فخر الدين ـ وتولى القيادة أقدر قادة المماليك وأوفرهم كفاءة ـ ركن الدين بيبرس البندقداري ـ الذي تمكن من السيطرة على الموقف، وأعاد النظام إلى الجند، ونشر رجاله داخل المنصورة، وعند تقاطع الأزقة الضيقة، وأمر بفتح باب المدينة، وترك لفرسان الفرنج حرية التدفق إلى داخل المنصورة.

اندفع الفرسان الفرنسيون داخل المنصورة حتى وصلوا القلعة، وتبعهم في اندفاعهم فرسان الداوية. وعندها انقض المماليك المسلمون على الفرنج من الشوارع والأزقة الجانبية، ولم يكن باستطاعة الخيول التحرك أو الاستدارة في الحيز الضيق، فوقع الفرسان على الفور في ذهول واضطراب وفوضى. ولم يتمكن من الهرب إلا عدد قليل من الفرسان الذين وصلوا راجلين إلى ضفاف النيل، الذي كان ينتظر وصولهم ليغرقهم في مياهه. ولقي فرسان الداوية مصرعهم وهم يقاتلون في الشوارع، ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا خمسة من قوتهم التي كانت تضم مائتي وتسعين فارساً. ولجأ قائد المقدمة شقيق الملك ـ روبرت كونت آرتوا ـ وحرسه إلى أحد البيوت. ولكن المسلمين لم يتأخروا عن اقتحام هذا البيت، وقتلوا كل من فيه. وسقط في القتال قائد الكتيبة الانكليزية ايرل وليم سالسبوري ومعظم أفراد كتيبته، وكان بطرس كونت بريتاني مع قوات المقدمة، فأصابته جراح خطيرة في رأسه، ولكنه استطاع ركوب حصانه والخروج من المنصورة، والاسراع لابلاغ الملك لويس بما حدث.

كان الجيش الصليبي قد فرغ من عبور البحر الصغير عندما علم لويس بنتائج معركة المنصورة. فأسرع لاقامة خط متقدم للدفاع من أجل مجابهة احتمال هجوم المسلمين. كما أرسل المهندسين والعمال لاقامة جسر على مجرى البحر الصغير. واتخذ الرماة مواضع لهم

على الطرف البعيد للنهر، من أجل حماية الجند عند عبورهم إذا ما دعت الضرورة لذلك. وحدث ما توقعه الملك، إذ لم يكد جند المسلمين ـ المماليك ـ أن انقضوا على خطوطه. واشتد الملك لويس في ضبط جنوده، بينما كانت سهام جند المسلمين تنهال عليهم كالمطر. وعندما شعر الملك لويس أن سهام المسلمين قد أوشكت على النفاذ، أمر بشن هجوم مضاد على المسلمين، وتراجع فرسان المسلمين أمام قوات الفرنج، وأعادوا تنظيم قواتهم ثم عادوا للانقضاض على الفرنج، بينما حاولت قوات أخرى أن تعيق عملية بناء الجسر. وكاد الملك لويس يسقط في القناة خلال تراجعه، ولم ينقذه إلا قيام قوات الفرنج بهجوم جديد. وحدث آخر الأمر ـ قبيل غروب الشمس ـ أن اكتمل بنـاء الجسر، فاجتازه الرماة، وكفل قدومهم النصر للملك. وانسحب المسلمون مرة أخرى إلى المنصورة. وأقام الملك لويس معسكره في الموضع الذي سبق أن عسكر فيه جنده في الليلة السابقة. ولم يعلم الملك إلا وقتئذ بمصرع أخيه ـ روبرت كونت آرتوا ـ فاغرورقت عيناه بالدموع.

دفع الفرنج الصليبيون في قتال هذا اليوم ثمناً باهظاً. وأدرك الملك لويس أنه لم يعد يمتلك القدرة القتالية لمهاجمة المنصورة مرة أخرى. وظهرت خطورة الموقف عند مقارنته بما حدث في الحملة الصليبية السابقة (الخامسة) عندما توقف الجيش الصليبي في موضع قريب من هذه البقعة، واضطر بعد ذلك للانسحاب.

ولم يأمل الملك لويس يومها بما هو خير من هذا المصير، إلا إذا وقع اضطراب في حكم مصر مما يرغم حكومة القاهرة على التقدم بعرض شروط مقبولة للصلح. وفي انتظار حدوث مثل هذا الاحتمال، أمر الملك لويس بتحصين معسكره، ودعم الجسر الذي أقيم على البحر الصغير، وظهرت فائدة هذا التحصين بعد ثلاثة أيام، فقد تلقى المسلمون دعماً من الجنوب، زادهم قوة على قوتهم، فدارت معركة (يوم ١١ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٥٠ م) اعتبرت أعنف معركة عرفها مقاتلوا الفرنج، حيث توالى هجوم المسلمين مرة بعد أخرى، في موجات متتابعة، وكانوا يطلقون سحابة من السهام قبل كل انقضاض على الفرنج، بينما أخذ الملك لويس في منع الاشتباك مع

المسلمين المرة بعد المرة، حتى حان الوقت للقيام بهجوم معاكس على المسلمين - وصمد الجناح الأيسر للفرنج أمام هجوم المسلمين، ولكن الجناح الأيسر تعرض للتمزق والانهيار مما دفع الملك لويس للاسراع بقيادة الدعم لهذا الجناح. ونجح المسلمون بتطويق الفونسو كونت بواتو الذي كان يتولى حماية معسكر الفرنج على الجناح الأيمن، ولم ينقذه إلا تدخل النساء والطباخين وخدم المعسكر. وعندما انتهى قتال اليوم، انسحب جند المسلمين في نظام رائع، ورجعوا إلى المنصورة.

توقف الملك لويس في معسكره أمام المنصورة لمدة ثمانية أسابيع وهو ينتظر حدوث المعجزة. ولكن المعجزة لم تحدث، ولم تقع ثورة في قيادة المسلمين. بل إن ما حدث هو النقيض لما كان يحلم به. فقد وصل طوران شاه ابن السلطان الصالح أيوب إلى مصر يوم ٢٨ شباط، فبراير - سنة ١٢٥٠ م. إذ أنه لم يكد يسمع من زوجة أبيه - شجرة الدر - بنبأ وفاة والده، حتى غادر عاصمته في ديار بكر، وانحدر جنوباً حتى وصل إلى دمشق، فأمضى فيها ثلاثة أيام، وأخذ البيعة من أهلها، ثم انطلق نحو مصر. وكان قدومه إلى المنصورة إيذاناً بتصعيد الصراع المسلح. وكان أول ما فعله طوران شاه أن أمر بصنع اسطول من السفن الخفيفة التي تم نقلها على ظهور الجمال إلى الفروع السفلى من النيل، وأخذت هذه السفن في اعتراض طريق سفن الفرنج التي كانت تجلب لهم من دمياط الامدادات والمواد التموينية. واستولى المسلمون بذلك على ثمانين سفينة للفرنج، الواحدة بعد الأخرى، وزاد الأمر على الفرنج صعوبة، عندما استولى اسطول المسلمين (يوم ١٦ - آذار - مارس) على قافلة للفرنج ضمت اثني وثلاثين سفينة، وذلك بعد أن تعرضت هذه القافلة لهجوم واحد شنه عليها اسطول المسلمين. وكان لا بد لمعسكر الفرنج نتيجة لذلك من أن يتعرض للمجاعة، وتبع ذلك انتشار الأوبئة والأمراض بين جند الفرنج - وخاصة التيفوئيد والدوسنطاريا.

أدرك الملك لويس أنه لا بد من بذل كل جهد مستطاع لانقاذ الجيش من مأزقه، وسحبه إلى دمياط. وأظهر استعداده في نهاية الأمر للدخول في مفاوضات مع المسلمين. فأرسل إلى طوران شاه يعرض عليه أن يستبدل دمياط بالقدس. غير أن الوقت قد فات.

وعرف المسلمون ما وصل إليه جيش الفرنج من التدهور، ولهذا لم يلق عرض الملك لويس إلا الرفض. فما كان من الملك لويس إلا أن وجه الدعوة لقادته من أجل الاجتماع به، ومناقشة قضية الانسحاب إلى دمياط. وتوسل القادة أن يتسلل الملك بحرسه إلى دمياط. غير أنه رفض في كبرياء أن يتخلى عن رجاله. فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم.

قوض الفرنج معسكرهم في صبيحة يوم ٥ نيسان ـ أبريل ـ سنة ١٢٥٠م. وبدأت الرحلة الشاقة، واتخذ الملك لويس مكانه في المؤخرة لتشجيع الجنود الشاردين عن الطريق أو المتخلفين عن الجيش. وأسرع المسلمون لمطاردة الفرنج عندما شاهدوا انسحابهم، فاكتشفوا أن الفرنج قد اجتازوا جميعاً البحر الصغير، غير أن مهندسيهم لم يدمروا الجسر، فهرعوا لاجتياز البحر الصغير على هذا الجسر. وشرعوا في مضايقة الفرنج وإزعاجهم من كل جانب. واستطاع الفرنج الذين كانوا يسيرون بصورة بطيئة، أن يردوا هجمات المسلمين طوال ذلك اليوم. وخرّ الملك مريضاً في تلك الليلة، ولم يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه على صهوة جواده في اليوم التالي إلا بصعوبة كبيرة. وتابع المسلمون تضييق دائرة الحصار على جيش الفرنج شيئاً فشيئاً، وأخذوا في تصعيد هجماتهم بكل القوة المتوافرة لديهم. ومقابل ذلك تناقصت مقاومة جند الفرنج المرضى والذين أرهقتهم المقاومة. وظهر واضحاً أن النهاية قد اقتربت.

عمل قائد الحرس الملكي ـ جيفري سارجينس ـ عندما اشتد القتال، على اصطحاب الملك إلى كوخ بقرية ميت الخولي عبدالله، الواقعة الى الشمال من شرمساح. وبدأ قادة الفرنج باجراء مفاوضات مع المسلمين، وأثناء ذلك انطلق أحد فرسان الفرنج فأعلم القادة ـ باسم الملك ـ بالاستسلام للمسلمين دون قيد ولا شرط، وجرى الظن أن المسلمين قد بذلوا الرشوة لهذا الفارس ـ الذي قيل ان اسمه مارسيل ـ للقيام بما قام به. فأطاع القادة الأمر الذي زعم أن الملك لويس لم يعرف عنه شيئاً، وألقوا أسلحتهم بعد أن تم تطويق الجيش بأسره، وحمل القادة إلى الأسر. وحدث في تلك

الساعة أيضاً أن جرى تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل مرضى الفرنج وجرحاهم إلى دمياط.

ذهل المسلمون لوفرة ما وقع في أيديهم من الأسرى، وتبين لهم أنه من المحال عليهم تأمين حراستهم جميعاً، فتقرر على الفور الاجهاز على أوائك الذين بلغوا من الضعف مرحلة لا تمكنهم من السير. وتم نقل الملك لويس إلى دار ابن لقمان في المنصورة، وتوكل بأمره وأمر كبار البارونات الطواشي صبيح. وأرسل إليه السلطان طوران شاه أمراً بالتنازل لا عن دمياط وحدها، بل عن كل ما للفرنج من ممتلكات في بلاد الشام. فأجاب الملك لويس بأن هذه البلاد ليست من أملاكه، بل إنها تخص كنراد، ابن الامبراطور فريدريك الثاني، وما من أحد سوى الامبراطور يستطيع التخلي عنها. فأغفل المفاوضون المسلمون هذا الطلب. وفرضوا على الملك لويس أن يفتدي نفسه بمبلغ مليون بيزنته. فلما وقع الملك على شروط الصلح، جرى نقله مع كبار البارونات - على السفن - إلى فارسكور التي اتخذها السلطان طوران شاه مقراً له. وقضى الاتفاق أن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في يوم ٣٠ نيسان - ابريل - سنة ١٢٥٠ م).

كان طوران شاه قد شرع منذ وصوله إلى مصر في إعادة تنظيم الدولة، وأسند القيادة لمن يثق بهم من القادة الذين ساروا معه من الجزيرة والشام. مما أغضب المماليك، كما طالب زوجة أبيه شجرة الدر بكل ما كان بحوزة أبيه من أملاك، مما أغضب شجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل طوران شاه. فلما كان يوم ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ (٢ - أيار - مايو - ١٢٥٠ م) اقتحم ركن الدين بيبرس البندقداري - من كبار المماليك البحرية - مقر إقامة الملك المعظم طوران شاه، وضربه بالسيف، وطارده حتى أجهز عليه، وتولت شجرة الدرّ الحكم، واعتمدت على عزّالدين ايبك الذي جعلته أتابكاً (قائداً عاماً).

قام الفرنج بتسليم حصن دمياط للمسلمين يوم الجمعة ٣٠ محرم ٦٤٨ هـ (٤ -

أيار ـ مايو ـ ١٢٥٠ م) وتم اطلاق سراح الملك وشقيقه الفونسوكونت بواتو ـ بعد أن تم دفع نصف المبلغ المتفق عليه. واحتفظ المسلمون بأعداد من الأسرى الذين تقرر عدم إطلاق سراحهم إلا بعد أن يؤدي الملك لويس بقية الفدية. وسارت السفن من دمياط إلى عكا تحمل رايات الهزيمة، وذل الأسر، وكأن ذلك لم يكن كافياً فجاءت عاصفة عاتية لتزيد من معاناة الملك الذي لم يصل إلى عكا إلا بعد مشقة كبيرة.

١٦ ـ المغول التتار ـ وعين جالوت .

لم يكن غريباً على الفرنج، وقد حفزهم الحقد الأسود، وحركتهم مشاعر الكراهية البغيضة، أن يعملوا على زجّ كل قوى العالم ضد العرب المسلمين خاصة، وضد المسلمين عامة، حتى لو كانت هذه القوى تعتنق الكفر والوثنية. ولما كان المغول التتار قد ظهروا على مسرح الأحداث من خلال اجتياحهم لأقطار المشرق والمغرب، ودمروا الدولة الخوارزمية التي كانت تحمي الدولة العباسية من جهة الشرق، وتمتد حدودها من كردستان والخليج العربي إلى بحر آرال وهضبة بامير ونهر السند. فقد ظهر للفرنج أن قوة المغول هذه قد تصلح أداة لتدمير الاسلام وأهله. ولم يكن من الصعب ابتداع القصص والأساطير لتوجيه الأنظار نحو قوة المغول للافادة منها، فزعم قسيس ـ اسمه يوحنا بريستر ـ أنه تجلى له **بأن الخلاص سوف يجيء من الشرق**. ولما جاء البابا ـ انوسنت الرابع ـ الذي سبقت الإشارة إليه، وإلى ما بذله من جهد لتوحيد جهود العالم الصليبي ـ. أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الكبير ـ في قراقورم ـ. الأولى في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) والثانية في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م). وعلى الرغم من فشل السفارتين في اقناع الخان الكبير باعتناق المسيحية، والعمل من أجل الصليبية، إلا أن الفرنج الصليبيون تمسكوا بأوهامهم. وهكذا استمرت المحاولات. وعندما جاء ملك فرنسا لويس التاسع الى قبرص، من أجل قيادة حملته على مصر. تصادف أن وصل إلى نيقوسيا مبعوثان نسطوريان، وهما مرقص وداود، وأفادا بأن القائد المغولي جهيداي، الذي كان مندوباً عن الخان الكبير في الموصل، قد أرسلهما لحمل رسالة لملك فرنسا. ولقد تضمنت هذه الرسالة عبارات جافة عن عطف المغول على الصليبية. ورحب لويس بهذه الرسالة، وأسرع بايفاد بعثة ضمت رهباناً يتحدثون اللغة العربية. وحملت البعثة معها هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية، وهذه الهدية هي كنيسة متنقلة وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية، بالاضافة الى هدايا دنيوية أخرى. وقد

غادرت هذه البعثة قبرص سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م. وعادت البعثة بعد ثلاث سنوات ومعها رسالة من أغول قايميش ـ الوصية على عرش المغول بعد وفاة زوجها الخان الكبير كيوك. وأفاد رئيس البعثة ـ اندرو لونجيجيمو ـ أن أغول قايميش قد اعتبرت بأن هدايا الملك لويس ما هي إلا إتاوة من تابع إلى سيده. أما الرسالة التي حملها رئيس البعثة، فتضمنت الشكر لما أبداه تابعها ـ الملك لويس ـ من الاهتمام بها. وأكدت الوصية أنه لا بد للتابع من ارسال الهدايا المماثلة في كل سنة. وارتاع الملك لويس لهذا الرد، غير أنه لم يداخله اليأس في امكان التحالف مع المغول التتار في يوم من الأيام.

وهكذا، فعندما انتقل الملك لويس من سجنه في المنصورة إلى عكا، بات أكثر رغبة للافادة من المغول، وعلم أن أحد أمراء المغول ـ وهو سارتاق بن باطو ـ قد تحول إلى المسيحية، فبادر إلى إرسال راهبين من أجل حثّ الأمير المغولي، وتحريضه للاسراع بتقديم المساعدة لاخوانه المسيحيين في بلاد الشام. وساءت هذه البعثة الجديدة سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م. غير أنه لم يكن لأمير مغولي صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغة الأهمية.

كان المغول التتار قد أعادوا تنظيم أمورهم، وانتخب مجلسهم الوطني (القوريلتاي) قائدهم منكو لاشغال منصب الخان الكبير، وذلك في منتصف سنة ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م. وبقي منكو وأخيه الأصغر أريق بوقا في قراقورم ـ في منغوليا ـ فيما أسند إلى أخيه الثاني قبيلاي مهمة فتح الصين.

ونقل باطو مقره إلى الروافد السفلى لنهر الفولغا، كيما يسيطر على أتباعه الأمراء في روسيا، وأنشأ بتلك الجهات الخانية المعروفة عند المؤرخين المسلمين باسم القبجاق، والتي تحولت إلى الإسلام، وعرفت عند المغول والروس باسم (القبيلة الذهبية)★.

أما حكومة فارس، فقد انتقلت إلى ثالث اخوة منكو ـ وهو القائد هولاكو ـ. وتهيأت بذلك الظروف أمام المغول التتار لمتابعة سياستهم التوسعية.

★ القبيلة الذهبية: (GOLDEN-HORDE)

كانت مملكة أرمينية بقيليقية هي أولى الكيانات الصليبية التي أدركت أهمية المغول، وما يمكن أن يتحقق على أيديهم ضد المسلمين. فأرسل ملك الأرمن ـ هيثوم ـ كتاباً إلى قائد المغول ـ بيجو ـ سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م يفيض بالولاء والاحترام. ثم عمل في سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م. على ارسال سفارة إلى بلاط الخان الكبير في قراقورم، نقلت إلى الخان كيوك استعداد ملك الأرمن ليكون تابعاً لخان المغول. فأرسل الخان تقليداً إلى هيثوم تعهد فيه بسلامة ممتلكاته ووحدتها. فلما أعيد تنظيم الامبراطورية المغولية سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م. أصبحت قراقورم مركز الدبلوماسية في العالم. وقصدها سفير الملك لويس التاسع وسفير الامبراطور اليوناني، وسفير الخليفة العباسي وسفير ملك دلهي وسفير السلطان السلجوقي بالاضافة إلى امراء من الجزيرة وكردستان وروسيا. وقد جاء هؤلاء جميعاً لخدمة الخان الكبير، الذي كان في خدمته أيضاً، تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية، وامرأة ألزاسية تزوجت إلى مهندس روسي. ولم يكن بالبلاط المغولي شيء من التفرقة الدينية أو العنصرية. إلاّ أنه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني، فحباهم منكو بعطف خاص، وفاء لذكرى أمه سورجقتاني التي ظلت دائماً مخلصة لعقيدتها. ومراعاة أيضاً لزوجته الامبراطورة كوتوكتاي والكثيرات من زوجاته الأخريات اللواتي كن يعتنقن المذهب النسطوري. وهو المذهب الذي ارتاع له رجال الدين الغربيون الذين شاهدوا بأنفسهم ما كان عليه النساطرة من الجهل والانغماس في المباذل، بحيث أن صلواتهم لم تكن إلا ضرباً من فجور السكارى ومجون العاهرات.

ما كان لملك الأرمن هيثوم أن يتخلف عن تقديم الولاء للخان الكبير منكو. فسار بنفسه إلى قراقورم. وحاز حظوة خاصة، ذلك أن سائر السفراء الأجانب كانوا إما أتباعاً جرى استدعاؤهم برغم إرادتهم، وإما كانوا ممثلين لملوك زعموا لأنفسهم في تعاظم وتعال الاستقلال.

وقد أقام منكو حفل استقبال رسمي لضيفه هيثوم في ١٣ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٥٤ م، وأعلن فيه منح هيثوم وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما

يتعلق بأمور غرب آسيا. ووعده منكو بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب. وصرّح بأن أخاه هولاكو، الذي استقر في فارس، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد، وتدمير سلطان الخلافة. وتعاهد أنه إذا تعاون معه كل القوى المسيحية فسوف يعيد إلى المسيحيين مدينة القدس ذاتها.

وغادر هيثوم قراقورم مثقلاً بالهدايا، ومبتهجاً بما تكللت به جهوده من نجاح.

وسار المغول التتار، بقيادة هولاكو من منغوليا، واجتاحوا بلاد فارس، ودمروا في طريقهم معاقل حلفاء الملك لويس وهم طائفة الحشاشين (أو الاسماعيلية). وعملوا على ابادتهم ابادة تامة. ثم وصلوا إلى بغداد ودمروها. ووجه هولاكو اهتمامه إلى الشام بعد تدمير بغداد، فكان أول إجراء اتخذه هو احكام قبضته على الجزيرة، وتدمير الأمير الأيوبي الكامل محمد ـ حاكم ميافارقين ـ والذي رفض قبول السيادة المغولية. فسار هولاكو إلى ميافارقين، واستولى عليها سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. ولقي هولاكو كل مساعدة من الكرج والأرمن مما ساعده إلى حد كبير في فتح عاصمة الجزيرة، حيث دارت مذبحة في المسلمين، بينما جرى الابقاء على حياة المسيحيين. وتعرض الكامل للتعذيب الوحشي، بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات.

قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمالي غرب سوريا، وتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة، بينما تولى بيجو قيادة ميمنة الجيش. وأسندت قيادة الميسرة إلى القائد سنجق الذي كان من المقربين إلى هولاكو. في حين تولى هولاكو قيادة قلب الجيش. واجتاح الجيش المغولي نصيبين وحران والرها، حتى بلغ البيرة وعبر عندها نهر الفرات. وحاولت سروج أن تقاومه فتعرضت للنهب. ووصل الجيش المغولي أخيراً إلى حلب (في مطلع سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وأطبق عليها من جميع جهاتها. ورفضت الحامية الإستسلام، فتقرر اقتحام المدينة. وكان السلطان الناصر في دمشق عندما هبت العاصفة. وقد استبسل في الدفاع عن حلب عم الناصر يوسف ـ واسمه طوران شاه ـ غير أن الأسوار لم تلبث أن انهارت بعد أن تعرضت للقذف ستة أيام متوالية. وتدفق المغول إلى داخل المدينة. وحدث بحلب مثلما حدث في كل مكان. إذ دارت المذابح في

المسلمين، بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء. ـ باستثناء عدد من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكنيستهم حينما اشتد القتال ـ. ودارت مذبحة مماثلة بحامية حصن حارم. وعندها قدم هولاكو إلى طرف أنطاكية، وزار معسكره كل من ملك أرمينية وصهره أمير أنطاكية، ليقدما الولاء والطاعة له. ولما كان ملك أرمينية هيثوم قد دعم هولاكو بكتائب إضافية فقد كافأه هولاكو بأن منحه قدراً من الغنائم التي حازها من حلب. وطلب إلى الأمراء السلاجقة ـ المسلمين ـ أن يردوا له ما سبق أن استولى عليه والدهم من ممتلكات ملك الأرمن في قيليقية. وظفر أمير أنطاكية ـ بوهمند ـ بمكافأة أيضاً، جزاء له على خضوعه لهولاكو، فتقرر أن تعاد إلى إمارة أنطاكية بعض المدن والحصون التي أعاد المسلمون فتحها في عهد صلاح الدين الأيوبي ـ ومنها اللاذقية ـ وذلك مقابل أن يوافق بوهمند على أن يحل البطريرك اليوناني ـ يوثيميوس ـ في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني.

انحدرت جحافل المغول التتار نحو الجنوب، ولم يحاول السلطان الناصر يوسف تنظيم الدفاع عن عاصمته ـ دمشق ـ. إذ أنه حينما نمي إليه نبأ سقوط حلب، وتحرك جيش المغول نحو دمشق، فرّ إلى مصر. وأرسلت حماة وفداً إلى هولاكو ليقدم إليه مفاتيح المدينة (في شباط ـ فبراير ـ ١٢٦٠) وحذت حذوها دمشق بعد بضعة أيام.

فدخل كتبغا دمشق في أول ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٦٠م، على رأس جيش مغولي. وصحبه ملك أرمينية وأمير أنطاكية، وشهد سكان عاصمة الأمويين لأول مرة منذ الفتح العربي ـ الإسلامي قبل ستة قرون، ثلاثة من امراء المسيحيين يركبون معاً بموكبهم عبر شوارع المدينة.

ظنّ المسلمون أن الدنيا قد أطبقت عليهم بعد أن اجتاح المغول التتار العواصم الرئيسة الثلاث: بغداد وحلب ودمشق. وظن أعداء الإسلام بضياع هذه المدن الثلاث من المسلمين أن الاسلام وأهله قد حان منهم الأجل. وانتعش المسيحيون في بلاد الشام. فقد كان كتبغا ذاته مسيحياً. ولم يحاول إخفاء عواطفه تجاههم. وأضحى المسلمون في بلاد الشام كالغرباء وذلك لأول مرة منذ ظهور الإسلام. فأخذوا يتحرقون شوقاً للانتقام.

أرسل كتبغا خلال فصل الربيع من سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. مجموعات قتالية من جيشه، فاحتلت نابلس وغزة غير أنها لم تصل مطلقاً إلى القدس ذاتها. وبذلك أحاط المغول التتار بالفرنج من كل الجهات. ولم يكن في نية المغول التعرض لإمارات الفرنج وممتلكاتهم طالما أن هؤلاء الفرنج قد التزموا بالخضوع للسادة المغول. وقد أظهر عقلاء الفرنج استعدادهم لتجنب إثارة السادة المغول، إلا أنه لم يكن باستطاعتهم ضبط مثيري الفتن عندهم. وكان سيد صيدا يوليان من بين هؤلاء المتعبين - مثيري الفتن - الذين ظهر لهم أن اقتتال المسلمين والمغول هو الفرصة المناسبة للحصول على مكاسب. فقاد يوليان قواته وأغار على سهل البقاع الخصيب. غير أن كتبغا لم يكن ليسمح للفرنج بتقويض النظام الذي أقامه حديثاً. فأرسل جماعة صغيرة من المغول بقيادة ابن اخته لانزال العقاب بالفرنج. فما كان من يوليان إلا أن أسرع لطلب النجدة من جيرانه، فكمنوا لابن اخت كتبغا وقتلوه. وإذ غضب كتبغا لما حدث، أرسل جيشاً كبيراً نفذ إلى صيدا وخرب المدينة. وغضب ملك أرمينية - هيثوم - حينما علم بما حدث، وألقى اللوم على الداوية الذين أفادوا من خسائر يوليان، فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيف. وما حدث بعد ذلك بفترة قصيرة من إغارة سيد بيروت - يوحنا الثاني - والداوية، على الجليل، لقيت من القوات المغولية معاملة بالغة الصرامة. وكان على هولاكو أن يبقى قرب الطرف الشرقي لاملاكه، استعداداً للتحرك إلى منغوليا إذا ما تطلب الأمر، وذلك نظراً لما حدث من خلاف بين قبيلاي وأخيه الأصغر أريق بوقا بعد وفاة أبيهما منكو سنة ١٢٥٩ م. وبالاضافة إلى ذلك:

فقد كان على هولاكو اتخاذ موقف الحذر من أبناء عمومته في القبيلة الذهبية، بعد أن ساءت العلاقات بينهم. إذ بينما كان بلاط هولاكو يظهر عطفه الشديد على المسيحيين، كان الخان بركة زعيم القبيلة الذهبية، قد تحول وقبيلته إلى الإسلام، وأنكر على هولاكو ما اتخذه من سياسة مناهضة للمسلمين. ووقع الصدام بين المعسكرين المغوليين في جبال القوقاز التي كانت هي الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو. وأخذ بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية انتقاماً لما كان يفعله هولاكو بالمسلمين. وما أقدم عليه

هولاكو من محاولة لتوطيد سلطانه في الجانب الشمالي لجبال القوقاز، أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها نوغاي ـ ابن اخت بركة ـ بجيش هولاكو قرب نهر تريك وذلك في سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م.

تجمعت كل قوى المسلمين في مصر التي بقيت أكبر كيان إسلامي لم يتعرض للهزيمة. وكان المماليك ـ الحكام الجدد لمصر ـ على درجة كافية من القوة لمجابهة تحدي المغول. كان المماليك قد أسندوا الحكم إلى عز الدين ايبك التركماني بعد قتل الملك المعظم طوران شاه (سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م). ثم اتفق المماليك على إقامة الأشرف موسى بن يوسف، خليفة على مصر، وصار عز الدين ايبك قائداً عاماً له (أتابك).

فلما كانت سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م، عمل المعزّ عز الدين ايبك على قتل خشداشه★ القائد أقطاي الذي كان يمنعه عن الاستقلال بالسلطنة، وأبطل خلافة الأشرف موسى ابن الكامل بن أيوب، وبعث به إلى عماته. فكان موسى المذكور هو آخر من خطب له من الأيوبيين بمصر. واستقل المعز ايبك بالسلطنة. ولما علمت المماليك البحرية بقتل أقطاي، توجهوا من مصر إلى صاحب الشام الناصر يوسف. ولم يلبث المعز ايبك أن تزوج شجرة الدر أم خليل. غير أن الحكم لم يستقر طويلاً، فقد حدث خلاف بين المعز ايبك وشجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل ايبك، بينما كان ماراً في الدهليز السري الموصل إلى دار الحريم، إذ وثب عليه خمسة خصيان بيض، كانوا قد كمنوا له هناك، وخنقوه بعمامته (في ٢٣ ربيع الأول ـ سنة ٦٥٥ هـ = ابريل ـ نيسان ـ ١٢٥٧ م) ولم تلبث شجرة الدر إلا شهراً وبضعة أيام حتى تعرضت للضرب الشديد حتى ماتت.

قرر المماليك المناداة بنور الدين علي ابن السلطان ايبك، سلطاناً على مصر، ولما يتجاوز عمره الخمسة عشر عاماً. ونظراً لافتقار نور الدين للمؤهلات القيادية، فقد عزله أحد رفاق أبيه القدماء ـ وهو قطز ـ وذلك يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٦٥٧ هـ

★ خشداشه ـ كلمة فارسية، تعني زميلين مملوكين لسيد واحد.

= ٢٨ كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٢٥٩ م، وحل مكانه في السلطنة، وإذ تولى قطز السلطنة، عاد إلى مصر سائر المماليك ـ أمثال بيبرس ـ الذين حملتهم كراهيتهم لايبك وخوفهم منه، على الفرار إلى دمشق، في وقت كانت دمشق ذاتها تتعرض لخطر المغول التتار.

لم يكن قطز قد أمضى أكثر من شهر في حكم مصر، يوم وصلت إلى القاهرة سفارة أرسلها هولاكو بمهمة الطلب إلى السلطان للخضوع والاذعان لحكم المغول. فما كان من قطز ـ أو قطوز ـ إلا أن أمر بقتل رسول هولاكو.

وأسرع بحشد جيشه الذي ضم أجناد مصر، والقوات الخوارزمية التي لجأت إلى مصر. وكذلك جيش الكرك. وقاد قطوز جيشه واجتاز حدود مصر في نهاية شعبان ٦٥٨ هـ (٢٦ تموز ـ يوليو ـ ١٢٦٠ م). وزحف على غزة، وتولى بيبرس قيادة المقدمة، وكان كتبغا قد ترك حامية بغزة بقيادة بايدار، الذي أرسل إلى قائده كتبغا ينذره بالغزو، غير أن المصريين تغلبوا على عساكره قبل أن تصل إليه النجدة.

كان قائد المغول في بلاد الشام ـ كتبغا ـ مقيماً في بعلبك عندما بلغه تحرك جيش المسلمين من مصر. فتجهز للمسير على الفور الى وادي نهر الأردن ـ بعد أن يتجاوز بحر الجليل ـ. إلا أنه لم يتمكن من التحرك بالسرعة التي يحتاجها الموقف، فقد قام المسلمون في دمشق برفع راية التمرد واشعال نار الثورة، وحطموا كنائس المسيحيين ودورهم. مما أرغم كتبغا على استخدام جنده من أجل إعادة الأمن إلى نصابه. وأثناء ذلك، **قرر المظفر قطوز السير بجيشه على امتداد الساحل الفلسطيني، ثم المضي الى عمق البلاد ـ على اتجاه الشمال، لتهديد خطوط امداد كتبغا وضرب مؤخراته، إذا ما توجه كتبغا إلى فلسطين.**

ولما كان هذا التحرك يتطلب اجتياز المناطق التي يحتلها الفرنج، فقد تقرر إيفاد سفارة الى عكا من أجل طلب الاذن بالعبور، والحصول على المواد التموينية التي يحتاجها جيش المسلمين أثناء مسيره، مع الحصول على دعم من الفرنج ـ باشتراك قوات مقاتلة ـ إذا ما أراد الفرنج ذلك.

اجتمع امراء ـ بارونات ـ الفرنج في عكا، لمناقشة ما طلبه المظفر قطوز، وكان هؤلاء يشعرون بالمرارة لما قام به المغول من نهب لمدينة صيدا ـ منذ فترة قريبة. كما أنهم لم يثقوا بالمغول القادمين من جوف آسيا، والذين حفل سجلهم بالمذابح الجماعية، وبكل أنواع الجرائم. لقد ألفوا الحضارة الإسلامية، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف والرعاية. وأظهر أمراء الفرنج ـ البارونات ـ في أول الأمر، ميلهم لدعم المظفر قطوز بقوات اضافية غير أن مقدم طائفة الفرسان التيوتون ـ انوسانجر هاوزن ـ حذّرهم بأنه من الحماقة المبالغة في منح الثقة بالمسلمين، لاسيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول. والمعروف أنه كانت لطائفة فرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينية. وكان مقدم هذه الطائفة ـ انوسانجرهاوزن ـ ينظر بتقدير إلى سياسة الملك هيثوم الذي تحالف مع المغول ضد المسلمين. واستطاع التأثير على بقية أمراء الفرنج، فتقرر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، إلا انهم وعدوا المظفر قطوز بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم، وأن يقدموا المواد التموينية والتسهيلات التي يحتاجها جيش المسلمين.

قاد السلطان المظفر قطوز جيشه في شهر آب ـ اغسطس ـ على الطريق الساحلي، وعسكر في الحدائق والحقول الواقعة خارج عكا، لمدة عدد من الأيام، وقام الفرنج بدعوة أمراء الجيش لزيارة المدينة، واستضافتهم، وكان الظاهر بيبرس من هؤلاء الأمراء، فلما عاد من زيارته اقترح على قطوز القيام بهجوم مباغت للاستيلاء على عكا. وأظهر له سهولة القيام بهذا العمل.

ولكن المظفر قطوز رفض الغدر بما تم الاتفاق عليه، كما أنه أظهر خطر قيام الفرنج الصليبيين بأعمال انتقامية في وقت لم يتم فيه حسم الصراع مع المغول.

وزاد من حيرة الفرنج وارتباكهم وفرة عدد الزائرين لمدينة عكا. ولكن زال ارتباكهم عندما طمأنهم المظفر قطوز، ووعدهم ببيعهم خيول ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان منخفضة.

علم المظفر قطز وهو في معسكره أمام عكا أن كتبغا قد عبر بجيشه نهر الأردن، وأنه وصل إلى الجليل الشرقي، فأسرع بقيادة جيشه على الفور نحو الجنوب الشرقي، واجتاز الناصرة، ووصل يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ = ٢ أيلول - سبتمبر - ١٢٦٠ م إلى (عين جالوت).

حيث سبق للجيش الصليبي أن تحدى صلاح الدين الأيوبي في هذا الموضع سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م. وفي اليوم التالي، وصل الجيش المغولي مبكراً، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمينة. وافتقر كتبغا لمفارز الاستطلاع. وكان السكان المسلمون يحملون مشاعر العداء له، فلم يدرك أنه أضحى قريباً جداً من جيش المسلمين. وقام قطز بنشر قواته الرئيسة واخفائها وتمويهها في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. ووقع كتبغا في الفخ، إذ حمل بكل جيشه على العدو الذي شاهده أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وأبلى كتبغا في القتال، وأخذ جند المسلمين في التعثر أثناء سيرهم. فدخل قطز المعركة لجمعهم. على أنه لم تنقض إلا بضع ساعات حتى ظهرت أهمية تفوق المسلمين في القتال. ومع أن جماعة من الجيش المغولي استطاعت أن تشق لها طريقاً للخروج من ساحة المعركة، غير أن كتبغا رفض أن يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته. إذ كاد أن يكون بمفرده حينما قتل حصانه ووقع أسيراً. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان قطوز الذي سخر لسقوطه، وأمر بقتله.

اعتبرت معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ. إذ أن ما أحرزه المسلمون من انتصار هو الذي أنقذهم من أخطر تهديد جابهوه أو عرفوه.

ولو أوغل المغول في تقدمهم ووصلوا إلى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة. ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من إبادتهم واستئصال وجودهم، إلا أنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا

ـ المسيحي ـ لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ ظهور الديانات التي سبقت الإسلام.

ولكن انتصار المسلمين في عين جالوت عمل على اضعاف العنصر المسيحي. ولم يلبث أن شجع المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام.

دخل السلطان المظفر قطوز إلى دمشق، بعد انقضاء خمسة أيام على معركة عين جالوت. وعاد الأشرف الأيوبي إلى حمص من جديد ـ بعد أن انسحب منها المغول. كما رجع أمير حماة الأيوبي إلى امارته. وتم استرداد حلب من المغول في خلال شهر. أما هولاكو، فقد تملكه الغضب عندما علم بهزيمة جيشه، وساءه أن تخرج بلاد الشام من قبضته. فأرسل جيشاً لاسترداد حلب (في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٦٠ م). وقام هذا الجيش ـ كما هي عادته ـ باجراء المذابح في كل مكان، انتقاماً لقتل كتبغا، غير أن هذا الجيش اضطر للانسحاب. وكان هذا كل ما استطاع أن يفعله هولاكو ثأراً لصديقه الوفي كتبغا.

رجع المظفر قطوز إلى قاعدته ـ مصر ـ يكلله المجد والغار، وكان ركن الدين بيبرس البندقداري قد طلب إلى قطوز تعيينه أميراً على حلب. ولكن المظفر قطوز ارتاب بهذا الطلب، ولم يستجب له، فأضمرها بيبرس في نفسه، وقرر الرد على ذلك بسرعة.

فلما كان يوم ١٦ ذو القعدة ٦٥٨ هـ = ٢٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٦٠ م. خرج المظفر قطوز لقضاء يوم عطلة في ممارسة هوايته الصيد ـ عند حافة الدلتا. وخرج معه جماعة من امرائه، من بينهم بيبرس ـ ولم يكونوا قد ابتعدوا عن المعسكر عندما تقدم أحدهم إلى المظفر قطوز وأمسك بيده ليقبلها. فجاء بيبرس من خلف قطوز، وغرس سيفه في ظهر سيده.

وركض المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر. وجلس بيبرس في دست السلطنة، وبايعه المماليك، ثم أخذت له البيعة من الجند ومن المسلمين. وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطاناً على مصر، وانصرف بيبرس لتوطيد سلطته في مصر وبلاد الشام.

١٧ ـ الانتقام العادل.

أضحى ركن الدين بيبرس البندقداري★ يناهز الخمسين من عمره، يوم أصبح سلطاناً على مصر. وقد عاش تجربة الصراع مع الفرنج الصليبيين في مصر والشام. كما عرف تجربة الصراع مع المغول التتار، فكان عليه مجابهة الصراع على الجبهتين. وقد وضع في اعتباره قبل كل شيء تحطيم التعاون بين الفرنج والمغول، ولهذا فقد كان عليه توجيه الجهد القتالي بالدرجة الأولى ضد الكيانين اللذين تعاونا مع المغول وهما مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية. ولهذا فقد أرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً شنّ غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية. وتكررت الغارات بعنف أكبر في صيف السنة التالية (٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م) وتعرض ميناء السويدية للتدمير والنهب، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها.

وأسرع ملك أرمينية ـ هيثوم ـ للاستنجاد بهولاكو، الذي قاد جيشاً ضمّ المغول والأرمن، فأمكن له إنقاذ أنطاكية في الوقت المناسب. وأدرك بيبرس أنه لا زالت للمغول التتار قوة كافية في شمال بلاد الشام. فتوجه إلى أمير القبيلة الذهبية خان بركة، وتحالف معه. كما قام كيكاوس أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول ـ والذي سبق أن حرمه من بلاده ما قام من تحالف بين المغول والبيزنطيين من جهة وبين شقيقه

★ ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٠٧ ـ ٦٧٦ هـ = ١٢١٠ ـ ١٢٧٧ م) كان ينتمي إلى الأتراك القبجاق. ضخم الجثة، ذو صوت جهوري شديد الوقع. قدم الى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء، وجرى عرضه للبيع على أمير حماه الذي فحصه، فاعتقد أنه غلام جلف غليظ، فأعرض عنه. ولكنه لفت بالسوق نظر أحد الأمراء المماليك، وهو المملوك البند قداري، الذي أدرك ما عليه من ذكاء. وتم شراء بيبرس، كيما يلحق بالمماليك السلطانية. فارتفع شأنه بسرعة، فلما أحرز النصر على الفرنج في المنصورة، صار في مرتبة أكفأ عساكر المماليك، وبرهن على أنه رجل سياسي رائع، لا يعوقه شيء عن بلوغ هدفه.

قلج أرسلان من جهة ثانية، فعقد تحالفاً مماثلاً مع خان بركه، ثم عاد إلى بلاده بعد أن تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية ومن بيبرس في آن واحد، واستقر وقتذاك أيضاً في جنوب شرقي قونية زعيم تركماني اسمه قرمان، فقرر بيبرس التعاون معه لممارسة ضغط مستمر على مملكة أرمينية. وبذلك استطاع بيبرس احكام الطوق على أرمينية وحصارها.

عاد الفرنج لمحاولاتهم التي أفادوا منها باستثمار كل فرصة ممكنة لانتزاع مكتسبات من المسلمين. فسار كونت يافا ـ يوحنا، وسيد بيروت ـ يوحنا أيضاً ـ إلى معسكر الظاهر بيبرس في نهاية سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م. وذلك للتفاوض معه في إعادة أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضة المسلمين خلال السنوات الأخيرة، والحصول على قلعة ـ زدين ـ في الجليل وفقاً للوعد الذي كان قد قطعه على نفسه السلطان ايبك، أو دفع تعويض عنها. ورفض بيبرس أن يستمع إليهما، وأمر بارسال جميع الأسرى للعمل في المزارع والبناء والاعمال الاخرى. وعاد كونت يافا مرة أخرى لمقابلة بيبرس في مطلع سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م، حيث كان بيبرس قد أقام معسكره يومها بالقرب من جبل الطور، وحصل يوحنا كونت يافا على وعد بعقد هدنة مع الفرنج وتبادل الأسرى. غير أن طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة. وارتاع بيبرس لهذا الجشع فقطع المفاوضات، وسار بجيشه إلى بلاد الفرنج، فنهب الناصرة، ودمر كنيسة العذراء، وشنّ هجوماً مباغتاً على عكا (في ٤ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٢٦٣ م) فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا، ثم انسحب بيبرس بجيشه بعد أن نهب أرباض عكا. ورد فرسان الداوية والاسبتارية على ذلك بأن عملا على توحيد قواتهما (في بداية سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وقاما بشنّ هجوم مباغت على حصن ليزون الصغير ـ المعروف قديماً باسم مجدو ـ. ثم تبع ذلك قيام القوات الفرنسية ـ التي كانت تتقاضى رواتب من ملك فرنسا لويس التاسع ـ بالاغارة على أرباض بيسان، فيما كان فرسان الداوية والاسبتارية يقومون بالهجوم على عسقلان. ورد المسلمون على ذلك، بالاغارة على قرى الفرنج في جنوب جبل الكرمل، ونهبها، ولم تعد الحياة مأمونة في قرى الفرنج.

توافرت المعلومات عند الظاهر بيبرس، عن عزم المغول التتار للقيام بالهجوم على شمال بلاد الشام. فخرج الظاهر بيبرس من مصر، في مطلع سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. على رأس جيش كثيف، لمجابهة هجوم المغول. غير أنه علم بأن أميري حلب وحماه تمكنا من تدمير جيش المغول ودحره. فقرر استخدام جيشه للهجوم على الفرنج في الجنوب.

تظاهر بيبرس أنه يمضي وقته بالصيد في التلال الواقعة وراء أرسوف، ثم قاد جيشه وظهر بصورة مباغتة أمام قيسارية، فسقطت المدينة في قبضته على الفور (يوم ٢٧ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م) واستسلمت قلعة قيسارية بعد ذلك باسبوع، وسمح بيبرس للحامية التي كانت تدافع عنها بالخروج دون أن تتعرض للأذى، وأصدر أمره بتدمير قيسارية وقلعتها وتسويتها بالأرض. ثم ظهر بيبرس وجيشه بصورة مباغتة أيضاً أمام أسوار حيفا - بعد بضعة أيام - فهرع الى السفن الراسية بالميناء من استطاع الهرب. وتم قتل من بقي في المدينة، وتم تدمير المدينة والقلعة على نحو ما حدث في قيسارية. وهاجم بيبرس أثناء ذلك قلعة عثليت الضخمة، التي كانت في قبضة طائفة الداوية، وأمر باشعال النار في القرية الواقعة خارج الأسوار، لكن القلعة استمرت في مقاومتها. فتخلى بيبرس عن حصارها. وسار إلى أرسوف التي شحنها فرسان الاسبتارية بالجند والذخائر والمؤن، فقاتلت حاميتها بشجاعة كبيرة، وأظهرت صموداً كبيراً، غير أنها اضطرت للاستسلام (في ٢٦ نيسان - ابريل).

وما حدث من سقوط الحصنين الكبيرين في قبضة المسلمين، أزعج الفرنج ازعاجاً كبيراً، مما أوحى الى شاعر الداوية الغنائي ريسو بونوميل (من التروبادور) بنظم قصيدة تفيض بالحزن والمرارة. وشكى فيها من أن المسيح أضحى فيما يبدو مسروراً لما حلّ بالمسيحيين من ذلّة ومهانة.

وحاول بيبرس بعد ذلك مهاجمة عكا، وإذ أدرك أن هناك حامية قوية قد نظمت للدفاع عنها، انسحب بجيشه وعاد الى مصر.

مات هولاكو في ٨ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م. ومع أن مشاكله مع القبيلة

الذهبية ومع مغول التركستان الذين اعتنقوا أيضاً الاسلام ديناً لهم، كانت قد منعته من التعرض بالهجوم للمماليك المسلمين، إلا أنه لا زال يمتلك من القدرة ما يكفي لمنع بيبرس من مهاجمة حلفاء المغول ـ مملكة أرمينية وامارة انطاكية ـ. وقامت طقز خاتون بدورها فضمنت لابن هولاكو ـ أباقا ـ والذي كان أثيراً عنده، بتبوأ منصب ايلخان وذلك بعد مضي أربعة أشهر من موت هولاكو. وماتت طقز خاتون بعد ذلك بأربعة أشهر أيضاً. وبات لزاماً على الايلخان الجديد ـ أباقا ـ أن يواجه التهديد المستمر الذي كان يتعرض له على أيدي أبناء عمومته، من القبيلة الذهبية، والذين أغاروا على بلاده فعلاً في الربيع التالي. وظهر واضحاً بأنه بات على المغول التتار التدخل في أمور بلاد الشام ـ خلال تلك المرحلة على الأقل ـ. وأصبح بوسع بيبرس الذي كانت ديبلوماسيته هي العامل فيما نزل بالايلخان أباقا من المتاعب، مع جيرانه في الشمال، أن ينصرف بكل جهده لقتال الفرنج الصليبيين دون خوف من أي تدخل خارجي.

كان الايلخان أباقا منصرفاً لمواجهة هجوم شنه عليه الخان بركة في صيف سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، عندما خرج من مصر جيشان للمسلمين، تولى بيبرس قيادة أحدهما، فأغار على أرباض عكا، ثم قام بتظاهرة عسكرية أمام حصن مونتفورت ـ الذي كان في قبضة طائفة فرسان التيوتون ـ الألمان ـ. ثم زحف فجأة على صفد التي كانت في قبضة طائفة فرسان الداوية، والتي كانت تتحكم بقلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل. وكان معروفاً أن تحصينات صفد ودفاعاتها قد تجددت بأكملها منذ خمس وعشرين سنة، وأن الحامية المدافعة عنها كانت وفيرة العدد، وقد ضمت إليها عدداً كبيراً من المسيحيين من أبناء بلاد الشام. وقد نظم بيبرس ثلاث هجمات متتالية على صفد، غير أن الحامية المدافعة عنها تمكنت من إحباط هذه الهجمات، وعندها أعلن بيبرس ـ عن طريق المنادين ـ بأنه يمنح العفو عن كل من يستسلم له من العساكر الوطنيين. ويظهر أن عدداً كبيراً من العساكر قد وثقوا بكلمة بيبرس ووعده. مما أثار الشك في وسط الداوية الذين هيمنت عليهم المهاترات، وسادهم الشقاق والسباب، والذي تحول إلى اشتباكات. وأدرك الداوية، وقد أخذ عدد من المسيحيين

السوريين بالفرار الى معسكر بيبرس، بأنه من المحال عليهم الاحتفاظ بقلعتهم. فأرسلوا جندياً سورياً اعتقدوا في ولائه وإخلاصه، واسمه ليو، ليتقدم بعرض الى بيبرس لتسليم الحصن مقابل الحصول على وعد بأن تنسحب الحامية إلى عكا دون أن تتعرض للأذى. ولما سلم الداوية القلعة الى بيبرس، وفقاً لهذا الشرط، أمر بيبرس بقتلهم جميعاً. وليس مؤكداً ما إذا كان ـ ليو ـ قد تعمد الغدر بالداوية، إلا أن اعتناقه الاسلام قد أثار الشك بوساطته.

ضمن بيبرس السيطرة على الجليل باعادة فتح صفد، فسار إلى تبنين التي أعاد فتحها دون قتال. ثم أرسل العساكر من تبنين لتدمير قرية قارة المسيحية، التي تقع بين حمص ودمشق، لعلاقة أهلها المسيحيين بالفرنج. فأمر بقتل البالغين من سكانها، واسترقاق الأطفال. ولما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة جثث الموتى، أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يلتمسون جثث القتلى فسوف يجدونها في بلادهم.

ولتنفيذ تهديده، هبط بيبرس بجيشه إلى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين. وعندما حاولت الكتيبة الفرنسية المقيمة في عكا بالتعاون مع فرسان الطوائف الدينية العسكرية القيام بهجوم على الجليل، للانتقام، وقعت مقدمة قواتهم في كمين نصبته حامية صفد، بينما هاجم العرب المسلمون معسكر الفرنج، فانسحبت قوات الفرنج وقد تعرضت للخسائر الفادحة.

بينما كان بيبرس يتابع فتوحاته في الجليل، احتشد في حمص جيش المماليك المسلمين الثاني ـ الذي كان قد خرج من مصر ـ بقيادة أكفأ أمرائه سيف الدين قلاوون الصالحي.

وقام قلاوون بهجوم عاصف أعاد فيه فتح حصني القليعة وحالية ومدينة عرقة التي كانت تتحكم في الطريق القادم من البقيعة الى طرابلس. ثم انحرف صوب الشمال وأسرع في سيره ليلحق بجيش حمص الذي خرج بقيادة المنصور أمير حمص. وتوجهت قواتها المشتركة الى حلب، ثم اتجهت غرباً إلى قيليقية.

كان ملك أرمينية ـ هيثوم ـ يتوقع قيام المماليك المسلمين بالهجوم على بلاده ـ فحاول عندما علم بموت هولاكو أن يصالح بيبرس (سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م) ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد إليه من أخشاب لبنان وجنوب الأناضول، وكان هيثوم وصهره أمير أنطاكية بوهمند هما المسيطران على هذه الغابات، فكانا يأملان في استخدام هذه السيطرة وسيلة للمساومة. غير أن الحصار الذي فرضاه على تصدير الأخشاب لم يزد بيبرس إلا تصمياً على مهاجمة أرمينية. وإذ علم ـ هيثوم ـ في سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، أن جيوش المسلمين على وشك الانطلاق لمهاجمة بلاده، أسرع الى بلاط الايلخان أباقا يلتمس منه الدعم والمساعدة. ولكن ما إن وصل إلى تبريز حتى علم بأن عاصفة المسلمين قد اجتاحت بلاده.

كان الجيش الأرمني بقيادة ولدي هيثوم (وهما: ليو وثوروس) ينتظر عند دروب الشام، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حماية جناحيه. غير أن جيش المسلمين انحرف صوب الشمال، وعبر جبال الأمانوس قرب سرفنتكار، فأسرع الأرمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم الى سهل قيليقية، ودارت معركة حاسمة (يوم ٢٤ ـ آب ـ أغسطس) وتعرض الأرمن لهزيمة ماحقة، ولقي الأمير ثوروس مصرعه، فيما وقع الأمير الآخر ليو أسيراً، وتدفق المسلمون الظافرون فاجتاحوا سهول قيليقية. وبينما قام قلاوون وجيشه بتدمير أياس وأذنة وطرسوس قاد المنصور جيشه فتجاوز المصيصة الى عاصمة الأرمن (سيس) حيث نهب القصر الملكي، وأشعل الحريق في الكاتدرائية، وقتل بضعة آلاف من السكان. وانسحب المنتصرون إلى حلب وقد حملوا معهم بضعة آلاف من السكان الأرمن (بلغ عددهم أربعين ألف أسير) بالاضافة الى قافلة ضخمة من الغنائم.

أسرع الملك هيثوم بالعودة من بلاط الايلخان أباقا، في جماعة صغيرة من المغول، فألفى ولي عهده أسيراً، وعاصمته خراباً وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكة الأرمن بقيليقية مطلقاً من هذه الكارثة. وانتقم بيبرس من رأس التحالف مع المغول.

أرسل بيبرس بعد أن تخلص من الأرمن، جيشاً لمهاجمة أنطاكية (في خريف السنة ذاتها ١٢٦٦ م) غير أن قادته قنعوا بنهب بلاد أنطاكية، وفتر حماسهم، واكتفوا بما قدمه إليهم أمير أنطاكية ـ بوهمند ـ من إتاوة، مما أغضب بيبرس الذي قرر ألا يترك للفرنج فرصة للراحة، فسار إلى عكا من جديد (في أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٦٧ م) ورفع جنده الرايات التي سبق لهم أن أخذوها من الاسبتارية والداوية، مما ساعدهم على الوصول إلى أسوار عكا، حيث عملوا على تخريب القرى والريف.

خرج الظاهر بيبرس من مصر مرة أخرى في مطلع سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م. واجتاح في طريقه مدينة يافا، ثم أعاد فتح قلعة عثليت. وسار شمالاً، فوصل إلى أمام انطاكية يوم ١٤ ـ أيار ـ مايو ـ. وقسم جيشه إلى ثلاثة مجموعات، وجه واحدة منها لاعادة فتح السويدية، وبذا قطع الاتصال بين انطاكية والبحر، ثم وجه مجموعة قتالية ثانية الى دروب الشام، لمنع كل مساعدة تصل من قيليقية الى أنطاكية. وتولى بيبرس بنفسه قيادة المجموعة الثالثة، وحاصر انطاكية فتم له فتحها يوم ١٨ ـ أيار ـ مايو ـ وبذلك تم تدمير الامارتين الصليبيتين اللتين تعاونتا مع المغول ضد المسلمين.

وإذ ضعفت أرمينية، وتدمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه أصبح من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال أمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة لاروش دي روسول، التي تقل عنها شأناً. ولم يبق من إمارة أنطاكية في قبضة الفرنج سوى مدينة اللاذقية التي أصبحت جيباً منعزلاً، وقلعة القصير التي انعقدت أواصر الصداقة بين حاكمها وبين المسلمين المجاورين، فسمحوا له بالبقاء بها سبع سنوات أخرى، على أن يبقى تابعاً للسلطان الظاهر بيبرس.

أخلد بيبرس الى الراحة، فترة قصيرة، بعد انتصاره في انطاكية. فقد توافرت له معلومات عن استعدادات يقوم بها المغول للقيام بهجوم جديد. وترددت الشائعات أن ملك فرنسا لويس التاسع يعد للقيام بحملة صليبية ضخمة. فلما أرسل الوصي على

عرش قبرص ـ هيولوزجنان ـ إلى السلطان بيبرس يطلب عقد هدنة، رد عليها بيبرس بايفاد سفارة إلى عكا برئاسة محي الدين، للتقدم بعرض لايقاف الأعمال العدائية بصورة مؤقتة. وكان هيو يأمل في الحصول على بعض الامتيازات، فقام باستعراض قواته في تعبئة القتال، غير أن محي الدين لم يظهر اكتراثاً، وقال مخاطباً هيو:

«إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع أسرى الفرنج الصليبيين في القاهرة».

وطلب أمير أنطاكية السابق ـ بوهمند ـ أن يشمله عقد الهدنة، حتى يتمكن من الاحتفاظ باللاذقية، وساءه أن السلطان لم يخاطبه في إجابته إلا على أنه كونت، نظراً لأنه فقد إمارته أنطاكية. غير أنه قبل في ارتياح ما تهيأ له من فترة للراحة. وعلى الرغم من قيام المماليك المسلمين بشن غارات صغيرة على بلاد الفرنج في ربيع سنة ١٢٦٩ م. فان الهدنة ظلت بصورة عامة محترمة الجانب لمدة سنة.

أفاد الفرنج من الهدنة لاعادة تنظيم أمورهم الداخلية، إذ كان ملك قبرص هيو الثاني قد مات في نهاية سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. فتم تتويج ملكاً على قبرص في عيد الميلاد سنة ١٢٦٧ م. باسم هيو الثالث، **غير ان تتويجه ملكاً على القدس قد تأخر حتى ٢٤ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٩، حيث جاء هيو الى عكا، ثم مضى إلى صور، حيث قام أسقف لد بتتويجه نيابة عن البطريرك. وكانت كاتدرائية صور قد أصبحت هي الموضع التقليدي لتتويج ملوك القدس منذ أن خرجت القدس من حكم الفرنج الصليبيين. فكان تتويجهم عبارة عن تسمية لا أكثر، ملوكاً على مملكة ليست لهم.**

كانت الحروب الصليبية تدور بكل عنفها، وبأشد قسوتها، على أرض أندلس المسلمين، ويظهر أن ملك أراغون وجد من القدرة ما يكفي لتوسيع دائرة حربه، فقرر القيام بحملة الى فلسطين. وأبحر من برشلونه ملك أراغون جيمس الأول في أول ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٩ م. غير أن اسطوله الضخم صادف عاصفة عاتية مزقته،

وأدخلت الرعب الى قلوب رجال الحملة. فقرر الملك العودة الى بلاده. غير أنه سمح لولديه غير الشرعيين. فرناند وسانكيز - أو سانشو - وبدرو فرنانديز بالسير الى فلسطين، فوصلا بأسطولها الصغير الى عكا في نهاية سنة ١٢٦٩ م. فقاما بالاشتراك في عمليات قتالية صغرى - لا تستحق الذكر - وعادا إلى بلادهما.

لم ييأس الفرنج الصليبيون من الحصول على دعم المغول التتار للقضاء على المسلمين، فأرسل البابا كليمنت الرابع بعثة الى بلاط الايلخان أباقا برئاسة جيمس ألاريك في سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. وذلك لاعلام أباقا عن قرب قدوم حملة ملك أراغون وحملة الملك لويس التاسع الى فلسطين، وعقد محالفة عسكرية. غير أن الايلخان أباقا لم يقدم للبعثة أكثر من وعود غامضة بسبب انصرافه لقتال القبيلة الذهبية. ولم يلبث الايلخان أباقا أن خاض حرباً جديدة مع أبناء عمومته الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م. ولم يتراجعوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هراة. وعندها كتب الايلخان أباقا الى الملك لويس التاسع. تعهد فيها بتقديم مساعدة عسكرية عند وصول الحملة الفرنسية الى فلسطين. ولكن الملك لويس التاسع مات أمام تونس وهو يقود حملته الصليبية. فلم يتمكن أباقا من مساعدته.

كان كل ما استطاع الايلخان أباقا تقديمه لحليفه ملك الأرمن هيثوم، هو اجراء مبادلة للأسرى. حيث أطلق سراح أحد الامراء المماليك وهو شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الأحمر) والذي كان المغول قد أسره في حلب. فوافق بيبرس مقابل ذلك على اطلاق سراح (ليو) ابن ملك أرمينية هيثوم، كما وافق على عقد هدنة مع هيثوم، بشرط أن يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس، وهي:
دربساك وبهسنا ورعبان. وتم ابرام المعاهدة في آب - اغسطس - سنة ١٢٦٨ م.

ظل بيبرس ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م استعداداً لمجابهة احتمال هجوم ملك فرنسا لويس التاسع على مصر. وأثناء ذلك دبر أمر اغتيال فيليب مونتفورت لاضعاف الفرنج، وذلك نظراً لمكانة هذا الرجل الرفيعة بين أمراء الفرنج. وأظهر الاسماعيلية (الباطنية أو الحشاشين) استعدادهم لتنفيذ هذه المهمة،

تعبيراً منهم عن ولائهم للسلطان بيبرس الذي حررهم ـ بفتوحاته ـ من الاتاوة التي كانوا يدفعونها لطائفة الاسبتارية، وكذلك تعبيراً عن استنكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا لهم معاقلهم وممتلكاتهم في بلاد فارس. وعلى هذا أرسل الاسماعيلية أحد رجالهم إلى صور، فتظاهر هذا الرجل بأنه نصراني، ودخل الى الكاتدرائية يوم الأحد ١٧ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٧٠ م، حيث كان فيليب وابنه يوحنا يؤديان الصلاة، وانقض عليهما فجأة، وضرب فيليب فأصابه بجراح قاتلة، غير أنه بقي على قيد الحياة إلى أن علم بأنه تم القبض على القاتل، وأن ابنه يوحنا قد نجا من القتل.

علم بيبرس أن الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع قد انتهت على أبواب تونس وأن قائدها الملك لويس قد توفي سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م. فصارت له الحرية للعمل، ومتابعة جهده وجهاده ضد الفرنج، وقاد جيشه الى الشمال حيث أعاد فتح صافيتا (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ثم فتح حصن الأكراد (أو قلعة الحصن). وعرف قائد حصن مرقية القائم بين بانياس وطرسوس أن بيبرس لن يتركه، فقرر طلب الدعم من المغول، وغادر قائد الحصن ـ بارثولوميو ـ قلعته متوجهاً إلى بلاط الايلخان أباقا في بلاد فارس، مما أغضب بيبرس، فحرض الباطنية (الاسماعيلية) على قتله. وتم قتله وهو في طريقه الى بلاد فارس.

علم بيبرس أن انكلترا تعد حملة صليبية، فأسرع لعقد هدنة مع أمير طرابلس ـبوهمند لمدة عشر سنوات وسار بجيشه جنوباً فانتزع من طائفة فرسان التيوتون ـ الألمان ـ قلعة مونتفورت، ثم تابع مسيره إلى مصر. وأرسل من هناك اسطوله الذي ضم سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص. ولكن عاصفة صدمت هذه السفن على صخور ميناء ليماسول وحطمت معظمها.

كان ملك انكلترا هنري الثالث قد وعد منذ زمن طويل بالاعداد لحملة صليبية، غير أن تقدمه في العمر، واستنزاف قدرته في الحروب المستمرة، منعه من قيادة الحملة بنفسه، فعهد بقيادته لابنه وولي عهده ـ ادوارد ـ الذي بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

وغادر الأمير ادوارد انكلترا في صيف سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. وصحبه ألف رجل تقريباً، ورافقته زوجته اليانور قشتالة، ثم تبعه بعد أشهر قليلة أخوه ادموند دوق

لانكستر ومعه الدعم والامداد، كما صحب ادموند كتائب من البريتونيين والأراضي المنخفضة.

كان قائد الحملة ادوارد يعتزم اللحاق بملك فرنسا لويس التاسع في تونس، والاقلاع معاً إلى فلسطين. غير أنه لما علم بموت لويس، وعودة الجند الفرنسيين الى بلادهم، أمضى فصل الشتاء في صقلية، ثم أبحر في الربيع التالي إلى جزيرة قبرص، ومنها الى عكا.

صدم الأمير ادوارد لحالة الضعف والتمزق التي هيمنت على الفرنج في بلاد الشام. ولم يحصل على ما كان يتوقعه من دعم ملك القدس. فبادر لارسال سفارة الى الايلخان أباقا، ضمت ثلاثة من الانكليز (هم ريجنالدرسل، وجودفري ويليس، ويوحنا باركر) فوافق أباقا على أن يقدم كل ما يستطيعه من الدعم والمساعدة. ولما كانت جيوشه الأساسية تقاتل أبناء عمومته في تركستان، فقد عمل على سحب عشرة آلاف فارس من حامياته في بلاد الأناضول، وأرسلهم إلى بلاد الشام. فتدفقوا عن طريق عين تاب، وأنزلوا الهزيمة بالمقاتلين التركمان الذين كانوا يدافعون عن حلب. وهربت الحامية المملوكية بحلب من أمام فرسان المغول، وتوجهت إلى حماة. وظل المغول يتابعون تقدمهم، فتجاوزوا حلب إلى معرة النعمان وأفامية. وساد الذعر والخوف بين السكان المسلمين، وتلقى بيبرس الانذار في الوقت المناسب، فخرج بجيشه الكثيف من دمشق، وطلب الامداد من مصر، وشرع في التحرك صوب الشمال، انصرف المغول راجعين خوفاً من الاصطدام بالجيش الإسلامي الذي سار لقتالهم، كما أن اتباعهم من الاتراك المسلمين في بلاد الأناضول جنحوا الى التمرد، فانسحبوا الى ما وراء نهر الفرات، وقد امتلأت أيديهم بما حصلوا عليه من الغنائم.

أفاد الأمير ادوارد من انصراف بيبرس لقتال المغول، فقاد جيشه عبر جبال الكرمل، وأغار على السهول المجاورة، غير أنه أدرك بأن جيشه أضعف من أن يستولي ولو على حصن صغير، فقرر العودة الى عكا وهو مقتنع بأنه من المحال إعادة انطاكية إلى الفرنج، أو تحقيق أي نصر كبير، ما لم تصل من الغرب حملة صليبية ضخمة، وما

لم تتقدم حملة مغولية بالغة القوة. وشعر أن بقاءه هو مضيعة للوقت طالما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فقرر عقد هدنة مع بيبرس.

وتم ابرام عقد هذه الهدنة في قيسارية بين السلطان بيبرس وحكومة عكا. في ٢٢ أيار - مايو - سنة ١٢٧٢ م (٦٧٠ هـ) وقد كفلت هذه الهدنة التي حددت مدتها بعشر سنوات وعشرة شهور، أن يحتفظ الفرنج بممتلكاتهم التي باتت محصورة على السهل الساحلي ما بين عكا وصيدا.

عرف بيبرس أن الأمير ادوارد يعتزم العودة الى بلاد الشام على رأس حملة صليبية ضخمة، فقرر بيبرس التخلص منه، بما لا يتعارض مع بنود اتفاقية الهدنة. وتم ارسال أحد رجال الباطنية - الاسماعيلية - للقيام بالمهمة، وتنكر هذا الرجل في زي مسيحي وطني، وأمكن له الدخول الى حجرة الأمير ادوارد يوم ١٦ حزيران - يونيو - ١٢٧٢ م، وطعنه بخنجر مسموم. ومع أن الجراح لم تكن قاتلة، إلا أن ادوارد ظلّ يعاني من آلامها شهوراً عديدة. ولم يكد يتماثل للشفاء حتى عاد الى بلاده، فوجد أن والده قد مات، وألفى نفسه ملكاً على انكلترا.

انصرفت الأطراف جميعها للافادة من الهدنة التي تم عقدها. لقد عرف بيبرس أن امارات الفرنج في بلاد الشام (عكا وطرابلس) قد وصلت إلى مرحلة من الضعف بحيث لم تعد تشكل تهديداً خطيراً للمسلمين، ولهذا لم يكن هناك ثمة مانع من بقائها سنوات أخرى ريثما تنضج ويحين قطافها. غير أن الخطر لازال قائماً بالنسبة للمغول وللدول الصليبية في الغرب. وهذا ما يتطلب الاعداد وتنظيم القوى لمجابهة كافة الاحتمالات.

أما الفرنج، فلم يداخلهم اليأس من امكان تجريد حملات صليبية جديدة، فأخذ البابا (غريغوري العاشر) بجمع التقارير، واجراء الأبحاث عن امارات الفرنج في الشام، وأسباب الاخفاق، وتطور جبهة المسلمين. وحالة الفساد في الكنائس مما أثر في الروح الصليبية. وتبع ذلك عقد مجمع ليون في سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م لمناقشة التقارير واتخاذ

قرارات، وعمل المجمع على توجيه نداء جديد الى ملوك أوروبا وأمرائها لتوجيه حملة صليبية ضخمة الى فلسطين.

وأما المغول الوثنيين بقيادة الايلخان أباقا فقد أدركوا أنه لم يعد باستطاعتهم الصمود طويلاً في مواجهة القوى الإسلامية المتعاظمة، فقرر الايلخان أباقا تطوير تعاونه مع الفرنج الصليبيين. ولكن الموقف تغير بصورة جذرية، فبينما كان الفرنج في السابق هم الذين يبحثون عن وسيلة للتحالف مع المغول، والتعاون معهم. بات المغول الآن وهم يلتمسون الوسيلة لشد عضدهم بالفرنج. ومن أجل ذلك أرسل الايلخان أباقا خطاباً إلى الأمير ادوارد عندما كان في عكا سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م. يسأله متى سيعود في حملته الصليبية التالية. فأرسل ادوارد رداً ودياً، غير أنه أعرب عن أسفه بأنه لم يقرر هو والبابا متى تتوجه حملة صليبية أخرى الى بلاد الشام. وظهر في السنة التالية (٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م) مبعوثون من المغول في مجمع ليون. وتنصر اثنان منهما. الا أن ردّ البابا والمجلس البابوي بشأن توجيه حملة صليبية، كان رداً غامضاً صيغ بعبارات ودية - حميمة -. وقام الايلخان أباقا بمحاولة أخرى في سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م حيث أرسل الأخوان الكرجيان - يوحنا وجيمس فاسيلي - الى ايطاليا لزيارة البابا، وزودهما بأوامر للمضي الى بلاط كل من ملكي فرنسا وانكلترا. وحملا رسالة شخصية من أباقا إلى إدوارد الأول، اعتذر فيها عن ضعف المساعدة التي قدمها له في سنة ١٢٧١ م. ووعد بتقديم مساعدة أكبر في المستقبل. غير أنه لم يكن هناك استعداد لا عند الملك ادوارد، ولا عند ملك فرنسا فيليب الثالث، للقيام بحملة صليبية جديدة. كما أن المجلس البابوي خضع لتأثير معاكس - من قبل شارل كونت أنجو - الذي كره المغول لأنهم كانوا أصدقاء أعدائه - البيزنطيين والجنويين - كما أن سياسته قامت على الوفاق الودي مع بيبرس. وكان البابوات والقسس يأملون، متفائلين، في أن يسوقوا المغول الى حظيرة كنيستهم. غير أنهم لم يدركوا أن وعودهم بمكافآت السماء لم يشكل اغراء كافياً للأليخان أباقا وجماعته.

صار باستطاعة الظاهر بيبرس أن ينفذ مشروعاته دون أن يتعرض لخطر تدخل الغرب الصليبي، فقاد بنفسه جيشه سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م. ومضى به إلى

قيليقية فنهب المدن الواقعة بالسهل . ثم قام بعد سنتين بغزو الأناضول . وعندما عاد من هذه الغزاة، وافته المنية (يوم ٢٨ محرم سنة ٦٧٦ هـ = أول تموز ـ يوليو ـ سنة ١٢٧٧ م) فدفن في دمشق ـ . وحزن المسلمون عامة لوفاته، فيما عمّت البهجة بلاد الفرنج . ولكن فرحة الفرنج لم تستمر طويلاً ، فقد جاء لحكم المسلمين مملوك آخر ـ سيف الدين قلاوون الصالحي، الذي اعتبر بحق من كبار قادة المماليك الأكفاء . وقد تسمى بالملك المنصور .

كان الايلخان أباقا حريصاً على أن يحارب المسلمين قبل أن يستطيع قلاوون توطيد مركزه. فقاد جيشه وعبر به نهر الفرات في سنة ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م. واحتل عين تاب وبغراس ودرب ساك. ثم اجتاح حلب (في ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٨٠ م) فنهب أسواقها ، وأشعل الحريق في المساجد . وهرب الى دمشق المسلمون من أهالي تلك المناطق وقد استبد بهم الخوف والجزع. ووجه المغول قوة أوغلت في تقدمها فوصلت البقيعة، وأشرفت على حصن الأكراد. واصطدمت أثناء عودتها بجيش اسلامي ـ قرب مرقية ـ فأمكن لها التغلب عليه. وأثناء ذلك، حشد قلاوون جيشه في دمشق. ولما لم تكن قوة الجيش المغولي كافية للاحتفاظ بحلب والدفاع عنها، فقد اضطر للانسحاب الى ما وراء نهر الفرات. واكتفى السلطان قلاوون بارسال قوة لانزال العقاب بالاسبتارية لتعاونهم مع الفرنج.

وأثناء هذه الفترة، أرسل الايلخان أباقا سفارة إلى عكا أعلمت الفرنج أن الايلخان قرر أن يرسل إلى بلاد الشام في ربيع السنة التالية جيشاً من مائة ألف رجل، وطلب إلى الفرنج امداده بالرجال والذخائر. فبعث الاسبتارية الى ملك انكلترا ادوارد لاعلامه بقرار الايلخان. وغضب قلاوون عندما علم بتصميم الايلخان على القيام بهجوم جديد. فبادر الى ارسال سفارة إلى عكا لعقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات. وتم عقد هذه الهدنة في ٣ ـ أيار ـ مايو ـ ١٢٨١ م.

توجه جيشان مغوليان إلى بلاد الشام في ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٨١ م (٦٨٠ هـ) . وتولى الايلخان أباقا قيادة الجيش الأول، فيما تولى شقيقه منجو تيمور قيادة الجيش الثاني .

وبدأ الجيش الأول باخضاع الحصون الإسلامية القائمة على امتداد حدود الفرات، فيما كان الجيش الثاني يؤمن الاتصال بملك أرمينية (ليو) ثم انحدر الى وادي نهر العاصي بعد أن اجتاز عين تاب وحلب، وأسرع السلطان قلاوون الى دمشق حيث حشد فيها جيشه، وسار به نحو الشمال. وتجنب الفرنج الانحياز للمغول ـ باستثناء طائفة الاسبتارية في حصن المرقب والتي رفضت الالتزام بالهدنة التي عقدها الاسبتارية بعكا ـ فركبت جماعة منها وانضمت الى جيش ملك أرمينية (ليو).

التقى جيش المسلمين بجيش المغول في ظاهر حمص يوم ٣٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٨١ م. وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي، واتخذ أمراء مغول آخرون مواقفهم في ميسرته، بينما وقفت في الميمنة عساكر الكرج وجيش ملك أرمينية ليو وفرسان الاسبتارية. ومقابل ذلك، تولى صاحب حماه المنصور قيادة ميمنة الجيش الإسلامي. فيما تولى قلاوون ذاته قيادة قلب الجيش ـ الجند المصري وجيش دمشق. أما الميسرة فقد ضمت جند شمال بلاد الشام والتركمان بقيادة الأمير سنقر الأشقر. دارت المعركة، واحتدم القتال، وتمكنت ميمنة الجيش المغولي من الانتصار على سنقر الأشقر الذي استمر في تراجعه حتى وصل إلى معسكره في حمص، فانقطع بذلك الاتصال بين ميمنة الجيش المغولي وبين بقية القوات. وأثناء ذلك بقيت ميسرة المغول صامدة في القتال. وأصيب منجو تيمور بجراح قاتلة حينما شنّ المسلمون هجومهم على قلب الجيش المغولي. وبدأ المغول بالتراجع سراعاً. ووجد ملك أرمينية ورفاقه ضمن دائرة الحصار فاضطروا للقتال ليشقوا لهم طريقاً للعودة نحو الشمال، وتعرضوا للخسائر الفادحة. ولم يتمكن قلاوون من مطاردة المغول نظراً لما نزل بقواته من الخسائر الكبيرة. واجتاز المغول ومعهم الايلخان أباقا، نهر الفرات الذي أصبح هو الحد الفاصل بين دولتي المسلمين والمغول.

لقد أظهرت معركة حمص، ضعف قدرة المغول وعجزهم عن النيل من قوة المسلمين، فقد حشد الايلخان أباقا مائة ألف مقاتل، ورغم ذلك لم يحرز ما كان يتوقعه من نصر. وأدرك الفرنج بدورهم ما أصبحت عليه قوتهم من الضعف في مجابهة

القوة المتعاظمة للمسلمين. أما السلطان قلاوون فقد مضى لمتابعة فتوحاته، فانتزع من الفرنج ـ طائفة الاسبتارية ـ حصن المرقب (سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م). وارتاع سكان عكا لضياع حصن المرقب. وأدرك الفرنج أن أيامهم في بلاد الشام قد وصلت إلى نهايتها، لاسيما وأن المعلومات القادمة إليهم من الغرب قد أكدت انصراف حكام الغرب الى خصوماتهم التقليدية، وصراعاتهم المستمرة.

١١ ـ وابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج.

جاء تجار حلب الى السلطان قلاوون، وتقدموا اليه بالشكوى، فهم يشعرون منذ زمن بعيد بعدم الارتياح لارسال تجارتهم الى الميناء المسيحي باللاذقية والذي بقي آخر ما في قبضة الفرنج الصليبيين من امارة أنطاكية. وكان باستطاعة قلاوون ارسال جيشه الى اللاذقية، نظراً لأنها لم تدخل في الهدنة المعقودة مع امارة طرابلس... وجاء الزنزال فضرب أسوار مدينة اللاذقية في ٢٢ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٨٧ (٦٨٦ هـ) فوجه قلاوون جيشاً بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي ليتسلمها. فسقطت المدينة في يديه دونما عناء. وجاءت فرصة أفضل من سابقتها في (سنة٦٨٨ هـ=١٢٨٩ م) حيث وقع خلاف بين البنادقة والجنويين، واجتاحت الفوضى المدينة، مما سهل على المسلمين الذين كانوا يحاصرون طرابلس، أمر اجتياح المدينة التي أمر السلطان قلاوون بتدميرها. ومضى المسلمون الظافرون فاحتلوا البترون ونيفين.

وصل ملك قبرص ـ هنري ـ إلى عكا بعد ثلاثة أيام من إعادة فتح المسلمين لمدينة طرابلس. فوجد فيها رسولاً أرسله السلطان قلاوون للاحتجاج على قيام الطوائف الدينية العسكرية بنقض الهدنة، حيث نهض رجال هذه الطوائف لمساعدة طرابلس. فرد هنري بأن الهدنة لا تنطبق إلا على مملكة القدس (عكا). فلو أن طرابلس كانت داخلة في الهدنة، لما أقدم السلطان قلاوون على فتحها. وقبل المسلمون هذا العذر. وتجددت الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى وعشرة شهور وعشرة أيام، على أن تدخل فيها مملكتا القدس وقبرص. وبادر ملك أرمينية وسيدة صور الى احتذاء هذا المثال. غير أن ملك قبرص هنري لم يعد يثق في عهد السلطان، ولم يكن بوسعه أن يغامر فيستنجد بالمغول، لأن السلطان قلاوون سيعتبر ذلك انتهاكاً للهدنة. فعاد الى قبرص سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩. بعد أن خلف أخاه نائباً عنه في عكا. وعمل فور

وصوله الى قبرص على ارسال سفارة الى أوروبا ـ برئاسة يوحنا جرايللي ـ ليشرح لملوك الغرب مدى الخطورة التي وصلت إليها بقايا ممتلكات الفرنج في الشام.

انزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصير. غير أنه ما من أحد كان في وضع يسمح له ببذل اهتمام لما كانت تتعرض له قوات الفرنج فيما وراء البحار. وحاولت جمهورية جنوة الانتقام لما نزل بها من الخسائر الفادحة نتيجة لضياع طرابلس، فاستولت على سفينة مصرية كبيرة كانت تحمل بضائع تجارية وفيرة، في مياه جنوب الأناضول كما أرسلت قوات أغارت على ميناء التينة بالدلتا والذي كان مجرداً من أسباب الدفاع ولما أغلق السلطان قلاوون ميناء الاسكندرية في وجه الجنويين، بادروا لعقد الصلح. وعندما وصلت رسلهم الى القاهرة لاتمام الصلح، التقوا بسفارتين من قبل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الالماني وهما تعملان في خدمة السلطان.

امتنع ملوك أوروبا وحكامها من الاستجابة لنداء البابا، إلا أن رعاع الفلاحين والمتعطلون من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا وشمالي ايطاليا استجابوا للنداء، وجاؤوا يدفعهم الطمع والجشع للحصول على غنائم. فقبل البابا مساعدتهم، وأسند قيادتهم الى أسقف طرابلس الذي كان قد لجأ إلى روما. وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حماقة، بعد أن خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع أن يكبح جماحهم، فضلاً عن معرفته العميقة بأمور بلاد الشام. وقام البنادقة بتقديم عشرين سفينة لنقل (قوات الحملة الجديدة). وانضمت إليها خمس سفن أرسلها ملك أراغون ـ جيمس ـ.

وعندما وصلت هذه القوات إلى عكا، وجدتها في حالة من اليسر والرخاء. فقد أعادت الهدنة المعقودة بين ملك قبرص هنري، وبين السلطان قلاوون، الثقة للنفوس. وأخذ تجار دمشق في ارسال قوافل تجارتهم الى الساحل، وتوافر المحصول الزراعي في تلك السنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م)، مما حمل الفلاحين المسلمين في الجليل على ارسال منتجاتهم إلى عكا، التي لم تعرف من النشاط والحيوية مثل ما شاهدته في تلك السنة. ولهذا فقد ارتبك أهل عكا عندما وصلتهم قوات الصليبيين الايطاليين الذين أخذوا في إثارة الفوضى والاضطراب في حياة المدينة المنظمة. واشتهر هؤلاء الايطاليين بالفجور

والسكر. وأخذوا في مهاجمة التجار والفلاحين المسلمين. إلى أن حدث ذات يوم أن اندلعت فتنة أثارها هؤلاء وانتهت باجراء مذبحة بالمسلمين. فقرر قلاوون تصفية وجود الفرنج في بلاد الشام بإعادة فتح عكا. وتوفي السلطان قلاوون وهو يعد لحملته الكبرى (سنة ١٢٩٠ م) وجاء ابنه الأشرف خليل. فنفذ وصية والده. وأكمل طرد الفرنج من عكا (في ١٨ - أيار - مايو - سنة ١٢٩١ م) وما تبقى من مدن الفرنج لم تلبث أن شاركت عكا في مصيرها. فتمت اعادة فتح مدينة صور. وتبعتها مدينة صيدا ومدينة حيفا.

هكذا ابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج، والذي ظن بناته ومهندسوه أنهم أقاموا بناءً خالداً على الزمان. وعادت أرض المسلمين للمسلمين.

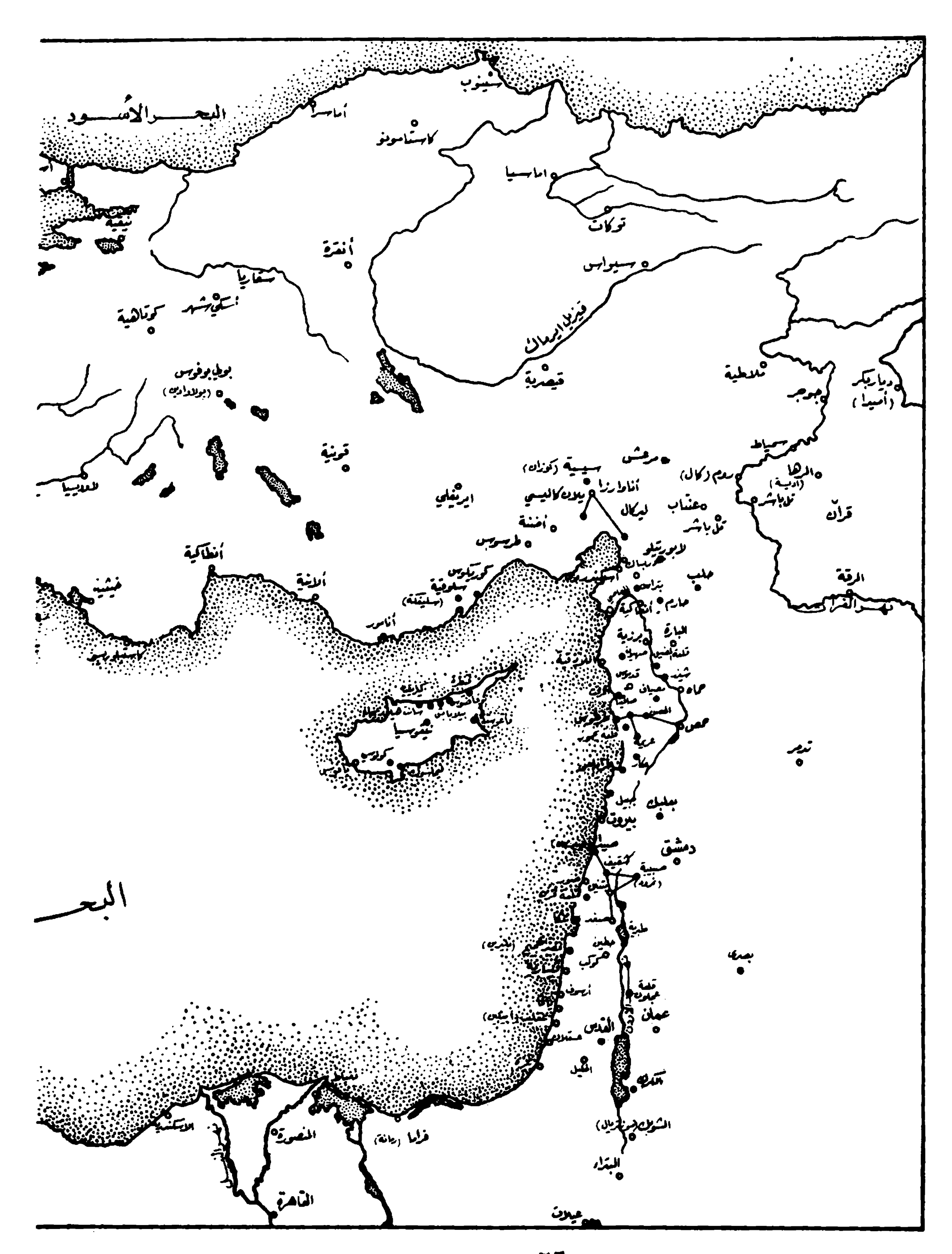
انطلقت جيوش المسلمين بعدئذ وهي تجوب بلاد الساحل من أقصاها إلى أقصاها طوال شهور عديدة، وذلك لتدمير كل ما قد يفيد الفرنج إذا ما فكروا في العودة إلى بلاد الشام. وبادر كل من بقي في الشام ممن كانت له أصول ترتبط بالفرنج، فاندمج بالمسلمين أهل البلاد. فما سبق أن اتصف به الإسلام من التسامح قد مضى، إذ لم يظهر المسلمون أي تسامح تجاه أعداء الدين. ولم يكن الفرنج الذين فروا الى قبرص بأحسن حال. إذ ظلوا جيلاً من الزمان يعانون الحياة التعسة على أنهم لاجئون غير مرغوب فيهم. وطويت صفحة من صفحات جهاد بلاد الشام ضد الفرنج الغزاة، لتفتح صفحات أخرى.

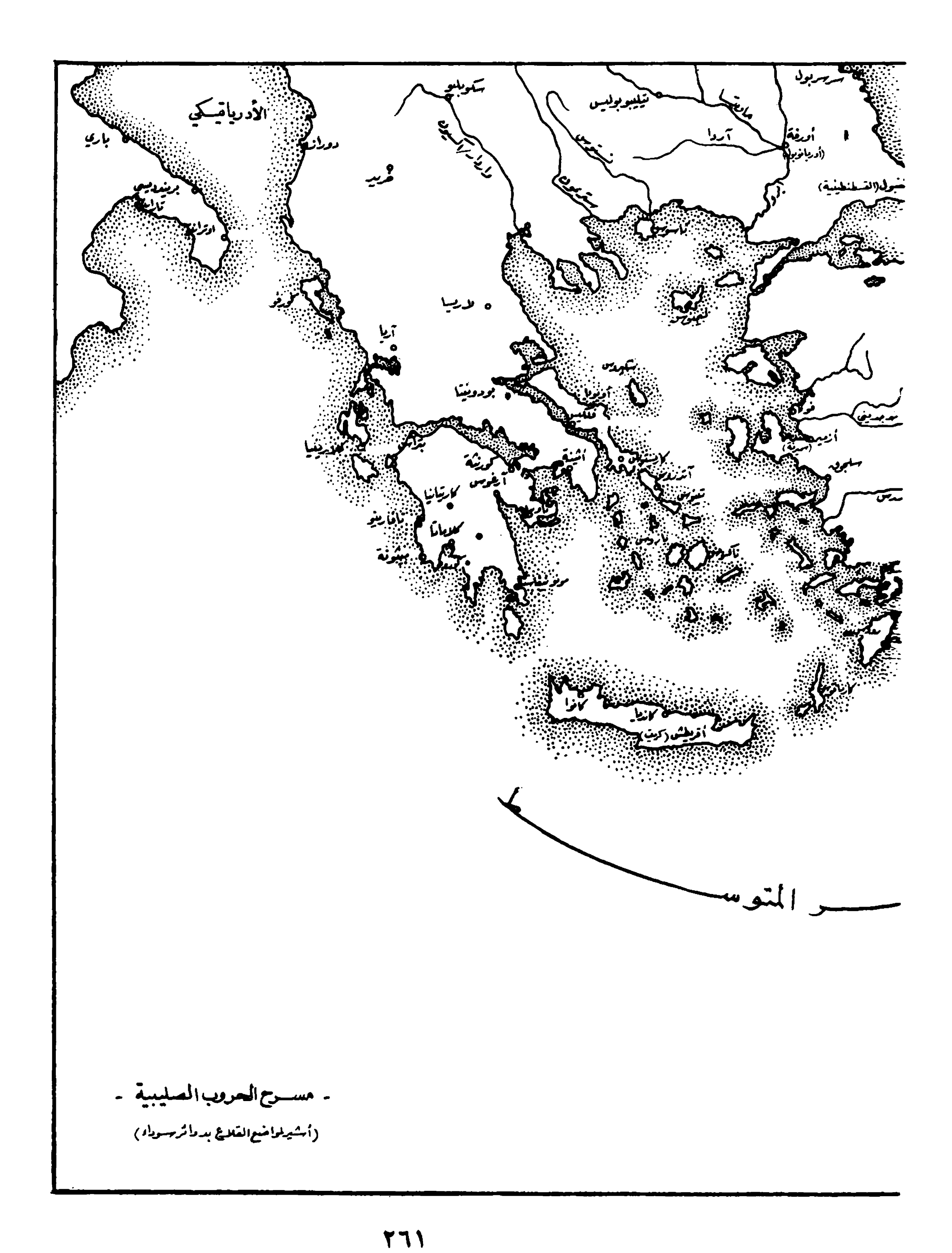
«هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ. مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخربون بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ». صدق الله العظيم

سورة الحشر - الآية: ٢

الفصل الثاني

القلاع والحصون أيام الصليبيين

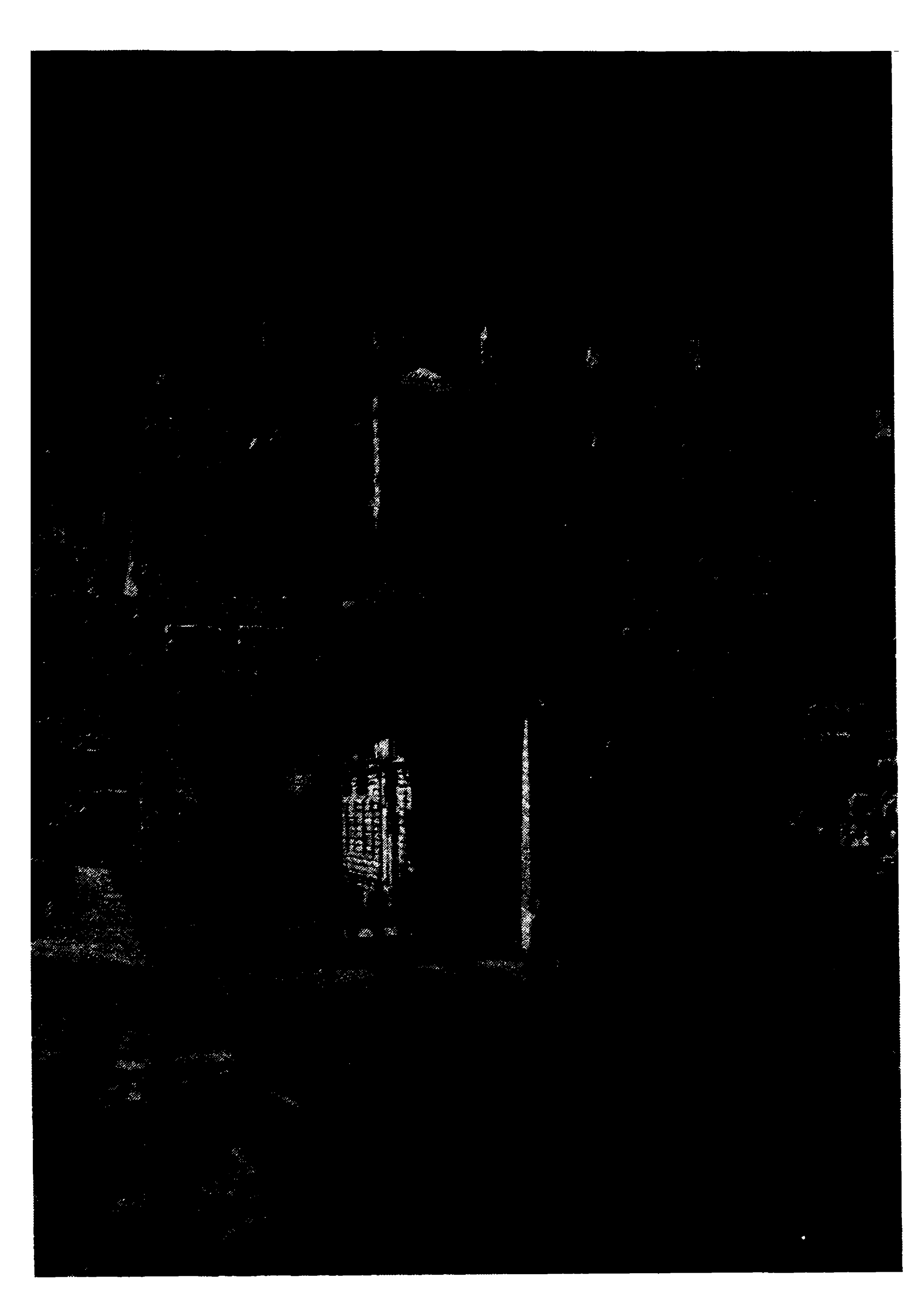

البحر الأسود
أنقرة
قيصرية
سيواس
توكات
اماسيا
ملاطية
قونية
اضنة
طرسوس
أنطاكية
حلب
حماه
حمص
تدمر
بعلبك
بيروت
دمشق
عمان
القدس
الكرك
الشوبك
القاهرة
المنصورة
الرقة
الرها
حران
قبرص
البحر



- مســرح الحروب الصليبية -

(أشير لمواضع القلاع بدوائر سوداء)

الواجهة الغربية للمسجد الأقصى في ساحة الحرم الشريف.



الواجهة الغربية لبوابة ستي مريم



القدس

منظر للمدينة القديمة ـ ويشاهد جبل الزيتون في خلفية الصورة.

١ ـ القدس وتحصيناتها .

تميزت تحصينات القدس منذ القدم بقوة تحصيناتها ومنعة أسوارها. فقد اهتم الرومان عبر قرون متتالية بتحصين المدينة المقدسة حتى تصمد في وجه هجمات الفرس، حيث كانت الحرب بين الدولتين العظميين (الفرس والروم) سجالاً. وكانت بلاد الشام هي المسرح الأساسي للأعمال القتالية. ولهذا لم يكن غريباً أن تحظى مدن بلاد الشام بالنصيب الأوفى من التحصينات الدفاعية. وبقيت أسوار مدن القدس[١] ودمشق وحمص وحلب من النماذج المميزة لتلك التنظيمات الهندسية الدفاعية. وعندما سارت جحافل المجاهدين في سبيل الله على درب الفتوح. كان لا بد لها وأن تصطدم بهذه الأسوار المنيعة والتحصينات القوية. وقد نهج العرب المسلمون نهجاً مميزاً في التعامل مع أسوار المدن وتحصيناتها. فهم لم يصطدموا بها مباشرة. بل تركوا أمرها حتى تم لهم تدمير الكتل الرئيسة لقوات العدو في اليرموك وفحل وأجنادين وسواها. حيث أتاح لهم تفوقهم في حرب الحركة فرصة تدمير تفوق أعدائهم بالقوى والوسائط. ثم انصرفوا بعد ذلك لعزل المدن الكبرى عن امكانات الدعم الخارجي. وتفرقت جيوش العرب المسلمين بعد معركة اليرموك الظافرة. وبعد موقعة فحل. فسار أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص، وسار شرحبيل بن حسنة لفتح الأردن،

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن الامبراطور الروماني أدريان ADRIAN-OU-HADRIAN الذي ولد سنة ٧٦ م في روما. وحكم من سنة ١١٧ حتى سنة ١٣٨ م هو الذي شيد أسوار القدس سنة ١٣٠ م لمجابهة هجمات الفرس. وأن أدريان هذا هو ابن الامبراطور تراجان بالتبني، فخلفه في الحكم، اشتهر بتشجيع الصناعة والآداب والفنون، واصلاح جهاز الإدارة والحكم. وشيد في روما قصر ادريان المعروف اليوم باسم (قصر القديس الملاك) كما نظم مجموعة القلاع والتحصينات المتصلة على حدود الامبراطورية الرومانية في انكلترا وألمانيا لحمايتها من هجمات الشعوب البرابرة. كما شيّد القلاع ـ الليمات ـ على حدود الامبراطورية في أفريقيا.

فيما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين. واجتمع عسكر الروم ـ البيزنطيين ـ بغزة وأجنادين وبيسان بقيادة الأرطبون ـ الذي وصفته مصادر التاريخ العربي ـ الإسلامي بأنه أدهى الخلق ـ. فانتصر عليه عمرو بن العاص في أجنادين، وأرغمه على الفرار إلى القدس. ثم تابع عمرو بن العاص أعمال الفتح، ففتح ايلياء وسبسطيه ـ وبها على ما يقال قبر يحي بن زكريا وجماعة من الأنبياء والقديسين ـ وفتح نابلس واللد وتبني وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون. ثم حصر القدس، وقاتل الحامية المدافعة عن القدس، وقد تجمعت فيها قوات الروم وفلولها. فأشجوا عمرو بن العاص وأشجاهم، إلى أن طلب أهل القدس من عمرو بن العاص أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام. وأن يكون أمير المؤمنين ذاته ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، هو المتولي لعقد الصلح. فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين: «إني أعالج عدواً شديداً، وبلاداً قد ادخرت لك، فرأيك». فعرف أمير المؤمنين أن عمراً لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه فسار عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم، ويستخلفوا على أعمالهم. فلقوه بالجابية. وبينما عمر معسكر ـ بالجابية، فزع الناس الى السلاح. فقال أمير المؤمنين: ما شأنكم؟ قالوا: «ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟» فنظر فإذا كردوس ـ كتيبة ـ يلمعون بالسيوف.

فقال أمير المؤمنين: **«مستأمنة، فلا تراعوا»**. فأمنوهم، فإذا هم أهل القدس وحيزها، فصالحهم أمير المؤمنين على الجزية. وفتحوا القدس، فدخلها المسلمون[1] وهكذا فقد عمل عمرو بن العاص على احتلال وفتح فلسطين بكاملها تقريباً قبل أن يتجه الى القدس التي أصبحت معزولة ومطوقة من جميع اتجاهاتها، مما وضع الحامية المدافعة عن المدينة المقدسة أمام موقف صعب لا مخرج منه إلا بالاستمرار في القتال حتى الفناء أو الصلح، ففضل أهل القدس الصلح بشروط مشرفة تتناسب مع المكانة الدينية والعسكرية للمدينة، واستجاب أمير المؤمنين لالتماس أهل المدينة طالما أن ذلك

---

(١) لمزيد من التفاصيل، ولمطالعة وثيقة الصلح مع أهل بيت المقدس ـ ايلياء ـ انظر تاريخ ـ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ١٥ للهجرة.

لا يتناقض مع أهداف الفتح، وطالما أن عقد الصلح يحقن دماء المسلمين ويوفر عليهم الجهد والمعاناة. ولقد وصف مصدر عربي مدينة القدس بقوله:

«بيت المقدس، مرتفع على جبال يصعد إليها من كل مكان. وبه مسجد ليس في الإسلام أكبر منه. وبه الصخرة وهي حجر مرتفع مثل الدكة. وعلى الصخرة قبة عالية جداً. وارتفاع الصخرة من الأرض قريب القامة. وينزل إلى تحتها بمراقي إلى بيت يكون طوله بسطة في مثلها. وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع. وهي من أخصب بلاد فلسطين، ومحراب داود بها، قال الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزي: إن الوليد بن عبدالملك، لما بنى القبة على الصخرة ببيت المقدس ـ سنة ٨٧ هـ = ٧٠٥ م ـ بنى أيضاً هناك عدة قباب، وسمى كل واحدة باسم؛ فمنها قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر الخ... وإنما فعل ذلك ليعظم موقع القدس في نفوس أهل الشام» [١].

ويظهر أن تحصين القدس بقي مرتبطاً بمكانة المدينة من الناحيتين الدينية والعسكرية. ولهذا فقد اعتبرت القدس ـ بصورة طبيعية ـ من أضخم الحصون وأقوى المعاقل في عالم العصور الوسطى. وقد اشتهر موقعها بالمتانة والقوة منذ أيام اليبوسيين، وتداولتها يد الاصلاح والتطوير عبر القرون. فالأسوار التي عسكر الفرنج الصليبيون في ظلّها جرت على نفس الرسم الذي سار عليه ما شيده من أسوار فيما بعد السلطان العثماني سليمان القانوني (سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) والتي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، وهي أسوار تكاملت بصورة مثيرة في عهود الروم ـ البيزنطيين ـ ومن بعدهم الأمويين ثم الفاطميين، حيث ضمن وادي كيدرون ـ أو وادي ستي مريم حالياً ـ ومنحدراته، حماية السور من ناحية الشرق، وهي منحدرات حادة شديدة الهبوط. بينما هبطت الأرض الى وادي جهنم من ناحية الجنوب الشرقي ـ ويحاذي

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ص: ٢٢٧ ـ والقلاع أيام الحروب الصليبية ـ ص: ١٣٧ ـ ١٣٨ وتجدر الإشارة الى أن بناء قبة الصخرة قد حدث في وقت واحد مع بناء المسجد الأموي بدمشق سنة ٨٧ هـ = ٧٠٥ م.

السور الغربي واد آخر يقل عمقاً عن الواديين الآخرين. فتبقى الجهة الجنوبية ـ الغربية هي الجهة الملائمة للهجوم على الأسوار والتحصينات، حيث يجتاز السور جبل صهيون، وعلى امتداد السور الشمالي. أما القلعة ـ وهي برج داود ـ فتقع في منتصف السور الغربي، وتسيطر على الطريق الذي يسير ازاء جانب التل حتى باب يافا. وعلى الرغم من أنه ليس بالمدينة آبار، فان ما توافر بها من الصهاريج ضمن لها الماء الغزير، وإن ما أدخله الرومان من نظام المجاري لازال مستخدماً في القرن العشرين.

كانت مدينة القدس تحت حكم الفاطميين ـ العلويين في مصر ـ يوم جاءتها جحافل الفرنج الصليبيين. وكان يحكمها ـ افتخار الدولة ـ وتحت قيادته حامية قوية من الجند العرب والسودانيين. فعمل افتخار الدولة على اتخاذ الاجراءات الضرورية لتنظيم الدفاع ودعمه. وأرسل إلى مصر بطلب قوات دعم إضافية، ووصل الفرنج الصليبيون فنظموا الحصار المحكم حول المدينة بحيث انتشرت قوات النورمان ـ أو النورمانديين ـ في مواجهة السور الشمالي ـ تجاه باب الزهور وهو باب هيرود أو باب الساهرة ـ. في حين انتشرت قوات الفلاندر الى يمين الأولى ومقابل باب الأعمدة (وهو باب دمشق أو باب القديس اسطفان). كما انتشرت قوات اللورين في مواجهة الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا. وبلغ عدد أفراد قوات الفرنج التي اشتركت في الحصار اثني عشر ألفاً من المقاتلين المشاة ـ الرجالة ـ بالاضافة إلى ألف وثلثمائة فارس، يدعمهم عدد كبير من الرجال غير المقاتلين والنساء والأولاد الذين كانوا يقومون بدورهم في تأمين الغذاء والامداد الإداري ومتطلبات المقاتلين.

بدأ الفرنج الصليبيون بحصار القدس يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٠٩٩ م. ثم قام الفرنج بهجومهم الأول يوم ١٢ حزيران ـ يونيو ـ غير أن هذا الهجوم تحطم أمام أسوار القدس وتحصيناتها. وأسهم في إحباط هذا الهجوم ما توافر للحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة من وسائل الدفاع مثل المنجنيقات، علاوة على السهام وغيرها، والتي كان الجند المسلمون يسددونها باحكام على الفرنج. ولكن فشل الهجوم لم يمنع قادة الفرنج من إعادة محاولاتهم، فاستمر الصراع، واستمرت الاشتباكات، وعقد قادة الفرنج وملوكهم وامراؤهم مؤتمراً لهم يوم ١٥ حزيران ـ يونيو ـ قرروا

فيه إعداد متطلبات الهجوم من أبراج وسلالم وسواها من أدوات الحصار. وشاع في وسط الفرنج أن جيشاً اسلامياً كبيراً قد تحرك من مصر لدعم حامية القدس. فقرر الفرنج العمل بسرعة، حتى إذا ما فرغوا من بناء الأبراج الضخمة المتحركة، دفعوها نحو المكان الوحيد الذي يصلح للهجوم، وهو القطاع الشرقي من السور الشمالي حيث مسطح جبل الزيتون، وقام جند الفرنج بردم الخندق، فيما كان جند المسلمين يقذفونهم من فوق الأسوار بالحجارة والسهام والقوارير الملتهبة، والتي قابلها الفرنج برد مماثل، إذ توافرت لهم وسائل الحصار اللازمة وأدواته. ثم بدأ الفرنج انقضاضهم مساء يوم ١٤ تموز - يوليو - أي بعد خمسة أسابيع من الحصار المحكم والدقيق. ونجح الفرنج في اقتحام المدينة فيما استمر الصراع على الأسوار حتى ظهر اليوم التالي، وأظهر الفرنج ما حملوه من حقد دفين فانطلقوا لذبح وقتل كل من صادفهم من الشيوخ والأطفال والنساء. ولم ينج من المذبحة حتى أولئك الذين لجؤوا الى رحاب المسجد الأقصى أو المعابد والكنائس. وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في نفوس المسلمين في كل مكان، فزال ما اشتهروا به من التسامح، إذ لم يثر التعصب الإسلامي إلا التعصب الصليبي. وعندما حاول بعض عقلاء الفرنج اللاتين بعد ذلك إيجاد أساس للتعايش بين المسلمين والفرنج الصليبيين، كانت ذكرى هذه المذبحة الأليمة تعترض دائماً سبيل الوصول إلى اتفاق أو تفاهم[1]. وأقام الفرنج مملكتهم في القدس، وحكموها على امتداد تسعين سنة هجرية. لم يتوقف الصراع المسلح خلالها. حتى إذا ما انتصر المسلمون في حطين، انطلقت قواتهم لطرد الفرنج من طبرية وقلعتها، ومن مجدي يابا وعكا والحصون المحيطة بها مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف ويافا وتبنين ونابلس وسبسطيه وصيدا وجبيل وبيروت بالإضافة إلى عسقلان وأصبح بامكان صلاح الدين الأيوبي بعد وصولهم الوصول إلى الهدف الكبير الذي طالما عمل من أجل بلوغه، وهو طرد الفرنج من القدس. فأرسل أمره إلى أسطوله في مصر للخروج إلى ساحل بلاد الشام. وتولى حسام الدين لؤلؤ الحاجب قيادة الأسطول،

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٩٣/١ - ٤٠٦ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٢ هـ. وفيه تصوير رائع لما قام به الفرنج، ولبعض ردود فعل المسلمين على المذبحة وأثرها.

لقطع طريق البحر على الفرنج. فكان المسلمون كلما عثروا على مركب للفرنج في البحر غنموه، وكلما وصلوا إلى شانياً ـ سفينة ـ أخذوه. وتوجه صلاح الدين بجيشه إلى القدس. ووقع اشتباك أمام المدينة حيث حاول الفرنج إيقاف تقدم جيش المسلمين، غير أنهم سرعان ما تراجعوا ليحتموا بأسوار القدس القوية وتحصيناتها المنيعة. وباتت هذه الأسوار وهي تحمي وراءها جموعاً كبيرة من مقاتلي الفرنج الذين نجوا من المعارك السابقة فوجدوا في القدس لهم ملجأ وملاذاً، وذكر أن عدد مقاتلي الفرنج فيها تجاوز الستين ألف مقاتل.

بدأ المسلمون بحصار القدس في منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١١٨٧ م) وأمضى صلاح الدين الأيوبي خمسة أيام وهو يستطلع أسوار المدينة وتحصيناتها، ثم قرر الهجوم من جهة جبل الزيتون ـ قرب باب العمود ـ ليس بعيداً عن المكان الذي انطلق منه الفرنج في هجومهم قبل تسعين عاماً. ولما نزل المسلمون على القدس، رأوا على أسوارها من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهلها من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع. ولم يجدوا عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال ـ نحو باب العمود أو كنيسة صهيون. وهناك نصبت المنجنيقات، ونصب الفرنج بدورهم منجنيقات على سور البلاد ورموا بها، فقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس؛ كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني. وكانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون. وكان خيالة الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين. ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم البلد. ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه، والتصقوا إلى السور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من حشو النقب بما جرت به العادة. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك، وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم للتشاور فيما يأتون وما يذرون، فاتفق رأيهم على

طلب الأمان، وتسليم القدس إلى صلاح الدين. وأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان. فلما مثلوا أمام صلاح الدين امتنع عن إجابتهم، وقال لهم:

«لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها» [1].

لكن اليأس لم يداخل قلوب الفرنج من إمكان الوصول إلى الصلح، فتابعوا اتصالاتهم، فيما بقي القتال مستمراً. واستشار صلاح الدين قادته، فتقرر بذل الأمان للفرنج، ولعل صلاح الدين قد أراد بذلك تجنيب المسلمين الاقتتال مع الفرنج اليائسين من الحياة، وتوفير القدرة البشرية لمتابعة القتال، أو لعله أراد تجنب المذابح في الأماكن المقدسة. فتقرر الافراج عن الفرنج، مقابل دفع عشرة دنانير عن كل رجل - يستوي فيه الغني والفقير، وسلمت المدينة للمسلمين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٤٩٢ هـ (١١٨٧ م) بعد حصار لم يتجاوز الأثني عشر يوماً. وارتفع صوت المؤذن، فكادت قلوب المسلمين تطير فرحاً. وزال عن المسجد الأقصى الحزن والكآبة، وتطهر مما علق به من الأدران. أظهر العرض السابق ثلاث عمليات مماتعرضت له أسوار مدينة القدس من الحصار، وبرزت من خلال هذا العرض الملامح المشتركة لفن الحصار في العصور القديمة والعصور الوسطى، حيث تبين عدم حدوث تطور كبير في بناء القلاع والأسوار والتحصينات، وكذلك عدم حدوث تطور مماثل في وسائط الحصار مثل المجانيق والأبراج والسلالم وسواها. فبقي فن الحصار معتمداً على الأساليب التقليدية والشائعة ومنها:

أولاً: عزل الهدف عن محيطه الخارجي، وحرمانه من امكانات الدعم. فقد عمل عمرو بن العاص في المرة الأولى على تدمير مقاومات الفرنج في معارك جبهية تصادمية. ثم فتح القلاع والحصون ذات الأهمية الثانوية، ثم انتقل بعدئذٍ إلى الهدف الأكثر

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٥٨٣ هـ - وتاريخ الحروب الصليبية: ٧٤٨/٢ - ٧٥٤. والروضتين - أبو شامة - نص خطاب القاضي محي الدين بن الزكي في المسجد الأقصى. بحضور صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم المشهود.

أهمية ـ وهو هنا القدس ـ. وفعل الفرنج مثل ذلك عندما اجتاحوا الساحل وعزلوا القدس عن امكانات دعمها من مصر. وجاء صلاح الدين فسار على النهج ذاته، إذ لم يحاول التعرض للقدس وأسوارها حتى تم له عزلها عزلاً كاملاً، وحتى انتهى من تدمير قوات الفرنج وطردها إلى الساحل، مع فتح القلاع والحصون المحيطة بمدينة القدس.

ثانياً: تتمتع الأسوار بمرتكزات قوتها الواضحة، ولكن لها أيضاً نقاط ضعفها الأكيدة، وتعود نقاط الضعف والقوة إلى الطبيعة الطبوغرافية المحيطة بالأسوار والتحصينات. ولهذا لم يكن غريباً أن تنطلق الهجمات على أسوار القدس من جبل الزيتون ومن باب العمود على وجه التحديد. ويبقى التعامل مع نقاط الضعف والقوة مرتبطاً بقدرة الحامية المدافعة عن الأسوار، قدر ارتباطها بتصميم المهاجين وما يتوافر لهم من وسائط الحصار.

ثالثاً: تبرز عمليات حصار القدس، واقتحام أسوارها صورة عن تفوق المسلمين في الهجوم بمثل تفوقهم في الدفاع. فقد صمدوا في مواجهة هجوم الفرنج لمدة خمسة أسابيع تقريباً، رغم تفوق الفرنج في القوى والوسائط. في حين لم يصمد الفرنج لهجوم المسلمين لأكثر من اثني عشر يوماً، وذلك رغم ما توافر لهم من الامكانات الدفاعية، ورغم توافر القدرة القتالية البشرية الكبرى، بسبب انضمام فلول الحاميات المزقة الى حامية القدس.

رابعاً: لم يكن دور الأسوار والتحصينات يتجاوز في الحالات كلها ايقاف تقدم القوات المعادية لمدة معينة، فإذا انقطع الرجاء، أو ضاع الأمل من امكان الحصول على دعم خارجي، ضعفت مقاومة الحاميات المدافعة عن الأسوار والتحصينات، واضطرت للاستسلام.

خامساً: ولقد ظهر في الحالات كلها ارتباط الأعمال القتالية الهجومية بالأعمال القتالية الدفاعية، على نحو ما هو معروف في الأزمنة الحديثة وحروبها، وإذا اختفت الأسوار والتحصينات من فوق سطح الأرض ـ منذ ظهور المدفعية ـ فقد تمت الاستعاضة عنها بالملاجىء والتحصينات في باطن الأرض. وقد جاء هذا التغيير بسبب

تعاظم القدرة التدميرية للأسلحة النارية. وبقي الأساس الثابت وهو ذاك الارتباط الوثيق بين الأعمال القتالية الهجومية والأعمال القتالية الدفاعية. فالدفاع لم يكن قديماً وحديثاً إلا مرحلة مؤقتة لايقاف العدو، ريثما يتم الانتقال إلى الهجوم، أو لتوفير الجهد على محاور ثانوية من أجل التركيز بالقوى والوسائط على اتجاه الضربة الرئيسة ـ وهو أبرز ما تظهره عمليات حصار القدس وفتحها.

٢ ـ انطاكية، وأسوارها.

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي، على مسافة اثني عشر ميلاً من البحر، أنشأها سنة ثلثمائة قبل الميلاد، سيلوقوس الأول وهو أحد خلفاء الاسكندر المكدوني، وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخس. واحتلت سهلاً بلغ طوله ثلاثة أميال تقريباً. وامتدت بعمق ميل نحو الداخل ـ بين نهر العاصي وجبل حبيب النجار، سيلبيوس ـ أما الاستحكامات الضخمة المحيطة بالمدينة كلها فتعود إلى أيام جوستينيان[1] وجدد البيزنطيون تحصينها على امتداد قرن وفقاً لأحدث ما توافر لهم من الخبرة والمهارة الهندسية. فارتفعت الأسوار في شمالي المدينة ـ بداية من أرض البطائح المنخفضة الواقعة على امتداد النهر. أما في شرقي المدينة وغربيها، فقد ارتفعت الأسوار على منحدرات الجبال، وسارت الأسوار في الجنوب على امتداد قمة الحافة، ومضت قدماً حتى نفذت من تجويف يخترقه خور عفرين إلى السهل، وسارت الى ما فوق الباب الخلفي للمدينة ـ وهو الباب المعروف باسم الباب الحديدي ـ حتى وصلت إلى القلعة المنيعة التي ترتفع عن المدينة بمقدار ألف قدم. واحتلت أربعمائة من الأبراج مواقعها على أعلى الأسوار فضاقت المسافات فيما بينها بحيث كانت كل ياردة في متناول سهامها. ويقع باب القديس بولس الى الشمال ـ الشرقي من المدينة، وهو الباب الذي يؤدي إليه الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب، بينما يقع باب القديس جورج في الطرف الشمالي ـ الغربي، وهو الباب الذي ينتهي إليه الطريق القادم من اللاذقية، أما الطرق المؤدية للاسكندرونة وميناء السويدية فانها تبدأ من الباب الكبير للمدينة والواقع

---

(١) جوستينيان الأول: (JUSTINIEN-I) امبراطور الشرق من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م. اشتهر بفتوحاته، وبظهور عدد من كبار قادة الروم البيزنطيين في عهده من أمثال بيلزير BELISAIRE ونرسيس NARSES ـ وانتصر جوستينيان على الفاندال والفرس وفتح ايطاليا وأفريقيا.

على شاطىء النهر، وتجتاز الجسر المنيع للاستحكامات. على أن الأبواب الصغرى أمثال باب الدوق وباب الكلب، فانها تؤدي الى النهر من أقصى الشرق.

أصبحت أنطاكية[1] بذلك أهم مدينة في آسيا، وبلغ عدد مستوطنيها نصف مليون نسمة. بينما لا يتجاوز عدد سكانها اليوم خمسين ألف نسمة. واحتلت في زمن الروم - البيزنطيين - المرتبة الثالثة بين دول العالم - بعد روما والقسطنطينية - واشتهرت عند المسيحيين بمكانتها الدينية - المقدسة - ذلك لأنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم - المسيحيين - وبها أقام القديس بطرس أول أسقفية له. وقد توافرت في المدينة مصادر المياه والأسواق والمتنزهات والمراعي للأغنام، مما كان يمكنها من ايواء جيش كامل، مع ضمان تأمين الامداد والتموين للحصار الطويل. وبالاضافة إلى ذلك، فانه لم يكن من السهل تطويق المدينة بكاملها، إذ ليس باستطاعة القوات التي تعتزم مهاجمة المدينة وحصارها أن ترابط على الأرض الواقعة الى الجنوب من انطاكية بسبب شدة انحدارها.

استولى الفرس - بقيادة كسرى الثاني - على انطاكية سنة ٦١١، ولكن ملك الروم البيزنطيين - هرقل - استعاد انطاكية في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) وأخرج الفرس منها ومن سائر بلاد الشام. وعمل على اعادة تحصين انطاكية وترميم أسوارها. وعندما جاءت قوات العرب المسلمين واستولت على انطاكية بقيادة أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م، كانت تحصينات المدينة بالغة القوة والمنعة. وقد حفظ تاريخ انطاكية مما حفظه عن تلك الفترة موقف ملك الروم - هرقل -: «حيث كان هرقل في انطاكية عندما بلغته أنباء انتصارات العرب المسلمين. فاستبد به اليأس. لقد امتدت إليه يد الله، لتنزل به العقاب لما أقدم عليه من زواج باطل من ابنة اخته مارتينا... وبعد أن أدى قداس الرحمة في كاتدرائية انطاكية، هرع الى البحر، واستقل السفينة إلى القسطنطينية، وحينما غادر الشاطىء، صاح في مرارة: الوداع، الوداع الى الأبد يا سوريا».

---

(١) انطاكية: (ANTIOCHE) وباللغة التركية (ANTAKIEH).

وهكذا أصبحت حاضرة الشرق ـ كما كانوا يسمونها ـ تحت حكم العرب المسلمين، الذين حكموا بشرع الله على أرض الله، فشاع العدل وانتفى الظلم. ولم يكن غريباً أن يتصدى جاثليق النساطرة لبطريرك انطاكية عندما احتدم الجدل بينهما في مطلع القرن العاشر الميلادي. فقال له: «اننا نحن النساطرة أصدقاء العرب المسلمين، وندعو لهم بالنصر دائماً، فلترع النساطرة الذين ليس لهم من ملك سوى العرب المسلمين»[1].

وقد عرف العرب المسلمون أهمية هذه الحاضرة، وقدروها حق قدرها[2]. ولقد عاشت انطاكية أحداثاً مثيرة منذ الفتح العربي ـ الاسلامي. فقد تابع الروم البيزنطيون حربهم ضد المسلمين في البر والبحر، وكان لا بد لانطاكية بحكم موقعها من الاستئثار بمعظم مشاهد الصراع حيث بقيت هي القاعدة الرئيسة التي تمسك بالدروب الشامية، فكانت جيوش العرب المسلمين تتوقف فيها أثناء ذهابها لغزوات الصوائف والشواتي، وعند عودتها منها، هذا بالاضافة إلى الهجمات الكبيرة التي كان يقوم بها العرب المسلمون كثيراً، ويقوم بها الروم في أحيان أخرى. وكان لا بد من أن يصيب انطاكية بعض وقائع تلك الحروب، فأضافت بذلك إلى إرثها الحضاري وتاريخها الطويل، فصلاً مميزاً من أشكال الحروب التي يصعب إيجازها بكلمات أو اختصار وصف أحداثها بسطور. على أن أشد تلك الأحداث إثارة هو ما عرفته انطاكية خلال المرحلة التي سبقت الغزو الصليبي، عندما عملت بيزنطة ـ الروم ـ على تصعيد الصراع ضد المسلمين وأعطت هذا الصراع أبعاداً جديدة بتوغل جيوشها في بلاد الشام، مع اثارة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٥ و ٤٨.

(٢) وصف أبو الفداء ـ في تقويم البلدان، ص: ٢٥٥ مدينة انطاكية بقوله: «إنها بلدة كبيرة ذات أعين، وسور عظيم، داخله خمسة أجبل، وقلعة، ويمر بظاهرها نهر العاصي والنهر الأسود مجموعين. وبها قبر حبيب النجار. قال ابن حوقل: انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق. عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها. ويجري مياههم في دورهم: وسككهم ومسجد جامعهم. ولها ضياع وقرى ونواحي خصبة جداً. قال في العزيزي: ومساحة دور السور اثنا عشر ميلاً». القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ١٤٦.

الأحقاد ضد حكم المسلمين. وقام ملك الروم ـ نقفور فوقاس ـ بالاستيلاء على انطاكية سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م وذلك في طريقه لاجتياح بلاد الشام. وفي سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م عمل ملك أرمينية ـ بهرام فيلاريتوس ـ على احتلال انطاكية، وقد استثار ذلك غضب المسلمين. فقام السلطان السلجوقي بقيادة جموع التركمان واستعاد فتح انطاكية (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م). وتابع السلطان ـ سليمان بن قتلمش أو قطلمش ـ جهاده فطرد الروم ـ البيزنطيين من سائر البلاد التي سبق لهم احتلالها. واستولى ـ ملك شاه ـ على بلاد الشام وانتزعها من حكم الفاطميين حكام مصر. وعين ـ ياغي سيان ـ التركماني، حاكماً على انطاكية. فبقي ياغي سيان على حكم المدينة مدة عشر سنوات. وكان من نصيبه مجابهة هجوم الفرنج الذي تعرضت له انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م، والذي ذكرته المصادر العربية وأوجزته بما يلي:

« تجهز الفرنج وخرجوا إلى الشام، وقيل إن أصحاب مصر من العلويين ـ الفاطميين ـ لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام حتى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول السلاجقة إلى مصر وحصرها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم. فلما عزم الفرنج إلى قصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين، ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم، فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده. وقال لهم: لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلمون إلي أنطاكية. وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منه أن الأتراك ـ السلاجقة ـ لا يبقون منهم أحداً، لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد، فأجابوه إلى ذلك، وعبروا الخليج عند القسطنطينية.

ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وهي قونية وغيرها، فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه، ومنعهم، فقاتلوه وهزموه. واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني فسلكوها، وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها. ولما سمع صاحبها ـ حاكمها ـ ياغي سيان بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها، ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق.

ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً، ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر. فلما أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم: أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج. فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا. فقال: أنا أخلفكم فيهم. فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج، فحصروها تسعة أشهر.

أظهر ياغي سيان خلال فترة الحصار الطويل من الشجاعة ومن جودة الرأي والحزم والاحتياط ما لم يشاهد من غيره. فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام. وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف أيدي المتطرقة إليهم. فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية، راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ـ واسمه زراد ويعرف باسم بروزبه ـ وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه، ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة بالجبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة. فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال، فقيل له إن هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها ملكت، ولم يكن صوت البوق من القلعة وإنما كان من ذلك البرج. فدخله الرعب، وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه. فجاء نائبه في حفظ البلد وسأل عنه فقيل له إنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا. ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين، فما من أحد من الناس يستطيع أن يرتاد الشوارع دون أن تعثر قدماه بالجثث التي لم تلبث أن تعفنت بتأثير حرارة الصيف. وأما ياغي سيان فإنه لما طلع عليه النهار، رجع إليه عقله، وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ. فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل له: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط على الأرض، أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة وقد

قارب الموت، فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق. فقتله، وأخذ رأسه، وحمله إلى الفرنج بأنطاكية. وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها. مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية.

لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية، جمع العساكر وسار إلى الشام. وأقام بمرج دابق، واجتمعت معه عساكر الشام - تركها وعربها سوى من كان بحلب - فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك - حكام دمشق - وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج، عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكية. وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين. وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال. فأغضبهم ذلك. وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على التخلي عنه عند اللقاء. وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً. ليس لهم ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما رأوا ذلك راسلوا كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد. فلم يعطهم ما طلبوا وقال: «لا تخرجوا إلا بالسيف». وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل - سانت جيل ريموند كونت تولوز - وكندفري - جودفري - والقمص صاحب الرها وبيمنت - بوهمند - صاحب انطاكية وهو المقدم عليهم. وكان معهم راهب مطاع فيهم - اسمه بطرس بارثولوميو - وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وأخفى أثرها. وأمرهم بالصوم والتوبة. ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم. وحفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر. فقال لهم: أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين - من خمسة أو ستة ونحو ذلك -. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي

أن تقف على الباب، فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل. فقال: لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم. ولم يمكن من معاجلتهم. ونهض إليهم قوم من المسلمين فقتلوا جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم. فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً. فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمي بسهم. وكان آخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين. وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً. وغنموا ما في معسكر المسلمين من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة. فصلحت حالهم. وعادت إليهم قوتهم»[1]

أصبح باستطاعة الفرنج الصليبيين التقدم إلى القدس بعد أن زالت العقبة الرئيسية التي كانت تجابههم. وواجهت الفرنج مشكلة صعبة. فقد اتفقوا على احتلال انطاكية. وبذل قادتهم وأمراؤهم يمين الطاعة للإمبراطور البيزنطي بأن يعيدوا إليه أنطاكية فور احتلالها، ولكن ما إن تم لهم ذلك حتى ظهر بوهمند النورماندي - وهو ألمع وأبرز جندي صليبي. من عائلة هوتفيل - نزوعه للاستقلال بإمارة أنطاكية. بحيث أنها تشكل مع صقلية التي هي تحت حكم النورمان. مملكة واحدة. لا تدين بالولاء لدولة الروم - البيزنطيين. لاسيما وأن الامبراطور البيزنطي لم يقدم دعماً حقيقياً للفرنج من أجل الاستيلاء على أنطاكية.

هكذا نصب بوهمند (أو بيمند كما تذكره المصادر العربية) نفسه كونتاً أو أميراً على انطاكية، وذلك بفضل ما توافر له من القوة. فانصرف لتوطيد مركزه. ولم يكن ثمة ما يجعله يخشى الترك المسلمين في الوقت الراهن على الأقل. فوجه جهده الرئيسي ضد الروم البيزنطيين، إذ كان يعلم أن الامبراطور البيزنطي لن يغفر له أبداً استقلاله

(١) الكامل في التاريخ - احداث سنة ٤٩١. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣٠٣/١ - ٣٥٦.

بحكم انطاكية، وانه لن يشعر بالأمن والطمأنينة طالما أن بحوزة الامبراطور البيزنطي أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط، بالاضافة لامتلاكه ميناء اللاذقية والواقع الى الجنوب من انطاكية. فقرر بوهمند أن يحسم الأمر، فتوجه لمهاجمة اللاذقية. وتحرك اسطول الروم بسرعة أكبر، وكادت تقع الحرب بين أمير انطاكية بوهمند من جهة وبين قوات الروم من جهة ثانية. غير أن أمراء الفرنج ورهبانهم تدخلوا للتوفيق بين طرفي الصراع. وأمكن تجاوز الأزمة.

أصبح باستطاعة بوهمند توجيه جهده لتوطيد مركز إمارته على حساب المسلمين وبلادهم. وجاءته الفرصة عندما طلب إليه أرمن ملطية المساعدة، بعد أن كان بوهمند قد وطد مركزه على الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر العاصي، عندما أحبط هجوما قام به أمير حلب - رضوان - فقرر التوجه لدعم أرمن ملطية الذين تعرضوا لهجمات أمير سيواس (غازي جمشتكين - أنوشتكين الدانشمند). ولكنه عمل قبل مغادرة أنطاكية على اتخاذ الاجراءات الوقائية في أنطاكية ذاتها، حتى لا تخرج على إرادته. فقد علم أن بطريرك أنطاكية يوحنا الرابع يميل إلى تشجيع الأرثوذكس في بطريركيته على أمل الخلاص على يد امبراطور الروم - البيزنطيين -. فطرده بوهمند من المدينة. وعين مكانه بطريرك من اللاتين. اسمه برنارد فالنس. فتمكن بذلك من إحداث صدع لا يجبر بين الكنيستين اليونانية واللاتينية.

وسار بوهمند ومعه خمسة آلاف مقاتل (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) حتى إذا ما اقترب من ملطيه، لقيهم أنوشتكين الدانشمند، فانهزم بوهمند وأسر وأصبحت انطاكية بدون حاكم.

ووصل من البحر سبعة قماصة من الفرنج وأرادوا تحرير بوهمند، فتقدموا إلى قلعة أنكورية فاستولوا عليها وذبحوا من بها من المسلمين وساروا إلى قلعة أخرى كان يدافع عنها إسمعيل بن الدانشمند وحصروها. فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنج، وجعل له كميناً، وقاتلهم. وخرج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج، وكانوا ثلثمائة ألف، غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً، وأفلتوا مجروحين. وسار ابن

الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها. ثم خرج عليه عسكر الفرنج من انطاكية فلقيهم وكسرهم.

وبقي أمير أنطاكية بوهمند أسيراً في قبضة المسلمين لمدة سنتين، ثم أطلق سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار وبشرط اطلاق سراح ابنة ياغي سيان الحاكم السابق لانطاكية، والتي وقعت في أسر بوهمند عندما استولى الفرنج على المدينة[1] **.**

بقيت إمارة أنطاكية أغنى إمارات الفرنج وأكثرها أمناً وطمأنينة، فعلى الرغم من أنها لم تضم مساحة كبيرة من الأرض، ولم تتجاوز حدودها سهل أنطاكية والوادي الأسفل لنهر العاصي وسلسلة جبال الأمانوس وميناء الاسكندرونة بالاضافة الى ميناء السويدية، إلا أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت مدينة وافرة الثروة. ولم تؤثر فيها كثيراً الاضطرابات والحروب، فاستمرت مصانعها الشهيرة بانتاج المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والفخار والصابون. وما نشب من حروب بين المسلمين والفرنج الصليبيين لم يمنع القوافل التجارية القادمة من حلب والجزيرة من اجتياز أبواب أنطاكية في طريقها الى البحر الأبيض المتوسط. وكان سكان المدينة بعد ذبح المسلمين، من المسيحيين فقط، فكان منهم اليونانيين والسريان الأرثوذكس والسريان اليعاقبة وفئة قليلة من النساطرة، غير أنه اشتد بينهم من الحقد والكراهية ما يسر للنورمان ضبطهم والسيطرة عليهم. ولكن المسيحيين الأرثوذكس بداخل أنطاكية حرصوا على متابعة التحريض لإعادة انطاكية لحكم الروم البيزنطيين، بينما تابع بوهمند دوره في تحريض الأرمن والمسيحيين اليعاقبة ضد دولة الروم. ما إن رجع بوهمند من الأسر، ووصل إلى حاضرته أنطاكية، حتى أخذ في الاعداد لحرب المسلمين، وتحالف مع جيش الرها، وتوجهت جيوش الفرنج الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م لقتال المسلمين حيث وقعت معركة كبيرة على نهر البليخ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً. ولكن جيش

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٤٩٣ و ٤٩٥.

انطاكية خرج من المعركة سالماً، فقد هرب من القتال ولم يخسر من قوته شيئاً ووقع ثقل المعركة بكامله على جيش الرها.

تجدد الصراع بين أنطاكية والقسطنطينية، فقد عمل بوهمند على قيادة جيشه ـ من النورمان ـ وتوجه لغزو بلاد الروم، ولكن جيش الروم نجح في تطويق بوهمند وجيشه أمام حصن دورازو ـ وهو مفتاح شبه جزيرة البلقان ـ وتبع ذلك إجراء مفاوضات انتهت بمعاهدة (ديغول سنة ١١٠٨ م) والتي أقرت الابقاء على بوهمند أميراً على انطاكية ـ بشرط ان يحكمها تحت سيادة الامبراطور البيزنطي. وتشمل ولاية بوهمند: أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية، وما يقع إلى الشمال الشرقي من البلاد حتى مرعش، فضلاً عن كل ما يغنمه من البلاد من أيدي أمراء حلب وسائر الإمارات الداخلية في بلاد الشام، مع إعادة مدن قليقية وساحل اللاذقية لسلطة امبراطور الروم.

تابعت أنطاكية بعدئذ أعمالها العدوانية ضد أقاليم المسلمين، وانطلق جيشها في هجمات منظمة حتى فرض سيطرته على وادي العاصي، وحتى بات يتهدد حلب، بعد أن انتصر على المسلمين بهجوم مباغت في معركة تل دانث (سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م). وجاء ردّ فعل المسلمين سريعاً، لاسيما بعد أن استولى جيش أنطاكية على بزاغة (سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م) فعمل ايلغازي على حشد جموع التركمان والأكراد والقبائل العربية الضاربة ببادية الشام، وسار بهم للقاء الفرنج حيث دارت المعركة عند تل عفرين ـ وهي المعركة التي اشتهرت عند الفرنج باسم (معركة ساحة الدم)[1] والتي أوجزت وصفها المصادر العربية بقولها:

«سار الفرنج إلى نواحي حلب، فملكوا بزاغة وغيرها، وأخربوا بلاد حلب

---

(١) معركة ساحة الدم: (AGER-SANGUINIS). وقد ورد وصف أحداثها بصورة تفصيلية في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥١٣هـ ـ وفي تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٣٤ ـ ٢٤٣. وقد أثارت المعركة انفعالاً مثيراً في أوساط المسلمين والفرنج على السواء. ومدح العظيمي حاكم حلب ـ ايلغازي ـ بقصيدة طويلة جاء فيها:

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الانجيل

ونازلوها، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً. وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد. لكنهم منعوا من ذلك، وصالح أهل حلب الفرنج على أن يقاسموهم أملاكهم التي بباب حلب وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة، فلم يغاثوا. وكان الأمير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين، يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً. فلما علم الفرنج، وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل، ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب، بموضع يقال له تل عفرين، بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات يبعد عن حلب خمسة عشر ميلاً لا أكثر. وظن الفرنج أن أحداً لا يصل إليهم لضيق الطريق ووعورته، فأخلدوا إلى المطاولة والمماطلة، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين. وراسلوا ايلغازي يقولون: «لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك). فأعلم ايلغازي أصحابه واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته، وقصدهم. ففعل ذلك وسار إليهم، ودخل المسلمون من الطرق الثلاثة. فلم يشعر الفرنج إلا وأوائل المسلمين قد غشيهم، فحمل الفرنج حملة منكرة، فانهزم المسلمون، فلقوا باقي العساكر متتابعة، فعادوا معهم، وجرى بينهم وبين الفرنج حرب شديدة. وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير نفر يسير. وقتل الجميع وأسروا. وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم حملوا إلى حلب. فبذلوا في نفوسهم ثلثمائة ألف دينار، فلم يقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة. وقتل أمير أنطاكية ـ روجر ـ وحمل رأسه إلى حلب. وأسرع ايلغازي ففتح حصن (أرتاح) وانتزعه من قبضة الفرنج، ثم فتح حصن زردنا. وتابع إغاراته على أرباض أنطاكية، مما دفع كونت طرابلس للتحرك بسرعة من أجل إنقاذ انطاكية. وخاض جيش طرابلس معركة طاحنة (معركة هاب) تعرض فيها للخسائر الكبيرة، وعاد ايلغازي إلى عاصمته حلب وقد جرّ وراءه رتلاً من الأسرى. لكن أنطاكية بقيت في قبضة الفرنج».

لم تكن هذه الأحداث بمجموعها أكثر من سطور قليلة في بداية ملحمة الصراع الطويل الذي استمر زهاء مائة وسبعين عاماً. ولقد تطور هذا الصراع بصورة ثابتة.

فكل عمل استفزازي يقوم به الفرنج في انطاكية يرد عليه المسلمون بعنف أكبر. وقد حدث على سبيل المثال أن قام أمير انطاكية ـ بوهمند الثاني ـ بقيادة هجوم للاستيلاء على (عين زربة) سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م. فانقض عليه المسلمون التركمان، وذبحوه وأبادوا قواته. فتولت ابنته ـ أليس ـ الحكم، وأرسلت إلى عماد الدين زنكي في حلب رسولاً مع هدية، وأعلنت عن استعدادها للخضوع لحكم زنكي إذا تعهد بابقاء انطاكية في حوزتها. لكن ملك القدس تدخل وأوقف عقد هذا الاتفاق الذي لم يكن إلا برهاناً جديداً على فاعلية الاسلوب ـ أو النهج ـ الذي أخذ به المسلمون للرد على التحدي بتحد أكبر، وعلى العدوان بعدوان أشد وأقوى. ولم يكن صراع المسلمين ضد الفرنج هو صراع عسكري معزول عن عامله الديني (العقائدي). وقد استثمر الفرنج تفرق كلمة المسلمين للاستيلاء على انطاكية، ومنها إلى سائر بلاد الشام. فقام المسلمون بعدئذ بممارسة الدور ذاته وقد عرفوا ما بين الفرنج ذاتهم من اختلاف وعداء، وأخذوا في ضرب بعضهم ببعض لاستخلاص المكاسب. وأدرك قادة الفرنج ـ ملوكهم وأمراءهم ـ ما يمثله ذلك من خطر على وجودهم. فحاولوا بذل كل جهد مستطاع لتجنب الصراع فيما بينهم، وتوجيه الجهد الصليبي بكامله ضد المسلمين. ومارس رجال الكنيسة دورهم للتوفيق بين الأطراف المتصارعة أحياناً، ولاذكاء الخلاف والصراع في أحيان أخرى وفقاً لما كانت تتطلبه مصالحهم. وأخذ الصراع يتكامل في إطار جبهة إسلامية واحدة ضد جبهة صليبية متكاملة.

وقد بدأ عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي العمل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية. فقام الفرنج بالرد على ذلك في تنظيم جهد الجبهة الصليبية الموحدة. وهذا ما ظهر سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م، عندما هاجم المسلمون أنطاكية، فأرسل حاكمها نداء استغاثة عاجل الى ملك القدس (فولك) وإلى كونت طرابلس (ريموند). فتحرك فولك بسرعة نحو الشمال، وانضم إليه جيش طرابلس. وسارت قوات الفرنج مجتمعة. وطافت حول سفوح تلال النصيرية حتى بلغت (حصن بعرين). وباغتهم المسلمون بالهجوم، واستبسل الفرنج في القتال، غير أن المعركة لم تلبث أن انتهت لمصلحة المسلمين. ولقي معظم جند الفرنج مصرعهم على أرض المعركة. ووقع في الأسر

آخرون ـ منهم كونت طرابلس ـ بينما هرب فولك وحرسه الى حصن بعرين. وألقى عماد الدين زنكي الحصار على هذا الحصن، ونصب عليه عشرة مجانيق تقذف أسوار القلعة ليلاً ونهاراً. وأسرع جيش أنطاكية وجيش الرها، غير أنهما لم يتمكنا من التدخل. ووافق ملك القدس ـ فولك ـ على تسليم الحصن للمسلمين مقابل السماح له بالانسحاب، فعاد إلى القدس وهو يجر أذيال الخيبة، ويتجرع مرارة الهزيمة.

لقد أخذت القوات الإسلامية بالتعاظم، وبات من المحال ايقاف تطورها. ولقد جاءت الحملات الصليبية المتتالية في محاولة لايقاف المد الإسلامي المتعاظم. غير أن ملامح النهاية الحتمية لهذا الصراع بدت واضحة تماماً للطرفين للمتصارعين، ولم تعد القضية للوصول إلى هذه النهاية أكثر من قضية زمن. وقد يكون بالمستطاع تجاوز أحداث الصراع المرير والطويل للوصول بقفزة واحدة إلى ما حدث عند وصول المغول التتار الى بلاد الشام.

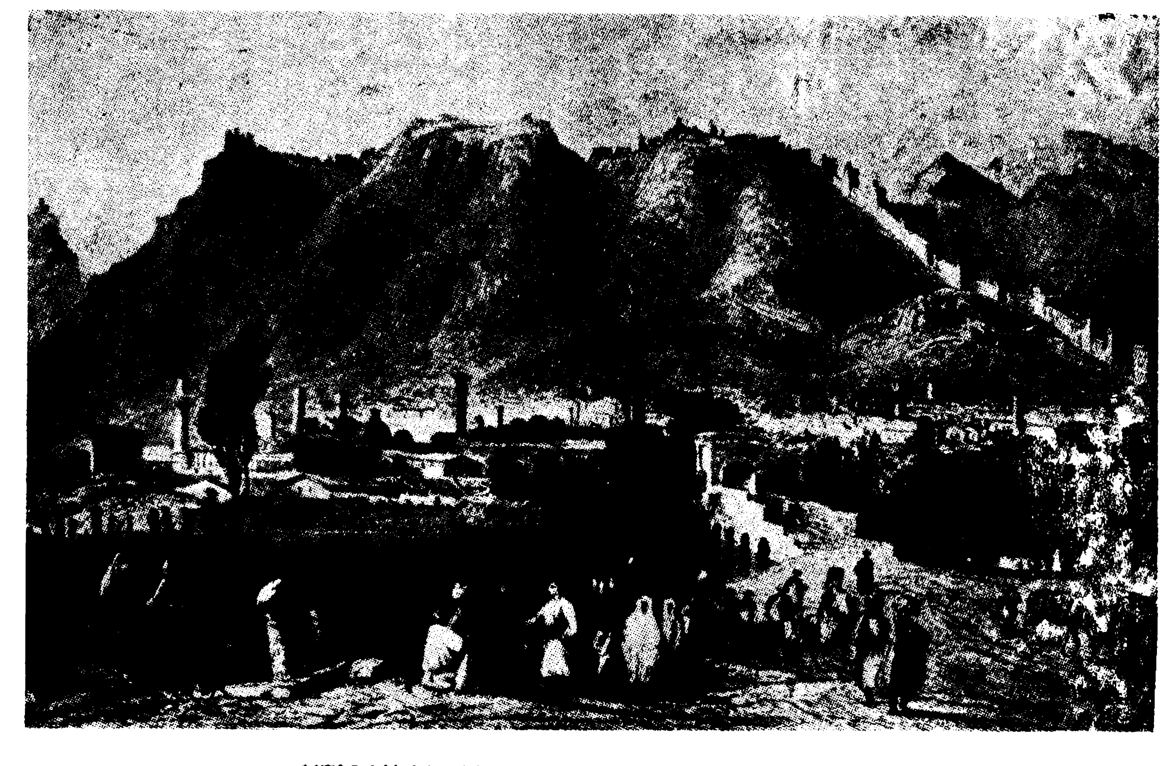
فقد تحالف الفرنج في أنطاكية والرها مع المغول، وساروا في ركابهم، واقتحموا معهم مدن بلاد الشام، حتى إذا ما أسفرت معركة (عين جالوت) عن انتصار المسلمين، جعل السلطان الظاهر بيبرس هدفه الأول هو في إنزال العقاب الحق والجزاء العادل بانطاكية ـ وأميرها بوهمند ـ لقاء ما قدمه هذا للمغول من المساعدة. فأرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً للإغارة على أملاك أنطاكية، وتكررت الغارات في صيف السنة التالية، وتعرض ميناء السويدية للنهب والتدمير، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها، فاستنجد كونت أنطاكية بقائد المغول ـ هولاكو ـ الذي أرسل قواته في الوقت المناسب لانقاذ أنطاكية. فانصرف بيبرس لحرب الفرنج في بلاد الشام، غير أنه عاد سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م فأرسل قواته لمهاجمة أنطاكية، وأظهر قادته تهاوناً مما أثار غضب بيبرس ودفعه لاتخاذ قراره بقيادة حملة يتولى هو قيادتها. ونفذ قراره في السنة التالية، فقاد جيشه، ووصل أنطاكية، وقسم قواته الى ثلاثة جيوش، توجه واحد منها إلى السويدية، وعزل أنطاكية عن البحر، وتوجه الجيش الثاني إلى دروب الشام لمنع وصول أي دعم من قليقية إلى أنطاكية، بينما تولى بيبرس ذاته قيادة الجيش الثالث

الذي حدد له مهمته بحصار انطاكية ذاتها وتطويقها. وكان أمير ـ كونت ـ أنطاكية في طرابلس يوم وقع هجوم المسلمين. وكان العمل في إصلاح أسوار المدينة وتحصيناتها قد اكتمل، غير أن الحامية المدافعة عن انطاكية لم تكن كافية لشحن أسوارها الممتدة. وزاد من ضعف هذه الحامية ما قام به قائدها ـ الكندسطبل سيمون مانسل ـ عندما قاد قواته إلى خارج المدينة لمهاجمة المسلمين، حيث لم يلبث أن وقع أسيراً في قبضة المسلمين الذين أمروه بتدبير أمر استسلام الحامية. ولكن نوابه داخل الأسوار رفضوا إطاعة أوامره. فقام المسلمون ـ المماليك ـ بأول هجوم لهم في اليوم التالي، غير أن حامية المدينة تمكنت من صدّه وإحباطه. فاستؤنفت المفاوضات من جديد، ولكن هذه المفاوضات لم تصب النجاح المطلوب. فشنّ المسلمون هجوماً عاماً في مستهل شهر جمادي الثاني سنة ٦٦٦هـ (١٨ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٦٨م) وشمل الهجوم القطاعات جميعها، واشتد القتال، ثم حدثت ثغرة في الأسوار الممتدة على منحدر جبل سلبيوس. وتدفق المسلمون إلى داخل المدينة. وبات من العسير كبح جماح الغضب المتفجر، لقد حانت ساعة الثأر وأزف موعد الانتقام لانزال العقاب العادل. ودارت رحى مذبحة بلغت من القسوة ما صدم المؤرخين المسلمين أنفسهم، ولم ينافسها في قسوتها إلا المذابح التي قام بها الفرنج يوم اقتحموا انطاكية وأبادوا مسلميها. فبناء على أمر الظاهر بيبرس، تقرر إغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وتم قتل الفرنج بالشوارع على الفور، أما الآخرون الذين لزموا بيوتهم فقد وقعوا في أسر المسلمين، على أن ألوفاً من السكان هربوا مع عائلاتهم إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل. فتقرر الابقاء على حياتهم. وجمعت الغنائم، فحاز المسلمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والحلي. وكان عدد الأسرى من الوفرة بحيث بيع الغلام الصبي باثني عشر درهماً.

لقد ماتت أنطاكية الفرنج الصليبيين وتم تدميرها، ومات معها كيان الفرنج في شمال بلاد الشام. وكان انهيار بناء الفرنج في انطاكية لطمة عنيفة للصليبيين بقدر ما كان أيضاً لطمة عنيفة للمغول التتار. إذ لم يعد باستطاعة انطاكية مطلقاً تحريض المغول الذين شكلوا في تلك المرحلة خطراً على المسلمين لا يقل عن خطر الفرنج. ولما كانت

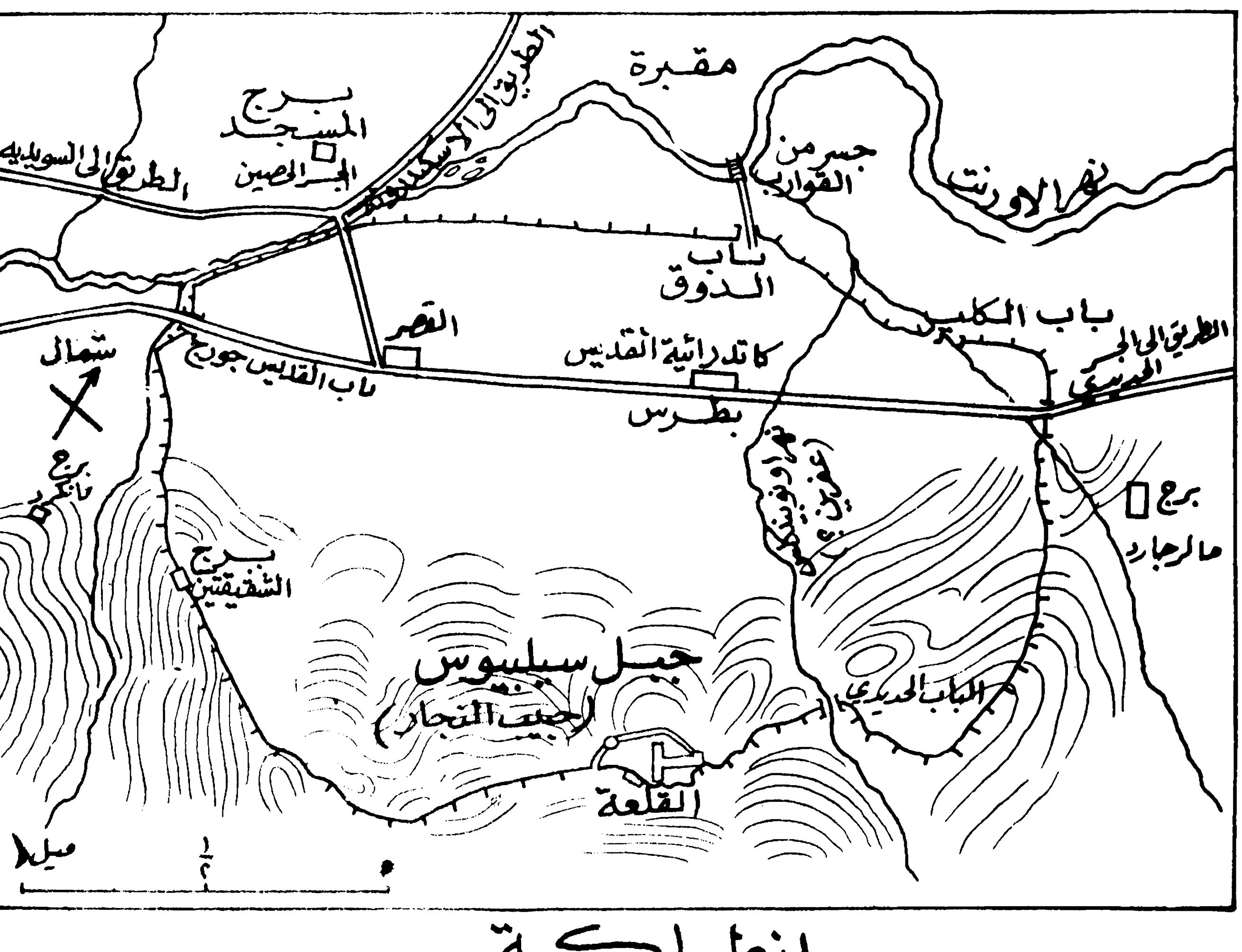
أنطاكية هي مقرّ كل من الكنيستين الارثوذكسية واليعقوبية، فانه لم يبق أمام بطاركة الكنيستين المذكورتين إلا الانتقال إلى دمشق.

لقد كانت انطاكية أول امارة ـ كونتية ـ أقامها الفرنج الصليبيون في بلاد الشام لتكون حجر المرتقى في طريق الفرنج، الى القدس وسائر بلاد الشام. فكان استعادة المسلمين لها وطرد الفرنج منها، هو بداية تصفية مرتكزات الفرنج وقواعدهم على ساحل بلاد الشام. واحتفظت انطاكية ببعض الحجارة ـ الآثار ـ التي تذكر بحقد الفرنج الصليبيين وجرائمهم وما أعقب ذلك من أعمال انتقامية أزالت من النفوس، ومن على الأرض، ما خلفه الفرنج من جراحات في كيان الأمة الإسلامية.

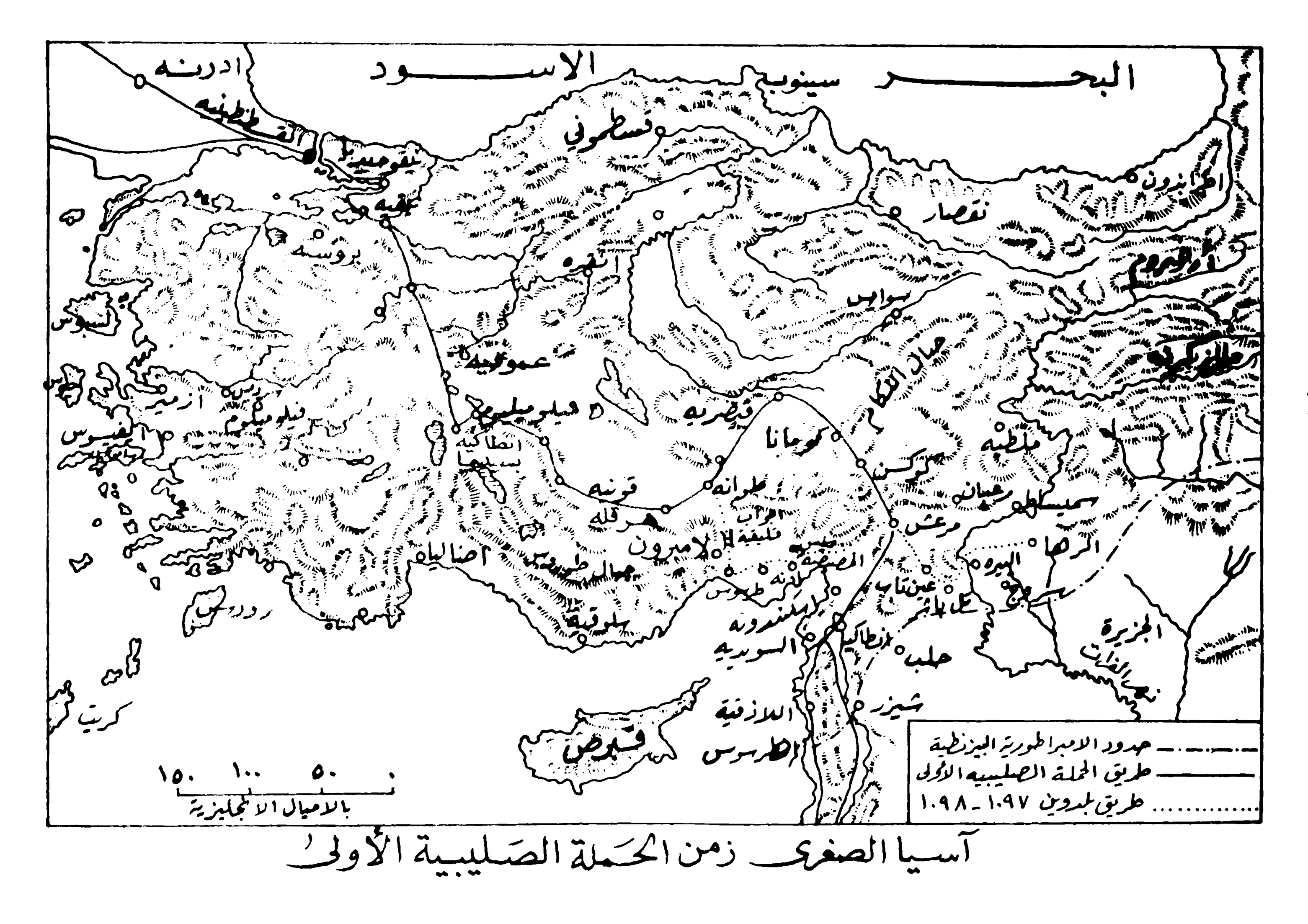


ANTIOCH FROM ACROSS THE RIVER' ORONTES
The fortified bridge is in the foreground. The section of the wall where the Crusaders entered the city is on the right, on the slope behind the city buildings.

انطاكية ونهر الأورنت (العاصي)



نهر الاورنت
مقبرة
جسر من القوارب
باب الدوق
باب الكلب
الطريق الى الجسر الحديدي
برج
الطريق الى الاسكندرونة
برج المسجد
الطريق الى السويدية
القصر
كاتدرائية القديس بطرس
باب القديس جورج
شمال
برج الشقيقتين
جبل سلبيوس
(حبيب النجار)
الباب الحديدي
القلعة
ميل
١/٢
انطاكية



آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى

حدود تقريبية لإمارة انطاكية سنة ١١٢٠ م

حدود تقريبية لكونتية الرها سنة ١١٢٠ م

١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠

بالاميال الانجليزية

١ شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

٢ ـ الرهاء.

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في العراق ـ سعد بن مالك بن أبي وقاص رضي الله عنهما: «سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند وليأت الرقة. فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص. وإن أهل قرقيساء لهم سلف. وسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى نصيبين، ثم لينغضا حران والرهاء. وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ. وسرح عياضاً ـ ابن غنم ـ فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض»[١]. وكان ذلك رداً على هجوم الروم الكبير سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م. وهو الهجوم الذي تعاون فيه الروم مع عرب الجزيرة، فوصلوا حتى مدينة حمص. وسار المسلمون ففتحوا الجزيرة ثم تقدموا في أرمينية، فنزل عياض بن غنم على (الرهاء) فصالحه أهلها على الجزية، وفتح المسلمون حران على مثل صلح الرهاء. وفتح المسلمون نصيبين ورأس العين. فخضعت (أرمينية)[٢] للمسلمين. وقد حاول الروم إخراج المسلمين من أرمينية (سنة ٢٤ هـ = ٦٤٤ م) فحشدوا جيشاً من مائة ألف مقاتل من الروم والترك ـ بقيادة الموريان الرومي ـ فوجه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضوان الله عليه جيشاً من الشام بقيادة حبيب بن مسلمة وآخر من العراق بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي. فتم للعرب المسلمين تدمير تجمع الروم، وفتح المسلمون أرمينية. ووصلت قواتهم الى باب الأبواب (باكو

---

(١) تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، أحداث سنة ١٧ هـ.

(٢) كانت أرمينية يوم فتحها العرب المسلمون تنقسم إلى أربعة أقاليم من الشرق الى الغرب، وتحمل تسلسلاً بالأرقام، فأرمينية الأولى تضم شمشاط وقاليقالا وخلاط وأرحبيش وباجنيس. وتضم أرمينية الثانية السفرجان وديبل وسراج طير وبغروند. أما أرمينية الثالثة فكانت تضم جرزان. وتضم الرابعة السيسجان وأران. وكانت أرمينية الأولى والثانية تحت حكم الخزر. أما الثالثة والرابعة فكانتا تحت حكم الروم (البلاذري ص: ١٩٨).

حالياً على بحر قزوين) ووصلت الى تفليس. وخضعت أرمينية بكاملها لحكم العرب المسلمين.[1]

كانت تلك هي البداية فقط لقصة الصراع الطويل بين المسلمين والروم على أرض أرمينية. فكانت ثغور المسلمين المتقدمة (العواصم) على أرض أرمينية هي: شمشاط وملطية وطرنده ومرعش وزبطرة والحدث وسواها، والتي باتت برهاناً على استقرار الفتح العربي ـ الإسلامي في أرمينية، وثبات جذوره. وأما الرهـا فلم تكن إلا ثغراً من هذه الثغور التي طالما تعرضت لهجمات الروم وإغاراتهم الكثيرة، والتي كان منها على سبيل المثال هجوم الروم سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م ووصولهم إلى الرهاء ثم رجوعهم عنها. وكذلك هجومهم سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وتهديدهم للرها، وهجومهم بعدئذ سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م واحتلالهم للرهاء ونهبها وتدميرها، بالاضافة الى استيلائهم على أرزن وميافارقين ونصيبين حيث قتلوا من المسلمين وسبوا، وعملوا بعدها على طلب منديل. كان في كنيسة الرها ثم استقر في دار الخلافة. وزعموا أن السيد المسيح كان قد مسح وجهه به، فارتسمت صورته فيه، وذلك مقابل إطلاق سراح أسرى المسلمين الذين تم سبيهم جميعاً. ووافق الخليفة العباسي على الطلب وأرسل المنديل لهم، فأطلق الروم سراح من بأيديهم من أسرى المسلمين، فرجعوا إلى بلادهم. غير أن الروم قاموا بهجوم كبير سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م، وأفادوا من انقسام العالم الإسلامي بين الشيعة الفاطميين في مصر والسنة في بغداد والمشرق. فاستولوا على الرها، وضموها الى ممتلكاتهم. ويظهر أن ملك الأرمن قد شعر بضعف موقفه، فقام بتسليم عاصمة بلاده (آني) للروم البيزنطيين سنة ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م وذلك مقابل الحصول على بعض الضياع ـ القرى ـ بجبال طوروس. وقد صحبه إلى موطنه الجديد عدد كبير من الأرمن. وترتب على ذلك أن بات حصن الرهاء عرضة للهجوم في كل سنة. وقد تولى التركمان ـ السلاجقة بقيادة ألب أرسلان، أعباء الأعمال القتالية ضد الروم بهدف الحد من نزعاتهم العدوانية وما لبث السلاجقة طويلاً حتى بسطوا نفوذهم على أرمينية. وكان

---

(١) تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٢٤ هـ.

فتح الترك ـ السلاجقة لأرمينية ـ أو بالأحرى إعادة فتحها ـ بمثابة لطمة عنيفة للتحالف البيزنطي ـ الفاطمي الذي كان هدفه اضعاف حكم السنة والخلافة الإسلامية ببغداد. وأدى ضعف هيمنة الروم البيزنطيين على أرمينية إلى تحرك الأرمن من جديد، فخرج أحد أقارب الامبراطور البيزنطي (روبين) على حكم الامبراطور، واستقر في التلال الواقعة إلى الشمال الغربي من قليقية. في حين ظهر زعيم أرمني آخر (اسمه أوشين ابن هيثوم) فأقام إمارة له غرب الإمارة السابقة، وعلى مسافة غير بعيدة عنها. ومارس كل من (آل روبين) و(آل هيثوم) دوراً مميزاً في الصراع الذي سيقع بعد فترة قريبة، عندما سيصل الفرنج الصليبيون إلى المشرق. غير أنه طمس اسم روبين وهيثوم اسم زعيم أرمني آخر هو (بهرام) أو فيلارتيوس كما تذكره مصادر الروم البيزنطيين، والذي استولى على طرسوس والمصيصة وعين زربة والرها وأنطاكية، وأصبح أمراء آل روبين وآل هيثوم من أتباعه.

ولم يكن باستطاعة الاتراك ـ السلاجقة ـ تجاهل هذه القوة المتعاظمة التي باتت تتهدد أقاليمهم المجاورة. فاجتاحوا أرمينية سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م. ووقعت بعد سنتين معركة ملازكرد (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) التي سجل فيها المسلمون انتصارهم الرائع، والتي كان من نتيجتها اخضاع أرمينية بكاملها لحكم المسلمين. وإعادة فتح الرها. ومارس الأرمن إدارة بلادهم تحت إشراف المسلمين. وأقامت حامية تركية في الرها للمحافظة على الأمن في هذا الاقليم المضطرب. وبقي الأرمن في الرهاء كما في غيرها نهباً لولاء مزدوج، بين الولاء للترك المسلمين الذين ضمنوا لهم الحماية والاستقلال الاداري، وبين التبعية للروم بحكم الخضوع للكنيسة الارثوذكسية، غير أنهم لم يكونوا في الحالين بمعزل عن التحريض الصليبي القادم من الغرب. وقد جابه الأرمن موقفاً حرجاً سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م. عندما توفي بهرام ـ أو فيلارتيوس ـ الذي نجح في إقامة كيان شبه مستقل للأرمن، فتمزقت إمارة أرمينية وتوزعت على مجموعة من الإمارات الصغرى التي كان من أبرزها إمارة الرها التي خضعت لحكم (ثوروس) وإمارة ملطية التي حكمها صهره (جبريل). وكانت تبعية هؤلاء الأمراء لكنيسة الروم الارثوذكسية، وعدم اتباعهم للكنيسة الأرمنية الانفصالية، سبباً

من أسباب ضعفهم أمام شعبهم الأرمني. فحاولوا دعم ضعفهم بالتحالف مع الأتراك المسلمين المجاورين لهم. وأظهر (ثوروس) كفاءة عالية في تأجيج نار العداء بين الروم وبين المسلمين.

وهكذا وبينما كان جبريل قد أرسل زوجته في سفارة إلى بغداد لتظفر باعتراف أعلى سلطة إسلامية، كان أوشين بن هيثوم الذي أقام إمارته إلى الغرب من أبواب قليقية وجعل من قلعة لامبرون المنيعة مقراً له، نظراً لوقوع هذه القلعة على نشز يطل على جبال طوروس وسهل قليقية، قد تابع توطيد ارتباطه بالقسطنطينية. أما قسطنطين ابن روبين والذي امتدت امارته نحو الشرق حيث جبال طوروس، فقد جعل من قلعة (بارتزربرت) الواقعة الى الشمال الغربي من سيس قاعدة له، وقد تابع هذا بدوره ارتباطه بكنيسة أرمينية الانفصالية، فكان من أشد أنصارها [1]. وتجدر الإشارة هنا إلى توجه أسقف أرمني إلى روما ـ قبل عشرين سنة من وقوع الغزو الصليبي، ليظفر بدعم البابا غريغوري السابع. وحمل البابا على التفكير بارسال حملة لانقاذ العالم المسيحي في الشرق. وقد أبرز ذلك ميل أمراء الأرمن. ـ حتى من كان يحمل منهم ألقاباً أو أسماء بيزنطية ـ للتحالف مع الغرب. ولكن من المعروف أن أمبراطور الروم البيزنطيين ـ الكسيوس ـ قد حرص على الزام قادة الحملة الصليبية الأولى على القسم باعادة ما يتم فتحه من أقاليم الروم التي حكمها المسلمون الى حكم الروم، ولما كانت أرمينية خاضعة لحكم الروم ـ ولو نظرياً ـ. فقد كان لا بد لقادة الحملة الصليبية من إعادة الإمارات الأرمنية الى حكم الروم. هذا فيما كان أمراء الأرمن يستخدمون كافة الوسائل للحصول على السيادة الاقليمية. ولم يكن من المهم بالنسبة لهؤلاء من أن تكون هذه السيادة بضمان من الفرنج الصليبيين، أو تحت اشراف امبراطور الروم ـ الكسيوس ـ. أو حتى بالتحالف مع الترك المسلمين.

خصص امبراطور الروم مجموعة من الأدلاء لمرافقة الحملة الصليبية. وقد ظهر فضل هؤلاء الأدلاء الذين توافرت لهم الخبرة بقتال الأتراك المسلمين، إذ لو لم يقوموا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٧٧ - ٣٠١.

بارشاد الصليبيين، ولو لم يقدموا لهم النصيحة الصادقة، لما استطاع هؤلاء أن يشقوا لهم طريقاً عبر آسيا الصغرى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد قدم الأرمن مساعدات ضخمة للفرنج الصليبيين خلال تقدمهم. وكان (بلدوين البولوني)[1] قد أظهر منذ البداية اهتماماً بأمر أرمينية، وضم لحملته بعض كبار رجال الأرمن، وسار نحو الشرق. فاستقبله الأرمن في قيصرية وكومونا وكوكسن استقبالاً حافلاً. وقدم الأرمن مساعدة كبيرة للفرنج مما ساعدهم على الوصول الى طرسوس والمصيصة ومرعش وعينتاب. وهناك ثمة شك كبير في أن يكون بلدوين قد أعد خطة مسبقة لإقامة إمارة صليبية على نهر الفرات تكون ذات فائدة له وللحركة الصليبية بكاملها. غير أن ما قدمه الروم والأرمن من مساعدة، وما شاهده في بلاد الأرمن من الغنى والثراء، قد أغراه على متابعة تقدمه نحو الشرق. وكان أمير ملطية - جبريل - قد التمس على الأرجح المساعدة من الفرنج، كما أن صاحب الرها - ثوروس - كان على اتصال مستمر بالفرنج. وهكذا، وبينما كان بلدوين في تل باشر، قدمت إليه سفارة من الرها، تستعجله للتحرك في مسيره، فقد انتاب - ثوروس - القلق عندما علم بأن امير الموصل - كربوقا - قد أخذ في حشد جموع المسلمين لنجدة أنطاكية، وأن بامكان - كربوقا - ازالة الرها وسائر الامارات الأرمنية الواقعة في طريقه - دونما جهد كبير أو عناء.

ولكن بلدوين أظهر التمهل والتريث، فهو لن يذهب إلى الرها إلا بالشروط التي تلائمه. وظهر بوضوح أن ثوروس كان يأمل في استخدام بلدوين، على أنه من المرتزقة، بما يبذله له من الأموال. وما يغمره به من المنح والهدايا الثمينة. في حين كان بلدوين، ولو أنه من المرتزقة، يطمع بالحصول على ما هو أكثر من ذلك. وتلقت سفارة الرها في تل باشر تفويضاً بزيادة قيمة العرض - وأن - ثوروس - على

---

(١) بلدوين البولوني: (BAUDOUIN-DE-BOULOGNE) دوق اللورين الأسفل (١٠٦١ - ١١٠٠م) وهو أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. أقام إمارة للفرنج الصليبيين في الرها، ثم أصبح ملكاً للقدس. وهو شقيق جيودفري دوبويون البولوني: GODEFROY-DE-BOUILLON الذي أصبح أول ملك لمملكة القدس الصليبية بعد استيلاء الفرنج عليها. فلما مات سنة ١١٠٠م. تم استدعاء شقيقه بلدوين، وجرى تنصيبه ملكاً على القدس.

استعداد لتبني بلدوين وجعله ابناً له ووريثاً. وأن يشاركه في حكم بلاده. ووافق بلدوين على العرض، وغادر - تل باشر - سنة ٤٩٤ هـ. ووصل إلى الرهـا يوم ٦ شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨ م. فاستقبله الأرمن بحماسة مثيرة، وأقام - ثوروس - على الفور مراسم تبني ثوروس[١]. غير أن هذا التبني لم يمنع بلدوين من تنظيم مؤامرة لإشعال نار الثورة ضد ثوروس وقتله (يوم ١٠ - آذار - مارس - سنة ١٠٩٨ م. أي بعد شهر فقط من دخول بلدوين إلى الرهـا). وأصبح بلدوين أميراً على الرهـا. وارتاع أمير سميساط (بالدك أو بلق) حينما علم بارتقاء بلدوين عرش الرهـا، فأرسل فوراً إلى بلدوين وعرض عليه بيع إمارته له مقابل عشرة آلاف دينار. وقبل بلدوين بهذا العرض، فقد وجد في الرهـا كميات مذهلة من الثروة والأموال والجواهر. فدفع المبلغ ودخل سميساط منتصراً بأموال الرهـا. ثم ما لبث أن غدر ببالدك - أو بلق - واتهمه بالتآمر ضده وقتله.

هكذا تشكلت إمارة - كونتية - الرهـا، لتكون الإمارة الصليبية الثانية للفرنج بعد أنطاكية، ولتصبح الحاجز الذي يحمي أنطاكية من المسلمين، وقد بلغت من المساحة والاتساع مازادت به على إمارة أنطاكية حيث امتدت أملاكها على جانبي نهر الفرات: من راوندان وعينتاب إلى موضع غير معروف بالجزيرة الشامية - الى الشرق من مدينة الرهـا -. وقد افتقرت الرهاء إلى الحدود الطبيعية قدر افتقارها إلى التجانس بين سكانها، إذ كان هؤلاء يتألفون أساساً من المسيحيين - من السريان اليعاقبة والأرمن -. كما دخل في نطاقها مدن اسلامية مثل: سروج. ولم يأمل الفرنج الصليبيون في أن يقيموا بالرهاء حكومة مركزية، واستعاضوا عن ذلك بما شيدوه من حصون منيعة شحنوها بالعساكر. ومن هذه الحصون تولى الجند جباية الضرائب والجزية

---

(١) وردت قصة هذا التبني في تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٩١ - كما يلي: (وفقاً لشعائر الأرمن - وقتذاك - تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبني ما يلائم طفلاً صغيراً، لا شخصاً مكتمل الرجولة، إذ تجرد بلدوين من ثيابه - حتى الوسط - بينما ارتدى ثوروس قميصاً بلغ من الاتساع أن دخل فيه بلدوين، وأخذ كل من الوالد الجديد والابن الجديد، بحك صدره في صدر الآخر، وكرر بلدوين الاحتفال مع الأميرة - زوجة ثوروس».

من القرى الإسلامية المجاورة. واستطاعوا أن يشنوا الغارات على ما يلي الحدود من الأقاليم الإسلامية، فظفروا منها بالكسب والغنيمة. وكانت هذه المنطقة بكاملها تعتبر اقليم حدود. فتعرضت لحروب متصلة. ومع ذلك فقد اشتملت على أراض خصبة ومدن مزدهرة. وإن ما حصل عليه أمير ـ كونت ـ الرهـا من الضرائب ومن الغنائم قد ضمن له مورداً مالياً وافراً، زاد على ما أحرزه ملك القدس من الأموال والثروات[1]. على أن هـذه الأمـوال والموارد لم تكـن لتضمـن لمدينـة (الرهـا) [2] وإمارتها، الأمن والاستقرار. حيث بقيت من أكثر امارات الفرنج الصليبيين هيجاناً واضطراباً.

لقد ظهر للفرنج الصليبيين في بداية الأمر أن كل شيء هو على أحسن صورة وأبهج منظر. فقد اتخذ بلدوين لنفسه لقب كونت الرهـا. وبات واضحاً أنه قد بدأ العمل ليتفرد بالحكم، وأنه لا أهمية عنده لليمين التي حلفها للامبراطور البيزنطي الكسيوس. وكان لنجاح بلدوين صداه الواسع في وسط قوات الفرنج الصليبيين. فما إن انتشر خبر قيام ـ كونتية الرهاء ـ حتى عمل كثير من فرسان الغرب وهم في طريقهم لدعم الجيش الصليبي في أنطاكية، على تغيير اتجاههم والسير الى الرهاء لمشاركة بلدوين حظه من النجاح ونصيبه من الثروة، بينما تخلى آخرون عن حصار أنطاكية العنيف، ولحقوا ببلدوين الذي كافأهم بما ضمته خزائن الرهـا من الهدايا الثمينة والمنح السخية وذلك من أجل إغرائهم على الإقامة بالرهـا، كما شجعهم على الزواج بالأميرات الأرمنيات، وجعل من نفسه نموذجاً لهم، فتزوج من ابنة أحد زعماء الأرمن. أما الأرمن ذاتهم فقد خاب أملهم باخوانهم في الدين، إذ كرهوا تدفق فرسان الفرنج إلى ممتلكاتهم. وزاد من الكراهية سلوك الفرنج الذين أخذوا في معاملة الأرمن بالازدراء والاحتقار، بل وحتى استخدام العنف معهم في كثير من الأحيان. واكتشف أعيان الأرمن أنه جرى استبعادهم من مجلس الكونت بلدوين، حيث اقتصر التمثيل فيه على

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٥.

(٢) الرهاء: (EDESSA) وهي اليوم بتركيا وتحمل اسم اورفة: (URFA).

الفرنج. وزاد الأمر سوءاً بزيادة الضرائب التي فرضها بلدوين وبالاضافة الى ذلك، فقد تقرر منح ضياع وقرى الأرمن في الريف إلى الفرنج القادمين حديثاً. فتحول الفلاحون الأرمن إلى أقنان ـ عبيد ـ للسادة الفرنج، وفقاً لما كان سائداً في الغرب من عرف اقطاعي بالغ المتانة والشدة. ولما حاول أعيان الرهـا تنظيم مؤامرة ضد الفرنج الصليبيين، بالتعاون مع المسلمين في ديار بكر، أسرع بلدوين فأمر بالقبض على الزعماء المتآمرين، وسمل عيونهم وجدع أنوفهم وقطع أرجلهم، كما ألقى بالسجن عدداً كبيراً من الأرمن الذين حامت الشبهات بشأن اشتراكهم في المؤامرة. وتقرر مصادرة أموالهم. واستذكر الأرمن بعاطفة قوية أيام ثوروس وجبريل وغيرهما من الزعماء الذين توافر لهم من الخبرة والتجربة في الحكم ما ضمن لهم المحافظة على استقلال الأرمن على الفرات، وفي وسط المسلمين، وإذا كانت جماهير الأرمن قد أنكرت جهود قادتها في السابق، وكرهت دولة الروم البيزنطيين، وأظهرت استعدادها للتسامح مع اللاتيني، وأن تغفر له إلحاده وما كانت تنكره دائماً على اليوناني، فانه لا ينبغي لهذه الجماهير إلا أن تلوم نفسها إذا ما جرها أصدقاؤها ـ أو إخوانها في الدين ـ من الفرنج، الى الكارثة ـ.

لقد امتلك الفرنج الصليبيون (الرهـا) بمكاتبة أهلها لهم، واتصالهم بهم، ذلك لأن أكثرهم من الأرمن، وليس بها إلا قليل من المسلمين. فلما كانت سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م عمل سقمان أمير سروج على حشد جمع كبير من التركمان ـ الأراتقة ـ وسار بهم الى الرهـا. فقاتله الفرنج، وهزموه. وساروا الى سروج فحصروها وتسلموها وقتلوا كثيراً من أهلها، وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[١] فلما كانت سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م، سار الفرنج إلى حران وحصروها. ولما علم معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش، أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه الى الاجتماع معه لتلافي أمر حران، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه. فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا، وسارا إلى لقاء الفرنج. وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة: ٤٩٤.

فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر بليخ. وكان المصاف بينهم هناك، فاقتتلوا، فأظهر المسلمون الانهزام، فتبعهم الفرنج نحواً من فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة، لأن سواد الفرنج كان قريباً. وكان بيمند ـ بوهمند ـ صاحب انطاكية، وطنكري ـ تانكرد ـ صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا من وراء ظهور المسلمين إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين وسوادهم منهوباً. فأقاما إلى الليل، وهربا، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك، وأفلتا في ستة فرسان. وكان القمص بردويل ـ بلدوين ـ صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم، وخاضوا نهر البليخ، فوحلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم أسرى، وحملهم إلى خيم سقمان. وأما جكرمش فإنه سار إلى حران، فاستعادها واستخلف بها صاحبه، وسار الى الرها، فحصرها خمسة عشر يوماً، ثم عاد إلى الموصل. وكان عدة القتلى من الفرنج أثني عشر ألف قتيل [1].

مضى على الرها زها ست وأربعين سنة وهي تحت حكم الفرنج الصليبيين، وشهدت خلال هذه الفترة صراعات قاسية ومعارك كثيرة، منها تلك الحرب التي وقعت بين امارتي الفرنج: أنطاكية والرها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٦ م) ومنها عودة المسلمين لحصار الرها سنة ٥٠٥ هـ = ١١٠٩ م. وكذلك ما حدث سنة ٥١٢ هـ = ١١١٦ م عندما تعاون الأرمن مع المسلمين ضد الفرنج. على أن أكثر الأحداث اثارة هو ما حدث سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م حيث وقع أمير الرها ـ جوسلين ـ أسيراً في قبضة المسلمين. ففي هذه السنة، خرج جوسلين وصاحب البيرة واليران راكبين في جماعة من الفرسان ـ قليلة العدد ـ ووصلا إلى قرب سروج، حيث التقيا بجماعة من الترك المسلمين. فهاجموهم، غير أن ما هطل من المطر الغزير عمل على تحويل المنطقة الى بحيرة من الطين ـ الوحل ـ. فانزلقت الخيول وتعثرت، ولم يجد التركمان المتخففون صعوبة في تطويق الفرنج وأسر جوسلين وواليران. وتظاهر الفرنج الصليبيون في الرها بعدم تأثرهم لأسر أميرهم، وعملوا على تطوير اغاراتهم على الأراضي

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٩/٢ ـ ٧٥ ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة: ٤٩٧ هـ.

الإسلامية المجاورة لهم. ووقع عبء أسر جوسلين على ملك القدس ـ بلدوين ـ الذي اضطر لرعاية شؤون إمارة الرهـا، فسار إليها في السنة التالية، وأعاد تنظيم الإدارة فيها، ثم خرج ليستطلع المكان الذي أسر فيه جوسلين، غير أنه وجد نفسه مطوقاً بفرسان المسلمين، فلقي معظم أفراد جيش بلدوين مصرعهم، ووقع الملك نفسه أسيراً. فجرت معاملته بما يليق به من الاحترام، وتقرر إرساله ليلحق بجوسلين في مقر اعتقاله ـ في قلعة خرتبرت ـ ولكنه تمكن بعد فترة من الفرار.

تعاظم ضرر الفرنج فعم بلاد الجزيرة، واستطار شرهم فوصلت إغارات جيش الرهـا إلى أقاصي البلاد ـ فبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت بلاد الرهـا في هذه الفترة تمتد من قرب ماردين إلى الفرات مع ما خضع لحكم الفرنج من غربي الفرات. وقد تمكن جوسلين ـ بعد فراره ـ من ضبط حكم إمارته بما اشتهر به من الشجاعة والمكر.

قرر أمير الموصل أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر فتح مدينة الرهـا، ووضع حد لشرور الفرنج واستفزازاتهم.

وكان يعرف أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج من يحميها ويمنعها، فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة والقوة. فتظاهر بالانصراف الى ديار بكر ـ لخداع الفرنج، وأنه غير متفرغ لقتالهم. فلما رأوه أنه غير قادر على ترك ملوك ديار بكر ـ الأراتقة ـ وانشغاله بحربهم، اطمأنوا. وخرج جوسلين فغادر الرهـا وعبر الفرات الى بلاد الغربية، فجاءت عيون أتابك ـ جواسيسه ـ فأخبروه الخبر، فنادى في العسكر بالرحيل، وأن لا يتأخر عن الرهـا أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده وقال لهم:

« هاهو الطعام، ولا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً على باب الرهـا ».

وسار العسكر معه، ووصل إلى الرهـا، وكان هو أول من حمل على الفرنج، فكاد يقتله فارس من الفرنج لولا أن بادر أحد مجاهدي المسلمين فقتل فارس الفرنج وأنقذ أتابك عماد الدين الذي نازل الرهـا وقاتل أهلها ثمانية وعشرين يوماً. وزحف إليها

عدة دفعات، وقدم النقابين فنقبوا أسوار البلد، ولجّ في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج ومسيرهم إليه واستنقاذ البلد منه. فسقطت البدنة ـ الدعامة ـ التي نقبها النقابون. وأخذ البلد عنوة وقهراً، وحصر قلعتها فملكها أيضاً، ونهب الناس الأموال، وسبوا الذرية. وقتلوا المقاتلة. فلما رأى أتابك عماد الدين الرهـا أعجبته، ورأى أن تخريبها هو أمر غير جائز في السياسة، فأمر فنودي بالعساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر، فعاد البلد على حاله الأول، وجعل فيه عسكراً لحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت قد خضعت للفرنج في شرقي الفرات (سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م). وأقام أمير الرهـا السابق ـ جوسلين ـ بتل باشر، وجعلها مقراً لحكم ما يجاور تل باشر، وشرع في ارسال الرسائل إلى أهل الرهـا وعامتهم من الأرمن، وأخذ في تحريضهم على العصيان والتمرد ضد المسلمين وتسليم البلد إليه، فأجابوه إلى ذلك. وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، وسار في عساكره الى الرهـا (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) وتمكن من اقتحام البلد غير أن القلعة وحاميتها من المسلمين استمرت في مقاومتها. وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي ـ وهو بحلب ـ فسار مجداً إليها في عسكره. فلما قاربها خرج جوسلين هارباً وعاد إلى بلده ـ تل باشر ـ ودخل نور الدين الرهـا، ونهبها حينئذ وسبى أهلها. فخلت الرهـا من أهلها الأرمن. ودفعت الرهـا الثمن غالياً لقاء ما قدمته للفرنج من دعم ومساعدة. فقتل المسلمون كل من حمل السلاح. ولم يبق على قيد الحياة منهم أحد، إلا من وقع في السبي من نسائهم وأطفالهم. وتقرر إخراج كل سكان الرهـا المسيحيين وأبعادهم إلى المنفى. فأضحت المدينة الكبيرة ـ الرهـا ـ التي زعم الفرنج الصليبيون أنها أقدم مدن المسيحيين في العالم، خاوية موحشة، ولم تسترد مكانتها بعد ذلك أبداً. وكانت هذه أول ثمرة من ثمار الحملات الصليبية على بلاد الشام والتي جاءت بحجة انقاذ المسيحيين. فكانت وبالاً عليهم وكارثة لهم. [1].

---

(١) الكامل في التاريخ احداث سنة ٥٣٩ واحداث سنة ٥٤١ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٣٧٧ - ٣٨٨.

تردد صدى إعادة فتح المسلمين للرهـا في جميع بلاد العالم الغربي والشرقي. فتجدّد أمل المسلمين بعد أن تحطمت إمارة صليبية جاءت دخيلة في جوف بلادهم. واقتصر وجود الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وجرى تطهير الطرق الممتدة ما بين الموصل وحلب من الفرنج. وتم انتزاع الأسفين الذي دقه الفرنج بين الترك في بلاد فارس والترك في الأناضول. وحاز زنكي عن جدارة لقب (الملك المنصور - أو الغازي). ومقابل ذلك، أدى طرد الفرنج من الرهـا الى تدهور روحهم المعنوية، وأثار خوفهم وقلقهم، وشكل صدمة كبيرة للفرنج الصليبيين في أوروبا. إذ أدركوا، ولأول مرة، ضعف البنيان الصليبي الذي أقاموه في بلاد المشرق. وأرسلت ملكة القدس - ميليسيند - فور سماعها خبر فتح المسلمين للرهـا رسولاً الى انطاكية للتشاور مع حكومتها فيما يجب عمله، ولارسال سفارة الى روما لتنهي هذا النبأ الى البابا، واظهار ضرورة توجيه حملة صليبية جديدة. ولم يتأخر ردّ فعل اوروبا عـلى فتح الرهاء. فجاءت الحملة الصليبية الثانية (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م). ولكن هذه الحملة لم تتمكن من إعادة العجلة الى الوراء.

٤ ـ قلعة المضيق ـ أفامية ـ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (١) صدق الله العظيم.

تلك هي قصة الحياة على الأرض، وتلك هي أيضاً قصة قلعة أفامية. التي تشكلت عبر الأزمنة الغابرة السحيقة، كلما ذهبت قرون، جاء من بعدهم آخرون مشوا في مساكنهم، وعمره فوق ما عمره السابقون، حتى إذا ما أذهبهم الله واستبدلهم بآخرين، جاء قوم في أعقاب من سبقهم. وهكذا، فكلما كشف الباحثون عن مساكن لفترة معينة، ظهر لهم مساكن أقدم وبيوت أعتق. ولعل ما هو أكثر وضوحاً من بين تلك الآثار، تلك التي تركها ملك الفرس (كسرى الأول) (٢) الذي دمر ـ أفامية ـ (٣) عندما أجتاح بلاد الشام في حروبه ضد الروم البيزنطيين سنة ٨٦ ق.هـ = ٥٤٠ م. حيث كانت أفامية إحدى تلك الليمات ـ القلاع ـ التي كان يستند إليها الروم في حروبهم ضد إغارات العرب وضد هجمات الفرس. إذ كانت الدولتان العظميان الفرس والروم في حالة حرب دائمة ـ مسرحها الأساسي هو بلاد الشام والعراق ـ وتذكر المصادر التاريخية أن العرب المسلمين لما

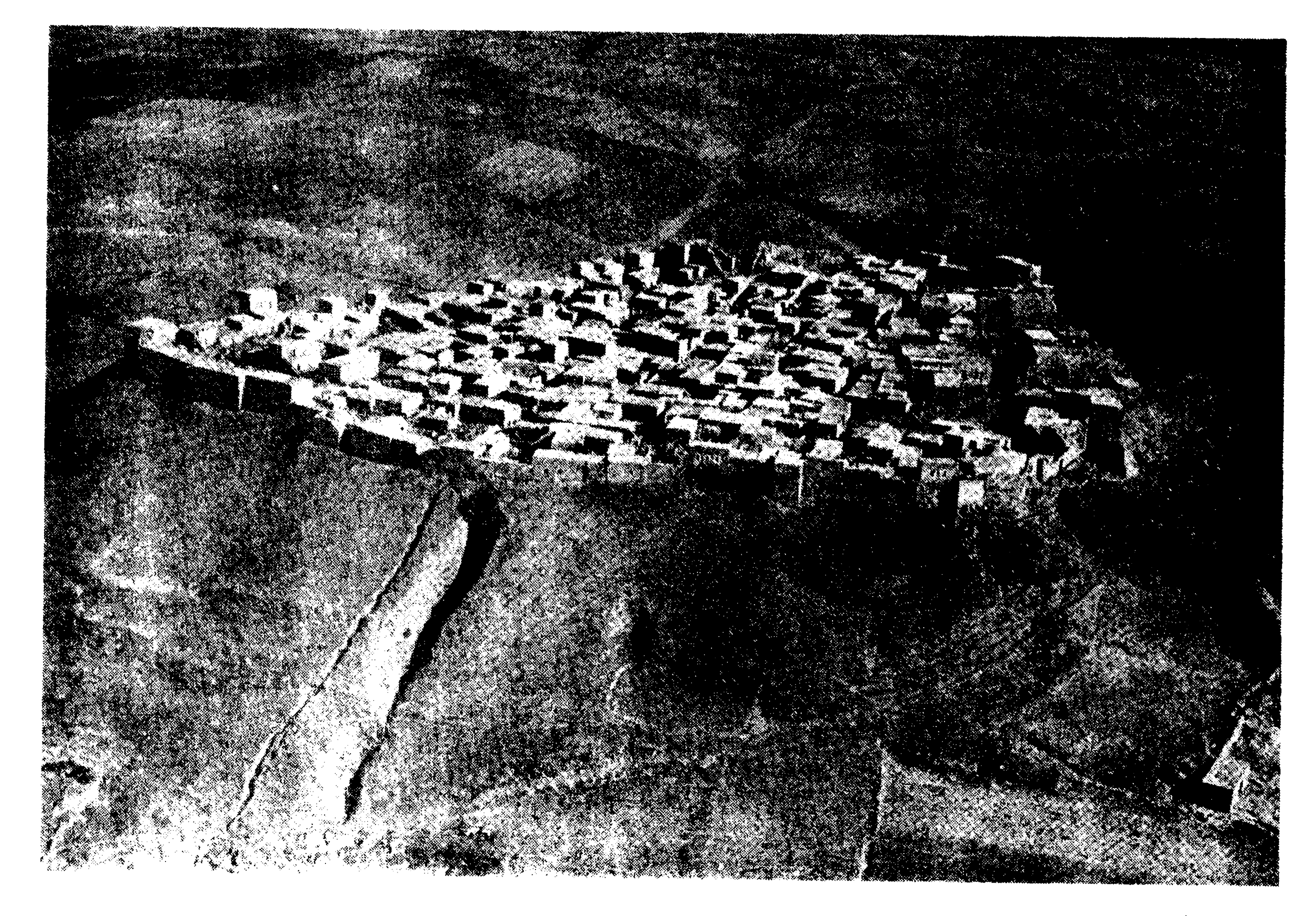
---

(١) الجزء الحادي والعشرين ـ سورة السجدة ـ الآية: ٢٦.

(٢) كسرى الأول: (KHOSROSES I -LE GRAND) ملك من ملوك الفرس، من سلالة الساسانيين، حكم بلاد الفرس من سنة ٥٣١ حتى سنة ٥٧٩ م. قاد حروباً ظافرة ضد الروم. وجاء بعده كسرى الثاني: (٥٧٩ ـ ٦٢٨ م) أي أنه مات بعد الهجرة بست سنوات. وهو الذي انتصر على هرقل، ثم انتصر عليه هرقل في قصة الرهان المعروفة التي راهن فيها أبو بكر رضي الله عنه على انتصار الروم ـ فنزلت الآية الكريمة: ﴿ألم * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ صدق الله العظيم ـ الجزء الحادي والعشرين ـ الروم ـ الآية: ١ ـ ٤.

(٣) أفامية: (AFÂMIYA) والاسم القديم أباميا APAMEA وبالفرنجية أفامية AFAMIA أو الأفامي LA FAMIE.





قلعة المضيق

فتحوا بلاد الشام والعراق قد أفادوا من البقايا القديمة لهذه القلعة ـ حجارتها ـ فنقولها وشيدوا بها مدينة ـ سامراء (أو سر من رأى)[1]. وأفامية هي مدينة صغيرة محصنة في الشعاب الجنوبية الغربية المرتفعة في شمالي بلاد الشام، وهي تربض فوق تلة صخرية معزولة تطل على وادي نهر العاصي المستنقعي (الغاب) ويعتقد أن المستوطنة التي كانت قائمة في العصور الوسطى كانت تشغل منطقة المدافن من أفامية القديمة. وهو بالذات موقع المستوطنة الأقدم، لأن التل الذي تقوم عليه المدينة الحالية مدين بلا شك بقسم من ارتفاعه إلى الأطلال التي تركها المستوطنون على مرّ العصور وتتألف دفاعات القرون الوسطى من سور خارجي بسيط مدعم بأبراج زاوية مستطيلة، والبوابة الرئيسة في الجنوب التي حصنت تحصيناً قوياً بإضافة برجين ضخمين إليها. ولقد شيدت التحصينات بأكملها تقريباً من مواد أخذت من المباني القديمة. وقد حملت القلعة اسم (قلعة المضيق) في القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي على ما يعتقد، ذلك أن المصادر العربية أيام الحروب الصليبية القديمة لا تذكرها إلا باسم (فامية ـ أو أفامية). وقد وصف أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة أفامية بقوله: «يقال لفامية ـ أو أفامية ـ بزيادة الهمزة في أولها، وهي مدينة قديمة. ويطلق هذا الاسم على كورتها ـ ناحيتها ـ أيضاً. وفامية قرية من قرى فم الصلح من نواحي واسط أيضاً ـ. وقال في العزيزي: وكورة فامية لها مدينة كانت عظيمة على نشز من الأرض. ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب المعروف بنهر العاصي».

عندما اجتاحت جحافل الفرنج الصليبيين بلاد الشام. شرع أمير انطاكية ـ الكونت بوهمند ـ[2] على الفور ببذل جهوده لتوسيع حدود إمارته على حساب بلاد المسلمين، فهاجم أفاميه (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) ولكنه فشل في الاستيلاء

---

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية: ٧٠ و ٧١.

(٢) بوهمند: (BOHEMOND) اسم حمله عدد من امراء النورمان من عائلة هوتفيل. أمراء انطاكية واللاذقية وطرابلس، وأولهم بوهمند الأول الذي ولد سنة ١٠٥٢ ومات سنة ١١١١ م. وهو ابن روبرت جيسكار الذي تولى قيادة في الحملة الصليبية الأولى، وتزوج من إبنة ملك فرنسا فيليب الأول ـ واسمها كونستانس ـ وهو الذي استولى على قلعة أفامية.

عليها. وكان عليه الانتظار حتى سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م إلى أن تمكن من ضمها لممتلكاته، مستفيداً من التناقضات والصراع بين المسلمين والباطنية ـ الاسماعيلية ـ فاستولى على أفامية، وجعلها قاعدة متقدمة للعدوان على بلاد المسلمين، وقد ذكرت المصادر العربية قصة استيلاء الفرنج على أفامية بما يلي: « ملك الفرنج حصن أفامية من بلد الشام سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكلابي كان متغلباً على حمص، وكان الضرر به عظيماً، ورجاله يقطعون الطريق، فكثر الحرامية ـ اللصوص ـ عنده. فأخذها منه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنها. فتقلبت به الأحوال إلى أن دخل إلى مصر الفاطميين، فأقام بها. واتفق أن المتولي لأفامية من جهة رضوان بن تتش أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، يستدعي من يسلم إليه الحصن، الذي هو من أمنع الحصون. وطلب ابن ملاعب منهم أن يكون هو المقيم به، وقال: إنني أرغب في قتال الفرنج وأوثر الجهاد. فسلموه إليه وأخذوا رهائنه. فلما ملكه خلع طاعتهم ولم يرع حقهم. فأرسلوا إليه يتهددونه بما يفعلونه بولده الذي هو عندهم. فأعاد الجواب: إنني لا أنزل من مكاني، وابعثوا إليّ ببعض أعضاء ولدي حتى آكله، فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة. وأقام بأفامية، يخيف السبيل ويقطع الطريق، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله. ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب ـ وأهلها من الغلاة في التشيع ـ. فلما ملكها الفرنج تفرق أهلها. فتوجه القاضي الذي بها إلى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه ابن ملاعب وأحبه ووثق به، فأعمل القاضي الحيلة. وكتب إلى أبي طاهر المعروف بابن الصائغ ـ وهو من أعيان أصحاب الملك رضوان ووجوه الباطنية ـ الاسماعيلية ـ ودعاتهم، واتفق معه على الفتك بابن ملاعب، وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان. فظهر شيء من هذا. ووصل إلى ابن ملاعب أولاده، وكانوا قد تسللوا إليه من مصر. وقالوا له: قد بلغنا عن هذا القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر وظهر. فأحضر ابن ملاعب، فأتاه في كمه مصحف، لأنه رأى أمارات الشر. فقال له ابن ملاعب ما بلغه عنه. فقال القاضي: أيها الأمير! قد علم كل أحد أني أتيتك خائفاً جائعاً، فأمنتني وأغنيتني وعززتني، فصرت ذا مال وجاه، فإن كان بعض من حسدني

على منزلتي منك، وما غمرني من نعمتك، سعى بي إليك، فأسألك أن تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، وحلف له على الوفاء والنصح، فقبل عذره وأمنه. وعاد القاضي إلى مكاتبة أبي طاهر بن الصائغ. وأشار عليه أن يوافق رضواناً على إنفاذ ثلثمائة رجل من أهل سرمين، وينفذ معهم خيولاً من خيول الفرنج، وسلاحاً من أسلحتهم، ورؤوساً من رؤوس الفرنج، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه لهم، وأنهم فارقوه فلقيهم طائفة من الفرنج فظفروا بهم، ويحملون جميع ما معهم إليه. فإذا أذن لهم في المقام، اتفقت آراؤهم على إعمال الحيلة عليه.

ففعل ابن الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية، وقدموا إلى ابن ملاعب بما معهم من الخيل وغيرها، فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده، وأنزلهم في ربض أفامية. فلما كان في بعض الليالي نام الحراس بالقلعة، فقام القاضي ومن بالحصن من أهل سرمين، ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم، وقصد أولاد ابن ملاعب وبني عمه وأصحابهم فقتلوهم. وهرب ابنا ـ ابن ملاعب ـ فقتل أحدهما، والتحق الآخر بأبي الحسن بن منقذ ـ صاحب شيزر ـ فحفظه لعهد كان بينهما. ولما سمع ابن الصائغ خبر أفامية سار إليها، وهو لا يشك أنها له، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فبالرحب والسعة ونحن بحكمك، وإلا فارجع من حيث جئت. فأيس ابن الصائغ منه. وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق ـ عند حاكمها طغتكين ـ وهو غضبان على أبيه. فولاه طغتكين حصناً بعد أن تعهد بالمحافظة على الأمن ـ ولكنه لم يفعل، وقطع الطريق وأخذ القوافل، فاستغاث الناس إلى طغتكين منه. فأرسل من طلبه، فهرب إلى الفرنج، واستدعاهم إلى حصن أفامية، وقال لهم: ليس فيها غير قوت شهر، فأقاموا عليها يحاصرونها، وجاع أهلها، وملكها الفرنج. وقتلوا القاضي المتغلب عليها، وأخذوا ابن الصائغ وقتلوه ـ وكان هو الذي أظهر مذهب الباطنية ـ الاسماعيلية ـ بالشام »[1].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة تسع وتسعين وأربعمائة ـ.

لم يكن النقص في المواد التموينية هو الذي أغرى أمير أنطاكية ـ بوهمند ـ بالهجوم على أفامية واحتلالها. كذلك لم يكن الحصار المتطاول هو الذي أدى إلى سقوط أفامية في قبضة الفرنج. ولكن بوهمند عرف أن أفامية قد باتت معزولة عن محيطها الإسلامي، وأنه ما من أحد سيسرع لنجدتها إذا ما عمل على مهاجمتها. ولهذا قام بقيادة قواته واستولى عليها، ثم استخدامها قاعدة متقدمة للهجوم منها على ما يجاورها من مدن المسلمين وقراهم. ففي سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م جمع المسلمون جموعهم ونزلوا على نهر العاصي. وجمع الفرنج جموعهم. وتم اللقاء قرب قلعة شيزر. وبدأت قوات المسلمين باستثارة الفرنج واستفزازهم لحملهم على خوض المعركة. ولما عرف الفرنج قوة المسلمين أحجموا عن القتال، ورجعوا إلى أفامية. وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه من ساقتهم ـ مؤخرتهم ـ وهذا ما تكرر حدوثه أيضاً سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م. إذ حشد الفرنج حشودهم بقيادة ملوك وأمراء انطاكية وطرابلس والقدس وغيرهم من شياطين الفرنج. فلما رأوا كثرة حشود المسلمين، اتفق رأيهم على ترك اللقاء. وقالوا إنهم عند قدوم الشتاء سيتفرقون. واجتمعوا بقلعة أفامية، وأقاموا نحو شهرين. فلما انتصف شهر ايلول ـ سبتمبر ـ ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا. ولما تولى أمير حلب نور الدين محمود بن زنكي قيادة الجهاد في سبيل الله، قدر خطورة أفامية، فقرر إعادة فتحها وطرد الفرنج منها، وقاد جيشه سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م وخاض معركة حاسمة ضد جيش أنطاكية، فقتل أميرها ـ بوهمند ـ إذ كان عاتياً من عتاة الفرنج. حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) قاد نور الدين جيشه إلى حصن أفامية فحصره وقاتل الفرنج، وضيق على من بها منهم، فاجتمع من بالشام من الفرنج، وساروا نحوه ليبعدوه عنهم.

فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً وجميع ما يحتاج إليه. فلما علم نور الدين بسير الفرنج إليه، رحل عن أفامية، وقد فرغ من أمر تحصينها. وسار إليهم يطلبهم، فحين رأوا أن الحصن قد ملك، وعرفوا تصميم نور الدين على لقائهم، عدلوا عن طريقه، ودخلوا بلادهم، وراسلوه في المهادنة وعاد سالماً مظفراً. ومدحه

الشعراء. وذكروا هذا الفتح. وأشادوا به.[1]

وعادت أفامية إلى أهلها. وكان طرد الفرنج من أفامية هو بداية التحول الحاسم، إذ وجد المسلمون في أنفسهم القدرة على مجابهة الفرنج بقوة أكبر من قواتهم، وما هي إلا سنوات حتى طرد الفرنج من عدد كبير من قلاع شمال بلاد الشام. نجح المسلمون بطرد الفرنج من أفامية ولما تتجاوز مدة احتلالهم لها أكثر من أربع وأربعين عاماً وإن وجود بعض الحجارة التي وضعها الفرنج (الآثار) لا يشكل دليلاً على رسوخ قدم الفرنج الصليبيين في بلاد الشام، شمالها وجنوبها. فهذه الفترة القصيرة لا تشكل شيئاً من عمر الزمن، وهي فترة طارئة تؤكد أن بلاد الشام التي أطلقت جيوش الفتح الإسلامي خلال العهد الأموي، ما كانت إلا قاعدة ثابتة وقوية للعرب المسلمين. وإن طرد الفرنج منها إنما هو البرهان على أنه لا مكان للغزاة فيها. وأنه لا مكان فيها إلا للإسلام وأهله.

تناوبت يد الأحداث - أفامية - بعد ذلك، وضربتها الزلازل ثلاث مرات متواليات، وكان المسلمون يسرعون في كل مرة لاصلاحها وترميمها ودعم أسوارها وتحصيناتها حتى إذا ما فرغوا من انجاز أعمالهم جاءتها الضربة التالية فأنزلت فيها الدمار. وبقيت أفامية صامدة في وجه أحداث الزمن. ثم جاءها المغول التتار، فاجتاحوها ودمروها كمثل تدمير الزلازل والأعصار، وذلك على نحو ما فعلوه في كل مكان. ويذكر أنه حدث في سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. أن قام المغول التتار بقيادة أباقا

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٥ هـ - وفيه ما قاله الرومي في مديح نور الدين عند فتح أفامية - في قصيدة طويلة منها:

أسنى الممالك ما أطلت منارها	وجعلت مرهفة الدسار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها	رؤوف تكنف عدله أقطارها.

ومنها في وصف حصن أفامية:

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا	مختار أمة أحمد مختارها.
ضاءت نجومك فوقها ولطالما	باتت تنافثها النجوم شرارها.
عارية الزمن المعير سماها	منك المغيرة فاسترد معارها.
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت	شعراء تستفلي الفحول شوارها.

بشن هجوم على شمال بلاد الشام وذلك بالتعاون مع الفرنج الصليبيين. فانطلقوا من الأناضول ووصلوا إلى حلب، واستطاعوا انزال الهزيمة بالحامية المدافعة عن المدينة، وفرت بقايا الحامية المملوكية المدافعة عن حلب. وتابع المغول تقدمهم حتى بلغوا معرة النعمان وأفامية، وساد الذعر والخوف بين المسلمين، إذ كان هدف المغول التتار من هجومهم هو الانتقام لهزيمتهم في عين جالوت. وعلم الظاهر بيبرس بأمر الهجوم، فانطلق بجيشه من دمشق نحو الشمال، وعندها أسرع المغول بالانسحاب، والعودة بقواتهم إلى الأناضول[1].

وبعد ذلك بعشر سنين (٦٨٠هـ = ١٢٨١م) علم السلطان قلاون - الذي جاء بعد الظاهر بيبرس أن الفرنج الصليبيين قد اتصلوا بالمغول التتار، ونسقوا التعاون معهم للقيام بهجوم ضد بلاد الشام. فأسرع لأعادة تنظيم قوى الشمال وأسند إلى حاكم حلب (سنقر) مهمة الدفاع عن أنطاكية وأفامية وأقطعه اياهما[2]. ويبرهن ذلك على أن أفامية قد احتلت في تلك الفترة خاصة - مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين وضد من عمل معهم وتحالف وإياهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يحاول أعداء المسلمين بدورهم السيطرة على هذا المركز، غير أن كافة المحاولات باءت بالفشل أمام تصميم المسلمين وعزمهم على احباط أي عمل عدواني يستهدف أرضهم وبلادهم. ويظهر ذلك أن أفامية وقلعتها لم تكن مجرد موقع جيو استراتيجي هام، احتل مرتبة مميزة في الصراع الإسلامي - الصليبي - ولم تكن أيضاً مركزاً من مراكز القوى خلال تلك الحقبة التاريخية التي تكاثرت فيها مراكز القوى، فتكاملت وتلاحمت أحياناً، وتنافرت واختلفت في أحيان أخرى. وإنما كانت بموقعها، وبما توافر لها من القوى، نموذجاً لالتقاء الزمان والمكان في صنع الحدث التاريخي. وعلى هذا فان فتح نور الدين زنكي لأفامية، واستخدامه لها قاعدة لهجوم المسلمين، قد جعل من أفامية، وخلال تلك الفترة، نقطة الانعطاف في ايقاف مدّ الفرنج الصليبيين، وتحويل انتصاراتهم إلى هزائم.

فقد كان فتح أفامية هو بداية مرحلة تصعيد الجهاد ضد الفرنج. ففي السنة التالية

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٧٦/٣.

(٢) المرجع السابق: ٦٦١/٣.

لفتح أفامية، جمع نور الدين زنكي عسكره، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي، وهي شمال حلب؛ منها تل باشر وعين تاب وإعزاز، وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فاحتال عليه نور الدين حتى أوقعه بكمين وأخذه أسيراً. وكان أسره من أعظم الفتوح، لأن جوسلين كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب. وأصيبت النصرانية كافة بأسره. ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه فملكها وهي (تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز) وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح منها حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج [١].

حشد الفرنج حشودهم سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م، وساروا نحو نور الدين، ودارت معركة قرب دلوك انتصر فيها المسلمون، واستولوا على دلوك. وبدأت مدن بلاد الشام في تسليم قيادها لنور الدين زنكي، حتى إذا ما كانت سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م، خضعت دمشق لحكم نور الدين، فتوحدت بلاد الشام كلها تحت قيادة نور الدين، مما مهد له السبيل لاخضاع مصر لحكمه، وتوحيدها تحت قيادته، فرسم الطريق لصلاح الدين الأيوبي، الذي جاء بعده، وسار على نهجه. ولم يكن الفاصل الزمني بين فتح أفامية (قلعة المضيق) وبين توحيد بلاد الشام قد زاد على أربع سنوات. وقد لا تكون هناك حاجة لابراز مدى الدور الذي تركه فتح أفامية في التحول الحاسم بانتقال المسلمين من الدفاع المحدود وغير المنسق الى الهجوم العام والشامل (الاستراتيجي).

وبعد، فما من مكان أو موقع يحتل مرتبة ثابتة بصورة مستمرة. وكثيراً ما تقفز بعض المواقع الى المرتبة الأولى من القيمة والأهمية خلال فترة زمنية معينة ـ مثل ستالينغراد ولينينغراد في الحرب العالمية الثانية، أو سنغافوره ـ حتى إذا ما تجاوزها الزمن، وتجاوزتها الأحداث عادت لتحتل مرتبة ثانوية، وقد تضيع في زوايا التاريخ المجهولة. أو قد تزول من على الخارطة الجغرافية للبلدان. ولعل (قلعة أفامية ـ أو

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٦ هـ.

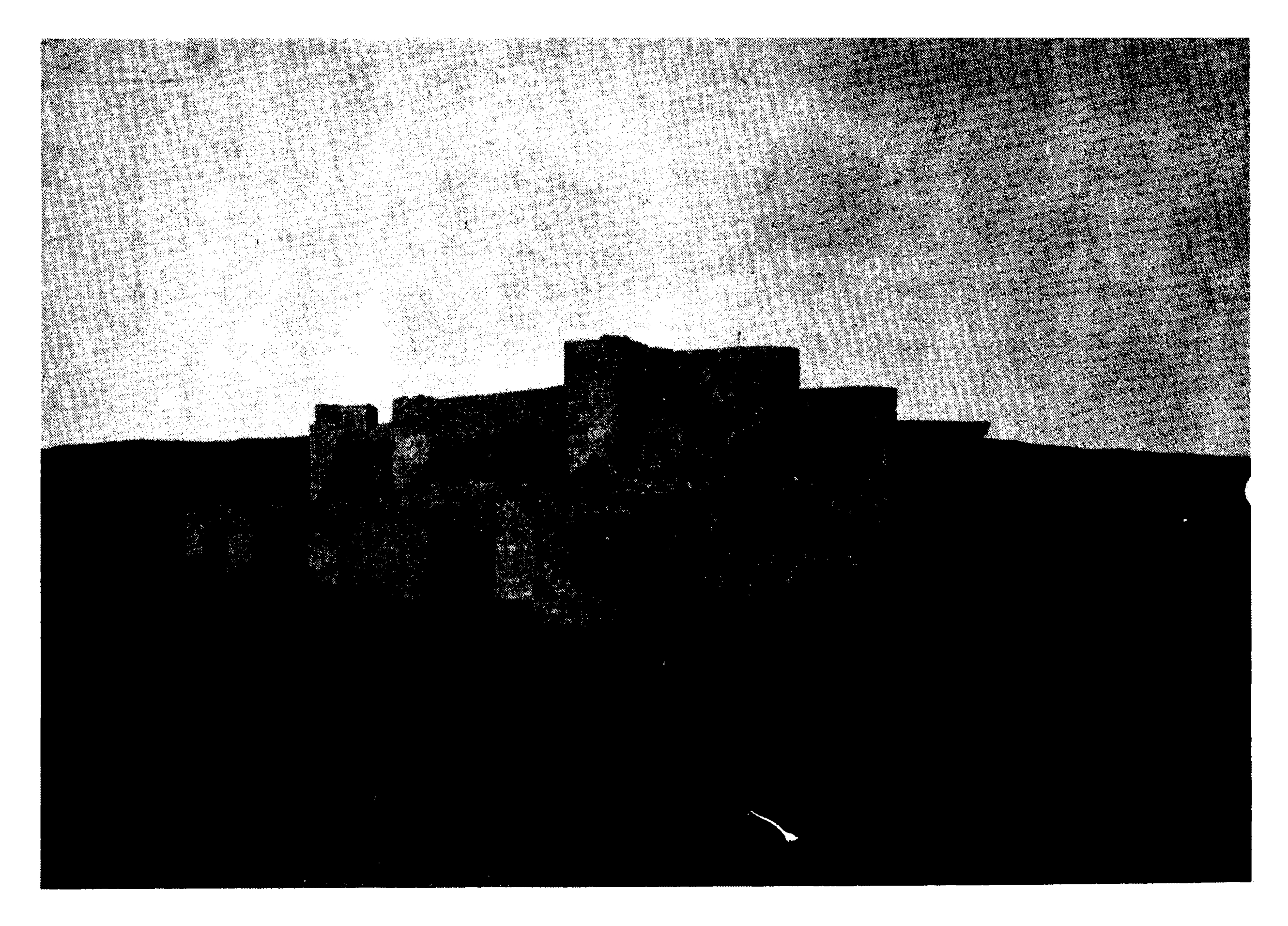
قلعة المضيق) هي أفضل نموذج يصور هذه الحقيقة. ذلك أن أفامية تنام اليوم هادئة، متناسية أنها كانت في يوم من الأيام هي قطب الرحى في صراعات دامية. وأنها رسمت على جدار الزمن نقطة التحول الحاسمة في صراع المسلمين ضد الغزاة من الفرنج الصليبيين ومن المغول التتار. ولا بد من القول أيضاً أن هذا الارتباط الزمني والمكاني قد التحم بدوره أيضاً باسم القائد الذي صنع التحول (وهو نور الدين زنكي - الشهير بالشهيد). إنها يد القدر التي صنعت نور الدين ليكون رجل التحول. وهي ذات اليد التي جعلت من قلعة المضيق - أفامية - نقطة التحول وذلك سنة ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م. وقد استمر الصراع بعدئذ زمناً طويلاً. وليس من المبالغة في شيء القول أن البداية التي انطلقت من أفامية قد أخذت مداها في حطين وفي عين جالوت وعلى أسوار عكا، حيث تم طرد آخر بقايا الفرنج الصليبيين من بلاد الشام.

٥ ـ قلعة الحصن [حصن الأكراد].

تقع قلعة الحصن (حصن الأكراد)[١] وقريتها في شعاب جبال النضارة ـ أو النصيرية ـ (جبال العلويين حالياً) في وسط سورية. وتحتل موقعاً ممتازاً فوق ذروة مرتفعة يزيد ارتفاعها على ألفي ومائة قدم. وتحيط بها المدرجات المتوسطة الانحدار من جميع جهاتها. وهي على اتصال مباشر بالنظر مع قلعة صافيتا (القصر الأبيض) المجاورة لها. وتعتبر قلعة الحصن واحدة من أفضل القلاع التي عاشت تجربة الحرب الصليبية القديمة، رغم أنها ليست أكبر القلاع التي اشتهرت خلال تلك الحقبة الزمنية ـ من حيث اتساع المنطقة المسورة ـ. وتضم بقايا القلعة قناة مائية قدت في الصخر، وهي التي تعزل القلعة عن الجرف الممتد بعيداً باتجاه الجنوب. وهي تتألف من حلقتين متحدتي المركز من التحصينات، موصولتين بمدخل طويل منحدر، يمكن للفرسان ـ الخيالة ـ الصعود عليه للوصول من بوابة الحصن الخارجي الى الفناء الداخلي. وتأخذ الحلقة الخارجية شكل مضلّع اهليليجي، وهي تتألف من سور يضم عدداً من الشرفات الدفاعية، ومقواة بحصون بارزة نصف دائـريـة. وهنـاك حصنـان بـارزان ملاصقان تماماً للبوابة الثانوية الصغيرة في الواجهة الشمالية يضمنان حراستها وحمايتها. أما الواجهة الشرقية التي تتمتع بحماية طبيعية أفضل من بقية الاتجاهات، فيحرسها ثلاث حصون بارزة مستطيلة الشكل صغيرة تحوي أحدها المدخل الرئيسي. وقد وصف المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة الحصن بقوله: «حصن الأكراد هو قلعة حصينة مقابل مدينة حمص، من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لبنان، ولها ربض، وكانت مقر ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس، وهي على مرحلة من حمص وكذلك عن

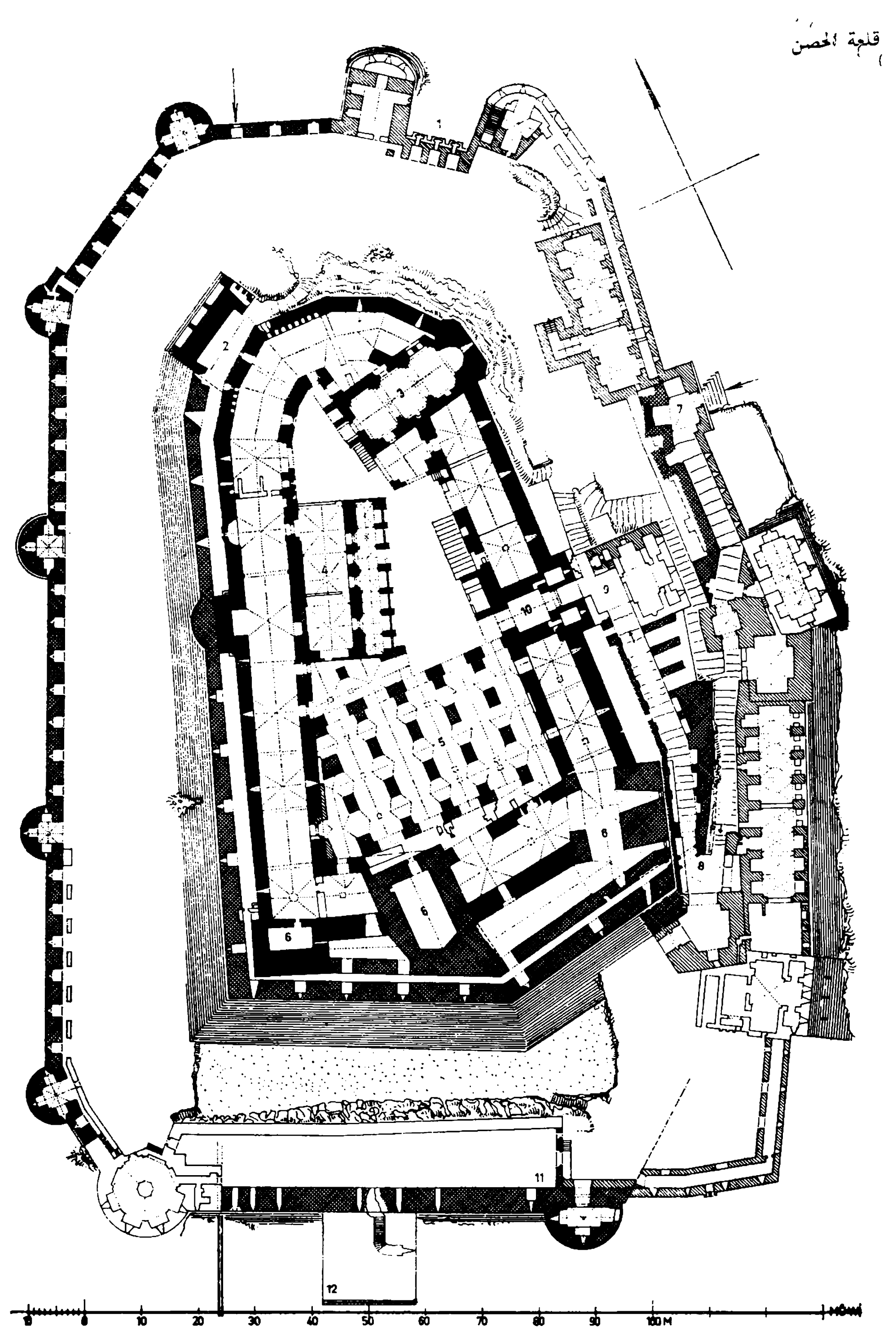
---

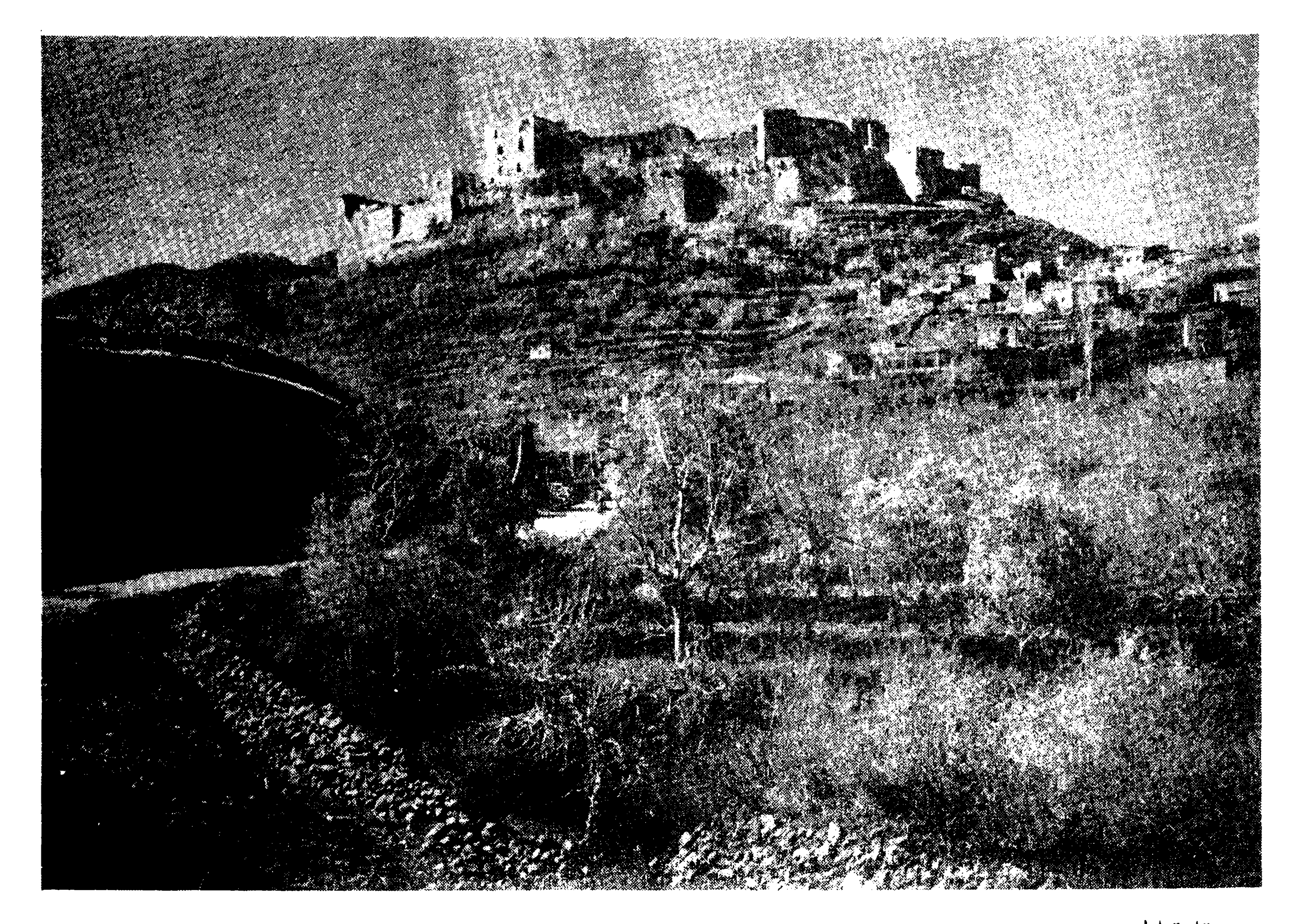
(١) قلعة الحصن ـ وباللغة الافرنسية CRAC أو حصن الاسبتارية: CRAC DE L'OPITAL وباللاتينية ـ كراتوم CRATUM ـ وكاستروم كراتي CASTRUM-CRATI.



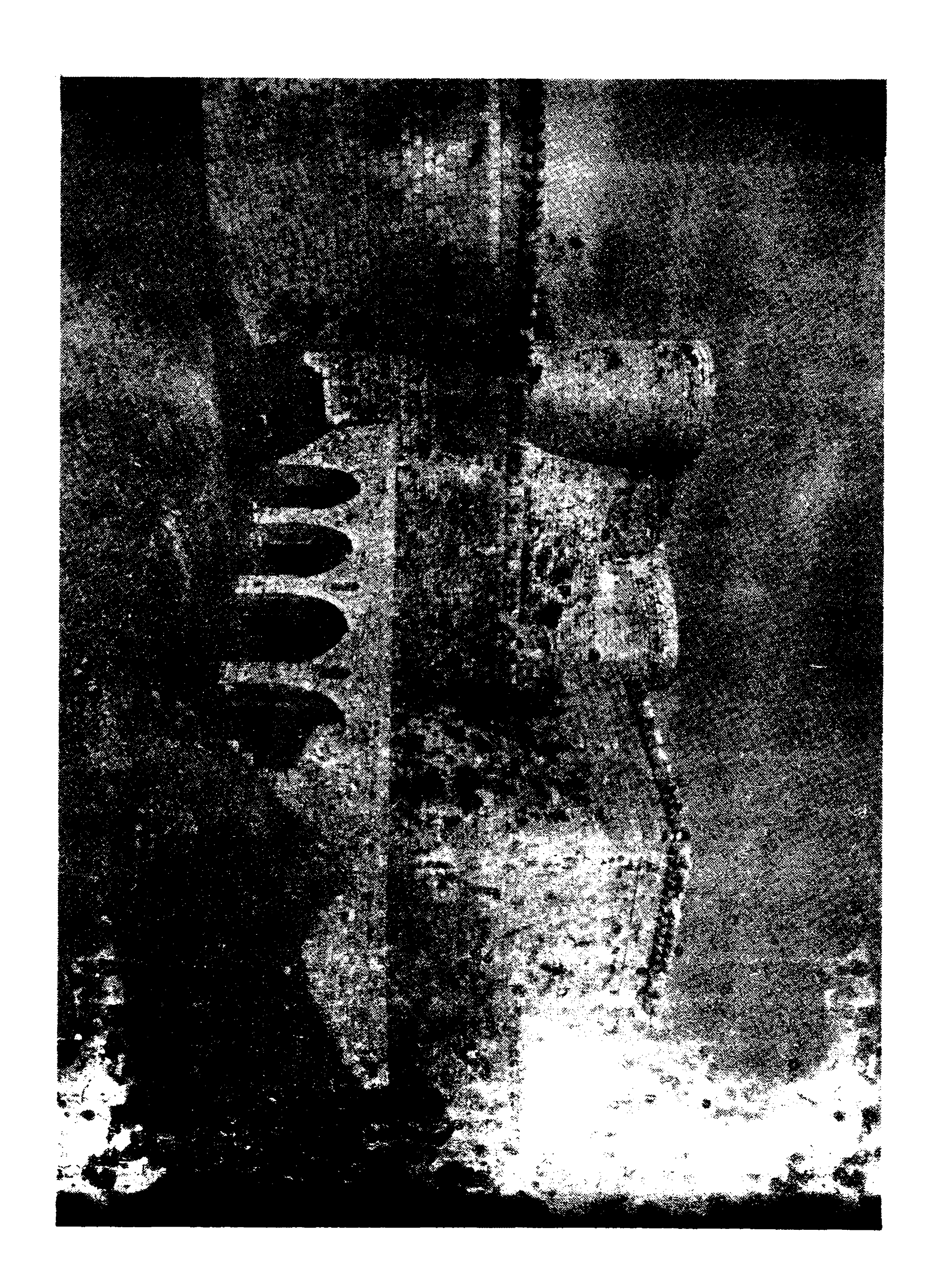
قلعة الحصن

قلعة الحصن



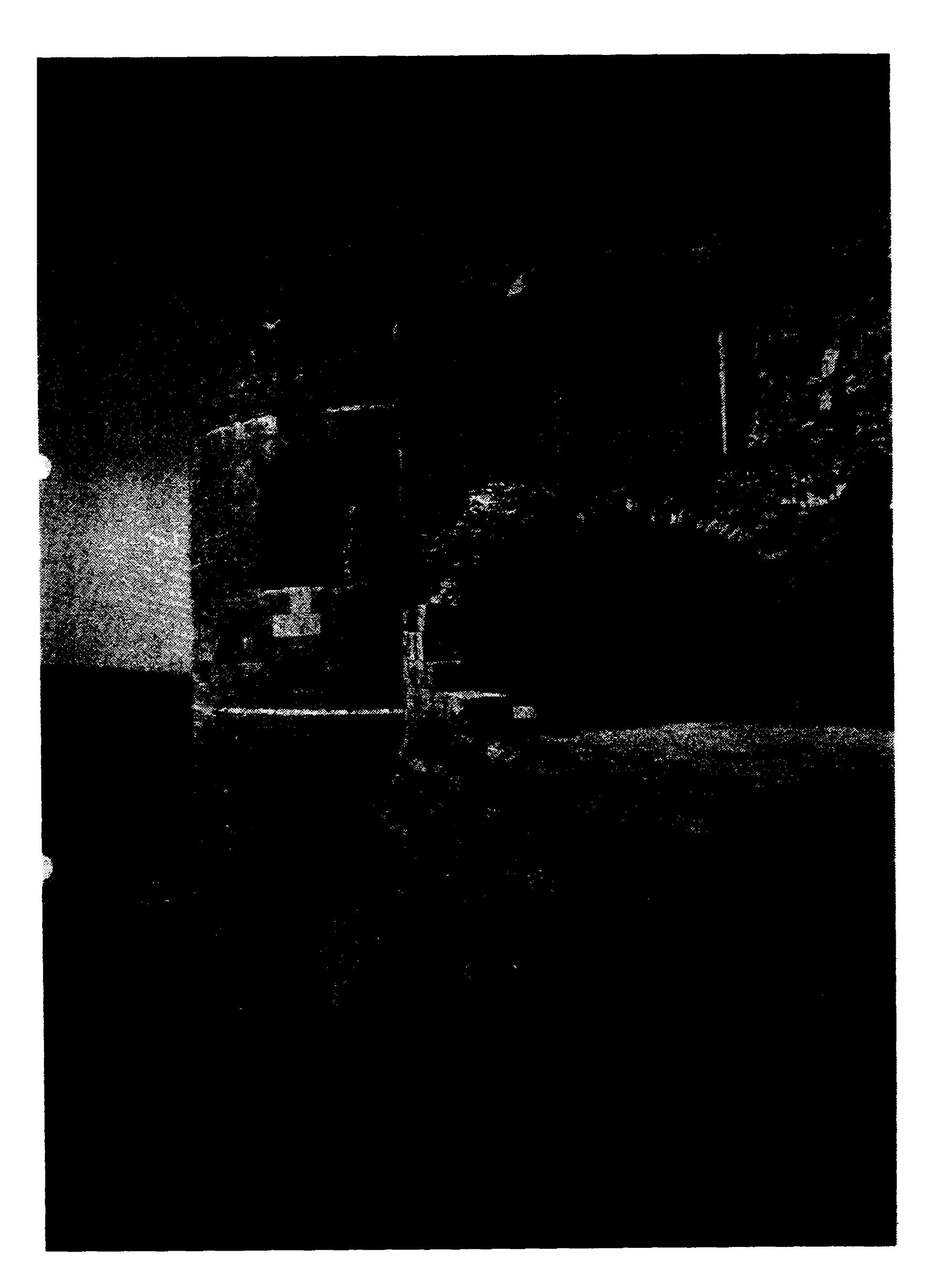


قلعة الحصن

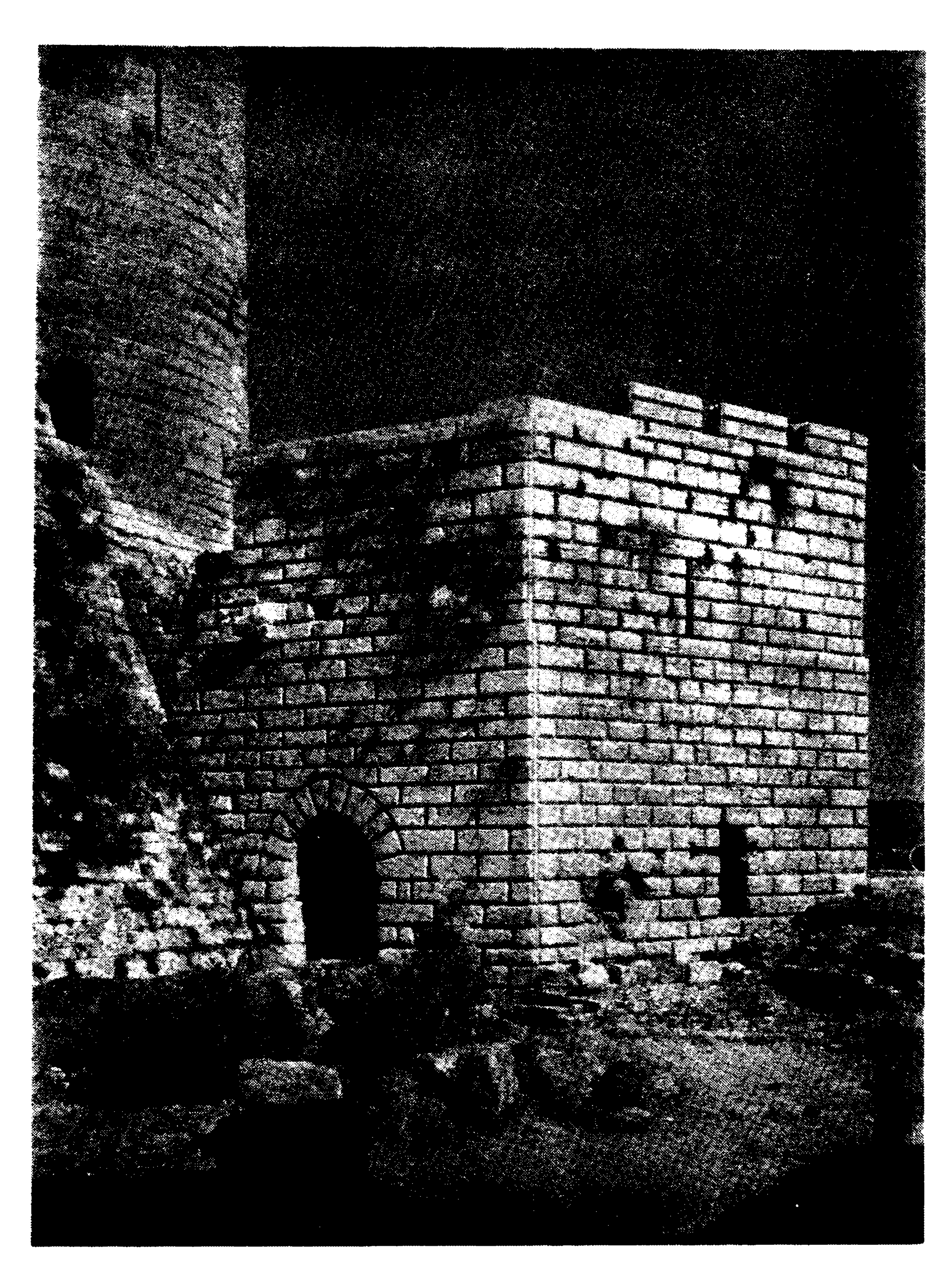




قلعة الحصن



قلعة الحصن



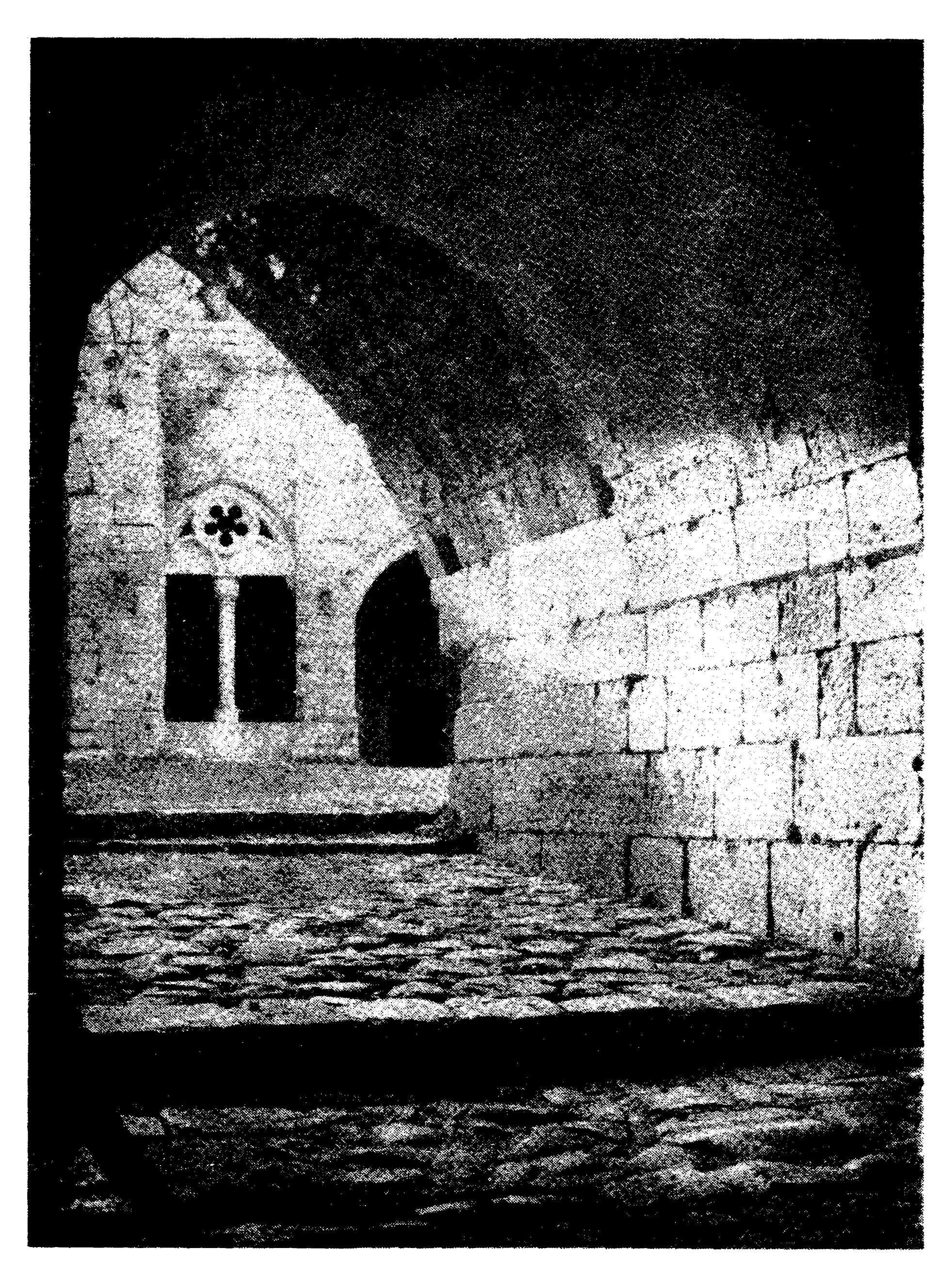
قلعة الحصن



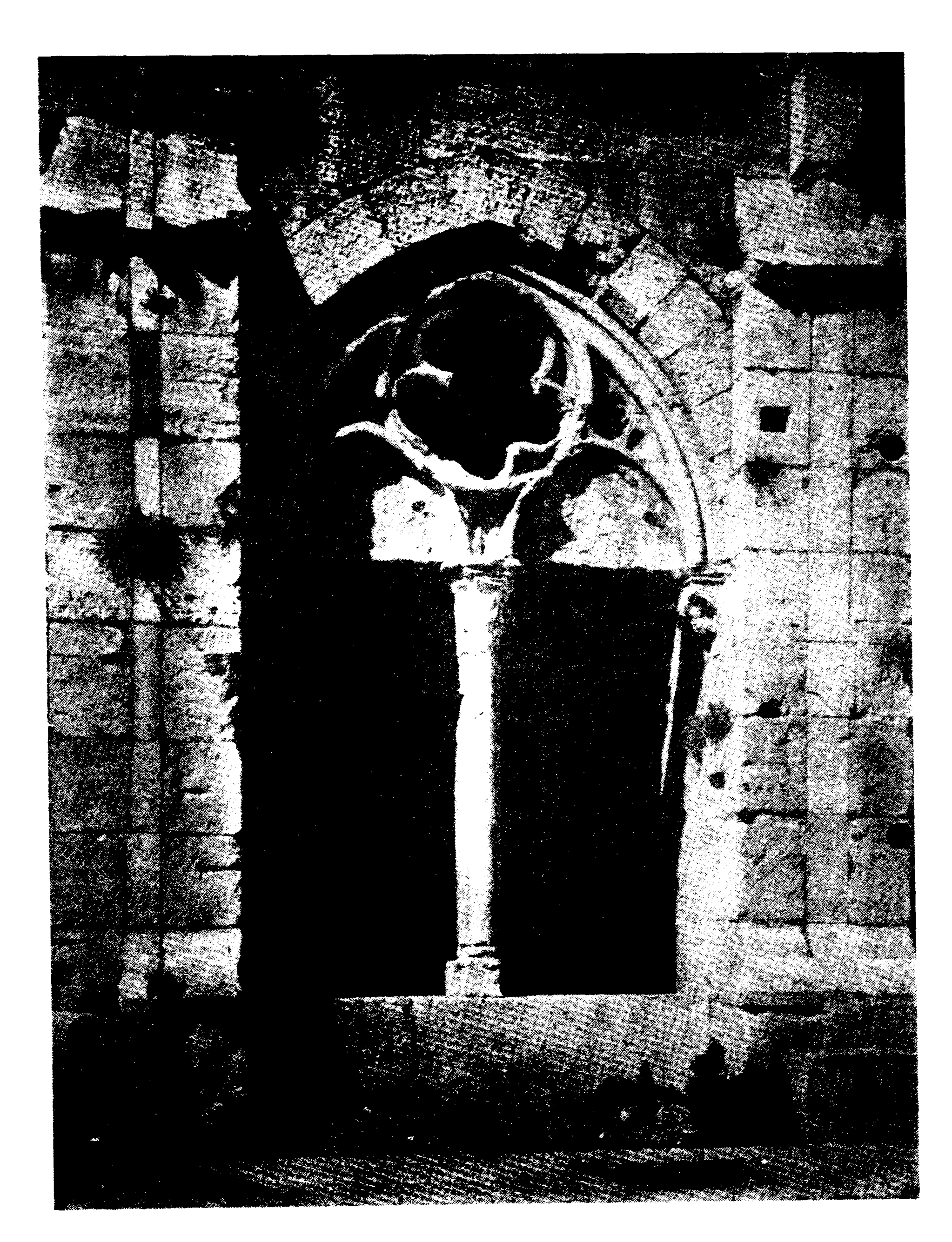
قلعة الحصن



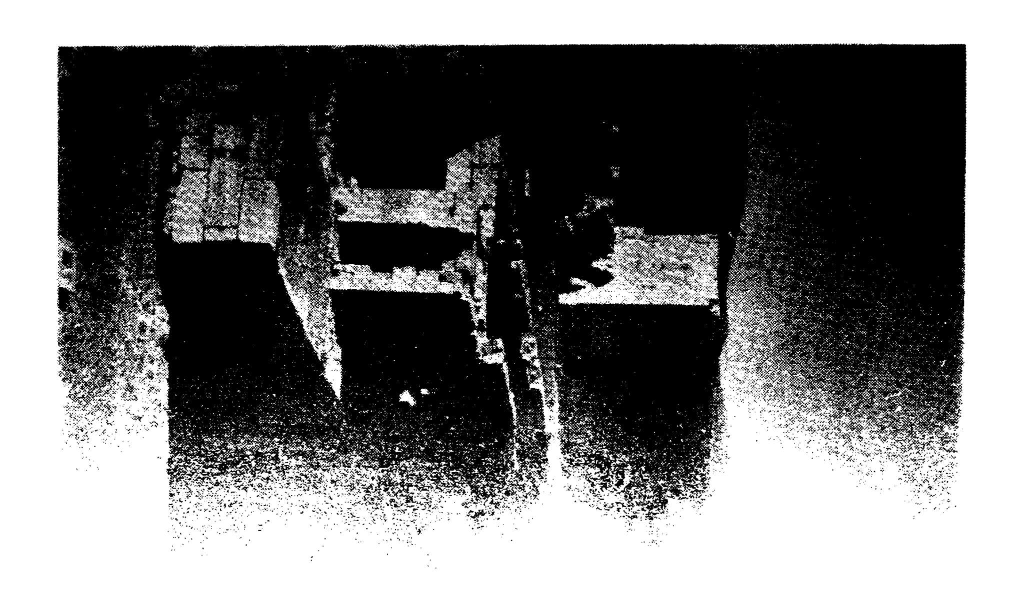
قلعة الحصن



قلعة الحصن



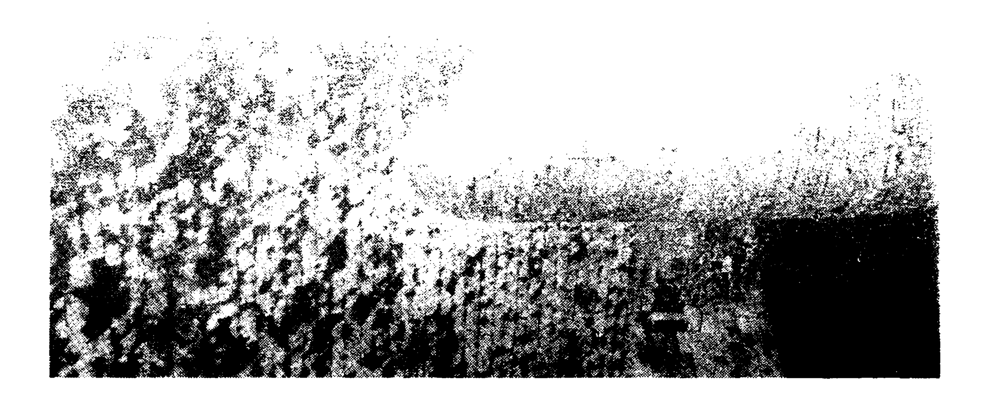
قلعة الحصن



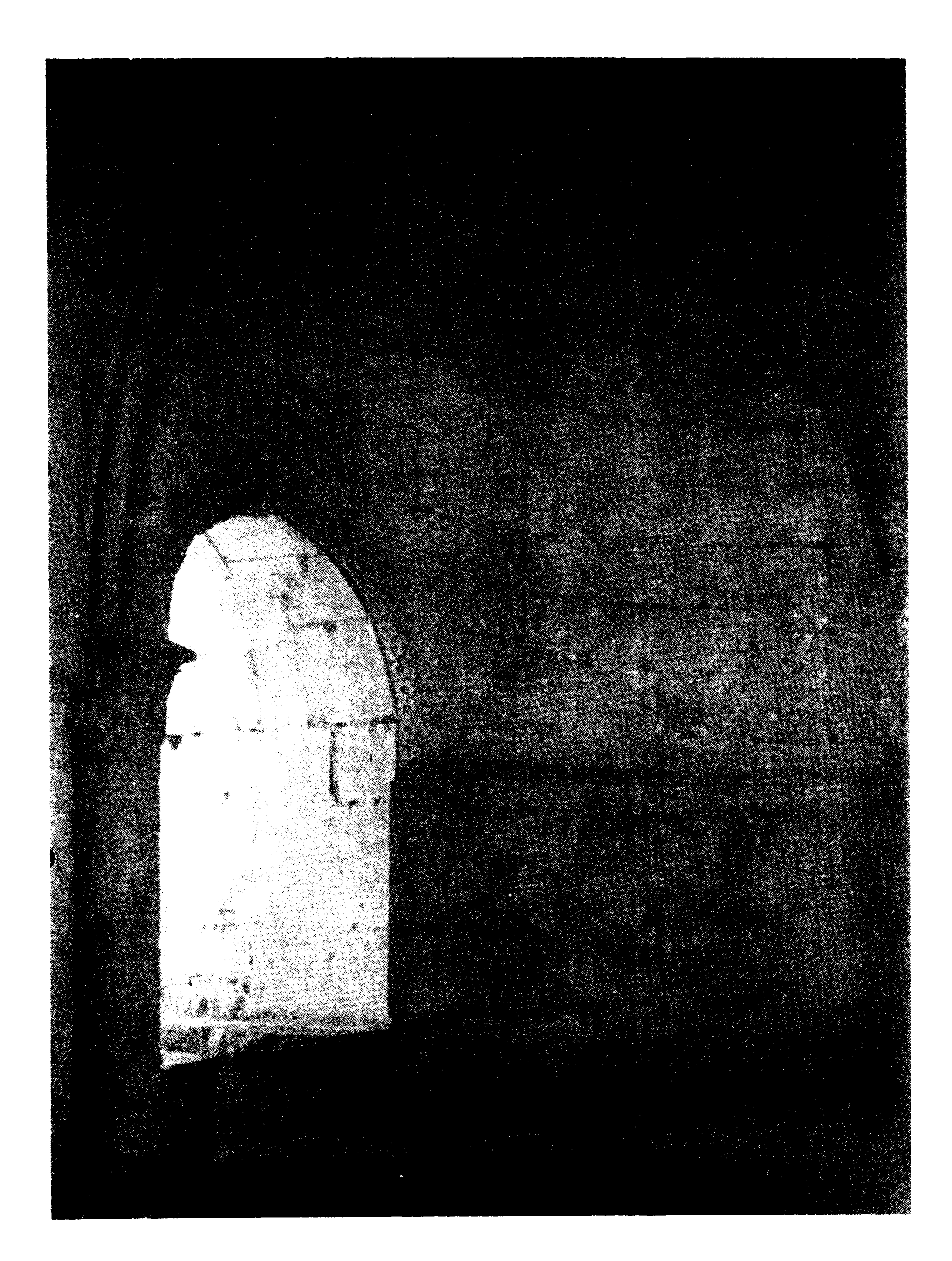


قلعة الحصن

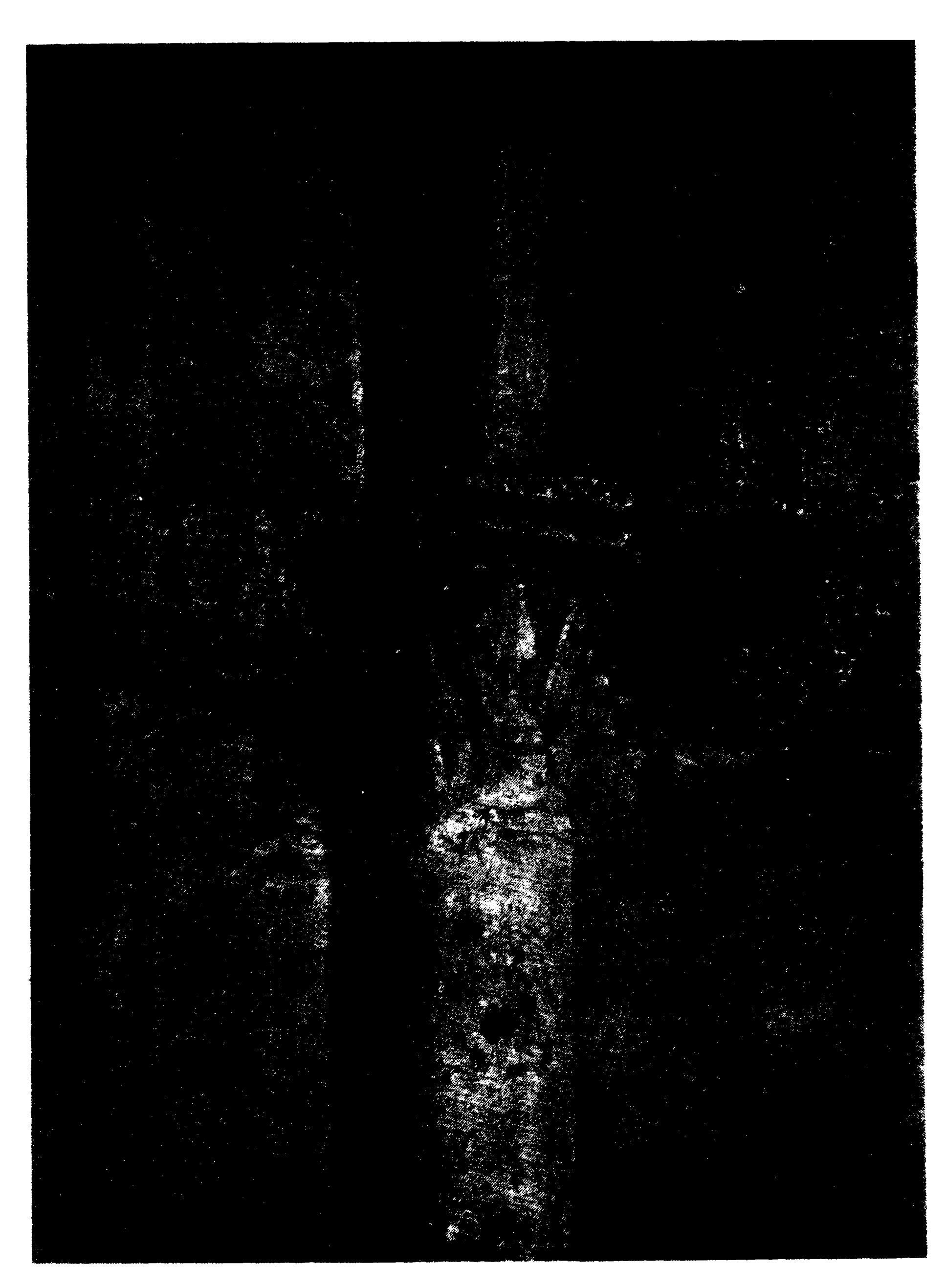




قلعة الحصن



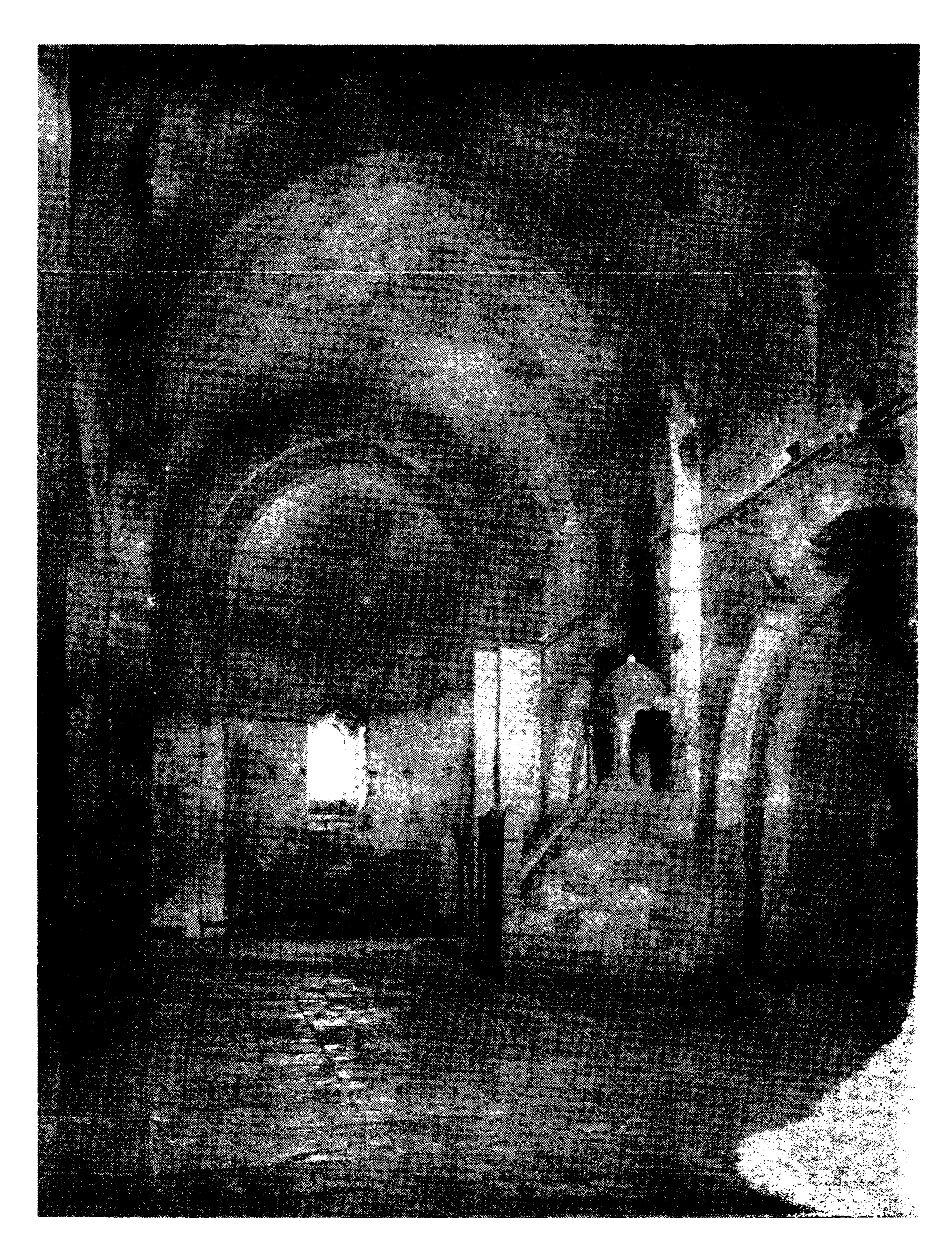
قلعة الحصن



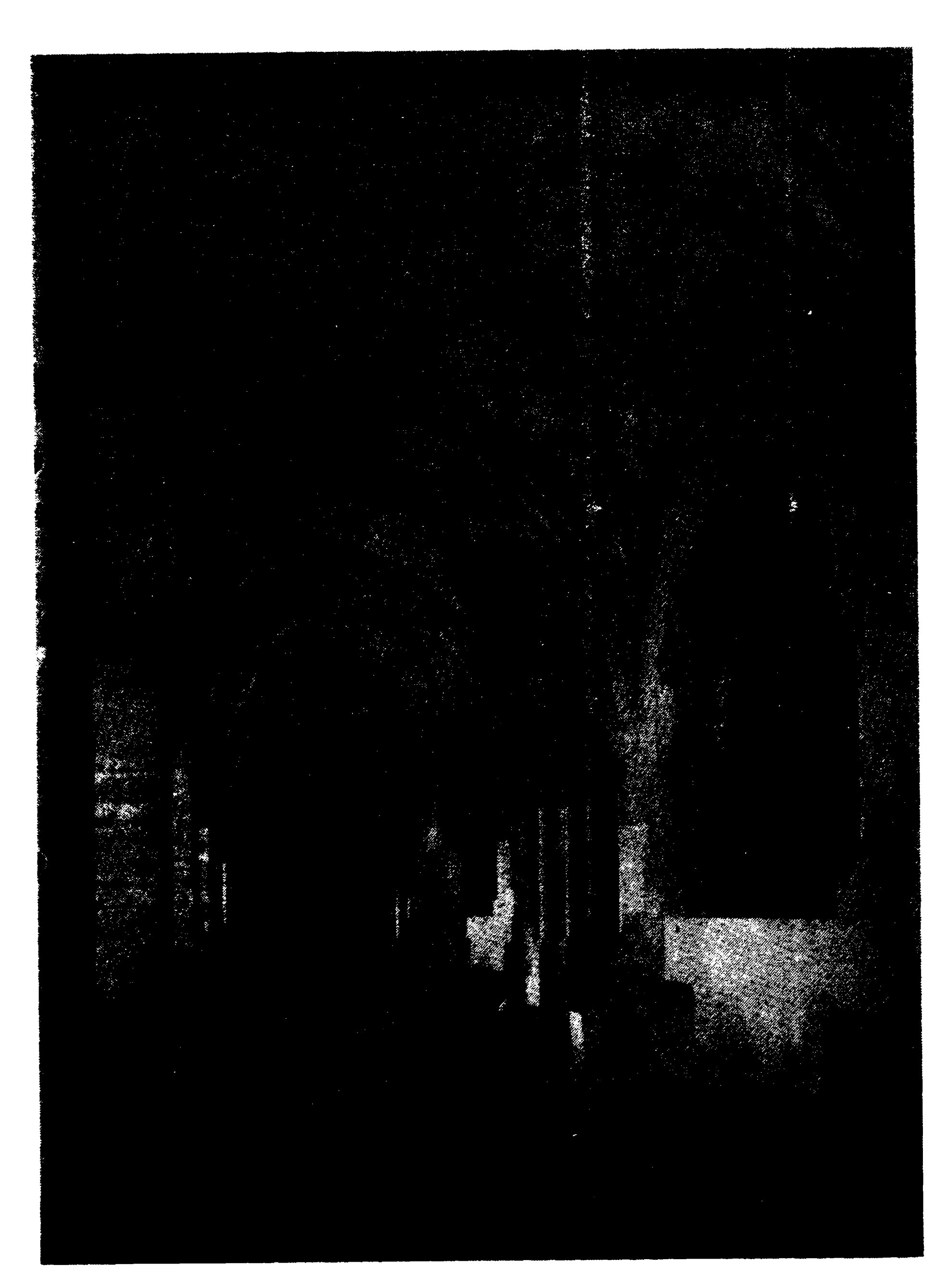
قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن

طرابلس ـ وهي بين حمص وطرابلس »[1]. ولقد حملت القلعة اسم حصن الأكراد، لأن أمير حمص قد أسس بناء هذه القلعة سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م، وأنزل بها حامية من الأكراد.

تلكم هي بعض ملامح البنيان القائم على صهوة جبل مرتفع، وهو بنيان يقف اليوم بجلال ووقار، ويحاول الصمت على ما عرفه في الأيام الخوالي من الأحداث المثيرة والقصص الشائقة والتي تشكل في حد ذاتها ملحمة كاملة، تعود بداياتها الى الأيام الأولى من اجتياح جحافل الفرنج الصليبيين لبلاد الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. ثم تتابعت الأحداث سراعاً، حيث حاول الفرنج احتلال قلعة الحصن سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م ولكنهم فشلوا في ذلك. ثم عاود أمير انطاكية (الكونت تنكرد) المحاولة سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. ونجح في محاولته هذه المرة. وجرت العملية على النحو التالي: تقدمت قوات الفرنج في البقيعة، وأصيب السكان المسلمون بالذعر، فاقتادوا قطعان مواشيهم ولجؤوا إلى حصن الأكراد يلتمسون في منعته وفي قوة أسواره الملاذ والأمن. ولكن الفرنج صمموا على مهاجمة الحصن، والاستيلاء عليهم، يحدوهم الأمل للحصول على ما يحتويه من الأغنام والمواد التموينية.

فعمل المسلمون على فتح أحد الأبواب، وأخرجوا منه بعض الأنعام، وسارع جند الفرنج لاحتواء هذه الغنيمة، وتفرقوا لجمع ما تشتت منها، فأسرع المسلمون بالانقضاض على الفرنج، وأنزلوا بهم خسائر فادحة. وفي اليوم التالي أراد الفرنج الانتقام لهزيمتهم. فقاموا بهجوم شامل على القلعة. وكم كان ذهولهم كبيراً عندما بوغتوا بعدم وجود أحد من المسلمين في القلعة التي هجرها سكانها في ظلمة الليل. وأقام الفرنج فيها لمدة ثلاثة أسابيع، كيما يحكموا مخططات عملهم القادمة، ولينسقوا التعاون فيما بينهم، وليمنحوا جندهم بعض الراحة[2]. ومضت ثلاث سنوات وقلعة الحصن تابعة لأمير انطاكية. ولكن هذه التبعية انتقلت في سنة ٥٠٦ هـ = ١١١٦ إلى كونت

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ٣٢٠ والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٧٩ ـ ٣٨٠.

طرابلس (ريموند الثاني) الذي أسند قيادة الحامية المدافعة عنها إلى (الكونت غليوم دوكراتوم)★ والذي ما لبث أن أقطعها للطائفة الدينية المعـروفـة بـاسم (فرسان الاسبتارية)★★ وذلك مقابل التعويض على غليوم دوكراتوم باقطاع آخر - وتحولت القلعة الى قاعدة للعدوان على أقاليم المسلمين المجاورة. وكان السلطان السلجوقي - ألب أرسلان - قد حاول انتزاع القلعة من قبضة الفرنج سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥م) وألقى عليها الحصار لبعض الوقت، ولكنه لم يتمكن من اعادة فتحها.

وجاء زلزال فضرب القلعة (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٧ م) ودمر بعض تحصيناتها فأسرع الفرنج لاعادة ترميمها واصلاحها. ويمكن تجاوز تلك الهجمات والهجمات المضادة والاغارات الصغرى، للتوقف عند تلك المعركة الكبرى التي وقعت بجوار القلعة سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م والتي عرفت باسم (وقعة البقيعة)★. حيث كان الفرنج الصليبيون قد قاموا بهجوم على مصر بقيادة ملك القدس - املريك - [1] حمل نور الدين زنكي لمهاجمة حصن الأكراد - أو قلعة الحصن - الى جانب هجمات اخرى على الفرنج بهدف تخفيف الضغط عن مصر. وحدث عندما كان نور الدين زنكي يحاصر قلعة الحصن، أن مرت قافلة كبيرة من الحجاج الفرنج، ووصلتها استغاثات الحامية المدافعة عن القلعة، فأسرعت لتقـديم الدعـم والمسـاعـدة، وانضم اليهـا جيش طرابلس وجيش أنطاكية علاوة على جيش الروم البيزنطيين. وبينما المسلمون في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد. ولم يشعروا إلا والفرنج يبغتونهم، فلم يحتمل المسلمون ذلك أو يطيقونه، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال وقد رهقهم الفرنج بالحملة ولم يثبت المسلمون وأسرعوا إلى معسكرهم والفرنج في ظهورهم، فوصلوا والفرنج معاً إلى معسكر نور الدين. ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطهم الفرنج، فأكثروا القتل والأسر في المسلمين. وكان الروم بقيادة - قسطنطين كولومان - هم

★ غليوم دوكراتوم: (GUILLAUME DE CRATUM) وقد منح اسمه للقلعة لبعض الوقت.

★★ ومن أجل ذلك حملت القلعة أيضاً اسم كراك دوشوفاليه KRAK DES CHEVALIERS.

(١) وقعة البقيعة - الكامل في التاريخ أحداث سنة ٥٥٨ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ٥٩٣/٢.

أشد الجميع على المسلمين، وأثقلهم وطأة، بحيث أنهم لم يبقوا على أحد من المسلمين وقصدوا خيمة نور الدين، وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه، ولسرعة ركب الفرس فقد ركب نور الدين والشبحة في رجله، فنزل فارس كردي وقطع الشبحة، ونجا نور الدين وقتل الكردي. فأحسن نور الدين إلى مخلفيه - ورثته وعائلته - ووقف عليهم الوقوف. ونزل نور الدين على بحيرة بالقرب من حمص، وبينه وبين المعركة أربع فراسخ، وتلاحق به من سلم من المعسكر. وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونحن على هذه الحال فوبخه وأسكته وقال:

إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام.

ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه، بقولهم، فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة. وكل من قتل أعطى إقطاعه لأولاده. وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم. فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم، قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها.

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه - انفاقه - قال له بعضهم: إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقراء والصوفية والقراء. فلو استعنت في هذا الوقت بما تنفقه عليهم لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بهم. فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، وكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال. فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم؟

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم. وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه، وعادوا إلى بلادهم.

جاءت السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م). ووفى نور الدين بقسمه، وأخذ بثأره وثأر المسلمين، حيث سجل على الفرنج انتصاراً حاسماً في معركة وقعت قرب أرتاح. حيث أباد جيوش الفرنج، وكان في جملة أسراه أمير أنطاكية وأمير طرابلس، وقائد جيوش الروم - كولومان - فجرى ربطهم جميعاً بالحبال، وحملوا الى حلب، وجرى تطويق حصن الأكراد غير أن المسلمين لم يتمكنوا من فتحه. وجرت محاولة ثانية (سنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م) لفتح حصن الأكراد، وانتزاعه من قبضة الفرنج. غير أن الفشل كان من نصيب هذه المحاولة أيضاً.

من المعروف أن طوائف الفرسان الدينية (الاسبتارية والداوية والتيوتون)، والتي نظمت أيام الحملات الصليبية القديمة، كانت من أشد مراكز القوى عداء للإسلام وأهله، ولهذا فان امتلاك فرسان الاسبتارية لقلعة (حصن الأكراد) قد وضعهم في موقع العدوان المباشر على الأقاليم الاسلامية المجاورة، لاسيما بعد وقوع أمراء الفرنج في أسر نور الدين زنكي في أرتاح. حيث جرى توزيع مناطق العمل وتقسيمها. فحاز الداوية طرطوس وكل الشطر الشمالي من كونتية طرابلس بينما استند فرسان الاسبتارية إلى القلعة التي صارت تنسب اليهم - قلعة الحصن - للعمل في إقليم البقيعة. وكان من طبيعة الأمور أن نظم المسلمون بالمقابل هجمات ضد قاعدة العدوان في قلعة الحصن. وكان هجوم صلاح الدين الأيوبي على هذه القلعة (سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) وحصاره لها لمدة شهر، ضمن هذا الاطار، إذ أنه لم يتعرض للحصن وحاميته من فرسان الاسبتارية بهجوم مباشر، واكتفى بالهجوم على المواقع المحيطة بالقلعة، غير أن هجمات صلاح الدين وفتوحاته لم تترك للفرنج في شمالي بلاد الشام إلا أنطاكية وطرابلس. واحتفظ الاسبتارية بحصن المرقب وحصن الأكراد (قلعة الحصن) كما احتفظ الداوية بطرطوس. وظن صلاح الدين أنه بات قادراً على فتح القلعة بعد أن غدت معزولة. فألقى الحصار عليها، ولكن تدفق امدادات الفرنج من صقلية حمله على رفع الحصار عن قلعة الحصن والامتناع عن مهاجمة طرابلس. وتابع فرسان الاسبتارية أعمالهم العدوانية - بتشجيع من ملك القدس. حتى إذا ما كانت سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م. انطلقوا من حصن الأكراد، ووصلوا بهجومهم إلى مدينة حماة وجوارها.

غير أن هذه الهجمات والاغارات لم تحقق شيئاً غير النهب والسلب والازعاج. وقد استثارت الأعمال العدوانية للطوائف الدينية الصليبية غضب السلطان الكامل الأيوبي، فقام سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م بقيادة هجوم على حصن الأكراد، فما كان من فرسان الاسبتارية إلا أن ردوا في السنة التالية بالهجوم على بعرين. ثم اشتركوا مع فرسان الداوية في طرطوس ـ سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م. بالهجوم على مدينة حماة. ولكنهم وقعوا في كمين وحلت بهم الهزيمة. ثم قامت الطائفتان في السنة التالية بهجوم مباغت على جبلة، وأمكن لهما الاستيلاء عليها، غير أنهما لم تتمكنا من المحافظة عليها لأكثر من أسابيع قليلة.

عمل فرسان الاسبتارية طوال هذه الفترة على بذل جهودهم لتحصين (قلعة الحصن) ودعم الدفاع عنها، لاسيما بعد الزلازل التي ضربتها في سنوات ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ (١١٥٧ و ١١٦٩ م). وتم تشييد كنيسة في القلعة بمساعدة ـ مالية ـ من ملك بوهيميا (فلاديسلاس الثاني)[1]. كما أن الزلازل التي وقعت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م تسببت في تدمير حلقة الدفاع الخارجية والجدار المنحدر الضخم في الجنوب. فتمت إعادة تشييدهما مع المستودع الواقع خلف الواجهة الجنوبية ـ وهي الواجهة الرئيسة للقلعة العلوية التي تبدأ من الخندق مباشرة وتتكون من ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة تشرف على الدفاعات الخارجية، وتبدو وكأنها تبرز بصورة طبيعية عن الساتر الحجري الشديد الانحدار. وقد اقيمت شرفتان دفاعيتان مقنطرتان خلف هذا الساتر المحمي بشكل رائع، واللتين يتم الوصول إليهما من الغرف الكبيرة الموجودة فوق الطابق الأرضي للقلعة العلوية. وقد ضمت الأبراج الثلاثة كلها غرفاً ذات أسقف مقنطرة مرتبة في عدة طبقات، بينما احتوى البرج الدائري في الزاوية الجنوبية الغربية غرفة حسنة التجهيز خصصت لمقدم الاسبتارية (غرفة السيد)★ إضافة إلى غرف اقيمت بين الأبراج. وهناك في الغرب أقيم برج نصف دائري أضيف الى القلعة خلال

---

(١) فلاديسلاس الثاني: (VLADISLAS II) أو LADISLAS وهو اسم لعدد من ملوك هنغاريا وبولونيا ـ أشهرهم فلاديسلاس الأول ـ الملقب بالقديس (١٠٤١ ـ ١٠٩٥ م). ثم ابنه فلاديسلاس الثاني.

★ غرفة ـ أو ملجأ السيد: (LOGIS DU MAITRE).

مراحل متعددة. بينما برز الجزء الناتىء والنصف الدائري من مذبح كنيسة القلعة بروزاً خفيفاً فوق مستوى الأسوار من الجهة الشرقية. واقيمت صفوف متعددة من الأقواس على البرج المستطيل الموجود عند الذروة الشمالية للقلعة العليا مما أضفى روعة خاصة على الواجهات الخارجية. وغطيت أقسام كبيرة من الساحات المكشوفة في داخل القلعة بعقود ضخمة تقسم مساحتها السطحية إلى عدد من المساطب ـ أو المصاطب ـ والتي هي في الأصل ذات مستوى واحد كما يفترض ـ وتوجد القاعة الكبرى والرواق المعمد في الفناء المقابل للكنيسة. ولقد أضفت هذه التحسينات على قلعة الحصن هالة من البأس والقوة، علاوة على ما اشتهر به فرسانها من العناد والشدة في القتال. وقد كان لذلك دوره في فشل الهجمات المتتالية التي قام بها المسلمون على القلعة. وقد يكون من الطبيعي أن تشعر الحامية المدافعة عن القلعة بالزهو والخيلاء لما تميزت به قلعتهم من الصمود والمنعة والقوة.

فقد انهارت مقاومات كثيرة عندما هاجمها صلاح الدين الأيوبي. واستسلمت كثير من القلاع والتحصينات. ونجحت قوات المسلمين في فتح معظم المدن والقلاع المجاورة لقلعة الحصن. فباتت القلعة معزولة عن امكانات الدعم من الفرنج. وأصبح وجودها غريباً وسط المحيط الإسلامي المطوق لها من اتجاهاتها كلها. وفي الوقت ذاته، لم يكن المسلمون في عجلة من أمرهم. فبقاء بعض القلاع والمدن الساحلية تحت حكم الفرنج الصليبيين، لم يعد أكثر من قضية زمن. وكانت هناك مشكلات تطلبت منحها الأفضلية على الاهتمام بشأن هذه القلاع. مثل مجابهة هجمات المغول التتار، والرد على الحملات الصليبية الطارئة. وظن الفرنج أن تحصيناتهم القوية مانعتهم من قبضة المسلمين.

وجاء الظاهر بيبرس وأمضى سبعة عشر عاماً من الجهاد المستمر حتى ضيق الخناق على الفرنج وحصرهم في عدد قليل من القلاع والمدن: (عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ـ وقلاع عثليت والمرقب والحصن). وقرر بيبرس طرد الفرنج من قلعة الحصن (سنة ٦٧٠ هـ). فسار بجيشه وضرب طوق الحصار عليها (يوم ٣ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٧١ م) وانضم إليه في اليوم التالي أمير حماه وجيشه، كما

لحقت به كتائب الاسماعيلية ـ الباطنية أو الحشيشية ـ. على أن الأمطار الغزيرة التي ظلت تهطل بضعة أيام منعته من جلب.وإحضار أدوات الحصار . واستطاع المسلمون أن يشقوا لهم طريقاً إلى باب السور الخارجي، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً. ثم شقوا طريقهم بعد اسبوعين الى السور الداخلي، وقتلوا كل من تصدى لمقاومتهم من فرسان الاسبتارية، ومن المسيحيين ـ النصارى ـ الذين انضموا للاسبتارية وعملوا معهم. وظل عدد كبير من فرسان الاسبتارية يقاومون طوال عشرة أيام أخرى، في البرج الكبير الواقع جنوب السور. ثم أعلنوا استسلامهم يوم ٨ نيسان ـ أبريل ـ سنة ١٢٧١ م. ووافق السلطان الظاهر بيبرس على إرسالهم إلى طرابلس تحت حراسة فرسان المسلمين. واستعاد المسلمون الحصن الضخم الذي قاوم هجمات المسلمين المتتالية، مما ضمن للظاهر بيبرس السيطرة على الطرق المؤدية الى طرابلس. وأسرع بيبرس لاستثمار الظفر، ففتح عكار. حيث قلعة الاسبتارية في جنوبي البقيعة (التي فتحت في أول شهر أيار ـ مايو) بعد حصار لم تتجاوز مدته الاسبوعين. وخرج فرسان الاسبتارية من صيـــهم، وأصبحوا عبرة للغزاة الفرنج وللمسلمين ولمن أراد أن يعتبر.

أصدر السلطان الظاهر بيبرس أمره على الفور بوضع حامية اسلامية في القلعة ـ بقيادة صارم الدين قايماز ـ الذي بدأ بالعمل على اجراء اصلاحات واسعة تحت الاشراف المستمر للسلطان الظاهر بيبرس ذاته ـ. ولما كانت الواجهة الجنوبية، وهي الجبهة الدفاعية الرئيسة للقلعة، قد تعرضت للكثير من الدمار أثناء الحصار. فقد جرى التركيز على إعادة تحصينها بشكل جيد، ولهذا فقد استأثرت بالقسط الأكبر من التعديل والتبديل. وكانت هذه الواجهة تتشكل في الأصل ـ مثلها كمثل الواجهة الغربية الطويلة، من سور واق تحميه حصون بارزة نصف دائرية، وشرفة متواصلة بها الكثير من الكوى ـ الفتحات ـ. فتم تشييد البرج المستطيل الضخم البارز عن الواجهة الجنوبية للسور الخارجي. وقد تطلبت أعمال الترميم والاصلاح فترة طويلة استمرت إلى ما بعد سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. حيث تم تشييد برج ضخم حمل اسم ـ السلطان قلاوون ـ.

لقد كانت حامية قلعة الحصن ـ من فرسان الاسبتارية ـ تعتمد على قوة الفرنج

الصليبيين وعلى دعمهم ومساندتهم. وذلك على نحو ما حدث سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م. عندما خرج كونت طرابلس - بونز - كعادته للاغارة على بلاد المسلمين المجاورة لقلعة الحصن، فوقع في كمين نصبه له فرسان التركمان المسلمين في جبال النصيرية. مما حملة على الهرب الى قلعة بعرين القريبة والواقعة على حافة وادي نهر العاصي [1] وتصادف أن كان ملك الفرنج - ملك القدس فولك - يسير بجيشه نحو الشمال لنجدة مدينة أنطاكية التي كانت تجابه تهديد المسلمين لها. فما كان من فولك إلا أن أسرع إلى قلعة بعرين، فرفع الحصار الذي ضربه فرسان التركمان على القلعة. وأنقذ أمير طرابلس وصاحب قلعة الحصن. ولكن وبعد أن تم طرد الفرنج من أنطاكية وسواها من المدن والقلاع. وجاء دور (قلعة الحصن) فلم يعد هناك من يستطيع نجدتها أو تقديم الدعم لها. وتتشابه فصول هذه القصة مع مجموعة قصص القلاع والحصون التي سيطر عليها الفرنج الصليبيون في هجماتهم الأولى، ثم فتحها المسلمون في هجومهم الشامل. ولقد حكم الفرنج الصليبيون قلعة الحصن ١٦٤ سنة هجرية (١٥٩ سنة ميلادية). وتركوا بعض الشواهد من الحجارة للتذكير بأحقاد الفرنج الصليبيين الدفينة، ووحشيتهم وأصالتهم العدوانية.

---

(١) قلعة بعرين. هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم مونت فيراند - MONTEFERRAND.

٦ ـ قلعة المرقب.

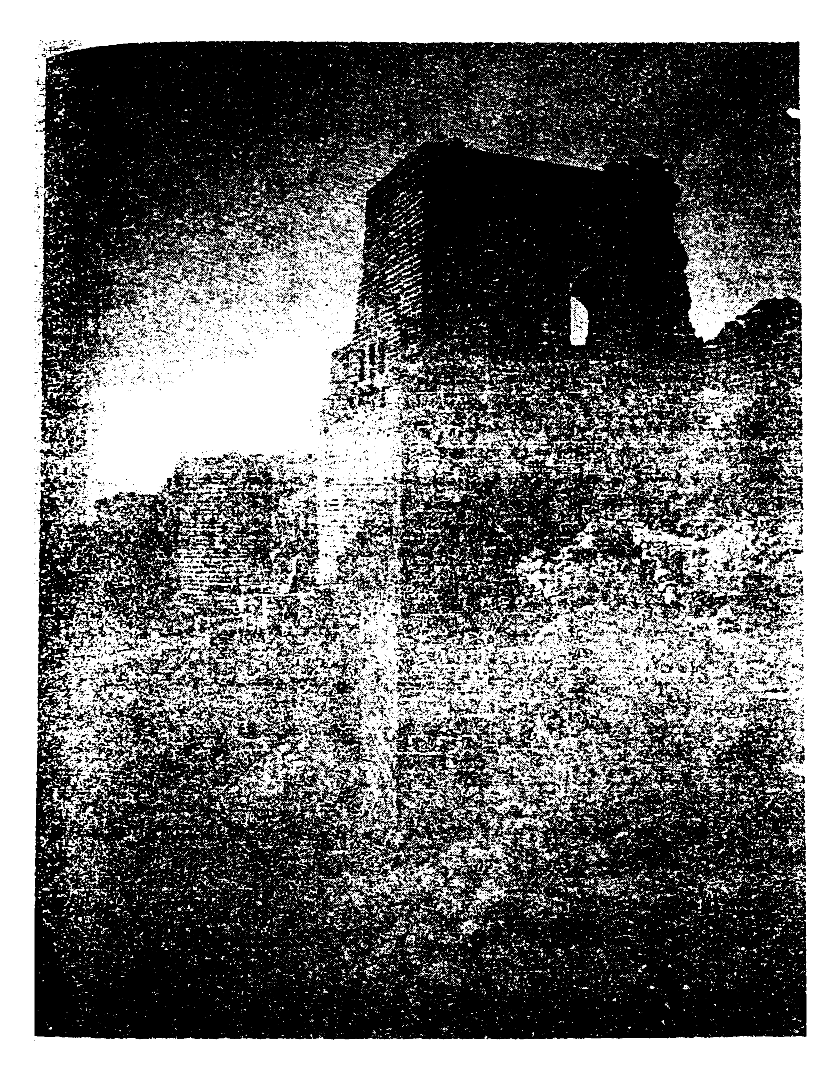
تحتل قلعة (المرقب)[١] موقعها المشرف على مدينة بانياس، فتطل من مربضها على البحر، حيث تتربع فوق ذروة رعن جبلي صخري متاخم للبحر مباشرة. ويتألف الموقع المحصن تحصيناً جيداً من قلعة داخلية قوية، وقلعة خارجية أكثر اتساعاً، مما يشير إلى أن القلعة كانت خلال تلك الفترة مكتظة بساكنيها، ويحيط بها سور خارجي مزدوج جزئياً، ومرتبط داخلياً بأبراج عديدة مختلفة الأشكال ومتباينة المقاييس والأبعاد. والقلعة الداخلية صغيرة مستطيلة الشكل تقريباً لها زوج من الأسوار ـ سورين ـ وتقع على الذروة الجانبية لذلك الموقع. ويفصلها عن القلعة الخارجية قناة مائية عريضة. وقد دعمت الأسوار الخارجية بحصون بارزة نصف دائرية. وقد بلغت القلعة ذروة تحصينها وقوتها في القرن الثالث عشر الميلادي حيث دعمت التحصينات الخارجية، بعد أن أعاد المسلمون بناءها على أنقاض الدفاعات التي تهدمت. وقد وصفها مؤرخ حماه ـ أبو الفداء ـ بقوله: «المرقب ـ هو اسم للقلعة الحصينة الحسنة البناء، والمشرفة على البحر. وبانياس اسم بلدتها، وبينهما قريب من فرسخ، وهي ذات أشجار فواكه وحمض كثير. ويزرع بها قصب السكر. ولها أعين كثيرة. قال العزيزي: ومدينة بانياس ـ أو بلنياس ـ دون مدينة جبلة. وبينها وبين أنطرطوس اثنا عشر ميلاً. وهو حصن أحدثه المسلمون سنة أربع وخمسين وأربعمائة = ١٠٦٢ م. نقله ابن منقذ في تاريخ القلاع والحصون»[٢].

لم يكن من عادة العرب المسلمين في حروبهم ـ على ما هو معروف، الاهتمام ببناء

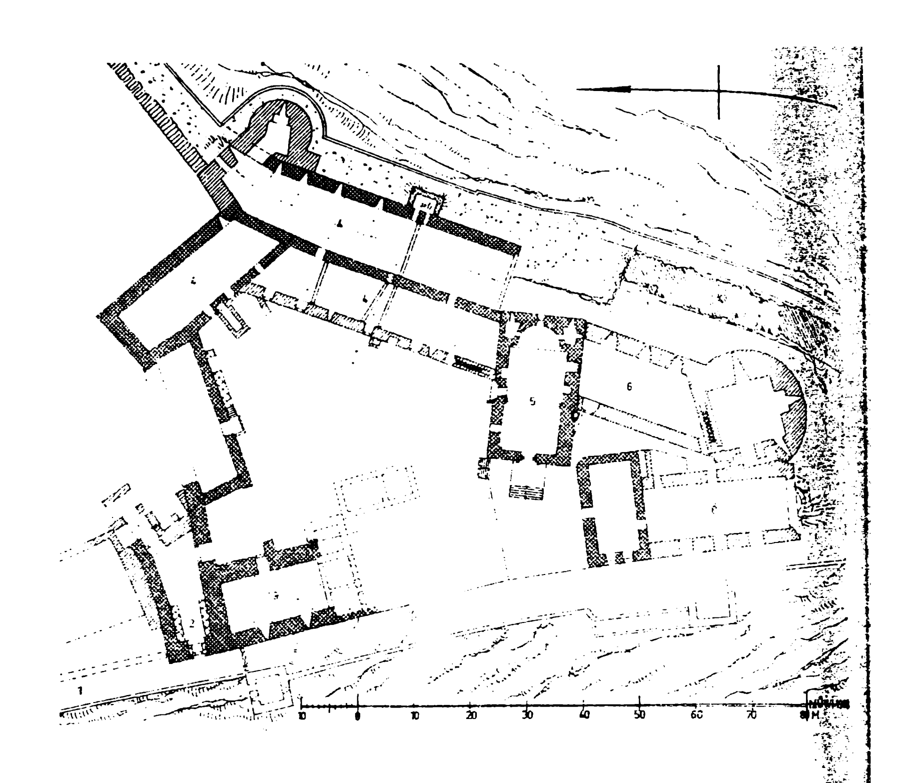
---

(١) قلعة المرقب: (QAL'AT MARQAB) وباليونانية ماركابوس MARKAPPOS ومارشابان: MARCHAPPIN وبالفرنجية مارغات MARGAT ومرغاتوم: MARGATHUM ومرغانت: MARGANT.

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧١ ـ ٧٢.



المرقب



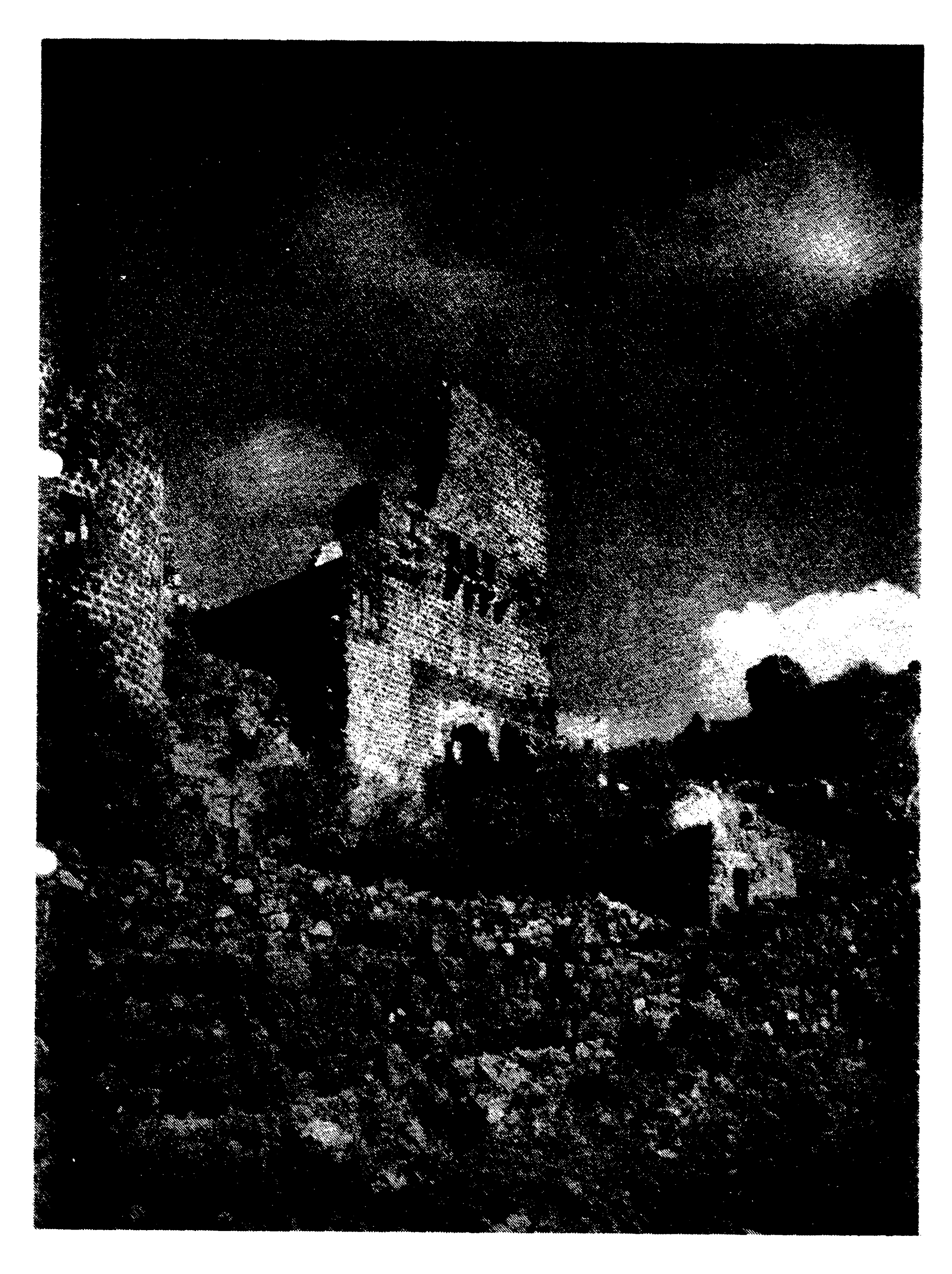
المخطط ١٢ : قلعة المرقب Qal'at El-Marqab

مخطط موقع القلعة، المقياس: ١/١٠٠٠٠.

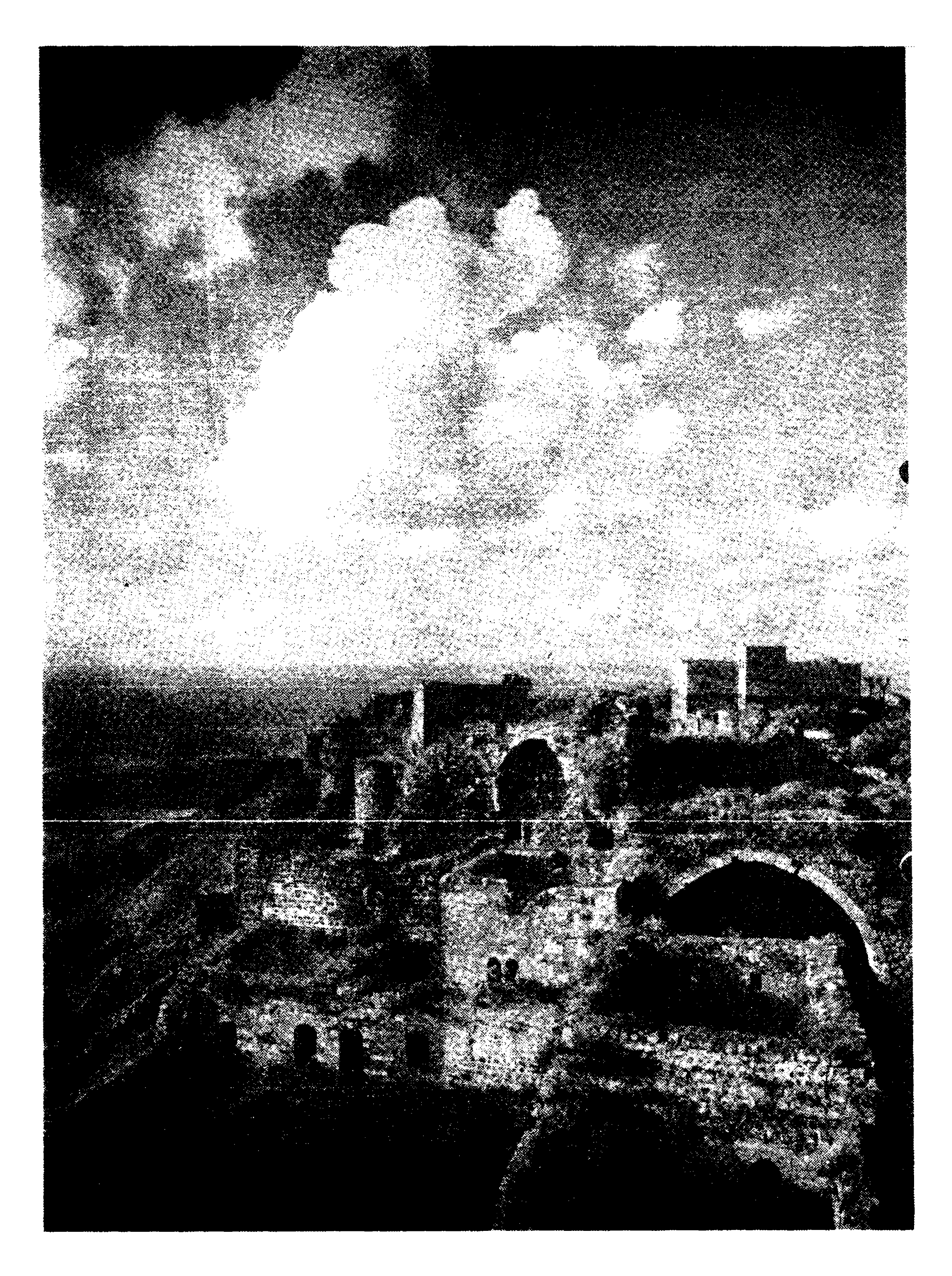
١ ـ فناء أمامي بين البوابتين الخارجية والداخلية، ٢ و ٣ ـ أقبية مقنطرة لمبنى ملحق بالكاتدرائية أزيل فيما بعد، ٤ ـ غرف مستودعات، ٥ ـ كنيسة القلعة، ٦ ـ قاعة كبيرة من طابقين مع برج محصن ملحق بها، ٧ و ٨ ـ قاعة. (بالاستناد إلى مسح المؤلف ورواسمه).



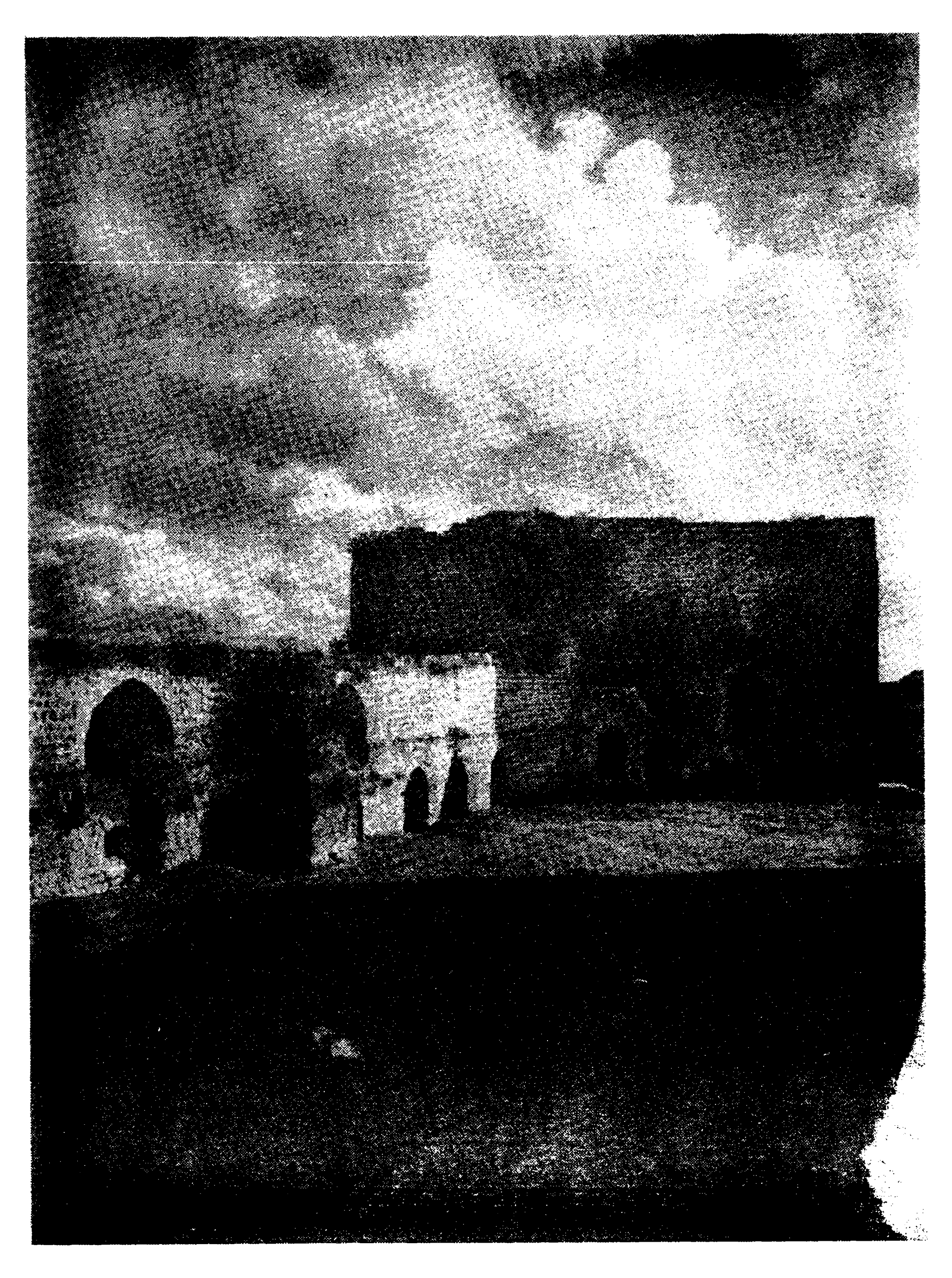
قلعة المرقب



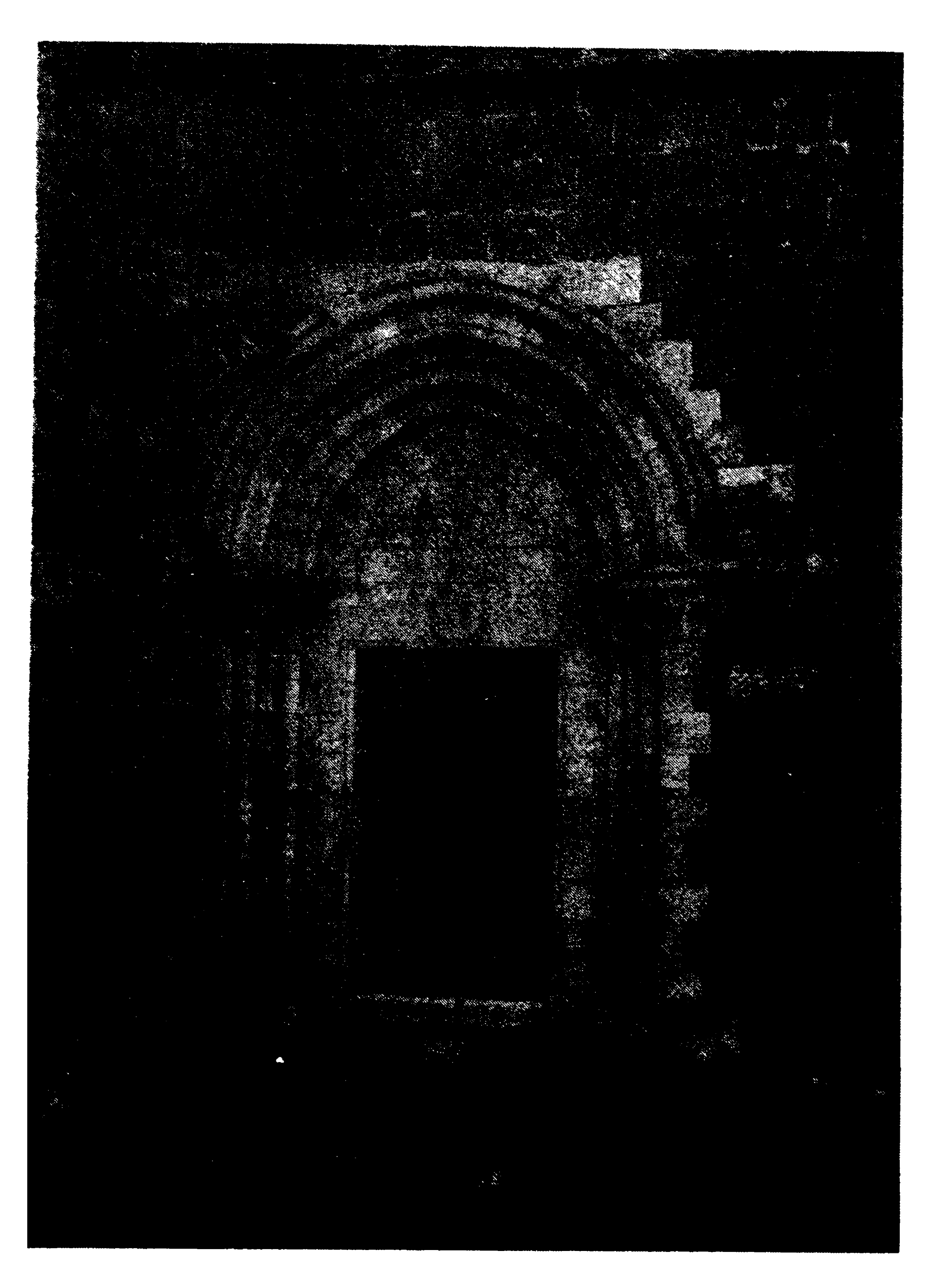
قلعة المرقب



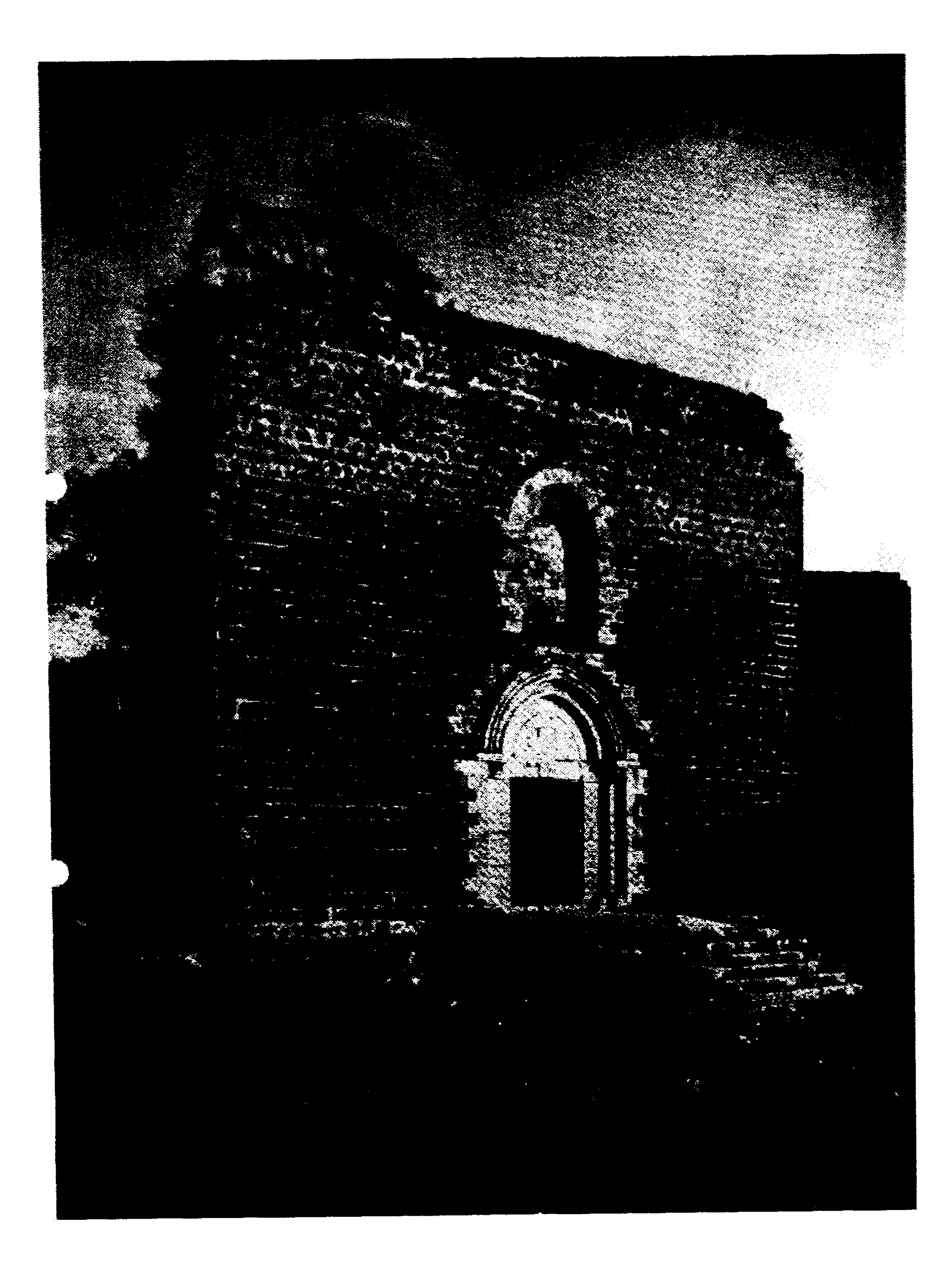
قلعة المرقب



قلعة المرقب



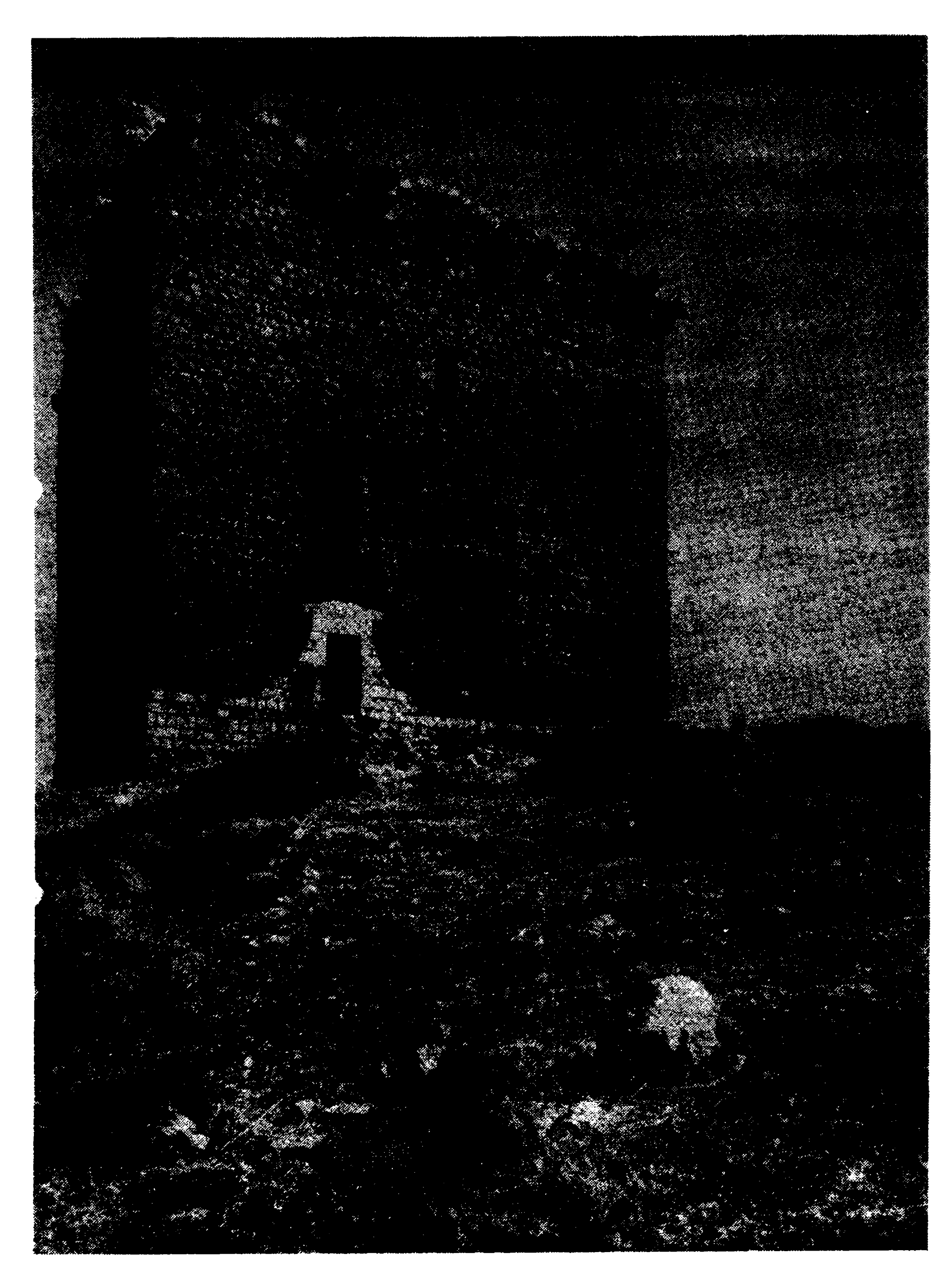
قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب

القلاع والتحصينات. فهم سادة الدنيا في حرب الحركة، يبحثون عن الحسم في المعركة، ويسرعون للقاء العدو قبل أن يلقاهم. ويتجنبون المطاولة ـ المماطلة ـ قدر المستطاع. ولقد صرف أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه معظم جهده لدرء خطر الروم البيزنطيين القادمين من البحر، وذلك منذ الأيام الأولى للفتح، إذ كان الروم وبيدهم السيادة على البحر الأبيض المتوسط، يستثمرون كل مناسبة للكيد للمسلمين والنكاية بهم، فيعملون على انزال قواتهم بصورة مباغتة على نقطة من الساحل، فيغيرون ويقتلون ويسبون ويمضون بمثل السرعة التي ظهروا بها. وقد وضع معاوية بن أبي سفيان نظاماً لحماية الثغور البحرية وضمان أمنها وحماية العرب المسلمين فيها. وكان في جملة التدابير المتخذة إنزال أقوام من العرب المسلمين في مدن الساحل وثغوره حتى يكونوا رباطاً للمسلمين وحماية لهم. مع تحصين مدن الساحل، وإقامة المراقب والمسالح. وأخذ العرب المسلمون بهذا النظام بعد أن عرفوا أهميته وفائدته لضمان أمنهم. وليس اسم (المرقب) إلا دليلاً على المضمون الذي أقيمت من أجله القلعة، وإلا تأكيداً على واجب هذه القلعة في مواجهة البحر.

عمل بناة القلعة، من أجل ذلك، على جعل الأسوار الخارجية للقلعة بمثابة امتداد لأسوارها الداخلية. وقد تشكل قلب القلعة الداخلية من بـرج متين البنيان ذو شكل دائري يصل قطره إلى ٧٢ قدماً وهو يواجه الجنوب. ويتصل هذا البرج من جانبيه بأبنية متعددة الطبقات ذات قاعات فسيحة مقنطرة السقف. وتوجد في منتصف القلعة آثار كنيسة كبيرة تقسم فناءها إلى قسمين غير متساويين. ولعل الاحتمال الأرجح هو أن آثار هذه الكنيسة لم تكن إلا المسجد الذي عمل الفرنج الصليبيون دائماً كعادتهم، على تحويله الى كنيسة. وثمة مستودعات كبيرة تتجمع حول الفناء الشمالي الأكبر مع اسطبلات الخيول. ويتم الدخول الى القلعة كلها عبر برج بوابة متين تتجه واجهته نحو الغرب عند السور الخارجي. ويتم الوصول من هناك إلى حصن البوابة (نزل الحرس) عبر فناء أمامي. ويتألف حصن البوابة من عدد من الغرف. وقد بقيت تحصينات القلعة في حالة جيدة نسبياً، وحافظت على شكلها الأساسي. وقد يكون السبب في ذلك هو أن القرية بقيت مأهولة بالسكان حتى القرن التاسع عشر.

لقد كان واجب (المرقب) هو الرصد والانذار، ولهذا فقد كان عمله هو حماية أمن المدينة المجاورة له (بانياس) وبالتالي الاسهام في حماية ساحل بلاد الشام. ولا غرابة بعد ذلك أن تكون مدن الساحل خاضعة لقيادة واحدة. ونظراً لأن (طرابلس) كانت هي اكبر مدن الساحل. فقد كان حكامها (بنو عمار) هم القوة المهيمنة على مدن الساحل وحصونه وقلاعه. وكانت قلعة المرقب ومعها قلعة القدموس تحت حكم (بنو محرز) يوم وقع غزو الفرنج. وكان بنو محرز يعتمدون على حكام طرابلس - بني عمار - الذين كان يتولى قيادتهم - جلال الدين أبي الحسن علي بن عمار - والذي استطاع أن يبسط سيطرته على جبلة وبانياس وسواهما من مدن الساحل. وكانت بلاد الشام، وساحلها بخاصة، نهباً للصراع خلال تلك الفترة، بين دولة الشيعة الفاطميين بمصر والذين كانوا يحاولون الوصول إلى بغداد، وبين الخلافة العباسية التي كانت تعمل بدورها على وضع حد لأطماع الفاطميين ونفوذهم. هذا إلى جانب وجود مراكز قوى طائفية أخرى - وأبرزها حركة الباطنية الاسماعيلية أو الحشاشين -. وكان لا بد لملوك طرابلس - بنو عمار - من الأخذ بهذه العوامل، والمناورة بينها، للمحافظة على مواقعهم، ولضمان الدفاع عن ممتلكاتهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يتظاهر بنو عمار بالتشيع لكسب دعم مصر الفاطميين أو اتقاء لشرهم، أو للاثنين معاً. ولقد انعكس ذلك بصورة حتمية على قوة الدفاع. فقد أفاد الفرنج الصليبيون - وأمير انطاكية منهم بصورة خاصة. من التناقضات القائمة بين مراكز القوى الإسلامية وتمزقها، واستثمروا نقاط ضعفها، فبسطوا نفوذهم على مدن الساحل، وعلى القلاع والحصون المجاورة لها. وأخذوا ينتشرون - مثل بقعة الزيت - نحو المدن الداخلية. وهذا ما يفسر تلك السهولة الكبرى التي رافقت عملية احتلال الحصون الساحلية والقلاع المنيعة التي كانت تقف في مواجهة الساحل. وإذا كانت معظم قلاع بلاد الشام الداخلية قد شيدت أيام الروم البيزنطيين، أو أيام الفرنج الصليبيين، فان قلعة المرقب لم تكن منذ نشأتها إلا قلعة عربية اسلامية، ومرقباً يطل بعينه على البحر ليكشف كل تحرك مشبوه ولينذر مسبقاً عن كل عدوان محتمل وقوعه.

وصلت قوات الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م.

فاحتلت مدن الساحل ما بين انطاكية شمالاً وعسقلان جنوباً والقدس شرقاً. واشتركت قوات الروم البيزنطيين في هذه الحملة بقيادة (جون كانتاكوزينوس)[1] فاستولت على المنطقة ما بين اللاذقية وبانياس ـ ومعها قلعة المرقب. ثم ما لبثت قوات الروم أن انسحبت سنة ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م. وتركت للفرنج حرية العمل في بلاد الشام، بعد أن وجدت أنها غير قادرة على مجابهة أمير أنطاكية ـ تانكرد ـ والاصطدام معه. وقد برهن ذلك للمسلمين على أن الخلافات والتناقضات بين الحلفاء الصليبيين هي أكثر اتساعاً وأكبر عمقاً مما كانت عليه بين القادة المسلمين. غير أن زخم قوة هجوم الحلفاء الصليبيين وقدرتهم القتالية لديهم كانت أكبر من تلك التي توافرت للمسلمين، فكان لا بد من أن تأخذ هذه القوة مداها واتساعها حتى يتمكن المسلمون من قلب موازين القوى، واستثمار تناقضات الفرنج وأحلافهم بمثل الطريقة وبمثل النهج الذي أفاد منه الفرنج الصليبيون في حملتهم الأولى. وعلى كل حال، فقد عمل ـ تانكرد ـ في ربيع سنة ١١٠٨ م (٥٠٢ هـ) على توسيع حدود مملكته ـ انطاكية ـ وذلك على حساب تفتيت مملكة بني عمار الاسلامية (مملكة طرابلس) فانتزع منهم جبلة وبانياس وقلعة المرقب. ويظهر أن المسلمين قد استعادوا سيطرتهم على قلعة المرقب، ولكن لفترة قصيرة، فعاد روجر ـ حفيد تنكرد ـ واهتم بقلعة المرقب، وأصلح الحد الجنوبي لانطاكية، وأسند اقطاع قلعة المرقب الى اسرة مانسوير[2] والمعروف أن القلعة قد تعرضت للدمار مرات متتالية بسبب الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام في سنوات ٥٥٢

---

(١) جون كانتاكوزينوس (JEAN-OU-JOHN CANTACUZENE) من عائلة مارست دوراً هاماً في تاريخ الروم البيزنطيين، وقد كان أبرزهم هو جون كانتاكوزينوس هذا الذي عمل وصياً على امبراطور الروم جون الخامس باليالوج: PALEOLOGUE ثم انتزع منه العرش وحكم من سنة ١٣٤١ حتى سنة ١٣٥٤ م باسم جون السادس. ثم انتصر عليه جون باليالوج فاضطر كانتاكوزينوس الى الانسحاب. واعتزل في احدى الابرشيات ـ الكنسي.

(٢) اسرة مانسوير: (MANSOER) وانظر تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٩١ و ٢١٨ وكذلك القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٥ حيث ورد ما يلي: «وفي سنة ٥١٠ ـ ٥١٢ هـ = ١١١٦ ـ ١١١٨ م تخلى صاحب المرقب ابن محرز عن القلعة الى أمير انطاكية روجر بعد مفاوضات طويلة، مقابل ولاية أخرى. وأهداها روجر بدوره الى اسرة مانسوير».

و ٥٦٦ و ٥٨٢ هـ (١١٥٧ و ١١٧٠ و ١١٨٦ م). مما تطلب تخصيص أموال ضخمة لإعادة اصلاح القلعة وترميمها، ولما عجزت أسرة مانسوير عن تأمين هذه الأموال - قبلت عرض طائفة الاسبتارية بالتخلي عن القلعة مقابل التعويض.

فمن المعروف أن طائفة فرسان المعبد الدينية - الاسبتارية - كانت تعمل باستمرار للسيطرة على القلاع والحصون. ولهذا فقد شرعت بإجراء مفاوضات انتهت بحصول الاسبتارية على قلعة المرقب (سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) وذلك مقابل إيجار سنوي قدره ألفي بيزنت ذهبي دفعت لآخر مالك للقلعة وهو (برتراند المرقبي)[1] ولقد عانى المسلمون كثيراً من عنت هذه الطائفة وجورها، بما عرف عنها وعن بقية الطوائف الدينية التي نظمت أيام الحروب الصليبية القديمة من الحقد الدفين والتعصب الحاقد ضد الإسلام وأهله. ولم يكن باستطاعة أمراء المسلمين وقادتهم الكيد لحامية (قلعة المرقب) بسبب بعدها عن مراكز القوى الإسلامية في المدن الداخلية، وبسبب ارتباط حامية قلعة المرقب بالفرنج المقيمين في بانياس، ثم بسبب توافر امكانات الدعم البحري لحامية بانياس وقلعتها (المرقب). وكان هذا هو الموقف الذي جابهه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) عندما مرت قواته على مقربة من قلعة المرقب، وتجنبت الصدام معها، وذلك وفقاً لما أوردته المصادر العربية، بقولها: «سار صلاح الدين إلى ولاية أنطرطوس، فخربها، ورحل عنها إلى المرقب، وهي من حصونهم التي لا ترام، ولا تحدث أحداً نفسه بملكه، لعلوه وامتناعه. وهو لاسبتار، والطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره. والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد. فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج، سير نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني - سفن النقل - وكانوا بطرابلس. فلما سمعوا بمسير صلاح الدين، جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم، ليمنعوا من يجتاز بالسهام. فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر، من أول المضيق إلى آخره. وجعل وراءه الرماة. فمنعوا الفرنج

---

(١) برتراند المرقبي: (BERTRAND DE MARGAT).

من الدنو إليهم. فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة، [1]
وقد أعاد صلاح الدين فتح جبلة واللاذقية ومجموعة من الحصون. وترك المرقب تحت
حكم الاسبتارية الذين كانوا ينطلقون من المرقب للإغارة على الأراضي الإسلامية
المجاورة. مما حمل الملك الظاهر ـ غازي ـ ملك حلب لقيادة حملة تأديبية ضد المرقب
وحاميتها، فحاصرها، ونصب عليها المجانيق، فدمر عدداً من أبراجها الموجودة عند
الأسوار الخارجية. وتابع الظاهر بيبرس ما بدأه صلاح الدين الأيوبي، فأخذ في
التضييق على الفرنج، وطردهم من المدن والقلاع. حتى إذا كانت سنة ٦٦٨
ـ ٦٧٠ هـ (١٢٦٩ ـ ١٢٧١ م) لم يكن قد بقي في قبضة الفرنج سوى عكا وطرابلس
وبانياس والقلاع المجاورة لها. وقد عقد الفرنج مع الظاهر بيبرس معاهدة لمدة عشر
سنوات (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ضمنت للفرنج، أو بالأحرى لبقاياهم البقاء لفترة
إضافية أخرى. ثم جاء السلطان قلاوون ـ الذي خلف الظاهر بيبرس ـ فحاصر قلعة
المرقب ـ سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م وحفر نفقاً تحت الواجهة الجنوبية، ثم قصفها فانهار
البرج الخارجي الجنوبي (والمعروف باسم برج الأول أو برج أبرون) فاستسلم فرسان
الاسبتارية وقد أشرفوا على الهلاك.

كانت قلعة المرقب من أولى القلاع التي ستولى عليها الفرنج الصليبيون. وعاشت
حتى تكون من آخر القلاع التي أعاد المسلمون فتحها، وطردوا منها الغزاة. فكانت
مدة إقامة الفرنج فيها طويلة ناهزة المائة والأربع وسبعون عاماً هجرية (169- سنة
ميلادية) . وبذلك تكون قلعة المرق قد عاشت تجربة الحملات الصليبية القديمة كلها .
ورأت كيف جاء الفرنج يجرون جحافلهم ويسوقون جيوشهم، ثم رأت كيف استطاع
المسلمون استنزاف هذه القوة وتدميرها عبر المعارك الضارية التي لم تتوقف إلا لتتجدد
بقوة أكبر وتصميم أعظم، ولقد أدرك مقدم الاسبتارية - ميوزنفيل - هذا التحول،
فعندما لم يبق للاسبتارية إلا حصن المرقب الضخم، كتب تقريره في سنة 667-هـ =
-1268م - وهو التقرير الذي تضمن ما يلي :" لم يعد باستطاع الطائفة أن تنفق على

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٤ هـ.

أكثر من ثلثمائة فارس في الشرق. بعد أن كان لديها في الأيام السابقة عشرة آلاف فارس »[1] . ولقد ظن فرسان الاسبتارية أنه بامكانهم دعم وجودهم عن طريق التحالف مع المغول التتار ، كما ظن هؤلاء المغول أن تعاونهم مع فرسان الاسبتارية سيمكنهم من الانتقام لهزيمتهم الذي أنزلها بهم المسلمون. فشنوا هجوماً انطلق من الأناضول، ووصل معرة النعمان وحصن أفامية. وتحرك المسلمون بسرعة (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) فأحبطوا هجوم المغول. ثم انصرفوا لتأديب فرسان الاسبتارية الذين تعاونوا مع المغول. ودفعت حصن المرقب قسطاً من الثمن، إذ ركز السلطان قلاون جهده ضدهم. وأرسل قواته لتأديبهم. وقد أوردت المصادر العربية قصة الأيام الأخيرة لفرسان المعبد ـ الاسبتارية ـ في قلعة المرقب بما يلي: « كان الافرنج بحصن المرقب، عندما بلغهم هجوم التتار على الشام. فانطلقوا لشنّ الغارات على بلاد المسلمين من سائر النواحي. فلما تراجع التتار عن الشام. استأذن صاحب حصن الأكراد ـ بليان الطباخي ـ[2] في غزوهم. وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه، وجمع التركمان. وبلغ حصن المرقب. ووقف أسفله. واستطرد له أهل الحصن ـ تظاهروا بالتراجع ـ حتى تورط في أوعار الجبال، ثم هجموا عليه دفعة واحدة. فانهزم. ونالوا من المسلمين. وبلغ الخبر السلطان قلاوون، فخرج من مصر لغزوهم. آخر سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م). وانتهى الى الروحاء، فوصله هنالك رسل الفرنج في طلب الهدنة وإقرارها لأهل المرقب، على أن يطلقوا سراح من أسروه من المسلمين في وقعة بليان. فعقد لهم الهدنة في المحرم سنة ثمانين وستمائة (١٢٨١ م) وتم العقد مع صاحب الاسبتار وابنه، على أن لا يستنجدوا أسير قلعة ولا غيرها، ولا يداخلوا التتر في فتنة، ولا يمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك. وعقد معهم الهدنة لاحدى عشرة سنة » ولكن الاسبتارية في المرقب غدروا باتفاق الهدنة، ونكثوا، وعادوا فتعاونوا مع المغول التتار، فسار السلطان قلاوون الى

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٨٩/٣.

(٢) بليان الطباخي: ترجم له المقريزي في المقفى ـ مخطوطة برتو باشا ورقة ٢٦٧. فذكر أنه كان من مماليك السلطان قلاوون. تقلب في عدد من الوظائف، منها إمارة حصن الأكراد. واشترك مع قلاوون في فتوحاته سنة: ٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م وتوفي سنة ٧٠٠ هـ.

الشام (سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) لمحاصرة المرقب، وانزال العقاب بحاميته لما فعلوه من ممالأة العدو. فحاصره حتى استأمنوا إليه. وملك الحصن من أيديهم [١].

لم يسلم فرسان الاسبتارية بسهولة، ولم يتخلوا عن معقلهم الأخير بيسر، وإنما قاتلوا بضراوة وعناد، فعندما جاء السلطان قلاوون لحصار المرقب، جلب معه من المجانيق التي بلغت من الوفرة ما لم يسبق أن شهدها أحد. وتولى رجاله جرّ هذه المجانيق على جانب التل، ثم شرعوا في دك أسوار القلعة. على أن القلعة توافرت عدتها، وتميزت مجانيقها بما احتلته من أوضاع جيدة، فتعرض للدمار عدد كبير من مجانيق السلطان. وظل المسلمون شهراً تقريباً دون أن يحرزوا شيئاً من التقدم. وأدرك رجال الحامية أنهم خسروا كل شيء، فلم يبق أمامهم إلا الإستسلام. فقرر السلطان قلاوون السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة الاسبتارية وعددهم خمسة وعشرون أن يخرجوا بكل متاعهم على ظهور خيولهم، ومعهم سلاحهم الكامل. أما بقية رجال الحامية ففي وسعهم الانسحاب دون أن يحملوا معهم شيئاً. فلجؤوا إلى طرطوس ومنها الى طرابلس. ودخل قلاوون القلعة في موكب الظفر يوم ٢٥ - أيار - مايو - سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) وارتاع الفرنج الصليبيون في عكا لضياع حصن المرقب [٢].

عادت قلعة المرقب إلى أهلها، وشرع المسلمون باعادة ترميمها وتحصينها تحت اشراف قائدها الأمير سيف الدين بليان الطباخي. ولقد زادتهم تجربة حصن المرقب ايماناً على ايمانهم بعدم جدوى الاستناد الى القلاع والحصون من أجل دفاع ثابت ومستقر. فقد عمل فرسان الاسبتارية قدر استطاعتهم، بل وأكثر مما يستطيعون، للاحتفاظ بهذه القلعة. ولكن انقطاع الدعم الخارجي، وعدم توافر الدعم من قلاع مجاورة أو حاميات قريبة، جعل من قضية سقوط القلعة قضية زمن لا أكثر. وهذا ما فعله السلطان قلاوون الذي حاصر القلعة حتى سقطت في قبضته كالثمرة اليانعة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون - دار الفكر ببيروت ١٩٨١ (٥/٤٥٦ - ٤٥٧).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٦٦٨ - ٦٦٩.

لا ـ قلعة الكرك .

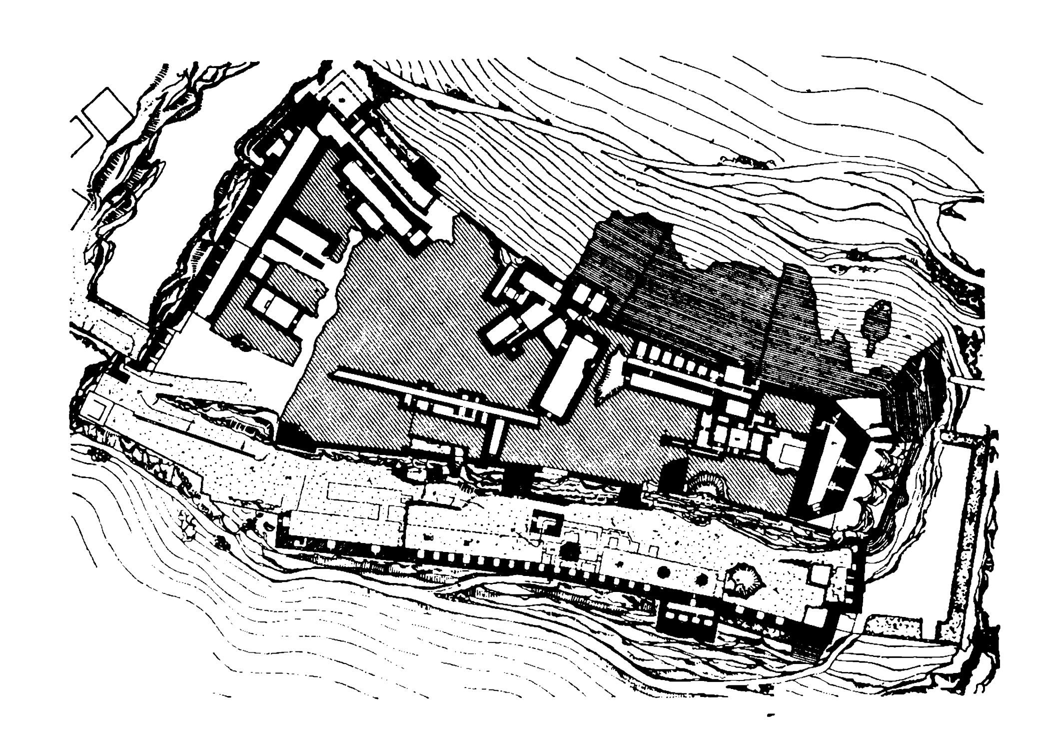
(الكرك)[1] هي مدينة وقلعة في جنوبي الأردن على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، وتقع فوق ذروة مرتفع صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي يتشعب إلى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة تماماً، وتنتصب القلعة ذاتها الى الجنوب من المدينة مباشرة، فتحميها من الهجوم عبر الاتجاه الوحيد الصالح للهجوم من جهة الأرض المرتفعة المجاورة. ولقد شيدت القلعة فوق مسطحين ـ مصطبتين ـ تفصلهما عن المدينة قناة عميقة. كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحف بها ويتماشى مع حواف الصخور. ولكنها عريت منه في معظم الأماكن، في الأزمنة المتأخرة، وتعود الدفاعات الموجودة بنسب متساوية تقريباً إلى العهدين العربي ـ الإسلامي والفرنجي الصليبي، وتتميز المرحلتان عن بعضهما بعضاً بنوع الحجارة المستخدمة والتي نقلت من مقالع مختلفة. وقد وصف أبو الفداء قلعة الكرك بقوله: «هو بلد مشهور وله حصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام، وعلى بعض مرحلة منه مؤتة، وبها قبر جعفر الطيار وأصحابه رضي الله عنهم. وتحت الكرك واد فيه حمام وبساتين كثيرة، وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك، وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز. وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل»[2].

تلكم هي واحدة من مجموعة كبيرة جداً من القلاع والحصون التي تناثرت على امتداد المسطح الجغرافي لبلاد الشام. ولهذا لم يعد من الغريب أو المستهجن أن يظهر

---

(١) الكرك ـ أو كرك مؤاب ـ هي حصن كبير أطلق عليه المؤرخون اسم حجر الصحراء ـ وعرفه الفرنج باسم: (PETRA-DESERTI) أو (CIVITAS-PETRACENSIS) وتحمل باليونانية اسم (CHARACH MOBA) وباللاتينية اسم كراك دومونتريال: (LE CRAC DE MONTREAL).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٥٥.

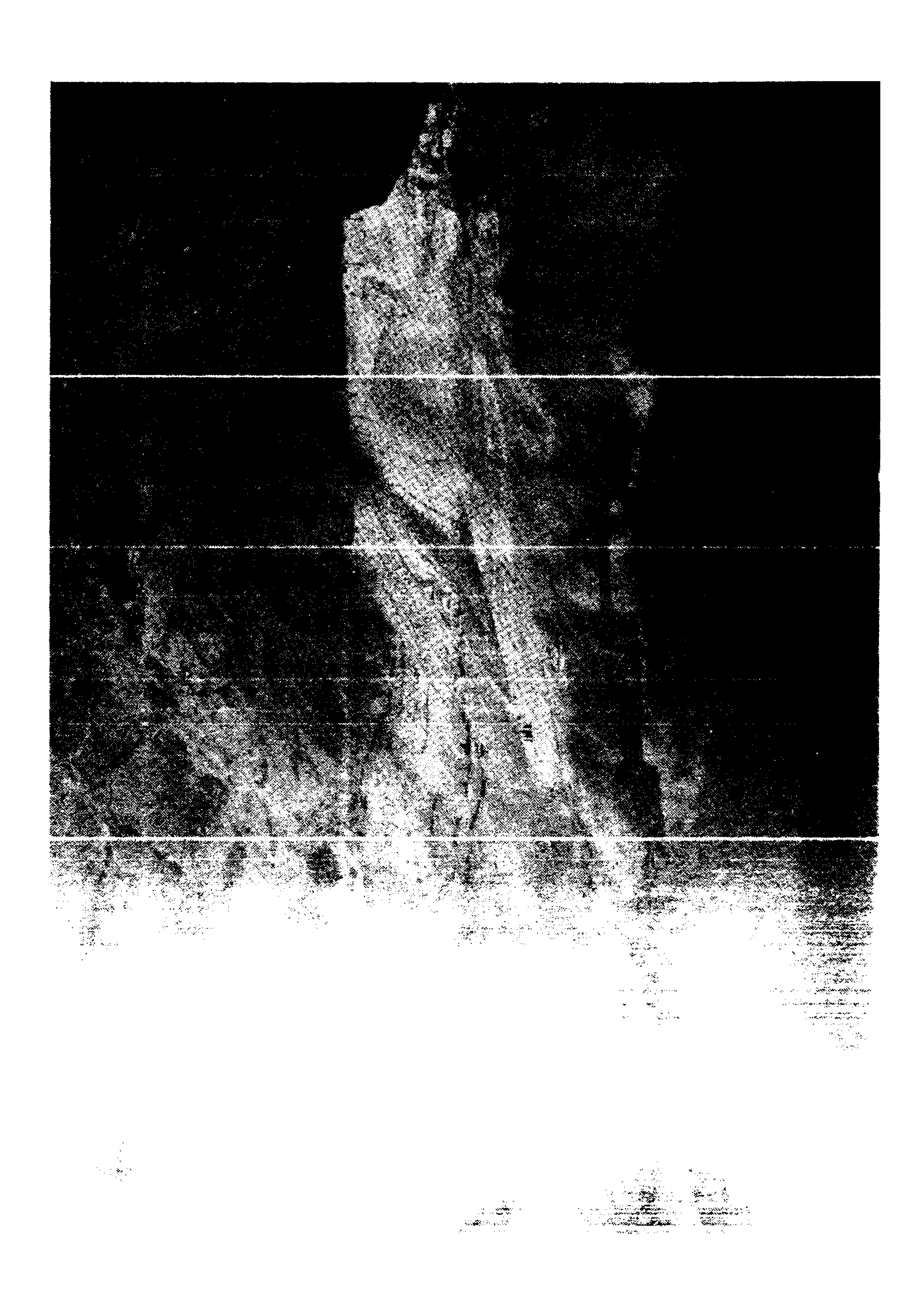


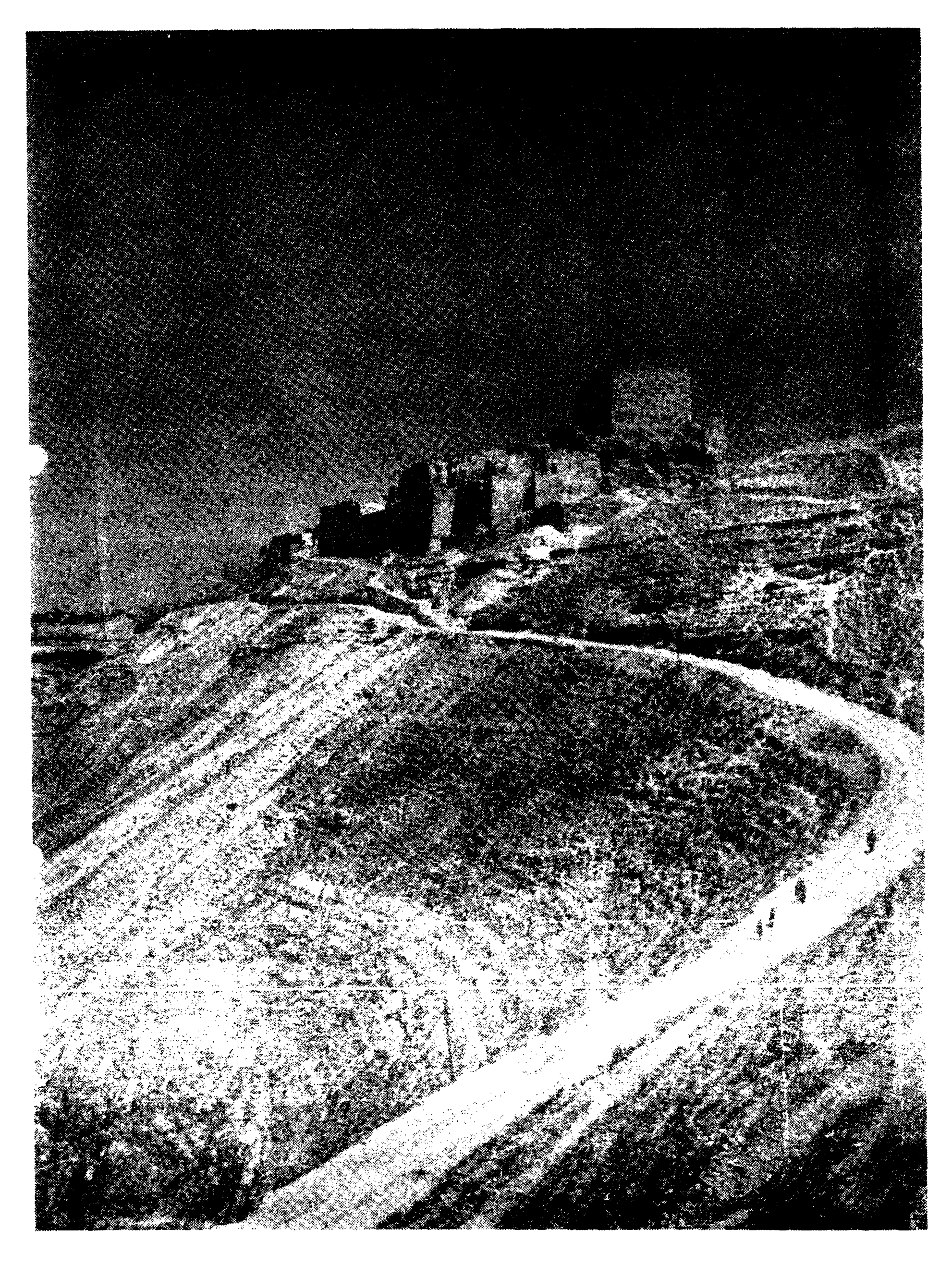
الكرك AL KARAK

مخطط أرضي للقلعة العلوية والسفلية مقياس ١/٢٠٠٠.

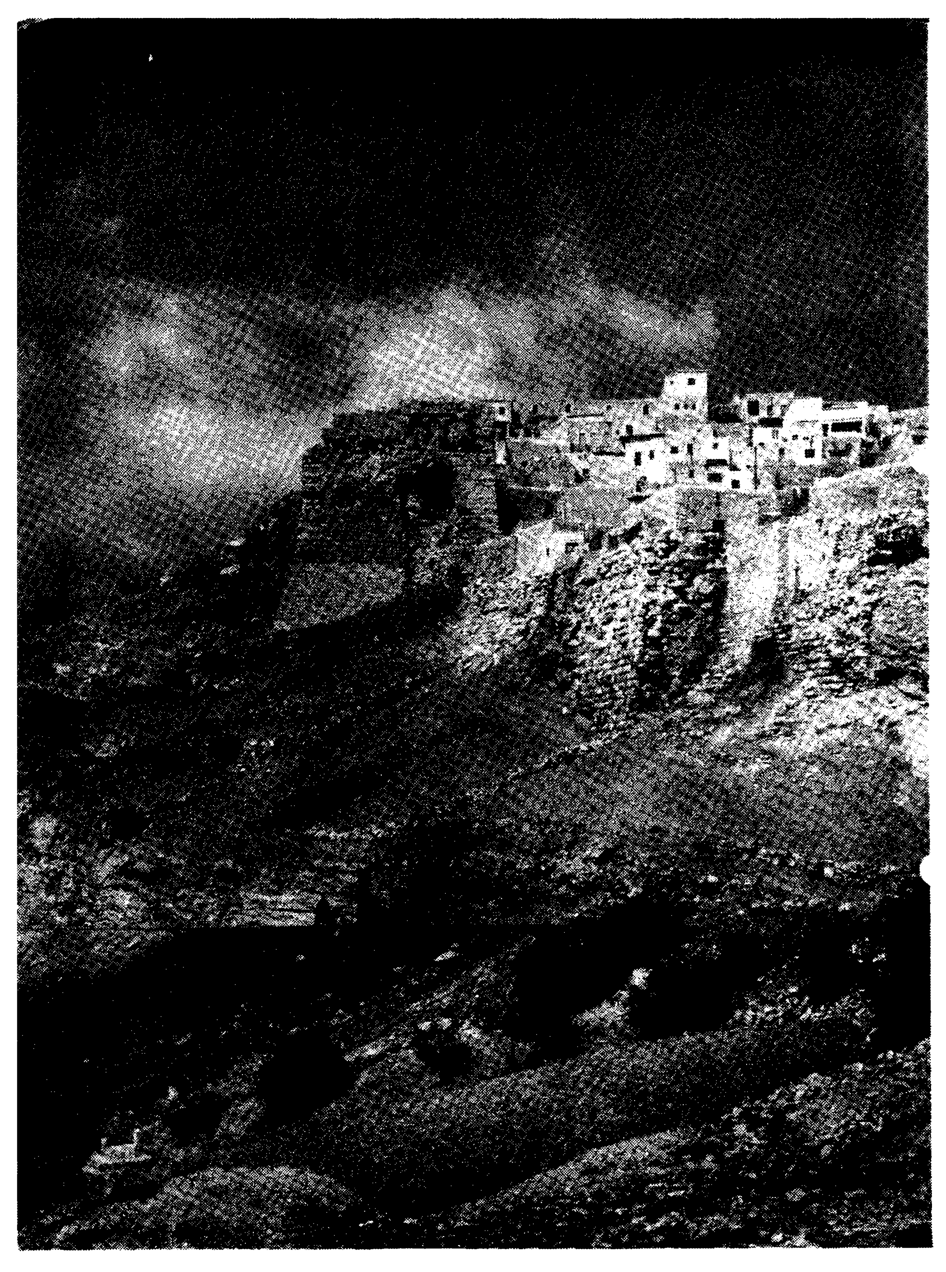
يبين المخطط المبنى والأراضي التابعة له التي تقع تحت مستوى الأرض من القلعة العلوية، كذلك نفذت القلعة السفلى على مستوى الأرض لكشف الغرف تحت الأرضية التي أشير إليها بالرسم المنقط. وأشير الى طوري البناء الفرنجي الأول والثاني (١١٤٢ - ١١٨٨) باللون الأسود والتهشير المتقاطع، كما أشير إلى الفترة العربية (بعد العام ١١٨٨) بالتهشير المكثف بينما رسمت الأبنية التحتية المطمورة تحت التراب والصخر بالتهشير العريض.

١ - البوابة الرئيسية الحديثة، ٢ - القلعة السفلية، ٣ - البوابة السفلية، ٤ - السور الخارجي للقلعة السفلية، ٥ - البرج الزاوي الشمالي الشرقي (خرب)، ٦ - المباني التابعة للقصر، ٧ - برج محصن، ٨ - جدار حاجز (ساتر).





الكرك



الكرك



الكرك

المؤرخون والباحثون وعلماء الآثار والمهندسون العسكريون اهتماماً متعاظماً بما احتوته بلاد الشام من هذه التحصينات الدفاعية التي يعود تاريخ بعضها إلى العصور القديمة، والتي برزت أهميتها خاصة في العصور الوسطى. ذلك أن هذه القلاع والتحصينات قد عاشت أحداث الحروب الصليبية القديمة جميعها. فأصبحت من وجهة نظر المهندسين وعلماء الآثار من النماذج الحية لما كان عليه فن العمارة والبناء خلال تلك الحقبة التاريخية. وأصبحت من وجهة نظر العسكريين من النماذج الواضحة لما كان عليه فن الحرب من التطور، ولما كان لهذه القلاع من دور في الأعمال القتالية ـ الهجومية والدفاعية ـ. وإذا أمكن تجاوز الخصائص الفنية لتلك القلاع والتحصينات، وهي الخصائص التي فرضت بطبيعتها على المدافعين أساليبهم التعبوية ـ أو التكتيكية ـ بقدر ما فرضت على المهاجمين طرائقهم وحددت لهم وسائلهم لاقتحام التحصينات، فإن أبرز ما يمكن تعلمه هو أن الفرنج الصليبيين والمسلمين على السواء، لم يتعاملوا مع القلاع والتحصينات إلا على أساس أنها ذات دور محدود، سواء لاعداد القوات للهجوم، باعتبارها قاعدة للهجوم، أو من أجل تلقي صدمة المهاجمين، وتأمين الظروف المناسبة للصمود والمقاومة خلال فترة كافية يتم خلالها طلب قوات الدعم من الخارج للقيام بهجوم مضاد ولرفع الحصار عن الحاميات القائمة بالدفاع. وبكلمة أكثر وضوحاً، فإن الحسم في الصراع المسلح حتى على مستوى العمليات، بقي مرتبطاً بالهجوم وبالهجوم وحده. وهو ما يتوافق بدقة مع مفهوم الدفاع والهجوم في المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة. وقد يكون ذلك هو أحد الحوافز المثيرة التي أعطت للباحثين قوة دفع إضافية، للاهتمام بمزيد من العناية بقلاع بلاد الشام وتحصيناتها.

كانت (الكرك) تحتل مرتبة هامة عندما استولى عليها الفرنج الصليبيون خلال حملتهم الأولى (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م). وقد أسند ملك القدس ـ بلدوين الأول ـ إقطاع الكرك إلى أحد كبار رجال بلاطه ـ واسمه باجان الساقي ـ[1] الذي عمل على تحصين قلعة كرك مؤاب ـ وربطها بمجموعة قلاع الشوبك وحصن وادي

(١) باجان الساقي: (PAYEN LE BOUTEILLER-PAGANUS PINCERNA).

موسى[٤]. وأصبحت الكرك قاعدة لانطلاقة الفرنج من أجل العدوان على مدن شرقي الأردن، ومن أجل التعرض لقوافل المسلمين التجارية التي كانت تتحرك ما بين بلاد الشام ومصر. الأمر الذي حمل نور الدين زنكي (سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) على مهاجمة الكرك حتى يهيء لقافلة ضخمة من قوافل المسلمين فرصة اجتياز اقليم ما وراء نهر الأردن، والوصول الى مصر. ثم عاد نور الدين للهجوم في السنة التالية على قلعة الكرك، وحاصرها. وكانت الكرك يومها تحت حكم (ستيفاني ميللي) التي ورثت الحكم عن زوجها همفري سيد تبنين - ثم تزوجها - رينالد دوشانيون - فأصبح حاكماً لاقطاع الكرك. وقد أفاد أمراء الكرك - كونتات - من موقع الكرك للإغارات على أملاك المسلمين ونهبها والتعرض لقوافل المسلمين والاستيلاء عليها. مما ساعد على زيادة تحصين الكرك، وتجهيزها بمتطلبات الرفاه، حتى بلغت حياة أمراء الكرك مبلغاً من الترف وظواهر العظمة مما لم تبلغه أو تعرفه حياة الملوك في أوروبا خلال تلك الفترة. لاسيما خلال فترة إمارة - رينالد شاتيون - الذي حكم قطاع الأردن منذ سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م. فاستخدم الكرك قاعدة لأعماله العدوانية المستمرة. مما دفع نور الدين زنكي - ثم صلاح الدين الأيوبي من بعده - لمهاجمة الكرك وحصارها ولكن بدون جدوى نظراً لما تميزت به القلعة وأسوارها من القوة والمنعة. ولعل من أبرز الأحداث التي عاشتها القلعة خلال تلك الفترة هي حفلة الزفاف الشهيرة التي أقامها - رينالد شاتيون - لابنة زوجته والوريثة الشرعية للقلعة - الأميرة ايزابيللا - على همفري سيد تبنين. وكانت الفتاة يومها قد بلغت الحادية عشرة من عمرها في حين كان الزوج يناهز السابعة عشرة من عمره. وأعد رينالد - أو أرناط كما تذكره المصادر العربية - كل ما يتناسب مع هذه المناسبة من مظاهر العظمة والأبهة. وأخذت وفود الضيوف في الوصول الى القلعة أثناء شهر تشرين الثاني

---

(١) تقع قلعة وادي موسى على تل شديد الانحدار، يعرف حالياً باسم تل عويرة، على أطراف البتراء. حيث تطل خرائب تحصينات الفرنج التي تغطي مساحة كبيرة على وادي موسى. وفي هذه الجهة أيضاً خرائب حصن صغير يعود الى أيام العصور الوسطى، كان مشيداً على تل حبيس في جوف البتراء. (تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٣٧١).

ـ نوفمبر ـ سنة ١١٨٣ م. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف ـ مثل الملكة كومنينا والدة العروس ذاتها ـ كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، إلا أنهم قدموا للقيام بمحاولة لاصلاح ذات البين بين مراكز القوى المتنافرة للفرنج المتصارعين على النفوذ والسلطة. وقد جاء مع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر أنحاء إمارات الفرنج في بلاد الشام.

كان صلاح الدين الأيوبي خلال تلك الفترة في بلاد الشام. فكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب ـ وهو نائبه بمصر ـ يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك، وسار صلاح الدين إليها، فوافاه أخوه العادل في شهر رجب (٥٧٩ هـ) ١١٨٣ م. وكثر جمع صلاح الدين، وتمكن من حصار القلعة، وصعد معه المسلمون إلى ربضه، وملكه. وحصر الحصن من الربض. وتحكم عليه في القتال. ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً. وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في ردّه عنه. فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع. واستمر الرقص والغناء بداخل القلعة. وأعدت والدة العريس، ستيفاني ـ طعاماً بعثت به إلى صلاح الدين. فأرسل صلاح الدين يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان. وأصدر أمره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من المنجنيقات. وأسرع ملك بيت المقدس ـ بلدوين ـ لقيادة جيشه من أجل رفع الحصار عن الكرك ـ وبينما كان جيش الفرنج يتجاوز أريحا. كان صلاح الدين قد رفع الحصار وعاد إلى دمشق[١].

جمع صلاح الدين جيشه في السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) من جميع أنحاء البلاد. وسار به الى الكرك. فحصر الحصن وضيق على من به، وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه. واشتد القتال. فملك المسلمون الربض، وكان هو والحصن على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحواً من ستين ذراعاً. فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه ـ يردمه ـ فلم يقدر أحد على الدنو منه

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧١١ ـ ٧١٥ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٩ و ٥٨٠ هـ.

لكثرة الرمي عليهم بالسهام من البرج، ورمي الاحجار من المنجنيقات. فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف، وأن يلقى في الخندق ما يطمه. فيما كانت منجنيقات المسلمين ترمي الحصن ليلاً ونهاراً. وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم ـ ملك القدس ـ وإلى فرسانهم، يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عجلين. فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين، رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويقاتلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك إليهم وضيقها. فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم. فلما رأى ذلك ابتعد عنهم عدة فراسخ، وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم. فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما علم صلاح الدين ذلك، عرف أنه لن يتمكن من تحقيق هدفه، فسار عنهم إلى دمشق.

حاول حاكم الكرك ـ رينالد شاتيون، أو أرناط ـ التخفيف من ضغط المسلمين على إقطاعه، فالتمس عقد هدنة مع صلاح الدين. وتم له ذلك، وأخذت القوافل التجارية الإسلامية في التنقل مطمئنة ما بين الشام ومصر. فلما كانت سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م. وبينما كانت إحدى القوافل العظيمة المحملة بالنفائس من الأموال والمتاع تمر على حدود إقطاع الكرك، نكث رينالد باتفاقه وعهوده، وخرق الهدنة، فهاجم القافلة واستولى عليها وغنم أموالها ودوابها وسلاحها. وأودع السجن من أسر من الجند القليل الذي كان يرافقها. فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق سراح الأسرى والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصر على الامتناع، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله بيده إن ظفر به[1].

---

(١) كانت هذه المرة الثانية التي أقسم فيها صلاح الدين الأيوبي على قتل رينالد شاتيون بيده إن أظفره الله به. وكانت المرة الأولى سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م ـ عندما وجه رينالد شاتيون حملة من الكرك، نزلت في ايلات، ونقلت معها السفن التي تم صنعها وأعدادها في الكرك، وسارت عبر البحر الأحمر فأغارت على رابغ وعيذاب والحوراء وينبع. فأدرك قائد البحرية المصرية ـ حسام الدين لؤلؤ ـ قوات الفرنج في الحوراء ـ فهزمهم، وتم ذبح أسراهم في القاهرة وفي منى يوم عيد الأضحى ـ عقاباً

عزم صلاح الدين الأيوبي على وضع حدّ حاسم ونهائي لما يقوم به أمير الكرك الصليبي من استفزازات وأعمال عدوانية. فحشد قواته من سائر ديار المسلمين. وكانت معركة حطين الخالدة يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٤ تموز - يوليو - ١١٧٨ م) ثم أعقبها فتح قلعة طبرية ومدينة عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والخولة ثم يافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها. وأعقب ذلك فتح القدس وهونين. وترك صلاح الدين قوة لحصار الكرك التي باتت معزولة عن كل امكانات الدعم الخارجي. وضاق الحصار على الحامية المدافعة عن الكرك، وطال الأمد عليهم، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم. وانقضت فترة سنة تقريباً التمس بعدها الفرنج من صلاح الدين تسليم الكرك مقابل منحهم الأمان، فأجابهم إلى ذلك. وعادت الكرك الى المسلمين. وأسند صلاح الدين حكم الأردن إلى أخيه الملك العادل، وأبقى الكرك عاصمة له، ومنح هذا المعقل الهام عناية فائقة. فقام الملك العادل بترميمه وتقوية دفاعاته. ونظراً للشهرة التي حازتها القلعة، بسبب قوتها ومنعتها، فقد استخدمها صلاح الدين لحفظ خزائن أموال المسلمين. وبعد وفاة الملك العادل، ورث عنه ابنه الملك المعظم امارة الأردن - وفيها الكرك -.

جاءت الحملات الصليبية الثالثة ثم الرابعة فالخامسة، رداً على ما أحرزه صلاح الدين والمسلمون من انتصارات، وقد نجحت هذه الحملات بتحقيق بعض المكاسب للفرنج، وأبرزها عقد صلح بين الامبراطور الألماني فريدريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) تم بموجبه تسليم القدس للفرنج. ولم يقبل خبراء الفرنج من العسكريين بشروط هذا الصلح، لأنهم اعتبروا بأنه من المحال عليهم الاحتفاظ بالقدس ما لم يلحق بها اقليم ما وراء نهر الأردن وقاعدته الكرك. وقالوا: «كيف تستطيع القدس أن تبقى - في قبضة الفرنج - وليس يربطها بالساحل سوى

= لمن يجرؤ على مهاجمة الديار المقدسة الإسلامية أو يحاول انتهاك حرمتها. وأقسم صلاح الدين أن يقتل رينالد شاتيون بيده إن أظفره الله به. (لمزيد من التفاصيل انظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٧٨ هـ).

شريط ضيق من الأرض» . وهكذا استمرت الكرك بممارسة دورها ضد الفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م. وكان الناصر داود ـ الأيوبي ـ قد أصبح ملكاً على الأردن، قام البريتون بالتعرض لقافلة اسلامية، فرد الناصر داود على ذلك بقيادة جيشه من الكرك، وهاجم القدس، واحتل قلعتها بعد حصار استمر سبعة وعشرين يوماً. ثم عاد الى الكرك. وفي سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م أغار فرسان الداوية ـ الصليبيين ـ على مدينة حبرون الإسلامية، فوجه الناصر داود قواته من الكرك لقطع الطريق المؤدي الى القدس، وجباية الرسوم من حجاج الفرنج وتجارهم. وعندما وصل المغول التتار إلى بلاد الشام، تجمعت قوات الكرك مع الخوارزمية، وانضمت إلى جيش مصر الذي كان يقوده المظفر قطز، واشتركت جميعاً في معركة عين جالوت (سنة ٦٥٩ هـ = ٢٦ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٢٦٠ م). وعندما استولى الظاهر بيبرس على الحكم، قام بزيارة لقلعة الكرك (سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وأمر بدعم القلعة وتقوية الدفاع عن المدينة وتحصينها، فتم تشييد الحصن الشمالي من سور المدينة، وحسنت قناة القلعة.

تعرضت قلعة الكرك لأضرار فادحة إثر الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة سنة ٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م). واستمرت الاصلاحات لفترة طويلة امتدت حتى سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وبقيت الكرك محتفظة بأهميتها حتى نهاية العهد المملوكي. ثم زالت أهميتها بعد الفتح العثماني لبلاد الشام. وبقيت دفاعاتها بحالة سليمة حتى سنة ١٨٧٠ م. ثم أخذت في التداعي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الأردن خلال حملتهم الصليبية الأولى. وهذا يعني أن مدة احتلالهم للقلعة قد استمر ما بين ثمانين وتسعين سنة. وأقاموا اقطاعهم على أرضه بهدف ما يمكن أن يطلق عليه بحسب لغة المصطلحات الحديثة اسم (تأمين العمق الاستراتيجي للكيانات الصليبية) وجعلوا من الكرك قاعدة لأعمالهم العدوانية ضد الحجاز وضد دمشق.

غير أن هذه الأعمال العدوانية استثارت غضب المسلمين. ولا ريب أن هذه الأعمال

قد ساعدت على تصعيد وتيرة الصراع المسلح بصورة مستمرة ومنتظمة. وقد كانت ممارسات الفرنج في التعرض لقوافل المسلمين ـ لاسيما عندما كانت هناك فترات هدنة ـ وكذلك قيام الفرنج بالتعرض لمدن المسلمين ـ وخاصة تلك التي تركت اثراً عميقاً في نفوس المسلمين عندما وجه ـ رينالد شاتيون ـ[1] حملته الى الحجاز ـ كانت هي لاسباب المباشرة لمعركة حطين.

لقد أقام الفرنج الصليبيون ممالكهم واماراتهم واقطاعاتهم في بلاد الشام، من خلال هجومهم الشامل في حملتهم الصليبية الأولى، ولعل هذا ما يفسر سهولة استيلائهم على القلاع والتحصينات ومقابل ذلك، فقد حاول نور الدين زنكي إخراج الفرنج الصليبيين من قلعة الكرك مرتين. وفعل صلاح الدين الأيوبي مثل ذلك عبر محاولات الحصار المتتالية. وكان الفشل من نصيب هذه المحاولات جميعها لمجموعة من الأسباب التي أبرزتها مسيرة الأحداث ذاتها. فقد كانت قلعة الكرك تحتل موقعاً حصيناً، غير أن موقعها لم يكن هو السبب فيما اكتسبته من الشهرة الدفاعية، وإنما كان السبب هو في ارتباطها بمجموعة من التحصينات المماثلة هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فان ما كانت تتلقاه القلعة من دعم خارجي خلال تعرضها للحصار كان عاملاً أساسياً وحاسماً في مساعدتها على الصمود والمقاومة. ولهذا فعندما تم تحرير القدس والمناطق المجاورة لها. وأصبحت قلعة الكرك معزولة عن محيطها الخارجي، اكتفى صلاح الدين بترك قوة صغيرة لحصار القلعة، ولم يستخدم ضدها المنجنيقات أو أدوات الحصار الأخرى. حتى إذا ما نضجت الثمرة تحت نار الحصار الهادئة، سقطت بصورة تلقائية، فتلقفتها قبضة المسلمين، واحتفظت بها.

إن اتساع قلعة الكرك. وما توافر لها من أسباب الدفاع، ثم ما حشد فيها من

---

(١) رينالد شاتيون: (RENAULT DE CHATILLON) وقد وصفه ابن الأثير في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٣ هـ ـ بما يلي: «كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم. وقد وقع في أسر صلاح الدين الأيوبي يوم حطين. فقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته. وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة. والثانية لما أخذ القفل غدراً».

متطلبات الحرب لمدة طويلة، وتجهيزها بوسائل الترف، إنما يبرهن على المكانة الرفيعة التي احتلتها قلعة الكرك أيام الحروب الصليبية القديمة، باعتبارها عاصمة اقليم ما وراء نهر الأردن، ثم باعتبارها القاعدة المتقدمة للدفاع عن الامارات والممالك الصليبية، وللهجوم على بلاد المسلمين الداخلية في الوقت ذاته. ويمكن بعدئذ اعتبار استيلاء الفرنج على الكرك، ثم قيام المسلمين بطردهم منها، بمثابة برهان على الحقيقة الثابتة وهي: **(تفوق الهجوم على الدفاع)** وهذه الحقيقة بدورها هي أساس حقيقة ثانية معروفة وهي: **(انه من المحال مجابهة الدفاع الشامل بغير هجوم شامل) .**

وإذا كانت قلعة الكرك قد انتظمت في إطار خطة دفاعية استراتيجية. فقد كان من المحال التعامل معها على مستوى هجمات محدودة على مستوى العمليات أو على المستوى التعبوي ـ التكتيكي ـ. وهذا ما أكدته تجارب الحصار الفاشلة المتتالية. فكان لا بد من انتظار نتائج الهجوم الشامل ـ الاستراتيجي ـ الذي بدأت بمعركة حطين، حتى يتم اخضاع حاميات القلاع والحصون المنيعة ـ وفي مقدمتها قلعة الكرك.

٨ ـ قلعة بعلبك .

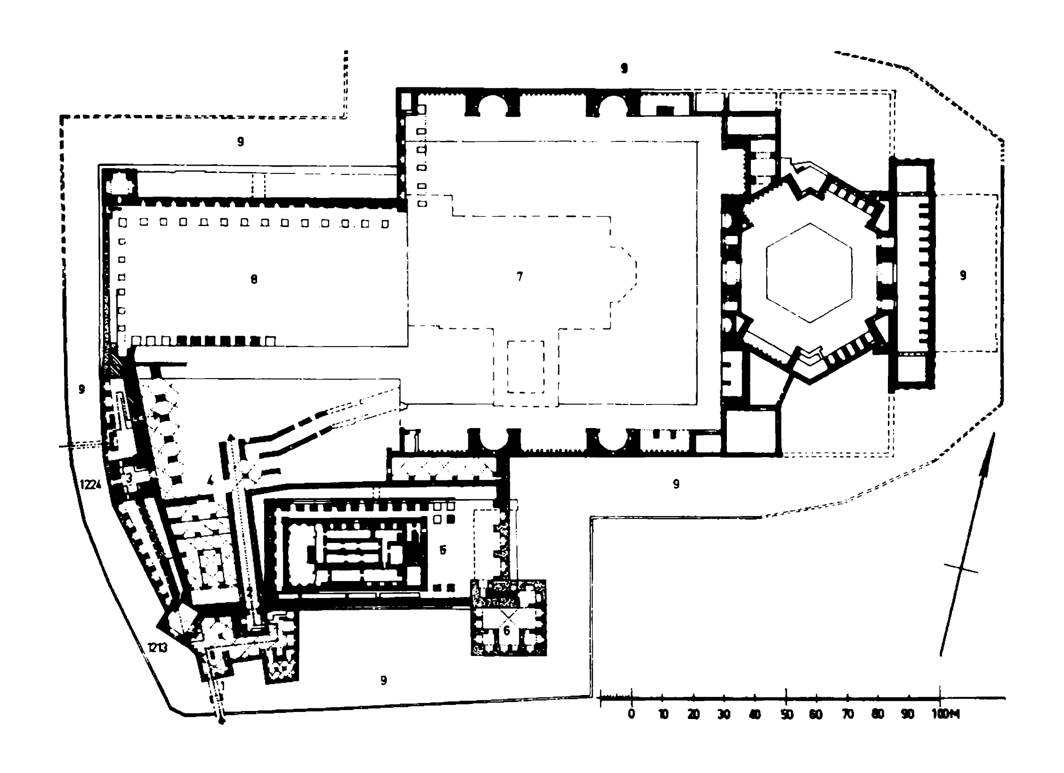
بعلبك[١] هي بلدة صغيرة في البقاع، تحتل موقعها على هضبة مرتفعة تقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية، اشتهرت بمعابدها القديمة. وقد حولت أرباض المعبد الكبير الذي يعود تاريخه إلى حقب مختلفة من عصر الامبراطورية الرومانية إلى قلعة، وأدخلت عليها تحسينات متتالية خلال العصور الوسطى، بإضافة أسوار محيطية جديدة مع أبراج. وعلى الرغم من أن علماء الآثار والمهتمين بها، قد نجحوا في المحافظة على آثار هذه التحصينات ضمن الحدود التي لا تتعدى فيها على المباني القديمة العهد، فإن بعلبك تظهر بشكل مدهش كيف كان تكيف صروح العالم القديمة الضخمة لتستغل في العصور الوسطى. وقد وصف المؤرخ أبو الفداء مدينة بعلبك بقوله: « هي بلدة قديمة ذات أسوار، ولها قلعة حصينة عظيمة البناء، وهي ذات أشجار وأنهار وأعين، وهي كثيرة الخير. قال في العزيزي: وبعلبك مدينة جليلة قديمة، بها مذبح، تقول الصابئة: أنه بيوت من بيوتهم عظيم عندهم جداً. ومن بعلبك إلى الزبداني ثمانية عشر ميلاً. والزبداني مدينة ليس لها أسوار. وهي على طرف وادي بردى، والبساتين متصلة من هناك إلى دمشق. وهي بلد حسن المنازه ـ المنتزهات ـ والخصب. ومنه إلى دمشق ثمانية عشر ميلاً »[٢].

كانت بعلبك تحت حكم الروم ـ البيزنطيين ـ عندما انطلقت جيوش العرب المسلمين لفتح بلاد الشام. وما إن فرغ العرب المسلمون من فتح دمشق، وتدمير تجمع الروم في فحل ـ بيسان ـ حتى انطلقت جيوشهم لمناطق العمل المخصصة لها، تنفيذاً

---

(١) بَعَلْبَكْ أو بَعْلَبَكْ: (BA'ALBEK) أو باليونانية هليوبوليس HELIOPOLIS وبالفرنجية بالبك: (BALBEK) وماوبك: (MAUBEK).

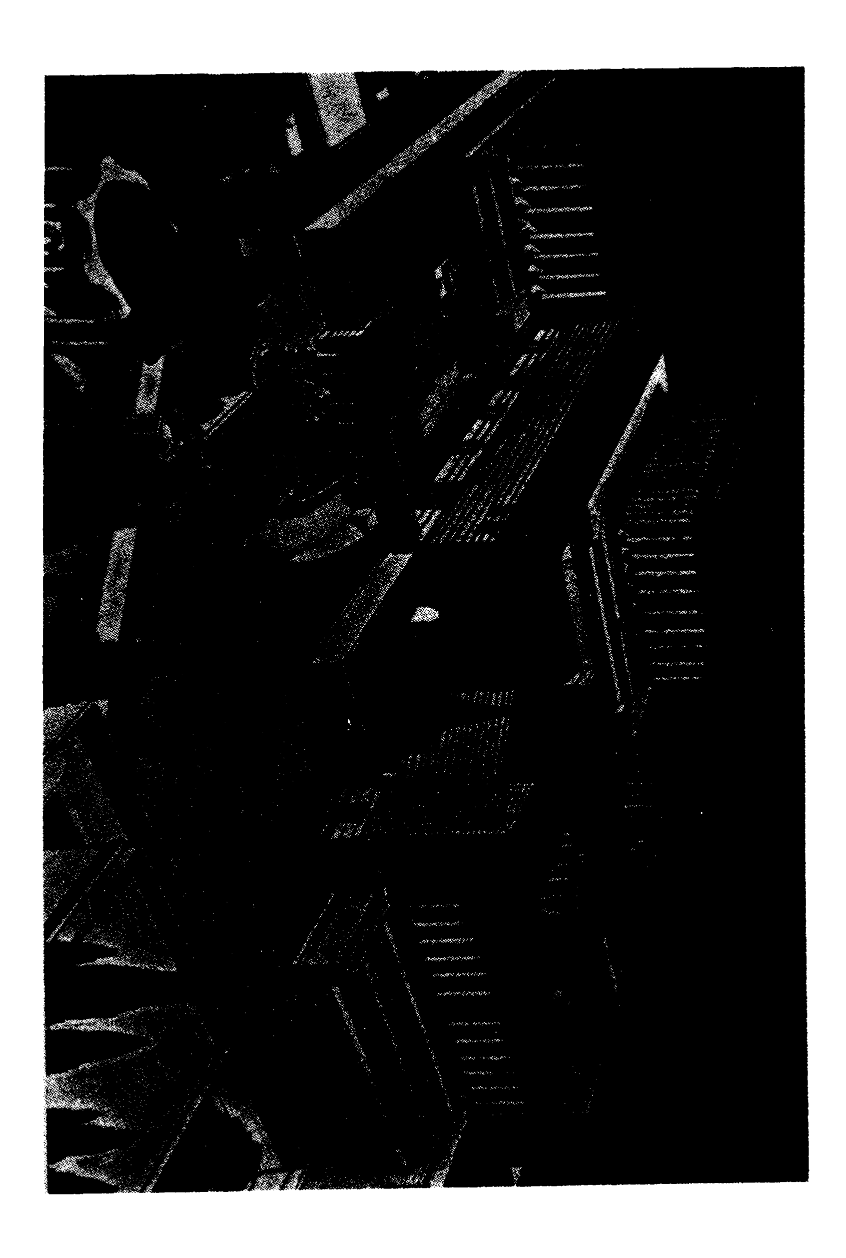
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ـ ص: ٦٧ ـ ٦٨.



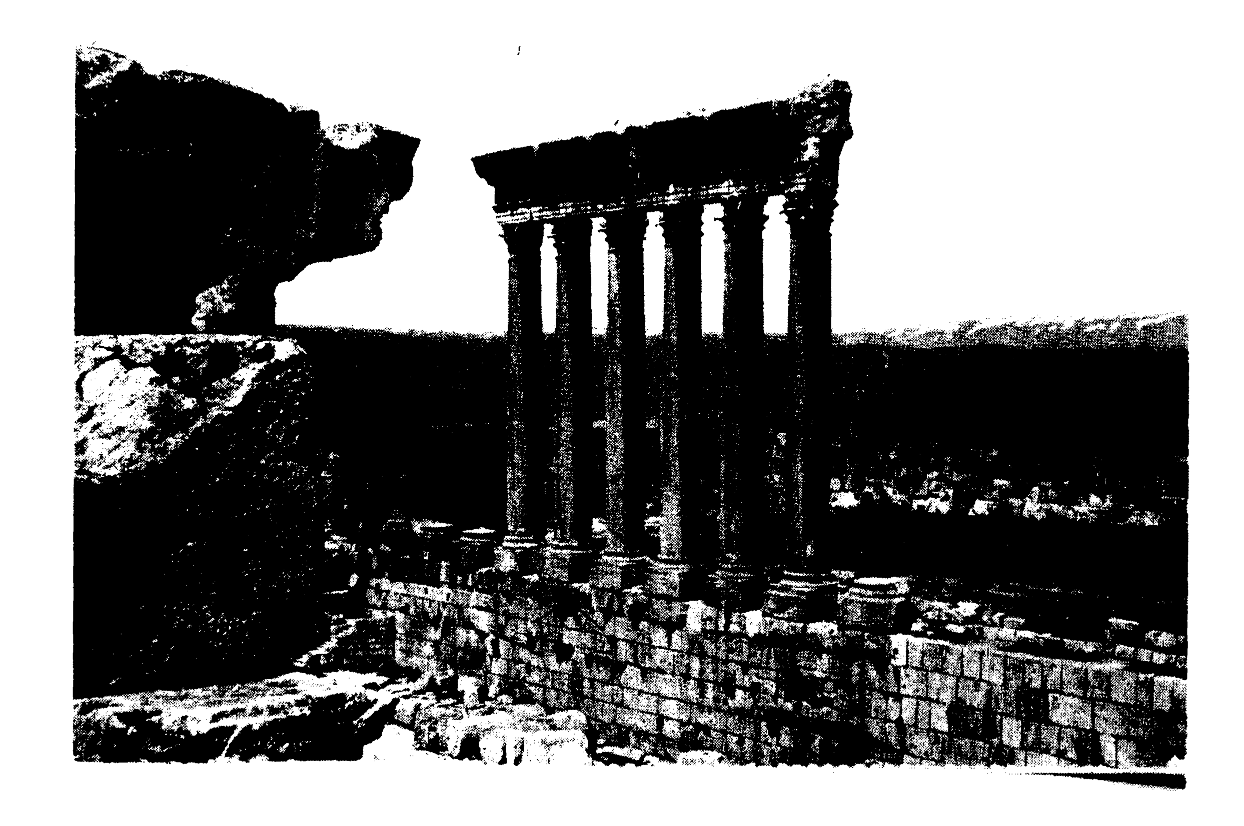
بعلبك

مخطط عام لأرباض المعبد التي حولت لقلعة، المقياس ١/٢٠٠٠. رسمت مباني عصر الإمبراطورية الرومانية باللون الأسود، والمباني السابقة لمنتصف القرن الثاني عشر بالتهشير المتقاطع، والمباني العائدة للنصف الأول من القرن الثالث عشر بالتهشير، ومباني أواخر القرن الثالث عشر بالتنقيط.

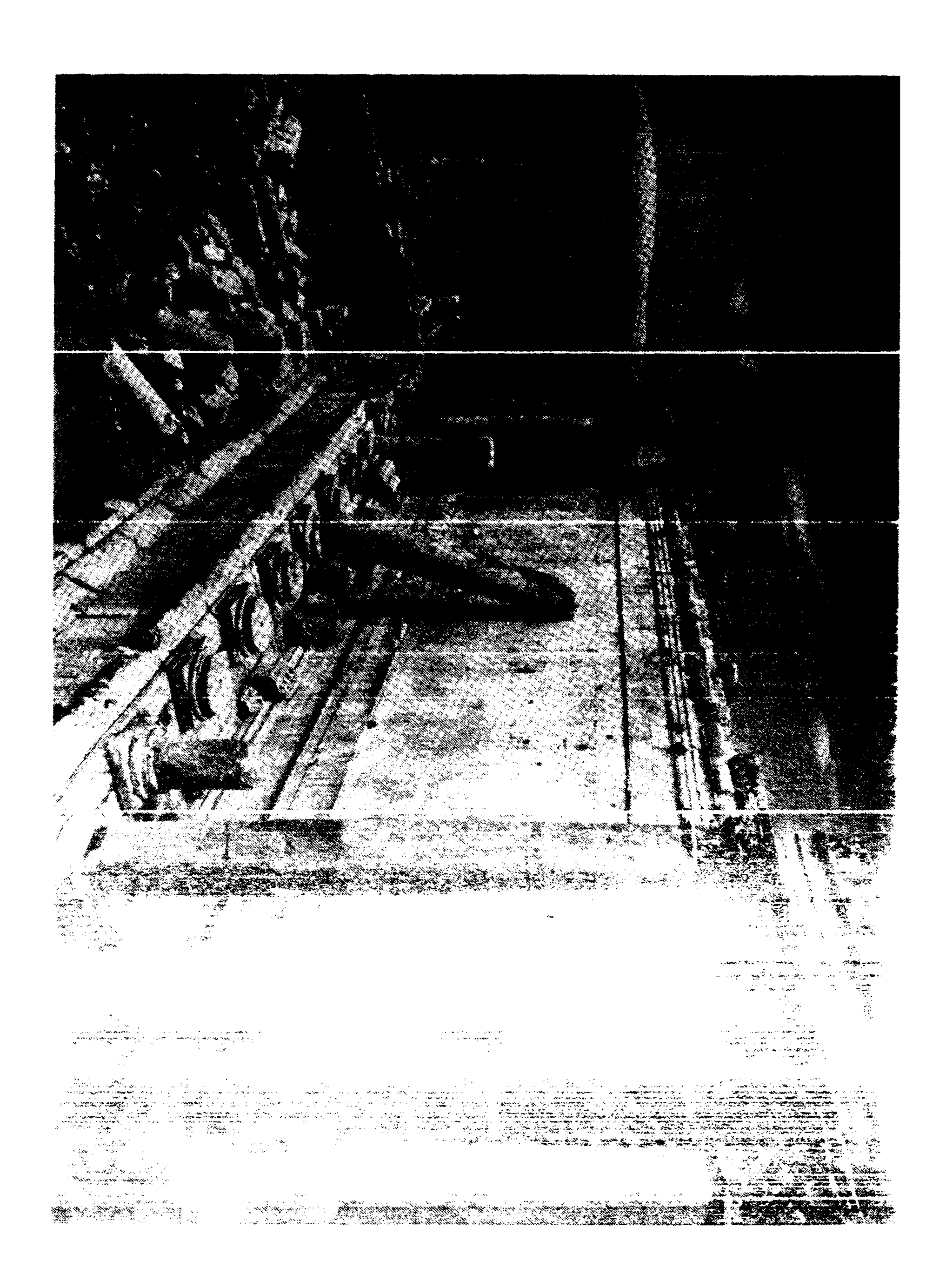
١ ـ حصن أمامي. ٢ ـ البوابة الجنوبية الداخلية، ٣ ـ البوابة الغربية القديمة، ٤ ـ مسجد متصدع، ٥ ـ هيكل باخوس مع إضافات من العصور الوسطى، ٦ ـ برج السلطان قلاوون، ٧ ـ كنيسة بيزنطية (أزيلت أثناء التنقيب)، ٨ ـ أساسات هيكل جوبيتر، ٩ ـ خنادق دفاعية. (بالاستناد إلى شولتز ـ وينفلد ـ كرينكر مع تكبيرها من قبل المؤلف).



تصميم هياكل بعلبك



أعمدة هيكل جوبيتر الست في بعلبك





بعلبك

لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه [١] فكان من نصيب أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، فتح شمال بلاد الشام. فسار أبو عبيدة على محور مرج الصفر - البقاع - حمص. وكان لزاماً أن تصطدم قوات العرب المسلمين بالحامية البيزنطية في بعلبك. ولم تلبث أسوار بعلبك وتحصيناتها أن أسلمت قيادها بعد قليل من المقاومة للجند المجاهدين في سبيل الله. وأصبحت بعلبك، عاصمة البقاع، قاعدة للإسلام والمسلمين منذ فتحها (سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م). وجابهت بعلبك موقفاً صعباً سنة ١٢٧ هـ = ٧٤٤ م عندما أوغل الروم في تقدمهم عبر بلاد الشام. ووصلوا إلى بعلبك، وتمكنوا من تدمير تحصيناتها تدميراً جزئياً. وعاد الروم بقيادة الامبراطور (جون تزيميسكس) [٢] فهاجموا بعلبك سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م واحتلوها لفترة قصيرة، ودمروا بعضاً من أسوارها وتحصيناتها. وعندما جاء الفرنج الصليبيون لغزو بلاد الشام منحدرين من الشمال، واجتازوا أنطاكية، وجدوا أنفسهم مرغمين للسير على أحد محورين للوصول إلى القدس: فإما طريق الساحل، وإما الطريق البديل الممتد من شمال بلاد الشام إلى فلسطين عبر وادي نهر العاصي - من حماه إلى حمص، ثم إلى أحد طريقين أولهما على طريق الساحل مروراً بمدينة طرابلس - والثاني يتجه إلى بعلبك ثم الى منابع نهر الأردن عبر دمشق - ولما كان هذا المحور سيصطدم بالمدن الداخلية القوية، فقد فضل الفرنج تجنبه. وبقيت بعلبك بعيدة عن قبضة الفرنج الصليبيين بفضل ارتباطها بأمير دمشق [٣]

غير أن ذلك لم يمنع الفرنج من محاولة السيطرة على عاصمة البقاع باعتبارها العقدة الهامة على طرق مواصلاتهم، والتي يمكن بواسطتها فرض السيطرة على سهل البقاع الخصيب بأكمله. وجاءت فرصة مؤاتية عندما اتصل حاكم بعلبك (كمشتكين التاجي - الخصي) بالفرنج، وتعهد لهم بتسليمهم القلعة مقابل إبقائه حاكماً مستقلاً لها.

---

(١) انظر الكامل في التاريخ - ابن الأثير - وتاريخ الطبري - أحداث سنة ١٥ هـ - لمطالعة تفاصيل الفتح.

(٢) جون تزيميسكس: (JOHN-TZIMISCES).

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٩٥ و ١٥٤ و ١٥٧.

ولكن حاكم دمشق (بوري بن أتابك) علم بذلك، فأحبط المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها. وطرد كمشتكين من منصبه، وعين محله ابنه (شمس الدولة محمد). ولكن بعلبك لم تستقر طويلاً تحت حكمه، فقد قتل حاكم دمشق - شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين، أو طغتكين - فأسرع عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى دمشق، وعندما عرف أنه لن يتمكن من فتحها أو اخضاعها لحكمه، اتجه الى بعلبك، ونازلها، وضيق عليها، وجد في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، حتى أشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان. وسلموا إليه البلدة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم حتى أيسوا وطلبوا الأمان، فأمنهم، فأسلموا اليه القلعة [1]. وأصبحت بعلبك وقلعتها، تحت حكم الزنكيين. فلما توفي السلطان أتابك عماد الدين زنكي (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) أسرع حاكم دمشق - معين الدين أنز - فأرسل قواته واستعاد بعلبك، كما أرغم أميري حمص وحماه على إعلان تبعيتهما لدمشق. لكن نور الدين زنكي تابع السير على نهج والده في محاربة الفرنج. وما لبث أن بسط نفوذه على مدن حماه وحمص ودمشق، وأخضعها لحكمه (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وكان من المفروض أن تخضع بعلبك لنور الدين زنكي بعد أن خضعت دمشق لحكمه. لكن بعلبك كانت في تلك الفترة تحت حكم (ضحاك البقاعي) الذي نسب الى بقاع بعلبك -. وكان قد ولاه إياها حاكم دمشق. فلما ملك نور الدين دمشق، امتنع ضحاك بها، ولم يتمكن نور الدين من محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى أن ملكها واستولى عليها (سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م) [2]. وحدث أن تعرضت بعلبك لزلازل عظيمة وهزات أرضية متتابعة، لم يرَ الناس مثلها، وتهدمت أسوار بعلبك.

فلما علم نور الدين زنكي بذلك، سار إلى بعلبك ليعمر ما تهدم من سورها

---

(١) الكامل في التاريخ احداث سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣١٢/٢ و ٣٢٢.

(٢) لمطالعة المزيد عن تفاصيل هذه الأحداث يمكن العودة للكامل في التاريخ، احداث سنوات ٥٤١ و ٥٤٩ و ٥٥٢ هـ. وعن دور الأيوبيين (أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب) واتصالهما بالزنكيين وحكمهما لدمشق وبعلبك، انظر أحداث سنة ٥٦٤ هـ - في الكامل للتاريخ أيضاً.

وقلعتها. ثم جعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها - يدافع عنها -. وسار إلى حمص. فلما توفي نور الدين زنكي (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م. أسرع صلاح الدين الأيوبي، فسار من مصر الى بلاد الشام فملك مدن دمشق. وحمص وحماه. ثم سار إلى بعلبك - وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين - فحصرها صلاح الدين، فأرسل - يمن - بطلب الأمان له ولمن عنده، فأمنه صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر من رمضان من سنة سبعين وخمسمائة (١١٧٤ م). واتجه صلاح الدين شمالاً للاستيلاء على حلب. وأفاد الفرنج من ذلك، فسار حاكم طرابلس - الكونت ريموند - من البقيعة للاغارة على بعلبك والاستيلاء عليها. وقدم من الجنوب جيش مملكة القدس بقيادة همفري سيد تبنين - وملك القدس الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره -. وتعرض ريموند للهزيمة على يد أمير بعلبك (ابن المقدم). وزال الخطر عن بعلبك التي بقيت تابعة لحكم الأيوبيين. فلما توفي صلاح الدين بقيت بعلبك تحت حكم أخيه - بهرام شاه - الذي بذل جهده لإعادة تحصين القلعة وإضافة عدد من الأبراج إليها مع دعم أسوارها. وعندما اجتاح المغول التتار بلاد الشام (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) جعل قائدهم - كتبغا - من بعلبك قاعدة له، فلما علم بتحرك المسلمين من مصر بقيادة المظفر قطز، غادر بجيشه بعلبك، وسار إلى وادي نهر الأردن، فلما دارت رحى معركة عين جالوت، وطحنت جيش المغول وقتلت كتبغا، اضطر فل - فلول - المغول للانسحاب من بلاد الشام، وعملوا كما جرت عليه عادتهم من التخريب. فدمروا بعلبك، وجاء المسلمون وأعادوا ترميمها واصلاحها بسرعة. ودعمت بعد فترة قصيرة على يد السلطان قلاوون الذي شيد برج المدفعية الضخم المجاور لمعبد باخوس. وقوى السور الغربي للقلعة، وأضاف حصناً أمامياً إلى البوابة الجنوبية.

هكذا بقيت بعلبك وقلعتها قاعدة للمسلمين، وتتابع على حكمها (البوريون) [1] ثم

---

(١) البوريون: سلالة من الأتراك - السلاجقة - حكموا دمشق، وحملوا اسمهم نسبة الى تاج الملوك بوري ابن طغتكين الذي ولي حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م وذلك بعد وفاة حاكمها دقاق بن تتش ابن ألب أرسلان. وقد تولى بوري بن طغتكين الدفاع عن دمشق وبعلبك، وكانت له وقائع شهيرة مع الفرنج، وطعنه أحد الباطنية - الاسماعيلية - غيلة سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م. فتوفي متأثراً بجراحه =

الزنكيون وتبعهم الأيوبيون حتى جاء المماليك[1] بعد ذلك. ولم تخرج عن حكم المسلمين إلا لفترة قصيرة خلال هجوم المغول التتار ـ بقيادة كتبغا ـ. وخلال هذه الفترة من تاريخ الحروب الصليبية القديمة. تلاحم تاريخ بعلبك بتاريخ دمشق، حيث كانت بعلبك هي القاعدة المتقدمة الأساسية للدفاع عن دمشق. ومقابل ذلك، فقد مارست بعلبك تأثيرها ونفوذها لتوجيه سياسة دمشق، وظهر ذلك واضحاً عندما عمل الأيوبيون في مقدمة جيش نور الدين زنكي. وكذلك، فعندما امتنعت دمشق على نور الدين أسهم نجم الدين أيوب وأخيه سيف الدين شيركوه في استثارة دمشق وفتح أبوابها لجيش نور الدين. ولقد كانت تلاحم دمشق وبعلبك خلال تلك المرحلة كمثل تلاحم الأيوبيين بالزنكيين، حيث أفاد الأيوبيون ـ على ما هو معروف ـ من قوة الزنكيين الذين مهدوا لهم حكم مصر، حتى إذا ما حكموها واستقلوا بها، عادوا للاستيلاء على أملاك الزنكيين بالشام. وكان الأمر المهم في ذلك كله هو أن ذلك التلاحم قد ضمن القوة للمسلمين في حروبهم ضد الفرنج الغزاة. وعلى هذا، وبالرغم من أهمية الدور الكبير الذي اضطلعت به بعلبك في الدفاع عن دمشق خاصة، وفي حرب الفرنج في جنوب بلاد الشام عامة، إلا أن دورها السياسي كان أكثر عمقاً وأشد قوة من دورها في الحرب. وبذلك لم تكن قوة بعلبك أيام الحروب الصليبية هي في منعة تحصيناتها أو متانة أسوارها أو قدرة دفاعاتها، وإنما كانت في قدرتها الكامنة في تصميمها العنيد على التصدي لحرب الفرنج الغزاة، وفي استعداد أهلها الدائم للحرب والقتال. ويظهر العرض الوجيز السابق أن بعلبك لم تتعرض لهجمات الفرنج مباشرة ولم تجابه حصارهم. وباستثناء أعمال الحصار التي قام بها المسلمون بعضهم ضد بعض. على أسوار بعلبك وتحصيناتها، فان غزوات الفرنج لم تتجاوز أرباض بعلبك، وكان أهل بعلبك وجيشها

= (سنة ٥٢٦ هـ) وخلفه على حكم دمشق ابنه شمس الملوك اسماعيل، وعلى حكم بعلبك ابنه شمس الدولة محمد.

(١) المماليك، هم الذين حكموا بلاد الشام ومصر بعد الأيوبيين، ومنهم المماليك البحرية بداية من شجرة الدر والمعز عزّ الدين ايبك، ثم المظفر قطز والظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون، وقد حكموا من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٩٢ هـ (١٢٥٠ ـ ١٣٨٩ م) وجاء بعدهم المماليك البرجية الذين كان آخرهم طومان بأي وقانصوه الغوري وهما اللذين قضى عليهما الأتراك العثمانيون سنة (٩٠٧ هـ = ١٥٠١ م).

يسرعون للقاء الفرنج وقتالهم بعيداً عن أسوار مدينتهم وتحصيناتها. فكانوا هم الذين يحمون الأسوار والتحصينات وليست هي التي تحميهم. وكانت بعلبك ترسل جيشها للقتال مع جيوش المسلمين الأخرى، سواء للدفاع عن دمشق، أو للقتال في فلسطين، أو للهجوم على مواقع الفرنج ومدنهم في الساحل (طرابلس). ولم يكن اهتمام أمراء بعلبك المتتابعين، بتحصين مدينتهم وترميم أسوارها كلما أصابها التلف أو الدمار بتأثير العوامل الطبيعية - الزلازل - إلا لدعم قاعدة المسلمين في البقاع، وإلا من قبيل التدابير الاحترازية. فالمسلمون هنا، كما كانوا في دمشق، وكما كانوا في بقية العواصم والمدن الإسلامية، يعتمدون على القلاع والتحصينات لمجابهة المواقف المباغتة والهجمات الطارئة. وكانت أساليبهم الهجومية تفرض عليهم باستمرار عدم الاعتماد على وسائط الدفاع إلا لفترات محدودة، ولمجابهة أوضاع استثنائية، وبقي الهجوم هو نهجهم الأساسي لمجابهة الأعمال العدوانية للفرنج. وكانت الانتصارات التي يحرزونها في معظم الحالات تأتي لتعزز من نهجهم القتالي الهجومي. وهذا مما يبرهن بالتالي أن دور تحصينات بعلبك وأسوارها لم يكن إلا دوراً ثانوياً في تأمين الدفاع عن بعلبك وحمايتها. وبقيت سيوف المسلمين ودروعهم - في بعلبك ودمشق - هي الحصون الرئيسة وهي الأسوار المنيعة للدفاع عن عواصم الإسلام في أشد الظروف قسوة وأصعبها.

لقد مثلت بعلبك وقلعتها في هذا المضمار النموذج الأفضل والشكل الأوضح للحرب الدفاعية في المذهب العسكري الإسلامي، وهي الحرب التي لا تعتمد في أعمالها القتالية على المواقع والتحصينات إلا من أجل الانطلاق للهجوم. فإذا ما دعى الداعي للحرب والقتال، لم يتثاقل المجاهدون في سبيل الله، اعتماداً منهم على منعة مواقعهم وقوة تحصيناتهم، وإنما نفروا خفافاً، وطاروا سراعاً للقاء العدو بحثاً عن إحدى الحسنيين. وقد أظهر ذلك بوضوح وجلاء الفضائل الحربية للمجاهدين المسلمين وأبرزها الاستعداد الدائم للقتال، والمرونة وخفة الحركة. فالمسافة بين دمشق وبعلبك، أو بين بعلبك وطرابلس، ليست مسافة قصيرة بالمقارنة مع وسائل القدرة الحركية التي كانت تستخدمها القوات - الخيول -. ولكن قوات المجاهدين التي عاشت على صهوات خيولها لم تكن تجد في المسافات الجغرافية إلا بساطاً لابراز قدرتها الحركية

العالية، وإلا مسطحاً لتأكيد قدرتها الهجومية. ولم تكن هذه الفضائل الحربية حكراً ـ أو ميزة ـ انفردت بها قوات بعلبك ودمشق دون سواها من جيوش المدن والأقاليم الإسلامية، ولو أنها ظهرت بشكلها الأكثر وضوحاً في تحركات جيشي بعلبك ودمشق وعملياتها القتالية. وفي الحقيقة، فان هذه الفضائل هي الإرث الذي خلفته قوات الفتح منذ انطلاقتها الأولى من جزيرة العرب وهي تحمل راية الإسلام، وجاء الخلف فحافظوا على ارث السلف، وعملوا على الإفادة منه وتطويره، مما أكد التزام المسلمين عبر الأزمنة المتتالية بالأسس والمبادىء التي برهنت باستمرار على نجاعتها وفاعليتها وصلاحيتها. ولقد وقفت بعلبك وقلعتها، وسط الأحداث المثيرة التي حملتها هجمات الفرنج الصليبيين، وعاشت هذه الأحداث وهي ترقب ما يحدث حولها، وعملت على تقويم المواقف وتصحيح مساراتها. ولقد دانت بعلبك وأهلها للإسلام، وارتضته ديناً فحرصت على حمايته من كل انحراف ومن كل سوء. فكانت رؤيتها ورؤية أهلها للأمور واضحة جلية: لقد جاء الفرنج الصليبيون بأحفادهم وأسلحتهم وأعتدتهم وهم يبغون تدمير الإسلام وأهله في إطار حرب هجومية شاملة، فكان لا بد من الرد على هذا المستوى ذاته. ولقد انطلقت شرارة التحول من بعلبك، فكانت هي السبيل لفتح دمشق أمام الزنكيين، وكانت هي المنطلق للأيوبيين من أجل إعادة فتح مصر وإنهاء عزلتها عن العالم الإسلامي ـ السني ـ. وكانت هي باستمرار النموذج الأفضل للحرب الدفاعية ـ الهجومية ضد الفرنج. لا في حدود بعلبك وحدها، وإنما في سهل البقاع الخصيب كله، وفي سائر بلاد الشام. وتتابعت دهور وعصور، وجاء الفرنسيون تحت راية الانتداب في القرن العشرين، فسرقوا بعض حجارتها، وسلبوا بعض آثارها ونقلوها إلى عاصمتهم ـ باريس ـ وحاولوا الوصول الى أعماق الأرض في محاولة لنبش مجد الروم البيزنطيين، والتذكير بأنه كان للصليبية في هذه الأرض مربعاً ومرتعاً، وتجاهلوا ما كانت تنطق به الحجارة التي حملوها معهم والتي كانت برهاناً على أنه لا مكان على هذه الأرض إلا للإسلام وأهله.

٩ ـ قلعة بغراس .

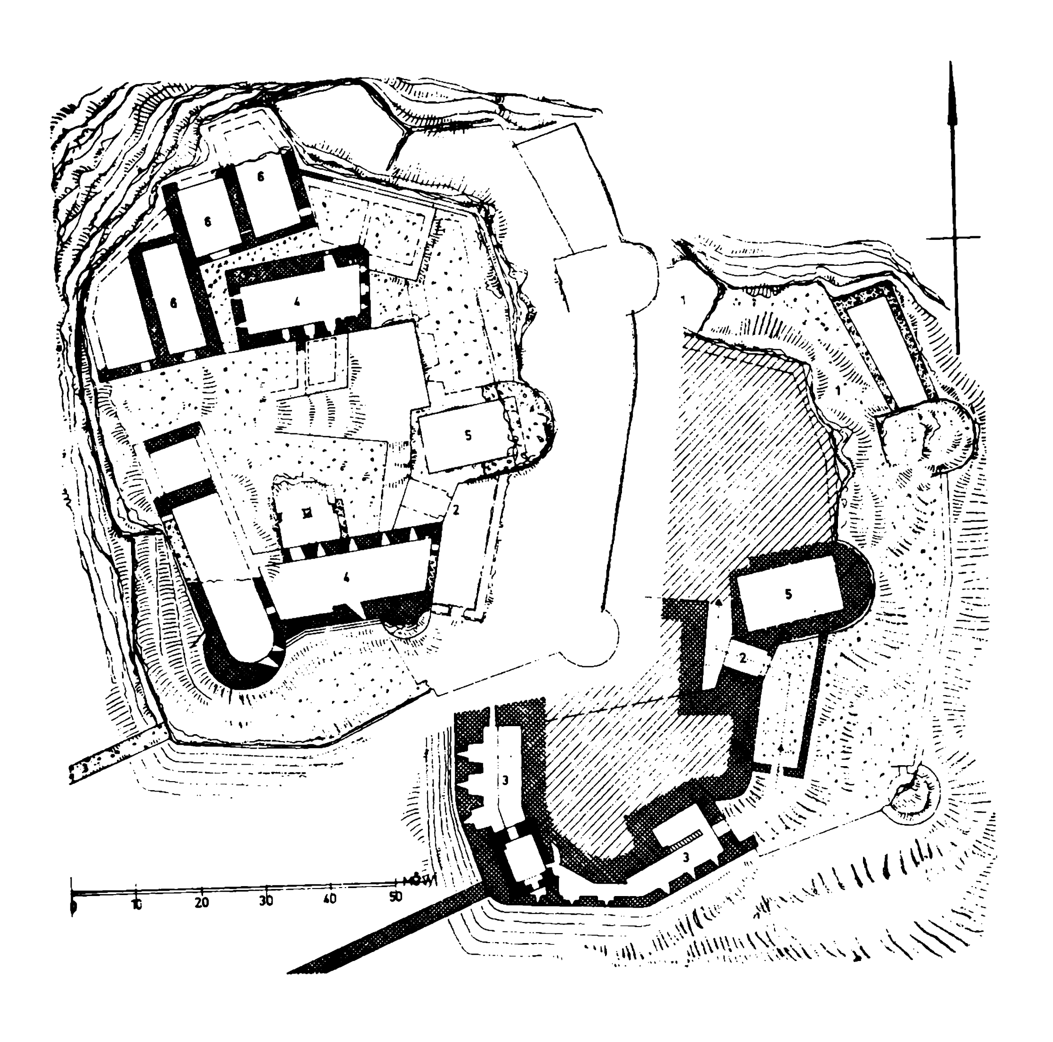
(بغراس) [١] هي قلعة وقرية صغيرة في اقليم اسكندرون، تقع بين الشعاب الشرقية للسلسلة الجبلية التي تكون ـ قيزيل ضاي والأمانوس ـ وهي مثل ـ حصن الحصار ـ الذي يسيطر على شعب بيلان ذاته، وكانت تشكل مفتاح الطريق الواصل بين انطاكية ـ الاسكندرون ـ قيليقية، وقد بقيت القلعة وهي في حالة جيدة، تطل على واد جبلي فوق مخروط صخري ينحدر بشدة من جميع الجهات. ولقد شيدت القلعة على عدة مستويات بسبب شدة انحدار السفوح الصخرية، وترتبط بعضها ببعض بممرات ومدرجات ـ سلالم ـ وهي بذلك تتماشى مع الأرض المحيطة بها. ويتشابه تصميمها مع تصميم القلاع الأرمنية في قيليقية ـ أو كيليكيا ـ. وإذا ما أمكن تجاوز تلك الغرف العديدة ذات العقود، وممراتها الكثيرة المبنية داخل المنحدرات، فان ما بقي من القلعة العلوية لا يزيد على بقايا قاعتين كبيرتين. وتوجد عند أقدام القلعة قناة مائية ضخمة كانت تستخدم أيضاً لإغلاق القسم العلوي من الوادي. وقد أورد المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه ـ تقويم البلدان ـ وصفاً لقلعة بغراس تضمن ما يلي: « هي قلعة مرتفعة، ولها أعين وواد وبساتين. وقال ابن حوقل: وبغراس على طريق الثغور. وكان بها دار ضيافة لزبيدة، قال في العزيزي: وبغراس بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً. وبينها وبين اسكندرونة أيضاً اثنا عشر ميلاً. وهي في الجبل المطل على عمق حارم. وحارم في جهة الشرق منها. وبينها نحو مرحلتين. وبغراس في جهة الجنوب عن دربساك، وبينها بعض مرحلة » [٢].

كان الروم قد أقاموا بين الاسكندرونة وطرطوس سلسلة من الحصون والقلاع

---

(١) بغراس: (BAGRAS) وبالتركية بايراس: (BAGRAS) وباليونانية باغراي. أما بالفرنسية فتعرف باسم باغاراس ـ أو غاستون ـ GASTUN وغاستين: (GASTIN) وغواستون: (GUASTON).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٥٨ ـ ٥٩.

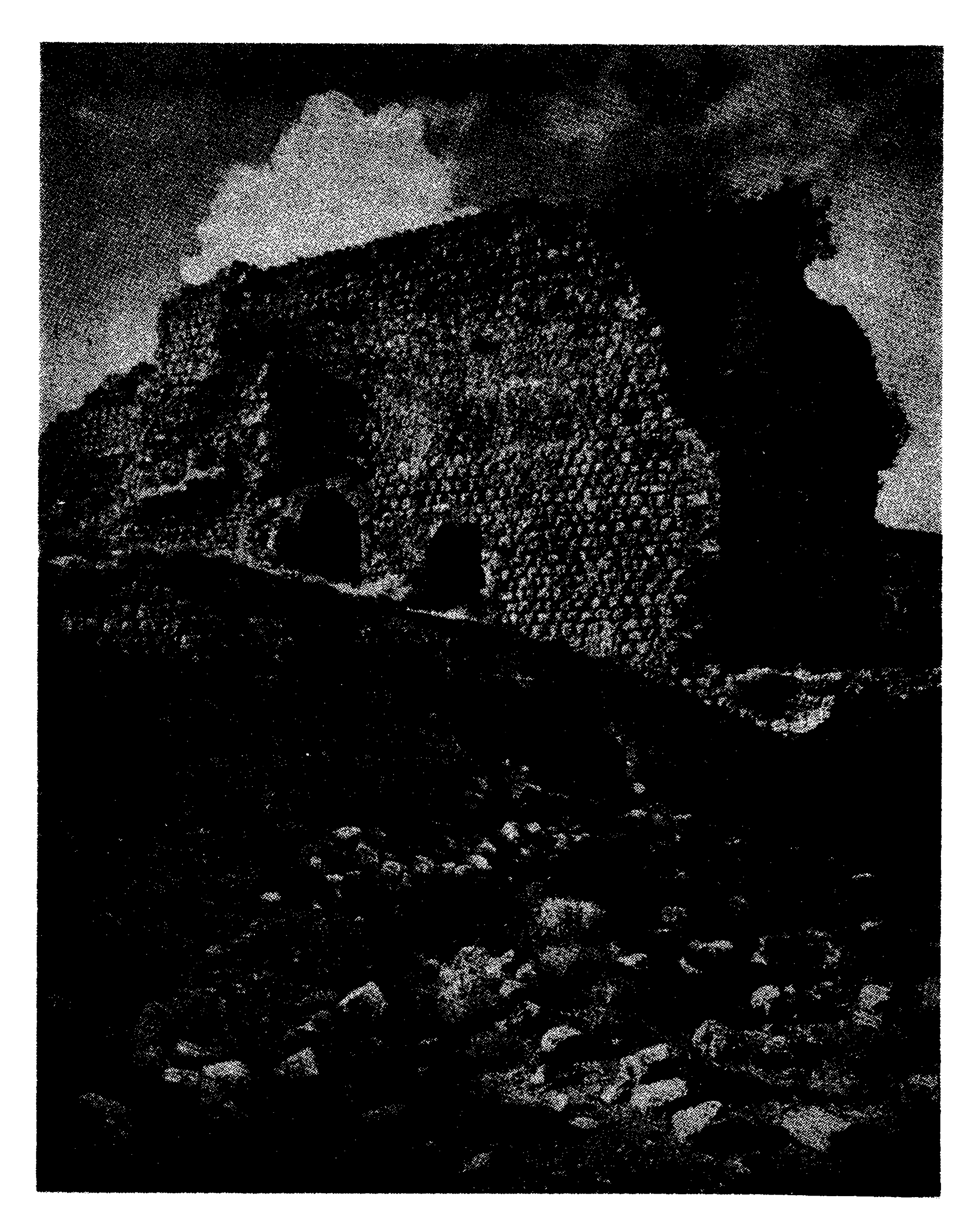


بغراس Bagras مخطط أرضي للقلعة، مقياس ١٠٠٠/١.

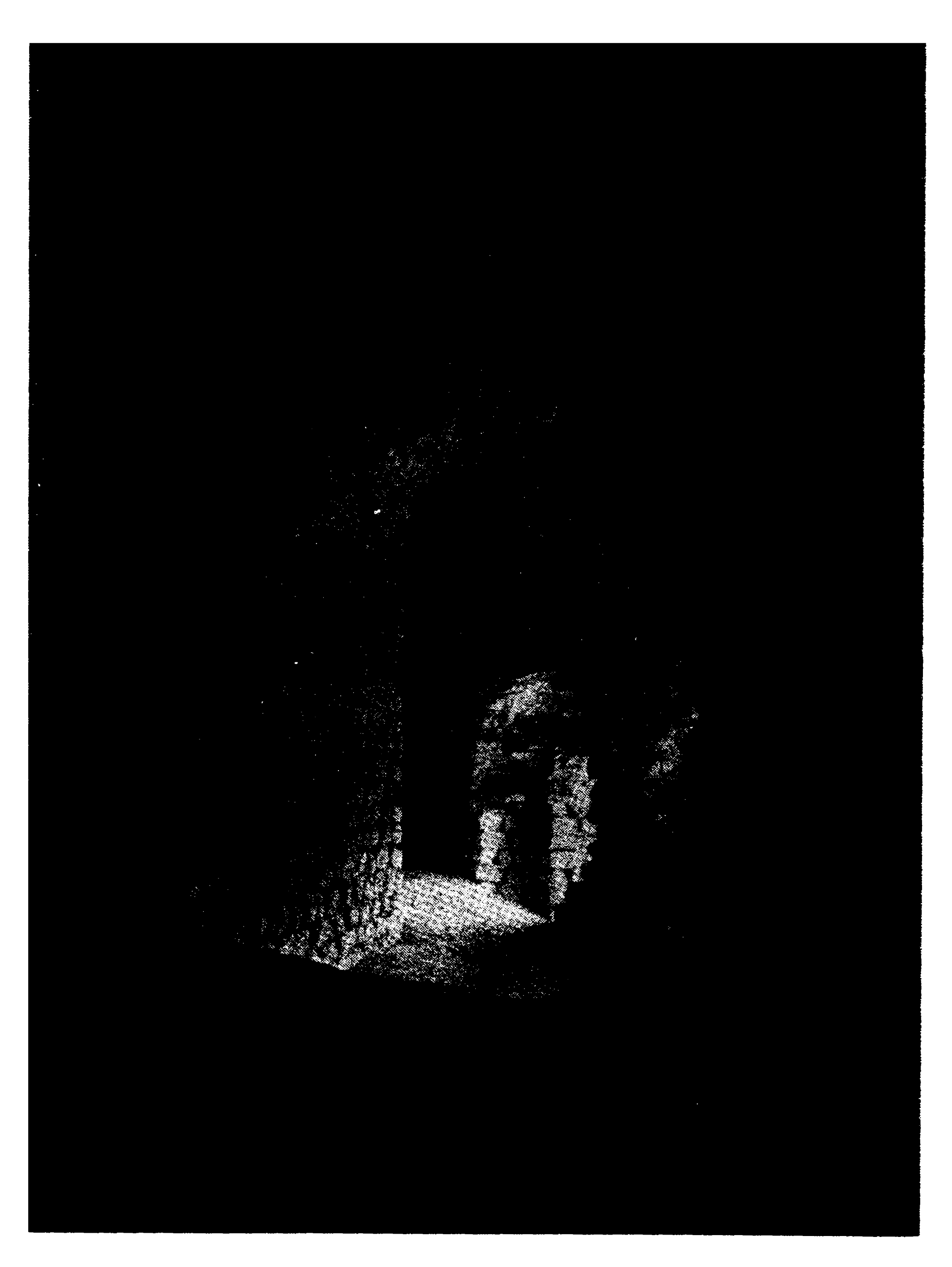
أ ـ القلعة السفلية والأرضية السفلية للقلعة العليا.

ب ـ الأرضية العلوية للقلعة العلوية (مباني الأرضية السفلية مبنية بالرسم المنقط) مع مباني الطور الأول (البيزنطي) وهي مرسومة بالخط الأسود، بينما رسم القسم الذي يعود تاريخه الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالتهشير الكثيف.

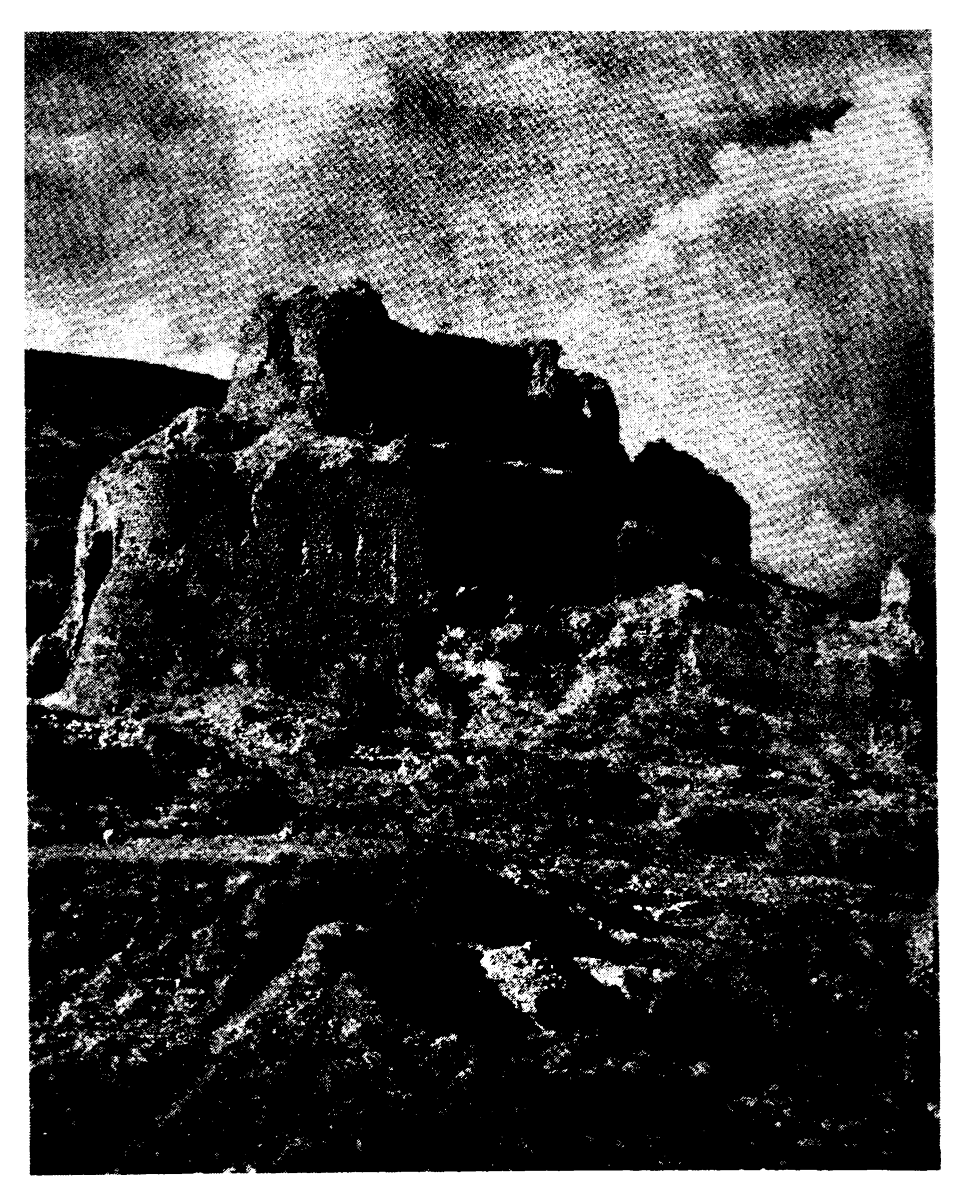
١ ـ القلعة السفلى، ٢ ـ ساحة أمامية وحصن الحرس (حصن البوابة)، ٣ ـ الشرفة السفلى، ٤ ـ مباني القصر، ٥ ـ البرج الكبير، ٦ ـ غرف المستودعات.



قلعة بغراس



قلعة بغراس



قلعة بغراس

والمسالح. وعندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام، وطردوا الروم منها، عمل الروم على اجلاء سكان هذه المنطقة، فأصبحت خالية من السكان. وقد رغب الروم في اجلاء سكان مناطق الحدود عن مدنهم وقراهم بهدف تدمير المنطقة وافقارها، ومن ثم استخدامها مسرحاً للقتال وذلك بزج مجموعات صغرى من المقاتلين في تلك الحصون والمسالح - والتي أطلق عليها العرب المسلمون اسم المطامير - للقيام بمهمة قطع الطريق على قوات العرب المسلمين عند عودتها من غزو ما وراء الدروب، ونصب الكمائن والقيام بالإغارات على مؤخرات قوات العرب المسلمين وقتل المتخلفين أو المنعزلين عن كتلة القوات الرئيسة، لاحباط الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله. وكان قائد فتح بلاد الشام - أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه - هو أول من وصل بغزواته - الصوائف - الى الحصون القائمة فيما وراء الدروب. فمرّ بالمصيصة وطرطوس. وقام بجولة على الحصون المحيطة بهذه الثغور، فوجدها خالية من السكان، ثم دفع بقوات للغزو - بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي - فبلغ زنده. ثم عاد بصائفته. وعندما تمردت انطاكية بعد فتحها بفترة وجيزة - وبتحريض من الروم البيزنطيين - أعاد أبو عبيدة فتحها، ووجه مجموعة قتالية كبيرة بقيادة ميسرة للتوغل في بلاد الروم عن طريق بغرامس - أو بغراس - والتقى ميسرة بجيش من الروم ومعهم مستعربة غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل. فدارت معركة قاسية، ووصلت امدادات إلى ميسرة ساعدته على هزيمة الروم وتدمير قواتهم. ثم قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بقيادة الصائفة، وتوجه بها عبر الدروب الى الثغور المتقدمة. ووجد معاوية أن الحصون بين أنطاكية وطرطوس خالية، فنقل إليها جماعة من أهل الشام وقنسرين، وأصبحت انطاكية - منذ سنة ٢٥ هـ = ٦٤٥ م - وطوال عهد معاوية، هي الثغر الرئيسي لانطلاق الصوائف. وفي العام ٣١ هـ = ٦٥١ م. عاد معاوية ثانية لقيادة الصائفة من ناحية المصيصة ووصل حتى درولية، وخلال عودته دمّر جميع حصون الروم التي في طريقه حتى وصل انطاكية [1].

---

(١) فتوح البلدان - البلاذري - ص: ١٦٢.

ويظهر أنه كانت لقلعة (بغراس) مكانة مميزة بين مجموعة القلاع والحصون التي أقامها الروم فيما بين انطاكية وطرطوس، إذ كان الدرب الذي يخترقها قد حمل اسمها، ولكن وبالرغم من ذلك فان دور بغراس لم يكن منفصلاً أو مستقلاً عن دور بقية قلاع ما وراء الدروب. والمعروف أن الصراع بين العرب المسلمين وبين الروم قد استمر قروناً بعد ذلك، وتركز هذا الصراع على الدروب، أو ما يمكن تسميته محاور العبور الطبيعية، أو الممرات الاستراتيجية الاجبارية، بين سلاسل الجبال الفاصلة بين بلاد الشام وبين بلاد الروم. ولم يكن النصر دائماً لمصلحة المسلمين، فقد أفاد الروم أحياناً من الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام للقيام بهجمات كبيرة وصلت إلى عمق بلاد الشام مثل حمص وبيروت. وكان من الطبيعي أن تتعرض بغراس وسواها من قلاع الدروب للتدمير المتتابع أثناء مرور الجيوش بها جيئة وذهاباً، مما كان يدفع لإعادة بنائها وتجديدها. فلم يكن من الغريب ـ بالتالي ـ أن يختلط تاريخ بناء قلعة بغراس على الباحثين وعلماء الآثار، إذ ليس لبغراس تاريخ دقيق ومحدد لبنائها وانشائها. فإذا كان الروم البيزنطيون هم الذين شيدوها قبل الفتح العربي ـ الإسلامي، لايقاف هجمات الفرس المحتملة عبر الصراع الفارسي ـ البيزنطي الذي استمر قروناً متتالية. فان الأمر الذي لا يقبل الجدل هو أن قلعة بغراس قد أصبحت موطناً لقوات العرب المسلمين طوال العهد الأموي وصدر العهد العباسي الأول على الأقل، وذلك باستثناء فترات قصيرة جداً من هذين العهدين (الأموي والعباسي). ولقد أفادت الحاميات العربية ـ الإسلامية بالتأكيد من موقع قلعة بغراس، وما توافر له من الأهمية الجيواستراتيجية. فعملت هذه الحاميات على دعم تحصينات القلعة وزيادة منعتها. ولقد أغفلت المصادر العربية وغير العربية ـ البيزنطية ـ دور هذه القلاع، ذلك لأنه لم يكن لها في الواقع دور أساسي وحاسم في الصراع، إذ أنها لم تكن أكثر من مراكز أمنية متقدمة، للجيوش التي تنطلق عبر الدروب للوصول الى الثغور ـ العواصم ـ القائمة على طرفي الجبال الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد الروم. ولقد برزت عبر الصراع المستمر أسماء عدد من العواصم مثل هرقلة وعمورية وملطية ومرعش والحدث وزبطرة وملازكرد وسواها، بسبب ارتباطها بمعارك حاسمة وشهيرة، في حين لم يكن لقلاع

الدروب وحصونها - ومنها قلعة بغراس - إلا دور ثانوي مثل الرصد والانذار والقتال التأخيري - الإعاقة -. وهي من الأعمال التي لا تحظى عادة باهتمام الكتاب والمؤرخين، سواء في القديم أو في الأزمنة الحديثة - وذلك رغم أهمية مثل هذه الأعمال وخطورتها وتأثيرها - تأثيراً حاسماً في بعض الأحيان - على مسيرة الأعمال القتالية.

عندما انحدرت جحافل الفرنج الصليبيين من بلاد الروم الى بلاد الشام عبر الدروب (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م). كانت السيطرة على الدروب في قبضة السلاجقة الذين كانت عاصمتهم - نيقية - وكان ملكهم آنذاك السلطان قلج أرسلان الأول، والذين كان ينازعهم السلطة على حدودهم الشرقية التركمان - الدانشمند - وهم الذين اتخذوا من ملطية عاصمة لهم. في حين كان أمير الأرمن - جبرائيل - يمارس دوره لاذكاء روح الفتنة، وتجديد الصراع بين (الدانشمند)[1] والسلاجقة حتى يحتفظ بقوته وملكه. وعندما وصل الفرنج الصليبيون، عمل الأرمن أدلاء لهم عبر الدروب بهدف إقامة كيان مستقل لهم، مما مكنهم من بسط نفوذهم على ممتلكات السلاجقة وقلاعهم في قيليقية، غير أن التركمان نجحوا في استعادة السيطرة عليها بعد عبور جحافل الفرنج. ثم عاود الأرمن فرض هيمنتهم عليها. وفي سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م، تعاظمت قوة المسلمين في الشمال من بلاد الشام. فخاف الفرنج من أن ينقطع عليهم طريق اتصالهم البري: «فبعثوا إلى ملك الروم في القسطنطينية يستصرخون به، ويعرفونه حقيقة الموقف. فسار ملك الروم مجداً، وابتدأ بركوب البحر حتى نزل بأنطاكية. وأقام ينتظر المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه. فلما وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية فحصرها، فصالحه أهلها على مال يؤدونه، فسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة - وهما بيد ابن ليون الأرمني - صاحب قلاع الدروب، فحصرها وملكها. ورحل إلى - عين زربة - فحصرها وملكها عنوة، وملك تل حمدون... ثم رحل عنها إلى بغراس، ودخل منها إلى بلد ابن ليون الأرمني. فبذل ابن ليون أموالاً كثيرة، ودخل في

---

(١) الدانشمند - زعيم التركمان، واسمه (الدانشمند طايلو) وكان له ولدان كمشتكين واسماعيل وقد أقاما في آسيا الصغرى. وقد قيل لكمشتكين - ابن الدانشمند - لأن أباه كان معلماً للتركمان، وتقلبت به الأحوال حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما - ابن الأثير - أحداث سنة ٤٩٣ هـ.

طاعته »[1] وفي سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م « كان امبراطور الروم البيزنطيين ـ يوحنا ـ متأهباً للعودة الى الشام، فاندفع نحو الشرق قاصداً قيليقية العليا، ليسترد الحصون التي سبق أن انتزعها الدانشمنديون، ثم ظهر فجأة عند تل باشر ـ الحاضرة الثانية لجوسلين كونت الرها. فأسرع الكونت جوسلين وقد أذهلته المباغتة، وبذل يمين التبعية للأمبراطور يوحنا الذي تابع سيره حتى بلغ بغراس ـ وهي الحصن الكبير الذي أصبح في حوزة الفرسان الداوية والذي يتحكم في الطريق المؤدي من قيليقية إلى أنطاكية. ثم عاد إلى بلاده »[2] وبقيت بغراس قاعدة للعدوان مما حمل نور الدين زنكي لمهاجمة إمارة أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م. حيث دارت معركة في بغراس، انتصر فيها نور الدين على ريموند كونت انطاكية[3].

وقام الأرمن سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م بالتوغل في إقليم اسكندرونة، الذي اعتبره الفرنج جزءاً من إمارة انطاكية. فقام أمير انطاكية الجديد (رينالد) بإرجاع الأرمن إلى قيليقية بعد معركة قصيرة قرب اسكندرونة، ثم أهدى الاقليم الذي استولى عليه إلى طائفة فرسان الداوية الذين تولوا أمر اسكندرونة، وأعادوا بناء قلعتي قسطون وبغراس اللتين تتحكمان في الدروب. ولم يلبث فرسان الداوية أن وسعوا حدود إقطاعهم في الإقليم المحيط بقلعة بغراس. وعرف نور الدين زنكي بما هو قائم من خلاف بين الأرمن والفرنج، وعمل على استثمار هذا الخلاف، فدعم زعيم الأرمن ـ توماس ـ[4] بالقوات، مما مكنه من استعادة سيطرته على المصيصة وأذنة وطرسوس، ثم هاجم الداوية في بغراس. غير أن الداوية نجحوا في احباط هذا الهجوم، واحتفظوا بقلعتهم بغراس، حتى إذا ما كانت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. وأحرز صلاح الدين الأيوبي انتصاره في حطين وفتح القدس وكثيراً من قلاع بلاد الشام ومدنها، سار شمالاً

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٣١ هـ.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٥٥/٢ ـ ٣٥٦.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٢٤/٢ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنتي ٥٤٣ و ٥٤٤ هـ.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٥٩/٢ و ٦٠٨. كما ورد في الصفحة ٦٢٩ بما يلي: « كان توماس هذا قد انخرط في وقت من الأوقات في سلك الداوية، ثم هرب إلى نور الدين زنكي فاعتنق الإسلام ».

ففتح درب ساك. ثم سار إلى قلعة ـ بغراس ـ فحصرها. وحدث خلاف بينه وبين أصحابه ـ قادته ـ بشأن حصارها، فمنهم من وافق عليه، ومنهم من قال: بأنه حصن حصين وقلعة منيعة، وهو بالقرب من انطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، ويحتاج أن يكون أكثر العساكر مقابل انطاكية، فإذا ما تم ذلك قـلَّ عدد المقاتلين عليها. إلا أن صلاح الدين لم يأخذ بهذا الرأي، وجعل عسكره مقابل انطاكية، يغيرون على أعمالها، وكانوا حذرين خوفاً من أهلها إن هم غفلوا لقربهم منها. ومضى صلاح الدين في بعض جنده الى قلعة بغراس فقاتلها، ونصب المنجنيقات، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها. فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها. وشق على المسلمين قلة الماء عندهم، ولكن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم. فبينما هو على هذه الحال، إذ فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان، فأجيب إلى ذلك، وأذن له في الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه. فأجابهم صلاح الدين إلى ما طلبوا. فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، ونزل من فيها، وتسلم المسلمون بغراس بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح. وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب. وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين. إذ أن صاحب الأرمن ـ ابن ليون ـ خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره، يغيرون منه على البلاد. فتضرر بذلك المسلمون»[1].

وهكذا، ومع ابتعاد صلاح الدين ورجاله عن قلعة بغراس، أسرع ملك أرمينية ـ ليو ـ فاحتل القلعة. ولما كان ملك أنطاكية (بوهمند الثالث) هو صاحب إقطاع الدروب. فقد توجه إلى ـ ليو ـ بطلب إعادة قلعة بغراس إلى فرسان الداوية. غير أن الملك الأرمني ليو رفض الطلب. فتوجه بوهمند بطلبه إلى صلاح الدين، ولكن صلاح الدين لم يتدخل في الأمر، وظلت قلعة بغراس في حوزة الأرمن. وقد أثار استنجاد بوهمند بصلاح الدين غضب الملك ليو، ولكن زوجة بوهمند ـ سبيللا ـ

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٦١. والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٨٤ هـ.

تدخلت لتهدئة ثائرة الملك ليو، وذلك بهدف الحصول على دعمه ومساعدته من أجل نقل إرث انطاكية الى ابنها وليم، على حساب أبناء زوجها الآخرين.

وحدث في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١١٩٣ م (٥٩٠ هـ) أن عمل الملك ليو على توجيه دعوة إلى بوهمند، للقدوم إلى بغراس من أجل تسوية المشكلة بكاملها. واستجاب ملك انطاكية للدعوة، فجاء إلى بغراس وبصحبته زوجته سبيللا وابنها. وقبل بوهمند ما عرضه ليو من استضافته داخل أسوار قلعة بغراس. ولكن لم يكد بوهمند يدخل القلعة حتى وجد نفسه أسيراً في قبضة مضيفه، ومعه كل أفراد حاشيته. وجرى إخطاره بأنه لن يطلق سراحه ما لم يتنازل عن السيادة على انطاكية لمضيفه ليو. وقبل بوهمند والحزن يمزقه شروط ليو، ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض زوجته سبيللا التي كانت تأمل في أن يعمل ليو متى صارت إليه السيادة على انطاكية على أن يجعل لابنها وراثة الحكم في انطاكية. وتقرر ارسال مارشال بوهمند ـ وهو بارثولوميو توريل ـ مع جند من الأرمن إلى انطاكية، لإعداد المدينة للعهد الجديد.

ووصل مارشال الكونت بوهمند الى انطاكية، وأظهر الأمراء ـ البارونات ـ الذين تجري في عروق عدد كبير منهم الدماء الأرمنية، استعدادهم لقبول ليو ملكاً عليهم. وسمحوا لبارثولوميو أن يدخل بالعساكر الأرمنية إلى أنطاكية، وبأن يستقروا في قصر أميرها بوهمند. ولكن المستوطنين من اللاتين واليونانيين ارتاعوا لما حدث، وخافوا من أن يقوم ليو بحكم انطاكية بنفسه، مما يسمح للأرمن بالسيطرة عليها، ونجح هؤلاء بإشعال نار الثورة بالقصر ثم بالمدينة، وتم طرد الأرمن منها، فرجع هؤلاء إلى بغراس. وتشكل بانطاكية كومون ـ إدارة ـ لحكم المدينة خلال فترة غياب ملكها الشرعي بوهمند. وأقسم أعضاء الكومون ـ الإدارة ـ يمين الولاء لريموند أكبر أبناء بوهمند. وأسرعت إدارة انطاكية بارسال طلب النجدة من كونت طرابلس ـ شقيق بوهمند ـ. واستجاب كونت طرابلس للطلب، فشعر ليو أن فرصته قد ضاعت، فما كان منه إلا أن نقل أسراه من قلعة بغراس الى عاصمته ـ سيس ـ. وقام الفرنج بالوساطة بين ليو وبين بوهمند. وجاء هنري كونت شامبانيا فتحالف مع الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ لمصلحة بوهمند كونت انطاكية. ثم توجه الى سيس فقابل

ليو، وتم الاتفاق على اطلاق سراح بوهمند مقابل الاعتراف بأن تبقى بغراس وما حولها من أملاك أرمينية، وألا يكون لأي من الأميرين السيادة على الآخر.

وبرزت للوجود من جديد المملكة الأرمنية، فكان يوماً تاريخياً حافلاً عند الأرمن. على أن هذه التسوية المؤقتة لم تضمن عدم تجدد الصراع بين الأرمن وبين الافرنج في أنطاكية. فأخذ الفرنج بحشد القوى ضد أرمينيا وملكها. وكان فرسان الداوية من أشد الناس حماسة لانطاكية، نظراً لاحتفاظ الملك ليو بقلعة بغراس وما حولها. ومقابل ذلك، فقد ظفر ملك الأرمن ـ ليو ـ بالتحالف مع بابا روما. فما كان من الداوية إلا أن نقلوا إلى روما كل ما توافر لهم من النفوذ والتأثير لممارسة الضغط على البابا من أجل اقناع ليو بإعادة بغراس إليهم. لكن الملك ليو أغفل كل تلميح بشأن اعادة بغراس الى الداوية. نظراً لما كانت تمثله بغراس بالنسبة إليه من الأهمية من حيث ضمان السيطرة على انطاكية. وأدى تمسك الطرفان ـ الأرمن والفرنج ـ بمواقفهما إلى اندلاع نار الحرب بين أرمينية وأنطاكية، وهو الصراع الذي استمر طوال فترة ربع القرن التالي (من سنة ٥٩٨ الى سنة ٦٢٢ هـ = ١٢٠١ حتى ١٢٢٥ م) وجرّ معه المسلمين الى دائرة الصراع. وقد بدأ ذلك عندما أعلن كونت طرابلس ـ بوهمند ـ نفسه أميراً على انطاكية بعد وفاة والده ـ بوهمند الثالث ـ متحدياً بذلك حقوق ابن أخيه ـ ريموند روبين ـ. فما كان من ملك أرمينيا ـ ليو ـ إلا أن زاد إصراراً على التمسك بحقه في إسناد إمارة أنطاكية إلى ابن اخته ريموند. وزاد الأمر تعقيداً بما نشب من شجار بين ليو وبين الداوية، بعد أن رفض ليو أن يعيد إليهم قلعتهم ـ بغراس ـ وعندئذ انحاز فرسان الاسبتارية الى الملك ليو في مقاومته لمشاريع بوهمند، الذي كان باستطاعته الاعتماد على دعم الأتراك السلاجقة لأنهم كانوا في حرب مستمرة مع ملك أرمينيا ـ ليو ـ. ومقابل ذلك، كان باستطاعة بوهمند الاعتماد على دعم أمير حلب ـ الظاهر غازي ـ. وأرسلت الكنيسة سفارة من قبلها للوساطة. فتظاهر ليو بقبول حكم البابا في روما. غير أن رفض الصلح مع الداوية، أو التنازل لهم عن بغراس وفقاً لما أمر به البابا كان بمثابة رفض لحكم البابا. وقرر ليو حسم الصراع، فألقى في سنة ٦٠١ هـ (نهاية سنة ١٢٠٤ م) الحصار

على انطاكية. ولكنه اضطر لرفع الحصار بعد فترة قصيرة عندما تقدم جيش حلب بقيادة الظاهر غازي لنجدة بوهمند.

ضجر البابا من هذا الصراع الذي لم يقف عند حد، فعهد إلى بطريرك القدس بمسؤولية تسويته. وحدث في سنة ٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م أن اشتد غيظ ملك أرمينيا ليو، فخرب ما يحيط بانطاكية من بلاد. وفشلت سفارة بطريرك القدس في مهمتها بسبب إصرار ليو على عدم منح بغراس للداوية. وفي سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م استطاع ليو بما دبره من مؤامرة ناجحة احتلال انطاكية دون قتال. ولفرط فرحه بما حققه من نتيجة باهرة بعد الحرب الطويلة، ردّ بغراس الى الداوية، كما أعاد إلى الكنيسة اللاتينية أراضيها في قيليقية. غير أن انتصاره كلفه ما حدث من استيلاء سلطان السلاجقة - كيكاوس - في قونية، على حصون تقع الى غرب قيليقية وعبر جبال طوروس.

عادت قلعة بغراس أخيراً للفرسان الداوية الذين عاودوا الأخذ بنهجهم العدواني وتحديهم الاستفزازي. فقاموا سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م بالانقضاض من بغراس على القبائل التركمانية النازلة إلى الشرق من بحيرة أنطاكية، والتي كانت مستقرة في مرابعها ومواطنها آمنة مطمئنة، فتحرك جيش حلب بكامل قوته للانتقام من الداوية، وحاصر بغراس، التي لم ينقذها إلا قدوم أمير أنطاكية - بوهمند الخامس - الذي عقد مع أمير حلب هدنة لمدة عشر سنوات. غير أن فرسان الداوية نقضوا الهدنة، فعاد جيش حلب ودمر جيش فرسان الداوية الصغير، وقتل مقدم الداوية - وليم مونتفيرات - ووقع معظم رفاقه في الأسر [١].

المعروف بعد ذلك أن أميري أنطاكية وأرمينية قد تحالفا مع المغول التتار عندما جاء هؤلاء لغزو بلاد الشام، فلما أسفرت معركة عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) عن انتصار المسلمين وطرد التتار. قرر المسلمون - المماليك - الانتقام من حلفاء المغول التتار. وعرف ذلك أمير أرمينية - هيثوم - فحاول مصالحة الظاهر بيبرس، فلما فشل في محاولته توجه إلى بلاط الايلخان في تبريز يطلب دعمه. وأثناء ذلك،

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/١٦٢ - ١٦٣ و ٢٤٢ - ٢٤٨ و ٥٦٠ و ٦٦٠.

احتشد أضخم جيش للمماليك في حمص بقيادة قلاوون الذي عرف بأنه من أكثر قادة السلطان بيبرس قدرة وكفاءة. وسار إلى انطاكية، فتولى ولدي هيثوم (ليو - وثوروس) قيادة الدفاع عن أرمينية، وقام فرسان الداوية في بغراس بحماية جناحي جيش أرمينية.

غير أن المعركة التي وقعت يوم ٢٤ - آب - أغسطس - سنة ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ) أسفرت عن تدمير جيش أرمينية وقتل ثوروس ووقوع ليو في الأسر. وانساب المسلمون الظافرون في قيليقية، فدمروا طرسوس وأذنة وأياس والمصيصة وعاصمة الأرمن - سيس - وكانت نهاية أرمينية. ثم تبعها سقوط أنطاكية في قبضة المسلمين (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م). ولما ضعفت أرمينية ودمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه بات من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال الأمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس - وعن قلعة لاروش دي روسول - التي تقل عن بغراس شأناً. ومضى زمن بغراس بجلاء الغزاة الفرنج عن بلاد الشام - شمالها وجنوبها - وسيطر الأتراك المسلمون لا على سهول قيليقية فحسب، بل انسابوا الى الغرب، مطوقين بذلك دولة الروم البيزنطيين من جميع جهاتها. فكان في ذلك بداية النهاية لدولة الروم ذاتها.

١ ـ قلعة دمشق.

دمشق هي أقدم مدينة على الأرض ـ هكذا قيل ـ وإن لم تكن كذلك فهي من المدن القديمة التي عاشت تجربة الحياة الإنسانية على الأرض. ولكن. وعلى الرغم من رسوخ قدمها في عمق التاريخ، فانها لم تكن لتتجاوز في أهميتها وقيمتها حدود واحة صحراوية أو حاضرة تجارية، لولا الفتح العربي ـ الإسلامي. فقد جاءها العرب المسلمون ووقفوا أمام أسوارها أشهراً[١] حتى خضعت لهم ـ بعضها سلماً وبعضها حرباً ـ ثم اعتنقت الإسلام ديناً (منذ سنة ١٣ هـ = ٦٣٤ م) وتولى سيد من حكم الدنيا حكمها ـ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ـ في سنة ١٨ هـ = ٦٣٩ م. وأصبحت عاصمة الدولة العربية ـ الإسلامية (الأموية) منذ عام الجماعة ومبايعة معاوية بالخلافة سنة ٤١ هـ = ٦٦١ م. وانطلقت منها جيوش الفتح العربي ـ الإسلامي شرقاً وغرباً. واستقرت فيها أمجاد العرب المسلمين وعزهم وسؤددهم. فلا هو أمر غريب إن حفظت في قلبها الولاء لبني أمية وقد عرفت فيهم أصالة العرب وصدق الإسلام وفضائله. وتوالت بعد ذلك عهود وعهود. وانتقلت منها العاصمة الى توأمها بغداد بقيام الحكم العباسي (سنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م) وتبدلت الدنيا من حول دمشق وما تبدلت دمشق. وتقلبت الأقوام وما تقلب القوم في دمشق. وبقوا لعهد

---

(١) دمشق، أو جلق، أو داري سليمان نسبة إلى دمشق وتدمر. وعن اشتقاق تسمية دمشق انظر تهذيب ابن عساكر ـ مطبعة روضة الشام ـ سنة ١٣٢٩ (١٤/١ ـ ١٨) وعن فتح دمشق ـ قال القعقاع بن عمرو التميمي (المصدر ذاته ص: ١٥٦).

أقمنا على داري سليمان أشهرا ... نجالد روما وما قد حلنا بصارم
قصصنا إلى الباب العراقي عنوة ... فدان لنا مستسلماً كل قائم
أقول وقد دارت رحانا بدارهم ... أقيموا لهم حرّ الدرى بالغلاصم
فلما زأرنا في دمشق نحورهم ... وتدمر عضوا منها بالأباهم.

الإسلام راعون، وبأصالة العرب متمسكون، يوالون من صدق إسلامه، وينفرون ممن انحرف عن عقيدته. وأصبحت دمشق مع الأيام نموذجاً لصفاء المعتقد والإخلاص له، ومثلاً للوفاء بالقول والعمل. حتى إذا ما جاء الفرنج الصليبيون وطرقوا بابها بعد استيلائهم على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ثار غضب دمشق، وانتصبت أسوارها شاهقة لا ترام، ومنيعة لا تضعف ولا يتطرق إليها الوهن.

فلقد تطلع الفرنج الصليبيون نحو دمشق بمجرد استقرارهم في القدس. وعرفت دمشق ذلك، وأدرك أهلها بما توافر لهم من الخبرات القتالية المتراكمة أنه من المحال البقاء في موقع الدفاع عن دمشق وحدها، وأنه من المحال أيضاً تنظيم الدفاع إلا في إطار هجومي يتطلب من القوى والامكانات أكبر مما تمتلكه دمشق وحدها. وهكذا انطلقت دمشق، وانطلق أهل دمشق، لمجابهة الغزاة الفرنج في كل موقع تستطيع الوصول اليه قواتها. ومضت دمشق، ومضى أهل دمشق، لاستنفار القوى وحشد الامكانات. وجرت سنة ٤٩٩ هـ = ١٠٩٨ م أول وقعة كبيرة بين جيش دمشق وبين جيش الفرنج «وكان سبب ذلك هو تكرز الحروب والغارات بين عسكر دمشق وعسكر بغدوين[1] فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. وعمل بغدوين في نهاية الأمر على تشييد حصن بينه وبين دمشق نحو يومين. فخاف أمير دمشق ـ طغتكين عاقبة ذلك، وما يحصل من الضرر، فجمع عسكره وخرج لمقاتلتهم. فسار ملك القدس بغدوين وعكا وغيرهما لدعم حاكم الجليل ـ تانكرد ـ[2] وليعاضده ويساعده على المسلمين. فأعلمه تانكرد أنه قادر على مقارعة المسلمين وحده إن هم قاتلوه. فعاد بغدوين إلى عكا.

---

(١) بغدوين كما تذكره المصادر العربية هو ـ بلدوين ـ شقيق ملك القدس ـ جودفري كونت اللورين GEOFFROY الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. ولد سنة ١٠٦٠ م واشترك في قيادة الحملة ومعه أخويه يوستاس وبلدوين. وعندما تم الاستيلاء على القدس أصبح جودفري ملكاً عليها. لكنه ما لبث أن مات سنة ١١٠٠ م. فتولى أخوه بلدوين الملك على مملكة القدس.

(٢) تانكرد: (TANCREDE) أمير صقلي، من عائلة هوتفيل النورماندية، وهو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. اشترك في الاستيلاء على القدس، ثم أصبح أميراً للجليل، ثم أميراً على أنطاكية. ومات سنة ١١١٢ م.

وتقدم طغتكين بجيش دمشق. فجابهه الفرنج، واقتتلوا أشد قتال. فانهزم أميران من عسكر دمشق، فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به. فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير. فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته الى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم. وأمر بالقاء الحجارة في الوادي. وأسروا من بالحصن، فأمر طغتكين بقتلهم فقتلوا جميعاً. واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس. ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل، وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً. ثم خرج منها إلى ـ رفنية ـ [١] وهو من حصون الشام التي ملكها الفرنج، فحصره طغتكين وملكه وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج» [٢].

أرسل طغتكين بعد ذلك جيش دمشق لنصرة طرابلس التي كان يحاصرها الفرنج. ولكن نتيجة المعركة لم تكن لمصلحة المسلمين، وذلك سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م. وبقيت دمشق قاعدة ثابتة للمسلمين في جهدهم وجهادهم. فقد عمل طغتكين على دعم حاكم ـ أمير ـ طرابلس وجبيل وبانياس (فخر الملك ابن عمار). فلما استولى الفرنج على طرابلس وبيروت سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. لجأ فخر الملك الى دمشق هو ومن معه من العرب المسلمين، فأقطعهم طغتكين منطقة الزبداني التي هي من أغنى مناطق دمشق. واتفق طغتكين مع أمير الموصل ـ مودود ـ وسار جيشاهما فنزلا على نهر العاصي. ولما علم الفرنج، ساروا إلى شيزر. وتحرك جيش دمشق وجيش الموصل فنزلا في مواجهتهم سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م. وضيق المسلمون على الفرنج، وقطعوا عنهم خطوط امدادهم وتموينهم، واستثاروهم للقتال. غير أن الفرنج الذين عرفوا قوة المسلمين، وأيقنوا بتصميمهم على القتال، قرروا الانسحاب، وتبعهم المسلمون، فتخطفوا من أدركوه من ساقتهم ـ مؤخرتهم ـ. وحدث بعدئذ أن احتل الفرنج قلعة رفنية القريبة من دمشق سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. وشحنوها بالرجال والذخائر،

---

(١) رفنية تدمر (معجم البلدان).

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ أحداث سنة ٤٩٩ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ٤٣٣/١ و ٤٣٦ - ٤٣٧ و ٤٥٦ - ٤٥٧.

وبالغوا في تحصينها. « فاهتم حاكم دمشق ـ طغتكين ـ لذلك، وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب والتخريب. وعلم طغتكين بضعف قوة الفرنج المدافعين عن رفنية، فسار إليها في قوة خفيفة من الفرسان، وباغت الفرنج، فلم يشعروا به إلا وقد هجم عليهم، ودخل رفنية عنوة وقهراً، وأخذ كل من فيها من الفرنج أسيراً، وقتل بعضهم. وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم، وعادوا إلى دمشق سالمين »[١].

وهكذا أدت سياسة دمشق الدفاعية ـ الهجومية، وسياسة الفرنج العدوانية إلى تمركز الصراع حول القلاع والحصون المتصلة بدمشق، فقد قام حاكم الجليل ببناء قلعة على الجبال لتتحكم بالطريق الذي كان يربط بين صور وبانياس ودمشق « وهي القلعة التي حملت اسم قلعة تورون ـ أو ـ تبنين » كما شيّد قلعة ثانية على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية (حملت اسم قلعة علعال) وذلك حتى تكون قاعدة متقدمة للاغارة على الأراضي الخصيبة الواقعة الى الشرق من بحر الجليل. ولم يكن باستطاعة حاكم دمشق ـ طغتكين ـ أن يسمح للفرنج بتهديد موطنه، فاغتنم فرصة قيام حاكم الجليل بالاغارة على الجليل، واستيلائه على غنيمة ثقيلة، فانقض عليه وعلى قواته أثناء عودته بغنيمته إلى (علعال) فقتل حاكم الجليل، وأباد قواته، وأسرع فاستولى على ـ علعال ـ ودمرها، ولما يكتمل بعد تشييدها وتحصينها[٢] ثم قام (طغتكين)[٣] بالإغارة من جديد على الجليل، وتمكن من أسر قائد الجليل الجديد ومعظم قادة جيشه ـ خارج طبرية ـ.

فعرض ملك القدس بغدوين ـ أو بلدوين ـ عقد هدنة مع دمشق. فاشترط

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث السنوات الواردة في مجرى البحث (٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٥ و ٥٠٩ هـ).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١٥٤/٢ ـ ١٦٠.

(٣) هو ظهير الدين أتابك طغتكين، كان مملوكاً للملك تتش ابن ألب أرسلان ـ السلجوقي. تولى حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ بعد وفاة دقاق بن تتش. وكان عاقلاً خيراً كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثراً للعدل فيهم، ولما توفي سنة ٥٢٢ هـ أوصى بالحكم من بعده لابنه تاج الملوك بوري.

طغتكين إعادة طبرية وعكا وحيفا للمسلمين. فلما رفض بلدوين الطلب، أمر طغتكين بقتل حاكم الجليل وقائدها ـ جيرفاس بوسوك ـ ورفع رأسه على رمح، وسير به في مقدمة جيش دمشق الإسلامي المظفر.

ثم تجددت الجهود لعقد هدنة مع دمشق، فتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات، تعهد ـ بموجبها الفرنج بالامتناع خلال مدة الهدنة عن مهاجمة دمشق. ولكن هذه الهدنة لم تمنع الفرنج من مهاجمة بعلبك التي كانت تابعة لدمشق، كما أنها لم تمنع جيش دمشق من تقديم الدعم والمساعدة للمدن الساحلية.

وهكذا نقض الطرفان الهدنة عندما وجدا أنها غير مفيدة لهما.

وحدث في سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م أن سار أتابك طغتكين من دمشق على رأس جيشه لقتال الفرنج، فنزل بين دير أيوب وكفر بصل باليرموك. فجاءته رسل الفرنج بطلب المهادنة، غير أن الهدنة لم تتجدد بسبب امتناع الفرنج عن قبول شروط طغتكين، فسار طغتكين إلى طبرية فنهبها وما حولها، وسار منها نحو عسقلان لدعم جيش مصر الذي كان يواجه هجوم الفرنج. فأقام الجيشان المسلمان (جيش مصر وجيش دمشق) لمدة شهرين تقريباً. وامتنع الفرنج عن التعرض للمسلمين. فعاد طغتكين الى دمشق، ولكنه علم فور الوصول اليها بأن قوة للفرنج قد استولت على حصن (حبيس جلدك) ونهبت أذرعات، فأرسل اليهم ابنه تاج الملوك بوري، فانسحب الفرنج، غير أن تاج الملوك حاصرهم وضيق عليهم، مما دفعهم إلى مقاتلته قتالاً يائساً انتهى بهزيمة جيش دمشق هزيمة منكرة. فسار طغتكين إلى حلب، وعقد اتفاقاً مع الحاكم الأرتقي ايلغازي لقتال الفرنج، وتبادل الدعم والمساعدة. وأفاد الفرنج من غياب طغتكين فقصدوا حوران ونهبوها، مما اضطر طغتكين للعودة إلى دمشق بسرعة. وتمكن طغتكين من الايقاع بطائفة من الفرنج (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) فقتل منهم وأسر، وأرسل من الأسرى والغنيمة الى الخليفة ببغداد.

ومضت خمسة أعوام، حتى إذا ما كانت سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م اجتمعت الفرنج وملوكها وقامصتها وكنودها ـ جمع كونت ـ بقيادة ملكهم بلدوين، وساروا إلى

نواحي دمشق، فنزلوا بمرج الصفر، عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم. وكاتب طغتكين أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها، وجمعهم، وسار بهم عن دمشق إلى جهة الفرنج حيث وقع الصدام بين الجيشين عند تل الشقب على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من دمشق، واشتد القتال، فسقط طغتكين عن فرسه وظن أصحابه أنه قتل فانهزموا، وركب طغتكين فرسه ولحقهم، وتبعهم الفرنج. وبقي التركمان الذين لم يقدروا على اللحاق بجيش دمشق، فلما رأوا فرسان الفرنج وقد تبعوا المنهزمين، ووجدوا أن معسكر الفرنج ورجالهم - مشاتهم - ليس لهم مانع ولا حام، حملوا على الرجالة - المشاة - فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد. ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم - وفي جملته كنيسة فيها من الذهب والجوهر ما لا يقوم كثرة - فنهبوا ذلك جميعه، وعادوا إلى دمشق سالمين. ولم يعدم منهم أحد. ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين، ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة، تموا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه.

وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبتها.

وإذا كان الفرنج لم يتمكنوا من إحراز نصر على دمشق، إلا أنهم نجحوا في إعادة الكرة على حصن رفنية الذي يتحكم في المنفذ المؤدي إلى البقيعة من جهة وادي نهر العاصي فملكوه بعد حصار استمر ثمانية عشر يوماً. فضمنوا بذلك الاتصال بين القدس وانطاكية[1].

لقد فشل الفرنج حتى الآن في النيل من صمود دمشق أو إخضاعها، فلجؤوا إلى وسيلة التدمير من الداخل. وتحالفوا مع الاسماعيلية - الباطنية - للسيطرة على دمشق وتسليمها للفرنج (سنة ٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م) غير أن طائفة الإسماعيلية فشلت في مهمتها.

فقد اكتشف حاكم دمشق (تاج الملوك بوري بن طغتكين)[2] المؤامرة، فقتل مقدم

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٠ هـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢٧٨/٢ - ٢٧٩.

(٢) تاج الملوك بوري ابن طغتكين - أمير دمشق - كان كثير الجهاد، شجاعاً مقداماً، سد مسد أبيه وفاق عليه، وكان ممدحاً أكثر الشعراء من مدحه. طعنه الباطنية فجرحوه جرحين، فبرأ أحدهما، وتنسر الآخر وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية

الإسماعيلية - المزدقاني - ومعه ستة آلاف من أفراد طائفته، وكفى الله المسلمين شرهم، ورد على الكافرين كيدهم. فلما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية، عظم عليهم ذلك، وتأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها. وغمتهم المصيبة، فاجتمعوا كلهم: ملك القدس بلدوين وكونت انطاكيـة وكونت طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم في البحر للتجارة أو للزيارة - الحج - فاجتمعوا في خلق عظيم - نحو ألفـي فـارس وأمـا الراجـل فلا يحصى عـدده - وسـاروا إلى دمشـق ليحصروها. فنزلوا عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال الى الجنوب الغربي من دمشق. وأرسل ملك الفرنج بلدوين قوة كبيرة من جيشه إلى حوران لنهبه والإغارة على البلاد وجمع الميرة - التموين -. وعلم تاج الملوك بوري بذلك، فجمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، وسير أميراً من أمرائه (اسمه شمس الخواص) في جمع من المسلمين لقتال الفرنج الذين توجهوا إلى حوران، وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم - وليم مور - ومعه أربعون رجلاً. وأخذ المسلمون ما كان معهم - وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلثمائة أسير - وعادوا إلى دمشق، لم يمسسهم قرح. فلما علم من عليها من الفرنج ذلك، ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين. وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك. وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثر القتلى منهم [1] وصمدت دمشق مرة أخرى.

غير أن الفرنج انتقموا لهزيمتهم بأن حرضوا الاسماعيلية على قتل أمير دمشق - تاج الملوك - وتم لهم ذلك.

= اشتد عليه الجرح وأضعفه وأسقط قوته، فمات بعد أن أوصى بالحكم من بعده لابنه شمس الملوك إسمعيل (وانظر الكامل في التاريخ - أحداث سنتي ٥٢٥ و ٥٢٦ هـ).

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٨٦ - ٢٨٨ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٣ هـ.

ولكن دمشق لم تضعف، ولم تهن. إذ ما لبثت أن وجدت لها دعماً بتحالفها مع الزنكيين، وتسليم راية الجهاد لهم، وذلك بعد مرحلة من الاضطراب والصراع الداخلي.

تولى حكم دمشق سنة ٥٢٦ هـ = ١١٣١ م - الأمير معين الدين أنز، وذلك بعد اغتيال تاج الملوك بوري ابن طغتكين، فأحسن السيرة، وتابع رفع راية الجهاد، **وحدث سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م، أن أعلن حاكم بصرى وصلخد في حوران - واسمه التونتاش وهو أرمني الأصل - أعلن تمرده على معين الدين أنز، وطلب الدعم من ملكة القدس - ميليسيند - التي كانت تمارس دور الوصاية على ابنها البالغ من العمر يومها سبعة عشر عاماً واسمه بلدوين -.**

ووجد الفرنج أن الفرصة سانحة لهم للاستيلاء على حوران وتهديد دمشق، فحشدوا قواتهم، وبدؤوا زحفهم. وجرت اتصالات بين الملكة ميليسيند ومعين الدين أنز، أسفرت عن اقتناع الملكة بايقاف الحملة. غير أن رعاع جند الفرنج أعلنوا غضبتهم بسبب التخلي عن غارة مثمرة على بلاد المسلمين، وأصروا على المضي للقتال. فارتاع الملك بلدوين والبارونات، ولم يسعهم إلا النزول على إرادتهم. فسار جيش الفرنج وعبر نهر الأردن، وزحف على اقليم الجولان. وأسرع معين الدين أنز فجمع قواته من العرب والتركمان، وأخذ في ممارسة الضغط على قوات الفرنج أثناء معاناتهم لشق طريقهم عبر وادي اليرموك نحو درعا. وأرسل معين الدين أنز في الوقت ذاته وفداً إلى حلب لطلب الدعم من نور الدين زنكي، فاستجاب نور الدين وأسرع بالتحرك، فالتقى بجيش دمشق، وسار مع معين الدين فوصلا إلى بصرى. ولم يعلم الفرنج بوصول قوات المسلمين إلى بصرى إلا في المساء، وقد أضناهم التعب والارهاق، ونفذت المياه، وأضحت بصرى على مرمى بصرهم. ولما لم تسمح لهم حالتهم بالمضي لقتال المسلمين، فانه لم يبق أمامهم إلا الارتداد والانسحاب. فلقوا أثناء عودتهم من المشاق والصعوبات أكثر بكثير مما لقوه أثناء تقدمهم، إذ نفذت الأطعمة - التموين - وانطمرت آبار عديدة، وألح المسلمون على مضايقة مؤخرة جيش الفرنج. وقتل المسلمون من صادفهم من الجند الذين ضلوا الطريق. وأظهر ملك الفرنج - بلدوين - بطولة فائقة بالنسبة إلى صغر عمره، إذ أنه رفض الاقتراح بأن يتخلى عن كتلة جيشه، وأن يلتمس طريق

النجاة بحماية حرسه الخاص. وكان موقفه هذا عاملاً مؤثراً في متابعة الفرنج انسحابهم بنظام، فيما تابع المسلمون ضغطهم على الفرنج، مما أدى إلى وقوع أعنف اشتباك عندما كان جيش الفرنج يعبر نهر الأردن في طريق عودته إلى القدس. وفشلت هذه الحملة التي تطلبت تكاليف باهظة للوصول إلى دمشق التي زادت قوة ومنعة بفضل تحالفها مع نور الدين زنكي[1].

جاءت بعد ذلك الحملة الصليبية الثانية (والتي عرفت باسم حشد الملوك) إذ أنها ضمت ملك فرنسا لويس السابع وملك ألمانيا كنراد وعدد كبير من الأمراء. ولما كانت قوة الألمان في هذه الحملة هي القوة الرئيسة، فقد بقيت هي المهيمنة على خط سير الحملة وعلى أعمالها القتالية. وعندما وصلت قوات الحملة إلى عكا، دعت ملكة القدس وملكها - بلدوين - الى اجتماع تم عقده يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) حيث تقرر بعض شيء من المعارضة أن تتركز قوة الهجوم للاستيلاء على دمشق.

لقد اعتبر الفرنج أن الاستيلاء على دمشق يستحق كل تضحية، ذلك أن تملكهم لها يقطع الصلة نهائياً بين المسلمين في مصر وأفريقية وبين إخوانهم المسلمين في بلاد الشام والمشرق. كما أن مملكة البوريين بدمشق هي التي انفردت باستقلاليتها في العمل ضد الفرنج. وطمع بارونات القدس في الحصول على البلاد الخصيبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق، واشتد تأثرهم كلما تذكروا ما تعرضوا له في حملتهم السابقة من المذلة والهوان، فتطلع ملكهم الشاب بلدوين للانتقام. وعلاوة على ذلك كله، فقد جرى تبجيل دمشق في الكتاب المقدس للمسيحيين. ولهذا فإن انتزاعها من قبضة المسلمين سوف يردد مجد المسيح في سائر البلاد. ولقد ظهر للفرنج أن انتزاع دمشق قد بات ممكناً بعد أن توافر لهم حشد أضخم جيش قذف به الفرنج إلى ساحة المعركة. وهكذا سار جيش الفرنج، فاجتاز الجليل، ووصل إلى بانياس، ثم تابع زحفه وأقام معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق يوم ٢٤ تموز - يوليو - سنة ١١٤٨ م

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٣٩٠ - ٣٩٢.

(٥٤٣ هـ) والتي حملت منذ ذلك اليوم اسم (منازل العساكر) على بعد أربعة أميال تقريباً إلى الجنوب من دمشق، حيث لاحت من المعسكر أسوار المدينة وأبراجها البيضاء ـ عبر أشجار البساتين الكثيفة.

لم يصدق أمير دمشق معين الدين أنز، لأول وهلة، ما سبق تحرك الحملة الصليبية من شائعات، ولم يتوقع أن تجعل هذه الحملة من دمشق هدفاً لها. فلما تبين له الموقف على حقيقته، أسرع فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم بارسال كل من يستغنون عنه من الرجال، وهرع وفد إلى حلب فالتمس من نور الدين زنكي ارسال الدعم إلى دمشق. وأثناء ذلك، عجل الفرنج بالسير إلى قرية المزة لتوافر الماء بها. وحاول جيش دمشق منع تقدمهم، غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء الأسوار. وإذ انتصر الفرنج الصليبيون، أرسل قادتهم جيش القدس الى البساتين للقضاء على مجاهدي المسلمين الذين كانوا يشنون حرب العصابات، وتمكن الفرنج من بسط سيطرتهم على البساتين الواقعة إلى الجنوب من دمشق، وأقاموا الحواجز ـ المتاريس ـ من الأشجار التي قطعوها. وأظهر كنراد شجاعة فائقة في قيادة جنده وشق الطريق الى الربوة الواقعة على نهر بردى ـ تحت أسوار المدينة مباشرة. وظن أهل دمشق عندها أنهم على وشك خسارة كل شيء، فشرعوا في إقامة الحواجز والمتاريس بالشوارع استعداداً للاستماتة في القتال دفاعاً عن دمشق. ولكن الموقف أخذ في التحول مع قدوم اليوم التالي حيث أخذت الامدادات في التدفق من الأقاليم الى المدينة ـ عبر بوابتها الشمالية وأسرع أنز فقاد هجوماً مضاداً أبعد فيه الفرنج عن الأسوار، ثم تابع هجماته في اليومين التاليين، بينما انتشر المجاهدون في الحدائق والبساتين، وأوغلوا في تقدمهم وهم يوجهون إلى الفرنج الضربات الموجعة. وبلغت هذه الهجمات من العنف ومن الخطورة ما حمل الملوك: كنراد ولويس وبلدوين، على عقد مؤتمر تقرر فيه الجلاء عن البساتين الواقعة الى الجنوب من المدينة، والتحرك نحو الشرق لاقامة المعسكر في بقعة تحرم المسلمين من استثمار حواجز البساتين وسواترها وسدودها.

تحرك الجيش الصليبي بكامله إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي، يوم ٢٧ تموز ـ يوليو ـ وكان هذا القرار بالغ الخطورة، فقد كان الموضع الجديد يفتقر الى الماء،

كما أنه واجه أمتن وأقوى قطاع في سور دمشق. وتوافر للمجاهدين في المدينة قدر كاف من الحرية للالتفاف من حول البساتين. واعتقد عدد كبير من عساكر الفرنج أن بارونات فلسطين الذين نصحوا الملوك بالانتقال إلى معسكرهم الجديد، قد تقاضوا رشوة كبيرة من أنز حتى يسدوا هذه النصيحة، إذ ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق بفضل تحرك جيش الفرنج الى الموضع الجديد.

علم أنز أن نور الدين زنكي قد انحدر بجيشه من حلب نحو الجنوب، وأفاد - أنز - من تعاظم قوة جيشه وتزايد عدده، فجدد هجماته على معسكر الفرنج، وأرغم الجيش الصليبي على اتخاذ خطة الدفاع، ولم تعد دمشق هي المدينة الخاضعة للحصار بل بات الجيش الصليبي هو الواقع تحت الحصار. وترددت كلمات الخيانة والتخاذل في وسط الجيش الصليبي، وشاع الهمس في وسط جنده، فيما انصرف الملوك والأمراء لمناقشاتهم بشأن مستقبل دمشق عندما يتم الاستيلاء عليها، إذ كان ملك القدس يريدها تابعة له، بينما كان آخرون يريدونها إمارة لهم، وأثناء ذلك كانت الاتصالات السرية مع حاكم دمشق مستمرة - فيما ذكرته مصادر الفرنج - وقيل أن أنز دفع مبلغاً ضخماً من المال لملك القدس حتى يصرف جيوش الحملة - وخاصة الجيش الألماني والجيش الفرنسي - عن دمشق. واقتنع بارونات الفرنج، بعد فوات الوقت، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق، لاسيما بعد أن توافرت المعلومات عن اقتراب نور الدين زنكي وجيشه من دمشق. ففرض البارونات رأيهم على الملكين لويس وكونراد - كنراد -. وجأر الملكان بالشكوى لما اكتشفاه من الخيانة والافتقار الى الحماسة لقضية الصليبيين، غير أنهما أدركا أنه ليس باستطاعتهما عمل أي شيء إلا إذا توافر لهما دعم الفرنج المحليين الذين استقروا في بلاد الشام منذ الحملة الأولى، فأمرا بالارتداد عن دمشق وذلك بعد خمسة أيام فقط من بدء فرض الحصار على المدينة. وقوض الصليبيون معسكرهم، وساروا نحو الجليل (يوم الأربعاء ٢٨ تموز - يوليو - سنة ١١٤٨ م). ومع أن أموال أنز هي التي حملتهم على الانسحاب - بالاضافة الى الوعد الذي قطعه أنز لملك القدس بتسليمه قلعة بانياس إن هو نجح في حمل الفرنج على الانسحاب -. فان أنز لم يدعهم يرتحلون في هدوء وسلام، فظل فرسان التركمان

الخفيفي الحركة يعملون طوال اليوم ـ وخلال الأيام التالية أيضاً ـ على ممارسة ضغط قوي ضد جناحي الجيش الصليبي، ويمطرونه بوابل من السهام، فتناثرت جثث الرجال وخيولهم على امتداد طريق الانسحاب الى فلسطين، وأفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة تالية. وكان كل ما حققته هذه الحملة هو أنها أضاعت حياة عدد كبير من رجالها، وقدراً كبيراً من عتادها، وتعرضت لهوان شديد. والواقع، فان ما حدث من إرغام جيش في هذه الضخامة والروعة، على التخلي عن هدفه، ولما يمض على القتال سوى أربعة أيام، يعتبر ضربة قاصمة لكرامة الفرنج الصليبيين. فقد تبددت بذلك اسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون، وهي الاسطورة التي نمت وترعرعت أثناء مغامرة الحملة الصليبية الأولى، بينما انتعشت آمال العالم الإسلامي [١] .

يمكن بعد ذلك تجاوز الدور الذي قامت به دمشق وجيشها في تقويم موقف مصر، وفي الدفاع عنها (بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (سنة ٥٦٤ هـ) ثم ما تبع ذلك من توحيد جهد العالم الإسلامي تحت قيادة واحدة، وذلك بالقضاء على الحكم الفاطمي في مصر. كما يمكن تجاوز دور جيش دمشق في معركة حطين الخالدة (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م). وكذلك تحرك جيش دمشق وانتقاله الى مصر من أجل رفع الحصار عن دمياط يوم هاجمها الفرنج (٦١٦ ـ ٦١٨ هـ = ١٢١٩ ـ ١٢٢١ م). فقد كان ذلك كله في إطار سياسة استراتيجية هجومية شاملة للانتقام من الفرنج الصليبيين الذين دنسوا تراب بلاد الشام بجرائمهم وآثامهم. فكان جيش دمشق وفقاً لهذه السياسة الاستراتيجية وهو في حالة حركة دائمة، للضغط على الفرنج باستمرار في أي موقع تطلب ممارسة مثل هذا الضغط. ولهذا لم يكن غريباً أن تتصدى دمشق وحاكمها الناصر الأيوبي لعملية التوقيع على المعاهدة التي وقعها حاكم مصر الملك الكامل الأيوبي مع الامبراطور الألماني فريدريك الثاني (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) حيث استعظم المسلمون في دمشق ما تضمنته هذه المعاهدة من إعادة القدس للفرنج الصليبيين. وأكبروا أمرها، ووجدوا فيها من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٣ هـ ـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٤٥١ ـ ٤٥٨.

فأعلنت دمشق الحداد العام لما تعرض له الإسلام من خيانة، وجهر أئمة المساجد بالهجوم على المعاهدة. واستمرت دمشق في مقاومتها حتى سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م. حيث دفعت فرسان الخوارزمية الذين طردوا الفرنج من القدس بصورة نهائية.

بقيت دمشق كابوساً ثقيلاً أرهق كاهل الفرنج الصليبيين وجثم على صدورهم. وبقي الاستيلاء على دمشق هاجسهم، غير أنهم عجزوا في كل مرة عن بلوغ أسوارها والوصول إلى تحصيناتها. غير أن خطراً جديداً دهم دمشق عندما تحالف الفرنج مع المغول التتار. فدخل موكب قائد المغول ـ كتبغا ـ إلى دمشق وبرفقته ملك أرمينية وملك أنطاكية. وشهد سكان عاصمة الأمويين، وللمرة الأولى منذ ستة قرون ـ ثلاثة ملوك صليبيين وهم يركبون معاً، ويشقون بموكبهم شوارع المدينة، فأخذ المسلمون فيها يتحرقون شوقاً للانتقام، ولم يطل انتظارهم، فقد انتصر المسلمون في عين جالوت بعد أشهر قليلة (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) ودخل موكب المظفر قطز إلى دمشق بعد خمسة أيام من انتصاره في عين جالوت، وانطلق المسلمون في الشام للانتقام من هؤلاء الذين دنسوا أرضهم. وكان انتقاماً عادلاً.

لقد ارتدت جحافل ثلاث حملات صليبية عن أسوار دمشق. ولم يكن ذلك بسبب قوة الأسوار ومنعتها، وإنما كان بسبب تصميم المسلمين في بلاد الشام على حماية مدينتهم نقية طاهرة من أن تدنسها أقدام الغزاة الصليبيين. ولهذا كان المجاهدون في سبيل الله يسرعون لمجابهة الفرنج، وقتالهم، بعيداً عن أسوار عاصمة بني أمية، وبعيداً عن القاعدة التي انطلقت منها جيوش الفتح شرقاً ومغرباً.

لم تكن قوة دمشق في أسوارها المنيعة وتحصيناتها الصلبة ـ ولو أن تلك الأسوار والتحصينات كانت على درجة كافية من القوة والمنعة ـ وإنما كانت قوتها في ايمانها الثابت بحتمية انتصارها على أعداء الدين، وبما يمتلكه المسلمون من القدرات الذاتية. وكذلك باستثمار نقاط ضعف الأعداء. ونتيجة لذلك، فقد تميز دور دمشق خلال

الحروب الصليبية القديمة بدمج عوامل الصراع السياسي والعسكري، مع ما يتفرع عن هذا الصراع من عوامل اجتماعية واقتصادية وحتى شخصية، وقد أظهر العرض السابق أن دمشق قد خاضت صراعها وهي مدركة تماماً لمتطلبات الصراع في كل مرحلة من مراحله، فبقيت دمشق هي القاعدة الصلبة والمأمونة التي استند إليها كبار قادة المسلمين في حروبهم ضد الفرنج الصليبيين، وفي طليعتهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، وهم الذين استأثرت دمشق بحفظ رفاتهم فضمتها الى ما امتلكته أرضها من رفات السلف الصالح.

لقد أبرزت الحملات الصليبية ضد دمشق، وارتدادها خائبة عنها، ما توافر لأهل دمشق الأجداد من الفضائل الحربية. وما تراكم فيها من خبرات قتالية عبر جهادها المستمر منذ الأيام الأولى للفتح العربي ـ الإسلامي. فلم يكن صراع دمشق مجرد صراع مسلح فحسب، وإنما كان صراعاً دينياً عقائدياً ـ أو سياسياً بحسب المصطلحات الحديثة ـ وكان هذا الصراع قد تطلب قبل كل شيء توافر درجة عالية من الايمان مع توافر كفاءة عالية في ادارة الصراع السياسي ـ العسكري على جبهتي الأصدقاء والأعداء على السواء. وبرهنت دمشق هنا أيضاً أن ما امتلكته من الخبرات المتراكمة في المجالات الإدارية والسياسية لم تكن أقل من رصيدها في الفضائل والخبرات الحربية. وهذا ما ضمن لها النجاح في ممارسة دورها.

لقد تتابعت على حكم دمشق خلال فترة الحروب الصليبية القديمة أنظمة مختلفة، مثل السلاجقة والبوريين فالزنكيين فالأيوبيين فالمماليك، غير أن النهج السياسي العسكري لدمشق بقي ثابتاً ولم يتبدل أو يتغير. وهذا يعني ببساطة أن دمشق كانت هي التي فرضت فكرها السياسي ـ العسكري على حكامها المتتابعين. ولم تكن دمشق تهتم كثيراً بشخص حاكمها إلا بقدر ما كان يبرهن عليه هذا الحاكم من إخلاص في الجهد والجهاد. وإلا بقدر ما يتوافر له من الكفاءة في إدارة الحرب ضد الفرنج الصليبيين. ولم يكن من الغريب بعد ذلك أن تستأثر دمشق المجاهدة بحقد الفرنج، فبقيت تحتل المرتبة العليا في تفكير ملوك الفرنج وفي أعمالهم ضدها. وكان لدمشق من إيمانها درعاً

واقياً وكافياً لاحباط مكائدهم واسقاط مخططاتهم، ورد أعمالهم العدوانية. وخرج الفرنج مدحورين من بلاد الشام. وبقيت دمشق حصينة بدرعيها المادي والمعنوي والمعنوي قبل المادي. ولقد زادتها تجارب الحروب الصليبية يقيناً على ايمانها بحتمية انتصارها على كل عدو إن هي استطاعت التمسك بدينها والالتزام بما تفرضه عليه عقيدتها من واجب الجهاد في سبيل الله.

١١ ـ قلعة شيزر

(قلعة شيزر)[١] من القلاع التي انتصبت بعض بقاياها لتذكر بما كان لها من أمجاد غابرة. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: « قلعة شيزر من أمنع الحصون. قريب من حماة. بينهما نصف نهار. والقلعة على جبل عال منيع، لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة »[٢] ووصفها أبو الفداء بقوله: « قلعة شيزر هي قلعة حصينة، ويمر بها نهر العاصي من شمالها، وينحدر عندها النهر المذكور على سكر ـ سد ـ ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع يسمونه ـ الخرطلة ـ وهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة أكثرها الرمان. قال في العزيزي: بين شيزر وبين حماه تسعة أميال. وبينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلاً. ومن شيزر إلى أنطاكية ستة وثلاثون ميلاً. ولها سور من لبن. ولها ثلاث أبواب ويمر العاصي مع السور من شمالها »[٣].

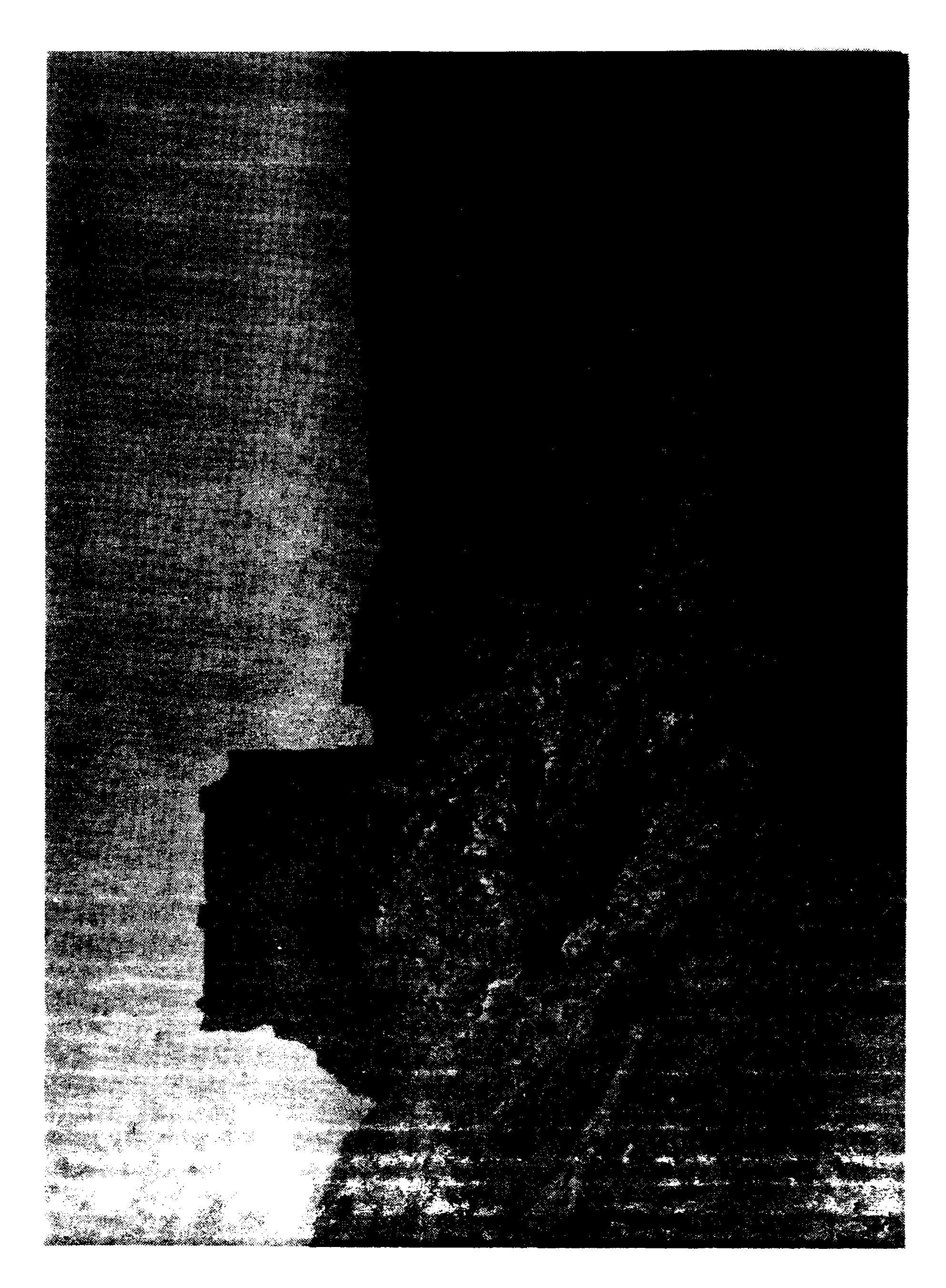
وشيزر إذن هي عبارة عن قرية وقلعة تقع في وسط بلاد الشام، بالقرب من جسر قديم ومخاضة على المجرى الأعلى لنهر العاصي، إلى الشمال الغربي من مدينة حماه. وتنتصب القلعة مجانبة للنهر، فوق جرف صخري متطاول وضيق. يفصله عن السفح الصخري المتصل به في الجنوب قناة عميقة. ويرتفع الجدار الأمامي للبرج المحصن فوق هذا الخندق مباشرة. وهو صرح ضخم يتألف من طابقين داخليين وشرفة سطحية واسعة، وهو دون شك نتاج فترات بناء متعددة. وقد انهارت الجدران التي كانت تكسو حافة الجرف على كل من ضلعي القلعة الطويلين في معظمها، ولم يبق سوى

---

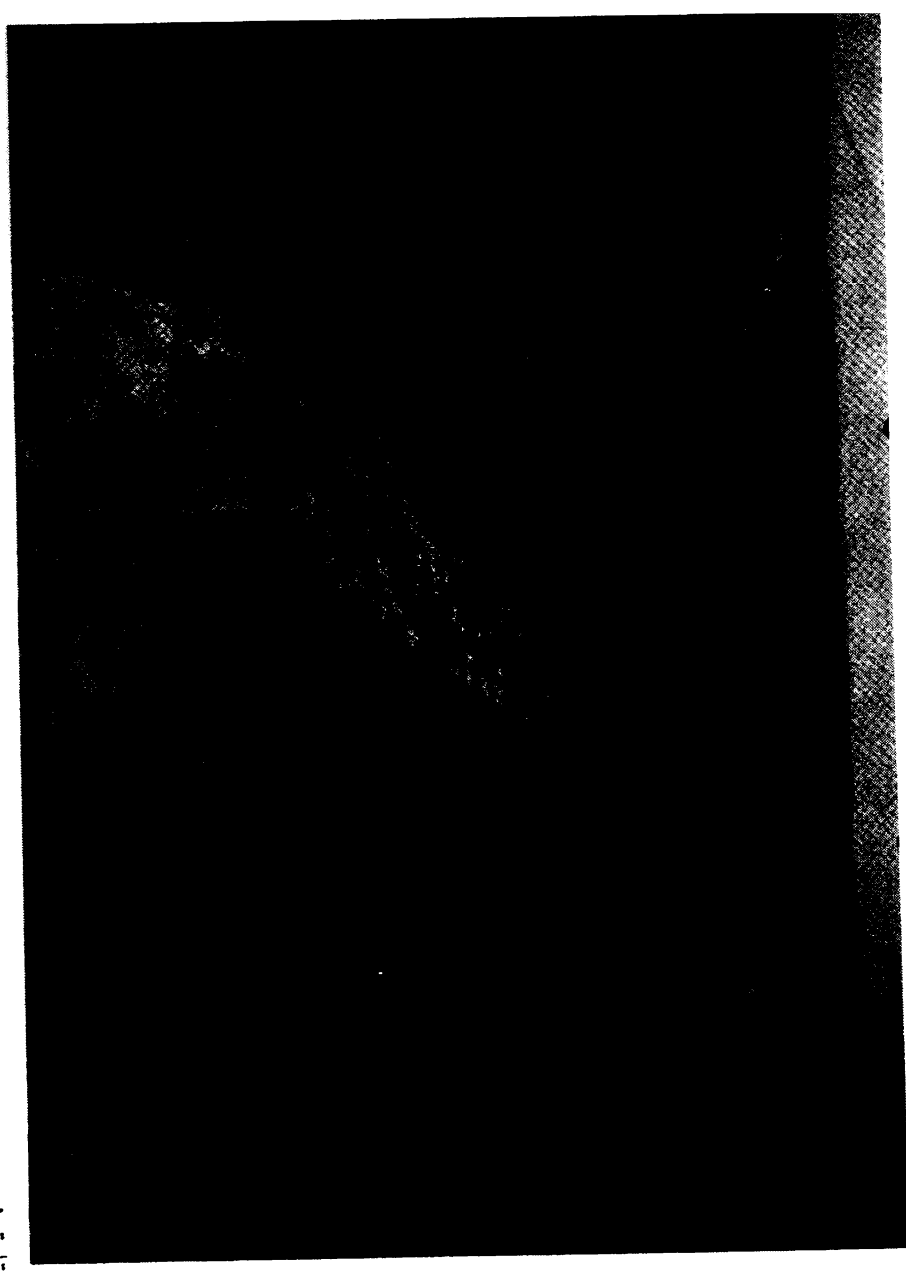
(١) شيزر، وتكتب باللاتينية: (SHEIZAR) وباليونانية سيزارا: (SIZARA) وتوسيزر: (TOSEZER).

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٨٧ هـ (٨/٣٦٠) و (٩/٥٣ و ١٠٦).

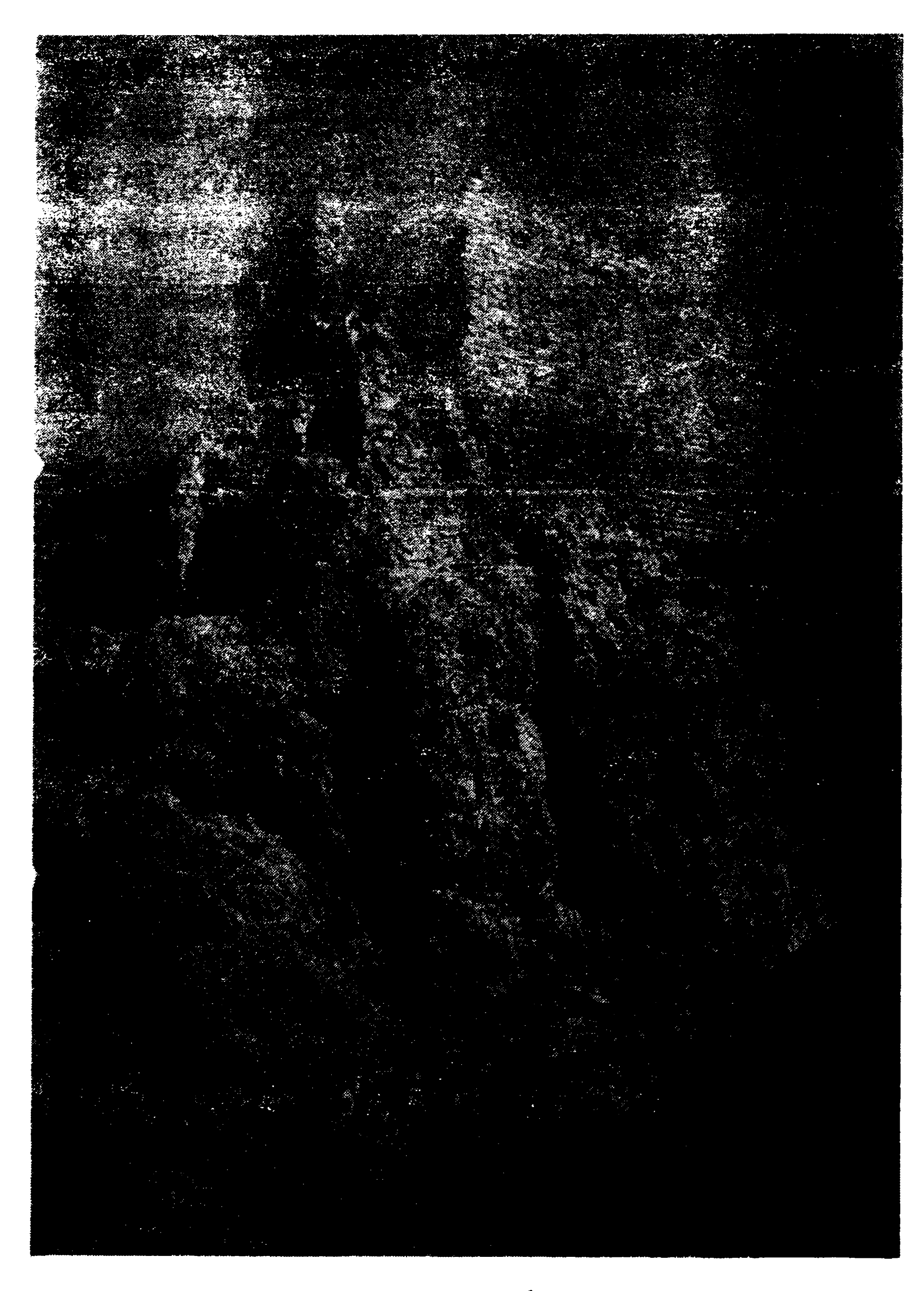
(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦٩ ـ ٧٠.



قلعة شيزر



قلعة شيزر



قلعة شيزر

الركن الشمالي الأقصى من القلعة والتي هي عبارة عن سواتر ترابية شديدة الانحدار، ولا زالت البوابة متينة البنيان، قائمة على أصولها.

لا تختلف قصة قلعة شيزر - التاريخية - عن قصص سواها من القلاع القديمة التي عاشت على أرض بلاد الشام. فتاريخ القلعة يعود إلى أيام السلوقيين - خلفاء الاسكندر الأكبر المقدوني وورثته - وعندما ورث الرومان عن اليونان ما كان لهم من بلاد خضعت لحكمهم، أصبحت هذه القلاع تحت حكم الرومان، ثم استقلت دولة الروم - البيزنطيين - بحكم منطقة البحر الأبيض المتوسط. فأنشأت اللبات - القلاع - على امتداد حدودها في الشرق والغرب، وكانت شيزر في جملة هذه اللبات. حتى إذا ما فتح العرب المسلمون بلاد الشام، خضعت لهم القلاع والحصون، ودانت لحكمهم. وتعرضت القلاع في شمال بلاد الشام لهجمات الروم البيزنطيين مرات عديدة، ولم تنج شيزر من الاجتياح الرومي وخاصة أيام نقفور فوقاس الذي استطاع فرض الهيمنة على شيزر في الفترة ما بين ٣٥٢ - ٣٥٩ هـ (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وعندما اجتاح الفرنج الصليبيون بلاد الشام، صمدت شيزر في وجه هجماتهم. وكانت هناك عائلة عربية قد استقرت في شيزر حملت اسم (آل منقذ). اضطلعت بواجب الجهاد في سبيل الله. وبذلت جهدها لتنسيق التعاون مع القوى الإسلامية في الاقليم. ولهذا لم يكن غريباً أن يرتبط اسم قلعة شيزر باسم (آل منقذ) طوال الحروب الصليبية. لاسيما في سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م عندما حاول الامبراطور البيزنطي جون الثاني (كومنين) الاستيلاء على شيزر، وضرب الحصار عليها بالتعاون مع الفرنج الصليبيين. لكن شيزر صمدت للحصار وانتصرت وكان هذا الهجوم الكبير قد بدأ بالهجوم على بزاغة - وهي مدينة لطيفة تقع على بعد ستة فراسخ من حلب -. مما دفع عماد الدين زنكي لارسال بعض قواته لدعم الحامية المدافعة عن حلب. غير أن الروم تابعوا هجومهم فحصروا بزاغة ونصبوا عليها المنجنيقات، مما أرغم أهل بزاغة على طلب الأمان لأنفسهم، ولكن ملك الروم غدر بأهلها وقتل وأسر وسبى، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها - نحو أربعمائة نفس -. وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى. فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات، فدخنوا

عليهم، وهلكوا في المغاير. وعندما أراد الروم الرحيل عن حلب، خرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم. وعادوا خاسرين، فلم يروا فيها طمعاً. فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها وملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بزاغة وأسراهم ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا عنها. فلما علم أمير حلب (الأمير أسوار) بذلك، قاد جنده الى الأثارب. وأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الأسرى والسبي وعاد بهم إلى حلب.

وأما عماد الدين زنكي، فكان قد غادر حمص، وسار الى سلمية فنازلها، وعبر ثقله الفرات الى الرقة. وأقام جريدة ـ قوة خفيفة من الفرسان ـ ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة ـ التموين ـ. ولكن الروم تجاهلوا عماد الدين زنكي وقوته وتابعوا تقدمهم وهدفهم الاستيلاء على قلعة سيزر التي لم تكن تابعة لزنكي، وانما كانت تابعة للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني[1]. فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً. فأرسل صاحبها ـ حاكمها ـ الى زنكي يستنجده، فسار إليه، ونزل على نهر العاصي بالقرب منها، بينها وبين حماه، وكان زنكي يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره، ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به من الروم.

أرسل عماد الدين زنكي بعد ذلك إلى ملك الروم من قال له:

«إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء، حتى نلتقي،

---

(١) كانت شيزر لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أعوام عشرين وأربعمائة (١٠١٩ م) حتى انتهى الملك الى المرهف نصر بن علي ابن نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي. فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة، عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد. وكان عالماً بالقراءات والأدب. وولى مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي، ونشأ لمرشد بنون كثيرون وكبروا وسادوا ـ منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وولده علي. وقصد بعضهم نور الدين زنكي. ثم وقعت الزلازل وضرب حصن شيزر وتهدم.

(تاريخ ابن خلدون: ٥/٥٤١ ـ ٥٤٤) و (الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٥٢ هـ).

فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم. وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها».

ولم يكن لدى عماد الدين من القوة ما يكفي لقتال الفرنج والروم. ولكنه أراد أن يرهبهم بهذا القول وأشباهه. فأشار فرنج الشام ـ الصليبيين ـ على ملك الروم بمواجهته وهونوا أمره عليه، فلم يفعل، وقال لهم: «أتظنون أنه ليس معه من العسكر إلا ما ترون. إنما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له». وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم ويوهمه بأن الفرنج الصليبيين بالشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه. ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم، ويقول لهم: «إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً». فاستشعر الخوف كل من صاحبه، ورحل ملك الروم عن شيزر بعد أن أقام على حصارها أربعين يوماً. وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها. فسار زنكي يتبع مؤخرة جيش الروم، فظفر بكثير ممن تخلف منهم. وأخذ جميع ما تركوه. ولما عاد ملك الروم عن شيزر، مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا[1]. ومن عجيب ما يحكى أن ملك الروم لما عزم على حصر شيزر وسمع من بها ذلك، قال الأمير مرشد بن علي ـ صاحبها ـ وهو ينسخ مصحفاً ـ:

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٣٢ هـ. وفيه مما قيل في مدح أتابك ـ القائد ـ زنكي، بهذه المناسبة، ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي في قصيدة طويلة مطلعها:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الأبيات:

ألم ترَ أن كلب الروم لما ... تبين أنه الملك الرحيم

فجاء فطبق الفلوات خيلاً ... كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه ... ودان لخطبه الخطب العظيم

فحين رميته بك في خميس ... تيقن أن ذلك لا يدوم

وأبصر في المفاضة منك جيشاً ... فأحرب لا يسير ولا يقيم

كأنك في العجاج شهاب نور ... توقد، وهو شيطان رجيم

أراد بقاء مهجته فولى ... وليس سوى الحمام له حميم

« اللهم بحق من أنزلته عليه، إن قضيت بمجيء ملك الروم، فاقبضني إليك ».
فتوفي بعد أيام.

لقد عجز الروم عن احتلال شيزر بسبب صمود حاميتها بقيادة (آل منقذ) الذين وصفوا بأنه ليس لهم من عمل إلا تلاوة القرآن والقيام بالعبادات وجهاد الكفار. وهذا ما حملهم على الاستعانة بإخوانهم المسلمين - الزنكيين - ضد أعداء الدين. ولم يكن غريباً ألا يحاول الزنكيون الاستيلاء على شيزر أو فرض سيطرتهم عليها، ذلك أن جهد الزنكيين قد تركز على حشد الجهود لقتال الغزاة من الفرنج الصليبيين والقضاء على من والاهم أو هادنهم أو تعاون معهم.

وبذلك التقى آل منقذ والزنكيون تحت راية الجهاد في سبيل الله، فكانت أخوتهم بالله وفي سبيل الله، وكان النصر في ركابهم. حتى إذا ما كانت سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م وقعت زلازل بالشام وضربت شيزر بقوة حتى أنه لم ينج من بني منقذ - الذين بها - أحد. وكان سبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم - أميرها - كان قد ختن ولداً له، وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ عنده في داره. وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه. وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه. وكان الفرس - المهر - في ذلك اليوم على باب الدار. فجاءت الزلزلة، فقام الناس ليخرجوا من الدار. فرمح الفرس رجلاً كان أولهم فقتله. وامتنع الناس من الخروج. فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها، ولم ينج منها إلا الشريد. وخاف نور الدين زنكي أن يستولي الفرنج على ما تهدم من القلاع والحصون. فأقام بأطراف البلاد حتى فرغ من بناء حصونها وأسوارها. وأصبحت شيزر في حكم نور الدين زنكي، غير أن انتقال شيزر إلى حكم الزنكيين لم يحبط من إرادة (آل منقذ - الكنانيين) فتابعوا دورهم في حمل رسالة السيف والقلم لقتال الفرنج. وإذا كانت شيزر رمزاً للمقاومة، فقد كان أسامة بن منقذ رمزاً لفارس المقاومة ورجلها وأديبها، حتى أنه اعتبر صورة حية عن الثقافة العربية - الإسلامية في عصر صلاح الدين الأيوبي - من خلال كتابه الشهير - الاعتبار -[1] « والمعروف أنه نشأت بين أسامة هذا، وبين

---

(١) ترجم الدكتور فيليب حتي كتاب أسامة (الاعتبار) الى اللغة الانكليزية بعنوان:
=

فرسان الفرنجة صلات ود وصداقة. ثم إنه شارك في حملات نور الدين عليهم. وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق، على الرغم من بلوغه سناً متقدمة. ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره، على ما تشهد سائر كتبه، فقد ازدراها بالكلية في مذكراته هذه. إنه ههنا يقص علينا في لهجة قصصية بسيطة مختلف مغامراته في الحرب والسلم، وفي الطرد - الصيد - بصورة خاصة. وإنه ليبلغ غاية عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه على المسلمين والنصارى جميعاً »[1].

لقد حفظ التاريخ مما حفظه، لآل منقذ والكنانيين، دورهم في الدفاع عن مصر، وفي دعم الدولة الزنكية ثم الدولة الأيوبية من بعد. ويبرهن ذلك على أن آل منقذ، شأنهم كشأن كافة القبائل العربية - الإسلامية، لم يكن يهمها أن تتبوأ مكان القيادة، قدر ما كان يهمها نصرة قضية الإسلام والمسلمين، ورفع راية الجهاد ضد أعداء الدين. ولهذا فانها كانت على استعداد لوضع سيوفها وتقديم الولاء لكل من توافرت له القدرة والكفاية للدفاع عن الإسلام وأهله. وقد عرف آل منقذ اخلاصهم وقدرتهم فعملوا معهم بحماسة وإخلاص. وكذلك فعلوا مع صلاح الدين الأيوبي.

إن موضع البحث هنا هو موضوع (قلعة شيزر) وليس موضوع (آل منقذ) غير أنه في ذلك المكان، وفي تلك الحقبة التاريخية، تلاحم اسم القلعة باسم حماتها والمدافعين عنها من آل منقذ. ولقد خضعت معظم القلاع والحصون المجاورة لحكم الفرنج الصليبيين، وامتنعت قلعة شيزر عن الخضوع للغزاة. وقامت القبيلة العربية - المسلمة بواجبها في حماية معقلها والدفاع عنه واعداد الوسائل الضرورية للحرب. حتى إذا ما انهارت القلعة وهجرها آل منقذ، تابع من بقي منهم على قيد الحياة دورهم في حمل السيف والجهاد بكل الوسائل المتوافرة. وبذلك لم تكن القلعة هي التي وفرت لآل منقذ الظروف المناسبة للدفاع، وانما هم آل منقذ الذين اضطلعوا بواجب الدفاع وحملوا

AN ARAB-SYRIAN GENTLEMAN AND WARRIOR IN THE PERIOD OF THE CRU =
. SADES-NEW YORK-1929

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية. ص: ٣٥٩.

أعباءه، وأعدوا له أسبابه ووسائله. فبرهنوا مرة أخرى في التاريخ على أن النصر في الصراع المسلح، إنما يرتبط بتصميم الانسان المؤمن وايمانه بربه وإرادته على انتزاع هذا النصر - في البحث عن إحدى الحسنيين.

لم يكن بذلك (أسامة بن منقذ)[١] هو الوحيد في آل منقذ، والذي وضع سيفه وقلمه في خدمة المسلمين - لاسيما خلال فترة عمله مع صلاح الدين الأيوبي - بل كان هناك أيضاً (شمس الدين بن منقذ) والذي عمل سفيراً لصلاح الدين الأيوبي لدى المنصور يعقوب الموحدي، عندما طلب صلاح الدين من سلطان المغرب - المنصور - إرسال اسطوله لجهاد الفرنج في بلاد المشرق[٢]. ولعل ما أسبغه سلطان المغرب على (شمس الدين بن منقذ) من التكريم، إنما هو برهان على ما بلغته سمعة (آل منقذ) من الشهرة في الجهاد. وما كان لها من مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

يبرز العرض السابق أن شيزر وقلعتها لم تنفرد عن سواها من قلاع بلاد الشام وحصونها بشيء يضيف رفداً جديداً لفن حرب الحصار. فهي تتمتع بموقع منيع حقاً، وتحتل موقعاً جيو - استراتيجياً هاماً - بحسب المصطلحات الحديثة - غير أن منعة

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٤ - وورد في الحاشية ما يلي: «توفي في هذه السنة الأمير الكبير. سلالة الملوك والسلاطين، الشيزري مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة ابن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ. أحد الشعراء المشهورين المشكورين. بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة. وكان عمره تاريخاً مستقلاً وحده. وكانت داره بدمشق - مكان العزيزية. وكانت معقلاً للفضلاء ومنزلاً للعلماء... وكان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وكان في شبيبته شهماً شجاعاً. قتل الأسد وحده مواجهة، ودفن شرقي جبل قاسيون».

(٢) وردت قصة هذه السفارة في نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (١/٤٤٤ - ٤٤٥) وكانت هذه السفارة من سنة ٥٨٦ الى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٠ - ١١٩٢ م). وذكر أن ابن منقذ عاد من سفارته بغير فائدة. وبعث يعقوب الموحدي - المنصور - مع ابن منقذ هدية حقيرة لصلاح الدين. أما ابن منقذ فإن السلطان يعقوب أحسن إليه وأغناه، لا لأجل صلاح الدين بل لبيته وفضله. وانظر صبح الأعشى: ٦/٥٢٦ - ٥٣٠ والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - لأبي شامه - القاهرة - ١٩٦٢ (٢/١٧٠ - ١٧٤ و ١٨٨).

موقعها ومكانها لم يضمن لها مميزات خاصة، بل إن سواها من القلاع، مثل قلعة صلاح الدين (صهيون) وقلعة صافيتا، تتفوقان عليها سواء من حيث متانة تحصيناتها، أو من حيث قوة موقعها، أو حتى من حيث أهميتها. وعلى هذا فقد يصعب استخلاص مميزات خاصة بالقلعة. وإن ما حصلت عليه قلعة شيزر من الشهرة إنما يعود لارتباطها بآل منقذ من جهة، ولصمودها في وجه الفرنج الصليبيين من جهة أخرى. ولقد حاول الفرنج مهاجمة شيزر والاستيلاء عليها، بعد الزلزال الذي ضرب القلعة فدمر أسوارها وتحصيناتها سنة ٥٥٢ و سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٧ - ١١٥٨ م) ولكن هجوم الفرنج فشل المرة بعد المرة. كما عاد الزلزال فضرب قلعة شيزر سنة ٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م فدمرها. وأسرع المسلمون لإعادة ترميم القلعة وتحصينها. ويؤكد ذلك تصميم المسلمين على حماية القلعة والدفاع عنها، كما يؤكد في الوقت ذاته أن قوة القلعة كانت كامنة في تنسيق التعاون بين الحامية المدافعة عنها وبين القوة الخارجية الداعمة لها. وهذا يبرهن على ماسبقت الإشارة إليه من أن القلاع تبقى ضعيفة في مواجهة الهجوم الخارجي مهما توافر لها من المنعة والقوة، وأنه لا بد لها من ضمان الدعم الخارجي الثابت. ذلك أن مهمة القلاع هي التصدي للعدوان الخارجي وايقافه لفترة محدودة من أجل اتاحة الفرصة أمام قوات الدعم الرئيسة للتدخل في الوقت والاسلوب المناسبين. وقد تأكدت هذه الحقيقة عندما سقطت قلعة شيزر في قبضة المغول التتار، وذلك عندما انحدرت جحافل هؤلاء من الشمال، فاجتاحت حصون بلاد الشام وقلاعها دون مقاومة تقريباً بسبب عدم توافر الدعم الخارجي. ويذكر أن المغول قد عملوا خلال اجتياحهم لقلعة شيزر على تدمير أسوار القلعة وتحصيناتها (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) وعندما تم طرد المغول جاء الظاهر بيبرس فعمل على إعادة تشييد قلعة شيزر وتحصينها (سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وتحمل آثار القلعة اليوم ما يشير الى أن النلسطان قلاوون قد أكمل تحصين شيزر ودعم استحكاماتها سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م. وهذا يعني أن عملية إعادة التحصين قد استمرت طوال ثلاثين عاماً. ولم يكن العمل مستمراً طوال هذه الفترة - بالتأكيد - وإنما كان نوباً، ومن المحتمل أن يكون السلطان قلاوون قد أضاف بعض الاضافات سواء لزيادة قوة التحصينات أو لاضفاء بعض الظواهر التجميلية التي

تليق بالقلعة (مثل البوابة الخارجية) . والمعروف أن الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون لم يعتمدا في حروبهما على المواقع الدفاعية والتحصينات، وكانا يعتمدان على الهجوم والهجوم وحده. ولكن ذلك لم يمنعهما من الاهتمام بالقلاع والتحصينات، وذلك لصد الهجمات المباغتة، وباعتبارها القواعد الثابتة لانطلاقة الهجوم.

لقد تجاوز الزمن عمر القلاع والتحصينات، وبات من المحال أن تصمد الأسوار الشاهقة لضربات الأسلحة النارية، ولهذا عمل العثمانيون على أهمالها . فسقطت أهمية القلاع الشاهقة والتحصينات المرتفعة، وانتقل التحصين إلى باطن الأرض بدلاً من ظاهرها، غير أن تجربة شيزر التاريخية، وتجارب سواها من القلاع بقيت ذات نتائج ثابتة من أهمها ارتباط الدفاع الداخلي بالهجوم الخارجي، وارتبط نظم الدفاع برباط واحد ، وتفوق الهجوم على الدفاع.

١٢ ـ قلعة الشقيف [بوفورت].

قلعة (شقيف أرنون)(١) هي قلعة في جنوب لبنان، تقع على جرف جبلي شديد الانحدار، ارتفاعه ٢٢٠٠ قدماً، مقابل نهر الليطاني. وهي مثل قلعة صبيبة (بانياس) التي تقع على اتصال بالنظر معها. تتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة. شيدت القلعة العليا التي لها برج محصن كبير وسور ضخم من الحجارة المتداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة، بينما تتصل بها القلعة السفلية عن طريق ريف صخري ضيق من جهة الشرق. وتنفصل أرباض القلعة كلية عن الهضبة المحيطة بها، والتي كانت مأهولة فيما مضى ـ بخندق مائي محفور في الصخر الأصم. وقد وصفها أبو الفداء في تقويم البلدان بقوله: «شقيف أرنون بين دمشق والساحل، بالقرب من بانياس، وأرنون اسم رجل، والشقيف المذكور معقل حصين. والشقيف أيضاً ـ شقيف تيرون ـ بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون ـ وهي أيضاً قلعة بقرب صور بالساحل»(٢).

لقد كان لقلعة الشقيف وضعها الخاص أيام الحروب الصليبية القديمة. فما إن احتل الفرنج مدينة القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) حتى انصرفوا للتوسع على حساب بلاد المسلمين وأمكن لهم احتلال مدينة صيدا سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م. وعلى الرغم من تمزق المسلمين في تلك المرحلة التاريخية، فقد أخذ أمراء المدن الداخلية (حمص وحماه وحلب) في الشمال و(دمشق والقاهرة) في الجنوب، بتصعيد الصراع ضد الغزاة الصليبيين. ووجد الفرنج أنه لا قبل لهم بمجابهة الهجمات المباغتة والاغارات السريعة

---

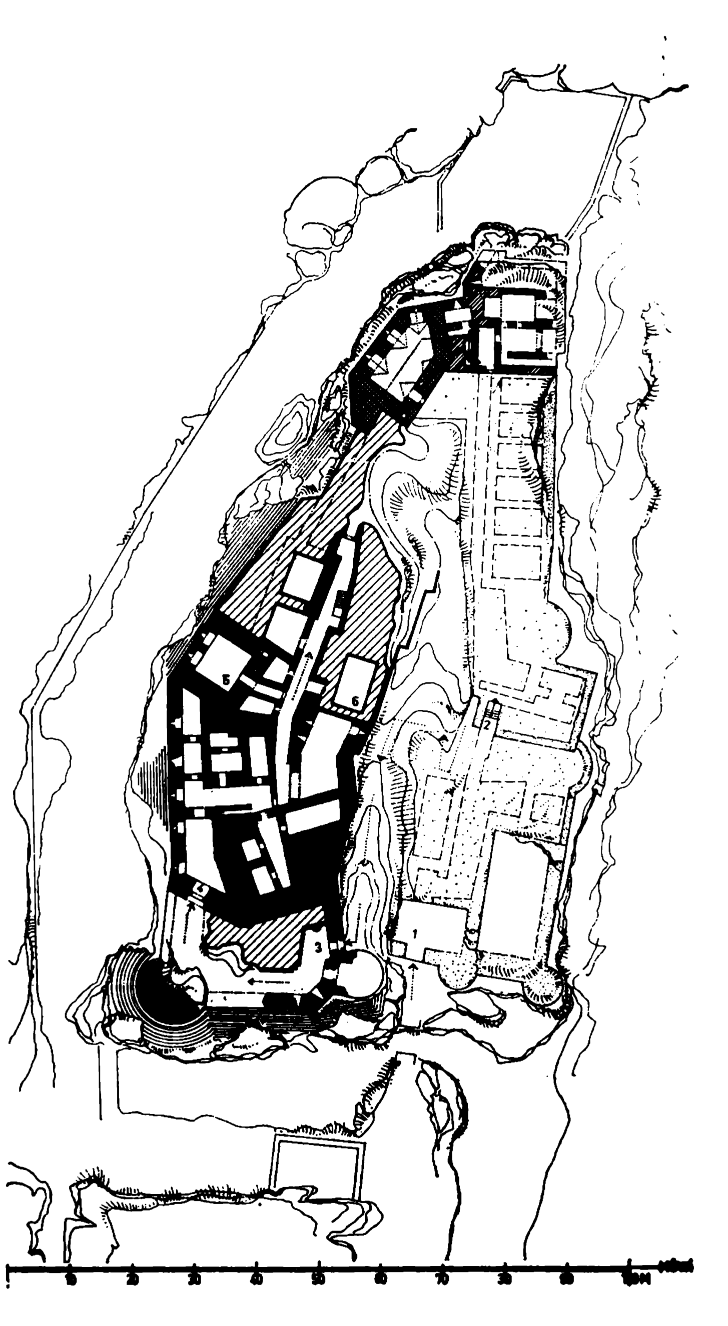
(١) قلعة الشقيف، وبالعربية شقيف أرنون. وبالفرنجية بوفور ـ أو الحصن الجميل (BEAUFORT) وبلفور: (BELFORT) وبليفورت: (BELLIFORTE).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٨٠.

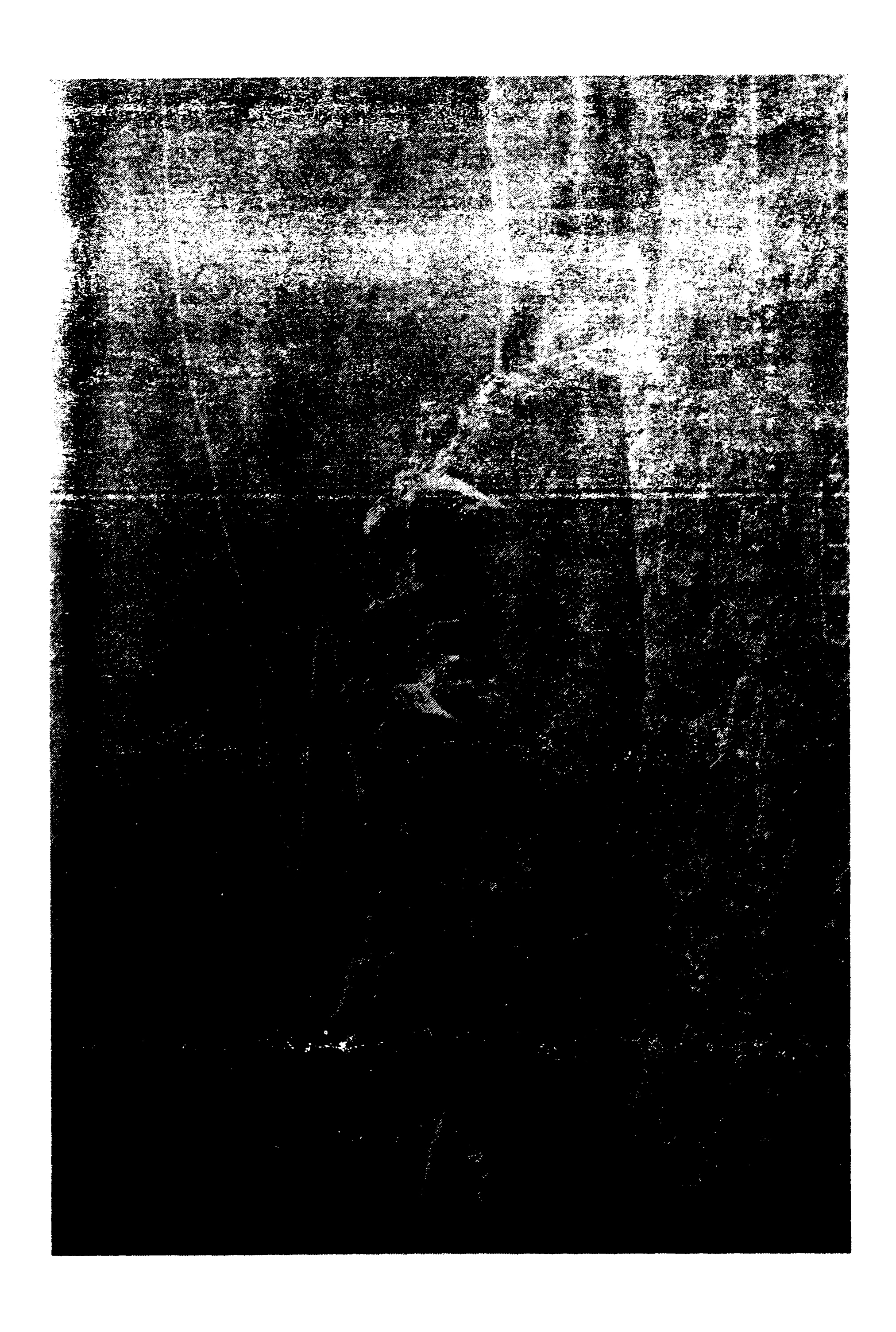
المخطط ١٥ : قلعة شقيف
Beaufort

مخطط أرضي عام للقلعة، المقياس ١/١٠٠٠، رسمت الأجزاء التي تعود بتاريخها إلى فترتي البناء الفرنجيتين الأولى والثانية باللون الأسود، والإضافات العربية (١١٩٠ - ١٢٤٠) بالتهشير المتقاطع، والإضافات العربية الأخرى (بعد ١٢٤٠) بالتهشير الكثيف، والأبنية المشادة تحت الأرض والصخر بالتهشير العريض.

١ - غرفة البوابة الخارجية للقلعة السفلية، ٢ - ممر عبر بوابة تحت الأرض إلى فناء القلعة السفلى، ٣ - البوابة الخارجية للقلعة العليا، ٤ - البوابة الداخلية للقلعة العليا، ٥ - برج محصن، ٦ - أساسات الكنيسة، ٧ - صهريج ماء في قناة القلعة (بالاستناد إلى دوشامب، القصور II).



شقيف أرنون (بوفورت)





الصهيونيان شارون وبيغن أمام قلعة الشقيف في جنوب لبنان
واعادة القلعة للصليبية الجديدة

المدمرة، فوجهوا اهتمامهم لبناء القلاع والحصون على امتداد حدود إماراتهم مع بلاد المسلمين. مع تحصين المدن والقلاع في معظم المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والجيواستراتيجية. أما المسلمون فقد احتفظوا بسياستهم الاستراتيجية الهجومية، ولهذا لم يعملوا على إقامة تحصينات مقابلة، باستثناء ما تطلبه تحصين المدن من الدعم. وكان هدفهم باستمرار هو تطوير أساليب حرب الحركة، والعمل على تدمير حصون الفرنج وقلاعهم، وانتزاعها منهم. فتطور لديهم فن الحصار ومهاجمة القلاع والتحصينات، وأمكن لهم التركيز على تطوير الأبراج والمجانيق وسواها من وسائط الحصار.

لقد كانت قلعة الشقيف هي إحدى تلك القلاع التي أراد الفرنج الصليبيون اتخاذها درعاً حصيناً لهم، بسبب موقعها على المرتفع الصخري المطل على الضفة الغربية من نهر الليطاني، خلف تلال صيدا - فاحتلها ملك القدس، - فولك - سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م ووهبها إلى صاحب صيدا الاقطاعي الذي عمل على تقوية القلعة باضافة برج محصن إليها مع سور خارجي متين. وأصبح واجب قلعة الشقيف هو الدفاع عن صيدا، والهيمنة على السهول المحيطة بها. ومجابهة هجمات الجيوش الإسلامية القادمة من الجنوب (مصر).

ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تبقى الحامية المدافعة عنها مرتبطة بأمير مدينة صيدا (كونت صيدا) - وبالرغم من صغر حجم هذه الكونتية (الامارة) وبالرغم من ضعف امكاناتها فان موقعها الهام أكسبها قيمة تزيد كثيراً على حجمها وامكاناتها.

بقيت كونتية صيدا وشقيف تابعة لمملكة القدس. وقد برزت أهمية شقيف بصورة خاصة في مرحلة تعاظم هجمات المسلمين على الأراضي التي احتلها الفرنج وأقاموا فيها ممالكهم وإماراتهم. ومما حفظه التاريخ عن هذه القلعة هو ما حدث سنة ٥٨٥ هـ = ١١٧٩ م. ففي ربيع هذه السنة، وعندما بدأ موسم حركة قطعان الأغنام، نهض ملك القدس - بلدوين - لاعتراض سبيل هذه القطعان القادمة من سهول دمشق نحو بانياس ليسوقها أمامه. فأرسل صلاح الدين الأيوبي قوة بقيادة ابن أخيه (عز الدين فروخشاه)[1] لمراقبة ما كان يحدث. وكان لزاماً عليه أن يخطر عمه عن طريق الحمام

(١) عزالدين فروخشاه: ابن أخ صلاح الدين، وكان ينوب عنه في حكم دمشق وقيادة جندها، وهو =

الزاجل بالاتجاه الذي سار عليه الفرنج. غير أن فروخشاه بوغت بظهور جيش الفرنج أمامه (يوم ١٠ نيسان ـ أبريل ـ ١١٧٩ م) فانقض عليه من واد ضيق في غابة بانياس، وأخذ ملك الفرنج على حين غرة، فكاد يهلك وجيشه لولا الشجاعة النادرة التي أظهرها سيد تبنين الكندسطبل الشيخ همفري. والذي استمر في مقاومة هجوم المسلمين حتى أفلت جيش الفرنج. وأعقب انتصار قوات صلاح الدين قيامه بإلقاء الحصار على قلعة مخاضة يعقوب، والانتقال بمعسكره الى بانياس، حيث أرسل من هذا الموضع قوات للإغارة على الجليل ولبنان، والعمل على تدمير المحصولات الزراعية في أراضي صيدا وحتى بيروت. فقام الملك بلدوين بحشد كل قوات مملكة القدس. ودعا كونت طرابلس (ريموند) للانضمام إليه، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين، حيث علما أن فروخشاه وجماعة من المغيرين في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة. فتحركا على اتجاه الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون ـ بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن ـ غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة على تل يقع شمال بانياس، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن من ذعر قطعان الماشية وتفرقها، فأدرك أن جيش الفرنج قد اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته. وبينما كان جيش الفرنج يصطدم بقوة فروخشاه، كان جيش طرابلس الصليبي ومعه فرسان الداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، فاصطدموا بجيش صلاح الدين عند مدخل الوادي. وبادر الداوية الى الاشتباك في القتال على الفور، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم، ردهم على أعقابهم، فولوا الأدبار مذعورين، واتجهوا نحو معسكر ملك القدس ـ بلدوين ـ. واضطر جند هذا المعسكر بدورهم الى الارتداد والهزيمة. ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار. وتمكن ملك مملكة القدس

= موضع ثقته من أهله ويعتمد عليه أكثر من جميع أفراد أسرته، كان شجاعاً وكريماً وفاضلاً وعالماً بالأدب وغيره، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك، وكان كثير الغزاة لبلاد الفرنج. خرج من دمشق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (١١٨٢ م) الى غزو الفرنج، فمرض وعاد مريضاً فمات. ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى ديار الجزيرة، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكرها. وانظر: الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

ـ بلدوين ـ ومعه كونت طرابلس ـ ريموند ـ ومعهما بعض الرجال، من عبور نهر الليطاني واللجوء الى قلعة الشقيف. وأدركت سيوف المسلمين من بقي من جنود الفرنج وراء نهر الليطاني فأخذتهم بالقتل ووقع آخرون بالأسر، ولولا لجوء ملك القدس وبعض جنده الى قلعة الشقيف لكان الفناء هو مصير الجيش الصليبي بأكمله.

جاءت بعد ذلك معركة حطين الخالدة، وتم تحرير صيدا (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أن يعيد فتح حصون الأرض المقدسة التي أخذت في التساقط تباعاً حتى تم طرد الفرنج من الجليل بكامله تقريباً. ثم تحرك صلاح الدين على امتداد ساحل بلاد الشام، ولما وصل الى الشقيف وجد أن حاكم صيدا ـ رينالد ـ قد لجأ اليها. فحاول رينالد هذا، وقد رأى نجاح المسلمين في اعادة فتح كثير من المدن والقلاع، أن يلجأ الى الأساليب الديبلوماسية من أجل انقاذ قلعة الشقيف. وكان حاكم صيدا هذا ـ رينالد ـ قد اشتهر بكفايته الديبلوماسية إلى جانب أنه كان رجلاً يميل للعلم والدراسة، وأظهر ميلاً كبيراً لدراسة الأدب العربي. فقدم إلى خيمة صلاح الدين، وأعرب عن رغبته في تسليم قلعته واللجوء الى دمشق إذا ما أمهله صلاح الدين ثلاثة شهور لتسوية أموره، بل إنه ألمح إلى أنه قد يعتنق الإسلام. وبلغ من اللباقة في حديثه أن تمكن من اقناع صلاح الدين بصدق نيته وصفاء طويته. ولم يكتشف صلاح الدين إلا بعد فوات الوقت أن ـ رينالد ـ كان يخدعه، إذ أقام صلاح الدين بمرجعيون في انتظار انقضاء الموعد، وأثناء ذلك، أخذ القلق ينتابه بسبب قرب موعد انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية (بوهمند الثالث ـ البيمند) فأمر ابن أخيه تقي الدين أن يسير فيمن معه من الجند، وأن يضم إليه من يأتيه من جند المشرق، ليكون في مواجهة صاحب أنطاكية ـ أميرها ـ حتى يحرمه من فرصة الاغارة على بلاد الإسلام عند انقضاء أجل الهدنة.

وزاد من ضيق صلاح الدين وهمومه ما توافر له من معلومات عن اجتماع الفرنج بمدينة صور، وما كان يصلهم من الامداد عن طريق البحر. وخاف صلاح الدين من ترك (الشقيف) وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة، فينقطع عنه الامداد. ومع ذلك، فقد صمم على الالتزام بتعهده لصاحب قلعة الشقيف رينالد (أو

أرناط كما تذكره المصادر العربية) في حين كان رينالد هذا يستثمر أيام الهدنة لشراء المواد التموينية والأسلحة من الأسواق ، بالإضافة إلى ما كان يشتريه من الوسائط لتحصين القلعة ، وبقي صلاح الدين وهو يحسن الظن به، ويرفض قبول ما كان يقال له عن مكر رينالد ، وأن هدفه هو كسب الوقت إلى أن يخرج الفرنج من صور وعندها يظهر على حقيقته. فلما قرب موعد القضاء أجّل الهدنة، تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف، وأحضر عنده رينالد (أو أرناط) وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام، وطلب إليه تسليم الشقيف. فاعتذر رينالد بأولاده وأهله، وزعم أن المركيز ريموند - كونت طرابلس- لم يسمح لهم بالمجيء إليه، وطلب التأخير مدة أخرى . فعلم صلاح الدين حينئذ مكره وخداعه. فأخذه وحبسه وأمره بتسليم القلعة. فطلب قسيساً ذكره ليحمل رسالة إلى قائد الحامية المدافعة عن الشقيف ليطلب إليه تسليمها فأحضروه عنده، فساوره ـ همس إليه ـ بما لم يعلموا ،فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف، وطلب إلى قائد الحامية باللغة العربية أن يقوم بتسليم القلعة، غير أنه طلب إليه باللغة الفرنسية أن يقاوم ويمتنع عن التسليم. ولم تكن مثل هذه الحيلة التافهة والقذرة لتنطلي على المسلمين. فأمر صلاح الدين بنقل رينالد الى مدينة دمشق، وإلقائه في سجنها[1] . وسار صلاح الدين بجيشه الى الشقيف فحاصرها وضيق عليها، وجعل عليها من يحفظها ويمنع عنها الذخيرة والرجال.

هكذا بقيت قلعة الشقيف شوكة في جانب المسلمين، ولم يكن باستطاعة صلاح الدين تجاهل خطورتها على مخططاته، غير أن إخضاعها كان يتطلب قوات واستعدادات أكبر من تلك التي كانت متوافرة له، لاسيا وقد أرغمته الأحداث على نشر جيوشه حول كافة إمارات الفرنج، بداية من أنطاكية في الشمال وحتى طرابلس وعكا في الجنوب. ولهذا قرر ترك قوة صغيرة تكفي لحصار قلعة شقيف وعزلها. ومضى بمعظم جيشه لمجابهة الخطر الذي نتج عن تجمع الفرنج في صور، وهو التجمع الذي استنتج منه صلاح الدين بأن الفرنج يريدون التوجه إلى صيدا لانتزاعها من قبضة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٥ ـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٥٣/٣ و ٥٦ و ٦٣.

المسلمين، ثم التقدم لرفع الحصار عن الشقيف. لكن صلاح الدين لم يلبث طويلاً حتى تأكد أن هدف الفرنج هو استعادة عكا وليس الهجوم على صيدا، فمضى بجمع الجيش الى عكا حيث دارت معارك متطاولة كان النصر في معظمها الى جانب المسلمين، وأثناء ذلك، كان الصراع مستمراً حول الشقيف. وقد أدى الحصار القوي والمستمر، وغياب الأمل من نجاح الفرنج بالوصول الى القلعة، إلى إضعاف المقاومة شيئاً فشيئاً. وأمكن للمسلمين في النهاية اقتحام قلعة الشقيف والاستيلاء عليها، وطرد الفرنج الصليبيين منها، وضمن صلاح الدين بذلك تحقيق هدفين: أولهما القضاء على التهديد الذي كانت تشكله القلعة. وثانيهما الافادة من القوات التي كان قد خصصها لاخضاع قلعة الشقيف، وضمها إلى قواته في فترة كان أحوج ما يكون فيها للدعم.

استثارت انتصارات صلاح الدين ملوك الغرب (إنكلترا وفرنسا وألمانيا) فأسرعوا لقيادة الحملة الصليبية الثالثة. ودارت صراعات مريرة لم تحقق للفرنج الصليبيين مكاسب كبرى. وجرت بعد ذلك مفاوضات تم خلالها إطلاق سراح سيد صيدا وشقيف السابق ـ رينالد ـ من سجنه، واستخدمه صلاح الدين في المفاوضات، وغفر له مكره وخداعه للاحتفاظ بقلعته (الشقيف).

تدهور الموقف بموت صلاح الدين وانقسام الأيوبيين على أنفسهم، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الفرنج لاستثمار الانقسام القائم بينهم واحراز بعض المكاسب. وتم لهم استرداد قلعة الشقيف وما تبقى من الجليل (سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) حيث أرغموا سلطان مصر الصالح أيوب على التصديق على المعاهدة التي وقعها أمير دمشق الصالح اسماعيل مع (فرسان الاسبتارية). وقد استشاط العالم العربي ـ الإسلامي غضباً لهذا الأمر، مما أرغم الصالح أيوب على ارسال جيشه عام ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م للاستيلاء على جبل الطور والشقيف وعسقلان. فهدأت ثائرة المسلمين. وتحرك الفرنج على الاتجاه المضاد، وجاء ملك فرنسا لويس التاسع (القديس لويس) على رأس الحملة السادسة التي منيت بالفشل (في دمياط). ولكن لويس هذا تعلم كيف يمكن له أن يحقق بالطرق الدبلوماسية ما عجزت عن تحقيقه القوة في الحرب. وكان الصراع بين الأيوبيين والمماليك قد برز بصورة حادة. فتحالف لويس التاسع مع المماليك الذين كانوا

يسيطرون على مصر ضد الأيوبيين الذين كانت لهم السيطرة على بلاد الشام. وبذلك أمكن له استعادة الشقيف مع جزء من الجليل. وعادت الشقيف مرة أخرى لحكم الفرنج الصليبيين.

تعاظم الخطر المغولي الزاحف من الشرق في تلك الفترة، وبذل الخليفة العباسي المعتصم جهده للتوفيق بين المماليك والأيوبيين من أجل مجابهة خطر المغول التتار، وأفلح المعتصم في مسعاه. وتوحد العرب المسلمون كعادتهم عندما يواجهون الخطر الخارجي.

تمكن المغول (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) من الاطباق على الفرنج في نابلس وغزة، بقيادة كتبغا، ولم تحاول قوات المغول مهاجمة الفرنج طالما أنهم لم يتعرضوا لهم. وتجاوب الفرنج مع رغبة كتبغا وأعلنوا خضوعهم له. ولكن حاكم الشقيف وصيدا ـ يوليان ـ ظن أن بوسعه الاعتماد على قوة تحصيناته، واستثمار الصراع بين المسلمين والمغول للتوسع. فقام بقيادة اغارة على سهل البقاع الخصيب. ولكن كتبغا لم يكن ليسمح لأحد بتقويض النظام الذي فرضه على الأقاليم التي أخضعها لحكمه. فأرسل قوة صغيرة من جنده بقيادة ابن اخته لانزال العقاب بيوليان وجماعته. وأسرع يوليان لطلب النجدة من جيرانه الفرنج. فكمنوا لابن أخت كتبغا وقتلوه. فثار غضب كتبغا لهذا الاستفزاز، وأرسل جيشاً كبيراً وصل إلى مدينة صيدا ودمرها. وأفاد فرسان الداوية من الاضطراب، فانتزعوا من يوليان حق رهن صيدا والشقيف، لدى الداوية، مقابل مبلغ كبير من المال استدانها منهم لتلبية متطلباته في الاسراف والتبذير.

انتصر المسلمون في السنة ذاتها على المغول في عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) وأعقب ذلك فترة من الانقسام بين المماليك. حتى إذا ما أمكن للظاهر بيبرس السيطرة على الموقف، توجه لتأديب الفرنج، فخرج بجيشه من مصر، وطرد الفرنج من يافا، ثم جعل هدفه الثاني هو الاستيلاء على قلعة الشقيف التي طالما أزعجت جيوش المسلمين. وشرعت المجانيق في قصف القلعة اعتباراً من يوم ٥ نيسان ـ ابريل ـ ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ). واستمر القصف المتواصل لمدة عشرة أيام. مما أرغم فرسان الداوية للاستسلام. فجعل الظاهر بيبرس للنساء والأطفال حرية الانتقال الى صور. أما الرجال

فتقرر الاحتفاظ بهم أرقاء. وأصلح بيبرس القلعة وشحنها بقوة كبيرة من العساكر.

يكن الصراع للسيطرة على قلعة شقيف على امتداد قرن ونصف القرن من عمر الزمن هو من أجل الاستيلاء على قلعة أو تحريرها، وكذلك الأمر بالنسبة لما دار من صراع ومعارك ضارية حول بقية القلاع والحصون. بل إن هذا الصراع كان تعبيراً صادقاً عن التصميم الثابت في حوار الإرادات المتصارعة. وقد كان من المحال مجابهة العدوان وأسلحته وقلاعه وحصونه ومستوطناته بغير الأسلحة التي استخدمها العدوان ذاته. وبغير ذلك لا يتحقق الشرط الأساسي من حوار الارادات المتصارعة وتبقى العملية الكاملة عملية فرض إرادة من جانب أحد الطرفين، وهو الطرف المنتصر. وقد صمم المسلمون على تحقيق النصر في النهاية، فكان لا بد لهم من الاحتكام للسلاح دائماً حتى يقابلوا نهج العدو وأسلوبه بنهج مماثل، وبذلك استمرت عملية حوار الارادات المتصارعة وتطورت. ولقد حاول الفرنج الغزاة أيام ريتشارد قلب الأسد (ملك انكلترا في الحملة الثالثة) وأيام الملك لويس (القديس لويس - ملك فرنسا في الحملة السادسة) تغليب الصراع السياسي على الصراع المسلح، مستثمرين الظروف المرحلية لانقسامات أمراء المسلمين وملوكهم. غير أن ما حققه الملكان من انتصارات (شملت فيما شملته استعادة قلعة الشقيف وحتى مدينة القدس) لم تلبث أن تهاوت بسرعة عندما عادت الأطراف لمتابعة حوار الارادات المتصارعة. **وقد كان ذلك برهاناً على حتمية فشل الحلول السياسية عندما تكون معزولة عن الحسم العسكري في إطار الحرب طويلة الأمد** ذلك أن مثل هذه الحلول السياسية تبقى واهية ضعيفة في أنظار الحكام والمحكومين، لأنها تأخذ صفة الاملاء أو الفرض، ولأنها تسير على اتجاه يغاير المسار الطبيعي لحركة حوار الارادات المتصارعة.

لم يكن بالمستطاع إقناع الفرنج الحاقدين بالتخلي عن إماراتهم وممالكهم التي أقاموها على تراب بلاد الشام إلا بالبرهان لهم على أن هذه الامارات والممالك هي عبء ثقيل يرهق كاهلهم بأكثر مما هي مكسب لهم أو مغنم يغنمونه. وكان الصراع المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتشكيل مثل هذه القناعة. وهكذا كان استمرار الصراع حول شقيف وسواها من القلاع والتحصينات هو الذي حول الامارات الصليبية الى عبء ثقيل عجز

الفرنج عن حمله. وكان تحويل الامارات الصليبية إلى عبء هو بداية طرد الفرنج من بلاد المشرق العربي ـ الإسلامي.

بقيت قوات الفرنج الصليبيين في قلعة الشقيف زهاء قرن ونصف القرن من عمر الزمن وطردوا منها ثم عادوا إليها مرتين. وفي المرة الثالثة خرجوا منها مرة واحدة. ولم يعودوا إليها إلا بعد عودة الحملات الصليبية الجديدة في رداء الصهيونية.

ففي يوم ٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٨٢، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي أظهرت فيها المقاومة الفلسطينية بطولة رائعة أذهلت العدو الصهيوني وأوقعت به الخسائر الفادحة، استطاع جند جيش العدوان الصهيوني الاستيلاء على قلعة الشقيف (في اطار اجتياح لبنان بما أطلقت عليه اسرائيل اسم سلامة الجليل) وجاء رئيس وزراء الكيان الصهيوني ـ الارهابي مناحيم بيغن ـ وبرفقته وزير دفاعه ـ الارهابي اريئيل شارون ـ للاحتفال رسمياً باعادة قلعة الشقيف لحكم الصليبية، وتسليمها للرائد اللبناني سعد حداد وهو يقول له: **« ها نحن نعيد لك القلعة »**.

١٢ ـ قلعة حلب

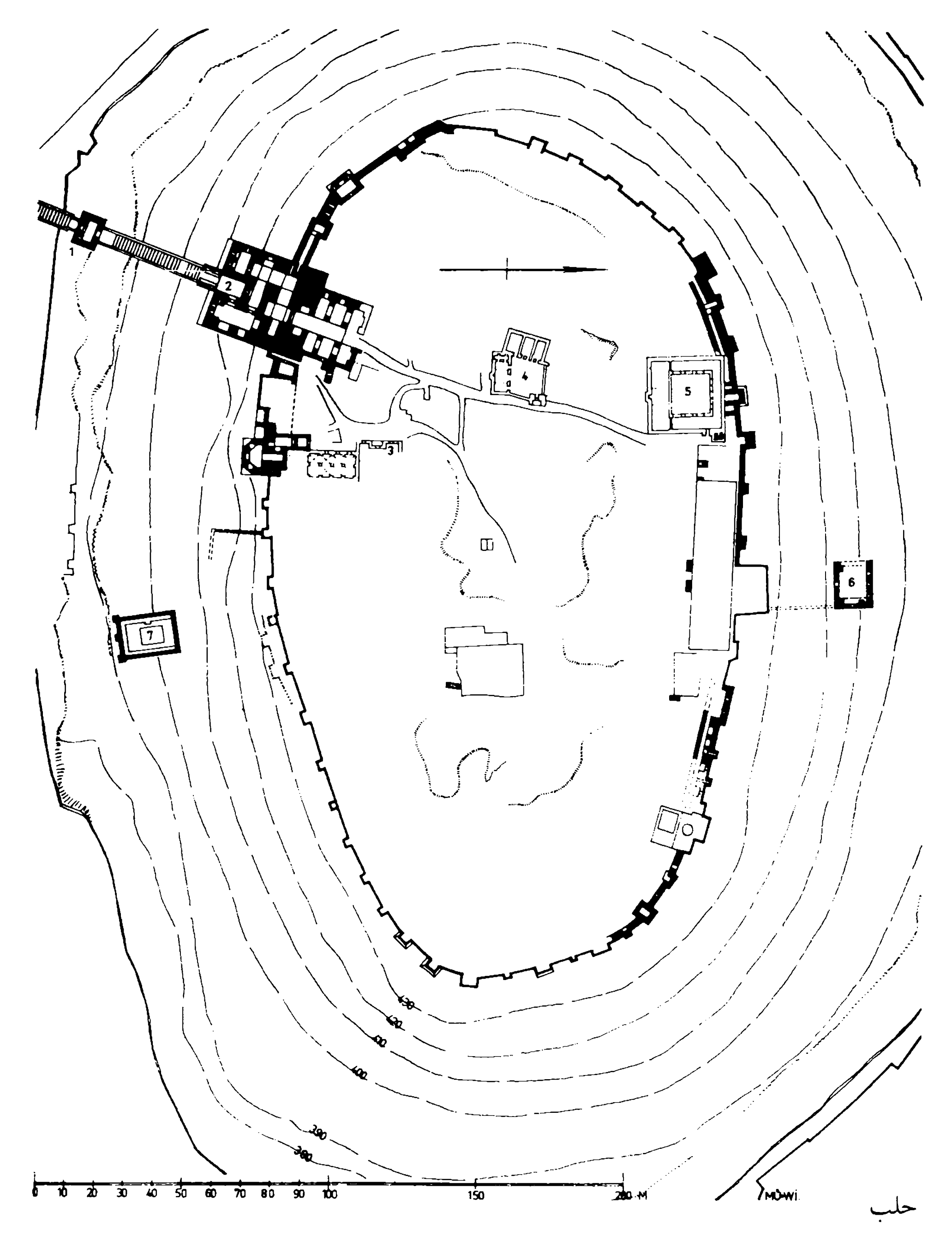
حلب هي عاصمة الشمال في بلاد الشام، ومدينة مأهولة منذ آلاف السنين، تكون الموقع الأساسي للمنطقة السكنية من التل الضخم في وسط المدينة الحديثة، والذي تم تحويله إلى قلعة منذ العصور الوسطى. وقد شغلت الأحياء السكنية ـ منذ العصور الوسطى أيضاً مثلها كمثل المدينة القديمة ـ المساحة الكائنة ما بين القلعة ونهر قويق الصغير، وهي رقعة من الأرض تنحدر تدريجياً باتجاه الغرب. وقد أصبحت حلب في نهاية القرن العاشر الميلادي عاصمة للحمدانيين الذين كان من أشهرهم (سيف الدولة الحمداني)[١] وقد تعرض المؤرخ أبو الفداء لمدينة حلب بقوله: «.. وحلب بلدة عظيمة قديمة مرتفعة حصينة، وبها مقام ابراهيم الخليل صلوات الله عليه. ولها بساتين قلائل ويمر بها نهر قويق. وهي على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات. وبين حلب وبين قنسرين أثنا عشر ميلاً. وقال في العزيزي: وهي مدينة جليلة عامرة حسنة المنازل، عليها سور من حجر، وفي وسطها قلعة على تل لاترام. وبينها وبين معرة النعمان ستة وثلاثون ميلاً. وبينها وبين مدينة بالس، خمسة عشر فرسخاً»[٢].

ما إن أسلمت حلب قيادها للعرب المسلمين سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م حتى أصبحت قاعدة لانطلاقة المجاهدين في سبيل الله في غزواتهم لما وراء الدروب (الصوائف

---

(١) سيف الدولة الحمداني ـ هو أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدون التغلبي الربعي. (٣٠٣ ـ ٣٥٦ هـ = ٩١٥ ـ ٩٦٦ م) مات بحلب، وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها. اشتهر بالشجاعة وكثرة الجهاد، وهو من الملوك الكثيري الإحسان على ما كان فيه من التشيع. وأتفقت له أشياء غريبة منها أن خطيبه كان مصنف الخطب، أحد الفصحاء البلغاء، ومنها أن شاعره كان المتنبي. ومنها أن مطربه كان أبو النصر الفارابي. ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء.

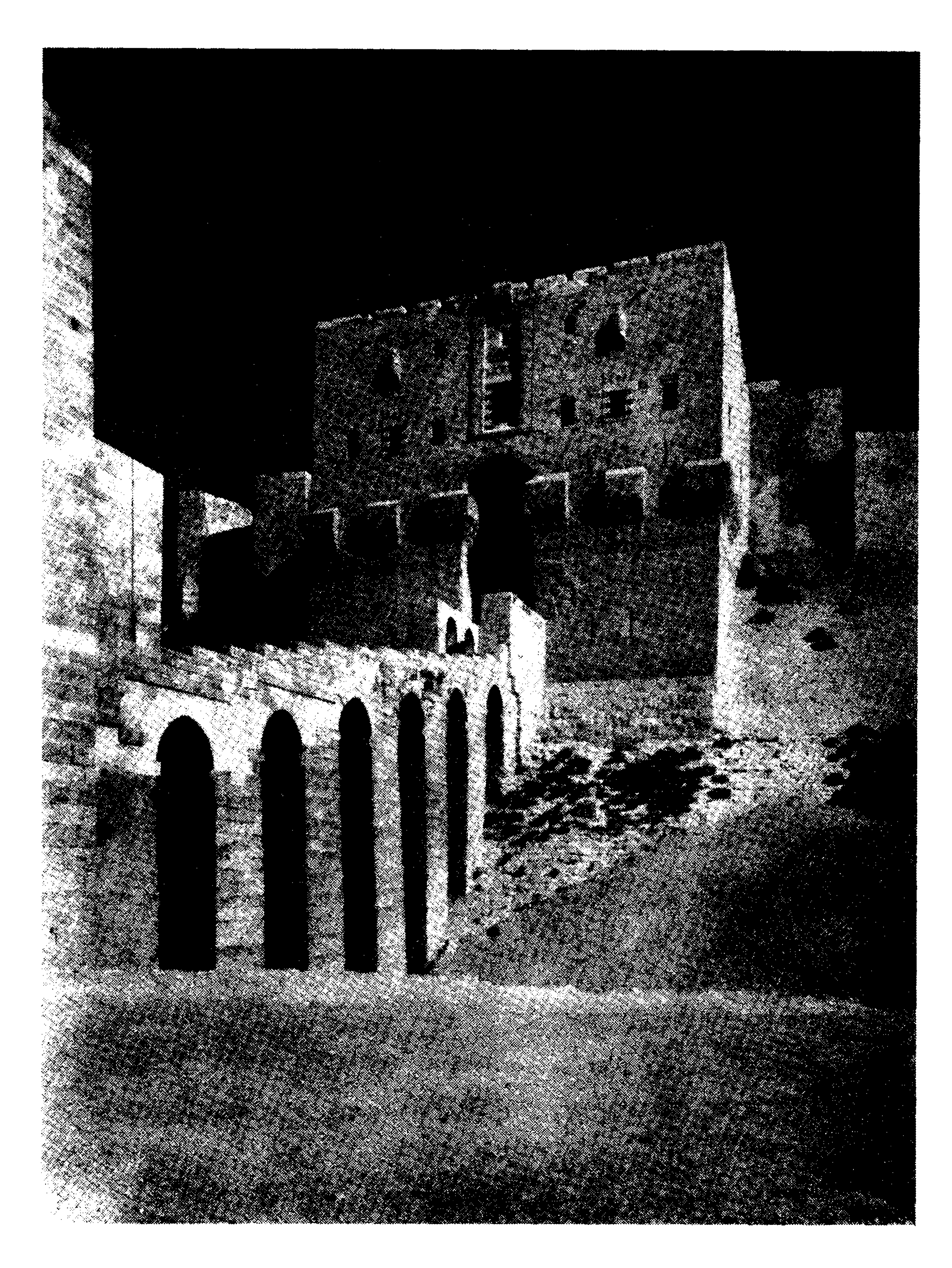
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٥ ـ ٨٦. وتقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ٣٦٧.



حلب

مخطط عام للقلعة، المقياس ١/٢٠٠٠. حلب

١ ـ البوابة الخارجية، ٢ ـ البوابة الرئيسية، ٣ ـ حمام متصدع، ٤ ـ مسجد صغير (يدعى مسجد إبراهيم، شيد عام ١١٦٢ على يد نور الدين)، ٥ ـ المسجد الكبير (شيد عام ١٢١٠ على يد الملك الظاهر)؛ ٦ ـ البرج الخارجي الشمالي (فوق أطلال سور القلعة السابق)



قلعة حلب

والشواتي) لمقارعة الروم البيزنطيين والنكاية بهم واشغالهم بأنفسهم عن المسلمين. ولم يتمكن الروم من التعرض لحلب أو غزوها بسبب ما توافر لها من أسباب القوة والمنعة، ولبعدها النسبي عن الثغور. حتى إذا ما كانت سنة إحدى وخمسين وثلثمائة (٩٦٢ م) توافرت لملك الروم (نقفور فوقاس)[١] معلومات عن انشغال المسلمين بأنفسهم - وبصراعاتهم الداخلية، فقرر مهاجمة بلاد المسلمين. وأوجزت المصادر العربية قصة هذا الهجوم بما يلي: «وصل - الدمستق - الى حلب، وقد حشد مائتي ألف رجل من الجند، منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن، وثلاثون ألف للهدم وإصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. غير أنه لم يتقدم بجيشه هذا، وإنما خلفه بقيسارية، وسار بقوة خفيفة من الفرسان - جريدة - فأغار على حلب قبل أن يشعر به أحد من المسلمين. ولم يعلم به سيف الدولة الحمداني ولا غيره. فلما بلغها، وعلم سيف الدولة الخبر، أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد، فخرج إليه فيمن معه فقاتله، فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم حتى لم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد، بل قتلوا جميعهم، وانهزم سيف الدولة. وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين، فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم. وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى، فأخذ الجميع وخرب الدار، وملك الحاضر وحصر المدينة وبذل لأهلها الأمان إن هم سلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية، ومالاً ذكره، وينصرف عنهم. فلم يجيبوه وقاتلوه. فعمل الروم على إحداث ثلمة في السور. فقاتلهم أهل حلب عليها. فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها. فلما جنهم الليل عمروها. فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن. ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها، فلحق الناس أموالهم

---

(١) نقفور فوقاس - أو فوكاس -: (NICEPHORE II PHOCAS) امبراطور الروم البيزنطيين ولد سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٣م. وأصبح امبراطوراً سنة ٣٥٦ هـ حتى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ذكره ابن الأثير (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٣٥٦ هـ) بما يلي: «اسمه الدمستق. وكان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً وأشدهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه».

ليمنعوها، فخلا السور منهم. فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه، وقربوا منه، فلم يمنعهم أحد. فصعدوا إلى أعلاه، فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا. وكان في حلب ألف وأربعمائة أسير من الروم، فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة. فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة، أمر ملك الروم - الدمستق - باحراق الباقي وأحرق المساجد، وقصد المسلمون القلعة، فمن دخلها نجا، وأقام الدمستق تسعة أيام، فلما لم يتمكن من فتح القلعة انصرف عنها، ورجع عائداً إلى بلاده».

لم تكن هذه الكارثة التي نزلت بعاصمة شمال بلاد الشام هي الكارثة الوحيدة، ولو أنها كانت من أثقل الكوارث وأكثرها فداحة. وكانت حلب ومعها بلاد الشام مسرحاً للصراع بين الشيعة في مصر - الفاطميين - وبين السنة أهل الطاعة والجماعة وقاعدتهم مقر الخلافة في بغداد. وقد خضعت بلاد الشام للفاطميين أدعياء الشيعة. حتى إذا ما كانت سنة ثلاث وستين وأربعمائة (١٠٧٠ م) برزت للوجود القوة المتعاظمة للسلاجقة الذين جاؤوا لنصرة الخلافة ودعم اخوانهم السنيين. فما كان من حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) إلا أن جمع كبار أهل حلب واستشارهم، فتقرر العودة إلى السنة والطاعة والجماعة، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي. غير أن أهل حلب استمروا في رفع الأذان برمز أهل التشيع (**حي على خير العمل**) فسار السلطان ألب أرسلان - السلجوقي - الى حلب، وحصرها. فقيل له بأن حاكم حلب قد لبس ضلع الخليفة العباسي، وخطب له. فأجابهم:

«أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون: حي على خير العمل؟».

فما كان من حاكم حلب - محمود بن صالح بن مرداس - إلا أن خرج إلى السلطان ألب أرسلان، وأعلن خضوعه له، فقبل منه السلطان، وأعاده الى بلده. وعادت حلب

قاعدة للمسلمين من أهل السنة[1]. وتابعت حلب دورها في ركب الجهاد. فعمل حاكمها سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م على انتزاع منبج من قبضة الروم. ولما جاء الفرنج الصليبيون إلى بلاد الشام، واستولوا على انطاكية (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم استولوا على القدس في السنة التالية، أصبحت حلب على خط المواجهة ـ مثلها كمثل دمشق وبقية المدن الداخلية ـ ولم تكن حلب تمتلك القدرة على مجابهة الفرنج، فقبل حاكمها مصانعة الفرنج على مال ومهادنتهم (سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م) وشعر الزنكيون أمراء الموصل بالخطر من امتلاك الفرنج لحلب، لاسيما بعد أن عاد الفرنج سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م فهاجموا حلب ونازلوها. ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً. وخاف أهل حلب خوفاً شديداً. فصانعوا الفرنج على أن يقاسموهم أموالهم التي بباب حلب. ثم أرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون. فأقبل الأمير ايلغازي، واصطدم بالفرنج عند الأثارب. ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً.

جابهت حلب موقفاً صعباً سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م. عندما توجه زعيم شيعي اسمه دبيس بن صدقة إلى الفرنج، وأطمعهم في الاستيلاء على حلب. وقال لهم إن أهل حلب من الشيعة يميلون إليه، وأنهم سوف يسلمونه البلد، فيحكمها نائباً عن الفرنج ويبقى مطيعاً لهم. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة.

ووجد الفرنج في ذلك فرصة كانوا لا يحلمون بحدوث مثلها. فانحازت قوات جيشي انطاكية والرهاء الى قوات دبيس بن صدقة. ونزلوا على أسوار حلب وطوقوها، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً، ووطنوا نفسهم على المقام الطويل، وأظهروا أنهم لا يفارقونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل الحر والبرد. وطال الحصار ثلاثة أشهر. فلما رأى أهل حلب ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك. وظهر لهم من حاكمهم

---

(١) استولى السلطان السلجوقي ألب أرسلان على حلب سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م وهي السنة التي وقعت فيها معركة ملازكرد ـ مع الروم ـ وانتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً بقيادة ألب أرسلان ـ وانظر تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٣٥١ و ٤٦٣ و ٤٦٨ و ٤٩١ و ٥١٣ و ٥١٨.

(تمرتاش بن ايلغازي - الأرتقي) وهناً وعجزاً، وقلت الأقوات في حلب، فقرر زعماء المدينة الاستنجاد بصاحب الموصل (آقسنقر البرسقي) الذي اشترط على أهل حلب تسليمه القلعة. ووافق أهل حلب. فسار آقسنقر البرسقي بجيوشه، وانضم اليه جيش حمص وجيش دمشق (بقيادة طغتكين) فلما رأى الفرنج ذلك، رفعوا الحصار عن حلب. وانسحبوا الى انطاكية. وأصبحت حلب تحت حكم آقسنقر البرسقي، فاتصل حكم حلب بحكم الموصل وحمص ودمشق.

انتقم الفرنج لهزيمتهم بأن اتفقوا مع الباطنية - الاسماعيلية - على اغتيال آقسنقر، فأرسل الباطنية من اغتاله وهو يصلي صلاة الجمعة في الموصل (سنة ٥٢٠ هـ) فخلفه ابنه عز الدين مسعود الذي توفي بدوره في السنة التالية (٥٢١ هـ) فخلفه ابنه عز الدين زنكي الذي كان أول عمل له هو دعم الدفاع عن حلب.

فقد أراد الفرنج الافادة من اضطراب الأوضاع للاستيلاء على حلب. فتقدم كونت الرها - جوسلين - فحاصر حلب. ولكن أهلها دفعوا له فدية، فانصرف عنهم. وجاء بعد ذلك حاكم أنطاكية في حشد من الفرنج (سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٨ م) فخندق الحلبيون حول القلعة، ومنعوا الداخل والخارج إليه من ظاهر البلد. وأشرف الناس على الخطر العظيم. ولما علم عماد الدين زنكي بذلك أرسل قواته لنجدة أهل حلب. ثم سار اليها في جيوشه وعساكره، فلما اقترب منها خرج إليه أهلها لاستقباله، والتقوه واستبشروا بقدومه. ودخل حلب ورتب أموره، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء، فلما استقر له الأمر، سار سنة ٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م. فقصد (حصن الأثارب) لفتحه، بسبب شدة ضرره على المسلمين - وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، بينها وبين أنطاكية، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية، حتى على رحاً (طاحون) لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. وكان أهل حلب معهم في ضر شديد وضيق. ولا يكاد يمضي يوم حتى يغيروا عليهم وينهبوا أموالهم. فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على فتحها. وأقبل الفرنج بجموعهم. ودارت معركة طاحنة، وأنزل الله نصره على المسلمين، وانهزم

الفرنج أقبح هزيمة. ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، وقتل منهم خلق كثير. وتقدم عماد الدين الى (حصن الأثارب ففتحه. وقتل مقاتلته. وأمر بهدمه وجعله دكاً. ولقد استشعر الفرنج الخطر من تعاظم قدرة المسلمين، فاستنصروا بملك الروم البيزنطيين الذي خرج بجيشه الى اقليم حلب - وخاض مجموعة من المعارك في (بزاغة وقلعة الأثارب)[1] وانسحب الروم بعدها.

لم تعد حلب وقلعتها عرضة للخطر أو للتهديد بهجمات الفرنج، بعد أن انتظمت جيوش مدن المسلمين تحت قيادة واحدة. وتحول الموقف فعاد جيش حلب للعمل بحرية كاملة ضد الفرنج. ولما كانت امارة الرها - في الجزيرة - هي وانطاكية تمثلان مصدر التهديد المباشر لمدينة حلب وما حولها. فقد تم فتح الرهاء (سنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م). ولما توفي أتابك عماد الدين زنكي في السنة التالية، اضطلع ابنه (نور الدين محمود زنكي) باعباء قيادة الجهاد، وبدأ بفتح الحصون في الشمال مثل أرتاح والعزيمة. حتى إذا ما جاءت سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م. حشد الفرنج جيوشهم بهدف السير الى حلب والهجوم عليها. فعلم نور الدين زنكي فسار إليهم في عسكره، فالتقوا عند (يفري) واقتتلوا قتالاً شديداً حتى أنزل الله نصره على المسلمين. وقتل كثير من الفرنج، وأسر جماعة من مقدميهم، ولم ينج من ذلك الحشد إلا القليل، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين في الموصل والى الخليفة ببغداد. وجاءت السنة التالية (٥٤٤ هـ) وأمسك نور الدين بالمبادأة. فسار إلى بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم الذي كان تحت حكم الفرنج، فحصره وضرب ربضه ونهب سواده، ثم رحل إلى حصن أنب، فحصره أيضاً. فاجتمعت الفرنج مع أمير أنطاكية وحارم وتلك الأعمال، وساروا لقتال نور الدين، فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً ثم انهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقتل منهم جمع كثير، وأسروا مثلهم. وكان ممن قتل البرنس

---

(١) يمكن الرجوع الى بحث (قلعة شيزر) لمطالعة تفاصيل ما قام به جيش الروم ورد فعل عماد الدين زنكي. وانظر تاريخ الحروب الصليبية: ٢٧٤/٢ - ٢٧٦ والكامل في التاريخ احداث سنة ٥٢٤ هـ وسنة ٥٣٢ هـ.

صاحب انطاكية. وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم. وفي سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م. جمع نور الدين محمود جيشه وسار من حلب نحو الشمال بهدف حصر (تل باشر) و(عين تاب) و(إعزاز) وسواها. فلم علم أمير الفرنج - جوسلين - وكان فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فسار نحو نور الدين. واقتتلوا، فانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير. وكان في جملة من أسر الأمين على سلاح دار نور الدين - فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين - وعظم الأمر على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه. فجعل التركمان عليه العيون - الجواسيس -. حتى إذا ما خرج يوماً للصيد، لحقت به طائفة منهم وظفروا به، فصانعهم على مال يؤديه إليهم. فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال. فأرسل في إحضاره. ومضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب (بكر بن الداية) فأعلمه الحال، فسير عسكراً معه. فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم. فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسره من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطاناً عاتياً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره. ولما أسر جوسلين، سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله. وكان نور الدين كلما فتح حصناً منها، نقل إليه كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج. فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو. وأصبحت هذه القلاع والحصون هي الدرع لحماية حلب.

لقد كانت هذه النتيجة هي الثمرة اليانعة للتحول الحاسم الذي بدأ عماد الدين زنكي بقيادته وتوجيهه نحو مساراته الصحيحة، ثم جاء نور الدين فسار على نهجه. واقتدى بسيرته ولقد ظهرت بواكير هذا التحول واضحة قبل ذلك (في سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) **ففي تلك السنة قاد ملك القدس جموعه وسار إلى حلب، فخرج للقائه جيش حلب بقيادة أميرها (أسوار) وانضم إليه جمع كبير من التركمان، ووقعت**

معركة قرب قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب. فأعاد أمير حلب تنظيم قواته، وخرج بها لتأديب الفرنج الذين تابعوا عيثهم وفسادهم ونهبهم وقتلهم للمسلمين في ريف حلب. واصطدم جيش حلب بطائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم منهزماً إلى القدس. وانجبر ذلك المصاب بهذا النصر. وعاد جيش حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى. وكان يوماً مشهوداً في حياة حلب. ثم إن طائفة من الفرنج ـ من إمارة الرها ـ قصدوا حلب للإغارة عليها. فخرج إليهم جيش حلب، فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من لم يقتل ورجعوا إلى حلب سالمين. وكان أتابك عماد الدين زنكي يتابع الموقف. فأراد ايقاف أعمال الفرنج العدوانية على حلب. فقاد جيشه من الموصل (سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م). وانضم إليه جيش حلب بقيادة الأمير أسوار، وجيش حماه، وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم، وساروا إلى ريف اللاذقية، ولم يتمكن أهلها الفرنج من الانتقال منها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد على الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم. وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ـ ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم. وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد. وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها. ولم يسلم منها إلا القليل. وعاد المسلمون ظافرين.

تشابهت الأيام بعد ذلك، وتتابعت الانتصارات، وأصبح جيش حلب يرتاد أطراف البلاد التي احتلها الفرنج على امتداد الساحل بحثاً عن المعركة، أو رداً على العدوان، أو فتحاً لبلد أو معقل. وتوحدت بلاد مصر والشام تحت راية الجهاد في سبيل الله، بعد أن تم القضاء على عامل الفرقة الذي طالما أثارته مزاعم التشيع والذي مثلته الدولة الفاطمية. وتوفي نور الدين زنكي وقد حقق للأمة الإسلامية وحدتها. ونظم لها قوتها، ووضع لها نهجها. وجاء صلاح الدين الأيوبي، فقرر الاستيلاء على ارث الزنكيين، وخرج بجيشه من مصر، فأسلمت اليه بعض بلاد الشام قيادها طوعاً. وقاومته بلاد أخرى الى حين. وبقيت حلب وفية للزنكيين الذين ما عرفت فيهم إلا الصدق في الجهاد والكفاءة في القيادة ولكن حاكم حلب (عماد الدين زنكي بن مودود

زنكي) قرر التنازل لصلاح الدين عن حلب بعد حصار متطاول (سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م)[١] ودخل صلاح الدين بموكبه الظافر مدينة حلب. واستقبل فيها استقبالاً حافلاً.

يمكن بعدئذ تجاوز الدور الذي قام به جيش حلب مع بقية جيوش مدن المسلمين في تحقيق الانتصارات المتتالية التي أحرزها المسلمون، للتوقف عند ما تعرضت له حلب على أيدي المغول التتار. فبعد أن اجتاح هؤلاء عاصمة المسلمين ـ بغداد ـ. قاد هولاكو جيشه للاستيلاء على شمال غرب بلاد الشام (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) فتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة، فيما تولى القائد بيجو قيادة الميمنة. وتولى سنجق قيادة الميسرة. وانفرد هولاكو بقيادة الكتلة الرئيسة للجيش ـ القلب ـ. وزحف مجتازاً نصيبين وحران والرهـا حتى بلغ البيرة، وعبر نهر الفرات. وقد حاولت سروج مجابهة هجوم المغول فتعرضت للنهب والاستباحة. وأطبق الجيش المغولي على حلب من كل جهاتها في مطلع سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. ورفضت الحامية المدافعة عن المدينة عرض الاستسلام، فقرر المغول اجتياحها. ولما هبت العاصفة يوم ١٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٦٠، كان السلطان الناصر حاكم دمشق لازال يأمل في أن يكون وجود ابنه في معسكر هولاكو سبباً في درء الخطر عن بلاده، ولما تبين له خطأ تقديره، أسرع إلى مصر، وأعلن خضوعه للمماليك الذين وعدوه بالمساعدة. وعمل في الوقت ذاته على حشد جنده خارج دمشق، ودعا ابني عمه أميري حماه والكرك لمساعدته من أجل دعم جيش حلب. غير أنه بينما كان ينتظر في دمشق، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه، واكتشف خططهم في الوقت المناسب، ولكن المتآمرين أسرعوا إلى الهرب وحملوا معهم أحد إخوته الى مصر. وأدى تسللهم وهربهم إلى أن أضحى جيشه ضعيفاً إلى درجة حرمته من السير لنجدة حلب.

---

(١) امتدح قاضي دمشق ـ محي الدين بن الزكي ـ جهد صلاح الدين وفتح حلب في قصيدة منها:

وفتحكم حلبـاً بـالسيـف في صفـر مبشر بفتـوح القـدس في رجـب.

ولقد تم فتح حلب في شهر صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة. وجاء فتح القدس في رجب من سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة. فكانت نبوءة القاضي محي الدين بن الزكي فأل خير على صلاح الدين وعلى المسلمين. (الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٧٩ هـ).

كان توران شاه ـ عم الناصر يوسف ـ يدافع عن حلب، وأظهر شجاعة مذهلة وتصمياً رائعاً في الدفاع عن المدينة، غير أن الأسوار انهارت بعد أن تعرضت للقصف المستمر طوال ستة أيام. وتدفق المغول إلى داخل المدينة، وحدث بحلب ما سبق أن وقع في كل مكـان اجتـاحـه المغـول، حيـث دارت المذابـح في المسلمين. بينما لم يتعـرض المسيحيون لسوء باستثناء عدد قليل من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكنيستهم، وظلت القلعة على مقاومتها بقيادة توران شاه طوال أربعة أسابيع أخرى فيما بقي القتل في سكان حلب مستمراً. ولما سقطت القلعة في آخر الأمر، أظهر هولاكو من الرحمة ما لم يكن متوقعاً منه، إذ أبقى على حياة توران شاه لكبر سنه وشجاعته. ولم تتعرض حاشيته للأذى والضرر. ووقع في يدي هولاكو مقادير كبيرة من الثروة. ثم عهد هولاكو بحكومة حلب إلى أمير حمص السابق ـ الأشرف ـ والذي كان قد التحق بمعسكر المغول قبل ذلك بأشهر، عديدة، وأمده هولاكو بمستشارين من المغول، وبحامية مغولية لفرض سيطرته على حلب. ولكن ما إن انتصر المسلمون في عين جالوت (يوم ٣ ـ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٦٠) حتى عاد الأشرف الأيوبي إلى إمارة حمص بعد أن أدار ظهره للمغول وتنكر لهم. وأمكن استرداد حلب بعد شهر. مما أغضب هولاكو. فأرسل جيشاً لاسترداد حلب في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٢٦٠ م. غير أن جيش هولاكو اضطر للانسحاب بعد أربعين يوماً عمل خلالها على اجراء مذبحة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين. وهذا كل ما استطاع المغول عمله انتقاماً لهزيمتهم.

لم تكن هذه هي آخر كارثة تعرضت لها حلب على أيدي المغول ـ التتار ـ فالمعروف أن تيمور الأعرج (تيمورلنك) قد اجتاح بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م. وأنزل الهزيمة بجيش المماليك في حلب أولاً، ثم في دمشق، ودمر واستباح كل المدن الكبيرة ببلاد الشام. ثم انسحب وقد خلف وراءه الدمار في كل مكان سار فيه.

يظهر العرض السابق ما تعرضت له حلب وقلعتها من هجمات، وما جابهته من أحداث، علاوة على تلـك الكـوارث الطبيعيـة ـ الزلازل ـ والتي ضربـت حلـب، فأنزلت بها أضراراً كبيرة في مرات عديدة، كان من أخطرها ما حدث سنة ٥٥٢ هـ

= ١١٥٧ م، الأمر الذي دفع نور الدين زنكي يومها للعمل على ترميمها ودعمها تحت اشرافه مباشرة. واستمر العمل بعد ذلك، ففي عهد السلطان الظاهر غازي - ابن صلاح الدين الأيوبي - اكتملت إعادة بناء قطاعات كبيرة من دفاعات المدينة، وكيفت مع التبدلات التي فرضتها متطلبات حرب الحصار، ومنها تحصينات القلعة، وبخاصة البوابة الرئيسة التي كانت في الأصل مؤلفة من برجين مع مدخل وباشورة بينهما. ثم رممت وعدلت بشكل أساسي في الفترة بين العامين ٨٠٧ و ٨٠٩ هـ (١٤٠٤ - ١٤٠٦ م) لاصلاح الأضرار التي ألحقها المغول التتار في هجماتهم المتتالية، فتم وصل البرجين بقاعة فسيحة. وقام آخر المماليك السلاجقة بترميم القلعة أثناء الصراع ضد الأتراك العثمانيين. وشرع السلطان قانصوه الغوري ببناء البوابة الخارجية سنة ٩١٠ هـ = ١٥٠٤ م.

ومضى الزمن وخلف قلعة حلب وراءه لتذكر بصمود هذا الحصن ومقاومته لجحافل الغزاة من روم وفرنج ومغول. ولقد كان الإسلام هو أساس ذلك الصمود الرائع. فقد استطاع أهل حلب بفضل جهدهم وجهادهم اجراء التحولات في مسيرة الصراع. وكان تلاحم مسلمي حلب مع اخوانهم في الموصل وحماه وحمص ودمشق هو الذي ضمن الدفاع عن حلب بأكثر مما ضمنته حجارة القلعة وتحصيناتها.

قلعة حارم

١٤ ـ قلعة حارم.

تقع (قلعة حارم)[١] ومدينتها في شمال بلاد الشام، حيث الشعاب الغربية من جبل باريشا. وتشرف على السهل المحيط ببحيرة العمق، وتسيطر على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب. وقد احتلت القلعة موقعها فوق مرتفع صخري ازداد ارتفاعه على مرّ العصور بسبب أعمال البناء التي قام بها السكان. وكانت القلعة محمية بقناة مائية تحيط بها من جميع جهاتها، وهي قناة أمكن شقها عميقاً في الصخر من الجهة الشمالية الشرقية. وثمة مناطق واسعة من السفح المتجانس المحيط بها، وتكونت من سور حاجز، دعم بأبراج متينة. وشيدت قليعة مستطيلة كبيرة الحجم إلى الشرق من موقع القلعة البيضاوي الشكل. ولقد تداعى السور بفعل الأيام والأحداث، وزال بناء القليعة ولم يبق منه سوى أثر ضئيل. غير أن هذا الأثر بقي كافياً للتذكير بأيام حارم خلال صراع المسلمين مع الروم والفرنج. وقد وصف أبو الفداء ـ في تقويم البلدان. حارم بقوله: «هي بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وأعين ونهر صغير. قال ابن سعيد: وحارم حصن كثير الأرزاق. وقد خصّ بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره، مع عدم العجم وكثرة المياه. وتقع حارم وقلعتها على بعد مرحلتين من حلب في جهة الغرب، وبين حارم وأنطاكية مرحلة»[٢] ولهذا فقد بقيت حارم تعيش الأحداث التي تعرضت لها حلب من جهة وانطاكية من جهة أخرى.

ليس هناك ما يشير إلى أن حارم وقلعتها قد مارست دوراً كبيراً في الحروب الفارسية ـ البيزنطية التي سبقت الفتح العربي ـ الإسلامي. ولعلها لم تكن أكثر من

---

(١) حارم: (HARIM) أو: (HARREM) أو هارنيش: (HARRENCH) وبالفرنجية كاستروم هارنك: (CASTRUM-HARENC).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٤.

قلعة (ليم) لحراسة الحدود ومراقبتها. فلما جحافل العرب المسلمين الظافرة، اجتاحت شمال بلاد الشام. وأصبحت حارم في جملة القواعد الشمالية لحشد المجاهدين في سبيل الله من أجل غزو بلاد الروم البيزنطيين. ولقد استمر الصراع بين المسلمين والروم عبر حرب الثغور، ومن خلال غزوات الصوائف والشواتي. ولقد تمكن الروم من غزو بلاد الشام مرات عديدة، كان من أهمها وأخطرها تلك الغزوات التي قادها (نقفور فوقاس) ما بين سنة ٣٥٢ و ٣٥٩ هـ. والتي وصل بها إلى جوف بلاد الشام، ثم انسحب بعد أن نهب ودمر وسبى. وكانت حارم في جملة ضحايا الروم. ولقد استنزفت هذه الحروب قوة الحمدانيين وسواهم من الأقوام. حتى جاء الأتراك السلاجقة فاضطلعوا بحمل راية الجهاد في سبيل الله، وبسطوا سيطرتهم على حلب وأنطاكية وسواهما من العواصم وما بينهما من القلاع. وكان هذا هو الموقف يوم وصلت جيوش الفرنج الصليبيين، فاجتاحت بلاد الروم وتوقفت أمام انطاكية حيث أسرع حاكمها السلجوقي - ياغي سيان - لمجابهة جيوش الفرنج. وأرسل الى حاميته المرابطة أمام حارم، عبر الجسر الحديدي على الطريق المؤدي إلى حلب، وطلب إليها أن تنزل الاضطراب والارتباك في صفوف الفرنج، وضرب مؤخرات جيوشهم. وقامت حامية حارم بواجبها، وأنزلت بجيوش الفرنج ضربات موجعة. ولم تلبث أن تجمعت في حارم جيوش حلب وحماه وديار بكر لنجدة أنطاكية (في أوائل شهر شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨ م = ٤٩٢ هـ) غير أن الفرنج نجحوا في الاستيلاء على انطاكية. ولم يبق أمام حامية حارم إلا الانسحاب إلى حلب، فاستلم النصارى حارم، وقاموا بتسليمها للفرنج الصليبيين الذين أقاموا حامية في قلعتها للدفاع عنها، والاغارة منها على بلاد المسلمين[1]. وتولى قيادة حامية الفرنج في حارم أمير من الفرنج اسمه (جاي - ولقبه الزانة) وكان تابعاً في حكمه لأمير انطاكية. ولعل أبرز دور قامت به حامية حارم في تلك الفترة هو خوضها معركة (تل داتث) سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. حيث كانت جيوش المسلمين من الموصل وسنجار وحلب ودمشق قد تجمعت، فتصدى لها جيش حارم بقيادة (جاي فريسنل) وصمد جيش سنجار صموداً رائعاً

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣١٠ و ٣٢١ - ٣٢٢.

بقيادة (تمير أو تميراك) إلا أن جيش حارم جلب امدادات جديدة، ساعدته على تطويق جيش سنجار، وحسم الصراع لمصلحة الفرنج[١]

جاء التحول الحاسم في قتال المسلمين ضد الفرنج على أيدي الزنكيين. وقد عرفت حارم فصلاً من فصول هذا التحول سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م عندما قاد نور الدين زنكي جيشه وقصد حارم، فحصر قلعتها وخرب ربضها ونهب سوارها، ثم تابع تقدمه فهزم الفرنج عند (حصن أنب) وقتل صاحب أنطاكية الذي كان عاتياً من عتاة الفرنج. وقد أثارت انتصارات نور الدين حماسة المسلمين بقدر ما أحبطت من عزيمة الفرنج[٢]. وعاد نور الدين لمهاجمة قلعة حارم المنيعة والقائمة في نحور المسلمين. فحصرها وضيق على أهلها. فاجتمعت الفرنج من قرب ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها. وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله، ويرجعون إلى رأيه (واسمه رينالد سانت فاليري)[٣] فأرسل إلى الفرنج وقال لهم: «إننا نقدر على حفظ القلعة. وليس بنا ضعف، فلا تخاطروا أنتم بلقاء نور الدين. لأنه إذا هزمكم أخذها وغيرها. والرأي مطاولته - مماطلته -». فأرسل الفرنج إلى نور الدين، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم. فاصطلحوا على ذلك[٤].

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠٧ - ٥٠٩ هـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢١٥.

(٢) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٤، وفيها قصيدة مشهورة نظمها الكاتب القيسراني، وامتدح فيها جهد نور الدين وجهاده - ومنها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب	وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم	طهارة كل سيف عندها جنب

(٣) كان الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم على حكم حارم. وجاء جيش من الفرنج سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م فحاصر حارم. وقذفها بالمنجنيق قصفاً شديداً، فأذعنت الحامية. وتقرر تعيين رينالد سانت فاليري حاكماً لها. وطرد حاكمها السابق - جاي فريسنل - غير أن حارم بقيت تابعة لحاكم أنطاكية (تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٥٦٤).

(٤) الكامل في التاريخ، أحداث سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وفيها قصيدة قالها أحد الشعراء في مدح نور =

لم يكن الصلح بين المسلمين والفرنج أكثر من هدنة مؤقتة حتى يكمل كل طرف من الطرفين استعداداته لصراع لا بد من تجدده، إذ لم يكن باستطاعة الفرنج ايقاف أعمالهم العدوانية، ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل التحديات المصيرية التي فرضها غزو الفرنج لبلادهم. وهكذا عاد نور الدين محمود بن زنكي وقاد جيشه وسار إلى قلعة حارم (سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م) فحصرها وجد في قتالها، فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم. فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها. فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه وتلطفوا الحال معه. فلما رأى نور الدين أنه لا يستطيع أخذ الحصن، ولا يستطيع دفع الفرنج للاشتباك معه في معركة حاسمة، رفع الحصار عن حارم ورجع الى حلب[1].

بقي الوضع في شمال بلاد الشام في مرحلة يمكن وصفها بحسب المصطلحات الحديثة (بالتوازن الاستراتيجي) غير أنه ظهر واضحاً للمسلمين بأن حارم هي المعقل القوي للدفاع عن إمارة أنطاكية التي كانت أقوى إمارات الفرنج في الشمال. ولهذا فإن كل جهد لاضعاف انطاكية وتجريدها من قوتها لا بد وأن يبدأ بإعادة فتح حارم. وطرد الفرنج الصليبيين منها.

تعرض نور الدين لأكبر هزيمة وأخطرها سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م. وفي الوقت ذاته، تدهور الموقف في مصر مما أطمع الفرنج فيها. فكان لزاماً على نور الدين القيام بثلاث أعمال كبرى في وقت واحد: الأول هو إعادة تنظيم

= الدين ـ ومنها:

ألبست دين محمد يا نوره	عزاً له فوق السها آساد
مازلت تشمله بمياد القنا	حتى تثقف عوده الميّاد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه	عدد يراع به ولا استعداد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى	حاموا فرائس كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة	حزماً (لحارم) والمصاد مصاد
من منكر أن ينسف السيل الربا	وأبوه ذاك العارض المداد

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٩٦/٢ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٥٧ هـ.

جيشه وحشد كل القوى المتوافرة. والثاني هو توجيه حملة إلى مصر لاحباط نوايا الفرنج الصليبيين. والثالث هو توجيه تهديد لامارات الفرنج بالشام لحملهم على سحب قواتهم من مصر ودعم قوات المسلمين فيها.

وقد استطاع نور الدين أن يعيد تنظيم قواته بسرعة ـ فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة ـ. ووجه حملة الى مصر (بقيادة أسد الدين شيركوه) حتى إذا ما جاء شهر رمضان من السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) قرر نور الدين زنكي التحرك لاعادة فتح حارم. وكتب إلى أخيه صاحب الموصل وديار الجزيرة ـ قطب الدين مودود ـ والى صاحب حصن كيفا ـ فخر الدين قرا أرسلان ـ وإلى صاحب ماردين ـ نجم الدين ألبي ـ وغيرهم من أصحاب الأطراف، يستنجدهم ويستمدهم. فأما قطب الدين، فانه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدمته أمير جيوشه ـ زين الدين علي ـ. وأما صاحب حصن كيفا ـ خير الدين ـ فانه تلكأ في الإجابة، ولما سأله ندماؤه وخواصه عن قراره، أجابهم بأنه قرر القعود. وقال لهم:

«إن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة: وهو يلقي بنفسه في المهالك».

فكلهم وافقه على هذا الرأي. فلما كان الغد، أمر بالتجهز للغزاة، فقال له خواصه: «ما عدا مما بدا ـ فارقناك أمس على حالة، فنراك اليوم على ضدها. فقال لهم:

«إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي. فإنه قد كاتب زهادها وعبادها، والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر. ويستمد منهم الدعاء. ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة. فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويلعنونني ويدعون علي، فلا بد من المسير إليه».

ثم تجهز وسار بنفسه. فلما اجتمعت العساكر، سار نور الدين نحو حارم، فحصرها

ونصب عليها المجانيق. وتابع الزحف إليها. فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حدهم وحديدهم، وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون. وكان المقدم عليهم صاحب انطاكية البرنس بيمند - بوهمند - وقمص - كونت - صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج. والدوك - الدوق - وهو مقدم كبير من الروم. وجمعوا الفارس والراجل، فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه، فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه، فسار الفرنج ونزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه، فعادوا إلى حارم. فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبية الحرب. فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وفيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا، فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم - مشاتهم - فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم، لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ولا وزيراً يعتمدون عليه. ويعود المنهزمون - جيش حلب وكيفا - في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. فكان الأمر على ما دبروه.

فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين، عطف عليهم - زين الدين علي - في عسكر الموصل. وهاجم مشاة الفرنج، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على مشاتهم. فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا مشاتهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم، وأدركوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب. واشتدت الحرب وكثر القتلى في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة. فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر، وأسروا ما لا يحد. وكان في جملة الأسرى صاحب انطاكية، والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين. وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل. وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يدافع عنها. فلم يفعل وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم، ومجاورة الفرنج

أفضل من مجاورة الروم». وبث السرايا في تلك الأعمال فنهبوها وأسروا أهلها وقتلوهـم. ثم إنـه فـادى بـرنس بيمنـد صـاحـب أنطـاكيـة واشترى مـن المسلمين ـ الأسرى ـ خلقاً كثيراً فأطلقهم.

عادت قلعة حارم إلى أهلها المسلمون، وخرج الفرنج مدحورين بعد ٦٨ سنة هجرية من احتلالهم لهذه القاعدة الإسلامية (٦٦ سنة ميلادية). وأسرع نور الدين فشحن قلعة حارم بالرجال والسلاح، وأقام فيها حامية قوية، ورمم أسوارها ودعم تحصيناتها. وباتت حارم وهي مصدر تهديد دائم للفرنج بعد أن كانت مرتكزاً من مرتكزات قوتهم. ولم يكن باستطاعتهم احتمال هذا التحول، غير أنهم كانوا عاجزين عن القيام بعمل ضدها. فأخذوا في انتظار الفرصة المناسبة. وقد واتتهم هذه الفرصة. فقد توفي أكبر عدو للفرنج ـ نور الدين زنكي ـ سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م. وكان صلاح الدين الأيوبي في مصر، ولم يتمكن بعد من بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها. وتصادف ذلك مع قدوم (فيليب كونت فلاندر) الى القدس. (سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) فعمل ملك القدس على تجهيزه بجيش لقتال المسلمين في شمال بلاد الشام. وقاد فيليب هذا جيشه حتى وصل الى (حارم) وانضم اليه كونت انطاكية ـ بيمند ـ فنصب الفرنج المنجنيقات، وأخذوا بضرب قلعة حارم، وشددوا الحصار عليها طوال أربعة أشهر، غير أن عمليات نقب الأسوار لم تلق شيئاً من النجاح، وصمد المسلمون صموداً رائعاً، ولما علم الفرنج بوصول صلاح الدين إلى دمشق، وأنه في سبيله لقتالهم، عملوا على رفع الحصار والانسحاب. ورجع جيش أنطاكية إلى مدينته، أما فيليب كونت فلاندر، فقد رجع بدوره الى القدس، ليقضي فيها عيد القيامة. ثم استقل سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية [1].

بقيت حارم تحت حكم أحد مماليك نور الدين زنكي (واسم هذا المملوك هو سرخك) فلما كانت سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م، ونجـح صلاح الدين في السيطرة على بلاد الشام ووصل الى حلب وضمها لحكمه، أرسل إلى سرخك وطلب منه تسليم

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٦٧٠ ـ ٦٧١، والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٧٣ هـ.

حارم، وقال له: «أطلب من الاقطاع ما أردت». فخاف سرخك وأرسل رسالة الى أمير أنطاكية يطلب حمايته، فعلم من معه من الأجناد أنه يراسل أعداء الدين - الفرنج - فخافوا أن يسلم حارم إليهم، فوثبوا عليه وأوثقوه وحبسوه. وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والانعام. فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلموا اليه القلعة. فوضع فيها حامية قوية أسند قيادتها إلى أقدر رجاله (واسمه دز دارا) على أن يبقى تابعاً لحلب.

أخذ صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك بحشد قواته من كل البلاد استعداداً لمعركة حطين (في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م). فخاف حاكم حلب شقيق صلاح الدين - الملك المظفر تقي الدين عمر - أن يطمع الفرنج في حارم. فقاد جيش حلب وسار إلى حارم في تظاهرة لعرض القوة، فأسقط في يد الافرنج، وامتنعوا عن القيام بأي عمل. وبقيت حارم آمنة وبعيدة عن أي تهديد، لاسيما وقد انتقل المسلمون بعد حطين من الدفاع الى الهجوم. ولكن الضربة المدمرة جاءت الى حارم على أيدي المغول التتار. ففي سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. استولى المغول على حلب، وساروا منها نحو حارم. ورفضت الحامية المدافعة عن قلعة حارم الانصياع لحكم هولاكو، ما لم يضمن أحد المسلمين الوعد الذي بذله هولاكو بالمحافظة على حياة سكانها المسلمين. واعتبر هولاكو أن طلب حامية حارم هو إهانة له، فقرر إنزال العقوبة بحارم وأهلها. فلما اجتاحتها جحافل المغول التتار دارت مذبحة في المسلمين على نحو ما جرت عليه عادة المغول في كل مكان سارت فيه قواتهم. ولم ينج من أهل حارم أحد، باستثناء من واتاهم الحظ فخرجوا من حارم قبل اجتياح المغول لها.

ولكن ما إن انسحب المغول من بلاد الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت، حتى أسرع المسلمون لبناء حارم، اصلاح قلعتها، ودعم تحصيناتها وأسوارها. ويظهر أن عملية البناء لم تكن قد اكتملت بعد عندما رجع المغول بعد ذلك بعشر سنوات (سنة ١٧٠ هـ = ١٢٧١ م) في محاولة للانتقام لهزيمتهم. فأعادوا تدمير حلب وحارم وسواهما من المدن والقلاع في شمال بلاد الشام. وكان ذلك كل ما استطاع المغول عمله. فقد اضطروا للانسحاب سراعاً عندما علموا بتحرك جيش دمشق وجيش حمص نحوهم.

وانتهى بذلك دور قلعة حارم. فقد زال خطر الفرنج بعد ذلك وتم طردهم من كل بلاد الشام. وزال خطر المغول وذابوا في المجتمع الإسلامي. ولم يبق من قلعة حارم أكثر من بقايا تشهد بما قدمه العرب المسلمون من تضحيات، وما بذلوه من الجهد، حتى تبقى راية الله عالية على كل بلد وعلى قلعة من بلاد الإسلام حارم.

١٥ ـ قلعة صور

(صور)[١] هي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام. وهي من المدن القديمة والتي كانت تشكل إحدى قواعد العرب الفينيقيين. ولقد ارتبط اسم صور في القديم بالتوسع البحري للقرطاجيين، وبالصباغ الأرجواني الذي اشتهرت به[٢]. غير أن شهرة صور في الحرب لم تكن أقل من شهرتها في الصناعة والتجارة، إذ أنها المدينة الأولى التي تصدت لمقاومة غزو الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ م. خلال زحفه للاستيلاء على مصر. ولم تستسلم إلا بعد حصار طويل ومقاومة ضارية، مما أدى إلى دمارها، فتناقصت أهميتها. ولكن صور عادت وازدهرت بعد أن فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م إذ أصبحت ثغراً من ثغورهم البحرية، وقاعدة لانطلاق أساطيلهم.

ولقد عانت مدينة صور بخاصة من فترة الاضطراب التي هيمنت على أقطار العالم العربي ـ الإسلامي خلال المرحلة التي سبقت الحروب الصليبية بسبب الانقسام بين الحكم الفاطمي المتظاهر بالتشيع في مصر، وبين أهل السنة من المسلمين. ولعل من أبرز ما وقع خلال تلك المرحلة تقدم أمير الجيوش الفاطمي من مصر، وقيادته لاسطوله وجيشه لالقاء الحصار على صور. فلما تم له فتحها (سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) سار عنها الى مدينة صيدا ففتحها. ثم حاصر عكا وضيق على أهلها إلى أن تم فتحها. وتبعتها مدينة جبيل. ولم يلبث أمير صور (منير الدولة الجيوشي) أن أعلن تمرده على الحكم الفاطمي (سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) فسير المستنصر العلوي جيشاً من مصر فحصر مدينة صور وقاتل أهلها، وفتحها ونهب البلد وفرض عليها ستون ألف دينار،

---

(١) صور TYR أو SOUR.

(٢) كانت صور مع مدن صيدا وعكا وجبيل ـ بيبلوس ـ وبيروت وطرابلس وأرواد تشكل مدن المملكة الفينيقية: (PHENICIE).

فتم إفقار البلد، وتم تعيين حاكم جديد تابع للحاكم الفاطمي، واسمه ـ كتيلة ـ الذي لم يلبث أن أعلن بدوره التمرد. فسار جيش مصر واسطولها من مصر الى صور، فحصروها وضيقوا عليها وفتحوها بالسيف، وقتل بها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل[1] وكان استيلاء الفاطميين على المدن الساحلية لبلاد الشام، فصلاً من فصول الصراع المرير بين الحكم الفاطمي أو العلوي في مصر وبين أهل السنة الخاضعين للطاعة والجماعة في مقر الخلافة ببغداد. وخلال هذه المرحلة. والصراع في ذروته وصلت جحافل الغزاة من الفرنج الصليبيين واحتلت أنطاكية.

ولما كان الفاطميون من أشد الناس خصومة للترك ـ السنة ـ ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم. مع ما اشتهروا به من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين. فقد كانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية. فقد أرسلوا سفارة إلى أنطاكية لمقابلة ملوك الفرنج للاتفاق معهم على اقتسام مناطق النفوذ، بحيث يحوز الفرنج شمال الشام. بينما تأخذ مصر فلسطين. واستخلص الفرنج من المفاوضات ما يعود من المزايا عليهم نتيجة تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية. ولقد ظن الفاطميون أنهم يستطيعون بمؤامراتهم مع أعداء الدين تحقيق مكاسب اقليمية. لكن الغزاة الفرنج كانوا يحملون معهم من الأطماع قدراً يزيد كثيراً على ما كان يتصوره الفاطميون[2] إذ لم يلبثوا أن وصلوا إلى طرطوس (٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م) وتوقفوا في أرباضها، قبل أن يستأنفوا سيرهم نحو القدس، فلما احتلوها، عمل ملك القدس بغدوين على قيادة جيشه، وقصد مدينة صور وحصرها، وأمر ببناء حصن عندها، وأقام شهراً محاصراً لها، فصانعه واليها على سبعة آلاف دينار، فأخذها ورحل عن المدينة[3].

عاد الفرنج بعد أربعة أعوام. فحشدوا قواتهم بقيادة ملك القدس (بغدوين) وحاصروا مدينة صور، وضيقوا عليها، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٤٨٢ و ٤٨٦ و ٤٩٠ هـ.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٥٠١.

سور البلد، وأخلوه من الرجال. وكانت صور تحت حكم - عز الملك الأعز - التابع لحاكم مصر - القائم بأمر الله العلوي -. وكانت الأبراج التي صنعها الفرنج - وعددها ثلاثة - من الخشب، ارتفاع البرج منها سبعون ذراعاً. وفي كل برج ألف رجل. فجمع حاكم صور أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم. فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها. وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة. فألقى الحطب من جهاته، وألقى فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ويتخلصوا، فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة. فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث، فتمكنت النار منه. فهلك كل من به إلا القليل. وأخذ المسلمين ما قدر عليه بالكلاليب. ثم أخذ سلال العنب الكبار ووضع فيها الحطب الذي سقاه بالنفظ والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين، ثم أن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم، وليخسف برج إن عملوه وسيروه إليهم، فاستأمن نفر من المسلمين إلى الفرنج وأعلموهم بما عمله أهل صور فحذروا منه. وأرسل أهل البلد إلى حاكم دمشق أتابك طغتكين يستنجدونه، ويطلبونه ليسلموا البلد إليه، فسار في جنده الى نواحي بانياس، ووجه إليهم نجدة من مائتي فارس، فدخلوا البلد، وامتنع من فيه بهم. واشتد قتال الفرنج خوفاً من اتصال النجدات، ففني نشاب المسلمين، فقاتلوا بالخشب، وفني النفط، فظفروا بسرداب تحت الأرض فيه نفط لا يعلم أحد من خزنه. ثم إن عز الملك صاحب صور، أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال، ويقصدهم ليملك البلد، فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه بوصول المال، ويأمره أن يقيم مركباً بمكان ذكره، لتجيء الرجال إليه، فسقط الطائر على مركب الفرنج، وقرأ الفرنج الرسالة، فأرسل ملك الفرنج مركباً إلى المكان الذي حدده طغتكين، وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا إليه من أهل صور. فوصل إليهم عسكر طغتكين، فكلموهم بالعربية، فلم ينكروهم، وركبوا معهم. فأخذوهم أسرى وحملوهم إلى الفرنج فقتلوهم. وطمعوا في أهل صور. فما كان من طغتكين إلا

أن أخذ في الاغارة على البلاد التي احتلها الفرنج من جميع جهاتها. وقصد حصن - حبيس جلاك - في السواد من أعمال دمشق فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه من الفرنج، ثم عاد الى الفرنج القائمين على حصار صور، فقطع عنهم الميرة - التموين - من جهة البر. فأحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا لقتاله. فسار طغتكين إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية، وأحرق عشرين مركباً تقريباً على الساحل. واستمر أثناء ذلك كله في ارسال الكتب إلى أهل صور. وطلب إليهم الصبر. وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أن أدرك الفرنج أنه من الصعب عليهم الاستيلاء على صور - وكانت قد مضت على مدة الحصار والقتال خمسة أشهر (سنة ٥٠٥ هـ = ١١١٢ م) - فرفعوا الحصار ورجعوا إلى عكا. وعاد طغتكين وجشه إلى دمشق. وانصرف أهل صور إلى إصلاح ما تشعث من سور بلدهم وخندقها [١]. وبقيت صور تابعة لحكم الفاطميين في مصر.

علم أهل صور سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م - أن ملك الفرنج - ملك القدس - قد جمع عساكره ليسير إلى صور. فخافوا وأرسلوا إلى أتابك طغتكين حاكم دمشق يطلبون إليه أن يرسل أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم وتكون البلد له. وقالوا له: «إن لم ترسل لنا والياً وعسكراً سلمنا البلد إلى الفرنج». فسير إليهم عسكراً وجعل عندهم واليا اسمه مسعود. وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمده بعسكر وسير إليهم ميرة - تموين - ومالاً فرقه فيهم، وطابت نفوس أهل البلد. ولم تغير الخطبة لحاكم مصر ولا السكة - النقود -. وكتب طغتكين إلى الأفضل حاكم مصر وشرح له الموقف وأعلمه عن استعداده لتسليم صور له عندما يرسل من يتولاها ويقوم على أمر حمايتها. وطلب إليه عدم الانقطاع عن ارسال الاسطول من مصر لدعم صور بالرجال والقوة. فشكره الأفضل على ذلك. وأثنى عليه وصوب رأيه فيما فعله. وجهز أسطولاً وسيره إلى صور. فاستقامت أحوال أهلها.

ولكن حدث في سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م أن جاء أسطول من مصر ومع مقدمه

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠٥.

تعليمات بالاستيلاء على صور. فلما خرج حاكم صور - مسعود - للسلام على مقدم الاسطول واستقباله، تم اعتقاله وأرسل إلى مصر حيث أعيد إلى دمشق. ودخل الوالي الفاطمي المعتمد إلى صور. ولما علم الفرنج بعزل - مسعود - عن حكم صور، قوي طمعهم فيها، وحدثوا نفسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهب وللنزول عليها. وعلم والي صور، وعرف أنه لا قوة له ولا طاقة على رفع الفرنج عنها، لقلة من بها من الجند والميرة. فأرسل إلى حاكم مصر وطلب إليه أن يرد ولاية صور الى طغتكين حاكم دمشق. فأرسل إليه موافقته على رأيه. فملك طغتكين صور، ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية. وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال. فقلت الأقوات، وسئم من بها من القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم، وليدافع عن البلد، وعلى أمل أن يرحل الفرنج عن صور إذا ما اقترب منهم. ولكن الفرنج لم يتحركوا، ولزموا الحصار. فأرسل طغتكين الى ملك الفرنج واتفق معه على تسليم صور له، على أن يسمح لمن بها من الجند والرعية بالخروج ومعهم ما يقدرون على حمله من أموالهم ومتاعهم. وغادر المسلمون صور، وملكها الفرنج، وكان ضياعها وهناً عظيماً على المسلمين، لأن صور كانت أحصن البلاد وأمنعها [1].

أصبحت صور - موطن المؤرخ المسيحي لفترة الحروب الصليبية وليم الصوري - [2] - تحت حكم الفرنج الذين انصرفوا لتنظيم أمورهم فيها. فوزعوا المدينة على الجاليات المشتركة في الحروب الصليبية. فكانت هناك أحياء منفصلة للبنادقة

---

(1) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥١٦ وسنة ٥١٨. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٢٦٩ - ٢٧٣.

(2) وليم الصوري: (GUILLAUME DE TYR) من مواليد بلاد الشام قبل سنة ١١٣٠ م تعلم في طفولته اللغتين العربية واليونانية. ثم توجه إلى بلاد الفرنج - فرنسا - لاكمال تعليمه الديني. وعاد إلى فلسطين فأصبح سنة ١١٦٠ م رئيساً لشمامسة صور. ثم أصبح رئيساً لديوان الرسائل بالمملكة - مملكة القدس -. ثم تقلد سنة ١١٧٥ منصب رئيس أساقفة صور. ولما فشل في أن يصبح بطريقاً لجأ إلى روما سنة ١١٨٣ م وبقي بها إلى أن مات سنة ١١٨٧ م. وكان وليم الصوري قد شرع منذ سنة ١١٦٩ م بكتابة تاريخه الشهير: (تاريخ ما جرى من أمور فيما وراء البحار):
(historia rerum in partibus transmarinis gestrum) وهو يتناول دراسة الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٩٥ و ١١٨٤ م. وفرغ من الكتب الثلاثة عشرة الأولى في سنة ١١٧٣ م. ثم تابع عمله في روما حتى موته.

والجنويين وأهل بيزا ومرسيليا وبرشلونه وسواها. وأقامت هذه الجاليات تجمعاتها وادارتها المستقلة ـ قوموناتها ـ. ولم تكن العلاقات حسنة بين هذه الجاليات، وإنما كان يسودها الحسد والمنافسة، بل وحتى الصراع المسلح أحياناً. غير أنها كانت تشترك جميعاً بما كان يوحد بينها من حقد ضد الاسلام والمسلمين. وقد يكون بالمستطاع تجاوز تلك الصراعات الصغرى، سواء بين قومونات الفرنج بعضها ضد بعض، أو بينها مجتمعة ضد المسلمين، للتوقف عند مرحلة التحول الحاسم الذي حملته معركة حطين الخالدة. ففي غداة المعركة، لم تهيمن نشوة النصر على المجاهدين في سبيل الله فتقعدهم عن القتال، وإنما اندفعت جيوشهم بقيادة صلاح الدين فأعادت فتح عكا والقدس واللاذقية وصيدا وسواها من المدن والقلاع. وكان أغرب ما في الأمر أن سمح صلاح الدين للفرنج بالانسحاب من المدن والقلاع، والتوجه إلى صور التي باتت مكتظة بالقوات. فتولى الكونت الألماني ـ كنراد مونتفيرات ـ إعادة تنظيم هذه القوات وعمل على تحصين المدينة وتنظيمها للدفاع. وقد أوردت المصادر العربية قصة ما حدث يومها فقالت: «لما انهزم صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور، أقام بها على أنها أعظم بلاد الشام حصانة، وأشدها امتناعاً على من رامها. فلما رأى أن المسلمين قد ملكوا تبنين وصيدا وبيروت، خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها، فتركها وسار إلى مدينة طرابلس. فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين. فلو بدأ صلاح الدين بمدينة صور قبل تبنين وغيرها، لأخذها بغير مشقة، لكنه استعظمها لحصانتها، فأراد أن يفرغ أولاً مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر، يقال له المركيش[1] ـ لعنه الله، خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة، ولم يعلم بما حدث

(١) المركيش هذا هو كنراد ابن المركيز مونتفيرات، كان مقيماً بالقسطنطينية، غير أنه تورط بجريمة قتل، فأبحر سراً مع جماعة من فرسان الفرنج بهدف الحج الى الأماكن المقدسة، ولم يكن يعلم شيئاً عن الكوارث التي نزلت بالفرنج الصليبيين في فلسطين ـ وانظر (تاريخ الحروب الصليبية: (٢/٧٦٢ ـ ٧٦٤) و (٣/٢١، ٢٩، ٣١، ٤٢، ٤٥) وكذلك الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٥٨٣.

للفرنج، فأرسى بعكا، وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح، من ضرب الأجراس والنواقيس وغير ذلك، وما رأى أيضاً من زي أهل البلد. فوقف ولم يدر ما الخبر، وكانت الريح قد ركدت، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينته للاستعلام. وعندها عرف المركيش بهزيمة الفرنج وخروج عكا من قبضتهم، وأرسل المركيش إلى الملك الأفضل رسولاً يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال، فأجيب إلى ذلك، وأرسل السفراء المرة بعد المرة وهو يطلب في كل مرة شيئاً لم يطلبه في المرة السابقة، وقد فعل ذلك انتظاراً لهبوب الريح ليسير به. فبينما هو مستمر في اتصالاته، إذ هبت الريح، فسار نحو صور، وسير الملك الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه. ووصل المركيش الى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير. لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور. وكثر الجمع بها، إلا أنه ليس لهم رأس يجمعهم، ولا مقدم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه، فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم، فردهم عنه، وقوى نفوسهم، وضمن لهم حفظ المدينة. وبذل ما معه من الأموال، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها دون غيره، فأجابوه إلى ذلك. فأخذ أيمانهم عليه، وأقام عندهم، ودبر أحوالهم، وكان من شياطين الأنس، حسن التدبير والحفظ، وله شجاعة عظيمة، وشرع في تحصينها، فعمل أسوارها. وزاد في حصانتها، وحفر خنادقها، واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها.

فلما فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والقدس، سار إلى صور، فوجد أن المركيش قد انتهى من دعم سور المدينة، وزاد من حفر خنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء، لا يمكن الدنو منها أو الوصول إليها. فما كان من صلاح الدين إلا أن نزل على نهر قرب البلد. وقسم القتال على العسكر، كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث يتصل القتال على الفرنج. ولكن الموضع الذي يقاتلون منه ضيق الجبهة، قريب المسافة، تكفيه جماعة قليلة من الفرنج للدفاع عنه، لاسيما وأن الخنادق قد وصلت من البحر إلى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها. والمدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر والبحر من

جانبي الساعد. والقتال إنما هو في الساعد. فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات. وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال، مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين، وكذلك سائر الأمراء. وكان للفرنج شواني - سفن - وحراقات يركبون فيها في البحر، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتلون المسلمين منه، فيرمون المسلمين من جانبيهم، فعظم الأمر على المسلمين. لأن الفرنج يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع، فكثرت الجراحات في المسلمين وكثر القتل، ولم يتمكنوا من الدنو إلى صور.

فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءته من مصر - وهي عشر قطع كانت بعكا - فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها، وكانت في البحر تمنع شواني الفرنج من الخروج إلى قتال المسلمين. فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من صور، ومن قتال الفرنج فيها، وقاتلوهم براً وبحراً، وضايقوهم حتى كادوا يظفرون بهم، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل ميناء صور، ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدمهم عبدالسلام المغربي موصوفاً بالحذق في صناعته وشجاعته، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا، وما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم، وأوقعت بهم، فقتلوا من أرادوا قتله، وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور. والمسلمون في البر ينظرون إليهم. ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر، فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق. وأمر صلاح الدين باقي الشواني بالسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها. فسارت، فتبعها شواني الفرنج، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم، ألقوا أنفسهم في شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها، فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور في البر. وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال، وخرج الفرنج في بعض الأيام فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار، وكان خروجهم قبل العصر،

وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتال عليه من الفريقين لما سقط. فلما أسر قتل. وبقوا كذلك عدة أيام.

لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول، رحل عنها. وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه. وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة، بل فتح الجميع في الأيام القريبة بغير تعب ولا مشقة. فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور، ملوها وطلبوا الانتقال عنها. وقام الفرنج بطلب النجدات من ملوك الغرب، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدوهم بالنصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم، يحتمون بها ويلجؤون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والدفاع عنها. واستشار صلاح الدين أمراءه في أمر الرحيل عن صور، فتقرر رفع الحصار عنها. وترك صلاح الدين قوة في مواجهة مدينة صور.

ومضت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. ثم جاءت السنة التالية، وامتلكت حامية صور قوة كبرى بفضل ما وصلها من الدعم والامداد. وتحركت قوات الحملة الصليبية الثالثة التي ضمت فيما ضمته من القوات أسطولاً بحرياً ضخماً من السفن الدانمركية والفلمنكية التي بلغ عددها خمسمائة سفينة. وقرر الفرنج في صور الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، والبدء بالقاء الحصار على صيدا لاعادة السيطرة عليها. ودارت رحى معارك طاحنة نجح المسلمون فيها من منع الفرنج من الوصول إلى صيدا. ثم أعاد الفرنج في صور تنظيم قواتهم، وانطلقوا بهجوم جديد، غير أن الفشل كان من نصيبهم أيضاً، حيث دارت رحى معارك طاحنة قادها صلاح الدين الأيوبي بنفسه، وتعرض فيها الفرنج لخسائر فادحة. وعاود الفرنج محاولتهم للمرة الثالثة وكان ثمن الفشل غالياً. غير أنهم نجحوا في المرة الرابعة بمغادرة صور، والوصول إلى عكا، حيث انضمت إليهم قوات الفرنج القادمة من الشمال ومن البحر، فألقوا الحصار على عكا.

لقد كان الاغتيال السياسي هو أحد الوسائل التي اعتمدها الفرنج في بداية أمرهم للقضاء على القيادات الإسلامية واضعاف المسلمين وتفريقهم، وأصبح باستطاعة

قيادات المسلمين اللجوء إلى هذه الوسيلة ذاتها بعد أن تحول الموقف لمصلحتهم واتحدت قيادتهم وتعاظمت قوتهم. ولما كان ـ الكونت كنراد مونتفيرات ـ قد اضطلع بدور كبير في الدفاع عن صور، وفي التحريض للحملة الصليبية الثالثة التي ضمت ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب اوغست وامبراطور جرمانيا فريدريك بربروسه. فقد طلب صلاح الدين إلى زعيم الباطنية ـ الاسماعيلية ـ والمعروف باسم سنان شيخ الجبل. أن يقتل ملك انكلترا أو المركيز كنراد مقابل عشرة آلاف دينار. ووجد سنان أنه ليس من مصلحته قتل ملك انكلترا حتى لا يتفرغ صلاح الدين له ولطائفته، كما طمع في الوقت ذاته في الحصول على المال، فعدل الى قتل المركيز. وأرسل رجلين في زي الرهبان، واتصلا بصاحب صيدا وصاحب الرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما ستة أشهر وهما يظهران التقى والعبادة، ووثق المركيز بهما وأحبهما. ثم إن أسقف صور عمل دعوة للمركيز، فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه، فلما خرج من عنده وثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً وثيقة، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة واختفى بها. فاتفق أن المركيز حمل إليها ليشد جراحه، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله. وقتل الباطنيان. ونسب الفرنج قتله الى تدبير ملك انكلترا حتى ينفرد بحكم ساحل بلاد الشام.

جاء بعد ذلك الظاهر بيبرس فسار على النهج ذاته، إذ دبر أمر اغتيال فيليب مونتفيرات في صور أيضاً، وكان فيليب هذا من أعلام الفرنج ومن كبار باروناتهم. وكان الباطنية ـ الاسماعيلية أو الحشاشين ـ قد انضووا تحت راية الظاهر بيبرس، إذ أن فتوحاته وانتصاراته قد حررتهم من سيطرة الاسبتارية، ومن دفع الجزية لهم. كما اشتد انكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا معاقلهم وأبادوهم في بلاد الفرس. وبناء على طلب بيبرس، أرسلوا أحد رجالهم إلى صور، وزعم الباطني عندما دخل صور بأنه نصراني. فدلف يوم الأحد ١٧ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٧٠ (٦٦٩ هـ) إلى الكنيسة، حيث كان يؤدي الصلاة بها فيليب وابنه يوحنا، فانقض عليهما فجأة، وتعرض فيليب لجراح قاتلة قبل أن تصل إليه النجدة. على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه قد تم القاء القبض على القاتل، وأن ابنه نجا من القتل. وقد كان

قتل فيليب مونتفيرات ضربة خطيرة للفرنج الصليبيين في بلاد الشام[1].

تابع المسلمون جهدهم وجهادهم، وأيدهم الله بنصره، فطردوا الفرنج من المدن والقلاع التي ظنوا أنها مانعتهم، حتى إذا لم تبق إلا عكا وصور وبعض القلاع في أيديهم، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، غير أنهم لم يفقدوا الأمل بحملة صليبية جديدة تعيد لهم ما فقدوه من الأرض التي أقاموا عليها لبعض الوقت، ولهذا احتفظ القسس والأمراء بألقابهم السابقة التي حملوها قبل إعادة الفتح (مثل كونت طرابلس، وأسقف عكا الخ). وجرى في سنة ١٢٨٦ م أيضاً تتويج ملك قبرص (هنري الثاني) في مدينة صور. وأحيط حفل التتويج بجميع مظاهر الترف والعظمة. ولا ريب أن السلطان قلاوون قد ابتسم وهو في القاهرة عندما علم بأفراح الفرنج التافهة، فقد كان قلاوون على ثقة تامة بأن بقاء الفرنج في بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت. وأن الفرنج يخدعون أنفسهم عندما يتوهمون بامكان بقائهم في بلاد الشام إن هم احتفظوا بمدينة صور أو ببعض القواعد الأخرى. وهذا ما أكدته مسيرة الأعمال القتالية بعد ذلك. ولئن توفي السلطان قلاوون قبل إكمال إعادة فتح بقية المدن الساحلية. فقد جاء ابنه ـ الأشرف خليل ـ فعمل على إكمال هذا الواجب. فطرد بقايا الفرنج من عكا بعد حصار طويل ومعارك ضارية (سنة ٥٨٧ هـ = ١٢٩١ م). ولم تنتظر قوات صور وحاكمها حدوث الزلزال، أو هبوب العاصفة، فقد ركبوا البحر سراعاً وانتقلوا إلى قبرص بمجرد سماعهم بتحرك جيش المسلمين الضخم نحوهم، وتخلوا عن صور دون قتال. وابتلعت رمال صور ما تركه الفرنج من حطام. وعادت صور مزهوة إلى سابق عهدها، ثغراً من ثغور العرب المسلمين.

---

(١) لمطالعة المزيد عن التفاصيل لهذا الحادث المثير ـ يمكن الرجوع الى الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣/١٢٤ ـ ١٢٨ و ٥٧٠.

١٦ ـ قلعة صلاح الدين الأيوبي [صهيون]

قلعة صلاح الدين الأيوبي أو (قلعة صهيون)[١] من القلاع التي اكتسبت شهرة كبيرة أيام الحروب الصليبية القديمة، بسبب منعتها وقوة أسوارها وتحصيناتها. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: «قلعة صهيون هي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع، بحيث أن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن. إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال. وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره، وخمسة أسوار منيعة»[٢] كما وصفها أبو الفداء بقوله: «ومدينة صهيون هي بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام، من مشاهير معاقل الشام. وبقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار. وهي على صخر أصم، وبالقرب منها واد، وبه من الحمضيات ما لا يوجد مثله في تلك البلاد. وهي في ذيل جبل من غربيه. وتظهر من عند اللاذقية. وبينهما نحو مرحلة. تقع في الشرق وبميلة الى الجنوب عن اللاذقية». وتبرز المقولتان من تراث التاريخ ما تميزت به هذه القلعة الشهيرة التي لازالت أطلالها الصامتة تحتفظ بهيبتها وبوقارها وهي تتربع على موقعها الشاهق لتلمس الغمام، ولتشرف من متربعها على ما يحيط بها. ولتحتفظ لنفسها بأسرار ما عرفته من أحداث وما عاشته من قصص مثيرة عبر العصور. وهي أسرار قد يكون من المحال على الباحثين والعلماء معرفتها والكشف عنها مهما توافر لهم من خصب الخيال.

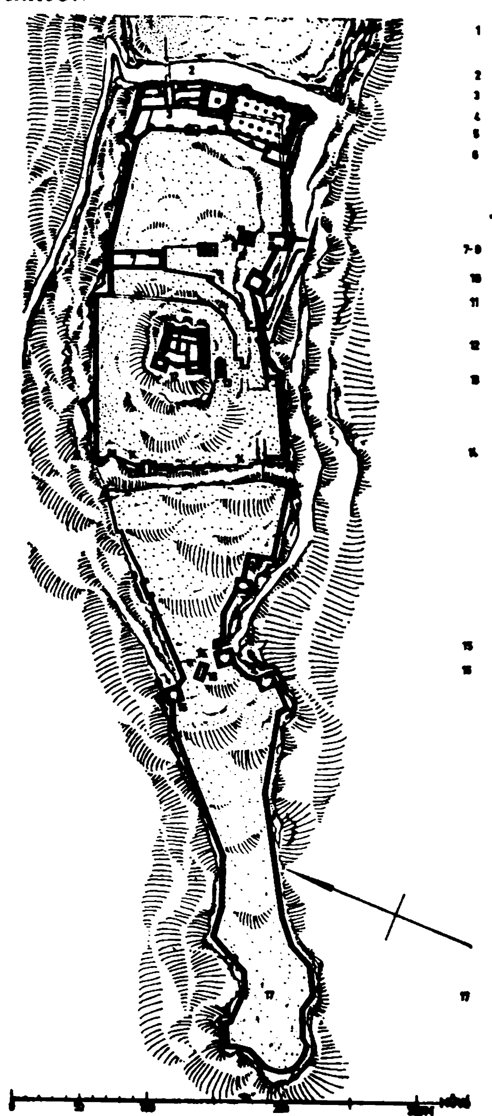
لم يبق من قلعة صلاح الدين سوى بقايا متهدمة تتربع فوق جرف صخري متطاول

---

(١) قلعة صلاح الدين الأيوبي. وقد حملت أيام الفرنج الصليبيين اسم قلعة صهيون نسبة إلى أول من حكمها منهم وهو الكونت روبر صهيون (COUNT ROBERT SAHYOUN LE PIEUX) المجذوم. وتكتب: (SAHYUN) وباليونانية: (SIGON) وبالفرنجية: (SAONE) أو: (SAHAUNE).

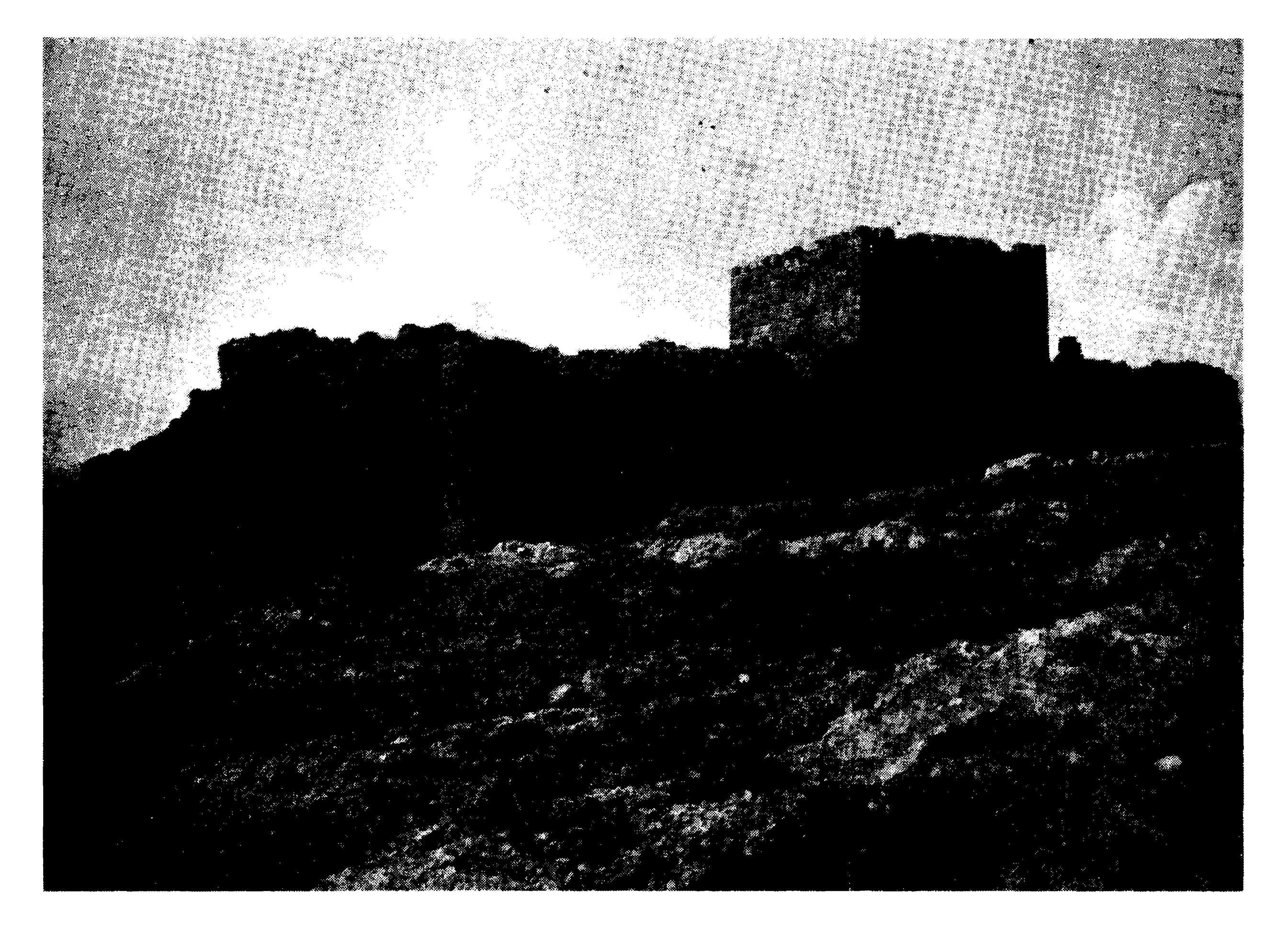
(٢) الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٨٤ ـ والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٥٠.

SAHYUN

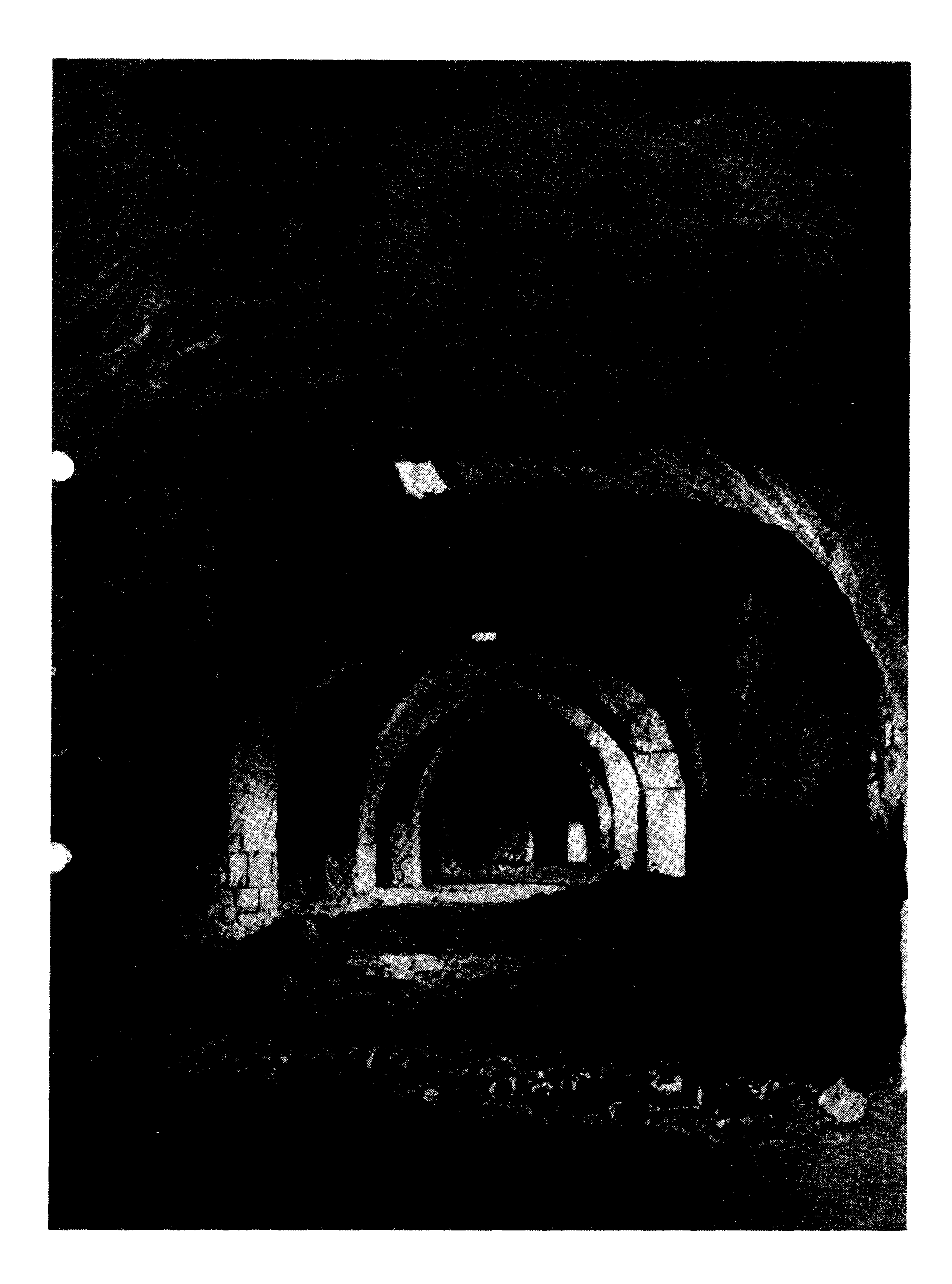


قلعة صلاح الدين (صهيون) Sahyun ـ الموقع والمخطط العام، المقياس ۱/۵۰۰۰.

۱ ـ بقايا قرية العصور الوسطى، ۲ ـ قناة الماء، ۳ ـ البوابة الرئيسية وأول سور عرضي بيزنطي، ٤ ـ مستودع ضخم شيد فوقها فيما بعد، ٥ و ٦ ـ بقايا السور العرضي البيزنطي الثاني، ۷ ـ خزان ماء، ۸ و ۹ ـ حمامات ومسجد، يعود تاريخ الحمام إلى العهد العربي، ۱۰ و ۱۱ ـ السوران العرضيان البيزنطيان الثاني والثالث، ۱۲ ـ القليعة البيزنطية الداخلية، ۱۳ ـ كنيسة فرنجية صغيرة، ١٤ ـ السور العرضي الجنوبي الغربي والقناة، ١٥ ـ بوابات القلعة السفلية، ١٦ ـ كنيسة، ١٧ ـ الفناء السفلي فوق السور.



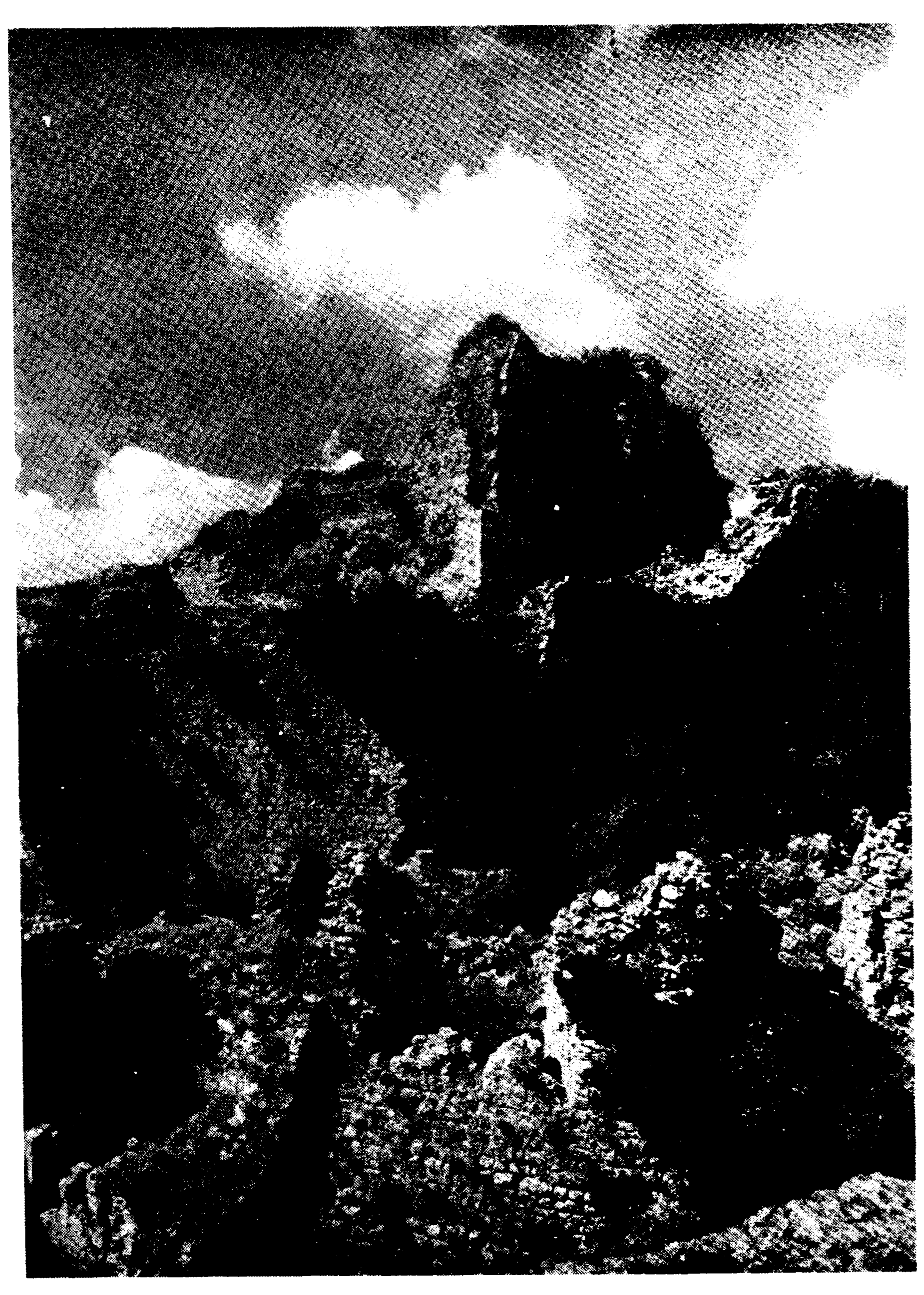
قلعة صهيون (صلاح الدين)



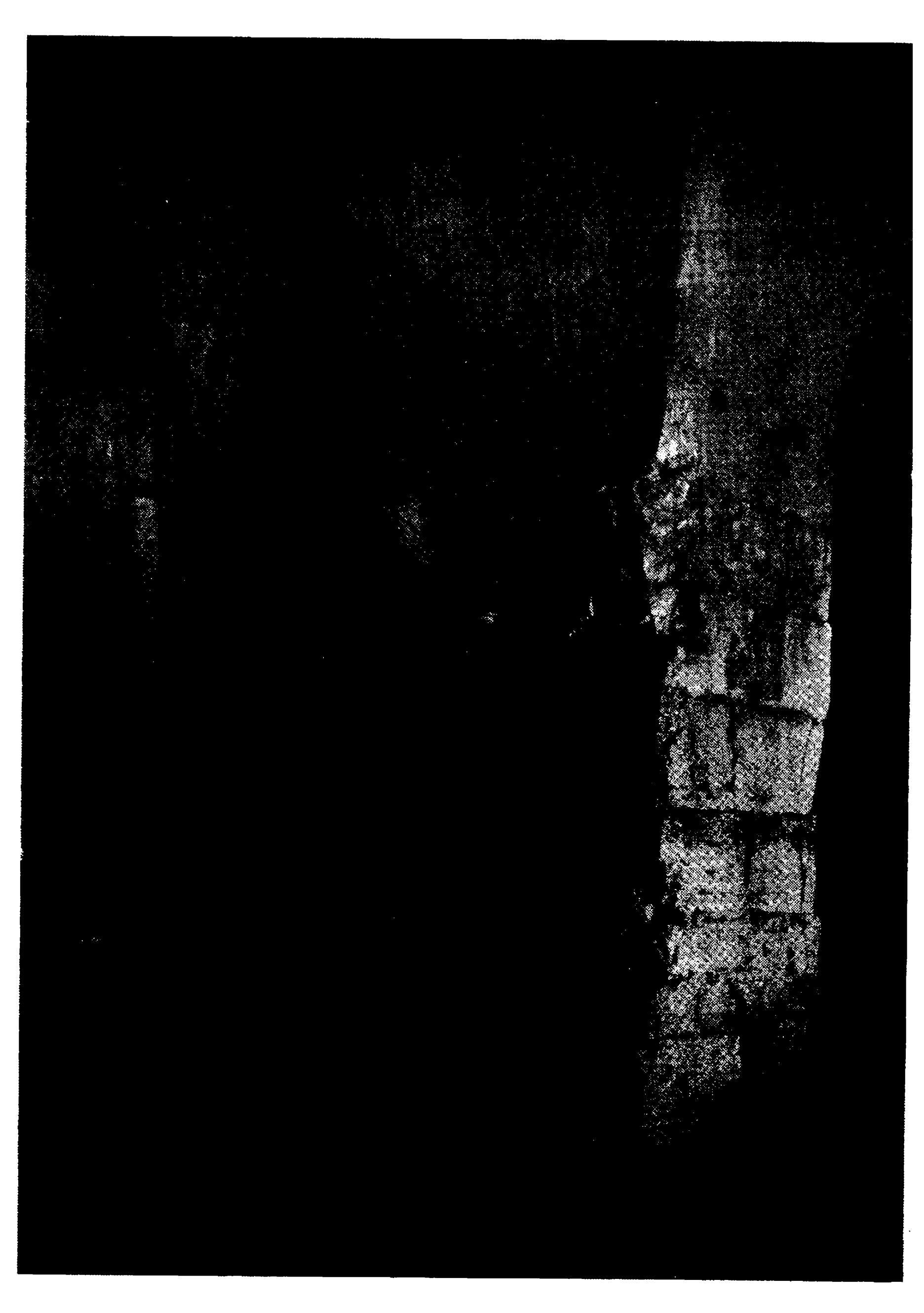
قلعة صلاح الدين (صهيون)



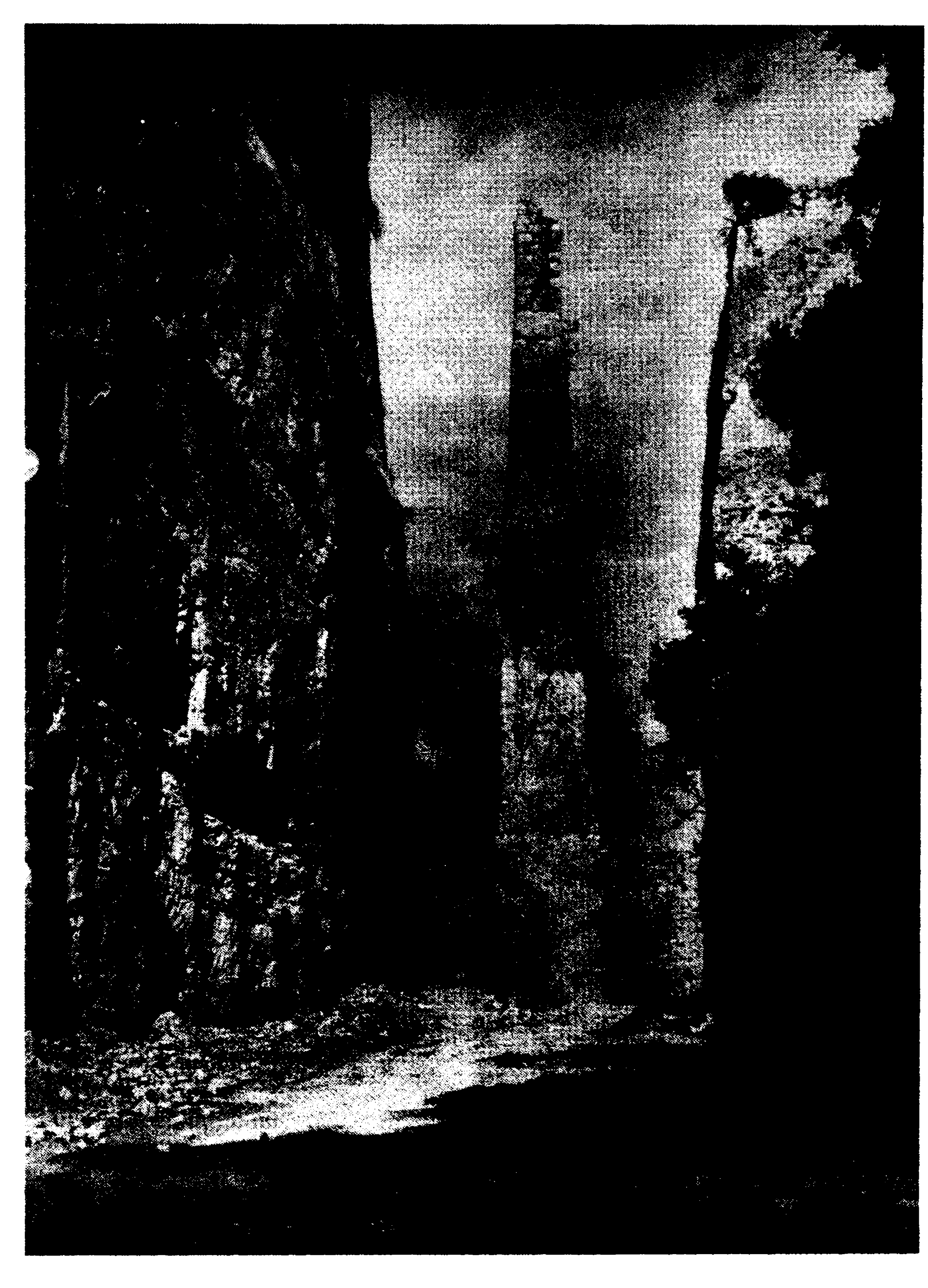
قلعة صلاح الدين (صهيون)



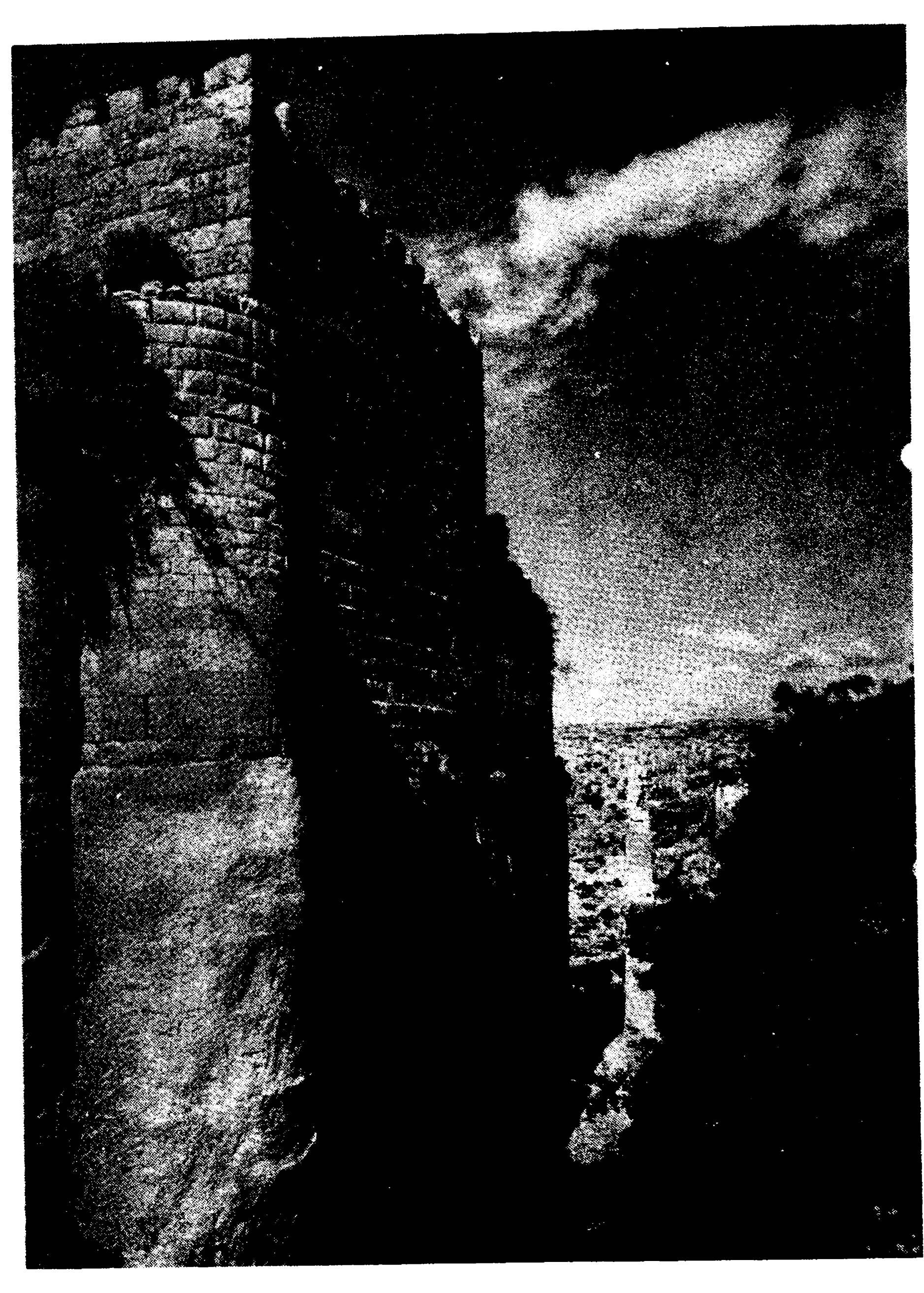
قلعة صهيون (صلاح الدين)



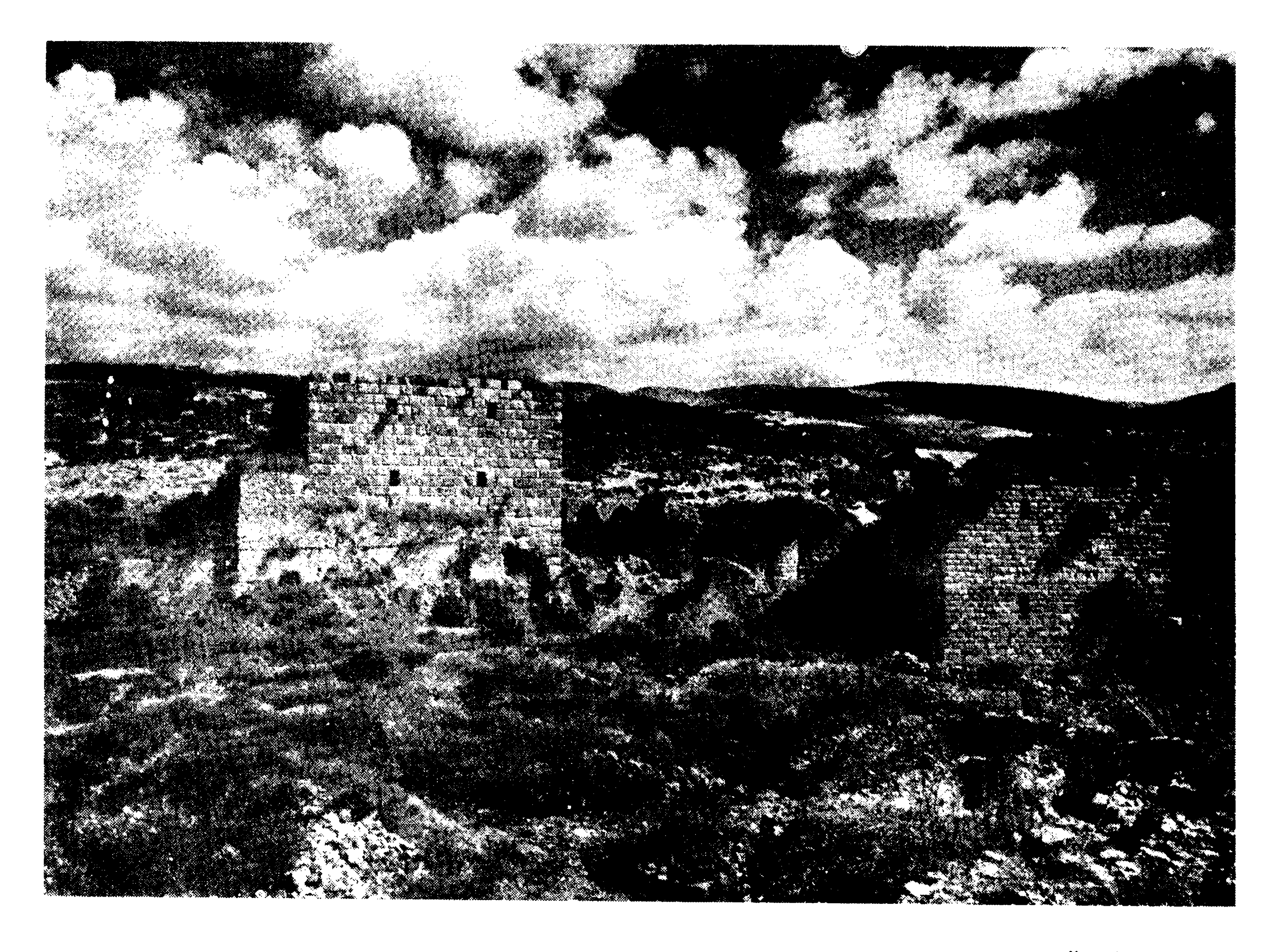
قلعة صهيون (صلاح الدين)



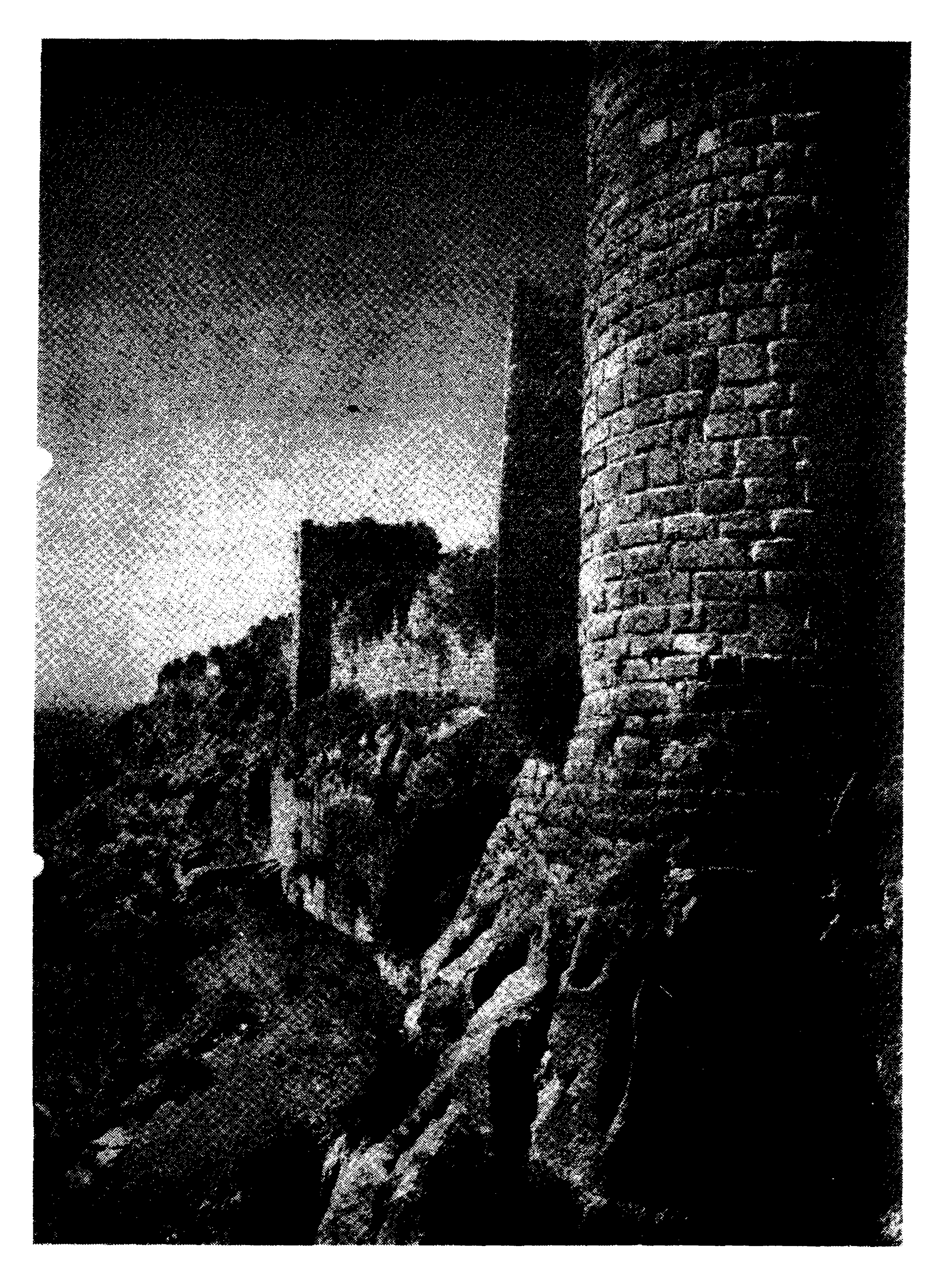
قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صلاح الدين (صهيون)



قلعة صهيون (صلاح الدين)

ما بين خانقين عميقين في جبال النصيرية، على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً شمال شرق مرفأ اللاذقية البحري، وعلى استقامة واحدة، وتغطي التحصينات نحواً من ١٢,٥ فدان، ويفصلها عن باقي الهضبة من الشمال قناة منحوتة في الصخر يقارب طولها ١٦٠ ياردة، ولها من العرض في حدود ستين قدماً، وعمقها ٩٠ قدماً تقريباً. والقلعة التي تمتد على طول الجرف في سلسلة مصاطب منفصلة، تتتابع من الشمال الشرقي وحتى الجنوب الغربي بطول يزيد على ٧٦٠ ياردة وعرض يتراوح بين ٥٥ و ١٦٠ ياردة، وتحف بها السفوح الصخرية شديدة الانحدار حتى واديي النهرين الواقعين تحتها.

لقد كانت هذه القلعة أيام الروم البيزنطيين واحدة من الليمات (ومفردها ليم) والتي تنتظم في خط متناسق مع بقية القلاع على امتداد جبال الشام وحتى مصر وأفريقية. ولما كانت هذه القلاع مخصصة لاقامة الحاميات، وللدفاع ضد هجمات الفرس وضد اغارات العرب المباغتة، فقد جهزت بمتطلبات الحياة الضرورية، وحصنت على الطريق البيزنطية، حيث السور المضاعف المقام على مسافة جانبية قصيرة، مع بعض الأبراج النصف الدائرية، الى جانب قلعة صغيرة في الداخل. وقد دخلت القلعة في طاعة العرب المسلمين (سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م) فعملوا على تحصينها لمجابهة الأعمال العدوانية المحتملة للروم البيزنطيين. ويحتمل ألا يكون العرب المسلمون قد جهزوا القلعة بأكثر مما تحتاجه الحياة في القلعة، مع صيانة الأسوار ودعمها عند الضرورة، حيث لا تتوافر هناك شواهد تاريخية تشير الى اهتمام العرب المسلمين اهتماماً خاصاً ببناء الحصون والقلاع الداخلية التي لم تكن معرضة بصورة مباشرة للهجمات وللأعمال العدوانية. ولقد تعرضت قلعة صهيون لهجوم الامبراطور البيزنطي جان الأول (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م). ولعلها المرة الوحيدة التي جابهت فيها هذه القلعة مثل هذا العدوان. ولكن وعندما جاء الفرنج الصليبيون واحتلوها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) عملوا على دعم الواجهة الشمالية الشرقية المرتكزة على الهضبة.

وقد أقام الفرنج الصليبيون برجاً محصناً ضخماً وأسواراً ملاصقة له إلى جانب القناة التي يصعب تخطيها أو تجاوزها، وقد عززت هذه الأسوار بحصون بارزة نصف دائرية. ونظراً لأن الواجهة الشمالية الطويلة محمية بصورة طبيعية بواسطة الجروف

الصخرية ومنحدراتها الحادة. فقد ركز الفرنج الصليبيون اهتمامهم لحماية الواجهة الجنوبية الضعيفة نسبياً، فعملوا على بناء سور قوي مجهز بأبراج مستطيلة سميكة الجدران. وكذلك فقد تم قطع الفناء العلوي للسور الشديد التحصين عن الفناء الأدنى فيه، الأكثر تعرجاً، بجدار عرضي يستغل وهدة طبيعية عميقة استغلالاً ماهراً. وأمنت المواصلات بين الفناءين العلوي والسفلي عن طـريـق ممريـن جـانبيين، أحـدهما كبير والآخر صغير. وللقلعة السفلية بوابتان خاصتان بها، واحدة على كل جانب. أما الأسوار المحيطية للفناء السفلي، والتي تمتد بعيداً بالاتجاه الجنوبي - الغربي وترتبط بشدة بالأرض الصخرية، فقد دعمت بحصون بارزة صغيرة في عدة نقاط منها فقط، ولا زالت الجدران العرضية قائمة في معظمها حتى الآن، لتشير نحو دور البيزنطيين ومن تبعهم من الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن معظم ما بقي من الآثار يعود إلى أيام العرب المسلمين الذين كان حكمهم طويلاً ومستمراً. ويظهر ذلك واضحاً في بناء المسجد والحمامات وسوى ذلك من المرافق، المرتبطة بحياة المسلمين. ويظهر أن حجم القلعة لم يكن على قدر كاف من الاتساع لاستيعاب الجند الإسلامي المدافع عن القلعة، وكذلك العاملين في المنطقة المحيطة بالقلعة من رعاة ومزارعـين وصنّاع وسواهم، فتم بناء قرية صغيرة خارج القلعة مباشرة، لا زالت بقاياها رابضة فوق الجرف الطويل القائم على الأرض المرتفعة الواقعة إلى الشمال الشرقي من القلعة.

ذلك هو بعض ما يتضمنه حديث الأطلال والآثار، ولقد حفظت أوابد التاريخ العربي - الإسلامي ما عجزت عن حفظه الأطلال والآثار من القصص والأحاديث. فقد عاشت القلعة قصة ذلك الصراع المرير الذي عرفته الثغور طوال قرون متتالية، وشهدت قوات الروم البيزنطيين من جهة وقوات العرب المسلمين من الجهة المقابلة، وهي تجتاح الأقاليم لتدمر وتحرق في عمليات انتقام متبادلة. ولقد أبرزت هذه العمليات أسماء عدد كبير من القادة، لعل من أكثرها شهرة من جانب الروم (الدمستق نقفور)[1] والحمدانيون وفي طليعتهم سيف الدولة من جانب العرب المسلمين. ففي سنة

---

(١) نقفور: (NICEPHORE) هو اسم عدد من أباطرة الروم، أبرزهم هنا نقفور الثاني الذي ولد سنة ٩١٢م وأصبح امبراطوراً من سنة ٩٦٣ حتى سنة ٩٦٩م. وجاء بعده جان الأول تزيميسكيس: =

٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. حشد الروم جيشاً من مائتي ألف مقاتل، منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. وقاد الدمستق هذا الجيش، فاستولى على أربعة وخمسين حصناً للمسلمين - كما هاجم حلب واستباحها -. وأعاد سيف الدولة في السنة التالية بناء بعض الحصون، وسير جيشاً من طرسوس إلى بلاد الروم، فغنموا وقتلوا وسبوا، وأوغلوا في تقدمهم حتى وصلوا قونية. ولقد استمر النصر نوباً بين الروم والمسلمين[1]. حتى إذا ما كانت سنة ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م. أنفذ الروم جيشاً كبيراً الى حلب، فملكوا المدينة، وملكوا أيضاً حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرايا. لكن الروم لم يستقروا، فقد أجمع المسلمون أمرهم وأفادوا من تمزق الروم، فأعادوا فتح الحصون والقلاع التي ملكها الروم. ولقد استنزفت هذه الحروب قدرة الروم بقدر ما استنزفت قدرة المسلمين. ولهذا شهدت المواقع على الحدود نوعاً من الهدوء - إلا من بعض العمليات الصغرى وفي فترات متباعدة -. غير أنه حدث في سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. أن قام الروم بهجوم كبير بقيادة أمبراطورهم (باسيل) ووصلوا الى حمص، كما اجتاحوا شيزر ونهبوها ثم عادوا إلى بلادهم.

يظهر العرض الوجيز السابق أن القلاع - بما فيها القلعة التي حملت بعدئذ اسم صلاح الدين - لم تكن ذات أهمية كبرى عند وقوع هجوم كبير وشامل. فقد نجح الروم مرات متتالية في الوصول الى وسط بلاد الشام (حمص). واجتاحوا كافة القلاع والحصون ونهبوها ودمروها. وكذلك فعل الفرنج الذين اجتاحوا عدداً كبيراً من هذه

= (JOHN-TZIMISKES) الذي كان دمستقاً - والدمستق عند الروم هو الذي كان يحكم بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية - وتذكر المصادر العربية أن نقفور هذا لم يكن ملكاً للروم. أو من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقاً، وهو من ولد رجل مسلم من أهل طرطوس يعرف بكنية (ابن الفقاس) تنصر وكان شديداً على المسلمين. فلما عظم أمره قتل ملك الروم وتزوج امرأته (الامبراطورة تيوفانو) ولكن الامبراطورة لم تلبث أن اتفقت مع الدمستق جان الأول المعروف باسم (ابن الشمشقيق) فقتلت نقفور سنة ٩٦٩ م. وتزوجت جان الأول الذي بقي امبراطوراً حتى سنة ٩٧٥ م. (الكامل في التاريخ: أحداث سنة ٣٥٦ هـ و ٣٥٩ هـ).

(١) لمطالعة تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ - أحداث السنوات من ٣٥١ حتى ٣٦٠.

المواقع، وجعلوا منها قواعد للهجوم على الأقاليم الإسلامية المجاورة في اطار سياسة استراتيجية استعمارية توسعية ـ بحسب مصطلحات لغة العصر ـ. وكان من الصعب على المسلمين مجابهة هذه الأعمال، أو تنظيم دفاع ناجح، إلا في اطار سياسية استراتيجية هجومية ـ دفاعية شاملة. وليس التوقف عند حدود الدفاع عن قلعة، أو التمسك بحصن. وكان لا بد لهذه التحولات من أن تأخذ أبعادها عبر التفاعلات التي يفرزها الحوار بين الارادات المتصارعة فبقيت قلعة صهيون نتيجة لذلك تحت حكم الفرنج طوال ثمانين عاماً من عمر الزمن.

تعرضت بلاد الشام خلال تلك الفترة لهزات أرضية عنيفة، كان من أبرزها زلزال سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م. وزلزال سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م. فتهدمت أسوار القلاع وتحصيناتها. وهذا هو ما يفسر بالدرجة الأولى وجود تلك البصمات التي تركها الفرنج على قلاع بلاد الشام وحصونها. وصحيح أن الفرنج قد أجروا بعض التعديلات بمجرد احتلالهم للقلاع، مثل تحويل المساجد إلى كنس، وتخصيص أماكن للعبادة، غير أن إعادة تحصين الأسوار قد جاءت بصورة اضطرارية. فقد كانت الزلازل من القوة ما حمل الفرنج على هجر القلاع، والفرار عنها من شدة الذعر. مما أرغم الفرنج على إعادة بناء القلاع ودعم ابراجها وتحصيناتها، واصلاح ما دمرته الهزات الأرضية. ولم يكن الفرنج يخافون وهم يعيدون تشييد ما تهدم من القلاع والتحصينات قيام المسلمين بهجمات مباغتة وكبيرة. فقد كان المسلمون بدورهم يعملون على إعادة تحصين قلاعهم ودعم اسوارها واصلاح ما تهدم منها. فكان الخوف المتبادل عاملاً في الامتناع عن ممارسة الهجوم ضد الدفاع.

لقد خسر الفرنج الصليبيون قلاع بلاد الشام وحصونها بمثل ما اكتسبوها، ولكن بنهج مضاد. ففي أعقاب انتصار المسلمين في حطين (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) تم إعادة فتح القدس. وبدأت قلاع الجنوب وحصونه في العودة الى أهلها المسلمين، حيث أعيد فتح عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة ويافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها من بلاد الرملة ودامور وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون. وكل ما كان لطائفة فرسان الداوية من قلاع في فلسطين، مثل

صفد وكوكب والكرك. حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) سار صلاح الدين الأيوبي بجيشه شمالاً. فأغار على حصون صافيتا والعريمة ويحمور وفتح جبلة واللاذقية. ثم رحل عنها وقصد قلعة صهيون، فنزل على الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المنجنيقات ورماها، وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادي، ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه، وكان معه من رجال حلب خلق كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة. ودام رشق السهام من قسي اليد والجرخ والزنبوك والزيار. فجرح أكثر من بالحصن، وهم يظهرون التجلد والامتناع. وزحف إليهم المسلمون ـ ثاني جمادى الآخرة ـ فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها. وتسلقوا منها بين الصخور حتى وصلوا إلى السور الأول، فملكوا منها ثلاثة، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك. واحتمى الفرنج بالقلعة فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان. فلم يجبهم صلاح الدين إليه، فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة أهل القدس. وتسلم صلاح الدين الحصن وسلمه إلى أمير يقال له (ناصر الدين منكورس ـ صاحب قلعة أبي قبيس)[1] فدعمه وحصنه وجعله من أقوى القلاع. ولما ملك المسلمون صهيون. تفرقوا في تلك النواحي، فملكوا حصن بلاطنوس. وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً. وملك المسلمون أيضاً حصن العيد وحصن الجماهرتين. فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية. إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة، بكسر جبل شاق شديد، لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة، حيث كان بعضها بيد الباطنية ـ الاسماعيلية ـ وبعضها بيد الفرنج. ثم فتح المسلمون حصن بكاس والشغر

---

(١) حكم ورثة ناصر الدين منكورس القلعة حتى ربيع الأول سنة ٦٧١ هـ = ١٢٧٢ م وقد ذكر ذلك ابن كثير ـ البداية النهاية ـ حوادث سنة ٦٧١ هـ ـ بقوله: « توفي في هذه السنة الأمير سيف الدين محمد ابن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون. ودفن في تربة والده. وكان له في حكم صهيون وبرزية إحدى عشرة سنة وتسلمها بعده ولده سابق الدين. وأرسل الى الملك الظاهر ـ بيبرس ـ يستأذنه في الحضور فأذن له. فلما حضر أقطعه خبزاً. وبعث الى البلدين نواباً من جهته » وانظر الكامل في التاريخ ـ حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

وسرمنية وبرزية ودرب ساك وبغراس. ولم يبق في قبضة الفرنج إلا أنطاكية التي أسرع أميرها بيمند - الكونت بوهمند - الى عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها ثمانية أشهر.

عادت قلعة (صهيون) إلى أهلها، وأطلق عليها اسم فاتحها - صلاح الدين -. وجاء بعد ذلك السلطان قلاوون، فشيد مسجداً داخل القلعة. ولم تعرف القلعة بعد ذلك حدثاً مثيراً - باستثناء ما تعرضت له من قصف سنة ١٨٤٠ عندما جاء ابراهيم باشا فاصطدم مع الحامية التركية التي كانت مقيمة في القلعة.

لقد انهارت مقاومات الفرنج في قلعة صهيون، كما انهارت في القلاع الكثيرة التي أعاد المسلمون الظافرون فتحها. فقد كانت هذه القلاع على قوتها ومنعتها ضعيفة في عزلتها عن امكانات الدعم الخارجي. ولقد نجح المسلمون في تدمير الجيوش في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة حطين - فبات من المحال على حاميات القلاع أن تصمد في وجه الهجمات الشاملة والقوية. وكان ذلك هو عكس ما حدث عندما جاء الفرنج الصليبيون في حملتهم الأولى. فقد تمكنوا من تدمير جيوش المسلمين في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة أنطاكية - مما أرغم حاميات القلاع على الاستسلام. وكانت التجربة بكاملها برهاناً ثابتاً على علاقة الهجوم بالدفاع.

١١ - قلعة طرابلس

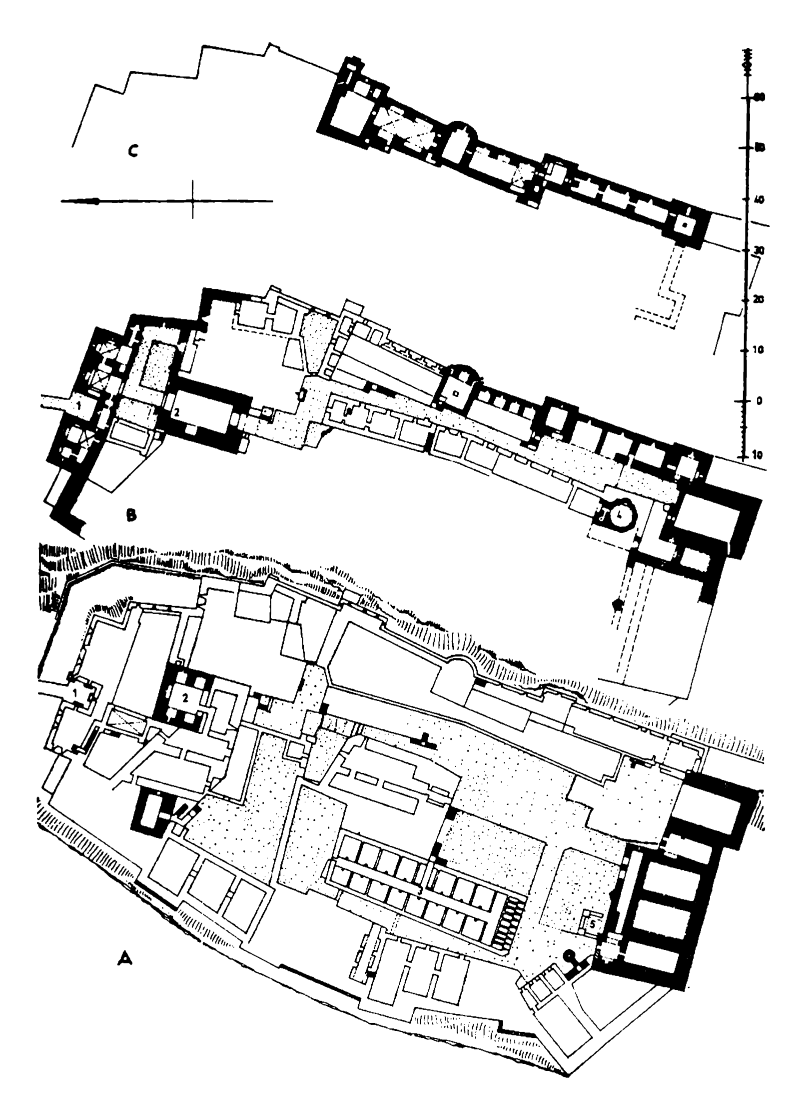
مدينة أطرابلس هي من مدن العالم القديم، وصفها المؤرخ أبو الفداء بقوله: « مدينة أطرابلس[١] هي مدينة رومية، على طرف داخل البحر، فتحها المسلمون - سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م. وخربوها في سنة ثمان وثمانين وستمائة وعمروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها[٢] ولها بساتين وأشجار كثيرة، ويزرع بها قصب السكر ولها نهر - قال المتنبي: وقصرت كل مصر عن طرابلس. وفي العزيزي: وبين طرابلس وبعلبك أربعة وخمسون ميلاً. وبين طرابلس ودمشق تسعون ميلاً. ومنها إلى أنطرطوس ثلاثون ميلاً »[٣] وقد أصبح اسم (طرابلس) بحذف الألف من أوله - هو الشائع - وهي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام. وبقيت مرفأ هاماً لدمشق طوال عهود عديدة. ويوجد الميناء الآن في موقع المستوطنة القديمة ومستوطنة العصور الوسطى. وهو عبارة عن شبه جزيرة صغيرة مع مرفأ محمي جيداً بريف صخري. أما الحي السكني الحديث والواقع على السفوح الجبلية، أعلى من الميناء، فهو يتجمع حول القلعة العائدة للعصور الوسطى. ويخترقه نهر قاديشا - أو نهر أبو علي كما يسمى أيضاً -. وقد شيد هذا

---

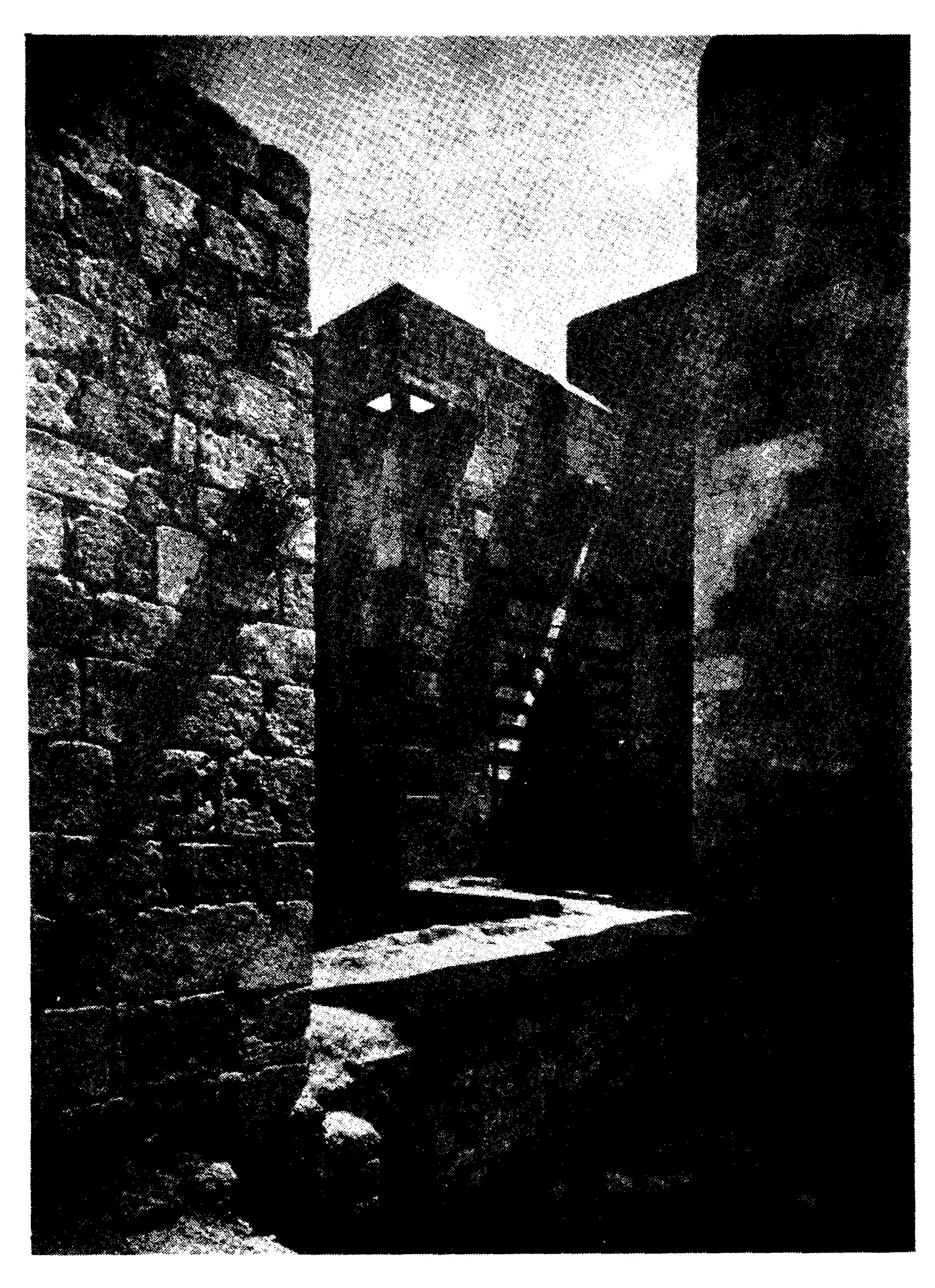
(١) مدينة أطرابلس - أو طرابلس - TRABLUS) وباليونانية: 'TRIPOLIS و (TRIPOLE) بالفرنجية. أما القلعة فقد أطلق عليها الفرنج اسم (قلعة صنجيل) نسبة الى ريموند كونت تولوز سانت جيل (RAYMOND IV ST. GILLES) الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى - ومات أثناء حصار طرابلس سنة ١١٠٥ م وتذكره المصادر العربية باسم (صنجيل). وتذكر المصادر العربية أيضاً القلعة باسم (مرتفع الحجيج) (MONT PELERIN). أو مونت بيليرينوس (MONT PELLERINUS) - أو مونت بيريغرينوس (MONT PEREGRINUS).

(٢) لم يكن هذا التدمير الذي وقع سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م هو أول تدمير للمدينة بهدف إعادة بنائها في مكان أكثر منعة. فقد سبق للعرب المسلمين أن دمروها سنة ٦٩ هـ = ٦٨٨ م وأعادوا بناءها نحو الداخل - كما فعل السلطان قلاوون بعد ذلك.

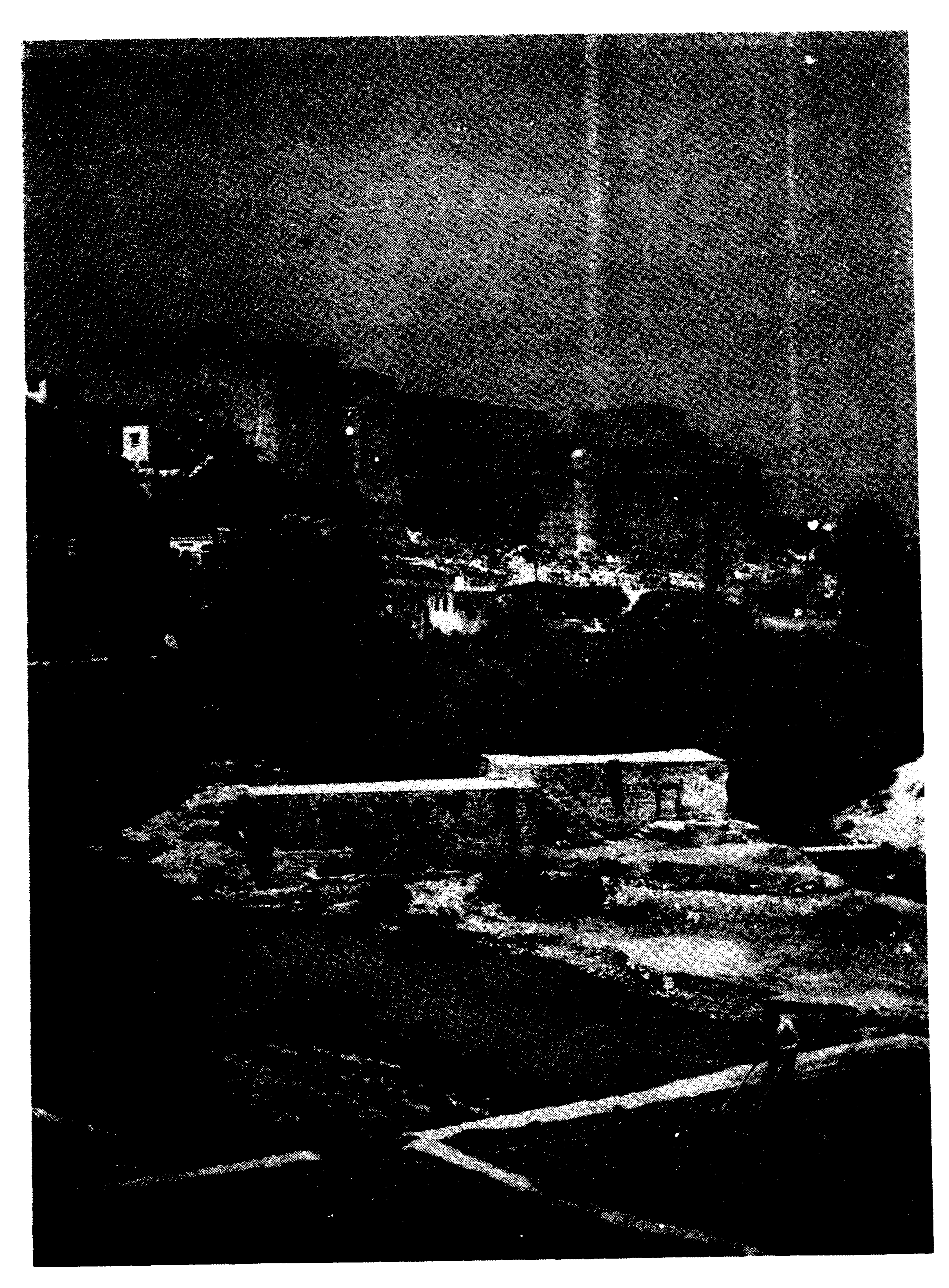
(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٤٧ - ٤٨.



١ ـ طرابلس ـ قلعة صنجيل Tripoli-Mons Peregrinus . المخطط الأرضي للقلعة، المقياس ١/١٠٠٠، أ ـ مخطط المستوى الأرضي الحالي، ب ـ مخطط المستوى تحت الأرضي، جـ ـ مخطط المستوى تحت الأرضي الثاني. رسم ما أنشأه الفرنجة باللون الأسود، ورسمت الإضافات العربية الأولى والتعديلات بالتهشير المتقاطع، والإضافات العربية المتأخرة بالتهشير العادي، والإضافات التركية غير مهشرة. ١ ـ حصن البوابة. ٢ ـ برج محصن. ٣ ـ كتلة الإسطبلات. ٤ ـ كنيسة فرنجية (كشفت مجدداً). ٥ ـ مدافن إسلامية (أقيمت فوق أخرى مسحت).



قلعة طرابلس



قلعة طرابلس

الحي بعد أن أعاد المسلمون فتح المدينة وطردوا الفرنج منها. ولم تكن المدينة قوية التحصين، ولكنها كانت تعتمد في دفاعها على حماية القلعة لها. وهي تنتصب فوق جرف صخري قائم فوقها. ولم يبق من القلعة سوى قليلاً من الآثار التي تعود إلى أيام الحروب الصليبية القديمة. وقد تم تجديد القسم الأكبر منها بعد إعادة الفتح الإسلامي، وكذلك في أيام الحكم التركي العثماني.

تناوبت على حكم طرابلس منذ الفتح العربي ـ الإسلامي سلالات وعائلات عربية كثيرة لعل من أكثرها شهرة عائلة (بنو عمار) التي حكمت طرابلس منذ سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م. وعندما اجتاحت ريح الحكم الفاطمي ساحل بلاد الشام، سيطرت على طرابلس سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وعندما جاء الفرنج الصليبيون، فاستولوا على انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. ثم أقاموا مملكتهم في القدس في السنة التالية. وجدوا أنه لا بد لهم من الاستيلاء على طرابلس لتأمين الاتصال بين اماراتهم في الشمال واماراتهم ومملكتهم في الجنوب. وهكذا توجه ريموند كونت تولوز سانت جيل بجيشه وألقى الحصار على طرابلس سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م. وقد ذكرت المصادر العربية قصة هذا الحصار ـ ودور بنو عمار ـ بما يلي: «أرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص، وإلى الملك دقاق بن تتش. يستنصر بهما على صنجيل الفرنجي. فخرج الأمير ياخز بنفسه، وسير دقاق ألفي مقاتل. وأتتهم الامداد من طرابلس، فاجتمعوا على باب طرابلس. وصافوا صنجيل هناك، فأخرج صنجيل مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص. وبقي هو في خمسين فأما عسكر حمص فانهم انكسروا عند المشاهدة ـ قبل الصدام ـ وولوا منهزمين. وتبعهم عسكر دمشق. وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المائة الذين قاتلوهم. فلما شاهد ذلك صنجيل حمل في المائتين الباقية، فكسروا أهل طرابلس، وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل. ونازل صنجيل طرابلس وحصرها. وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها. وكذلك أهل السواد. وأكثرهم من النصارى. فقاتل من بها أشد قتال. فقتل من الفرنج ثلثمائة. ثم إنه هادنهم على مال وخيل. فرحل

عنهم إلى مدينة أنطرطوس ـ طرطوس ـ وهي من أعمال طرابلس، فحصرها، وفتحها وقتل من بها من المسلمين».

وفتح صنجيل أيضاً مدينة جبلة وهي من أعمال مدينة طرابلس، ثم عاد فأقام على طرابلس يحصرها، ولما لم يقدر على اقتحامها، فقد شيد بالقرب منها حصناً، وبنى تحته ربضاً، وأقام المراصد وهو ينتظر الفرصة المناسبة. فخرج صاحب طرابلس ـ القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار ـ فأحرق ربضه. ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحمل إلى القدس فدفن بها. «ثم أن ملك الروم ـ البيزنطيين ـ أمر أصحابه باللاذقية وقبرص ليحملوا الميرة والمؤن إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس. فحملوها في البحر. فأخرج إليها فخر الملك ابن عمار اسطولاً، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد. فظفر المسلمون بمركب من مراكب الروم، فأخذوه وأسروا من كان به وعادوا. ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين، فعدمت الأقوات في طرابلس، وخاف أهلها على نفوسهم وأولادهم وحرمهم. فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء. وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد. فأجرى الجرايات على الجند والضعفاء. فلما قلت الأموال عنده، شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد. وأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما. فخرج الرجلان إلى الفرنج، وقالا إن صاحبنا صادرنا، فخرجنا إليكم لنكون معكم. وذكرا أن الميرة تأتي الى طرابلس من عرقة والجبل. فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد. فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين، فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة. وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام. وأكثرها تجملاً وثروة. فباع أهلها من الحلي والأواني الغريبة ما لا حدّ له. حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار. وصار الرطل من التمر يباع بدينار»[1]. وقرر صاحب طرابلس ـ القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار ـ مجابهة هذا الموقف بالتوجه

---

(١) الكامل في التاريخ. (أحداث سنة ٤٩٥ هـ وسنة ٤٩٩ هـ وسنة ٥٠١ هـ) وتاريخ ابن خلدون (٤٠٣/٥ ـ ٤٠٤ و ٤٠٨ ـ ٤٠٩) وتاريخ الحروب الصليبية (٩٩/٢ ـ ١٠٦).

إلى عاصمة المسلمين ـ بغداد ـ لطلب الدعم والمعونة من الخليفة العباسي (المستظهر بالله)[1] ومن السلطان السلجوقي (محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان)[2] وقد أورد المؤرخ ابن الأثير قصة هذه الزيارة بما يلي: «قصد ابن عمار بغداد، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لازاحتهم، والذي حثّه على ذلك، أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس، وضاقت عليه الأقوات وقلت، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، فمن الله عليهم بميرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة، فاشتدت قلوبهم وقووا على حفظ البلد. فاستناب ابن عمه ذا المناقب، وأمره بالمقام بها، ورتّب معه الأجناد براً وبحراً، وأعطاهم جامكية ـ راتب ـ لمدة ستة أشهر سلفاً، وجعل على كل موضع من يقوم بحفظه، وبحيث أن نائبه ابن عمه ـ ذو المناقب ـ لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك».

ما إن غادر صاحب طرابلس مدينته في طريقه إلى بغداد، حتى علم أن ابن عمه الذي استخلفه على الحكم أثناء غيابه ـ ذو المناقب ـ قد اتصل بالفاطميين حكام مصر، وعرض عليهم تسليم مدينته، فكتب صاحب طرابلس ـ القاضي ابن عمار ـ إلى أصحابه وأمرهم بالقاء القبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي، ففعلوا ما أمرهم. وتابع ابن عمار زيارته لبغداد، ثم عاد منها إلى دمشق، وفيها علم بأن جماعة من أهل طرابلس قد راسلوا الأفضل وزير الفاطميين، وأمير جيوشهم بمصر، وطلبوا منه تعيين أمير عليهم ـ والياً ـ فأرسل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب. فلما وصل هذا إلى طرابلس قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه، واستولى على ما وجده من ذخائره وآلاته وغير ذلك، وحمل الجميع في البحر وأرسلهم الى مصر. وهكذا خرجت طرابلس من حكم بني عمار.

---

(١) الخليفة، أمير المؤمنين، المستظهر بالله، ولد سنة ٤٧٠ هـ، بويع بالخلافة سنة ٤٨٧ هـ وتوفي سنة ٥١٢ هـ. وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله. اشتهر بالبر والإحسان، وبويع بالخلافة بعده ابنه المسترشد بالله.

(٢) السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. ولد سنة ٤٧٤ هـ وتولى أمور السلطنة سنة ٤٩٢ هـ. وتوفي سنة ٥١١ هـ خاض في مدة سلطنته حروباً قاسية، كان أصعبها وأكثرها مشقة حربه ضد أخيه بركيارق. وقد استطاع السيطرة على الموقف والانفراد بالسلطة في النهاية. وخلفه ابنه محمود.

توفي ريموند كونت تولوز أمام أبواب طرابلس ـ كما سبق ذكره ـ وأدت وفاته الى ظهور خلاف مستحكم بين وريثيه (وليم جوردان) و(برتراند). ووقف ملك الروم البيزنطيين ـ الكسيوس ـ وأمير انطاكية تانكرد وأمير الرها جوسلين الى جانب وليم جوردان. كما وقف إلى جانب برتراند كل من الجنويين وملك القدس بلدوين. وتحرك الجميع بجيوشهم الى طرابلس لتسوية الخلاف على الارث. فجاء برتراند بجيشه، وجاء بلدوين من الجنوب بجيش ضم خمسمائة فارس وعدد كبير من الرجالة ـ المشاة ـ. كما رافق تانكرد سبعمائة من خيرة الفرسان، بالاضافة إلى قوات الرهـا. واجتمع كل امراء الفرنج وملوكهم خارج أسوار طرابلس في حزيران ـ يونيو ـ ١١٠٩ م. وعقدوا مؤتمراً لهم في قلعة (جبل الحجيج ـ أو جبل الحاج). وتم الاتفاق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز. فتقرر أن يحتفظ وليم جوردان بطرطوس وحصن عرقة، وأن تكون جبيل وطرابلس ـ عند الاستيلاء عليها ـ من نصيب برتراند. ونهض جيش الفرنج الصليبيين بمجموعة للهجوم على طرابلس. وتعرض المسلمون في طرابلس لمعاناة لا توصف، لاسيما بعد أن شدد الفرنج حصارهم براً وبحراً. وقرر (شرف الدولة) تسليم المدينة للفرنج. وأرسل الى ملك القدس ـ بلدوين ـ وعرض عليه شروط التسليم، فطلب الأمان لكل من أراد أن يغادر المدينة من سكانها، بما يحمل من متاع. أما من أراد منهم البقاء، فيعتبر من رعايا الفرنج ويحتفظ بأملاكه على أن يؤدي ضريبة سنوية. وطلب لنفسه الاذن بالرحيل مع عساكره. ووافق بلدوين على هذه الشروط. ودخل الفرنج الى مدينة طرابلس، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة، وبعد أن تبين لهم خلوها من وسائل الدفاع، نكثوا عهدهم، وأخذوا ينهبون الدور ويحرقونها، ويقتلون كل من يصادفهم من المسلمين، وتم في غمرة هذه الفوضى احراق مكتبة بني عمار بكاملها، والتي كانت تعتبر من أروع مكتبات العالم في تلك الحقبة.

احتلت طرابلس وامارتها مكانة مميزة بين إمارات الفرنج، بسبب موقعها باعتبار أنها عقدة الاتصال بين الشمال وبين الجنوب، وبسبب ما توافر لها من موارد الثروة. وأصبحت من قواعد العدوان الثابتة ضد المسلمين. ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م عندما خرج كونت طرابلس ـ بونز ـ للاغارة على

بلاد المسلمين، وبينما كان يجتاز جبال النصيرية ـ العلويين حالياً ـ وقع في كمين نصبه له فرسان التركمان، فهرب الى (قلعة بعرين)[1] الواقعة على حافة وادي نهر العاصي. فما كان من ملك القدس ـ فولك ـ وكان في طريقه لنجدة إمارة أنطاكية، إلا أن توجه الى قلعة بعرين، ورفع الحصار عن كونت طرابلس، وأنقذه من مأزقه.

ومقابل ذلك، كان العرب المسلمون يوجهون هجماتهم ضد قاعدة العدوان في طرابلس، كلما توافرت لهم الفرصة المناسبة، على نحو ما حدث ـ مثلاً ـ سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م عندما انطلق جيش دمشق عبر لبنان الى طرابلس. فهاجم جيش طرابلس وقتل ملكها ـ بونز ـ فما كان من وريثه (ابنه ريموند الثاني والذي تولى الحكم بعده) إلا أن جرَّد حملة انتقامية ضد المسلمين في القرى المجاورة لمدينة طرابلس، فقتل كل رجالها، وسبى النساء والأطفال فباعهم رقيقاً بطرابلس. ثم انضم بجيشه إلى جيش ملك القدس للهجوم على المسلمين، حيث وقعت معركة قاسية وحاسمة قرب قلعة بعرين، انتصر فيها المسلمون وقتلوا كونت طرابلس ـ ريموند الثاني ـ. أما ملك القدس ـ فولك ـ فقد هرب إلى قلعة بعرين، فأسرع جيش الرها وجيش القدس لانقاذ ملك القدس الملك فولك من الحصار الذي ضربه المسلمون على القلعة. ودارت مفاوضات وافق فيها فولك على تسليم القلعة للمسلمين مقابل إطلاق سراحه وسراح الفرنج الذين كانوا معه تحت الحصار.

قد يكون من غير المفيد الاطالة في البحث للاحاطة بمجموعة الأحداث التي عاشتها طرابلس تحت حكم الفرنج، وما تعرضت له من الزلازل الطبيعية ومن الصراعات الداخلية، ومن الحروب الخارجية، والمهم في الأمر هو أن هذه الأحداث جميعها لم تصرف حكام طرابلس المتتابعين عن العمل باستمرار لزيادة قوة تحصينات طرابلس ودعمها. فكان الحي السكني محمياً من جهة البحر بستة أبراج قوية. كما كان الميناء

---

(١) قلعة بعرين ـ هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم (MONTEFERRAND).

ـ رأس طرابلس ـ محمياً بكامله بسور متصالب، تدعمه أبراج وخنادق. ولم تكن كونتية ـ إمارة ـ طرابلس تعتمد على قوة دفاعها الذاتي قدر اعتمادها على القلاع والحصون المجاورة لها ـ والتي كانت بمثابة درع الوقاية مثل جبلة وبانياس وطرطوس. وعندما تحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، وأخذوا في القضاء على وجود الفرنج وتصفية قواعدهم ومرتكزاتهم، عملوا بصورة معاكسة تماماً، ولهذا لم يتعرضوا لمدينة طرابلس مباشرة. وإنما بدؤوا بتجريدها من القلاع والحصون المجاورة لها. ففي سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م. وبينما كان الظاهر بيبرس يعمل على طرد بقايا الفرنج من الجليل في فلسطين. عمل الأمير قلاوون على حشد جيش كبير من المماليك في حمص. وانطلق به في هجوم عاصف على اتجاه طرابلس. ففتح حصني القليعة وحالبة ومدينة عرقة التي كانت تتحكم بالطريق القادم من البقيعة الى طرابلس ثم قاد الظاهر بيبرس بنفسه جيشاً ضخماً من المسلمين ففتح قلعة الشقيف في ١٥ نيسان ـ ابريل ـ ١٢٦٨ م (٦٦٧ هـ). ثم تابع الظاهر بيبرس[٢] تقدمه شمالاً، فوصل طرابلس. ولكنه تجنب الاصطدام بها. وسار حتى وصل انطاكية، ففتحها بعد حصار طويل ومعارك ضارية. وتابع السلطان قلاوون[٣] السير على نهج سلفه الظاهر بيبرس. ففتح حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. وفتح اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ، وجاء دور طرابلس سنة ٦٨٨ هـ. حيث قاد السلطان قلاوون جيش مصر بكامله، ليظهر بصورة مباغتة وغير

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٥٥٢.

(٢) الظاهر بيبرس. هو الملك الظاهر ركن الدين (١٢٢٣ - ١٢٧٧ م) اشتهر بأنه من أقدر سلاطين المماليك البحرية في مصر. خدم في جيش الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وتوران شاه. وبرز اسمه في معركة البحرية ـ المنصورة ـ سنة ١٢٥٨ م. حيث هزم الفرنج هزيمة منكرة، كما برز اسمه في معركة عين جالوت ضد المغول (سنة ١٢٦٠ م) وأمضى بقية حياته مجاهداً في سبيل الله ضد الفرنج في بلاد الشام (١٢٦٥ - ١٢٧٧ م) ففتح كثيراً من البلاد التي كانت تحت حكمهم. ومات ودفن بالظاهرية في دمشق.

(٣) السلطان قلاوون ـ الملك المنصور (١٢٢٣ - ١٢٩٠ م) مؤسس اسرة قلاوون في مصر اشتهر بكفاءته القيادية العليا، وإيمانه واخلاصه وشجاعته. انتصر على المغول. وهزم ملك النوبه. وخلفه في الحكم ابنه (الأشرف خليل).

متوقعة أمام أسوار طرابلس. وأسرع الفرنج لارسال الامدادات والدعم من قبرص وعكا. كما أرسلت الطوائف الدينية (الداوية والاسبتارية) أفضل قواتها. وجاءت سفن للبنادقة وبيزا وجنوة لتقديم الدعم البحري. وعلى الرغم من أنه صار للفرنج السيطرة على البحر، فان ما كان للمسلمين من التفوق في عدد افراد الجيش وفي توافر أدوات الحصار، قد برهن على أنه لا سبيل لمقاومتهم. فلما انهار برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية، وبرج الاسبتارية الواقع بين برج الأسقف والبحر، بعد أن تعرضا للقصف الشديد، قرر البنادقة أنه من المحال المضي في الدفاع. فبادروا الى شحن سفنهم بكل أمتعتهم، ثم أقلعوا إلى خارج الميناء. ولحق بهم الجنويون على عجل، مما أثار الفوضى خلال تدفق المسلمين الى المدينة، حيث تمت إبادة المقاومات فيها. وعندما تم احتلال طرابلس، أمر السلطان قلاوون بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد بقواتهم البحرية. وأصدر الأوامر بوضع أساس مدينة جديدة في سفح تـل الحاج (أو الحجيج) وعلى مسافة أميال إلى الداخل. ومضى جند المسلمين ـ المماليك ـ ففتحوا البترون ونيفين. وبذلك لم يبق في قبضة الفرنج من مدن الساحل إلا عكا وجبيل. ولهذا فقد تسبب فتح المسلمين لطرابلس بصدمة قوية لحامية عكا وللفرنج المقيمين فيها، إذ تبين لهم بوضوح المصير الذي ينتظرهم، وأن مصيرهم وبقاءهم على أرض بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت. وانزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصير، غير أنهم كانوا في حالة عجز تام عن القيام بعمل عسكري جديد. لقد استنزفت الحملات الصليبية المتتالية قدرة الغرب العسكرية، بمثل ما استنزفت قدرة المسلمين، لكن هؤلاء بقوا أكثر تصميماً على الوصول بالحرب الى نهايتها الظافرة، فحطموا أحلام المحرضين على الحروب الصليبية ومستثمريها، وماتت حماستهم للحرب ـ ولو بصورة مؤقتة ـ.

أسند السلطان قلاوون ـ وابنه الأشرف خليل من بعده ـ مهمة اعادة بناء طرابلس الى الأمير العربي ـ سيف الدين أسد مركوجي، المنصوري ـ الذي عمل على بناء طرابلس الجديدة. واستمر في العمل حتى سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وأجمع التجار الذين يجوبون البلاد أنه ما عمر مثلها في بلد من البلدان. وعادت الى طرابلس بهجتها

وطهرها، وعمر قيسارية كما شيد بعض القلعة، وأقام أبراجاً، فازدهرت طرابلس ورجعت قاعدة قوية للاسلام وأهله. وحفظت أطلال المدينة للمجاهدين ذكراهم الطيبة فاذا كان بنو عمار قد بذلوا أكثر مما هو مستطاع. فقد جاء قلاوون لينتقم للسلف من بني عمار، ولمن سار على دربهم من المجاهدين في سبيل الله.

١١ ـ قلعة طرطوس .

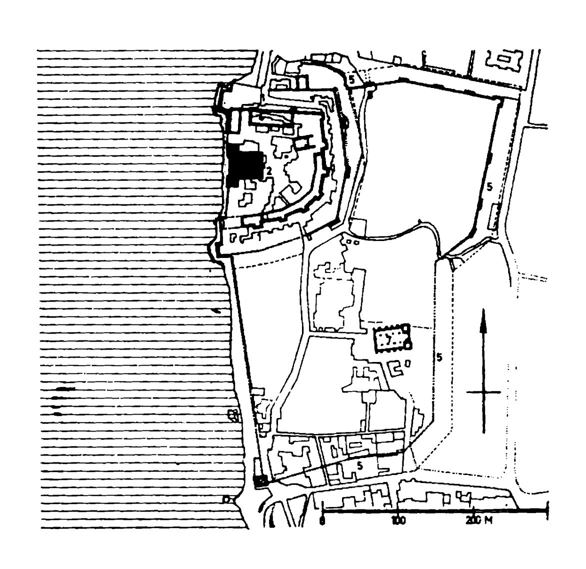
طرطوس[١] (أنطرطوس. قديماً) هي مدينة وميناء بحري ومحطة للقوافل. شغلت موقع مستوطنة كبيرة وقديمة على ساحل بلاد الشام. وكان للمدينة الصغيرة سور يحيط بها، تحرسه أسوار، مع قلعة قوية في الزاوية الشمالية الغربية. وثمة خنادق وأسوار خارجية تحيط بالسور الداخلي مدعمة بأبراج مستطيلة. وتتاخم ـ القاعة الكبيرة ـ القسم الداخلي من جهة الشمال. وتنتشر حول الجوانب الأخرى أحياء سكنية بسيطة مع حوانيت على شكل ممرات متطاولة ذات عقود. وإلى جوار البحر مباشرة ينتصب برج محصن قوي ـ لا تزال موجودة بعض الآثار من أساساته وقواعده. وتوجد في الحي السكني كنيسة (القديسة ماريا ـ كما يسمونها)★ والتي رممت حديثاً، وكانت من قبل كاتدرائية وكنيسة هامة عندما احتل الفرنج الصليبيون مدينة طرطوس وأقاموا فيها. ولا بد من التمييز بين طرطوس هذه، وبين طرطوس الأخرى التي حملت الاسم ذاته وهي تقع في قيليقية والتي بقيت ثغراً من ثغور العرب المسلمين مع المصيصة وأذنة ومرسين (في تركيا حالياً). وكان لها دورها أيضاً في الحروب الصليبية القديمة، مما خلق التشابه لا في الاسم فقط، وإنما في الدور التاريخي أيضاً، وقد وصف أبو الفداء أنطرطوس. بقوله: «أنطرطوس هو حصن على بحر الشام. وهو ثغر لأهل حمص. وكان به مصحف عثمان رضي الله عنه. قال في اللباب: هي بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء وضم الطاء الثانية ثم واو وفي آخرها سين. فتحها العرب المسلمون. وخربوا أسوارها. وهي آهلة»[٢]. والمعروف أن معاوية بن أبي سفيان رضي

---

(١) طرطوس: (TARTUS) وبالفرنجية تورتوزا: (TORTOSA) أو تورتوس: (TORTOUSE) نسبة الى اسمها القديم، انطرطوس ANTARSUS وأنتاردوس: (ANTARDUS).

★ كنيسة القديسة ماريا: (CHURCH OF ST. MARY).

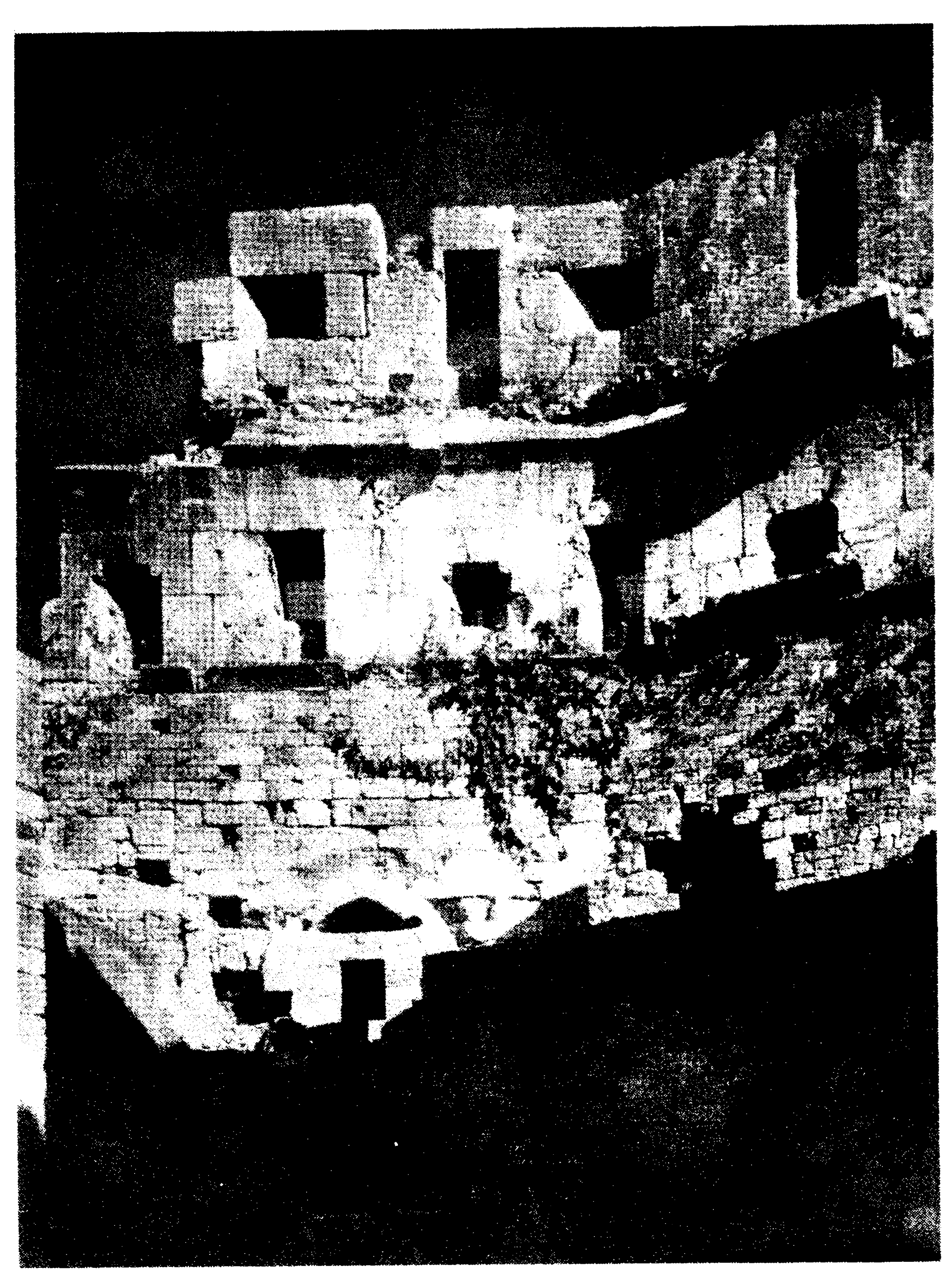
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦١ ـ ٦٢.



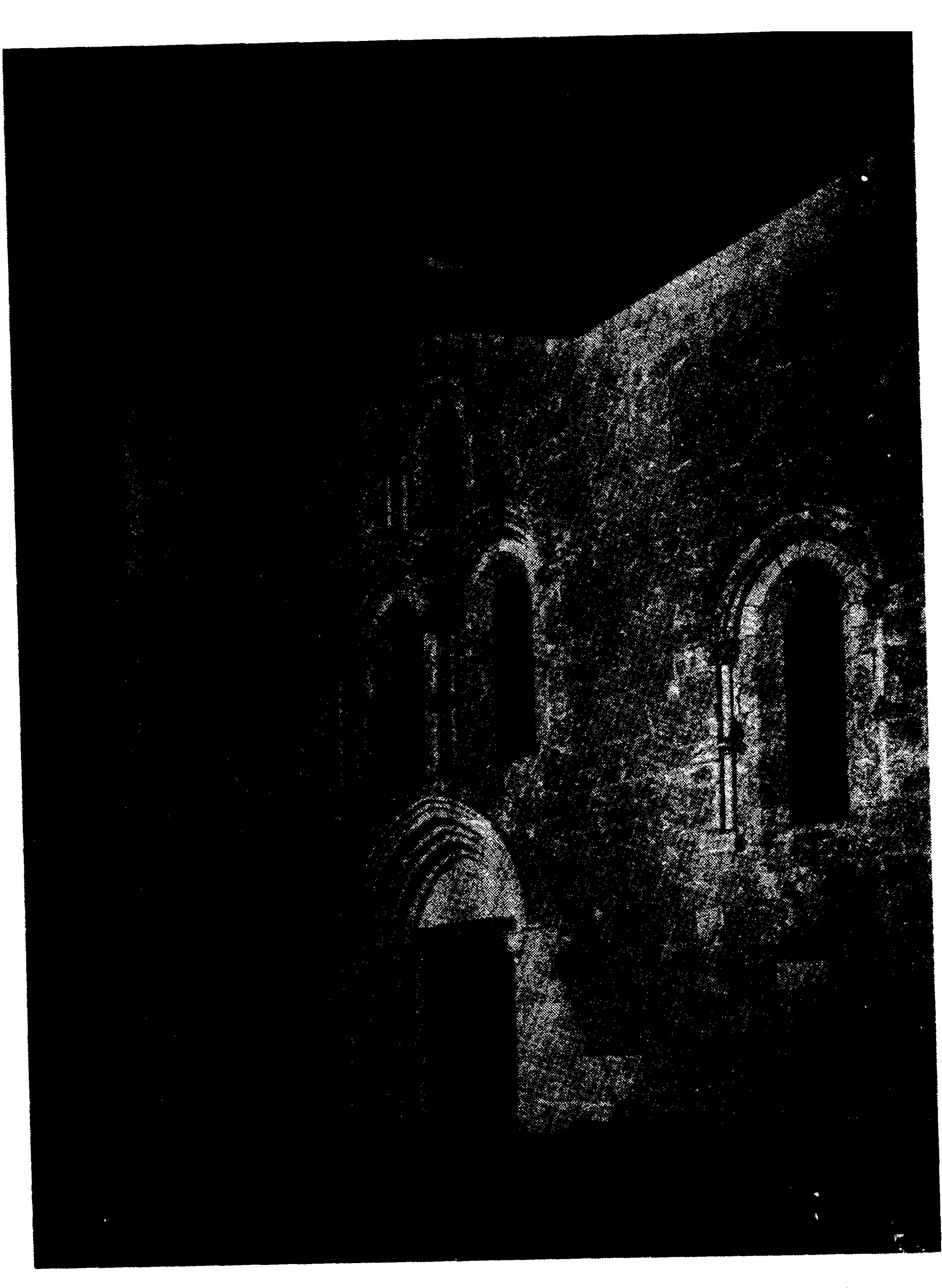
طرطوس Tartus

مخطط المدينة، المقياس ١/١٠٠٠٠ (الخطوط المنقطة تمثل مقاطع السور التي لم تعد موجودة).

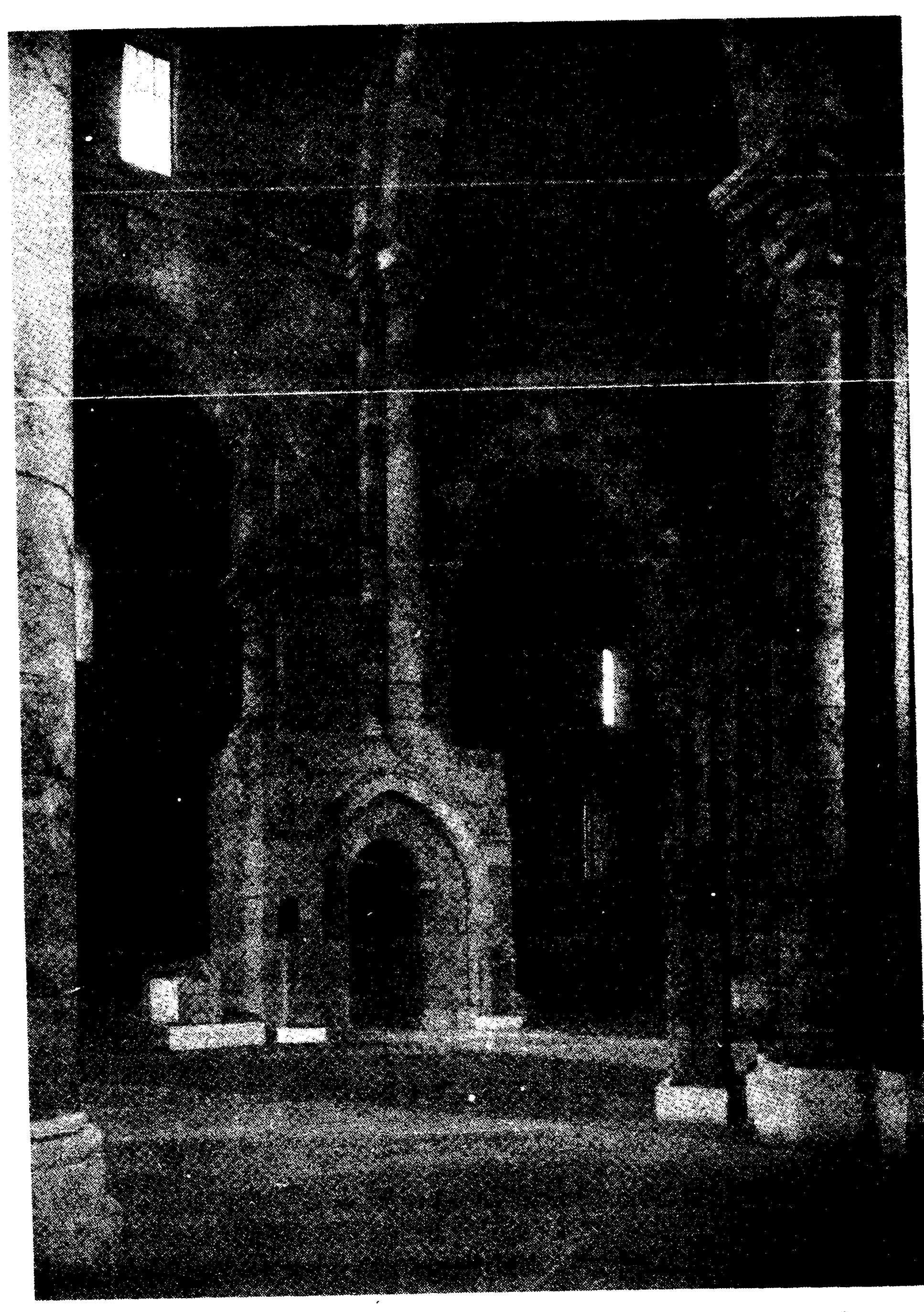
١ - فناء أمامي لقلعة الداوية، ٢ - برج محصن، ٣ - كنيسة متصدعة، ٤ - القاعة الكبرى Chapter house، ٥ - سور المدينة (مخرب جزئياً)، ٦ - بوابة المدينة، ٧ - كاتدرائية القديسة ماريا.



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس

الله عنه قد جعل من طرطوس ثغراً بحرياً، وداراً لبناء السفن، وجلب إليها العمال، فاعتزت وازدهرت، واستمرت في ممارسة دورها في رفع راية الجهاد في سبيل الله. فكان لها شأن كبير أيام حرب الثغور. وتعرضت لحقد الروم، ولكنها صمدت في مواجهة التحديات. حتى إذا ما أقبل القرن الرابع للهجرة، ومزقت الصراعات المذهبية المجتمع الإسلامي شرّ تمزيق. وجدت طرطوس أنه ليس باستطاعتها، هي أو سواها من مدن بلاد الشام، الساحلية منها والداخلية على السواء. عزل نفسها عن ذلك الصراع، والدامي أحياناً، بين دار الخلافة ببغداد، حيث الطاعة والجماعة والامامة لأهل السنة، وبين الفاطمية في القاهرة حيث التشيع وما تفرع عنه من المذاهب الباطنية (الاسماعيلية والدرزية).

وكان من طبيعة الأمور أن يرافق هذا الصراع ظهور حركات التمرد وأعمال الانشقاق والعصيان في إطار الولاء لهذا المعسكر أو ذاك مع وجود التحريض والتحريض المضاد، والذي يغذي النزعات الاستقلالية لامراء المدن وجيوشها كلما حانت الفرصة المناسبة. وقد عرفت طرطوس مثل هذه الأعمال عندما فرض عليها الفاطميون حكمهم، فأعلنت ثورتها المرة بعد المرة، مما حمل حاكم مصر الفاطمي - المستعلي بأمر الله - على ارسال اسطوله وجيشه سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م وسنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. من أجل اخضاع طرطوس الثائرة. وقد يكون من الصعب تقدير مدى الضعف الذي نزل بجيوش المدن وأهلها نتيجة لهذا الصراع الطائفي - المذهبي - على أن الأمر الثابت هو أن الغزاة من الفرنج الصليبيين قد استثمروا هذا الواقع، وأفادوا منه حتى أبعد الحدود. مما ساعدهم على احتلال انطاكية ومعرة النعمان (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم القدس وقيسارية (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) وأصبحت للفرنج السيطرة على فلسطين كلها - باستثناء عسقلان - مع اللاذقية. وبقيت طرطوس - مع طرابلس - صامدة في وجه غزو الفرنج. وقد تساقطت من حولها المدن الساحلية والداخلية، مع ما يتبعها من حصون وقلاع، وما يحيط بها من سهول وجبال.

كان (ريموند كونت تولوز) هو أغنى أمراء الحملة الصليبية الأولى. فلما استقر في

أنطاكية شرع في التفكير بإقامة إمارة تتحكم في الطريق الساحلي وطريق نهر العاصي. على أن تكون مدينة حمص هي عاصمة هذه الإمارة. وجعل هدفه الأول الاستيلاء على بقية المدن الساحلية، بالافادة من دعم أسطول جنوه الذي كان قد وصل إلى سواحل بلاد الشام. وتحرك ريموند من أنطاكية، حتى إذا ما وصل إلى مدينة اللاذقية، انضمت إليه القوات، فسار بها إلى طرطوس. ولما بلغ أسوار المدينة، كان اسطول جنوه قد وقف في عرض البحر تجاه الساحل. ووجد حاكم طرطوس أنه لا قبل له بمواجهة هذا الحصار البري والبحري. غير أنه بذل من المقاومة قدر استطاعته. ونجح الفرنج في اقتحام المدينة (في منتصف شهر شباط - فبراير - سنة ١١٠٢ م) وقتلوا على جري عادتهم كل من كان بها من المسلمين. وقرر ريموند أن يجعل من طرطوس عاصمة له ولامارته.

وكان سقوط أنطرطوس - طـوس - في قبضة الفرنج هو البداية لانهيار بقية المقاومات في المدن الساحلية، إذ لم تلبث طرابلس وبيروت حتى لحقتا بطرطوس (سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) وتبعتها صيدا وصور في السنتين التاليتين. وأصبحت مدن ساحل بلاد الشام تحت قبضة الفرنج الصليبيين. وكما كانت طرطوس نموذجاً للعناد في القتال، أيام المسلمين، فقد عمل الفرنج، بمجرد استيلائهم عليها، على تحويلها وجعلها قاعدة للعـدوان على بلاد المسلمين. فعمل (ريموند كونت تولوز) على تنظيم قواته في طرطوس، وانطلق بها لمهاجمة طرابلس. وقد أدرك المسلمون خطورة ما أراد تحقيقه ريموند، فسارع أمير حمص وأمير دمشق إلى ارسال بعض قواتها لقتال ريموند، وانضم جيش طرابلس اليها، غير أن الانتصار الذي أحرزه ريموند وما نتج عن ذلك من مغانم مادية. قد ضمن لريموند القدرة على متابعة تنفيذ مخططه التوسعي. فخرج في ربيع السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) للاستيلاء على قلعتي الطوبان والحصن بهدف عزل طرابلس والوصول الى حمص. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل. فأعاد ريموند محاولته واستولى على جبلة، وعاد لحصار طرابلس وهناك لقي مصرعه (٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أنه حقق للفرنج كسباً كبيراً، إذ أقام لهم إمارة صليبية، وحدد لهم

النهج الذي يسيرون عليه. وجعل من طرطوس ثغراً للفرنج، وقاعدة للعدوان والتوسع على حساب بلاد المسلمين[1].

استأثرت الأعمال العدوانية للفرنج باهتمام قادة المسلمين، الذين حاولوا الرد عليها بشكل مناسب. حتى إذا ما جاء نور الدين زنكي، تولى قيادة جيشه وهاجم طرطوس (سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) وأمكن له فتحها وطرد الفرنج منها. فأسرع ملك الفرنج - بلدوين الثالث - لقيادة جيشه، واستطاع احتلال طرطوس من جديد (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) ومنحها الى فرسان الداوية الذين جعلوا منها مقراً لقيادتهم، وقاعدة لأعمالهم العدوانية. وكان استيلاء نور الدين على طرطوس، ثم تحرك الفرنج بسرعة لاستعادة السيطرة عليها، بمثابة برهان على ما كانت تمثله طرطوس من الأهمية في مشاريع الفرنج ومخططاتهم. ولم يكن تسليمها لطائفة الفرسان الداوية - المتطرفين - إلا تأكيداً على تصميم الفرنج للتمسك بهذه القاعدة بقوة في وسط (ممتلكاتهم) كما كانوا يزعمون.

انصرف الفرسان الداوية لاستثمار موقع المدينة فعملوا على إعادة بناء المرفأ - الميناء - وأقاموا التحصينات الكاملة، ودعموا الدفاع، وتابعوا بناء الكنيسة التي كان الفرنج قد شرعوا باقامتها منذ سنة ١١٢٣ م (وأطلقوا عليها اسم كنيسة القديسة ماريا) وظنت طائفة الفرسان الداوية أنها أصبحت بمأمن من ويلات الحرب وهي متحصنة وراء أسوارها ومواقعها الدفاعية. غير أن المسلمين أفادوا من نتائج موقعة حطين لتطوير أعمالهم الهجومية. وسار صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م. نحو الشمال: «فنزل بأنطرطوس، في السادس من جمادى الأولى، فرأى أن الفرنج قد أخلوا المدينة، واحتموا في برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة ومعقل منيع، فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان، وسلموه بأمنهم. وضرب البرج، وألقى حجارته في البحر. وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه. وكان

(١) الكامل في التاريخ: احداث سنوات: ٤٨٦ و ٤٩٠ و ٤٩٩ و ٥٤٧ و ٥٥٣ و ٥٨٤ وتاريخ الحروب الصليبية: ٩٥/٢ - ١٠١.

معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم حطين. ثم أطلقه ملك القدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن. فخرب صلاح الدين ولاية أنطرطوس. ورحل عنها». وما إن ابتعد صلاح الدين وجيشه حتى أسرع الداوية لترميم حصونهم وإصلاح قلاعهم، وعاودوا أعمالهم العدوانية. وفرضوا هيمنتهم على الريف المحيط بهم. كما فرضوا على طائفة الاسماعيلية ـ الباطنية أو الحشاشين ـ إتاوة ضخمة يؤدونها لهم سنوياً. وضاق الاسماعيلية ذرعاً بهذه الاتاوة، فدفعوا أحد رجالهم لاغتيال الكونت ريموند ـ أكبر أبناء أمير انطاكية بوهمند وذلك سنة ٦١٠ هـ = ١٢١٣ م. فلقي ريموند مصرعه في كاتدرائية طرطوس.

ولما كان الفرنج في أنطاكية وطرابلس قد أدركوا أن بقاءهم في بلاد الشام يرتبط بقدرتهم على التعايش مع المسلمين، فقد أخذوا في إقامة علاقات معهم بموجب هدنة يعقدونها لمدة طويلة (عشر سنوات). إلا أن المتطرفين من الفرنج، وفي طليعتهم طائفة فرسان الداوية، كانوا يثيرون المتاعب في وجه حكامهم ويدفعونهم للابقاء على جذوة العداء متقدة ضد المسلمين ـ على نحو ما حدث مثلاً سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م عندما انطلق فرسان الداوية من طرطوس، ومعهم طائفة فرسان الاسبتارية، فأغاروا على حماه، إلا أن المسلمين نصبوا كميناً للفرنج، وألحقوا بهم هزيمة ساحقة. ثم قام بوهمند الرابع أمير أنطاكية بهجمات على الداوية بطرطوس ـ ما بين حين وآخر ـ لكبح جماح تطرفهم، وحملهم على الالتزام بشروط الهدنة مع المسلمين، فتجددت الهدنة حتى سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م. حيث قام الداوية مجدداً بانتهاك شروط الهدنة عندما انقضوا على قبائل التركمان التي كانت ترتع آمنة إلى الشرق من بحيرة أنطاكية، مما دفع جيش حلب لمهاجمتهم، فتدخل أمير أنطاكية مرة أخرى وتجددت الهدنة. وأدرك الداوية أخيراً أنه لا قبل لهم بالتصدي لغضب المسلمين، ومجابهة هجماتهم، فاستكانوا. وعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بشن هجماته الواسعة لطرد بقايا الفرنج من بلاد الشام، وأعاد فتح صيدا، ووصل في تقدمه الى شمال طرابلس (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م) أسرع الداوية في طرطوس، فأعلنوا خضوعهم، والتمسوا من السلطان أن يبقي لهم بلادهم وتوسلوا إليه، فتركهم إلى حين، ومضى عنهم الى أنطاكية حيث أعاد فتحها.

أصبحت طرطوس هي القاعدة الأخيرة لتجمع بقايا الفرنج ـ وبصورة خاصة منهم فرسان الداوية ـ. فعندما أعاد الظاهر بيبرس فتح صافيتا (القلعة البيضاء) سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. سمح لمن بقي من فرسان الداوية بعد انتهاء القتال باللجوء إلى طرطوس. وأدرك مقدم الداوية (توماس بيرارد) أن مستقبل ما بقي للداوية من ممتلكات في طرطوس بات غامضاً ومحفوفاً بالمخاطر، فأخذ في البحث عن مكان أكثر أمناً، وتوجه ببصره نحو قبرص. وضاقت الأرض ـ أرض الشام ـ على رحبها ببقايا الفرنج. فعندما استولى السلطان قلاوون على حصن المرقب سنة ١٢٨٥ م خرج خمس وعشرون رجلاً لا أكثر ومعهم كل أمتعتهم، ولجؤوا إلى طرطوس. وعندما أعاد الأشرف خليل ـ ابن السلطان قلاوون ـ على عكا سنة ١٢٩١ م انسحب الداوية الى طرطوس، وتبعهم الفرنج من بقية مدن الساحل. وما لبث فرسان الداوية أن غادروا طرطوس الى جزيرة أرواد القريبة من الساحل ـ ولم ينسوا أن يحملوا معهم صورة العذراء مريم التي انتزعوها من الكنيسة. وظن الداوية أن باستطاعتهم البقاء في هذه الجزيرة المنعزلة، غير أن المسلمين تقدموا الى جزيرة أرواد، وطردوا منها الداوية بقيادة السلطان المملوكي الناصر محمد. وعاد الفرنج للهجوم على طرطوس في مرات متباعدة، منطلقين في هجومهم من جزيرة قبرص. غير أن الفشل كان من نصيب هذه الهجمات. وبقيت طرطوس ومعها أرواد قاعدة ثابتة من قواعد الإسلام وأهله.

١٩ ـ قلعة عكا.

تقول أوابد العرب المسلمين التاريخية بأن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، هو أول من عرف أهمية عكا بعد الفتح: «ولقد كان اهتمام معاوية بركوب البحر، قد دفعه لاستنفار العمال، ومن لهم خبرات في صناعة السفن، وحشرهم في عكا. ورمم الحصن والمرفأ. وجعله داراً لصناعة السفن وتجهيز الاسطول العربي واعداده. وقد كانت الصناعة بساحل الاردن على عهد معاوية في مدينة عكا. كما كانت السفن تبني في أيام معاوية في سواحل الشام. صور وعكا وطرابلس»[١] وهكذا شهدت عكا ولادة أول أسطول للعرب المسلمين. وعاشت أحداث الفتوح البحرية الاسلامية المثيرة. ولقد أقام العرب المسلمون بعد ذلك دوراً لصناعة السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط، مثل جزيرة الروضة في مصر وفي تونس وفي الأندلس. غير أن عكا لم تفقد أهميتها. وبقيت ثغراً رئيساً من ثغور العرب المسلمين. وقد وصف مؤرخ حماه ـ أبو الفداء ـ مدينة (عكا)[٢] بقوله: «عكا هي مدينة كبيرة من سواحل الشام. وداخلها عين تعرف باسم عين البقر، وبها مسجد ينسب إلى صالح عليه السلام. ومن كتاب المسالك: وبين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً. ومنها إلى مدينة صور اثنا عشر ميلاً. وقد حل بها الخراب بعدما استرجعها المسلمون من أيدي الفرنج سنة تسعين وستمائة»[٣]. ويصلح ميناء عكا لرسو السفن في كل الفصول.

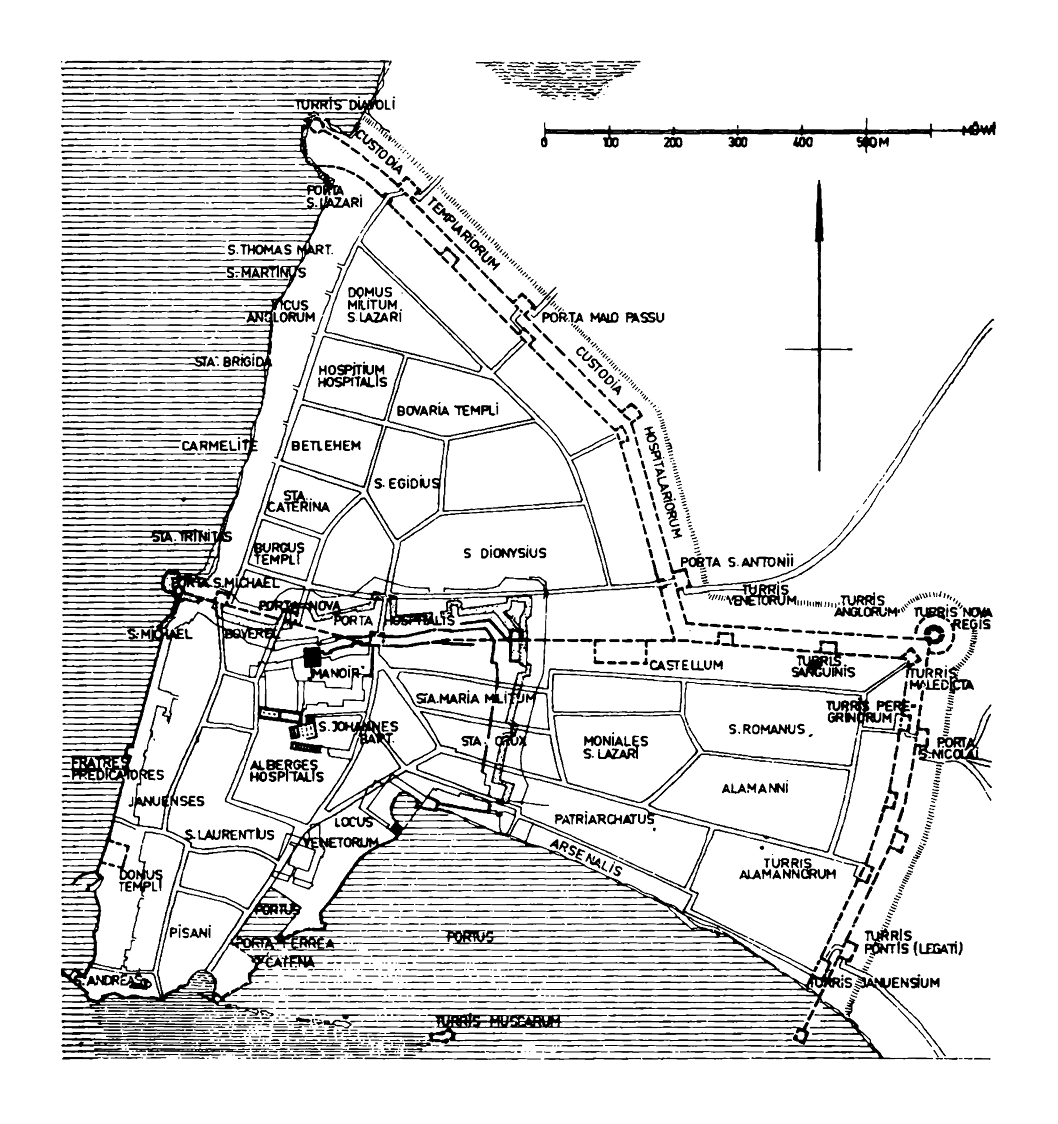
وتبعد عكا عن القدس مسافة تزيد على مائة ميل، وهذا الميناء هو الميناء الرئيسي

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص: ١٢٤.

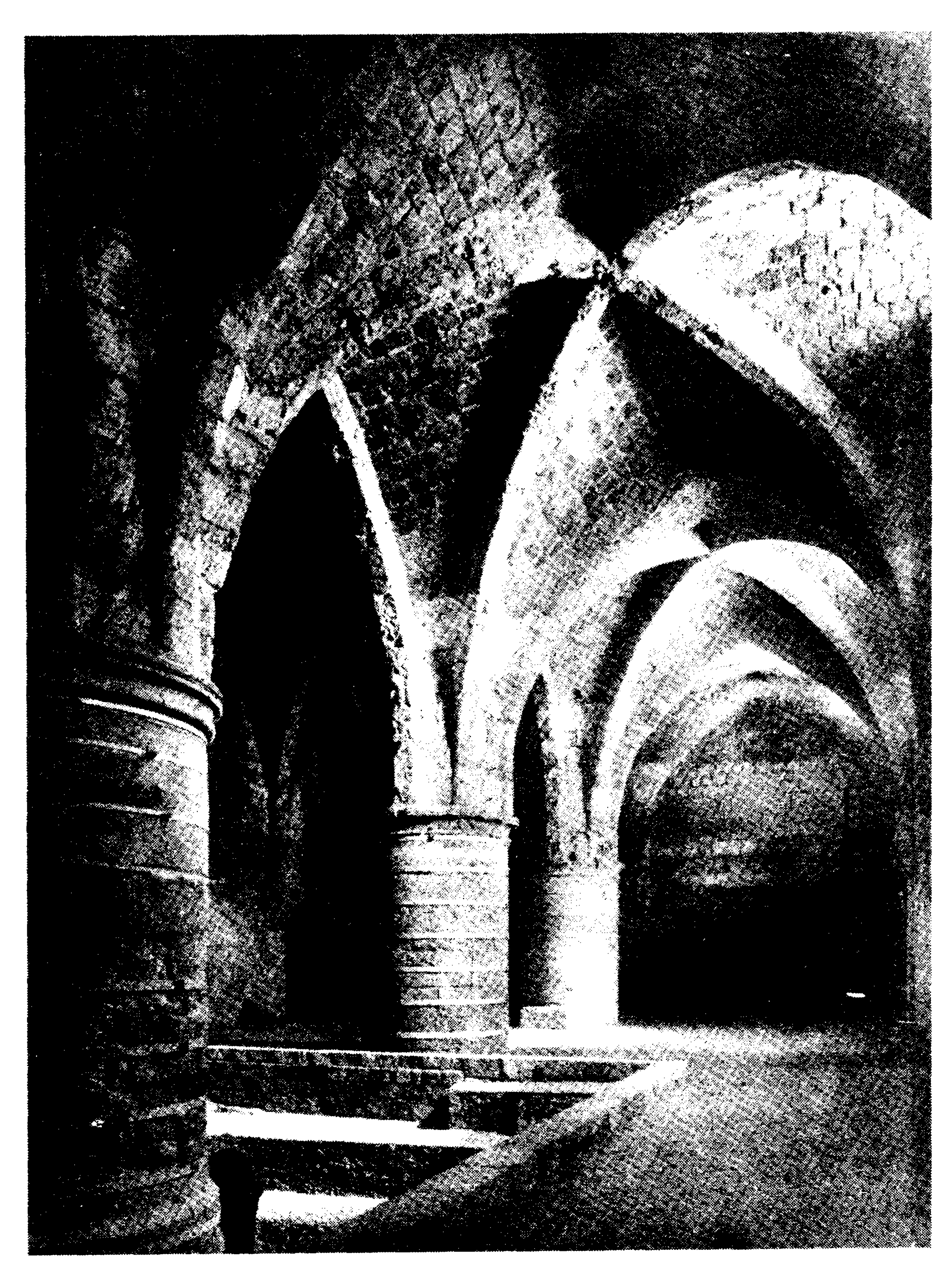
(٢) عكا: (ACRE-AKKON) وباليونانية بتولومايس (PTOLEMAIS) وبالفرنجية: (SAINT-JEAN D'ACRE) وآكري: (ACRI).

(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٤ ـ ٩٦.

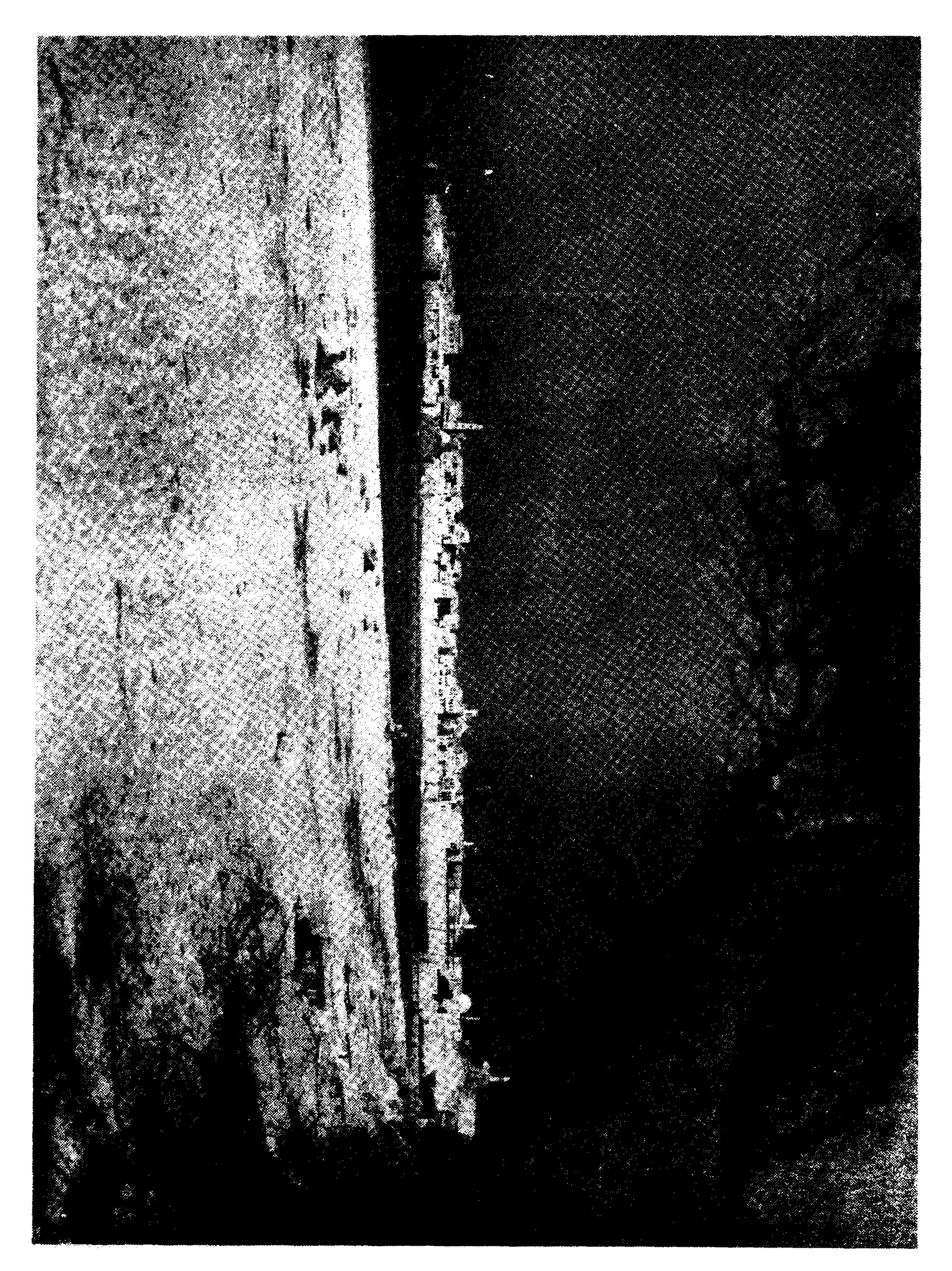


عكا **Acre**

مخطط المدينة يشمل محاولة لإعادة تركيب الأسوار القديمة، المقياس ١٠٠٠٠/١، بالاستناد إلى مخطط المدينة الحالي (أشير إلى التحصينات الجديدة بخطوط متقطعة) ولكنه يبين الأحياء التي أشير إليها في الخرائط القديمة للقرون ١٤ ـ ١٨ مع أسمائها اللاتينية «الأصلية!!». استند تمديد الشوارع على الخرائط المذكورة جزئياً وإلى الآثار المتبقية التي ما تزال قابلة للتمييز في المدينة الحديثة. إن المباني القائمة أو التي جرى التنقيب عنها مؤخراً مرسومة باللون الأسود (أي بقايا حي الأسبتارية والبرج المسمى برج السلطان والذي ما يزال قائماً بجانب المرفأ).



قلعة عكا



لفلسطين. وقد بقي كذلك طويلاً، لأن ميناء يافا لم يكن عميقاً إلى درجة كافية لرسو السفن الضخمة. كما كان ميناء حيفا أكثر عمقاً. وكانت حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية، إلا أنه كان معرضاً لأعاصير الرياح الشمالية. وبقي ميناء عكا هو الوحيد المحمي من الرياح الهوجاء، وله العمق الكافي لرسو السفن الضخمة. ولهذا حرص الفرنج الصليبيون على امتلاك عكا والسيطرة على مينائها منذ وصولهم الى فلسطين. لتأمين أغراضهم التجارية ومتطلباتهم العسكرية. ورغم أن عكا بقيت هي المرفأ الرئيسي للفرنج طوال أيام الحروب الصليبية القديمة، فانها لم تحتفظ إلا بالقليل من آثارهم. ولعل كل ما بقي من آثار تذكر بذلك الاحتلال الذي استطال لمدة قرنين - تقريباً - من عمر الزمن، لا يتجاوز بعض العقود لكنيسة من الكنس، أو بقية قصر، أو برج واحد من مجموعة الأبراج التي شكلت جزءاً من الدفاعات عن المدينة. ولقد كانت عكا هي أول مدن الساحل التي استعمرها الفرنج، ثم كانت آخر مدينة من المدن التي أعاد المسلمون فتحها. فتلخص بها تاريخ الفرنج الصليبيين الذي بدأ على أرض الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. حيث هاجم الفرنج عكا، غير أنهم فشلوا في اخضاع المدينة. فلما كان ربيع سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م. قام ملك القدس بلدوين بفرض الحصار على عكا. وساعده في ذلك ما كان تحت تصرفه من السفن الانكليزية. وكادت الحامية تستسلم لولا أن أقلع من صور وصيدا اسطول من اثنتي عشرة سفينة ضخمة تابعة للاسطول المصري - الفاطمي -. وأسرع هذا الاسطول لنجدة حامية عكا ومعه القوات وآلات قذف النار الاغريقية - الحراقات والعرادات - مما أرغم الفرنج على الانسحاب.

ولكن حدث في السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) أن وصل إلى ميناء حيفا أسطول جنوي ضخم مؤلف من سبعين سفينة، فأسرع ملك القدس بلدوين للاجتماع بقادة الأسطول في حيفا، وظفر بمحالفتهم لاخضاع عكا بعد أن بذل لهم الأجر المألوف - وهو ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية وحي في السوق. وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ - أيار - مايو -. واشتدت مقاومة المسلمين بقيادة المملوك زهر الدولة الجيوشي - نسبة إلى الملك الجيوش الأفضل الفاطمي - ولكنه اضطر بعد عشرين يوماً

من الحصار ، وبعد أن فقد الأمل بالحصول على دعم من مصر - بقبول التسليم بشرط السماح لمن يرغب من السكان بمغادرة المدينة آمناً ومعه أمتعته ، أما من رغب في البقاء فيصبح من رعايا ملك الفرنج. وقبل بلدوين هذه الشروط . ووافق أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم. ولكن ما إن ملك الفرنج البلد حتى انقضوا على من كان يريد الهجرة وذبحوا عدداً كبيراً منهم، وسلبوهم كل ما معهم. وفعلوا بهم الأفعال الشنيعة . وسار الوالي زهر الدولة الجيوشي إلى مصر . واعتذر إلى الأفضل ، فقبل عذره »[1] وهبط على عكا ليل الاستعمار الصليبي الطويل. غير أن هذا الليل لم يكن هادئاً ، بل انتابته العواصف الهوجاء ، وهيمنت عليه الأحداث المثيرة . فقد أصبحت عكا مركز انطلاق قوات الفرنج للهجوم على الاقاليم الاسلامية المجاورة ، ومقابل ذلك ، دأب امراء دمشق وحكام مصر على ارسال قواتهم للهجوم على الفرنج كلما توافرت الفرصة للاغارة على عكا وأرباضها . وكان من أكثر الأحداث اثارة مما شهدته تلك البداية قصة زواج ملك القدس - بلدوين - من كونتيسة صقلية - أديلايدسالونا - التي كانت بالغة الثراء ، مما أطمع فيها ملك القدس الذي لم يكن يرغب في بائنتها فحسب ، بل إنه كان يطمع أيضاً في الافادة من دعم النورمان في صقلية ، وبما يتوافر لهم من قدرة بحرية . وعندما تم الاتفاق على الزواج . أبحرت الكونتيسة من صقلية سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م في أبهة وروعة لم يشهدها البحر الأبيض المتوسط منذ أن أقلعت كليوباترا إلى نهر البردان لتلتقي بانطونيوس - إذ افترشت في سفينتها بساطاً منسوجاً من خيوط الذهب ، بينما ترصعت مقدمة السفينة بصفائح الفضة والذهب . ورافقتها اثنتان من الشواني الحربية . وعزز كل منهما ثلاثة صفوف من المجاذيف لدفعها . وزينت أيضاً مقدمتاهما ، وحملتا حرسها العسكري . وكان أكثر ما لفت النظر هو حرس ابنها الخاص من العرب المسلمين ، بوجوههم السمراء ، وأرديتهم الناصعة البياض . وسار في أثرها سبع سفن أخرى حملت كل ما ملكت من الكنوز والثروة . وهبطت الكونتيسة في عكا ، فاستقبلها الملك بلدوين بكل ما عرضته مملكته من الأبهة ، إذ خرج الملك ورجاله في

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٧ . وتاريخ الحروب الصليبية : ٢/١٤١ - ١٤٤ .

ثيابهم الحريرية الفاخرة، وتزينت خيولهم وبغالهم بالارجوان والذهب. وجرى فرش الشوارع بالبسط الثمينة، ورفرفت من نوافذ الدور وشرفاتها الأعلام الأرجوانية».

بقيت عكا هي مركز الثقل في مملكة القدس، رغم اعتراف الفرنج بالقدس عاصمة لاماراتهم ومملكتهم في بلاد الشام. فعندما حاول كونت طرابلس ـ بونز ـ التمرد على ارادة ملك القدس (سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) خرج ملك القدس بجيشه من عكا. ولكنه لم يكد يقترب من طرابلس حتى أعلن بونز ولاءه وخضوعه للملك. وعندما وقع ملك القدس ـ بلدوين ـ في أسر المسلمين قرب الفرات (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) انعقد مجلس المملكة في عكا ـ وليس في القدس ـ لتعيين مجلس إدارة المملكة خلال فترة غياب الملك في أسر المسلمين.

كانت عكا هي قاعدة انطلاق الاسطول العربي ـ الاسلامي لضمان السيادة العربية الاسلامية على شرق البحر الأبيض المتوسط. وأخذ الفرنج الصليبيون منذ استيلائهم عليها بالعمل لاستخدامها ضد الأساطيل الاسلامية. وإذا كان الفرنج قد أفادوا من تجزئة العالم العربي ـ الاسلامي وانقساماته لتحقيق مثل ذلك النجاح في حملتهم الأولى ـ فباتوا وهم لا يخشون أي تهديد بري، إلا أن الاسطول الاسلامي ـ المصري ـ بقي قوياً في البحر. وشكل تهديداً قوياً لأساطيل الفرنج وللمدن الساحلية التي سيطروا عليها. وللحد من هذا الخطر، تحرك أسطول البندقية ـ بناء على طلب ملك القدس وموافقة البابا ـ وقد ضم أكثر من مائة سفينة حربية كبيرة، حملت عدداً كبيراً من الرجال والفرسان فضلاً عن أدوات الحصار، فوصل عكا في نهاية شهر أيار ـ مايو ـ سنة ١١٢٣ م (٥١٧ هـ). ثم تحرك نحو عسقلان بعد أن توافرت له المعلومات عن وجود أسطول اسلامي ـ مصري ـ يجوب البحر قريباً من عسقلان. ودفع اسطول البندقية أمامه مجموعة من السفن الصغيرة، خفيفة التسليح، كيما تدفع الاسطول المصري للاشتباك في معركة. ووقع الاسطول المصري في الفخ، فما كان من ظنهم إحراز انتصار سهل، حملهم على أن يخرجوا بسفنهم إلى عرض البحر، فاضحوا بين اسطولين للبنادقة يفوقان الاسطول المصري عدداً. ولم تفلت سفينة اسلامية واحدة

من الكارثة، إذ غرق بعضها، ووقع بعضها الآخر في أيدي البنادقة. وأضاف البنادقة إلى انتصارهم ما استولوا عليه من اسطول تجاري مؤلف من عشر سفن كانت تحمل سلعاً ثمينة، وذلك عند التقائهم به أثناء ابحارهم راجعين إلى عكا. وكان وجود الاسطول الاسلامي ـ المصري ـ عاملاً حاسماً في حرمان الفرنج من الاستيلاء على عسقلان. فلما زال خطر الاسطول الاسلامي، قام الفرنج في السنة التالية (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) بحصار عسقلان براً بينما انطلق اسطول البنادقة من عكا لاحكام الحصار البحري، فأمكن لهم الاستيلاء عليها. وأعقب ذلك استيلاء الفرنج على صور ـ بالطريقة ذاتها ـ فأصبح ساحل فلسطين بكامله تحت قبضة الفرنج»[١].

تابعت عكا، تحت حكم الفرنج، دورها في إدارة الحرب دون هوادة ضد المسلمين. فعندما جاءت الحملة الصليبية الثانية بقيادة ملك فرنسا (لويس السابع)[٢] وامبراطور الغرب (كنراد ـ أو كونراد)[٣] جرى استقبالهم في عكا في احتفالات مثيرة، وانضم إليهم جميع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. ووجهت ملكة القدس ـ ميلسيند ـ وابنها بلدوين الثالث ـ الدعوة إلى أمراء الحملة وقادتها لعقد مجلس كبير في عكا في ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ سنة (١١٤٨م=٥٤٣هـ) وتميَّز هذا المجلس بظواهر الأبهة والعظمة. فقد ضم ملوك وامراء الصليبيين الذين تجمعت تحت قيادتهم أضخم ما حشده الفرنج من جيوش وقوات، وقرر المجلس مهاجمة دمشق، والاستيلاء عليها. غير أن هذه الحملة لم تبلغ غايتها، وتحطمت أمام أسوار دمشق[٤]. وعاد كنراد فركب البحر من عكا ورجع إلى بلاده. والمهم في الأمر هو أن عكا ـ وليست

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٦٧/٢ ـ ١٦٨ و ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

(٢) لويس السابع (LOUIS VII LE JEUNE) ـ ابن لويس السادس وأديلايد دوسافوا ـ ولد سنة ١١٢٠ م. وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١١٣٧ م حتى توفي سنة ١١٨٠ م. تزوج اليانور ـ داكيتانيا (ALL ENOR D'AQUITAINE)ـ وحاول عبثاً الاستيلاء على كونتية تولوز ـ وأسهم مع امبراطور الغرب كونراد في الحملة الصليبية الثالثة. غير أنه فشل في الاستيلاء على دمشق.

(٣) كنراد ـ أو كونراد: (CONRAD) اسم عدد من الملوك الجرمان. والمقصود هنا هو كونراد الثالث الذي ولد سنة ١٠٣٩، وأصبح امبراطوراً للغرب سنة ١١٣٨ ومات سنة ١١٥٢ م.

(٤) انظر قلعة دمشق (البحث ١٠ من هذا الفصل).

القدس ـ هي التي عاشت الأحداث المثيرة لقيادة قوات الفرنج ومؤتمراتهم ومؤامراتهم ومخططاتهم العدوانية ضد المسلمين في البر والبحر على حد سواء.

عرفت عكا أقسى صراع، وأعنف قتال، طوال الفترة من سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م وحتى سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فخلال مرحلة الحشد التي سبقت معركة حطين، أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى ابنه الأفضل وأمره بتوجيه قوة كافية من جيشه إلى عكا، لنهبها وتدميرها. فأرسل قوة بقيادة مظفر الدين كوكبري زين الدين ـ صاحب حران ـ وأضاف إليه قايماز النجمي ودلدرم الياقوتي وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. فساروا ليلاً وصبحوا (صفورية) أواخر صفر سنة ٥٨٣ هـ ـ فخرج إليه الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما. فالتقوا هناك، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود. ثم أنزل الله نصره على المسلمين. فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون. وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين. وله النكايات العظيمة في المسلمين. ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد، وغنموا وسبوا وعادوا سالمين إلى طبرية. وكان فتحاً عظيماً، فقد كان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك[1].

سارت جيوش المسلمين بعد ذلك إلى حطين، فلما أحرز المسلمون انتصارهم الحاسم، توجه صلاح الدين إلى عكا، فإذا بأهلها وقد صعدوا على سورها يظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والناس من ذلك، لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل قد سقطوا بين قتيل وأسير، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل. فركب صلاح الدين وقد صمم على الزحف إلى البلد وقتاله. فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل، إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم. وخيرهم بين الاقامة والظعن، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين، وساروا عنها متفرقين، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم. وتركوا الباقي على حاله. ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادي الأولى سنة ٥٨٣ هـ، وصلوا بها الجمعة في

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٣١ ـ ٧٣٤ (وقعة عيون كريسون) والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٥٨٣ هـ.

جامع كان للمسلمين قديماً ثم جعله الفرنج بيعة ـ كنيسة ـ ثم أعاده صلاح الدين جامعاً. وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج. وسلم صلاح الدين البلد إلى ولده الأفضل، وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى. وغنم المسلمون ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله. وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه. فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً. ذلك أن عكا كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها. وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله.

ففرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابها، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً بالبلد، وكانت شيمته في الكرم معروفة. وأقام صلاح الدين بعكا، وفرق منها عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، فملكوها وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء. وفتح المسلمون يافا وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت، ولم يبق في قبضة الفرنج إلا صور التي احتشد فيها الفرنج من كافة المدن التي فتحها المسلمون [١]. ولما علم البابا ايربان الثالث بما أحرزه المسلمون من انتصارات، مات كمداً يوم ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١١٨٧. وجاء خلفه البابا جريجوري ـ أو غريغوري الثامن ـ فوجه رسالة إلى المؤمنين في الغرب [٢] لحشد

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٤٣ ـ ٧٤٧ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٨٣ هـ.

(٢) كان مما تضمنته رسالة البابا: «فليكفر كل انسان عن خطاياه، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء، بأن يتخذ الصليب، مع الوعد لجميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب. وأن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء. بينما تصير سلعهم في الدنيا في حماية المقر المقدس» واختتم رسالته بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات، والامتناع عن اللحم يومي السبت والأربعاء. وأقسم جميع الكرادلة على أن يرفعوا الصليب. وأن يتولوا قيادة الجيوش الصليبية الى فلسطين، باعتبارهم مبشرين متسولين. وتقرر أن يتوجه من روما مبعوثون ليفرضوا على جميع ملوك العالم المسيحي وأمرائه هدنة ـ فيما بينهم ـ لمدة سبع سنوات. وعقد مجلس في (لومانز) سنة ١١٨٨ م. تقرر فيه أن تؤدي الضريبة المعروفة باسم (عشر صلاح الدين) والتي حددت بعشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة. =

القوى - وتوجيه حملة صليبية جديدة. وانطلق دعاة الحروب الصليبية ومستثمريها، من أساقفة وأمراء لاستثارة المشاعر والتحريض على الحرب. وأفلحت الجهود بتنظيم أكبر حشد صليبي تولى قيادته ملك انكلترا (ريتشارد قلب الأسد)(١) وملك فرنسا (فيليب اوغست) (٢) وملك ألمانيا (كنراد) علاوة على عدد كبير من أمراء الغرب.

وبدأت الامدادات في التدفق على صور وكان أول ما وصلها (في أواخر خريف سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) أسطول قوي التسليح أرسله ملك صقلية ومعه مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً. كما أرسل البيازنه - نسبة إلى بيزا - اسطولاً من اثني وخمسين سفينة (وصل في ٦ نيسان - ابريل - ١١٨٩ م) وبدأ الفرنج تحركهم نحو عكا. واشتبك المسلمون مع الفرنج، وقاتلوهم، ومنعوهم. وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لهولها الوليد. وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة. وتوقف الفرنج. ثم عاودوا محاولتهم ثانية ففشلوا بعد قتال عنيف. ونجحت المحاولة الثالثة، ووصل الفرنج إلى ظاهر عكا يوم ٢٨ - آب - أغسطس - سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) وأقاموا معسكرهم على تل الفخار، وما لبثت أن وصلتهم إمدادات جديدة، حيث انضم اليهم اسطول ضخم للدانيين والغريزان، بالاضافة إلى سفن نقل نقلت قوات فلمنكيه وفرنسية. ودارت معركة طاحنة يوم ٤ تشرين الأول - اكتوبر - كان النصر فيها حليفاً للمسلمين. غير أنه لم يكن نصراً كاملاً. إذ

= لتغطية نفقات الحملة. وفرضت هذه الضريبة على رعايا انكلترا وفرنسا. (تاريخ الحروب الصليبية: ٢٢/٣ و ٢٤).

(١) ريتشارد قلب الأسد: (RICHARD COEUR DE LION) ملك انكلترا. ولد في اكسفورد سنة ١١٥٧ م. أصبح ملكاً سنة ١١٨٩ م ومات سنة ١١٩٩ م اشترك في الحملة الصليبية الثالثة. ووقع أسيراً في قبضة ملك النمسا - ليوبولد - أثناء عودته من فلسطين. وعندما عاد الى بلاده. قاد الحرب ضد ملك فرنسا فيليب أوغست سنة ١١٩٤ م. ومات تحت أسوار قصر شالو في فرنسا.

(٢) فيليب أوغست - أو فيليب الثاني: (PHILIPPE II-AUGUSTE) ولقبه الفاتح، أو الغازي، وهو ابن لويس السابع. ولد في غينيس سنة ١١٦٥ م. وأصبح ملكاً سنة ١١٨٠ م. ومات سنة ١٢٢٣ م. اشترك في الحملة الصليبية الثالثة. حارب ملكي انكلترا - هنري الثاني، ثم ريتشارد قلب الأسد، وانتصر عليهما.

احتفظ الفرنج بمواقعهم وهم يحاصرون عكا. غير أن الاسطول الاسلامي ـ المصري ـ نجح في دفع خمسين سفينة في وسط أساطيل الفرنج، مما ضمن للحامية المدافعة عن عكا كميات كافية من المؤن والذخائر. وحدث نوع من التوازن مما أدى الى حدوث استقرار نسبي، تخللته معارك قاسية في بعض الأحيان، وذلك على نحو ما حدث يوم ٢٥ ـ تموز ـ يوليو ـ سنة ١١٩٠ م حيث قام الفرنج بهجوم جريء لم يسفر عن نتائج تذكر، سوى وقوع خسائر فادحة في قوات الطرفين المتحاربين. واستمر القتال سجالاً بين المسلمين والفرنج طوال سنة ١١٩٠ م. إلى أن حدث التحول الحاسم عندما هبط ملك فرنسا فيليب اوغست على أرض عكا يوم ٢٠ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١١٩١ م. ولحق به ملك انكلترا بعد سبعة أسابيع (حيث نزل ريتشار قلب الأسد في عكا يوم ٨ حزيران ـ يونيو). ومقابل ذلك، انضم الى معسكر صلاح الدين المقابل لعكا، جيش سنجار وجيش شيزر وحماه وجيش من مصر. على أن أكثر ما أضر بالمسلمين هو حرمانهم من الدعم البحري، بعد أن جاءت أساطيل الفرنج من كل أرجاء أوروبا لحصار عكا، مما حرم الحامية الاسلامية المدافعة عن عكا من الامدادات التي كانت تصلها بانتظام، فباتت مهددة بالمجاعة. وبقي القتال مستمراً في كل يوم وطوال هذه الفترة. ونصب الفرنج المجانيق، وأحضروا أدوات حصار كثيرة منها مقلاع ضخم أطلقوا عليه اسم (مقلاع الله) وسلماً لتسلق الأسوار حمل اسم (سلم الهر). وأخذت المقاليع ترمي الحجارة ليلاً ونهاراً. ودارت معارك دامية، تخللتها مفاوضات متطاولة، تم فيها الاتفاق على تسليم عكا للفرنج بكل ما تحتويه. مع تسليمهم صليب الصلبوت أيضاً. وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين. ودخل الفرنج عكا عندما غادرها آخر جندي من الحامية الاسلامية التي كانت تدافع عنها. وكما هي عادة الانكليز بالغدر، فقد تظاهر ريتشارد قلب الأسد بأن صلاح الدين قد أخل بشروط الاتفاق، واتخذ من ذلك حجة لذبح أسرى المسلمين وعددهم سبعمائة وألفي أسير. واشتدت حماسة الجند الانكليز لتنفيذ المجزرة، ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم الى جوارهم. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما كان يحدث، فاندفعوا لانقاذ اخوانهم وذويهم. وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى

حلول الظلام، فانهم لم يستطيعوا الوصول اليهم. ولما انتهت المذبحة، غادر الانكليز البقعة، فتقدم المسلمون لدفن شهدائهم(١).

تتابعت الأحداث، متسارعة أحياناً، ومتباطئة في أحيان أخرى، وظهر التحول لمصلحة المسلمين بشكل واضح، لاسيما بعد فشل هجوم المغول التتار، ووقفت عكا وسط دوامة الأحداث وهي تحاول السيطرة عليها لمصلحتها ولدعم مركزها بعد أن أخذ بناء الفرنج في الانهيار من حولها. وعرف الفرنج في عكا أن النهاية قد اقتربت، فأسرعوا لعقد هدنة مع السلطان قلاوون لمدة عشر سنوات (تبدأ من سنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) ولكن حدث في سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م. أن قام الفرنج الصليبيون باجراء مذبحة في عكا، سقط فيها عدد كبير من شهداء المسلمين ـ التجار ـ. مما أغضب السلطان قلاوون، ودارت مناظرة بين الفقهاء في القاهرة أقنعت السلطان قلاوون بأنه لا إثم عليه من الناحية الشرعية إن هو نقض الهدنة. فأصدر أوامره إلى جيشه في مصر بالاستعداد، كما أصدر أمره إلى دمشق باعداد جيشها، وصدرت أوامر مماثلة إلى جيوش الأقاليم. واتخذت الاحتياطات لابقاء الاستعدادات في طي الكتمان. وعندما انتهت الاستعدادات، وشرع في التحرك، أعلن أنه أقسم بألا يترك في عكا ولو واحداً من الفرنج على قيد الحياة. إلا أن السلطان قلاوون توفي يوم ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٢٩٠ م. فأخذ ابنه ـ الأشرف خليل ـ على عاتقه انجاز ما بدأ به والده. وشرع الجيش الإسلامي في التحرك من مصر في شهر آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٩١ م. وذلك بعد أن اكتملت استعدادات الأشرف، فأضحت بالغة الدقة. إذ تم جمع آلات الحصار من جميع البلاد. وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماه، من الثقل، ما جعله يحتاج شهراً للوصول الى عكا، وتعرض خلاله لطقس ممطر، وخاض تربة تراكم فيها الطين وذلك عند مسيره من حمص الى حصن الأكراد، حيث توقف فيها فترة من الوقت لينقل معه عرادة ضخمة حملت اسم (المنصورة) بالاضافة إلى مائة من آلات الحصار الأخرى التي تم صنعها في دمشق والقاهرة. وكان مع الجيش أيضاً

---

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٥٨٥ وسنة ٥٨٧ هـ. وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٤٥ ـ ١٠٩.

عرادة كبيرة أخرى اسمها (الغاضبة). ومناجيق اشتهرت باسم (الثيران السوداء) وكانت أخف وزناً، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير.

ووصل الأشرف بجيشه إلى أمام عكا، وتحدث الناس أن جيشه قد ضم ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل - وقد يحمل هذا التقدير بعض المبالغة. غير أن الأمر الثابت هو أن جيشه قد تجاوز حدود كل ما استطاع الفرنج حشده من قوات.

ما إن علم الفرنج في عكا بتحرك الجيش الاسلامي حتى أرسلوا نداء الاستغاثات المستعجلة الى أوروبا، فوصلتهم بعض النجدات. وتقرر في عكا تجنيد كل قادر على حمل السلاح ليقوم بدوره في الدفاع. وكان باستطاعة الحامية الاعتماد على تحصينات المدينة التي بقيت سليمة وقوية، وجرى تعزيزها مؤخراً لزيادة منعتها وقدرتها، فضمت خطاً مكوناً من سورين مزدوجين لحماية شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية حيث تقع قلعة عند التقاء السورين المزدوجين. وانتصب اثني عشر برجاً على أبعاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي.

بدأ الحصار يوم ٦ نيسان - ابريل - سنة ١٢٩١ م، فصارت منجنيقات المسلمين وعراداتهم تقذف يوماً بعد يوم الأحجار الضخمة، والقدور المليئة بالمواد الحارقة، على أسوار المدينة. أو تلقيها من فوق الأسوار إلى داخل المدينة. وأمطر رماة المسلمين بسهامهم المدافعين فوق أفاريز الأبراج وردهاتها وممراتها. بينما تحرك المهندسون المسلمون لنقب مواضع الضعف في الاستحكامات. وتردد القول بأن السلطان الأشرف خليل قد خصص لكل برج ألف مهندس. واستمر الفرنج الصليبيون في مقاومتهم وذلك بفضل ما توافر لهم من الامدادات عبر البحر. وقام رجال الطوائف الدينية - فرسان الداوية والاسبتارية - بهجومين ليليين على معسكر المسلمين، كان الفشل من نصيبها. ومضى شهر على الحصار عندما وصل ملك قبرص إلى عكا حاملاً معه امدادات جديدة، أسهمت في رفع الروح المعنوية للفرنج، غير أنها لم تغير من موقف المسلمين الذين كانوا قد نجحوا في نقب بعض الأبراج التي أخذت في التداعي والتساقط تباعا. وحاول الفرنج مفاوضة السلطان الأشرف خليل، غير أنه رفض المفاوضات إلا

على أساس الاستسلام الكامل. وأصدر الأشرف خليل أمره بشن هجوم عام صباح يوم الجمعة ١٨ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٩١ م. وجرى الهجوم على امتداد الأسوار، ولكنه تركز على اتجاه (البرج الملعون) الواقع في زاوية الحصن. وقذف السلطان بكل قواه في المعركة، ولم تتوقف المنجنيقات عن القذف. أما سهام الرماة فكانت أشبه ما تكون بكتلة صلبة عند سقوطها داخل المدينة. واندفعت كتائب المسلمين الواحدة بعد الأخرى بقيادة امرائهم الذين لبسوا العمائم البيضاء وهم يقتحمون تحصينات المدينة. وكان الضجيج يثير الرعب والجزع، فقد كان المسلمون يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، فيتردد مجلجلاً وهو يختلط بقرع الطبول وأصوات الكوسات والشبابات التي حملها ثلثمائة جمل. ودار قتال عنيف عند الأسوار والأبراج وفي شوارع المدينة. وبدأت المقاومة في الانهيار، وسقط جند الفرنج صرعى، فيما توجه الباقون بحثاً عن طريق للهرب، وقد ضاقت بهم الأرض، وأسرع الرجال والنساء والأطفال إلى الميناء عسى أن يجدوا فيهم مركباً ينقذهم وينقلهم الى قبرص. وشهد الرصيف زحاماً مرعباً. وغرق أحد المراكب بمن كان يحملهم، لأنه حمل أضعاف ما يستطيع حمله. واغتنم المغامرون هذه الفرصة للحصول على الثروة ـ ومنهم المغامر روجرفلور ـ الذي قاد سفينة كبيرة للداوية، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزه من أموال نبيلات عكا. ووصل جند المسلمين، فأسروا من لم يتمكن من الهرب. ووفروا عليهم عناء البحث عن طريقة للهرب.

ما إن صارت عكا في قبضة المسلمين حتى شرع الأشرف خليل في تدميرها وفقاً لخطة موضوعة حتى لا يفكر الفرنج الصليبيون في الافادة منها لتعود موقعاً متقدماً إذا ما أرادوا توجيه حملة جديدة ضد بلاد المسلمين في الشام. فتقرر استباحة دورها وأسواقها ثم اشعال النار بها. وجرى تدمير استحكامات دور الطوائف الدينية العسكرية والأبراج والقلاع المنيعة. وجرى نقل حجارة الكنيس لبناء مسجد السلطان الأشرف خليل في القاهرة. وما إن انتهى وجود الفرنج في عكا، حتى انطلقت جيوش المسلمين وهي تجوب بلاد ساحل الشام من أقصاه إلى أقصاه، لتدمر كل ما تعتبره مفيداً للفرنج فيما إذا حاولوا مرة أخرى النزول إلى البر. لقد أخذت الحركة الصليبية يوم سقوط عكا في الخروج من مجال السياسة العملية للغرب ـ ولو بصورة مرحلية ـ.

لقد جاء نابليون بونابرت على رأس حملة صليبية جديدة، وألقى الحصار على عكا من ٩ كانون الثاني - ديسمبر - حتى ٦ - أيار - مايو - ١٧٩٩ م (١٢١٣ هـ) وقد قاوم والي عكا - أحمد باشا الجزار - الحصار ببطولة. مما حمل بونابرت على الاستنجاد باليهود ووعدهم باقامة وطن لهم في فلسطين إن هم قدموا له المساعدة. ولكنهم كانوا أضعف من أن يقدموا لجيش بونابرت ما يحتاجه، فاضطر للانسحاب خائباً. وبقيت عكا وأهلها حصناً للاسلام والمسلمين حتى احتلها اليهود سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م. لقد عادت الصليبية من جديد تحت الاعلام اليهودية.

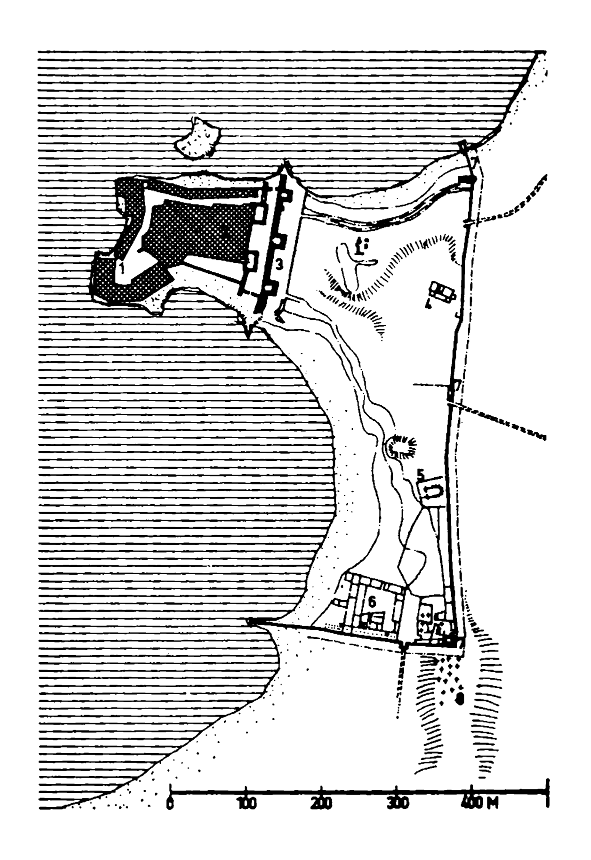
٢ ـ قلعة عتليت [قصر الحجيج].

تقع القلعة التي حملت اسم (قلعة عتليت ـ أو قصر الحجيج)[١] فوق شبه جزيرة صخرية صغيرة، على بعد نحو عشرة أميال جنوبي ميناء حيفا في فلسطين. وكانت القلعة محمية من جهة البر بخندق مائي عميق، وسور متقاطع قوي له ثلاثة أبراج متينة مبنية في داخله. أما التحصينات من جهة البحر، فقد كان هناك برج محصن خلف السور الخارجي والفناء الأمامي الذي يتخلله، وقد عززت جوانب هذا البرج المحصن بأبراج بارزة (مثل البرج المحصن في قلعة الداوية في طرطوس). بينما اختصت الاسطبلات والأحياء السكنية والمستودعات بالأبنية المتاخمة للشاطىء الصخري. وقد شيدت القلعة على أنقاض قلعة قديمة بمساعدة الحجاج الفرنج ـ ولهذا حملت أيضاً اسم قصر الحجيج ـ وباشتراك طائفتي فرسان الهيكل (الداوية) والفرسان الألمان (التيوتون) لتحل محل القلعة القديمة التي أقامها فرسان الداوية والتي تبعد حوالي ميل واحد عنها ـ وحملت اسم (قلعة ديتروا)[٢]. واكتشف فرسان الداوية أثناء العمل، أساسات الأسوار التي كانت تعود في يوم من الأيام إلى مستوطنة فينيقية قديمة صغيرة. وعثروا فيها على كنز من النقود المعدنية. وأعيد استخدام تلك الأساسات، بينما صرفت النقود الذهبية من ضمن نفقات البناء. وكانت الأسوار التي ترتفع مباشرة من البحر هي القطاعات الأطوال، وحيث يجتاز السور الدائري المزدوج والمعقد، شبه الجزيرة التي تصل عتليت بالبر. وحرص الذين شيدوا قلعة عتليت أن تكون واجهة الأسوار مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة أن تستقر عليها، مع التوسع في

---

(١) قلعة عتليت: (ATLIT) أو قصر الحجيج: (CHASTEL PELERIN) وقصرْ بلغرينو (CASTLE PELLEGRINO) وكاستروم فيلي داي (CASTRUM FILII DEI).

(٢) قلعة ديترويت: (CHASTEL DESTROIT) أو ديستريكتوم: (DISTRICTUM) أو بيترا انتشيزا: (PETRA INCISA) وقد شيد القلعة الكونت غوتيه دافين: (GAUTEIR D'AVESNES).



عتليت ـ قصر بيليرين (قصر الحجيج) Chastel Pelerin

مخطط أرضي عام للمستوطنة، المقياس ١/١٠٠٠٠

١ ـ القلعة الداخلية، ٢ ـ الموقع المحتمل للحصن الكبير، ٣ ـ السور والخندق، ٤ ـ الحمامات، ٥ ـ كنيسة متهدمة، ٦ ـ الإسطبلات، ٧ ـ سور البلدة والخندق، ٨ ـ المدافن الفينيقية.



عتليت (قصر الحجيج)

استخدام ساتر الأسياخ الحديدية، والمزاغل اللازمة للرماة، بالاضافة إلى زيادة التعقيد في أبواب الدخول.

ما إن استقر الفرنج الصليبيون في القدس، وأعلنوا عن إقامة مملكتهم فيها، حتى وجه ملكها ـ بلدوين ـ دعوة إلى رجال الكنيسة وكبار المقطعين في المملكة لحضور مجلس في نابلس، بهدف رفع المستوى الديني ـ الأخلاقي ـ لرعاياه، والاهتمام برخائهم المادي. وتقرر تنظيم طائفة من الفرسان الذين يعاهدون ربهم على التقشف والطهارة والطاعة، وينذرون أنفسهم لقتال المسلمين. ويظهر أن فكرة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري قد جاءت على لسان فارس من شمبانيا ـ اسمه هيوباينز ـ استطاع سنة ١١١٨ أن يقنع الملك بلدوين الأول بأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه بالنزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد (وهو المسجد الأقصى). فحملوا اسم (فرسان المعبد)★. وخضع فرسان المعبد في البداية للبابا مباشرة ـ في روما ـ وذلك قبل أن يصبحوا طائفة مستقلة. وتشكلت طائفة فرسان المعبد (الداوية) من ثلاث طبقات: الفرسان، وكلهم من أصل نبيل، ثم الأجناد من البورجوازية، واعتبروا أنهم هم ساسة الجماعة ومراقبيها. وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة رجال الدين الذين شغلوا المناصب الدينية، والذين كان واجبهم هو القيام بكل ما لا يمت إلى العسكرية بصلة من الصلات. واتخذ فرسان الداوية من الصليب الأحمر شعاراً لهم. فجعله الفرسان على أرديتهم البيضاء. واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء. وكان من أول الواجبات التي اضطلع بها فرسان الداوية، هي ضمان الأمن على امتداد الطريق ما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وبين القدس. غير أنهم لم يلبثوا أن اشتركوا في كل حملة قام بها الفرنج الصليبيون. وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً في أوروبا لحشد المتطوعين لطائفته. وبذل ملك القدس ـ بلدوين ـ للداوية كل دعم وتأييد، رغم استقلال الطائفة عن سلطانه وخضوعها للبابا، وقدم لها الأحباس ـ الأوقاف ـ دون أن يفرض عليها الالتزام بالقتال مع جيشه. ولكن الطائفة لم تبلغ من الثراء ومن القوة ما

★ فرسان المعبد: (KNIGHTS-TE MPLAR).

يسمح لها بتحدي سلطة الملك خلال تلك المرحلة الأولى ـ ومقابل ذلك، فقد قدمت الطائفة لمملكة القدس ما كانت تحتاج إليه، وهو جيش منتظم يضم إليه العساكر المدربين والذين أضحى وجودهم الدائم حاجة ملحة، ذلك أنه في الاقطاعات التي حازها الأمراء ـ الكونتات ـ كانت تحدث اضطرابات عند انتقال الارث إلى سيدة أو طفل إذا ما مات السيد الاقطاعي بصورة مباغتة. فكان الفرسان الرهبان هم القوة التي تضمن الاستقرار، نظراً لما اشتهر به هؤلاء من نظام قوي، ولما عرف عنهم في الغرب من المكانة ومن الهيبة، مما كان يضمن لملك القدس باستمرار مدداً منتظماً من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن واجبهم طموح شخصي أو ربح ذاتي [١].

وهكذا حصل فرسان الداوية على إقطاع منطقة عتليت، وأقاموا قلعتهم هناك، وهي القلعة التي تميزت على ما عداها في فن العمارة. ذلك أن معظم قلاع بلاد الشام ـ في الشمال والجنوب ـ كانت قائمة منذ أيام الروم ـ البيزنطيين ـ أو كانت مما شيده العرب المسلمون، ثم جاء الفرنج فعملوا على تحويلها أو اصلاحها بما يناسب احتياجاتهم. في حين شيدت قلعة عتليت تلبية لمتطلبات فرسان الداوية. فتم تشييد البرج المتوسط الذي اعتبر أقوى وأمنع جانب في القلعة، عند أضعف قطاع بدائر القلعة. وأضحى البرج مدوراً لا مستطيلاً، نظراً لأن السطح المدور كان بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف. وتزايد عدد ما جهزت به القلعة من الأبواب والأبواب الخلفية. ونزع حجم القلعة إلى الضخامة. ولم يكن للنساء مأوى في قلاع الفرسان الداوية ـ وفي قلاع طوائف الفرسان الداوية بصورة عامة ـ وقد خصصت لكبار الموظفين والقادة حجرات أنيقة، رغم أنه لم ينزل ضيفاً بها إلا لغرض حربي. واعتبرت قلعة عتليت عبارة عن مدينة عسكرية، تستطيع أن تؤوي إليها عدة آلاف من المقاتلين والخدم اللازمين لهذا الجمع. غير أنه قل أن امتلأت هذه القلعة عن آخرها [٢].

ولعل أغرب ما في قصة (قلعة عتليت) هو أن تشييدها قد جاء في وقت متأخر

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٤٧/٢ ـ ٢٥١.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٣٠/٣ ـ ٦٣١.

جداً من تاريخ الحملات الصليبية القديمة. فقد احتل الفرنج مدينة القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين الخالدة سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وأعيد فتح القدس في السنة التالية، وهاجم الفرنج مصر واستولوا على دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م وطرد المسلمون الفرنج من مصر بعد معركة المنصورة الظافرة سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م وفي هذه السنة شرع فرسان الداوية في تشييد قلعة عتليت، على أرض الساحل. أي أن تشييد قلعة عتليت قد تأخر مقدار القرن وربع القرن تقريباً عن بداية الحملات الصليبية القديمة. كما كان الفرنج - وفرسان الداوية منهم بصورة خاصة - يهتمون بالقلاع ذات الأهمية الجيو - استراتيجية. والتي تتحكم بالسهول ومحاور المواصلات. في حين تم بناء قلعة عتليت على أرض الساحل، وبعيداً عن السهول أو الأهداف الهامة. وقد كان لذلك أسبابه وعوامله. فقد خرج من قبضة الفرنج كثير من القلاع الحصينة والمدن الداخلية، عبر صراعهم المستمر مع المسلمين. ولم يبق للفرنج إلا عدد قليل من المدن الساحلية مع مجموعة متفرقة من القلاع. ولهذا فقد جاء بناء قلعة عتليت، وجرى تشييدها، وسط العواصف الهوجاء التي هزت كيان الفرنج وزعزعت وجودهم. فحاول - فرسان الداوية - من خلال تشييد القلعة التأكيد على تصميمهم للاحتفاظ بما بقي لهم من المواقع على أرض بلاد الشام. وإن التوسع الكبير في بناء القلعة إنما جاء استجابة لأكثر من هدف. مثل الاستعداد لضم اللاجئين والنازحين والمهاجرين ممن يطردهم المسلمون من المدن والقلاع التي يتم إعادة فتحها. ومثل ضمان الأمن للحجاج الذين يفدون إلى بلاد الشام للحج. بالاضافة إلى ضرورة التوسع في تأمين الخدمات والمواد التموينية حتى تستطيع القلعة الصمود والمقاومة في وجه الحصار لأطول فترة ممكنة.

ولقد عرف المسلمون هدف فرسان الداوية من بناء قلعة عتليت. ففي سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. «وبينما كان فرسان الداوية والفرسان التيوتون يشيدون قلعة عتليت الضخمة - جنوبي جبل الكرمل - وهي المعروفة بقلعة الحجاج - قام حاكم مصر - السلطان العادل - بالهجوم على قلعة عتليت. كما دمر الحصن الذي تم تشييده على جبل الطور، نظراً لأنه سهل المتناول. وليس ثمة ما يدعو للابقاء عليه». وفي السنة ذاتها،

وخلال مرحلة استعداد الفرنج لغزو مصر. أقلع اسطولهم إلى عتليت كيما يجلب مؤناً أخرى. ثم رفعت السفن مراسيها بعد بضع ساعات، غير أن الرياح ألزمتها بالبقاء، فلم تغادر الميناء إلا سفن قليلة اتجهت الى مصر». وفي سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م. وخلال هجوم الفرنج على مصر. عمل حاكم دمشق - المعظم الأيوبي - على بذل الجهد لتخفيف الضغط عن مصر. فهاجم قلعة قيسارية التي لم يفرغ من بنائها وإعادة ترميمها إلا منذ زمن قصير. ثم تحرك لحصار عتليت - معقل الدفاع لفرسان الداوية - فما كان من فرسان الداوية المشتركين في الحملة على مصر، إلا أن انسحبوا عائدين من دمياط، للدفاع عن قلعتهم. واستمر المعظم في حصار عتليت من شهر آذار - مارس - حتى تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٢٠ م». وعندما وصل الامبراطور الالماني فريدريك الثاني الى فلسطين سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م. بدأ جولته من عكا. فقام بزيارة عتليت ثم زار القدس، وعقد مع حاكم مصر السلطان الكامل الأيوبي معاهدة استعاد بموجبها الفرنج الحكم في القدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة، وللمسلمين الحق في التردد إليها، والعبادة فيها بحرية. وحددت مدة المعاهدة بعشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري. ولكن هذه المعاهدة اصطدمت برفض المسلمين في دمشق ومقاومتهم لها. كما رفضها فرسان الداوية. فما كان من الامبراطور (فريدريك الثاني)[1] إلا أن جمع ممثلي مملكته كلها، واجتمع بهم، وعرض عليهم تقريراً عن أعماله. ولم تلق كلماته إلا الرفض والغضب من قبل الحاضرين. وعندئذ لجأ فريدريك إلى القوة، فأقام نطاقاً من الحرس حول مقر الفرسان الداوية، ووضع الحرس على منافذ مدينة القدس حتى لا يخرج منها، أو يدخل إليها، إلا من كان يحمل تصريحاً بذلك. وأشاع أنه يعتزم مصادرة - حصن عتليت الكبير وانتزاعه من قبضة الداوية. غير أنه علم أن الحصن مشحون بحامية بالغة القوة، فلم يحاول الاقدام على هذه

---

(١) فريدريك الثاني: (FREDERIC II) ابن فريدريك الأول (١١٩٤ - ١٢٥٠م) أصبح ملكاً على صقلية سنة ١١٩٧م ثم ملكاً للجرمان سنة ١٢١٦، ثم امبراطوراً للغرب سنة ١٢٢٠م. ودخل في صراع مستمر ضد البابا والكنيسة البابوية، واشترك في الحملة الصليبية السادسة.

المخاطرة. لاسيا وأن مقدم الداوية قد اتخذ الاجراءات الضرورية، واحتفظ بحرس لحماية نفسه. وانتهت الأزمة بعودة فريدريك إلى ايطاليا.

أصبح الموقف سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م لمصلحة المسلمين بشكل واضح، فقد انحصر وجود الفرنج بعدد محدود من المدن والقلاع، وأمكن الانتصار على المغول التتار والقضاء على خطرهم. فتولى الظاهر بيبرس قيادة جيشه، وانطلق به من مصر، ففتح قيسارية وقلعتها، ثم فتح حيفا، وهاجم قلعة عتليت الضخمة فأحرق قريتها الواقعة خارج الأسوار. أما القلعة فانها نجحت في مقاومتها، فتخلى الظاهر بيبرس عن حصارها. وترك لفرسان الداوية، حماة القلعة، فرصة العيش لفترة اضافية أخرى وهم أسرى تحصيناتهم وأسوارهم. وما هي إلا ثلاث سنوات، حتى لم يبق للفرنج من ممتلكات جنوب عكا سوى قلعة عتليت ومدينة يافا التي أعاد الظاهر بيبرس فتحها سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م. وعندما وقع السلطان قلاوون الهدنة مع الفرنج سنة ١٢٨٣ م ولمدة عشر سنوات، وقع على هذه الهدنة من جانب الفرنج حاكم عكا والداوية في عتليت وصيدا. وجاء الأشرف خليل - ابن السلطان قلاوون - فقرر وضع حد نهائي لوجود الفرنج في بلاد الشام، فطردهم من عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. ثم انتقل بجيشه الى طرطوس فأعاد فتحها. وجاء دور عتليت، فاستسلمت حاميتها التي لم تعد تمتلك من القوة ومن القدرة ما يمكنها من المقاومة، فركبت البحر الى جزيرة أرواد المقابلة لطرطوس، ثم ارتحلت منها الى قبرص. لقد انتهى دور (فرسان المعبد - الداوية) ولم يعد لهم معبد يعملون من أجله ويتذرعون بذريعته، فضاعت منهم عتليت، آخر معاقلهم في بلاد الشام. وخسروا كل شيء، ولم يبق أمامهم إلا العيش على أحلام الماضي. وصحيح أنهم امتلكوا ثروات ضخمة ساعدتهم على المحافظة على ما بقي من وجودهم المادي خلال فترة معينة - في قبرص - إلا أن هذا الوجود بقي مضطرباً وقلقاً. إذ تألب ضدهم ملوك أوروبا وأمراءها، حتى أولئك الذين عملوا بالأمس على دعمهم وتنظيمهم. فكانت نهايتهم كمثل نهاية معظم التنظيمات المتطرفة الارهابية التي عاشت لفترة محدودة، وتلبية لمتطلبات فترة معينة، ثم ماتت عندما انتهت

حجة وجودها وزالت الحاجة اليها [1].

عاشت عتليت مدة ٧٦ سنة هجرية (٦١٤ - ٦٩٠ هـ) أو ٧٤ عاماً ميلادياً تقريباً (١٢١٧ - ١٢٩١ م) وهي مدة قصيرة جداً من عمر الزمن، لعله أقصر عمر عاشته قلعة من القلاع على أرض الشام. ولقد احتفظت كثير من القلاع على بعض هياكلها أو رموزها، من خلال ما بقي على سطح الأرض من حجارتها. غير أن عتليت فقدت معالمها الكاملة، ولم يعد لوجودها أثر. ذلك أنها برزت من أجل هدف معين، فزالت بزوال هذا الهدف، شأنها في ذلك كشأن أولئك الذين عملوا على تشييدها وأقاموا فيها.

لقد عمل فرسان المعبد - الداوية - وهم يشيدون قلعتهم عتليت، على الافادة من تجارب حروب الحصار مع المسلمين طوال قرن وربع قرن، كما أفادوا من بناء القلاع على نحو ما كانت عليه قلاع بلاد الشام وحصونها. فجاء فن عمارة قلعة عتليت فريداً في تكامله وقوته وتناسقه، وجاء المسلمون فصدمتهم جدران القلعة الملساء وأبراجها القوية وتحصيناتها المنيعة: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُ نَقْبًا ★ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [2] صدق الله العظيم.

وهكذا انهارت مقاومة فرسان الداوية، واستسلمت قلعتهم عندما جاء وعدها، ودخل المسلمون قلعة عتليت، فأزالوها من عالم الوجود. غير أن اسم (عتليت) سيبقى مقترناً باسم فرسان المعبد - الداوية - حيث يعتبر هذا الاسم رمزاً لتجربة تاريخية فريدة، لا في فن الحرب فحسب، بل في القيم التي ترتبط بتلك الحرب. ذلك أنه من طبيعة الحرب أن تفرز بعض القيم وبعض التنظيمات التي تشكل نتوءاً بارزاً وغير طبيعي، مما يحتم زوالها والقضاء عليها عندما تزول عوامل وجودها.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٢٦٦، ٢٦٩، ٢٩٣، ٣٣٧، ٥٤٦، ٥٥٦، ٦٣١، ٦٦٥ وعن نهاية الداوية بعد خروجهم من عتليت انظر المرجع ذاته: ٣/٧٣١ - ٧٣٥.

(٢) الجزء السادس عشر - سورة الكهف - الآيتين: ٩٧ و ٩٨.

٢١ ـ قلعة قيسارية.

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في الشام يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «أما بعد! فقد وليتك أجناد الشام كله. وكتبت لهم أن يسمعوا لك ويطيعوا، ولا يخالفوا لك أمراً. فأخرج فعسكر بالمسلمين، ثم سر بهم الى ـ قيسارية ـ[1] فانزل عليها، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فانه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها، وهم عدوكم، وإلى جانبكم، ولا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته ممتنعاً. ولو قد فتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام. والله عزّ وجل فاعل ذلك به. وصانع للمسلمين إن شاء الله»[2]. وجهز يزيد بن أبي سفيان جيشاً كبيراً أسند قيادته الى أخيه معاوية. وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية، فهزمهم وحصرهم في قيسارية، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه، فكان في كل مرة يهزمهم ويردهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم. فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً، وكملها في هزيمتهم مائة ألف وبعث بالفتح إلى أخيه يزيد[3] الذي أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بما تم من فتح قيسارية التي ذكرها أبو الفداء بقوله: «قيسارية مدينة بساحل الشام وتعد من أعمال فلسطين وكانت من أمهات المدن

---

(١) قيسارية: (CAESAREA) وتذكر أيضاً قيصرية: (QESARI) ـ أو ـ (QAISARIYA) وباليونانية: (KAISAREIA) أو ستراتونوس: (STRATONOS) وباللاتينية قيسارية البحر: (CAESAREA-MARITIMA) وبالفرنجية سيزارية: (CESAREE) وسيزارية تعني قيصر: (SEZARE) وسيزير: (SEZAIRE, CEZAIRE) و: (SESSAIRE) الخ...

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: ٤٩١ ـ ٤٩٣.

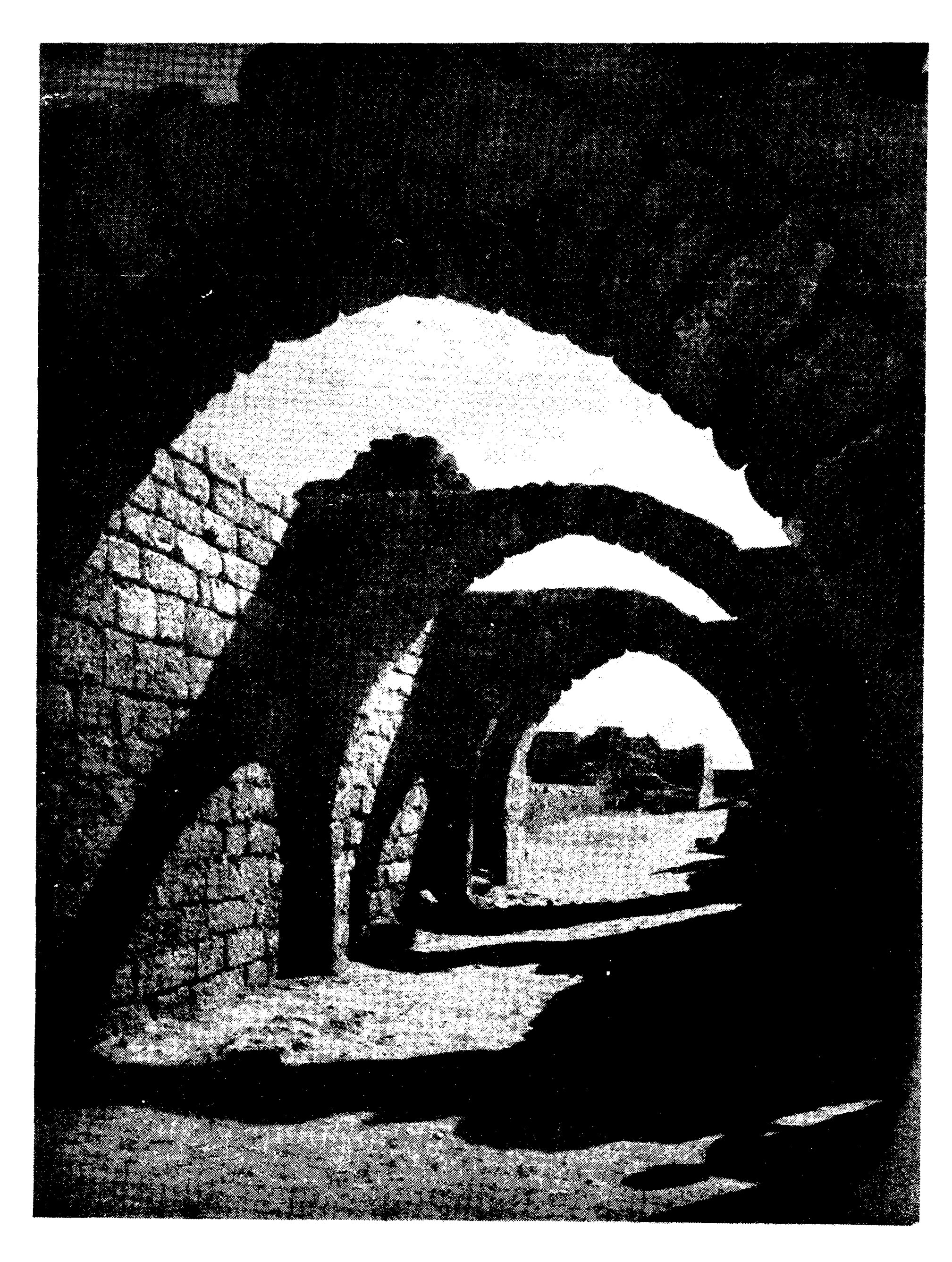
(٣) تاريخ الطبري. أحداث سنة ١٥ هـ ـ وهذا أقرب للصحة، وفقاً لتطور الأحداث. وهناك روايات تذكر أن الفتح قد حدث سنة ١٦ هـ أو ١٩ هـ.



قلعة قيسارية



٨٣ قلعة قيسارية



قلعة قيسارية

العظام. وبها مرسى كبير. وقال العزيزي: بينها وبين الرملة على ضفة البحر اثنان وثلاثون ميلاً. ومنها إلى عكا ستة وثلاثون ميلاً »[1].

كانت قيسارية مرفأ هاماً من مرافىء فلسطين، منذ أقدم العصور، وبقيت كذلك حتى القرون الوسطى، ذلك أنها احتلت موقعها على خليج طبيعي، يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر، ما بين حيفا ويافا. وكانت الدفاعات المتينة تحيط بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقريباً من جانب الخليج. وكانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة، كانت تشغل حيزاً من الأرض عند الطرف الجنوبي للمرفأ. ويحميها من جهة البر سور قوي[2]. غير أن صمود قوات الروم البيزنطيين بعد فتح بلاد الشام، لا يعود إلى قوة التحصينات والأسوار. فقد انهارت أسوار أضخم وأقوى: مثل دمشق. وخضعت قلاع وحصون أمنع وأصعب: مثل بصرى وبعلبك. وانما كان يعود لقوة الحامية. فقد تجمعت في قيسارية فلول جند الروم من سائر بلاد الشام وقلاعها بعد أن فتحها العرب المسلمون. وكان هذا الحشد الضخم في قيسارية يتلقى الدعم والامداد عن طريق البحر، حيث كانت للروم السيطرة الكاملة على البحر. مما كان يساعدهم على تأمين متطلبات الحامية المدافعة عن قيسارية، وذلك على أمل استخدامها في هجوم مضاد وشامل على العرب المسلمين. وقد أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه هذه الحقيقة، فأمر باقتلاع جذور الروم منها حتى لا يبقى لهم أمل بالعودة إليها.

بقيت قيسارية ثغراً هاماً من ثغور العرب المسلمين على امتداد خمسة قرون تقريباً من عمر الزمن. حتى إذا ما وصل الفرنج إلى بلاد الشام، أخذوا في البحث عن الموانىء التي تضمن لهم الاتصال ببلادهم عن طريق البحر. وظن المسلمون من سكان المدن الساحلية أن باستطاعتهم التعايش مع هذه الوافدة الجديدة التي حملت راية الصليبية. فأرسلت مدن أرسوف وقيسارية وعكا وصور وفوداً عنها وهي تحمل الهدايا الثمينة الى

---

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٧ - ٩٨.

(٢) تجدر الاشارة إلى أنه قد بدأت الأبحاث في موقع قيسارية منذ سنة ١٩٥٨ م. وأمكن الكشف عن أجزاء من تحصينات القرون الوسطى، مع بعض المباني التي ترجع للعصور القديمة والقرون الوسطى.

ملك القدس ـ بلدوين ـ. غير أن محاولة ـ المجاملة، أو التقية ـ لم تضمن لقيسارية الأمن أو السلام. فالحملات الصليبية القديمة ـ شأنها كشأن كل حركة استعمارية استيطانية. (بحسب المصطلحات الحديثة) كانت تريد الحصول على أرض فارغة من السكان حتى تقيم عليها مدنها ومستوطناتها ومجتمعها، ثم تعمل بعد ذلك على الافادة ممن تحتاجهم من اليد العاملة من أهل البلاد.

وهكذا كان مصير قيسارية التي وصلتها جحافل الفرنج الصليبيين بقيادة ملك القدس ـ بلدوين ـ وألقت عليها الحصار (يوم ٢ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١١٠١ م). ورفضت حامية قيسارية الاستسلام، وقاومت قدر استطاعتها مستفيدة من منعة تحصيناتها وأسوارها، إلى أن تمكن الفرنج من اقتحام قيسارية عنوة يوم ١٧ ـ أيار ـ مايو ـ. وجرى الاذن للجند المنتصرة بأن تنهب المدينة كيفما شاءت، وصحب النهب من الأهوال ما ارتاع له قادة الجند أنفسهم، ووقعت أعنف مذبحة بالمسجد الجامع ـ الذي زعم الفرنج أنه كان قديماً يحمل اسم معبد هيرود أجريبا ـ وقد لجأ إليه عدد كبير من سكان المدينة، والتمسوا الرحمة، غير أنهم لقوا مصرعهم رجالاً ونساء على السواء. حتى صار صحن الجامع بحيرة من الدماء. ولم ينج من الذبح من سكان المدينة إلا عدد قليل من الفتيات والأطفال، وقاضي القضاة، وقائد الحامية، اللذين أبقى بلدوين على حياتها ليحصل على فدية كبيرة. وكانت القسوة والشدة عن قصد واصرار **«وأراد بلدوين بذلك أنه لا يرحم من لا يسالمه»** [1].

اقتسم الفرنج الصليبيون الغنيمة فيما بينهم، شأنهم في ذلك هنا كشأنهم في كل مكان انتزعوه من المسلمين. فحصلت كل قوة من القوى التي شاركت في الحملة على نصيبها من قيسارية، حيث استوطنت في حي خاص بها ـ تجمعاً أو كومونا ـ. وتم تنصيب بطريرك لقيسارية يتبع لملك الفرنج ـ ملك القدس ـ. وكان على هذا البطريرك أن يحتفظ بقوة جاهزة للقتال. بصورة مستمرة، لاستخدامها من أجل الدفاع عن قيسارية، أو لارسالها إلى حيث تدعو الحاجة وهكذا اشتركت قوة قيسارية في عدد من المعارك

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٤٩٤ وتاريخ الحروب الصليبية: ١٢١/٢.

على أرض مصر والشام، ومنها معركة حطين الخالدة حيث حشد الفرنج قواتهم من جميع المدن والقلاع، فلما انتهت المعركة بانتصار المسلمين وبتدمير قوات الفرنج، أصبحت حاميات المدن ضعيفة، بحيث أن جحافل المسلمين الظافرة لم تتوقف عند قيسارية، وانما اجتاحتها دون جهد ولا عناء، ولم يكن للأسوار أو التحصينات دور يذكر في الدفاع عن قيسارية بغياب من يدافع عنها أو يحميها. وما إن خضعت قيسارية مجدداً للمسلمين حتى عمل صلاح الدين الأيوبي على تدمير التحصينات القديمة فيها حتى لا تكون عقبة في طريق حرب الحركة التي كان يمارسها المسلمون [١].

ما إن وصلت أخبار انتصارات المسلمين في حطين، وفي القدس، وفي كل مكان من بلاد الشام، إلى أسماع الغرب، حتى تسارع دعاة الحروب الصليبية لاستنفار الملوك والأمراء، ولحشد القوى. وجاءت الحملة الصليبية الثالثة التي نجحت قواتها بعد صراع مرير استعادة عكا (سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م) وتابعت قوات الحملة تحركها على درب الساحل حيث سبق لصلاح الدين أن عمل على تدمير استحكامات المدن وتحصيناتها وأسوارها. حتى إذا ما وصل الفرنج الى قيسارية أضحى الالتحام وشيك الوقوع بين المسلمين والفرنج. وأخذ القتال الحاد ينشب كل يوم. ولقي الفرنج صعوبات كبيرة. وأخذوا يرددون: «كن لنا عوناً أيها القبر المقدس» [٢] وحشد صلاح الدين قواته في موضع يمتد أمامه سهل فسيح يسمح باستخدام الفرسان، وتغطيه الغابات التي كانت تمتد حتى مسافة ميلين من البحر. وهناك دارت يوم ٧ - ايلول - سبتمبر -

---

(١) كان من عادة العرب المسلمين تدمير الأسوار والتحصينات التي قد يستخدمها العدو للامتناع وراءها، وإعاقة حرب الحركة التي أتقن العرب المسلمون فنونها وأساليبها. ولعل أوضح نموذج مبكر لهذا النهج هو ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح الاسكندرية الثاني سنة ٢٥ هـ - فقد جاء الروم وأنزلوا قواتهم في الاسكندرية، واعتصموا بها، فسار إليهم عمرو بن العاص، واقتتلوا قتالاً شديداً وأصاب المسلمين ضيق شديد، فأقسم عمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان. فلما نصره الله عليهم وانهزموا - هدمه. (تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٢٥ هـ. وكذلك فتوح مصر - ابن الحكم).

(٢) كن لنا عوناً أيها القبر المقدس: (SANCTUM SEPULCHRUM ADJUVA).

١١٩١ م. المعركة المعروفة باسم (معركة أرسوف) والتي حقق فيها الفرنج نصراً أمكنهم من إعادة فرض هيمنتهم على قيسارية. وتمكن صلاح الدين من سحب الحامية التي كانت تدافع عن قيسارية والتي لم يكن أفرادها يزيدون على الخمسين فارساً. وقد تم سحبهم مع نسائهم وأطفالهم ومتاعهم. ودارت بعد ذلك مفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، أمكن في نهايتها الاتفاق على أن تكون قيسارية هي الحد الفاصل بين ممتلكات الفرنج وبين بلاد المسلمين. وعاد حكام الفرنج السابقون الى حيفا وقيسارية وأرسوف. وشرع الفرنج على الفور باعادة بناء استحكامات قيسارية وتحصينها. وقد تطلب بناء الأسوار الجديدة في قيسارية جهداً كبيراً وأموالاً ضخمة. وأفاد ملك القدس (يوحنا بريين)[١] من الحملة الصليبية الخامسة، حيث حصل على المال من ليوبولد - دوق اوستريا - ومن جاي امبرياكو سيد جبيل. وعهد الى (غوتييه دافين)[٢] باكمال تحصينات قيسارية. غير أن الملك الأفضل علي بن صلاح الدين عمل سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م - وكان يومها ملكاً على دمشق - على مهاجمة البلاد الساحلية، فاستولى على قيسارية وخرب تحصيناتها. وعاد الفرنج فشيدوها وحصنوا أسوارها، ولما كان الفرنج يومها يحاصرون دمياط في مصر. فقد قام جيش دمشق بالهجوم على ممتلكات الفرنج الساحلية، وهاجم قيسارية التي لم يفرغ من إعادة بنائها إلا منذ زمن قريب. ولكن الفرنج أعادوا إصلاح ما تهدم من الأسوار، وأضيفت إليها تحسينات جديدة، مثل إضافة الدعم لحصن البوابة، وشق القناة الكبيرة المكسوة، والجدار المائل المتواصل الخ... وقد ظهر أن الاحتفاظ بقيسارية والدفاع عنها ودعمها يتطلب نفقات باهظة، الأمر الذي دفع سيد قيسارية - يوحنا - إلى بيع نصيبه في قيسارية الى طائفة الفرسان الرهبان (الداوية). وبقيت قيسارية في قبضة الفرنج حتى سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. حيث خرج الظاهر بيبرس من مصر على رأس جيشه الكثيف، حتى إذا ما وصل إلى فلسطين، أقام معسكره في الجنوب، وتظاهر أنه سيقوم بحملة صيد في التلال الواقعة وراء أرسوف. ثم ظهر بصورة مباغتة أمام

---

(١) يوحنا بريين: (JEAN DE BRIENNE).

(٢) غوتييه دافين: (GAUTIER D'AVESNES).

قيسارية، فسقطت المدينة على الفور في قبضته (يوم ٢٧ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥م) غير أن القلعة صمدت لمدة أسبوع. ثم أذعنت الحامية للمسلمين، وسمح بيبرس لأفراد الحامية بالخروج. ولم يتعرض لهم أحد بأذى. غير أنه أمر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض. ولم تلبث القلاع المجاورة لقيسارية (عتليت وأرسوف) أن خضعت بدورها لجحافل المسلمين الظافرة.

وتابع الظافر بيبرس أعمال الفتح، حتى إذا لم يبق في قبضة الفرنج إلا بعض المدن والقلاع، أسرعوا يلتمسون الهدنة. فتم في قيسارية عقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور (بدأت يوم ٢٢ - أيار - مايو - سنة ١٢٧٢م) وضمنت للفرنج البقاء بالساحل الضيق الممتد من عكا إلى صيدا. وأن يكون لهم الحق في استخدام طريق الحجاج الى الناصرة. وعاد الفرنج عندما انتهى أجل الهدنة فالتمسوا من السلطان قلاوون تجديدها (سنة ١٢٨٣) غير أن الفرنج في عكا نقضوا الهدنة (سنة ١٢٩٠). فسار الأشرف خليل لطرد بقايا الفرنج من بلاد الشام. وقام جيش دمشق بفتح قيسارية، فأمر الأشرف خليل بتدمير أسوار قيسارية وتحصيناتها تدميراً كاملاً. وكذلك فعل بجميع الحصون والقلاع الساحلية. ذلك أن الأشرف خليل علم بتجمع قوات للفرنج في قبرص. ووصلته معلومات عن قيام ملك قبرص وامراء الفرنج باجراء الاتصالات مع ملوك الغرب لتنظيم حملة صليبية جديدة. فقرر تدمير جميع القواعد والمرتكزات التي يمكن للفرنج الاستناد إليها في أي حملة جديدة.

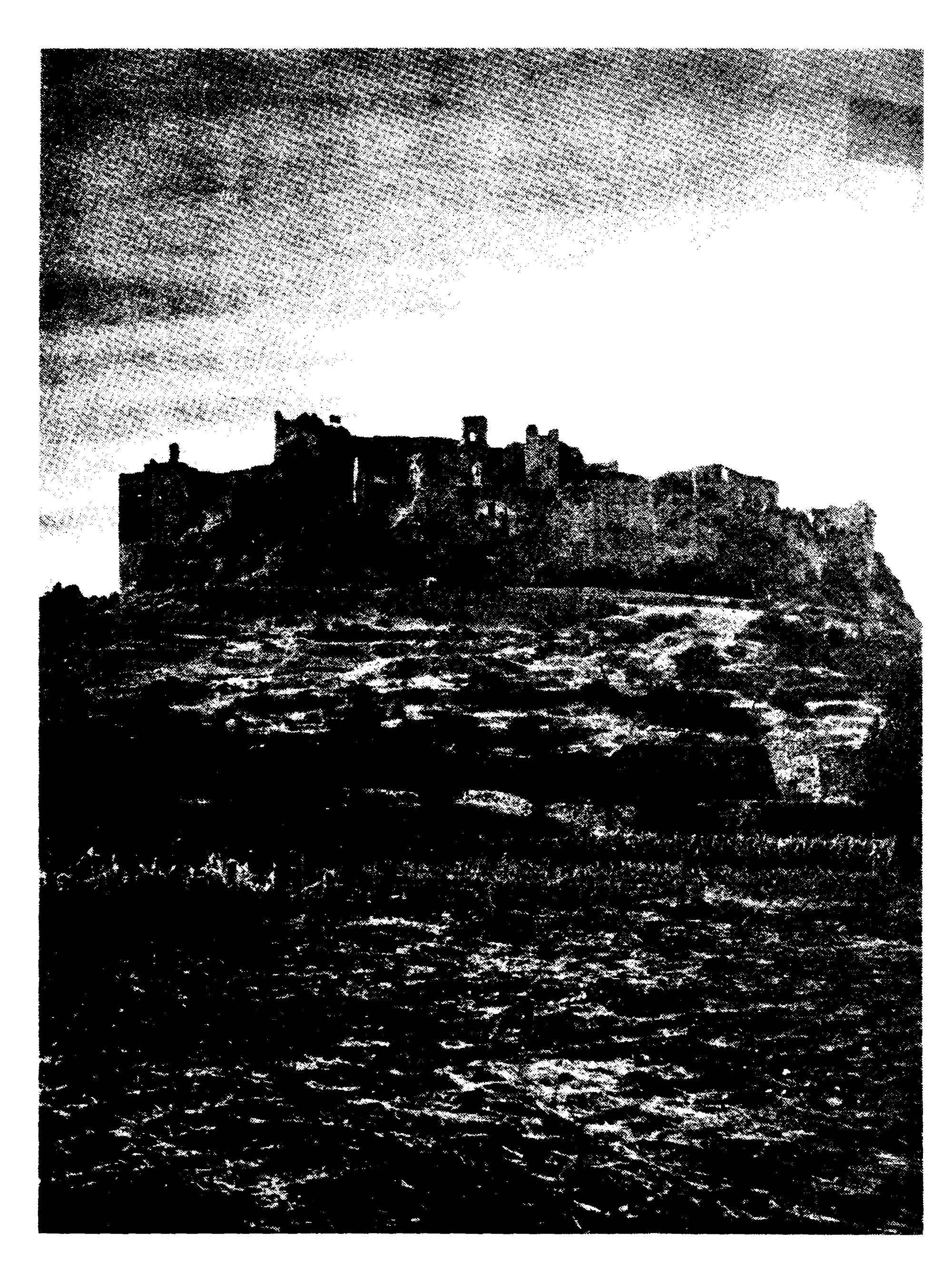
٢٢ ـ قلعة مصياف.

تقع (قعلة مصياف)[1] ومدينتها في وسط ـ غرب ـ سورية. وتحتل مكانتها فوق تل يتدرج الانحدار في الشعاب الشرقية من جبال النصيرية ـ العلويين حالياً ـ والمدينة صغيرة محاطة بسور واق بسيط. تقع القلعة عند نهايتها الشرقية. وتتماشى أسوارها الخارجية مع الخطوط العامة للمرتفع الصخري المتطاول الذي تتربع فوقه. وهي محمية بشكل مثير للعجب باستغلال الطبيعة الطبوغرافية استغلالاً تاماً. وتتألف هذه القلعة المتضامة للغاية من جناح علوي محاط بقلعة خارجية. يتميز كل عنصر من عناصرها بتنوع أسلوب البناء فيه على نطاق واسع، وشتات من حقب متباعدة جداً. ذلك أن تاريخ القلعة يعود إلى أيام الروم البيزنطيين. ثم عاشت حياة العهود الاسلامية المتتالية، ثم أيام الحملات الصليبية القديمة. وتعرضت خلال العهود المتتالية لأحداث كثيرة ومثيرة، لم يكن أقلها شأناً أو خطورة تلك الزلازل أو الهزات الطبيعية التي كانت تترك في كل مرة خراباً ودماراً، يعقبه اصلاح وبناء. ولقد كان من أكثر ما عرفته القلعة من أحداث مثيرة هو أنها كانت قاعدة رئيسة لجماعة الاسماعيلية ـ الباطنية أو الحشاشين ـ والذين مارسوا دوراً هاماً في مجال الارهاب، أيام الحروب الصليبية القديمة. وقد وصف أبو الفداء مدينة مصياف بقوله: «مصياف هي بلدة جليلة، وبها أنهر صغار من أعين، ولها بساتين، ولها قلعة حصينة، وهي مركز دعوة الاسماعيلية، وهي في لحف جبل اللكام الشرقي. ومصياف تقع في جهة الشمال من قلعة بعرين وعلى مسافة فرسخ منها. وكذلك فهي تقع الى جهة الغرب من مدينة حماه وعلى مسيرة يوم منها. وجبل اللكام، بضم اللام وتشديد الكاف وألف وميم»[2].

---

(١) مصياف: (MASYAF) ومصياد: (MASYAD) وبالفرنجية مصياط: (MESSIAT).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية: (ص ـ ٨٨ ـ ٨٩).



قلعة مصياف

ويظهر من ذلك أن قلعة مصياف قد ارتبطت ـ أو اقترنت ـ باسم طائفة الاسماعيلية، خلال فترة الحروب الصليبية. وهذا ما أشار إليه مصدر عربي ـ اسلامي بقوله: «ملك الاسماعيلية حصن مصيات ـ مصياف ـ بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ، أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن. فصار بأيديهم سنة خمس وثلاثين وخمسمائة»[1]. وإذن فقد يكون من الضروري التعرض لهذه الطائفة بقدر ما يتطلبه البحث هنا. ولقد ضمت المراجع العربية الاسلامية فيضاً من أخبار الاسماعيلية ومعتقداتهم وأعمالهم وممارساتهم. ويتركز البحث في هذا المضمار على الجانب العسكري المتعلق بقلعة مصياف. وقد ورد بشأن طائفة الاسماعيلية أصحاب القلعة ما يلي: «الاسماعيلية هم الباطنية، وهم الذين كانوا يعرفون قبل ذلك بالقرامطة. وكان أول ظهورهم بأصبهان ـ في بلاد فارس ـ وكان من أول أعمالهم قتل نظام الملك السلجوقي. واجتمعوا عند قاين ـ بلد في فارس أيضاً ـ وعلموا بمرور قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين، فتعرضوا لها، وقتلوا أهل القافلة أجمعين. وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم. وفعلوا هذا بخلق كثير. وزاد الأمر حتى أن الانسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله من قتله وقعدوا للعزاء. فحذر الناس وصاروا لا ينفرد أحد منهم. وكان الباطنية إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه في بئر الدار، قد صنعت لذلك. وكان على باب درب منها رجل ضرير، فإذا اجتاز به انسان، يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب، فيفعل ذلك، فإذا دخل الدرب أخذ وقتل. ثم استولى الاسماعلية على عدة حصون منها قلعة أصبهان ـ استولى عليها أحمد بن عطاش ـ ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق والخوف الدائم. ومنها قلعة ألموت، من نواحي قزوين (ومعنى ألموت تعليم العقاب بلغة الديلم) وقد استولى عليها الحسن بن الصباح، أحد تلامذة أبن العطاش، وقد زار ابن الصباح مصر وبايع المستنصر الفاطمي الذي أمره بدعوة الناس إلى إمامته، فعاد وكثر أتباعه،

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة: ٥٣٥ هـ.

واستولى على قلاع سنمكوه وخالنجان وأستوناوند وكردكوه وقلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور وقلعة خلادخان الخ..». «وقد انبسط - انتشر - جماعة منهم في عسكر المسلمين - عسكر بركيارق - واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم، وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة. وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم. فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل. فصار يخافهم من يخالفهم، حتى أنه لم يعد أحد يتجاسر على الخروج من منزله حاسراً. سواء كان أميراً أو متقدماً. بل يلبس تحت ثيابه درعاً، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه».

تعاظمت قوة الاسماعيلية بعد ذلك: «وسار جمع كثير منهم من طريثيث عن بعض أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي، وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم، وكان من جملة فعلهم أن قافلة للحجاج تجمعت فيما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد، ووصلوا إلى جوار الري، فأتاهم الاسماعيلية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً. وقتلوا أيضاً أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، وكان يدرس بالري ويعظ الناس. فلما نزل من كرسيه أتاه باطني فقتله... وتفرغ السلطان محمد السلجوقي لحربهم، وأرسل من يناظرهم لاستنزالهم من قلعة شاهدز - القريبة من أصبهان - فقالوا: **إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي به منهم...**

وامتد نفوذ الاسماعيلية إلى الشام، وأهلها مصرفون لحرب الفرنج الصليبيين، فتابعوا سيرتهم ضد المسلمين وقادتهم. وكان من أول أعمالهم قتل أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي - صاحب الأمر والحكم بمصر، **وذلك لأن الاسماعيلية قد كرهوه بسبب عدم معارضته لأهل السنة في اعتقادهم. والنهي عن التعرض لهم. وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم»** [1].

كما واصل داعي الاسماعيلية (بهرام ابن أخت الأسد أباذي) الى بلاد الشام، وأخذ يتردد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه. فاستجاب له منهم

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنوات: ٤٩٥ و ٤٩٨ و ٥٠٠ و ٥١٥ و ٥٢٠ هـ.

من لا عقل له، فكثر جمعه، إلا أنه يخفي شخصه فلا يعرف. وأقام بحلب مدة، واتصل بصاحبها ايلغازي الذي أراد أن يعتضد به لاتقاء الناس شره وشر أصحابه، لأنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم. وأشار ايلغازي على صاحب دمشق ـ طغتكين ـ بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه. فأظهر حينئذ شخصه وأعلن عداوته، فكثر أتباعه من كل من يريد الشر والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتضاد به على ما يريد، فعظم شره واستفحل أمره. وصار أتباعه أضعافاً مما كانوا.

فلـولا أن عامة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السنة، وأنهم يشددون عليه فيما ذهب إليه، لملك البلد. ثم إن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه، فخاف عاديتهم، فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه. فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه. فلما سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية. فعظم حينئذ خطبه، وجلت المحنة بظهوره. واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين. لاسيما أهل السنة والستر والسلامة. إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من الاسماعيلية. فتربصوا بهم الدوائر ينتظرون الفرصة المناسبة للفتك بهم.

لقد عمل الاسماعيلية على خدمة الصليبية. وهذا ما تضمنه بحث لمستشرقين جاء فيه: « كان أمير انطاكية ـ كونت تانكرد ـ من أشد الصليبيين عداء للإسلام وأهله. فأخذ في العمل للكيد للمسلمين. وكان ما هو أكثر عوناً له، وما هو أشد خطراً على كل محاولة لقتال الصليبيين، ظهور مذهب جديد يعتمد على التدمير ـ هو مذهب الاسماعيلية الذي اشتهر فيما بعد باسم الحشيشيـة، والذي استخـدم لتحقيـق أغـراض سياسية، حيث وجه لمناهضة الخلفاء العباسيين ببغداد، والى السلاجقة الذين دعموا الخلافة. فكان لقوتهم دورها في إطالة عمر الخلافة العباسية. وقد صار للاسماعيلية معاقل في الشام، وكان أول حادث اغتيال قاموا به في الشام، هو ما وقع سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م عندما اغتالوا أمير حمص جناح الدولة. ولم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قتلوا أمير أفامية ـ ابن ملاعب ـ الذي لم يفد من مصرعه إلا الفرنج في

أنطاكية. ومع أن الباطنية لم يكشفوا حتى ذلك الوقت عن سياستهم، إلا بما أقدموا عليه من اغتيالات متفرقة، فـانهم أضحـوا عـاملاً في السيـاسـة الإسلاميـة، لم يسـع المسيحيون أنفسهم إلا تقديره »[1].

تابع الاسماعيلية دورهم، فعملوا في سنة ٥٢٠ هـ على اغتيال أكبر عدو للفرنج الصليبيين، وهو أمير الموصل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي: « وقد اغتالوه وهو يصلي الجمعة. وكان ابنه عز الدين مسعود بحلب يحفظها من الفرنج. فكان من العجب أن صاحب أنطاكية ـ تانكرد ـ أرسل الى عز الدين بن البرسقي يخبره بقتل والده، قبل أن يصل إليه الخبر ». وفي السنة التالية (سنة ٥٢١ هـ) قتل معين الملك أبو نصر أحمد ابن الفضل، وزير السلطان سنجر ـ قتله الباطنية. وفي سنة ٥٢٣ هـ ـ قام أهل دمشق بقتل الباطنية، وكان سبب ذلك أنه لما سار بهرام الى قلعة بانياس وتملكها، ترك في دمشق خليفة له، يدعو الناس الى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون من الجبال منها القدموس وغيره. وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وغيرهم... فسار إليهم بهرام فقاتلهم، فهزموه وقتلوه.

وجاء خليفته ـ أبو الوفا ـ الى دمشق، فراسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك. وتقرر بينهم الميعاد يوم الجمعة، وقرر الاسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع. فلا يمكنون أحداً يخرج منه حتى يصل الفرنج ويتسلموا البلد. فبلغ الخبر تاج الملوك ـ صاحب دمشق يومئذ ـ فنادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس. وخاف الاسماعيلية في بانياس أن يثور المسلمون، فيهلكوا. فراسل مقدمهم اسماعيل الفرنج واتفق معهم على تسليم بانياس اليهم. والانتقال الى بلادهم. فأجابوه. فسلم القلعة إليهم. وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلاد الفرنج.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٩٣/٢ ـ ١٩٥.

عامل الفرنج الاسماعيلية معاملة سيئة، فقرروا اعتزالهم. وفي سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م. اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه (ابن عمرون) وصعدوا إليه، وأقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

يمكن بعد ذلك تجاوز مجموعة الأحداث الصغرى، للوصول الى موقف الاسماعيلية من صلاح الدين الأيوبي، بسبب كراهيتهم له لاقدامه على الغاء الخلافة الفاطمية بمصر والتي كانوا يزعمون ارتباطهم بها معنوياً. وبسبب التحريضات والاغراءات التي كانت تدفعهم لمناصبة العداء. ففي سنة ٥٧٠ هـ، أرسل مقدم الاسماعيلية في مصياف ـ سنان شيخ الجبل ـ جماعة لقتل صلاح الدين وهو يحاصر حلب. فلما وصلوا رآهم الأمير خمارتكين ـ صاحب قلعة بوقيس ـ فعرفهم لأنه كان جارهم في البلاد وكثير الاجتماع بهم والقتال لهم. فلما رآهم قال لهم: ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟ فهاجوه، وجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية، فقتلوا جماعة من رجال صلاح الدين، وقتلوا. وفي السنة التالية (٥٧١ هـ) وبينما كان صلاح الدين يقيم على حصار قلعة أعزاز، دخل ذات يوم الى خيمة مقدم الطائفة الأسدية. فوثب عليه باطني ـ اسماعيلي ـ فضربه في سكين في رأسه فجرحه، فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية، إنما يضرب ضرباً خفيفاً. واستمر الباطني بضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. وكان عليه كراغند، فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند فتقطعه، والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته، حتى جاء أمير من أمراء صلاح الدين فأمسك بالسكين في كفه، فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني. وجاء آخر من الباطنية فقتل أيضاً، وثالث فقتل وركض صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته. ثم اعتبر جنده، فمن أنكره أبعده. ومن عرفه أقره على خدمته [1].

---

(١) لمطالعة المزيد عن تفاصيل الأحداث المذكورة، يمكن الرجوع الى الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٣ و ٥٢٧ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢.

لم يكن باستطاعة صلاح الدين الأيوبي تجاهل استفزازات الاسماعيلية وتحدياتهم. فسار إليهم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦ م) فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصياف ـ وهي أعظم حصونهم وأمنع قلاعهم. فنصب عليها المنجنيقات. وضيق على من بها. ولم يزل كذلك، فأرسل مقدم الاسماعيلية سنان إلى صاحب حماه ـ شهاب الدين الحارمي ـ وهو خال صلاح الدين. يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم. وأنذره بقوله: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين. فشفع فيهم، وسأل الصفح عنهم. فأجابهم إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم. وبقيت مصياف في قبضة الاسماعيلية ـ وتابع مقدم الاسماعيلية دوره للافادة من ظروف الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م. وبعد أن فشلت حملة ملك فرنسا لويس التاسع[1]. على مصر. وانسحب لويس التاسع إلى عكا. فأرسل اليه زعيم الاسماعيلية سفارة طلبت من لويس مالاً مقابل التزام الاسماعيلية ـ الحشيشية ـ الحياد. غير أن السفارة لم تنجح لأن الملك الفرنسي طلب ارجاء التحالف معها. فأرسل مقدم الاسماعيلية سفارة ثانية، طلبت بصفة خاصة أن تتحلل من الالتزام بدفع جزية للاسبتارية، وحملت السفارة معها إلى الملك الهدايا الثمينة، ووافقت على إقامة تحالف وثيق مع الفرنج. ونظراً لما كان يعلمه الملك لويس من العداوة التي تضمرها الاسماعيلية للمسلمين السنة، فقد شجع خطوتهم. وأنفذ (ييف البريتوني) للاتفاق على عقد معاهدة. وأعجب (ييف البريتوني) بالمكتبة التي اقتناها الحشيشية في مصياف، إذ عثر فيها على موعظة من سفر الاخبار، كان السيد المسيح قد وجهها الى القديس بطرس، والذي اعتبر بحسب ما قاله رجال الحشيشية تجسيداً آخر لهابيل ونوح وابراهيم. وتم

---

(١) لويس التاسع: (LOUIS IX-OU-SAINT LOUIS) ابن ملك فرنسا لويس الثامن وملكتها بلانش كاستيل. ولد في بواسي ـ فرنسا ـ سنة ١٢١٤ م. وأصبح ملكاً لفرنسا من سنة ١٢٢٦ حتى وفاته سنة ١٢٧٠ م. حكم في البداية تحت وصاية أمه. قاد حملة صليبية سنة ١٢٤٩ للاستيلاء على مصر. غير أنه هزم في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م فافتدى نفسه ومن بقي من حملته. وخرج من مصر الى عكا حيث أقام فيها أربع سنوات (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م) عاد بعدها الى بلاده. وفي سنة ١٢٦٩ حمل الصليب، وقاد الحملة الصليبية الثامنة التي تحطمت على أبواب تونس. ومات لويس التاسع هناك.

بينهم ابرام معاهدة للدفاع المشترك»[1]. ولكن هذه المعاهدة لم تمكن الفرنج أو الاسماعيلية من ايقاف المد الظافر للمسلمين. فقد تعاظمت قوة المسلمين، وأخذوا في التضييق على الفرنج في كل مكان. غير أن خطراً جديداً جاء من الشرق. فقد انطلق المغول من جوف آسيا، وعملوا خلال سيرهم على اقتلاع جذور الاسماعيلية وإبادة أصحابها. وبدؤوا بقلعة آلموت، ثم تابعوا ذبح اتباع الاسماعيلية، والاستيلاء على حصونهم وقلاعهم في بلاد فارس كلها. وعندما وصلوا إلى بلاد الشام استولوا على مصياف في جملة ما استولوا عليه من القلاع. حتى إذا ما انتصر المسلمون في عين جالوت (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) وانسحب المغول، عملوا قبل انسحابهم على تدمير مصياف وقلعتها.

خسر الاسماعيلية قلاعهم وحصونهم جميعاً، وأصبحوا شتاتاً، فوجدوا أن من مصلحتهم الوقوف إلى جانب الأقوياء للمحافظة على ما بقي من شتاتهم. وكان الظاهر بيبرس قد أخذ بانزال العقاب بالفرنج الذين تحالفوا مع المغول (إمارتي أنطاكية وأرمينية) فوقف الاسماعيلية الى جانب الظاهر بيبرس الذي حارب أعداءهم التتار فهزمهم، والذي حرر الاسماعيلية من الاتاوة - الجزية - التي كانوا يدفعونها لفرسان الاسبتارية. فنظم الاسماعيلية مجموعة من الكتائب التي اشتركت مع المسلمين في فتح عدد من الحصون والقلاع[2]. ولم يكن السلطان بيبرس ليسمح باعادة مصياف الى الاسماعيلية. فوضع فيها حامية من المسلمين، وأتبعها الى قيادة قلعة الحصن. ثم أتبعها إلى ولاية طرابلس.

يظهر العرض الوجيز السابق، أن قلعة مصياف قد انفردت عن كل ما عداها من قلاع بلاد الشام وحصونها بدورها المميز. فإذا كانت قلاع البلاد الساحلية قد انتظمت في إطار دفاعي متكامل لحماية المناطق التي احتلها الفرنج. وإذا كانت قلاع البلاد الداخلية وحصونها قد انتظمت بدورها في إطار دفاعي متكامل لحماية بلاد المسلمين.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/٤٨١ - ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/٥٧٠ - ٥٧١.

فقد ارتبطت مصياف وقلعتها بمجموعة القلاع المتناثرة والمتباعدة والممتدة حتى عمق بلاد فارس. ولقد اختار الاسماعيلية حياة العزلة في القلاع نظراً لما كان يفصلهم عن محيطهم من غرابة في التفكير وشذوذ في المعتقدات. وانحراف في ممارساتهم الاجرامية. ولهذا حاربهم المسلمون وتنكر لهم الفرنج، وأجهز عليهم المغول التتار. ولئن تعرض تنظيم الاسماعيلية - الحشاشين - للضربة القاضية على أيدي المغول، إلا أن المسلمين والفرنج قد أخضعوهم من قبل لقيود صارمة. وإذا كان بقاء قلعة مصياف في قبضة الاسماعيلية طوال فترة الحروب الصليبية القديمة، على حدود خط الصراع بين المسلمين والفرنج. هو برهان على كفاءتهم الديبلوماسية العالية. وبرهان أيضاً على مرونتهم في التحرك بين مراكز القوى المتصارعة. فان نهايتهم انما هي البرهان الثابت على عجزهم عن إقامة كيان مميز لهم. رغم ما توافر لهم من الثراء الفاحش. والامكانات الضخمة. ذلك لأن مصدر ثرائهم قد اعتمد على النهب والسلب والابتزاز والقتل والارهاب - وهي وسائل كفيلة في حد ذاتها بالقضاء على كل كيان حتى لو تمكن مثل هذا الكيان الظهور لبعض الوقت، في أي وقت، على سطح الأرض.

٢٢ ـ قلعة نمرود [الصبيبة].

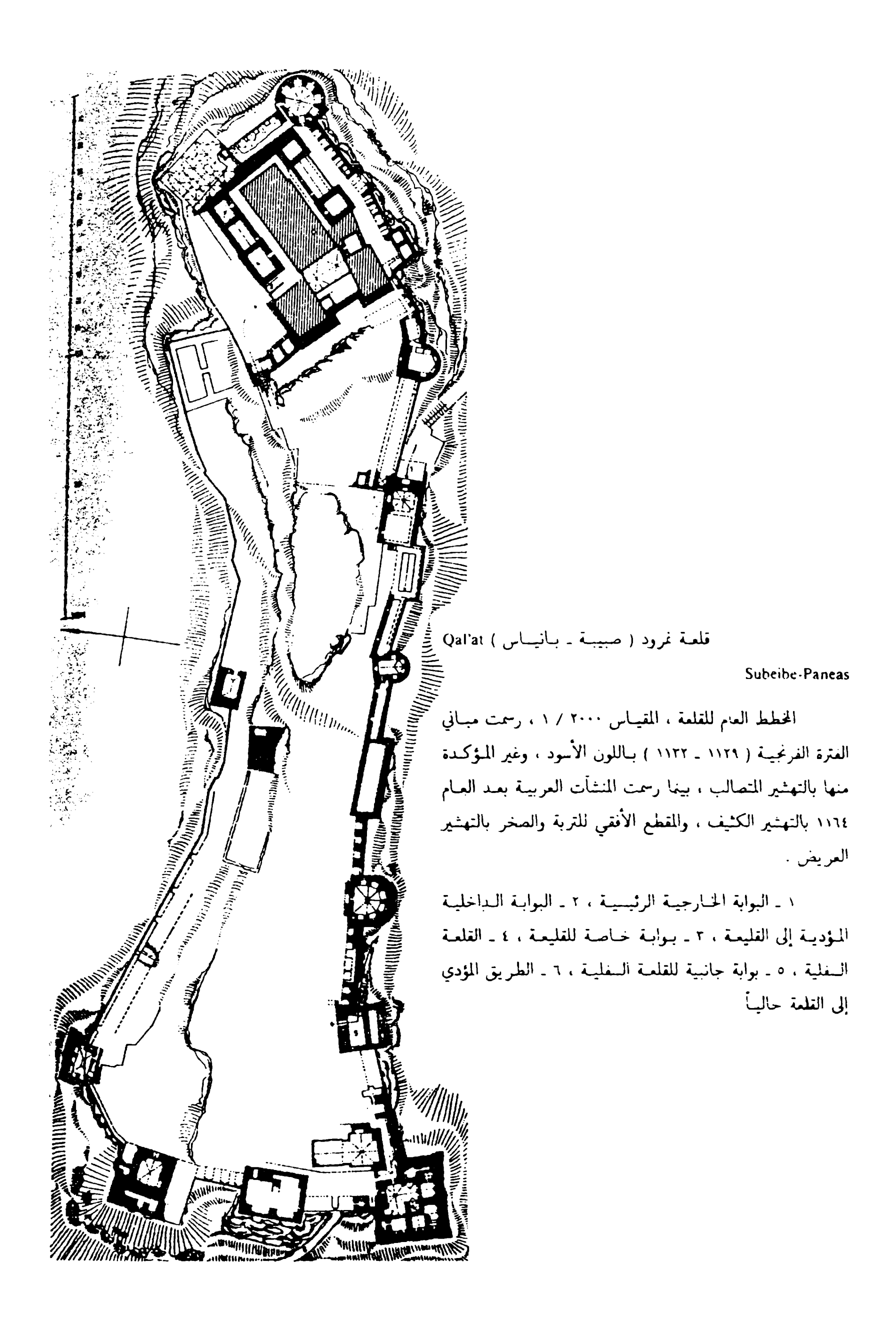
تقع (قلعة نمرود)[١] في الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية، وهي الى الشمال مباشرة من بلدة بانياس الصغيرة في الجولان، على الحدود بين سورية وفلسطين التي تحتلها اسرائيل، قرب ينابيع الاردن. وتحتل جرفاً صخرياً متطاولاً، يشرف على هضبة عالية. ترتفع تدريجياً نحو الشمال. وتواجه دفاعاتها الرئيسة الجبال في الشمال. وإن درجة الانحدار ـ الميل ـ المتواضعة على السفوح الجنوبية قد تطلبت إقامة تحصينات أقوى على هذا الجناح الذي كانت تحميه ثمانية أبراج وحصون بارزة من أحجام متباينة وتصميم مختلف. أما الجناح الشمالي، فيتمتع بحماية طبيعية على سفح صخري شديد الانحدار، ولم يكن يحميه سوى سور بسيط مضلع السطوح، بينما كان الجناح الغربي متكيفاً مع الطبيعة الطبوغرافية، وهو محمي بعدد من الأبراج القوية، مثله كمثل الجناح الجنوبي. ونظراً لوجود هذه القلعة على مسافة متوسطة بين الشام ـ دمشق ـ وفلسطين. فقد كانت مركزاً للصراع بين دمشق وجيشها من جهة، وبين الفرنج وجيشهم من جهة أخرى. وقد وصفها أبو الفداء بقوله: «بانياس ـ اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها. وذات أنهار. وهي على مرحلة ونصف من دمشق، من جهة الغرب، بميلة الى الجنوب. والصبيبة اسم لقلعتها. وهي من الحصون المنيعة. قال العزيزي: ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج ـ المعروف باسم جبل الشيخ أو جبل حرمون ـ وهو مطل عليها. والثلج على رأسه كالعمامة، لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء»[٢].

عندما استقر الفرنج الصليبيون في القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) شرعوا على

---

(١) قلعة الصبيبة: (QAL'AT SUBEIBE) أو قلعة بلنياس أو بانياس: (PENEAS)-(BELINAS).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٥٢ ـ ٥٤.



قلعة نمرود (صبيبة - بانياس) Qal'at
Subeibe-Paneas

المخطط العام للقلعة ، المقياس ٢٠٠٠ / ١ ، رسمت مباني الفترة الفرنجية (١١٢٩ - ١١٣٢) باللون الأسود ، وغير المؤكدة منها بالتهشير المتصالب ، بينما رسمت المنشآت العربية بعد العام ١١٦٤ بالتهشير الكثيف ، والمقطع الأفقي للتربة والصخر بالتهشير العريض .

١ - البوابة الخارجية الرئيسية ، ٢ - البوابة الداخلية المؤدية إلى القليعة ، ٣ - بوابة خاصة للقليعة ، ٤ - القلعة السفلية ، ٥ - بوابة جانبية للقلعة السفلية ، ٦ - الطريق المؤدي إلى القلعة حالياً



قلعة صبيبة بانياس (نمرود)

الفور بالعمل على توسيع حدود مناطقهم التي احتلوها. فعهد ملك القدس - بلدوين - بامارة الجليل الى (هيوسانت أومر) وشجعه على أن ينتهج سياسة توسعية عدوانية ضد المسلمين. فكان أول عمل قام به - هيو - هو تشييد قلعة على الجبل (قلعة تورون - والمعروفة باسم قلعة تبنين) للتحكم بالطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق. وذلك حتى يعد أفضل الظروف للاغارة على الأراضي الخصيبة الواقعة إلى الشرق من بحر الجليل. ثم شيد قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب من بحيرة طبرية - أطلق عليها العرب اسم قلعة علعال - واكتمل بناء القلعتين (سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أن حصن علعال لم يبق في أيدي الفرنج سوى فترة قصيرة. إذ أن أمير دمشق - طغتكين - لم يسمح بأن تتعرض بلاده للتهديد، فقاد جيشه سنة ٤٩٩ هـ - بينما كان أمير الجليل هيو عائداً إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد إغارة قوية على أملاك المسلمين. وانقض طغتكين بجيشه، فأصيب هيو بجراح أودت بحياته، وتفرق رجاله، ولم يجد طغتكين صعوبة في الاستيلاء على قلعة علعال [١].

هكذا أصبحت بانياس وقلعتها (قلعة نمرود أو الصبيبة) على خط الصدام المباشر بين جيش دمشق المدافع عن جنوب فلسطين، وبين جيش الفرنج الصليبيين في القدس والجليل. وكان مقدم طائفة الاسماعيلية (بهرام الاسترابادي) [٢] قد حصل من تاج الملك بوري بن طغتكين على قلعة بانياس. فقام الاسماعيلية بتسليمها الى الفرنج. فلما كان من أمير دمشق - شمس الملوك بن تاج الملك واسمه اسماعيل - إلا أن حشد جيشه دون أن يعلم أحد مقصده، ثم سار وسبق خبره - أواخر المحرم من سنة سبع وعشرين وخمسمائة - فنزل على بانياس، وقاتله لساعته، وزحف إليه زحفاً متتابعاً. وكان الفرنج غير متأهبين وليس في القلعة من يدافع عنها. واقترب شمس الملوك من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا الى السور، فنقبوه ودخلوا البلد عنوة. والتجأ من كان فيها من جند الفرنج الى الحصن وامتنعوا به، فقتل من البلد كثير من الفرنج، وأسر كثير، ونهبت الأموال، وقاتل المدافعين عن

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٥٥/٢.

(٢) انظر (قلعة مصياف) و(قلعة دمشق).

قلعة نمرود ـ الصبيبة قتالاً شديداً، واتصل القتال ليلاً ونهاراً. حتى ملكها شمس الملوك بالأمان، وعاد إلى دمشق. وكان الفرنج عندما علموا بهجوم جيش دمشق على بانياس وقلعتها قد شرعوا بحشد جندهم، والسير اليها. فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

حدث بعد ذلك تطور مؤلم بالنسبة لبلدة بانياس وقلعتها نمرود. ففي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (١١٣٩ م) كان نور الدين زنكي قد قطع شوطاً بعيداً في توحيد بلاد الشام، وحشد القوى لقتال الفرنج. ويظهر أن حاكم دمشق ـ مجير الدين آبق ـ قد خاف من استيلاء نور الدين على دمشق وإخراجه منها ـ وفي الوقت ذاته أدرك الفرنج أن نور الدين قد بات وهو يشكل أكبر خطر يتهددهم. فلما جاء نور الدين بجيشه الى دمشق اتفق مجير الدين آبق ومتولي ترتيب دولته ـ معين الدين أنز ـ مع الفرنج على تبادل الدعم والمساعدة ضد نور الدين، وذلك مقابل تسليم بانياس وقلعتها نمرود الى الفرنج. وحشد الفرنج جيشهم، وساروا إلى دمشق، فانسحب نور الدين الى الشمال، ولم يصطدم بهم، وسار جيش دمشق مع الفرنج الى بانياس، فقاومت حامية قلعة نمرود قدر استطاعتها، غير أنها اضطرت للاستسلام. فقام مجير الدين بالوفاء بوعده، وسلم بانياس وقلعتها الى الفرنج الصليبيين، وعاد جيش دمشق الى دمشق. وأقام الفرنج حامية لهم في قلعة نمرود بقيادة ـ رينيه بروس ـ الذي أقاموه حاكماً عليها. وتم تعيين رئيس شمامسة عكا ـ آدم ـ أسقفاً لها [1].

تعلم الفرنج من تجربتهم هذه درساً يقضي بأنه كيما يعيش الفرنج في بلاد الشام، فانه ينبغي عليهم عدم الامتناع عن التفاهم مع المسلمين، بل يجب عليهم أن يظهروا استعدادهم للتعاون مع من هم أقل خطراً عليهم ضد من هو أكثر خطراً. وحمل ملك القدس ـ فولك ـ نبلاءه على أن يتبنوا سياسته، وأن يسيروا على نهجه، وظن فولك

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٨٧/٢ ـ ٢٨٨ و ٣٦٤ ـ ٣٦٧ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٢٣ هـ وسنة ٥٣٤ هـ.

والفرنج أنه باستطاعتهـم استثمار التنـاقضـات بين أمـراء المسلمين لتحقيـق هـدفهـم بالاستيلاء على دمشق، بعد أن أصبحت بانياس وقلعتها نمرود في قبضتهم، فانطلقوا منها (سنة ١١٤٨ م) بأضخم جيش زج به الفرنج في القتال، وتوجهوا نحو دمشق. واتخذ معين الدين أنز ما هو ضروري من الاجراءات للدفاع. وأرسل الى نور الدين زنكي يجلب يستنجد به، وأسرع نور الدين بالتحرك، وصمد جيش دمشق. وفشل هجوم الفرنج. ثم قامت جماعة من التركمان وجهها أمير بعلبك سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م فأغارت على بانياس. ورد الفرنج على ذلك بتوجيه قوة من بانياس للاغارة على بعلبك، ولم يلبث نور الدين زنكي أن نظم بالتعاون مع أمير دمشق مجير الدين آبق، إغارة على بانياس سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وقد برهنت هذه الاغارة على أن جهود الفرنج للتفريق بين المسلمين لم تسفر إلا عن زيادة التعاون فيما بينهم، مما أدى بالتالي إلى خضوع دمشق لنور الدين زنكي (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وعقد الفرنج هدنة مع نور الدين زنكي حتى يوجهوا جهدهم ضد مصر. غير أنهم لم يلبثوا حتى عادوا لاستفزاز دمشق. وحدث في سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م أن عمل ملك القدس ـ بلدوين ـ على نقض الهدنة، وهاجم الرعاة الذين جاؤوا بقطعانهم من الخيول والأغنام لانتجاع المراعي الغزيرة والقريبة من بانياس ـ وحصل بذلك على أثمن غنيمة أمكن للفرنج الحصول عليها طوال عشرات السنوات السابقة. فما كان من نور الدين زنكي إلا أن شهر سيف الانتقام. وتمكن قائده شيركوه من انزال الهزيمة بجماعة من الفرنج كانوا يغيرون على البقيعة. كما تمكن نصرة الدين ـ شقيق نور الدين ـ من انزال هزيمة مماثلة بجماعة من فرسان الاسبتارية قرب بانياس. وجاء نور الدين بجيشه فحاصر بانياس التي لم تلبث أن استسلمت له، غير أن قلعة نمرود ـ الصبيبة ـ والواقعة على بعد ميلين من بانياس، قاومت الهجوم بضراوة بقيادة الكندسطبل همفري سيد تبنين. وأسرع ملك القدس ـ بلدوين ـ بقيادة جيشه لانقاذ حامية قلعة نمرود، والتي كانت على وشك الاستسلام للمسلمين. فما كان من نور الدين إلا أن أحرق بلدة بانياس وانسحب منها، ونصب كميناً لجيش الفرنج أثناء عودته من بانياس الى القدس، وأنزل به خسائر فادحة. حتى أن الملك بلدوين لم ينج إلا بأعجوبة، وعاد

المسلمون لمحاصرة قلعة بانياس، غير أنهم ما لبثوا أن رفعوا الحصار عنها، انتظاراً لفرصة أفضل[1].

كانت الأوضاع في مصر تتدهور بصورة خطيرة خلال هذه المرحلة، مما أفسح المجال أمام الفرنج لارسال قواتهم إلى مصر. فأرسل الخليفة الفاطمي الى نور الدين يستنجد به ويستمده. وأسرع نور الدين فجهز جيشاً ووجهه إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. وقام نور الدين بقيادة جيشه الى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، ثم هاجم بانياس. حتى إذا ما تجاوزت الحملة سيناء، توجه نور الدين بجيشه صوب الشمال، حيث دمر جيشاً للفرنج كان قد احتشد عند حارم. وعاد بعد ذلك من أقصى الشمال الى الجنوب، ليظهر بصورة مباغتة أمام بانياس، وقد وردت قصة المعركة عند ابن الأثير - كما يلي: « فتح نور الدين محمود قلعة بانياس سنة تسع وخمسين وخمسمائة - ١١٦٣ م. وكان نور الدين بعد أن فتح حارم، قد أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم. وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همتهم في حفظها وتقويتها. فسار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها.

وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران. فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى.

وجد في حصارها، فسمع الفرنج، فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة، وملأها ذخائر وعدة ورجالاً. وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وأقروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً يؤدونه له في كل سنة. ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس - نمرود - الى الفرنج بمصر، فصالحوا أسد الدين شيركوه. وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد ملكها.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: (٢/٤٧٣ و ٥٤٣ و ٥٤٨ و ٥٥٢ و ٥٩٤ - ٥٩٩.

ولما فتح حصن نمرود ـ الصبيبة ـ كان مع نور الدين ولد معين الدين أنز، الذي سلم بانياس الى الفرنج، فقال له نور الدين: للمسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان. فقال كيف؟ فأجابه نور الدين: لأن اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم» (١).

كان فتح نور الدين لبلدة بانياس وقلعتها، بمثابة ضربة عنيفة لأحلام الفرنج بالتوسع في بلاد الشام ومصر. فلما توفي نور الدين (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م). ظن ملك الفرنج في القدس ـ املريك ـ أن باستطاعته اغتنام الفرصة لاستعادة سيطرته على بانياس. فزحف بجيشه إلى بانياس. وخرج حاكم دمشق (محمد ابن المقدم) يقود جيشه، فالتقى الجيشان، غير أنه لم يحدث صدام بينهما، إذ سرعان ما تم عقد هدنة تعهد فيها ابن المقدم بدفع مبلغ كبير من المال للفرنج، مع التعهد بإطلاق سراح أسرى الفرنج المحتجزين في دمشق. وما لبث ملك القدس املريك أن مات، وخلفه بلدوين، الذي قرر تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود امارة دمشق. حيث أدى ضياع بانياس وقلعتها نمرود، إلى قلب نظام الدفاع في مملكة القدس رأساً على عقب، فبينما انصرف همفري سيد تبنين الى تحصين (تل هونين) على الطريق الممتد من بانياس الى تبنين، شرع الملك بلدوين في تشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن، بين بحيرة الحولة وبحر الجليل، كيما تتحكم في المخاضة والتي يزعمون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب الملاك فأطلق الفرنج عليها اسم (مخاضة الأحزان). وحدث في سنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م وحينما بدأ موسم حركة قطعان الغنم في الربيع أن نهض ملك القدس بلدوين ليعترض الأغنام القادمة من سهول دمشق نحو بانياس ليسوقها أمامه. وكان صلاح الدين في مرصده في قلعة نمرود، فوجه قواته ودارت معركة انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً (٢).

قدر صلاح الدين أهمية قلعة نمرود بحكم موقعها المشرف على الجليل، والذي

---

(١) **الكامل في التاريخ** ـ أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

(٢) **انظر بحث** (قلعة شقيف أرنون وهو البحث رقم ١٢).

يشكل مرصداً رائعاً لتحركات الفرنج. فوضع فيها حامية قوية بقيادة ابنه الأفضل. و كان يكلفه بتنفيذ بعض المهمات القتالية.

تعرضت وحدة المسلمين للتمزق بين الاخوة الأيوبيين ـ بعد وفاة صلاح الدين وجاءت الحملة الصليبية الخامسة. وخاف أمير دمشق ـ المعظم الأيوبي ـ أن يعود الفرنج لاستخدام بانياس وقلعتها نمرود ـ الصبيبة ـ قاعدة للهجوم على دمشق. فأمر بتخريبها، غير أن أمراء دمشق عادوا سراعاً وعملوا على اعادة ترميم القلعة واصلاحها وتحصينها. وجاء الظاهر بيبرس فقدر أهمية القلعة، فأمر بدعمها وزيادة قوتها، حتى تبقى عقبة قوية على طريق التقدم من فلسطين الى دمشق.

انتهت الحروب الصليبية القديمة. وفقدت قلعة بانياس أهميتها، وتجاوزها الزمن، فتداعت أركانها، ولم يبق منها سوى أطلال تشهد بما عاشته قلعة نمرود من أمجاد يوم دافعت عنها سيوف المسلمين. وجاءت الحملة الصليبية الجديدة تحت راية اليهودية (الصهيونية). وسارت على خطوات الحملات التي سبقتها. وأمكن لها الاستيلاء على بانياس وقلعتها (يوم ٩ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٦٧). وأسرع قادة جيش العدوان الصهيوني لاجراء الحفريات ـ تحت قلعة نمرود أو الصبيبة ـ على أمل الوصول الى ثروات يمكن نهبها واضافتها الى ما يتم نهبه من ثروات سطح أرض فلسطين.

٢٤ ـ قلعة رودس.

كان لا بد للعرب المسلمين من أن يفتحوا جزيرة رودس، وهم ينازعون الروم البيزنطيين نفوذهم في البحر ويشدون عليهم الخناق ليضبطوا أمم الأرض ـ كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ففي سنة ٥٣ هـ = ٦٧٢ م. وبينما كان العرب المسلمون يحاصرون عاصمة الروم ـ القسطنطينية « توجهت قوة بحرية بقيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي الى رودس[١] ففتحتها، ونقل معاوية إليها جماعة من العرب المسلمين، فزرعوا الأرض، وشيدوا المساكن وكانوا إذا أمسوا دخلوا الحصن. ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم. فيعترضونهم في البحر، فيقطعون سفنهم. فخافهم العدو. وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء »[٢] وقد يكون من الطبيعي أن يظهر العرب المسلمون اهتمامهم بجزيرة رودس، وأن يعملوا على فتحها، نظراً لما تتميز به من موقع جيواستراتيجي قد ضمن لها الهيمنة على مدخل بحر ايجة. وكان حصار القسطنطينية مرتبط بالهيمنة على بحر ايجة.

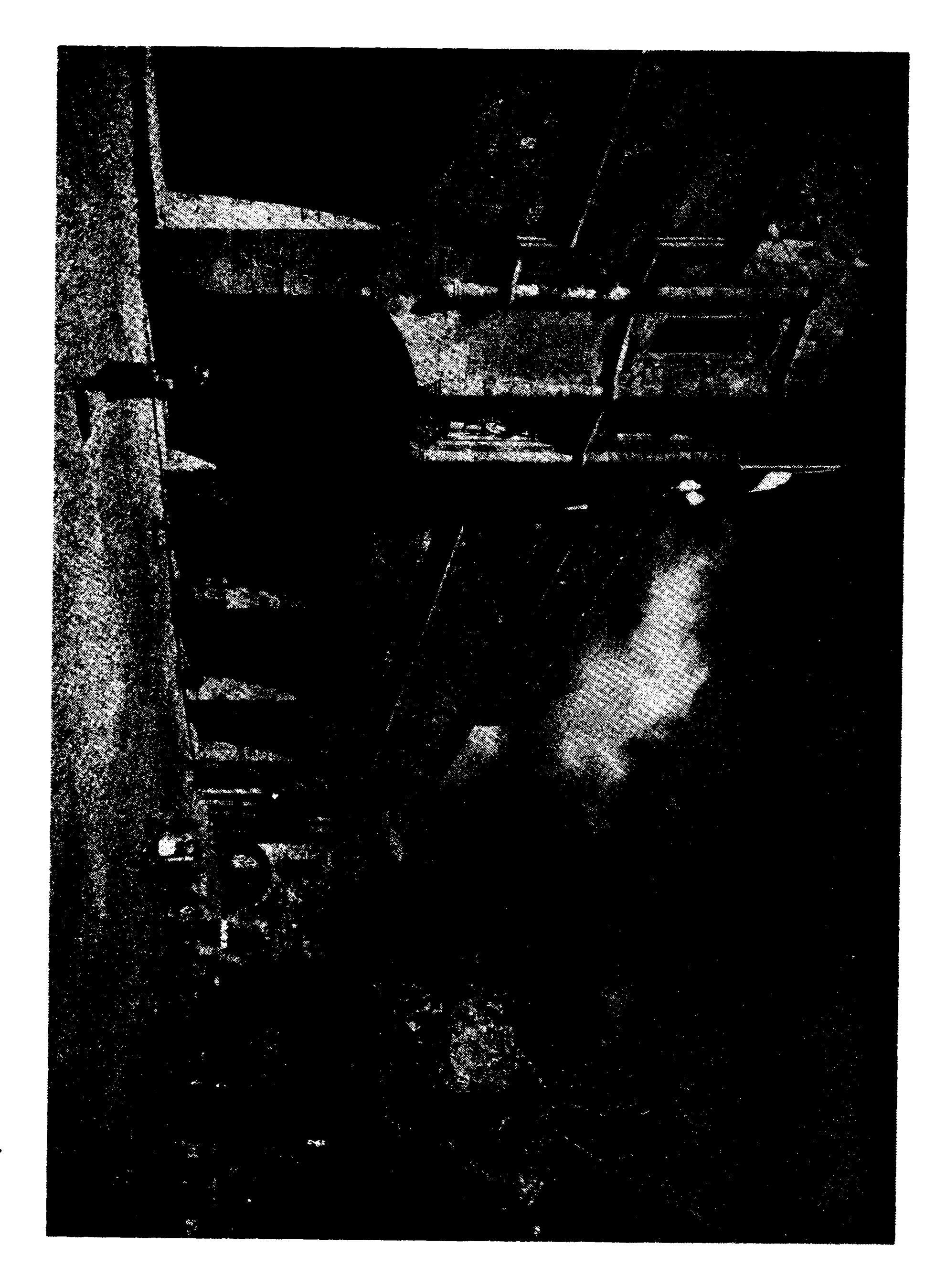
وهكذا بقيت أهمية رودس مرتبطة بصراع المسلمين ضد الروم، ثم بصراع العثمانيين ضد قوى الصليبية وضد قوى الغرب فيما بعد. وقد وصف أبو الفداء الجزيرة بقوله: « جزيرة رودس، فتحها المسلمون في زمن معاوية، وامتداد هذه الجزيرة إلى الجنوب بانحراف نحو خمسين ميلاً. وعرضها نصف ذلك، وبين هذه الجزيرة وبين ذنب اقريطش ـ كريت ـ مجرى واحد. وبعض رودس للفرنج. وبعضها لصاحب

---

(١) رودس: (RHODES) وباليونانية: (RHODOS) وباللاتينية: (RODI) وهي مدينة وقلعة تقع على الطرف الشمالي لجزيرة رئيسة من جزر الدوديكانيز: (DODECANESE) وتحمل الاسم ذاته.

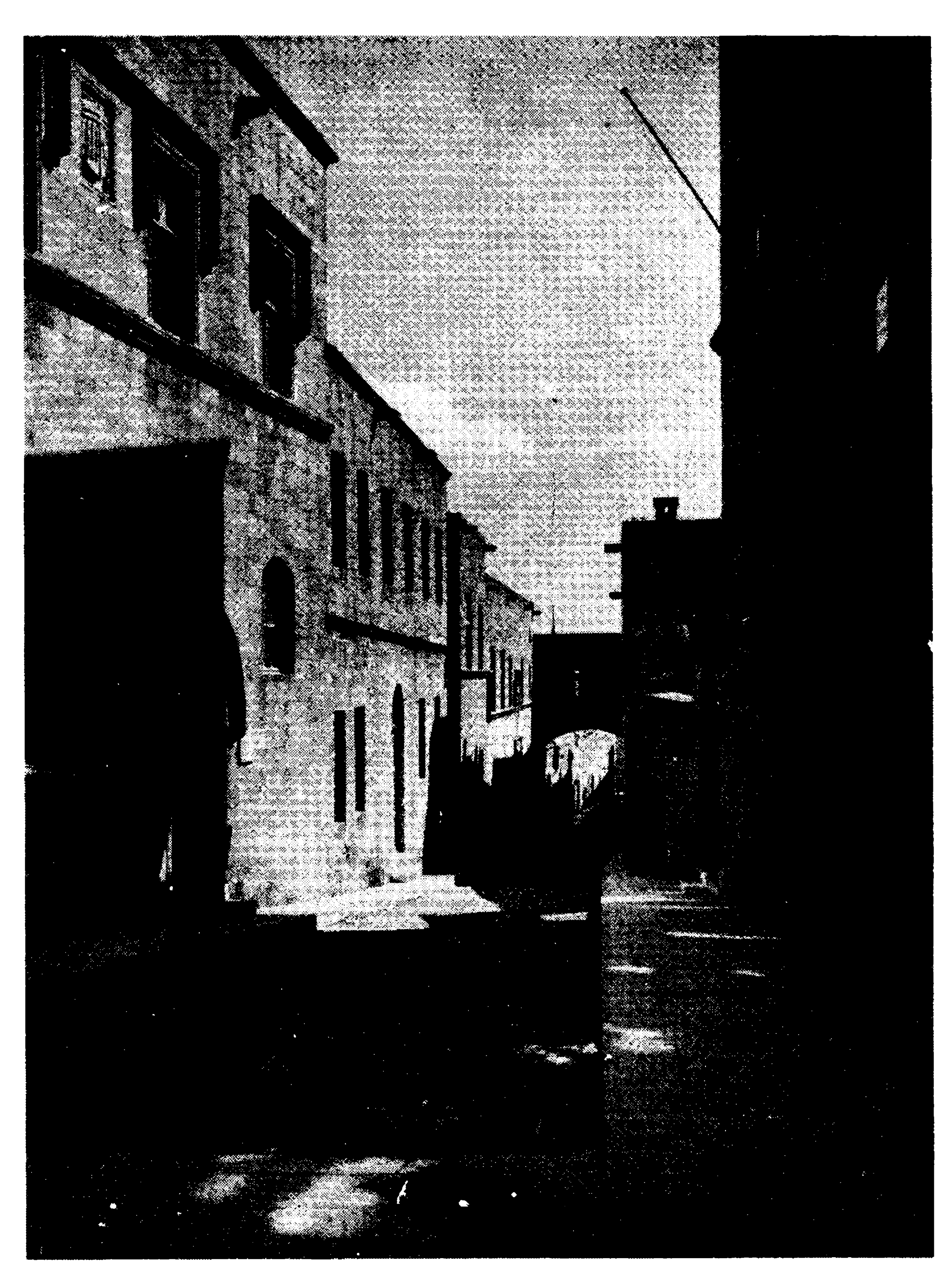
(٢) تاريخ الطبري. والكامل في التاريخ. أحداث سنة ٥٣ هـ.

رودس البلدة وقصر مقدم الطائفة



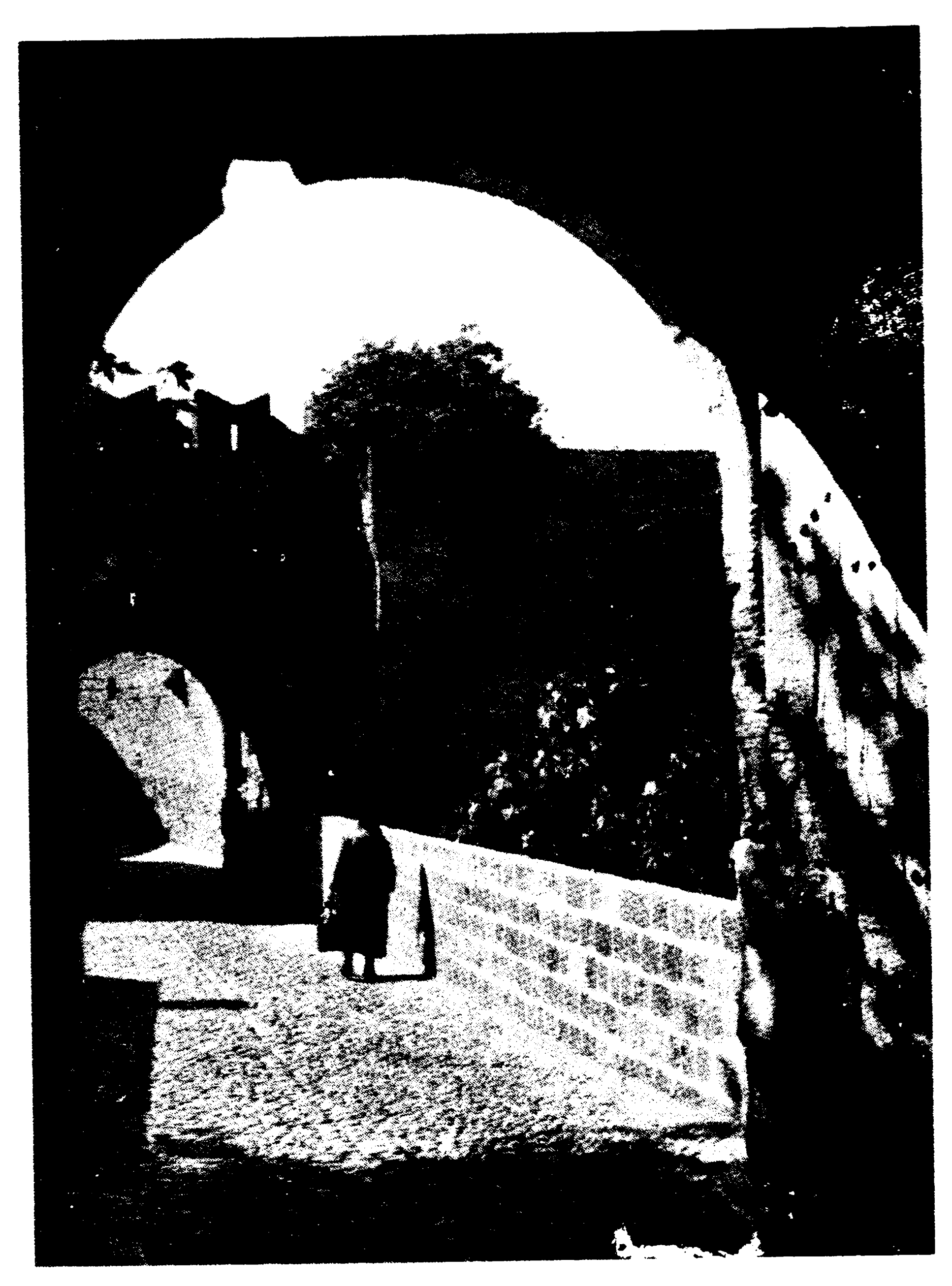
رودس

مستشفى فرسان القديس يوحنا الاورشليمي



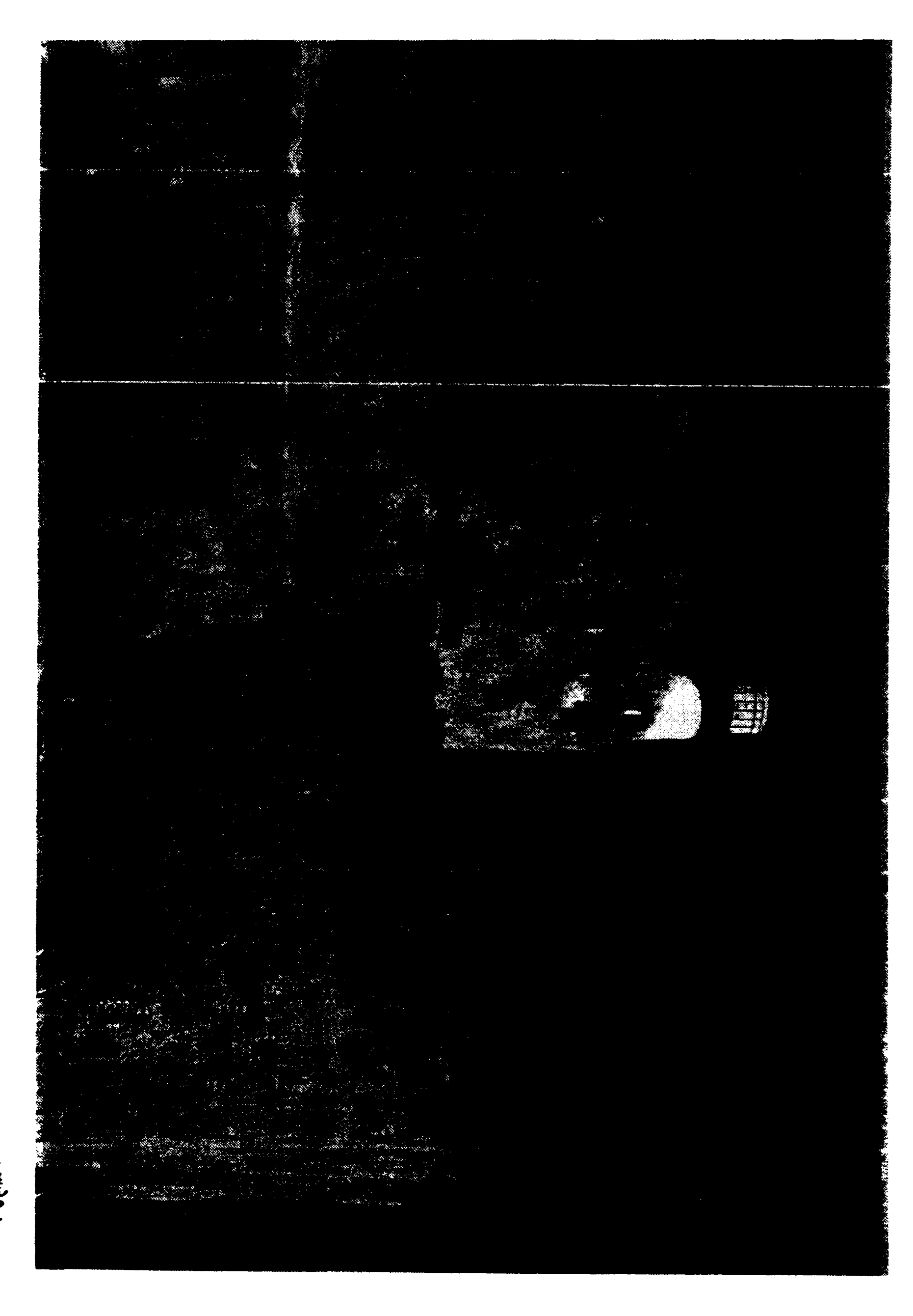
رودس

رودس الشارع الرئيسي للرباط ـ كاستروم، ونزل فرنسا الى اليسار .



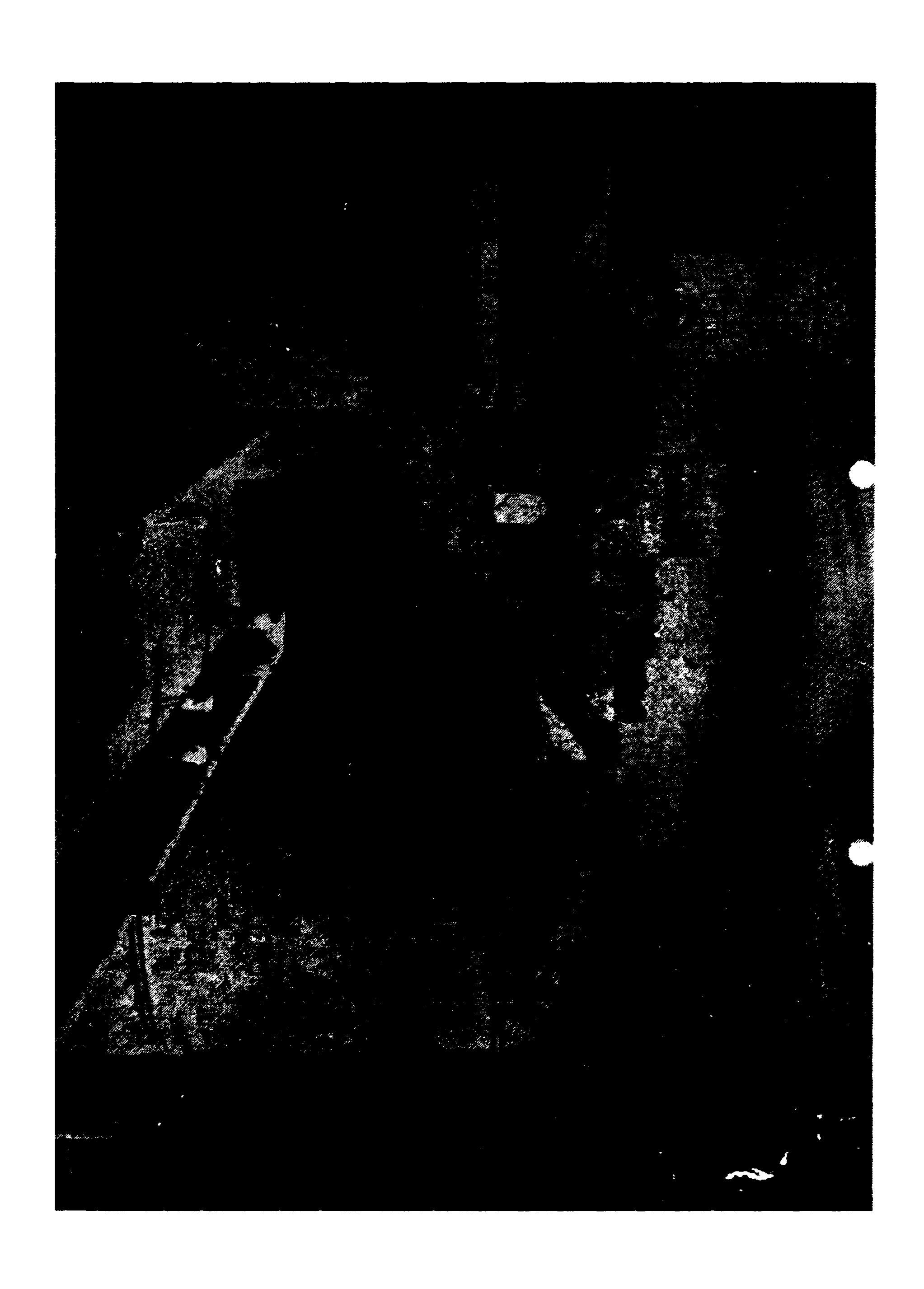
رودس

رودس بوابة دخول صغيرة في غربي المدينة.



جبهة التحصينات الخارجية للقديس نيقولا

١٨٧٧م



رودس البوابة مع قصر المقدم



رودس سيد . تراسبورغ (١٢٩٠) لويس التاسع ملك فرنسا مع زوجته مارغريت دوبروفنس .

اصطنبول. ورودس في الغرب عن قبرص، بانحراف الى الشمال. وهي بين جزيرة المصطكي وبين جزيرة أقريطش »[1].

وقد يكون بالمستطاع تجاوز مجموعة الأحداث التي عرفتها جزيرة رودس عبر الصراع البحري المتطاول بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية فقد تداولت أيدي المسلمين والروم هذه الجزيرة مرات كثيرة. حتى جاءت الحروب الصليبية فجعلت من رودس قاعدة ـ في جملة قواعد الفرنج للهجوم على بلاد الشام، وعندما انتهت الحملات الصليبية الى الفشل وطردت بقايا الفرنج من بلاد الشام، ظهرت مشكلة الطوائف الدينية، وهي الجناح الصليبي المتطرف ـ إذ أن هذه الطوائف قد نظمت وعاشت للحرب ومن أجل الحرب ـ ولهذا فقد شرعت هذه الطوائف في البحث عن قواعد لها حتى تتابع دورها الوظيفي. فذهب فرسان التيوتون ـ الألمان ـ إلى بحر البلطيق واستقروا هناك، بينما ذهب فرسان الداوية الى قبرص. وكان فرسان الاسبتارية أكثر تعقلاً وحكمة، فقد توجهوا باسطولهم الصغير إلى جزيرة رودس، ونزلوا على أرضها، وشرعوا في اخضاعها. واستبسلت الحامية اليونانية بالجزيرة في القتال. ولم تسقط قلعة فيليرمو الكبيرة في أيدي الغزاة الاسبتارية إلا بالخيانة (سنة ٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) بينما استمرت رودس المدينة ـ في مقاومتها لمدة سنتين أخريين. وعندها شرع الاسبتارية بتنظيم أمورهم وجعلوا من المدينة ـ بمينائها الرائع، أمنع حصن في شرقي البحر الأبيض المتوسط.

فقد بدأ مقدم الاسبتارية (فولكو دوفيلاريـه)[2] على الفـور بتحسين دفـاعـات المدينة واستمر في عمله بدعم التحصينات وتقويتها بدون انقطاع ولا توقف، سواء في مدينة رودس أو في قلعة بودروم. وغالباً ما كان البناء محصوراً في الجزء الحصين من المدينة، أي البلدة الداخلية التي ضمت قصر مقدم الطائفة والأحياء السكنية للجاليات القومية المختلفة من تلك الطائفة، وقد زيدت مساحة المدينة باضافة الحي السكني

---

(١) تقويم البلدان ـ أبو الفداء ـ ص: ١٩٥.

(٢) فولكو دوفيلاريه: (FULCO DE VILLARET).

الخارجي الذي أطلق عليه اسم (برغس)[١]. وجرى هذا التوسع تحت اشراف مقدم الطائفة (ديودونية دوغوزون)[٢] وذلك في القرن الرابع عشر. ثم أضيفت أجزاء عديدة من الدفاعات وأعيد تحصينها، أو شيدت مجدداً أثناء قيادة مقدمي الاسبتارية (فيليبر دوناياك) و(أنتونيو فلاڤيانو)[٣] حيث تم بناء برج الحصار الضخم عند المرفأ، وعززت البوابتان الجنوبيتان لمجابهة احتمال غزو الاسطول المصري لجزيرة رودس. والمعروف أن ملك قبرص والبابا ايربان قد عملا باستمرار على تحريض ملوك أوروبا وقادتها من أجل توجيه حملة صليبية جديدة ـ بعد اعادة فتح المسلمين لمدينة عكا ـ. ونجحت الجهود المبذولة فتم حشد قوات حملة صليبية جديدة في جزيرة رودس (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) وعندما انتهت الاستعدادات جاء ملك قبرص ـ بطرس ـ الى جزيرة رودس وقاد الاسطول الذي ضم ثمان ومائة سفينة، بالاضافة الى السفن الضخمة التي اشتركت بها البندقية، وبالاضافة أيضاً الى سفن الاسبتارية، بحيث وصل عدد سفن الاسطول الى خمس وستين ومائة سفينة، وسار هذا الاسطول الى الاسكندرية. ونزلت قوات الحملة بصورة مباغتة فاستولت على المدينة. واحتفل الفرنج الصليبيون بانتصارهم، بأن أجروا مذبحة وحشية لا مثيل لها. وما وقع في الحروب الصليبية التي استمرت مائتي سنة تقريباً لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية، فما ارتكبوه من الجرائم في الاسكندرية، لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م وفي القسطنطينية سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م[٤]. وكان من طبيعة الأمور، وقد فشلت الحملة الصليبية في هجومها على الاسكندرية، أن يتوقع مقدم الاسبتارية في رودس (جان دولاستيك)[٥] قيام الاسطول المصري بعملية انتقامية ضد رودس.

---

(١) برغس: (BURGOS)

(٢) ديودونيه دوغوزون: (DIEUDONN DE GOZON).

(٣) فيليبر دونایاك: (PHILIBERT DE NAILLAC).

وأنتونيوفلاڤيانو: (ANTONIO FLAVIANO).

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: ٧٢٩/٣ - ٧٣١ و ٧٤٣ و ٧٥٠.

(٥) جان دولاستيك: (JEAN DE LASTIC).

فعمل على دعم الجناحين الغربي والجنوبي من دفاعات المدينة. ولم يتأخر اسطول مصر في الرد. فأغار على رودس سنة ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ م. وعاد الاسطول المصري سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ م فأنزل قواته على أرض الجزيرة، وحاصرت قوات المسلمين مدينة رودس لمدة زادت على ستة أسابيع. غير أن أسوار رودس وتحصيناتها صمدت للحصار، وأحبطت كافة الهجمات. مما حمل قوات المسلمين على الانسحاب. وتبع ذلك تعزيز دفاعات المدينة باضافة سور خارجي متواصل، حيث شيد مقدم الاسبتارية (ريموند زاكوستا)[١] الحصن الخارجي سنة ٨٦٥ هـ = ١٤٦٠ م، وهو الحصن الذي حمل اسم (سان نيقولا) والذي احتل موقعه فوق بقعة الأرض الفاصلة بين المرفأ الرئيسي. و(مرفأ ماندراكي)[٢]. ثم استمر العمل في دعم التحصينات والدفاعات بعدئذ في عهد مقدمي الاسبتارية (جيوفاني أورسيني، وبيير دوبوسون)[٣] حيث ظهرت الحاجة لتطوير وسائل الدفاع بسبب تعاظم قدرة الاتراك العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم قيادة أعمال الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج الصليبيين، فنقلوا الحرب الصليبية إلى أرض أوروبا. وأفاد فرسان الاسبتارية من موقع جزيرتهم لمتابعة اذكاء روح الحرب الصليبية، وللاشتراك فيها بقواتهم واسطولهم.

لقد بدأ الاتراك العثمانيون بالظهور على مسرح الأحداث مع نهاية الحروب الصليبية في المشرق[٤]. وأدرك الأوروبيون ـ اللاتين ـ سراعاً خطر هذه القوة المتعاظمة. فلما احتل الفرسان الاسبتارية جزيرة رودس، زاد الاهتمام ببحر ايجة، وحاول أمير آيدين ـ التركي ـ إنشاء اسطول في أزمير لمجابهة خطر فرسان

---

(١) ريموند زاكوستا: (RAYMOND ZACOSTA).

(٢) مرفأ ماندراكي: (MANDRAKI HARBOUR).

(٣) جيوفاني أورسيني: (GIOVANNI ORSINI).
وبيير دوبوسون: (PIERRE D'AUBUSSON).

(٤) طرد المسلمون بقايا الفرنج من عكا، ومن آخر المعاقل التي بقيت في أيديهم سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. في حين ولد مؤسس الدولة العثمانية ـ عثمان ـ سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م وأصبح سلطاناً سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م وتوفي سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦ م.

الاسبتارية، فأسرعت البندقية وفرسان الاسبتارية وملك قبرص والبابا، بتجهيز اسطول مشترك (من ٣٤ سفينة) ووجهوا حملة استولت على أزمير، (سنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م) وأقام الاسبتارية في أزمير إلى أن طردهم تيمور الأعرج - تيمورلنك - منها (سنة ٨٠٥ هـ = ١٠٤٢ م). ولكن وقبل هذا التاريخ بقليل كان الفرنج الصليبيون - من فرنسيين وانكليز ومجر وألمان واسبان وايطاليين - قد جهزوا جيشاً مشتركاً زاد عدد أفراده على مائة ألف مقاتل، للقيام بحملة صليبية جديدة ضد المسلمين. وتولى فرسان الاسبتارية قيادة اسطول الحملة الى البحر الأسود بقيادة مقدمهم فيليبير دوناياك. والمعروف أن السلطان العثماني بايزيد[1] قد دمر هذا الهجوم، وشتت قوات الفرنج في معركة نيقوبوليس[2] الشهيرة. وقد أكدت هذه المعركة للاتراك العثمانيين مجدداً خطورة الدور الذي يمارسه فرسان الاسبتارية من جزيرة رودس، وذلك في مجال التحريض ضد المسلمين، وممارسة العدوان عليهم. كما أن انتصار السلطان بايزيد في نيقوبوليس قد وضع فرسان الاسبتارية وجزيرة رودس على خط القتال الأول ضد الأتراك العثمانيين. ولكن هؤلاء كانوا غير قادرين في تلك الفترة على توجيه الجهد ضد رودس، إذ كانت لهم متاعبهم الكبيرة سواء على جبهة أوروبا أو على جبهتهم الداخلية، فصرفوا النظر مؤقتاً عن الجبهة البحرية. حتى إذا ما جاء السلطان محمد الفاتح، وفتح القسطنطينية، وأطلق عليها اسم مدينة الإسلام (اسلام بول) ثم انتصر على تحالف المجر والنمسا، أصبح باستطاعته توجيه الجهد البحري، فأرسل سنة ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م عمارة بحرية لفتح جزيرة رودس وانتزاعها من قبضة (رهبنة القديس حنا الاورشليمي) والتي كانت يومها بقيادة مقدمها (بييردوبوسون -

(١) بايزيد خان الأول - رابع السلاطين العثمانيين. ولد سنة ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م وتولى السلطنة بعد قتل أبيه في معركة قوص اوه - الواقعة جنوب يوغوسلافيا بين البانيا وبلغاريا واليونان، سنة ١٣٨٩ م. وتوفي سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٣ م بعد أن انتصر عليه تيمور الأعرج - تيمورلنك - وأخذه أسيراً، وسجنه في قفص حديد حتى مات.

(٢) نيقوبوليس: (NICOPOLIS') مدينة بلغارية، تقع على نهر الدانوب، وفيها انتصر القائد البيزنطي تراجان على الداسيين والبارثيين (١٠١ - ١٠٥ م). وفيها كان النصر أيضاً للسلطان بيازيد على الفرنج الصليبيين سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م.

الفرنسي الأصل). ولما كانت هذه الطائفة في حالة حرب مع المماليك في مصر ومع والي تونس. فقد عمل مقدمها على ابرام صلح مع مصر وتونس حتى يتفرغ لحرب الأتراك العثمانيين الذين وصلوا إلى رودس وألقوا الحصار عليها (يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ = ٢٣ - أيار - مايو - سنة ١٤٨٠ م) وظلت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية، لتهدم أسوارها. لكن حامية القلعة كانت تعمل في الليل على إصلاح ما تخربه المدافع بالنهار. ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر.

حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها - وهي قلعة القديس نيقولا - ولكن المحاولة باءت بالفشل، مما دفع القائد العام للقوات التركية لاصدار أمره بالهجوم على القلعة واقتحامها عبر الثغرة التي فتحتها قنابل المدافع في أسوارها. وقامت القوات التركية بالهجوم على القلعة (يوم ٢٠ جمادي الأولى سنة ٨٨٥ هـ = ٢٨ تموز - يوليو - سنة ١٤٨٠ م) غير أن حامية فرسان الاسبتارية قاومت بشجاعة خارقة الهجمات المتتالية للأتراك العثمانيين، مما اضطر هؤلاء للانسحاب، بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة، وتم رفع الحصار عن رودس، وشرع فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم - بييردوبوسون - على الفور باعادة ترميم القلاع والحصون والأسوار. وجاءت الهزات الأرضية - الزلازل في السنة التالية (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) فأنزلت برودس ودفاعاتها أضراراً بالغة. مما دفع حامية المدينة وأهلها لادخال تحسينات أخرى على الدفاعات في الجناحين الجنوبي والغربي، بما في ذلك تشييد حصن ايطاليا (سنة ٩٢١ هـ = ١٥١٥ م) وحصن القديس جورج (٩٢٨ هـ = ١٥٢١ م) وأعيد بناء جميع البوابات، وزيد في سماكة الأسوار من ١٧ قدماً حتى ٤٠ قدماً تقريباً. كما شقت قناة أخرى مع متراس بين الخندقين الموجودين سابقاً.

كان السلطان سليم الأول - الغازي - يعتزم فتح جزيرة رودس، فجهز أسطولاً لهذه الغاية وحشد القوات الكافية لتنفيذ العملية، غير أن انشغاله بفتح بلاد الشام ومصر (سنة ٩٢٢ - ٩٢٤ هـ ١٥١٦ - ١٥١٨ م) حمله على تأجيل عملية فتح رودس. فلما فرغ من حروبه في بلاد الشام، وافته المنية. وأصبح باستطاعة رودس أن تنعم بفترة أخرى من الراحة. لكن العاصفة ما لبثت أن عادت إل رودس في عهد

السلطان الغازي سليمان خان الأول ـ القانوني ـ[1] . فقد عمل السلطان سليمان على اكمال الاستعدادات البرية والبحرية الضرورية لعملية الغزو. ثم أخذ ينتظر الظروف السياسة الدولية المناسبة. ووجد أن الفرصة المناسبة قد حانت في سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م. حيث كان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) مشغولاً بحربه ضد ملك اسبانيا وامبراطور الغرب (شارلكان) كما أن البابا ليون العاشر (جان مديتشي) كان مشغولاً في صراعه مع البروتستانتية (لوثر) في حين كانت بلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب عدم اتفاق امرائها وأعيانها، وصغر سن ملكها لويس الثاني.

هكذا باتت الظروف مناسبة لفتح رودس وتحويلها إلى قاعدة اتصال بين اسلام بول ـ أو استامبول ـ وبين مصر والمغرب العربي ـ الإسلامي، وحرمان الصليبيين من مركزهم الحصين في قلب بلاد المسلمين، والذي طالما استخدموه لحشد أساطيلهم وقواتهم ضد بلاد المشرق الإسلامي. وحاول السلطان سليمان تجنب الحرب فأرسل الى مقدم الاسبتارية (فيليه دوليسل آدم)[2] كتاباً عرض عليه إخلاء الجزيرة، والانسحاب منها بكل من معه من المحاربين الصليبيين وأنصارهم من المسيحيين الذين يرغبون في الهجرة على البقاء، وذلك مقابل التعهد بعدم التعرض لهم أو لأموالهم وممتلكاتهم. ولما رفض مقدم الاسبتارية هذا العرض، أمر السلطان سليمان أسطوله بالتوجه الى رودس. وسافر هو عن طريق البر إلى خليج (مرمورا ـ أو مار ماريس) المقابل للجزيرة من جهة آسيا. ووصلت قطع الاسطول الى رودس يوم ٢٦ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٥٢٢ م. وأرسلت الى البر مدافع الحصار والمؤونة والذخائر. ووصل اليها السلطان سليمان يوم ٢٨ تموز ـ يوليو ـ فبدأ الحصار المحكم فور وصوله. ودافع من بها دفاع الأبطال، خصوصاً الفرسان الرهبان. وقيل أن النساء كنّ يساعدن الرجال في

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني ـ عاشر السلاطين العثمانيين. ولد سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) وتولى دست السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م. وبلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها وازدهارها. وتوفي سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م.

(٢) فيليه دوليسل آدم: (VILLIERS DEL'ISLE ADAM) فرنسي الأصل تولى قيادة طائفة رهبان القديس حنا الاورشليمي ـ الاسبتارية ـ. ولد سنة ١٤٦٤ م. ومات سنة ١٥٣٤ م.

الدفاع، بالقاء الحجارة على المحاصرين، وصب الزيوت الحارة على رؤوسهم، لكن هذا الجهد كله لم يكن ناجعاً أمام المدافع العثمانية الضخمة التي لازالت بعض حجارتها حتى الآن في الجزيرة. والتي تثير الاستغراب لضخامتها. وأدرك مقدم طائفة الاسبتارية أن الاستمرار في المقاومة قد بات ضرباً من الانتحار. وتبين له بوضوح أنه ما من أحد من دول الغرب سيهرع لنجدة رودس وانقاذ الطائفة من محنتها. كما نفدت المؤن والذخائر وتدهورت الحالة المعنوية للمقاتلين بعد طول حصار.

فأرسل مقدم الطائفة فارسين من رهبانه الى السلطان يوم ٢ صفر سنة ٩٢٩ هـ (٢١ كانون الأول - ديسمبر - ١٥٢٢ م) والتمسا السماح لهم باخلاء الجزيرة في مدة اثني عشر يوماً، بشرط أن تبتعد القوات التركية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها، حتى لا يتعرض أحد من المحصورين للضرر أو الأذى عند خروجهم. فقبل السلطان ذلك. لكن قوة من الانكشارية تدفقت إلى المدينة يوم ٥ صفر، وذلك رغم أوامر السلطان، واحتلوا المدينة، وأجروا مذبحة وقع ضحيتها بعض الجند، مما أغضب السلطان، فأمر بمراعاة شروط التسليم. وأنزل العقوبة بالمفسدين. فعاد الأمن وسادت السكينة. وقابل السلطان في اليوم التالي رئيس الرهبنة، وأنعم عليه بخلعة سنية. وانتقل فرسان الاسبتارية الى مدينتي (فيتربو - وسيفيتافيتشيا)[١] .

كان ملك اسبانيا شارل الخامس (شارلكان) يبحث عن أي قوة يمكنه الافادة منها في حربه الصليبية الشاملة ضد المسلمين. فعمل على منح جزيرة مالطا لهذه الفئة الدينية المتطرفة حتى تتابع دورها في التحريض ضد المسلمين، فاستخدمت الجزيرة لممارسة أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين. مما دفع الدولة العثمانية لتوجيه قوة بحرية من مائتي سفينة تقريباً وذلك سنة ٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م لفتح جزيرة مالطا والقضاء على طائفة رهبان القديس حنا الأورشليمي الذين أخذوا في فرض سيطرتهم على الخانق البحري بين جنوب ايطاليا وتونس. وقامت هذه القوة البحرية بحصار مالطا لمدة أربعة أشهر،

---

(١) فيتربو: (VITERBO) مدينة ايطالية على بعد ٤٨ كيلومتر من روما. أما سيفيتافيتشيا. (CIVITA-VECCHIA) فهي مدينة ايطالية أيضاً تقع على البحر الأبيض المتوسط.

اضطرت بعدها للانسحاب. وبقي رهبان القديس حنا في مالطا حتى احتلها نابليون بونابرت عند قدومه الى مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١١٧٩٨ م.

بقيت رودس قاعدة للمسلمين طوال قرون أخرى، حتى إذا جاءت الهجمة الصليبية الجديدة باسم (الاستعمار الغربي) تحولت رودس وسواها من جزر شرق البحر الأبيض المتوسط الى قواعد ألحق بعضها باليونان، وبعضها بايطاليا، وخضعت بعضها للغرب - بريطانيا -. غير أن رودس فقدت أهميتها العسكرية منذ أن سيطر الأتراك العثمانيون على بحر ايجه وعلى ما احتواه هذا البحر من الجزائر والخلجان. وتعطي تجربة رودس التاريخية نموذجاً لارتباط أهمية الجزر بما تشغله من موقع جيواستراتيجي في إطار الصراعات البحرية. إذ لولا اهتمام العرب المسلمين بالتضييق على الروم. ولولا توجه الحملات الصليبية لحرب المسلمين، لما برزت أهمية رودس. ولما احتلت قلاعها وتحصيناتها تلك المكانة المرموقة في تاريخ فن الحرب.

٢٥ ـ قبرص وقلاعها.

لم تكن (جزيرة قبرص)[١] إلا حجر المرتقى لكل من يقصد بلاد الشام أو مصر أو آسيا الصغرى (تركيا) فهي بحكم موقعها المتوسط، وبحكم مساحتها الصغيرة، لا تتمتع بمميزات خاصة[٢] وإنما اكتسبت أهميتها عبر التاريخ من خلال دورها في تأمين الاتصال لقوات البحر. ولهذا تداولتها الأيدي كثيراً، منذ ظهور امبراطوريات العالم القديم من رومان ويونان وقرطاجيين وسواهم. وارتبط تاريخها منذ ظهور الإسلام، بالعرب المسلمين، الذين ما إن فتحوا بلاد الشام ومصر، حتى تطلعوا الى البحر. ويعود فضل ركوب البحر وانشاء البحرية العربية ـ الإسلامية الى أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه ـ فهو الذي عمل منذ كان والياً لبلاد الشام على تنظيم البحرية العربية الاسلامية. مما اضطره للسير شوطاً بعيداً عبر مجموعة غير متناهية من الصعوبات والعقبات، التي لم يكن أقلها شأناً الافتقار إلى الأيدي العاملة الاختصاصية، ولم يكن أقلها شأناً أيضاً تآمر الروم البيزنطيين لاحباط كل جهد عربي ـ اسلامي لركوب للبحر. غير أن أمير المؤمنين، وهو القائد الصلب، تمكن من تذليل كل العقبات التي واجهته بتحدياتها الثقيلة حتى أمكن له بلوغ الهدف العظيم، وفتح أمام العرب المسلمين مجال البحر الواسع. فانطلق المجاهدون في سبيل الله يقارعون الروم

---

(١) قبرص: (CYPRE) أو (CHYPRE).

(٢) تبلغ مساحة قبرص ٣٦٠٠ ميل بحري وهي:
تبعد عن اللاذقية ـ سوريا ـ ١٠٠ ميل بحري.
وتبعد عن سلوقية ـ تركيا ـ ٥٠ ميل بحري.
وتبعد عن بور سعيد ـ مصر ـ ٢٣٦ ميل بحري.
وتبعد عن رودس ٢٠٠ ميل بحري.
وتبعد عن كريت ٣٢٥ ميل بحري.

البيزنطيين في البحر وينازعونهم نفوذهم الذي انفردوا به دون منازع على امتداد قرون متتالية. وكان غزو قبرص هو أول عمل بحري سجله التاريخ لمعاوية بن أبي سفيان. ففي سنة ٢٨ هـ = ٦٤٨ م أكمل معاوية استعداداته، وعين لقيادة البحر رجلاً من رجال البحر المعروفين (هو عبدالله بن قيس الجاسي ـ حليف بني فزارة) وحشد من تطوع لركوب البحر. وركب مع زوجه ـ أم حرام بنت ملحان الأنصارية ـ وركب معه نفر من كبار الصحابة ـ فيهم أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت والمقداد وأبو الدرداء وشداد بن أوس، ومضى معاوية والمسلمون على بركة الله الى قبرص. ففتحوها صلحاً. وتضمنت معاهدة الصلح: «أن يؤدي أهل قبرص للمسلمين جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم. وعليهم أن يؤذنوا ـ ينذروا ـ المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم. ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم. وأن يقوم إمام المسلمين باختيار البطريق عليهم منهم»[1].

يظهر واضحاً من نص المعاهدة أن معاوية بن أبي سفيان قد رغب في ضمان ترتيبات أمنية لحماية بلاد العرب المسلمين من خطر اسطول الروم. ولهذا فقد فرض عليهم الجزية دون أي التزام بالدفاع عن قبرص، وحدد مقدار هذه الجزية بمثل ما كانت تدفعه قبرص للروم التي عجزت عن حمايتها من المسلمين، وضمن معاوية لاسطول العرب المسلمين حق استخدام الجزيرة، والافادة من الانذار عن تحركات اسطول الروم، وتأمين الامداد والتموين لقوات الاسطول. هذا الى جانب فصل الكنيسة القبرصية عن هيمنة الروم بتعيين بطريرك من أهل قبرص لا يكون معادياً للمسلمين، مع عدم التدخل في الشؤون الكنسية ـ الدينية ـ لأهل الجزيرة.

بقيت قبرص درعاً لبلاد المسلمين في الشام ومصر. حتى إذا ما ضعف شأن البحرية العربية الإسلامية في العصر العباسي. أسرع الروم لاغتنام الفرصة، فاحتلوا الجزيرة سنة

---

(١) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٢٨ هـ (غزو قبرص).

٢٦٣ هـ = ٨٧٦ م، وبسطوا سيطرتهم عليها. ولكن الاسطول الاسلامي في مصر - في عهد الطولونيين - استطاع أن يستعيد فتح قبرص (سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م). وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م حيث أعاد الروم قبرص لحكمهم. وكان ذلك قبل ثلاثة عقود تقريباً من وصول قوات الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام.

ظهرت أهمية قبرص وفائدتها بعدئذ، إذ أصبحت سنداً بالغ الجود والكرم للفرنج الصليبيين حيث كانت كميات المؤن تصل إلى ميناء السويدية - سان سيمون - ومعظمها من قبرص. واتخذت بحرية الروم - البيزنطيين - من قبرص قاعدة لها أثناء الحملات الصليبية المتتالية. وكان الفرنج يستأجرون السفن من الجنويين لقطع المسافة مابين قبرص واللاذقية. وكان دور قبرص كبيراً في فرض هيمنة البيزنطيين على الفرنج الصليبيين، وعلى سبيل المثال، فعندما حاول كونت طرابلس الامتناع عن إرسال الأموال التي فرضها عليه الامبراطور البيزنطي، هدد السفير البيزنطي بقطع ما يرد على طرابلس - من قبرص - من المؤن والتموين. مما أرغم كونت طرابلس على الاذعان. ولقد حصلت قبرص بنتيجة ذلك على ثروات طائلة. وازدهرت تجارتها، الأمـر الذي استثار شهية الفرنج، فقام أمير انطاكية رينالد شاتيون - أو أرناط كما تذكره المصادر العربية - بالاغارة على قبرص ونهبها ثم تدميرها (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م) ولم تنتعش جزيرة قبرص بعد هذا التخريب لمدة طويلة، والذي نفذته العناصر الفرنسية بالتحالف مع العناصر الأرمنية. وتبع ذلك قيام المصريين بالاغارة على الجزيرة التي باتت محرومة من وسائل الدفاع. وعندما توجهت الحملة المشتركة من الفرنج والصليبيين لمهاجمة مصر (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م)[١] جعلت من قبرص قاعدة لها حيث أقلعت سفن الاسطول الأساسي الى جزيرة قبرص، وانتظرت فيها حتى أواخر أيلول -

---

(١) ورد في كتاب التواريخ الهجرية: (سارت الافرنج بقصد دمياط في شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ ووصلت إلى دمياط في ربيع أول فأقامت الحرب خمس وخمسين يوماً بين الافرنج وبين تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين والأمير شهاب الدين الحازمي. وقد بارحت الافرنج دمياط في ٢٥ ربيع الثاني، لما علمت بمسير نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام. على املاكها. وانظر تاريخ الحروب الصليبية (١/٥١ و ٣١٥) و (٣/٢٤ و ٦١ و ٢٢٣ و ٥٦١ - ٥٦٣ و ٦٢٤ - ٦٢٦).

سبتمبر ـ ثم توجهت منها لحصار دمياط والهجوم على مصر. وكذلك، فعندما قاد ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد حملته الصليبية للانتقام من المسلمين الذين انتصروا في حطين وأعادوا فتح القدس، كان أول عمل له هو اتخاذ جزيرة قبرص قاعدة له، فاستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م بحجة ما تملكه الجزيرة من الأهمية للدفاع عن الساحل السوري، وما سينجم من الخطر لو قام ملكها باجراء تحالف وثيق مع صلاح الدين. وأصبحت الجزيرة بذلك تحت حكم ملك انكلترا.

إلا أن الاضطرابات التي اجتاحت قبرص أرغمت ريتشارد ـ ملك انكلترا ـ على بيعها لطائفة فرسان المعبد ـ الداوية ـ وذلك سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م. وعندما أخذ المسلمون بطرد الفرنج الصليبيين من بلاد الشام، أضحت الجزيرة موطن اغراء متصل، لا بالنسبة للمهاجرين القادمين من الغرب، للنزول بهذه الجزيرة فحسب، بل أيضاً بالنسبة للبارونات الذين كانوا أمراء وحكاماً في بلاد الشام ثم جردوا من اقطاعاتهم وإماراتهم وأصبح لزاماً عليهم عبور البحر الضيق للوصول إلى مرفأ الأمان ـ قبرص ـ. وإذا كان سادة الجزيرة يودون اجتياز البحر للقتال من أجل الصليب كلما اقترب الخطر، فسوف تكون قبرص بالغة الأهمية للشرق. ولهذا تقرر أن تلتزم حكومة قبرص بالقوانين التي كانت سائدة في مملكة القدس. بما في ذلك تنظيم الكنيسة وإقامة الاسقفيات في نيقوسيا وبافوس وفاماغوستا وليماسول. مع إقامة دار للمحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص. وتم الاعتراف بمملكة القدس سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م. وبذلت محاولات لتوحيد مملكتي القدس وقبرص. إلا أن ملك قبرص رفض هذا التوحيد حتى لا تتكفل قبرص بنفقات القدس. وتحولت قبرص إلى مركز للصراع بين ممالك الغرب التي هيمنت عليها المنافسة للسيطرة على الجزيرة. وشهدت أرض الجزيرة صراعات دامية واضطرابات مثيرة، وأخذت القبضات القوية في تناوب السيطرة عليها.

وكانت قبرص هي قاعدة ملك فرنسا ـ لويس التاسع ـ الذي قاد الحملة الصليبية **ضد مصر سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م فوصل الى الجزيرة في ١٧ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٢٤٨ م وأقام فيها. وكان ملك قبرص قد أصبح هو الموجه للتعاون مع المغول**

التتار للقضاء على المسلمين. وأمضت الحملة الفرنسية في قبرص سنة كاملة، بحيث أنها لم تستأنف تحركها نحو مصر إلا في شهر أيار ـ مايو ـ سنة ١٢٤٩ م. وحشد الصليبيون خلال هذه الفترة جميع ما توافر لهم القدرات لفتح مصر. وعندما انتصر المسلمون في المنصورة، انسحب اسطول الفرنج الى قواعده في قبرص، وكان قادة سفنه في معظمهم من البيازنة والجنويين.

تولى الحكم في قبرص سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م الملك هيو الذي عمل على توحيد مملكتي قبرص وعكا. فأصبحت مملكة قبرص هي المسؤولة عن حماية عكا، آخر قلاع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وهكذا، فعندما تحرك الظاهر بيبرس للهجوم على عكا سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. قام ملك قبرص بارسال النجدات إلى عكا، كما انتقل هو إليها لقيادة إغارة على الجليل. وقد انتهت هذه العملية الى الفشل، حيث ظهرت التحولات الحاسمة في المعارك البرية التي قادها الظاهر بيبرس ضد الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وأفاد الظاهر بيبرس من هذه التحولات فأرسل اسطولاً ضم ١٧ سفينة للهجوم على قبرص، وذلك عندما علم بأن ملك قبرص قد غادر عكا عائداً إلى جزيرته.

وظهر الاسطول الاسلامي بصورة مباغتة أمام ليماسول. وبالرغم من عدم تحقيق نتائج حاسمة، وبالرغم أيضاً من تعرض القوة البحرية الإسلامية لخسائر كبيرة، فان هذه العملية قد برهنت على تحول الموقف حتى في المجال البحري لمصلحة المسلمين. وعندما تمت اعادة فتح عكا وطرد الفرنج منها (سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م). بقيت قبرص هي المملكة الصليبية الوحيدة التي ارتبط وجودها بالحملات الصليبية، وظل ملوك قبرص ولأجيال عديدة بعدئذ وهم يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا، على أن يتلقوا تاج مملكة القدس في (فاماغوستا) التي اعتبرت بأنها أقرب مدينة لمملكتهم المفقودة في بلاد الشام ـ على ما زعموا ـ. وبقي حلم العودة الى بلاد الشام ماثلاً أمام دعاة الصليبية في قبرص. مما حمل الأشرف خليل ـ محرر عكا وبقية بلاد الشام من الفرنج ـ على اتخاذ قرار بفتح قبرص. وأمر

بعمارة مائة سفينة. غير أن خطر المغول أعاقه عن غزو قبرص. وبقي هذا الغزو هو هاجسه بحيث أنه مات وهو يردد: قبرص. قبرص. قبرص.

تولى بطرس الأول عرش قبرص سنة ٧٦١ هـ = ١٣٥٩ م وشرع على الفور في التحريض لتنظيم حملة صليبية جديدة. وأفلحت جهوده فتم توجيه هذه الحملة الى الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م وبالرغم من فشل هذه الحملة التي لم تنجح إلا في التدمير والنهب. فان قبرص تابعت دورها في التحريض الصليبي ضد المسلمين. ونظراً لتعاظم قوة الأتراك العثمانيين، فقد وجهت قبرص الانظار ضد تركيا. فكان لا بد للعثمانيين من العمل لاقتلاع قاعدة العدوان وإعادة فتح قبرص. غير أن المحاولات المتتالية التي قام بها الأتراك باءت بالفشل. حتى إذا ما كانت سنة ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ م تولى رئيس الوزراء لاله مصطفى باشا - في عهد السلطان سليم الثاني - قيادة قوة بحرية ضخمة ضمت مائة ألف جندي، وسار بها الى (ليماسول) التي أمكن فتحها بعد حصار قصير (يوم ٨ ربيع الآخر سنة ٩٧٨ هـ = ٩ - ايلول - سبتمبر - سنة ١٥٧٠ م). ثم توجهت القوات لحصار فاماغوستا. ولقد ساعد الشتاء على تأخير فتحها حتى أوائل الربيع. وعادت قبرص من جديد قاعدة بحرية للمسلمين، من أجل تأمين الاتصال بين تركيا وبلاد الشام ومصر وأقطار المغرب العربي - الإسلامي (الجزائر خاصة).

كان ضياع قبرص لطمة قوية للفرنج الصليبي الذي سارع كما جرت عليه عادته فحشد قوة للانتقام. وشكل اسطولاً ضخماً ضم سبعين سفينة اسبانية، ومائة وأربعين سفينة تابعة للبندقية، وأثنتي عشرة سفينة تابعة للبابا وتسعة سفن لطائفة الفرسان الرهبان - الداوية - الذين انتقلوا إلى مالطا بعد طردهم من قبرص. وسارت هذه القوة بقيادة ابن شارلكان ملك اسبانيا وامبراطور الغرب (دون خوان). فاصطدمت بالاسطول العثماني عند ليبانت وتمكنت من تدميره (٩٧٩ هـ = ١٥٧١ م). غير أن العثمانيين أفادوا من فصل الشتاء، فأعادوا بناء اسطولهم بأقوى مما كان عليه قبل معركة ليبانت [١].

---

(١) بقيت قبرص تحت حكم الاتراك المسلمين حتى سنة ١٨٧٨ م حيث تنازلت تركيا عنها في هذه السنة لبريطانيا مكافأة لها على ما قدمته من الدعم السياسي والعسكري للدولة العثمانية في حربها ضد روسيا =

قد يكون متوقعاً على ضوء العرض الوجيز السابق، أن تستأثر جزيرة قبرص بأكبر عدد من القلاع والحصون. إذ أنها عاشت على امتداد العصور القديمة والوسطى وحتى الحديثة، وهي في حالة الحرب الدائمة والاضطرابات المستمرة، فقد تداولت على السيطرة عليها أقوام وأقوام. وكان كل قوم يعملون على إقامة القلاع وتشييد الحصون، لضمان الحماية لقواتهم. وقد زالت تحصينات كثيرة وبادت، وبقيت تحصينات أخرى تروي قصص، أو بعض قصص، أحداث الماضي القريب والبعيد.

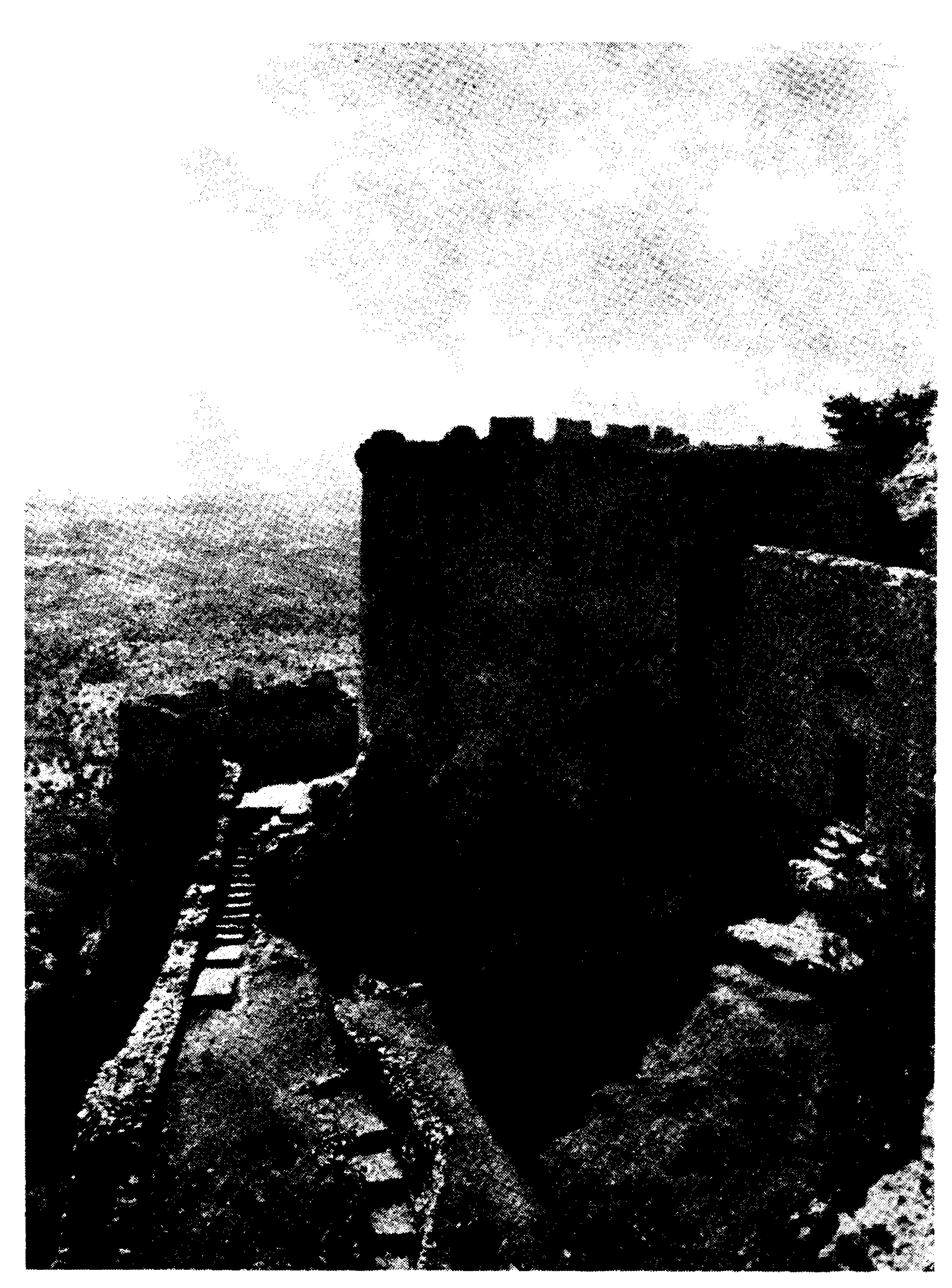
ولعل أكثر ما يثير الانتباه هو انتشار معظم القلاع على الواجهة الشمالية للجزيرة ـ في مواجهة تركيا ـ. الأمر الذي يبرز ملامح ذلك الصراع المرير الذي خاضه الأتراك العثمانيون ضد الفرنج الصليبيين وبقاياهم في الجزيرة. وهذا يؤكد بدوره أن هناك تحصينات كثيرة كانت تحتل مواقعها على الواجهة الشرقية ـ في مواجهة بلاد الشام ـ ومثلها على الواجهة الجنوبية ـ في مواجهة مصر ـ ثم زالت وبادت، إما بتأثير عامل الحروب والصراعات المتتالية، وإما بتأثير عامل الزمن والتقادم ـ أو بتضافر العاملين معاً. وعلى كل حال، فقد يكون بالمستطاع التوقف قليلاً عند بعض ملامح هذه القلاع والتحصينات.

أولاً: قلعة القنطرة [1].

وهي تقع على الساحل الشمالي من قبرص، على بعد ٣٨ ميلاً تقريباً من كيرينيا والى الشرق منها. وتحتل موقعها على ارتفاع حوالي ٢٢٠٠ قدم فوق جرف شديد الانحدار في السلسلة الشمالية، وهي على اتصال بالنظر مع بوفافنتو وفاماغوستا. ولقد دعم السور المحيط بأطراف ذلك الموقع شديد الانحدار، بشكله غير المنتظم، بعدد من الأبراج القوية والحصون البارزة ـ ولكن من الجهة الجنوبية والجهة الجنوبية الشرقية فقط.

= القيصرية (بموجب معاهدة سان ستيفانو). وأعلنت قبرص دولة مستقلة سنة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٥ م بعد ثورة منظمة أيوكا ـ الارهابية الدينية ـ.

(١) القنطرة: (KANTARA) وبالفرنجية لوكاندار: (LE CANDARE) ولوكاندير: (LE CANDAIRE) ولاكاندار: (LA CANDARE).



قلعة قنطرة

البوابة الرئيسة والبرج الغربي والحصن البارز الخارجي.

قلعة قنطرة



البرج الكبير الى جهة اليمين والبرج الشرقي من جهة اليسار .

وهناك ساعة برج صغيرة تشغل أعلى نقطة في القسم الداخلي، فتشكل ظاهرة مميزة للقلعة التي ما تزال محفوظة بحالة جيدة. ولعل أبرز ما عرفته هذه القلعة من الأحداث هو قيام قوات قبرصية بمحاصرتها سنة ١٢٢٨ - ١٢٢٩م من أجل طرد حامية الامبراطور الجرماني فريدريك الثاني، والتي كانت قد احتلت القلعة وأقامت فيها. وقد صمدت الحامية رغم ما أصاب السور من تدمير جزئي بقذائف المنجنيق. ثم تمكن رام ماهر من اصطياد المدافعين، وطردهم من صخرة مجاورة، غير أن أتباع الامبراطور فريدريك نجحوا في استعادة السيطرة على القلعة (سنة ١٢٣٢م) وقام القبارصة بعد ذلك بفترة قصيرة بهجوم جديد، ونجحوا في احتلال القلعة حتى إذا ما كانت سنة ١٣٧٣م. فرض الجنويون سيطرتهم على القلعة. وحولوها إلى قاعدة هامة من قواعدهم. وبقيت في حوزتهم حتى سنة ١٥٢٥ حيث فقدت القلعة كل أهمية لها.

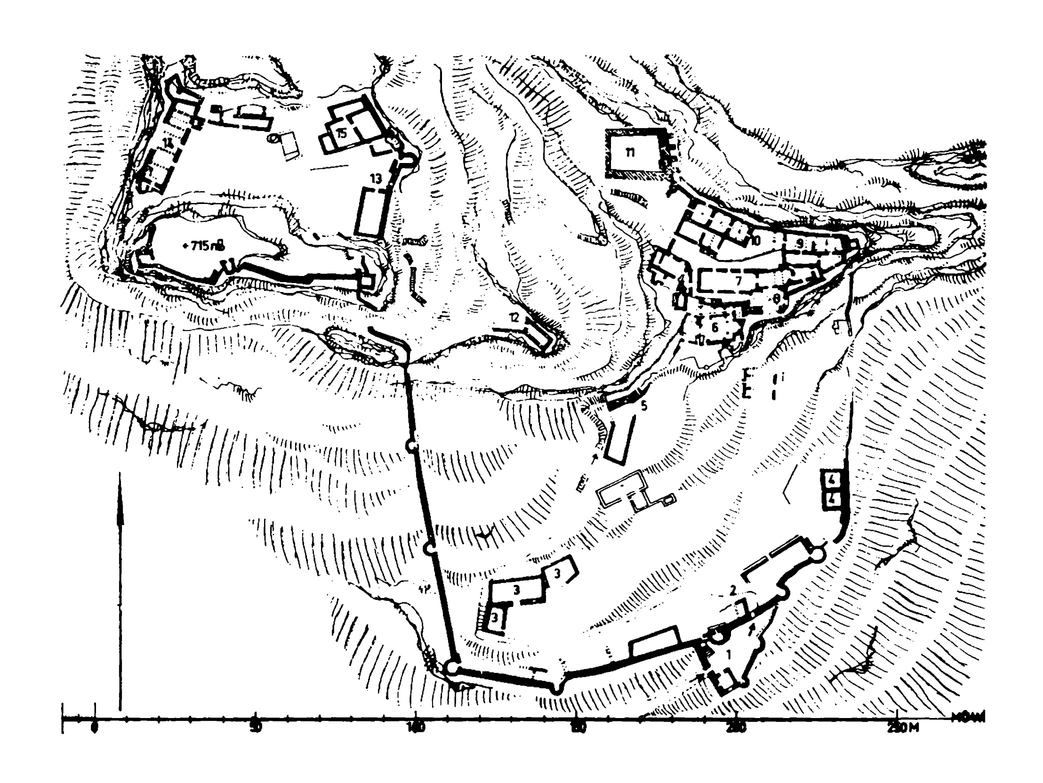
ثانياً: قلعة سانت هيلاريون[١].

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص مباشرة إلى الجنوب - الغربي من كيرينيا، وتحتل مركزها على ارتفاع يتراوح بين ٢٣٠٠ و ٢٤٠٠ قدماً. وتسيطر على الطريق الواصل بين كيرينيا ونيقوسيا. وهي مثلها كمثل المعاقل الجبلية في قبرص، قد اعتمدت على الطبيعة الطبوغرافية المجاورة لها. وتتألف من قلعة خارجية فسيحة، تحوي مبان معزولة وجناحاً منخفضاً مغلقاً مع كنيسة وأحياء سكنية وخزان مياه مكشوف ضخم، وقلعة علوية تحوي أجنحة ملكية، وكانت منفصلة عن القلعة السفلية بسور تسنده الأبراج. ويقال بأن القلعة قد شيدت على الأرجح أثناء حملة الامبراطور البيزنطي (الكسيوس الأول)[٢] على حاكم الجزيرة الذي تمرد عليه. وقيل أيضاً في اسطورة بناء القلعة أنها اقيمت في موقع كان يشغله دير في السابق. وقد عمل الكسيوس الأول بعد هجومه على تحصين القلعة. غير أن أتباع الامبراطور الجرماني

---

(١) سانت هيلاريون: (ST. HILARION) وباليونانية ديديموس: (DIDYMOS) وبالفرنجية: (DIEUDAMUR) أي إله الحب: (DIEU D'AMOUR).

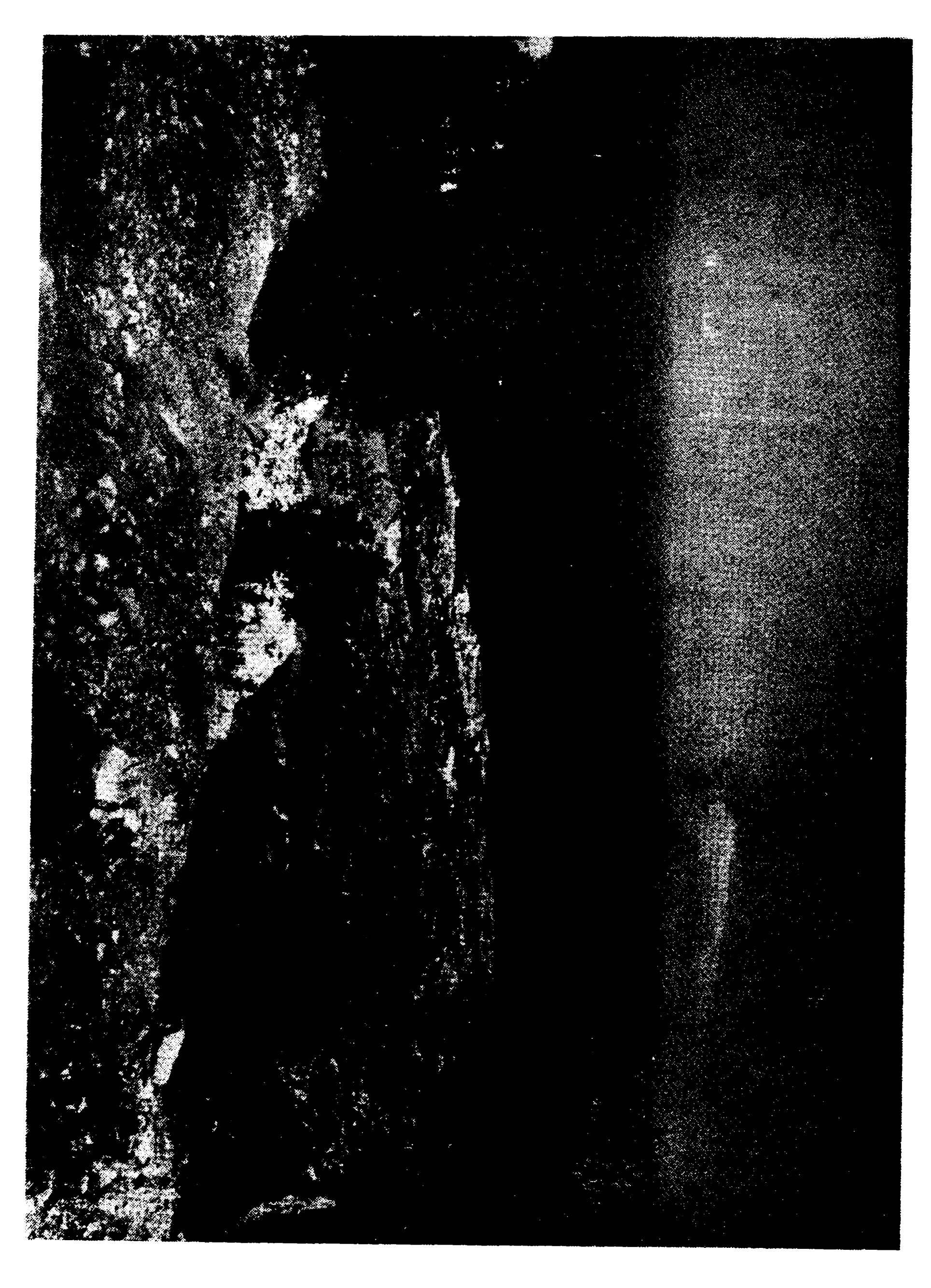
(٢) الكسيوس الأول: (ALEXIS I) امبراطور بيزنطي عرف باسم كومين: (COMMENE) عاصر الحملة الصليبية الأولى. وحكم من سنة ١٠٨١م حتى سنة ١١١٨م.



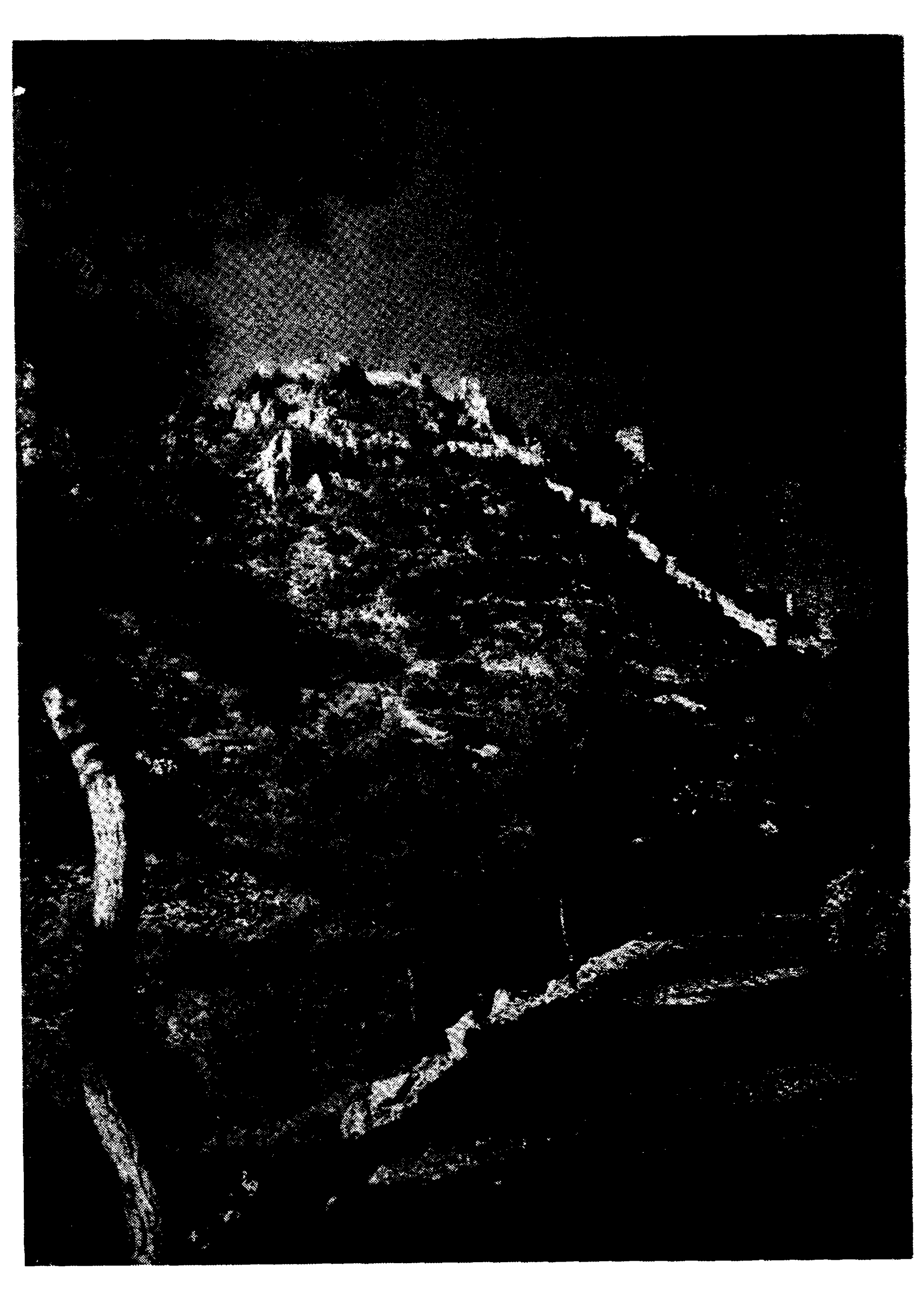
سانت هيلاريون ـ ديودامور (St Hilarion-Dieadamour)

المخطط الأرضي للقلعة، المقياس ١/٤٠٠٠. رسمت مباني العهد البيزنطي (القرن العاشر) باللون الأسود، والإضافات الفرنجية الأولى بالتهشير المتقاطع، ومباني القرن الرابع عشر بالتهشير البسيط.

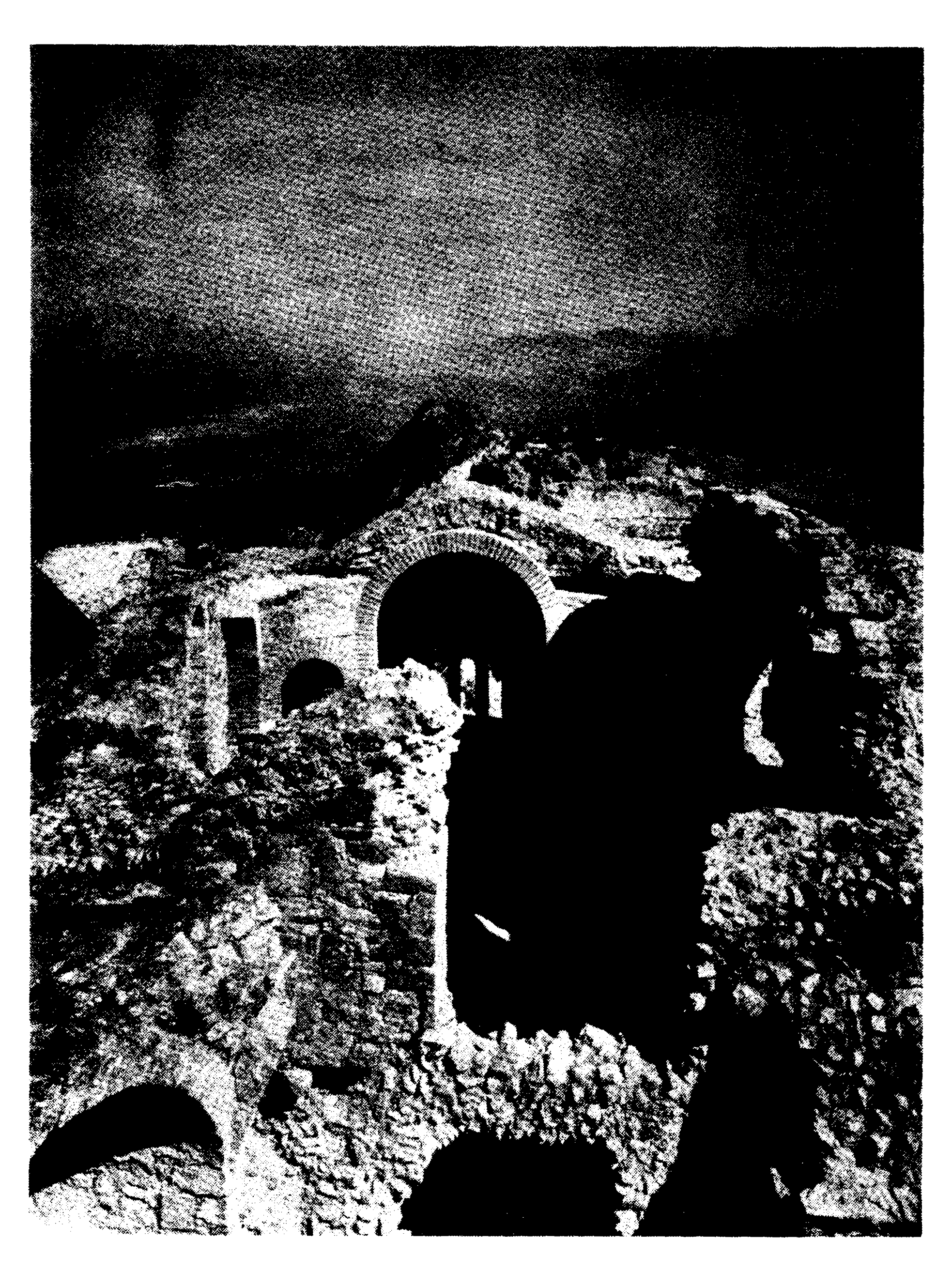
١ ـ حصن خارجي والبوابة الخارجية، ٢ ـ البوابة الداخلية المؤدية إلى الفناء المسور السفلي، ٣ ـ الإسطبلات، ٤ ـ الصهاريج، ٥ ـ البوابة الداخلية المؤدية إلى الفناء المسور الأوسط، ٦ ـ كنيسة بيزنطية (النصف الثاني من القرن العاشر)، ٧ ـ قاعة كبرى (القرن الرابع عشر فوق أساسات بيزنطية)، ٨ ـ منظرة (مَطَلّ) (Belvedere)، ٩ ـ شقق سكنية من أربع طبقات، ١٠ ـ أحياء سكنية (براكات)، ١١ ـ صهريج مياه، ١٢ ـ برج الأمير جون، ١٣ ـ بوابة الفناء العلوي المسور، ١٤ ـ الجناح الملكي، ١٥ ـ مكاتب ومطابخ.



إطلالة الى أسفل من القلعة. وبلدة كيرينا الصغيرة.



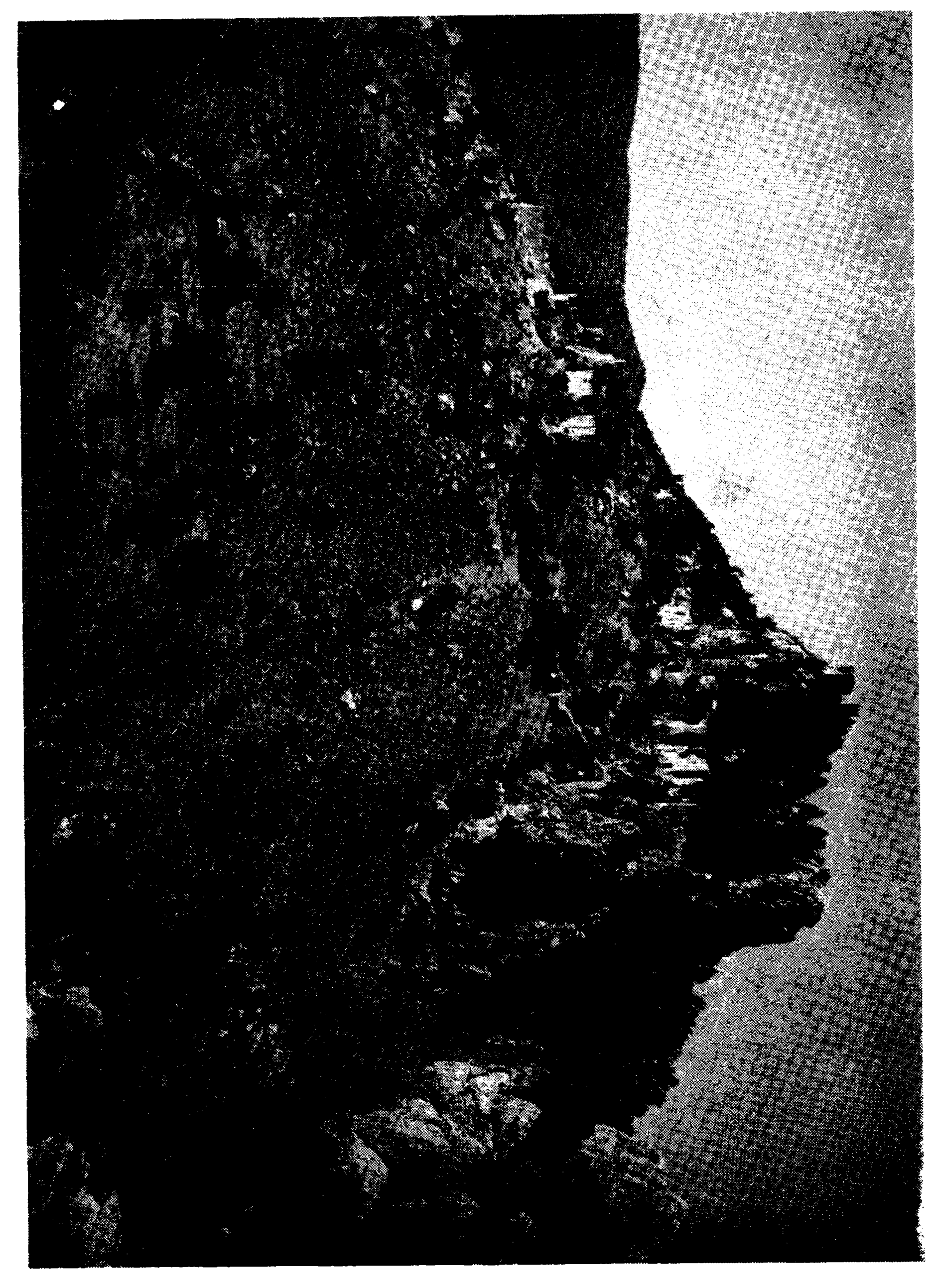
سانت هيلاريون
الجناح الغربي للقلعة. وبرج الأمير جون في المنتصف.



سانت هيلاريون

القلعة السفلية

سانت هيلاريون



منظر عام من جهة الشرق. وتبدو الى اليمين القلعة السفلى وفوقها برج الأمير جون.

فريدريك الثاني استولوا عليها (سنة ١٢٢٩ م) بعد حصار استمر تسعة أشهر. ثم عملت العائلة الملكية بعدئذ على استخدام القلعة مقراً صيفياً لها. وقد حاول الجنويون غزو قلعة سانت هيلاريون (سنة ١٣٧٣) غير أن القلعة استطاعت مقاومتهم. ثم فرض البنادقة سيطرتهم عليها في مطلع القرن السادس عشر. وفي عهدهم فقدت القلعة أهميتها.

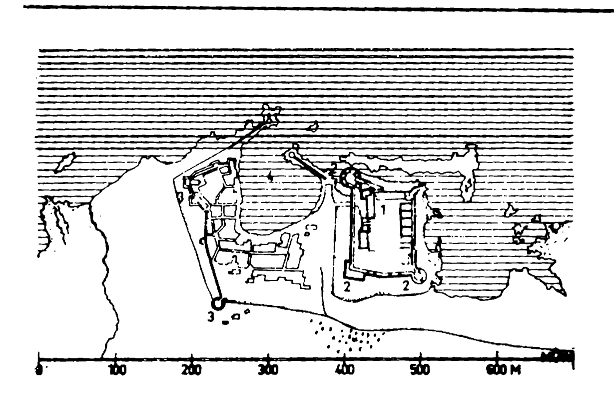
ثالثاً: قلعة كيرينيا[١].

هي قلعة هامة في بلدة صغيرة لها مرفأ يقع على الساحل الشمالي من قبرص. ولقد حدد البنادقة المظهر الخارجي للقلعة الضخمة، شبه المستطيلة، مع أبراجها المستديرة وحصنها المضلع البارز الضخم من الناحية الجنوبية الغربية، وأسوارها الساترة السميكة. أما البرج نصف الدائري الواقع في الزاوية الشمالية - الشرقية، والسور الواقي الملاصق له، بالاضافة إلى قسم كبير من أحياء السكن والمخازن التي تتاخم الفناء الداخلي الفسيح، فتعود إلى أيام الفرنج الصليبيين. ولم يبق من ذخائر العهد البيزنطي سوى القليل جداً من الأسوار الداخلية، والكنيسة الصغيرة التي طغى عليها البرج المدور البندقي في الشمال الغربي. وكل ما بقي من دفاعات البلدة الأصلية هو أطلال برجيز نصف دائريين فقط. ولقد كانت بلدة كيرينيا من البلاد القديمة، إلا أن الأسطول البيزنطي استخدمها مرفأ له سنة ١٠٩٢ م. أثناء الحملة التي قام بها ضد الحاكم - رابسوماتيس - المتمرد. وقد قرر الحاكم البيزنطي لقبرص - اسحاق كومنين - أن يجد لنفسه ملاذاً في كيرينيا سنة ١١٩١ م. ولكنه وقع في الأسر قبل أن يصل إليها وعندما جاء الفرنج الصليبيون، حاصروا كيرينيا واستولوا عليها. وظلت دفاعات البلدة دون تطوير حتى سنة ١٢١١ م، حيث دعمت القلعة بشكل واضح.

تعرضت القلعة لهجوم أتباع الامبراطور فريدريك الثاني الذين استولوا عليها سنة

---

(١) قلعة كيرينيا: (KYRENIA) وباليونانية: (KERYNIA) وكيرين: (KYRENE) وباللاتينية: (CYRINIA) وبالفرنجية: (CERINA) وسيرين: (CERINES) وشيرنيس: (SCHERNIS) وسيروني: (CERAUNIE) الخ..



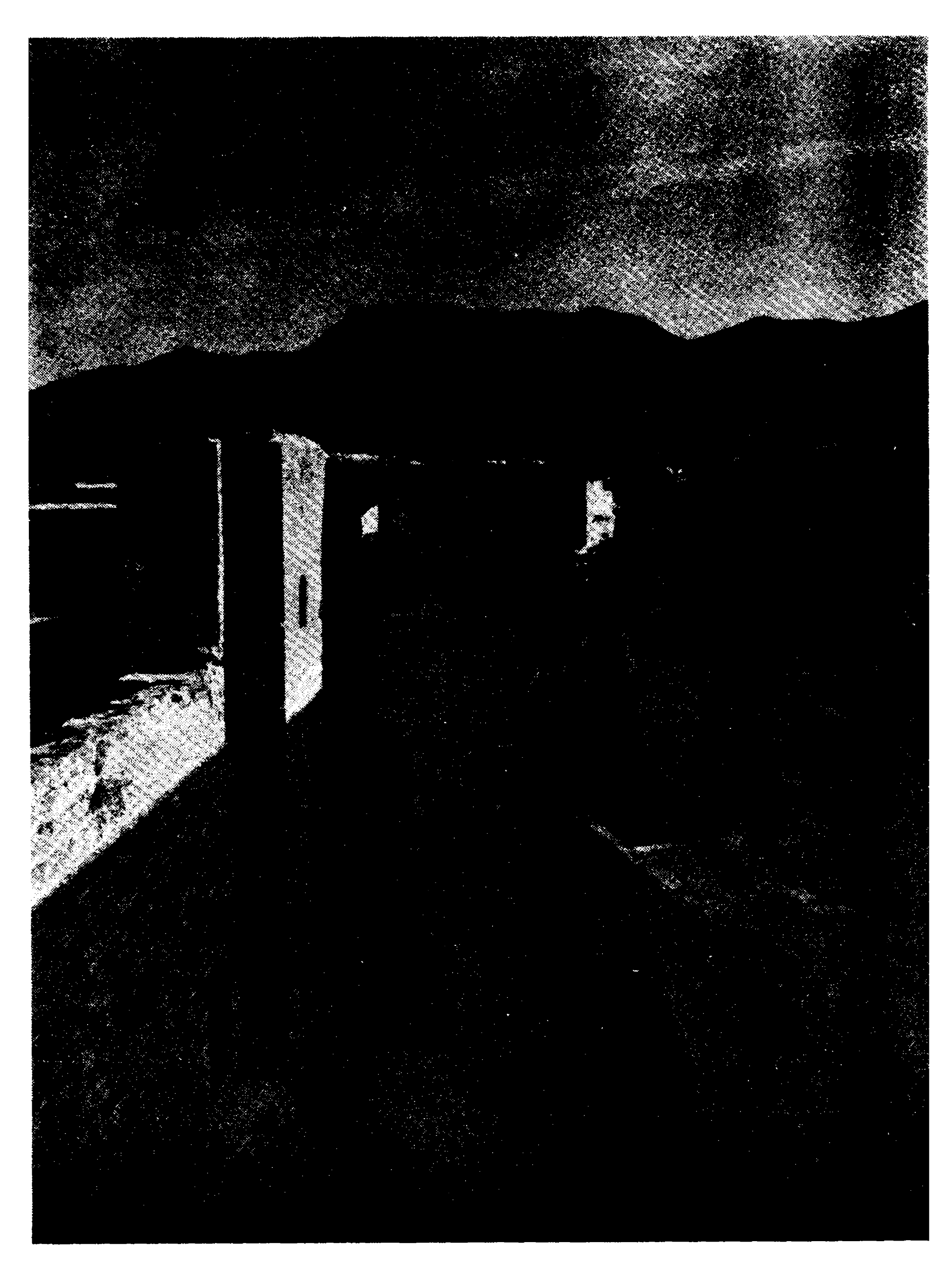
كيرينيا

مخطط المدينة (كما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر). المقياس ١/١٠٠٠ رسمت التحصينات العائدة إلى العهدين البيزنطي والفرنجي باللون الأسود، وتلك التي تعود للعهد البندقي بدون تظليل.

١ ـ القلعة البيزنطية والفرنجية، ٢ ـ حصون بارزة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ٣ ـ قطاعات أزيلت من سور البلدة، ٤ ـ المرفأ.

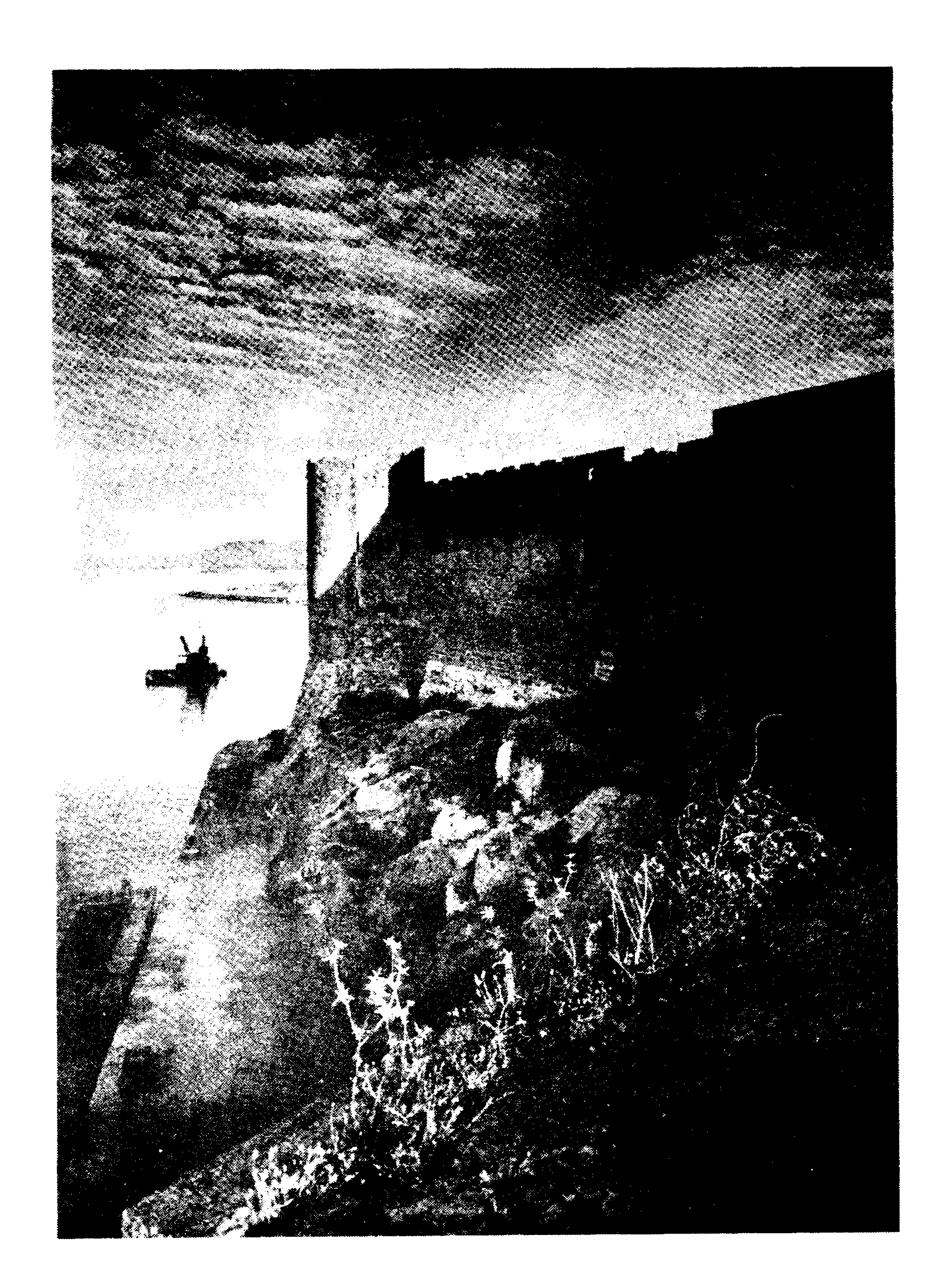
قلعة كيرينيا

الجناح الشرقي للقلعة وبرج البنادقة الى اليسار والبرج الفرنجي الى اليمين.



كيرينيا

اطلالة الى الأسفل من منصة المدفعية .



كيرينيا ـ الامام: الجناح الشمالي للقلعة.



كيرينيا

الكنيسة البيزنطية الصغيرة.

١٢١٣ م، وتبع ذلك قيام القبارصة بحصارين للقلعة سنتي ١٢٢٨ و ١٢٣٤ م. ثم نجح القبارصة في استعادة القلعة التي ما لبثت أن تحولت إلى سجن لمملكة قبرص (في القرن الرابع عشر). وقام الجنويون بحصار كيرينيا سنة ١٣٧٤ م. ولكن الملك جيمس الأول صمد في القلعة رغم قصفها بمدافع الحجارة الثقيلة، وكان للقلعة دورها الحيوي في المحافظة على مؤخرة المدافعين. وعندما هاجم المماليك المسلمون قبرص سنة ١٤٢٦ م. وهزموا القبارصة في خير وكيتيا، انسحب الوصي (الكاردينال دي لوزينيان) الى كيرينيا. ولكن المماليك لم يهاجموا القلعة، وتجنبوا الصدام بدفاعاتها القوية. ثم نشأ نزاع حول حقوق الوراثة بين (شارلوت دي لوزينيان) وأخيها غير الشرعي (جيمس الثاني) وتعرضت كيرينيا لحصار طويل استمر ثلاث سنوات تقريباً (١٤٦٠ - ١٤٦٣ م) واضطر حاكم كيرينيا في النهاية للاستسلام. ثم جاء البنادقة فاحتلوا كيرينيا سنة ١٥٤٤ م. فبذلوا عناية خاصة لاعادة بناء القلعة وتحصينها بعد أن أضحت عتيقة متداعية. وهم الذين عززوا الأسوار الجنوبية والغربية، وأقاموا برجاً دائرياً وحصناً بارزاً ضخماً فيها. غير أن هذه التحصينات لم تمنع قلعة كيرينيا من السقوط في قبضة الاتراك العثمانيين دونما قتال (سنة ١٥٧٠ م) فعمل الأتراك المسلمون على استخدام القلعة قاعدة لحاميتهم وسجناً للعصاة والمجرمين.

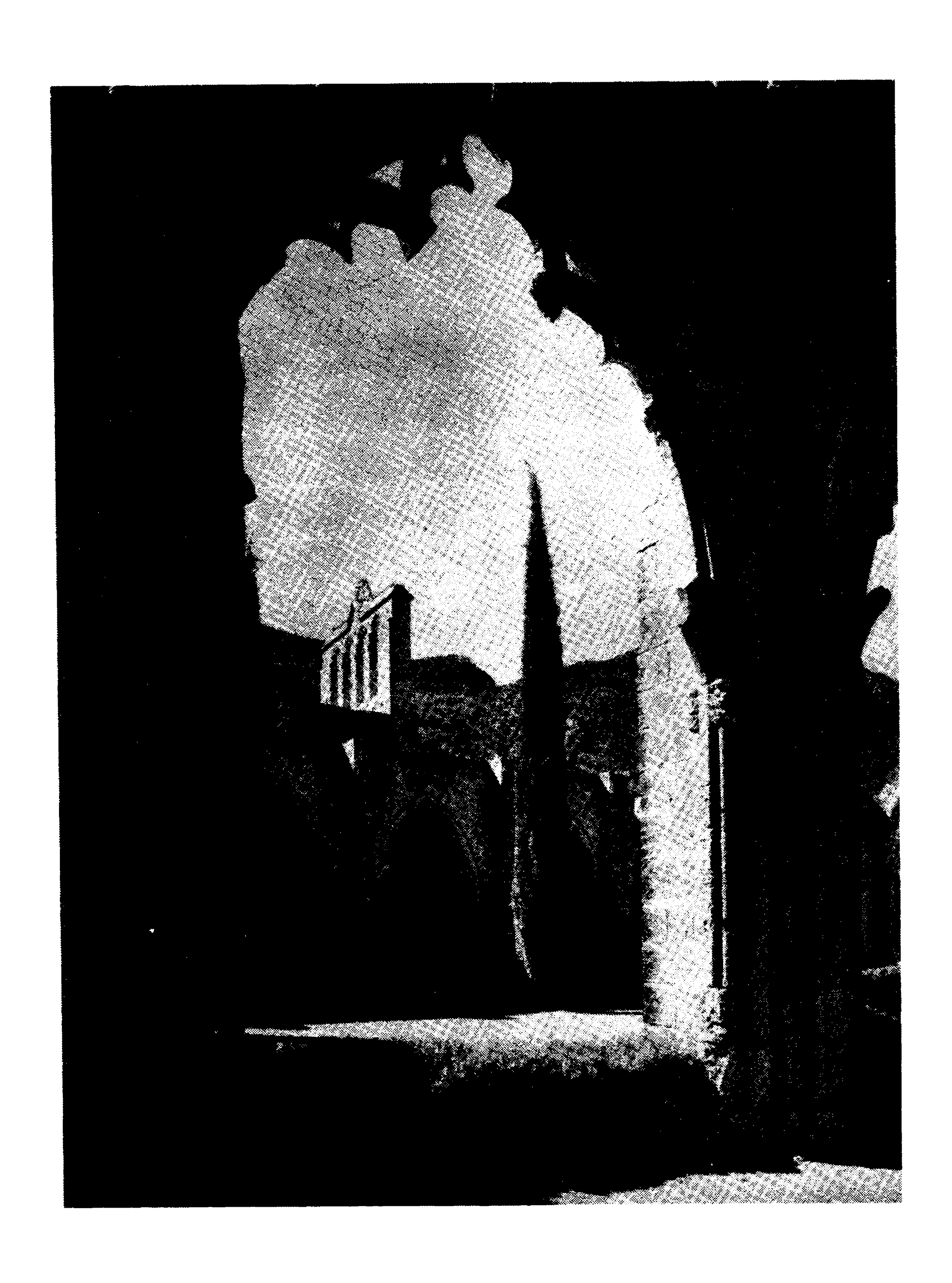
رابعاً: قلعة بيلابايس (١)

تقع في قرية شمال قبرص، وكانت ديراً - بيعة - لطائفة البرومنتريين (٢). وقد احتلت القرية وقلعتها مركزها على مسافة أميال قليلة إلى الجنوب - الشرقي من كيرينيا. وقد صمم الدير الذي ما يزال في حالة جيدة جداً، وفقاً للنموذج التقليدي

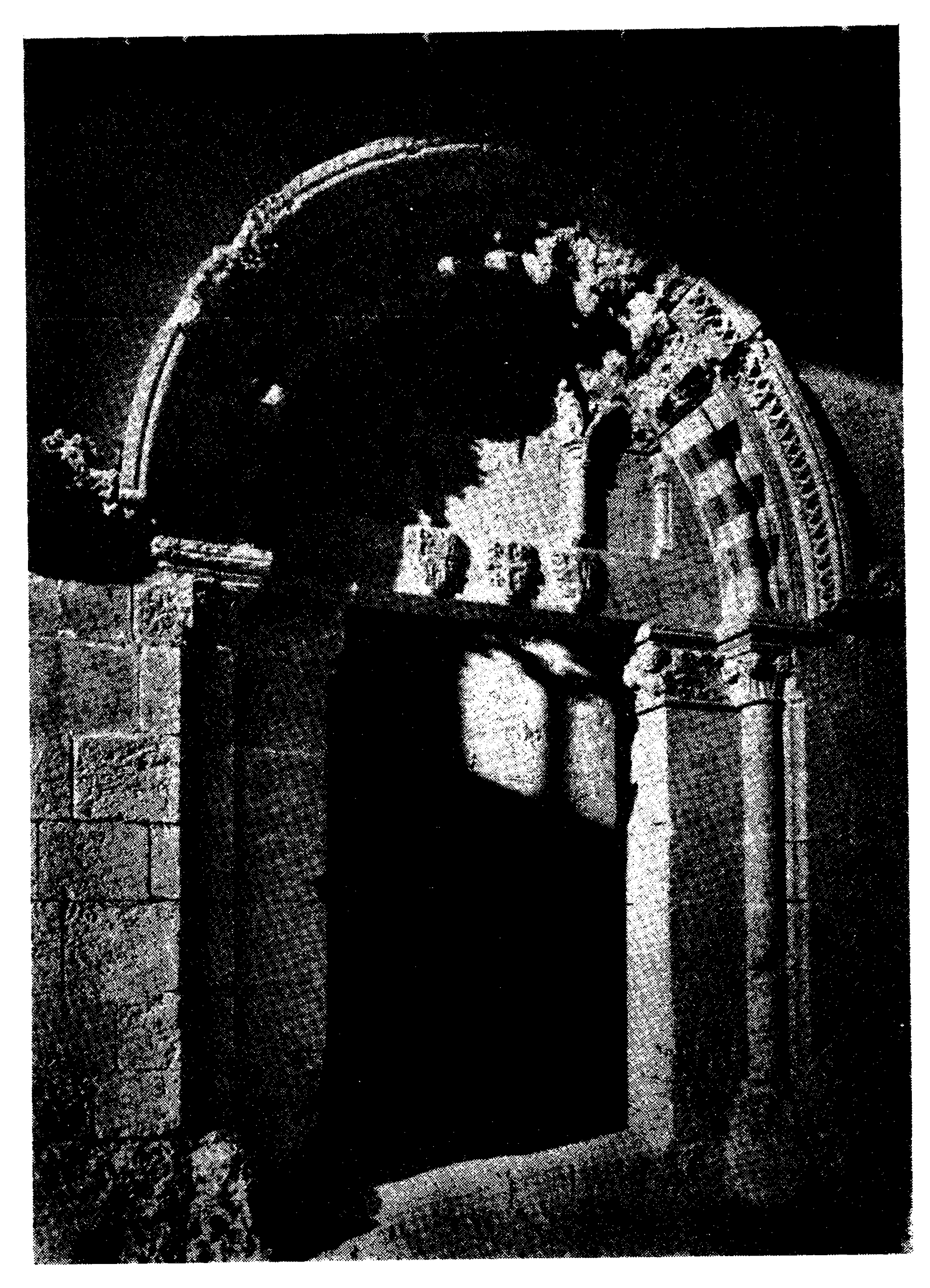
---

(١) بيلابايس: (BELLAPAIS) وبالفرنجية لابايس: (LAPAIS) ودير ابيسكوبي: (ABBAYE DE EPISCOPIE) وابيسكوبيا: (EPISKOPIA).

(٢) طائفة البرومنتريين: هي طائفة من الروم الكاثوليك. نظمها نوربرت دوكسانتين الموصوف بالقديس وذلك سنة ١١٢٠ م، وأقام لطائفته ديراً في بريمونتري - فرنسا - وتسمى أيضاً نظام بريمونتري: (ORDRE DES PREMONTRES) أو القانون الأبيض وهو نظام يقوم على تطبيق مبادىء القديس أوغستين SAINT AUGUSTIN) في الحياة.



بيلابايس : الواجهة الغربية للكنيسة .



بيلابايس

الباب الرئيسي لحجرة الطعام في الكنيسة.

المعروف، فالفناء الداخلي مكشوف وحوله الأروقة المعمدة. وتنتصب الكنيسة الصغيرة في الجهة الجنوبية منه، وفيها صحن وجناحان. وتوجد في الشمال قاعة الطعام الكبيرة. كما يوجد في الغرب قبو المؤونة والمطبخ الذي له فسحة خاصة منفصلة. ولقد ارتبط تشييد القلعة وبناء الدير بعملية إعادة فتح القدس وطرد الفرنج منها على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) فقد عمل ملك القدس أملريك لوزينيان (١١٩٨ - ١٢٠٥ م) على تأسيس الدير لطائفة رهبان بريمونتري الذين هربوا الى قبرص. وبعد أن اكتمل بناء القلعة والدير خلال عهود متتالية، أضيفت إليه أقسام جديدة، وخصص له من الوقت - الأحباس - ما يكفيه. وتعرضت القلعة والدير لأزمات حادة عبر صراع القبارصة والجنويين. وتصدع الدير كثيراً في عهد حكم البنادقة. حتى إذا ماجاء الأتراك العثمانيون، عملوا على طرد الطائفة الدينية. غير أنهم سمحوا للقرويين المسيحيين بالتردد على الكنيسة، وأقاموا حامية لهم في القلعة.

خامساً: فاماغوستا (أو فماغوستا)[1].

هي مدينة لها مرفأ، وتضم قلعة هامة على الساحل الشرقي من قبرص. ورغم أن داخل المدينة أصبح مهجوراً من السكان بسبب مناخها غير الصحي. فإن تحصيناتها التي تعود في معظمها إلى عهد حكم البندقية للجزيرة ما تزال في حالة جيدة، كما هو الحال بالنسبة لكنائسها العديدة أيضاً. وتقع فماغوستا فوق أرض مستوية تقريباً إلى جوار خليج محمي جيداً، بريف صخري بارز، ويمكن إغلاقه تماماً - في العصور الوسطى - بسلسلة حديدية تمتد من القلعة إلى برج الحصار. ولا يتفق تخطيط المدينة مع أي تخطيط معروف، فقد كانت محاطة بأسوار غير منتظمة، مدعمة بحصون بارزة. والقطاع

---

(١) فاماغوستا: (FAMAGUSTA) وباليونانية أموخوستوس: (AMMOCHOSTOS) وتعني (في الرمال) وقد ظلت هذه التسمية هي الشائعة حتى القرن الثالث عشر. وبعدها أصبحت تعرف باسمها الفرنجي فقط الذي هو فماغوستا: (FAMAGOSTA) وقد اقيمت فاماغوستا على أنقاض مستوطنة قديمة اسمها: (SALAMIS-CONSTANTIA) سالامبس كونستانتيا، وكانت على بعد أميال قليلة عن الساحل - من جهة الشمال.

الوحيد المحصن جيداً من هذه الأطراف الدفاعية هما زاويتا المدينة. أي البوابة البرية الجنوبية ـ الغربية، مع الحصن الأمامي الذي يعود تاريخه الى سنة ١٥٤٤. وما يسمى بحصن مارتينينغو★ حوالي سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٦٠ م. في الشمال الغربي المشيد بالاسلوب الايطالي القديم.

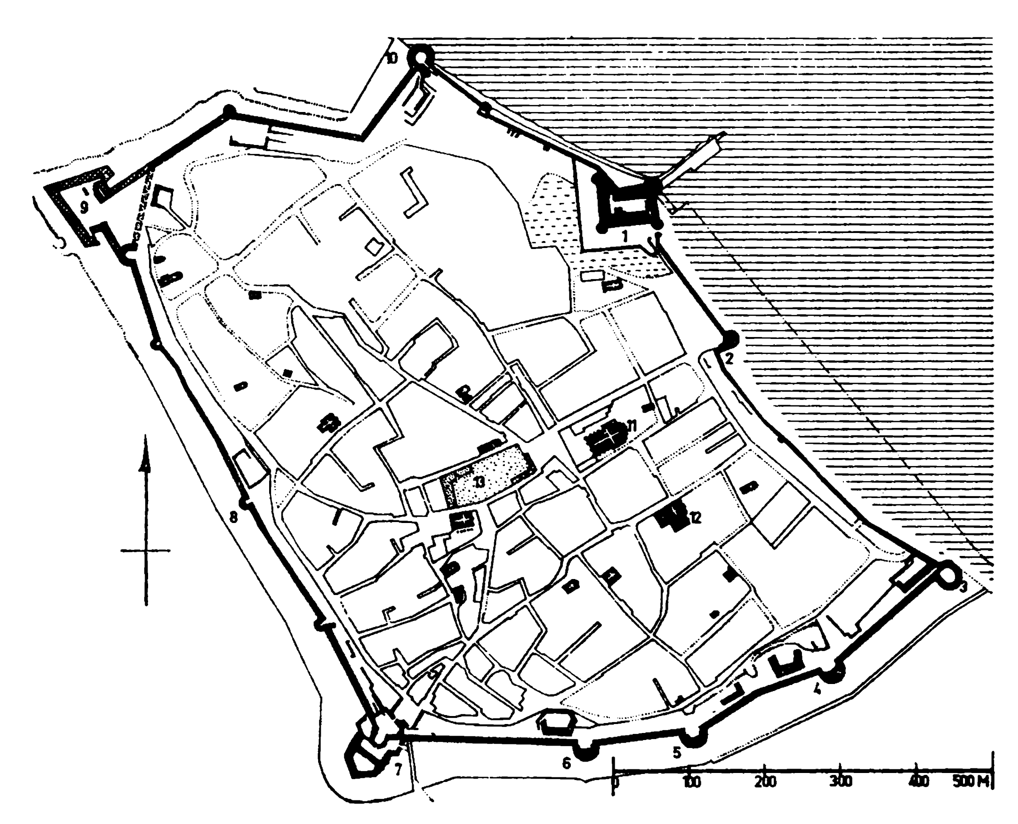
وتوجد القلعة في منتصف الواجهة المطلة على البحر ـ وهي القلعة التي عرفت في العهد التركي العثماني باسم (ايتش كال ـ أو القلعة الداخلية) ويعود قلب القلعة في تاريخه الى القرن الرابع عشر. بينما شيد السور الخارجي في العام ١٤٩٢ م وذلك بعد أن استولت البندقية على قبرص.

وعرفت فاماغوستا (أو فماغوستا) عبر تاريخها أحداثاً مثيرة، لم يكن أقلها شأناً وأهمية، قيام ريتشارد قلب الأسد وجي لوزينيان باحتلالها سنة ١١٩١ م. ثم قيام صراع بين القبارصة الملكيين وأتباع الامبراطور فريدريك الثاني سنة ١٢٣٢ م. وقد عرض ملك قبرص (هنري الثاني ١٢٨٥ ـ ١٣٢٤ م) على الفرنج الذين طردهم المسلمون من عكا سنة ١٢٩١ م. أن يستقروا في فماغوستا. وبدأ العمل وقتها لاعادة تحصين القلعة وتقوية دفاعاتها. واستمر العمل في دعم الدفاعات بحماسة حتى سنة ١٣١٠ م حيث تم بناء القلعة مع إضافة أقسام جديدة الى القصر الملكي والى المدينة. كما تم تحسين السور البحري ما بين البوابة البحرية وحصن المدفعية في القسم الجنوبي الشرقي. وتم أيضاً حفر خنادق بمساعدة الفلاحين الذين جندوا من جميع أرجاء الجزيرة. ولم تلبث فماغوستا أن ازدهرت بسرعة حتى أصبحت في سنة ١٣٣٦ م واحدة من أغنى مدن الشرق وأجملها باكتمال بناء كاتدرائية القديس نيقولا الضخمة (التي شيدت بين سنة ١٣٠٨ وسنة ١٣١٥ م). وقد أثار غنى فماغوستا شهية دولة جنوه التي عملت على احتلالها بعد حصار قصير (سنة ١٣٧٣ م) وظلت ضمن ممتلكاتها حتى العام ١٤٦٣ م. وذلك رغم المحاولات العديدة التي بذلها ملوك قبرص من أجل استعادتها واتباعها لحكمهم. حتى إذا ما كانت سنة ١٤٦٤ م. وبعد ثلاثة أعوام من

★ مارتينينغو: (MARTINENGO).

الحصار ، استردها البيت الملكي القبرصي بموجب معاهدة مع جيمس الثاني. غير أن البنادقة ـ فينيسيا ـ كانوا قد وطدوا أقدامهم فيها قبل ذلك بزمن طويل، حتى إذا ما كانت سنة ١٤٨٨ م، ارتفع علم البندقية على (فماغوستا) . وفي السنة التالية، أرغمت جيوش جمهورية البندقية آخر ملكات قبرص (كاترينا كورنارو) على التنازل عن العرش، والتخلي عن حقوقها الشرعية بالجزيرة. وشرع البنادقة بتحسين مدينة فماغوستا ودفاعاتها، وأعادوا ترميم السور الخارجي للقلعة، وبوابة البحر. وتم تشييد (حصن موراتو) وذلك حتى سنة ١٤٩٦ م. وأضيفت تحسينات أخرى الى الدفاع (من سنة ١٥٤٤ حتى سنة ١٥٦٥ م) كان من بينها بوابة البحر وحصن مارتينينغو.

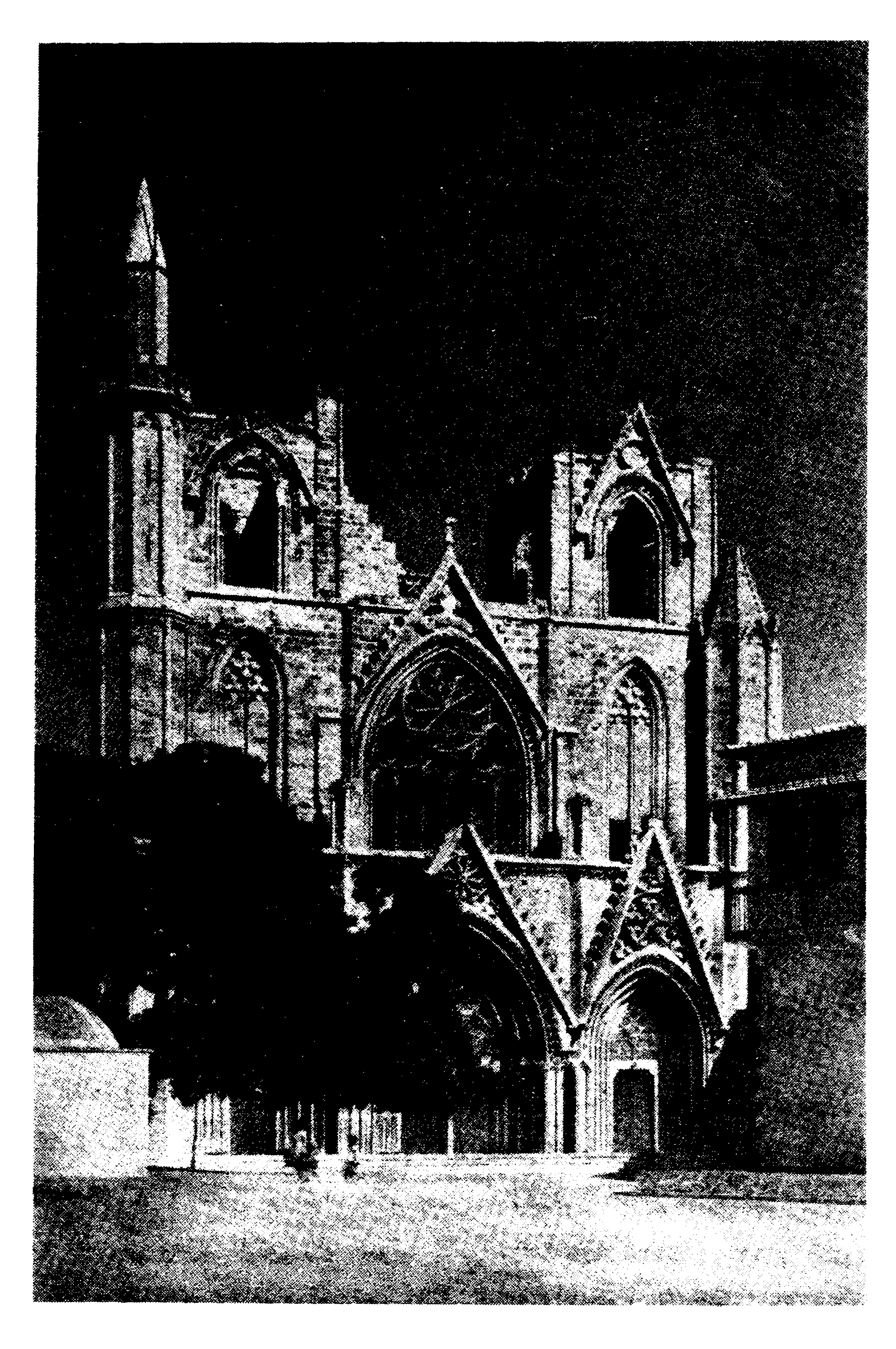
نزل الجيش التركي الإسلامي بقيادة لالا مصطفى باشا على أرض قبرص سنة ١٥٧٠ م. وأقام على حصار فماغوستا زهاء السنة، عمل الأتراك المسلمون خلالها على نقب الأسوار ـ عن طريق الانفاق ـ مما أدى الى انهيار الواجهة الجنوبية. فاستسلمت الحامية يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٥٧١ م. بعد أن فقدت الحامية مؤونتها وذخائرها، وفقدت معها الأمل بأي دعم خارجي. فعمل الأتراك المسلمون على إعادة ترطين الصليبيين في قرية (ڤاروشا) الصغيرة، إلى الجنوب من فماغوستا، وحرم عليهم دخول أسوار المدينة عند حلول الظلام لعدة عقود من الزمن تلت ذلك. وعمل الأتراك على الفور. على اصلاح دفاعات فماغوستا. ثم ما لبثت هذه الدفاعات أن فقدت أهميتها.



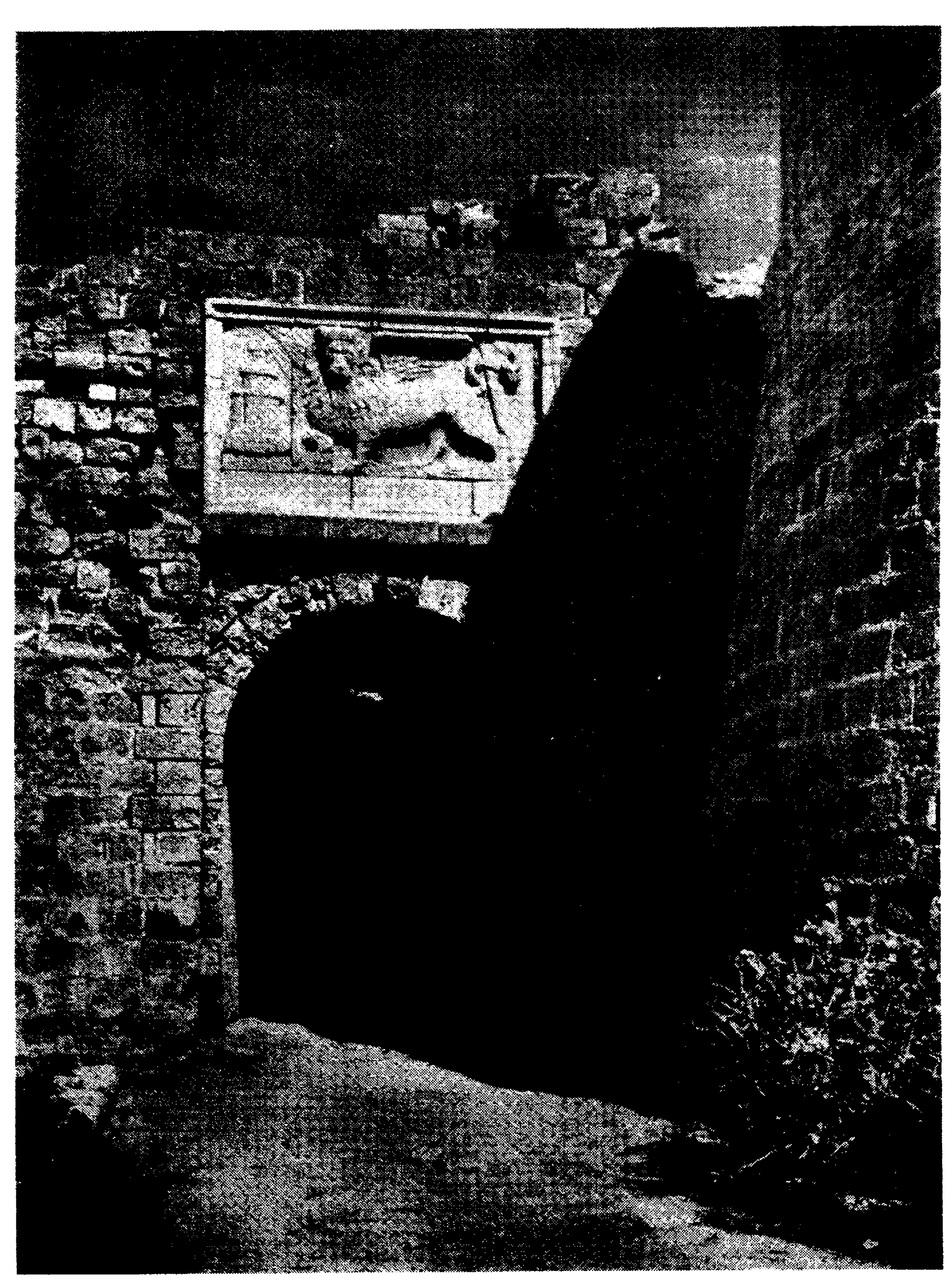
فماغوستا Famagusta .

إعادة تركيب للمدينة كما كانت في منتصف القرن السادس عشر، المقياس ١/١٠٠٠٠. رسمت تحصينات أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التاسع عشر باللون الأسود. ومباني منتصف القرن السادس عشر بالتهشير المتقاطع Arsenal Bastion .

١ ـ القلعة (إيتش كال، أو حصن البحر)، ٢ ـ بوابة البحر، ٣ ـ حصن المدفعية، ٤ ـ حصن كامبو سانتو، ٥ ـ حصن أندروزي، ٦ ـ حصن القديسة ناپة، ٧ ـ بوابة البر ومعصم أمامي (Ravelin)، ٨ ـ حصن موراتّوا، ٩ ـ حصن مارتينينغو، ١٠ ـ حصن الجوهرة، ١١ ـ كاتدرائية القديس نيقولا للاتين (أيا صوفيا كامي Camii Aya Sofya)، ١٢ ـ كاتدرائية القديس جورج لليونان، ١٣ ـ موقع القصر الملكي السابق وأطلاله (بالاستناد إلى تقرير مديرية الآثار ـ قبرص).

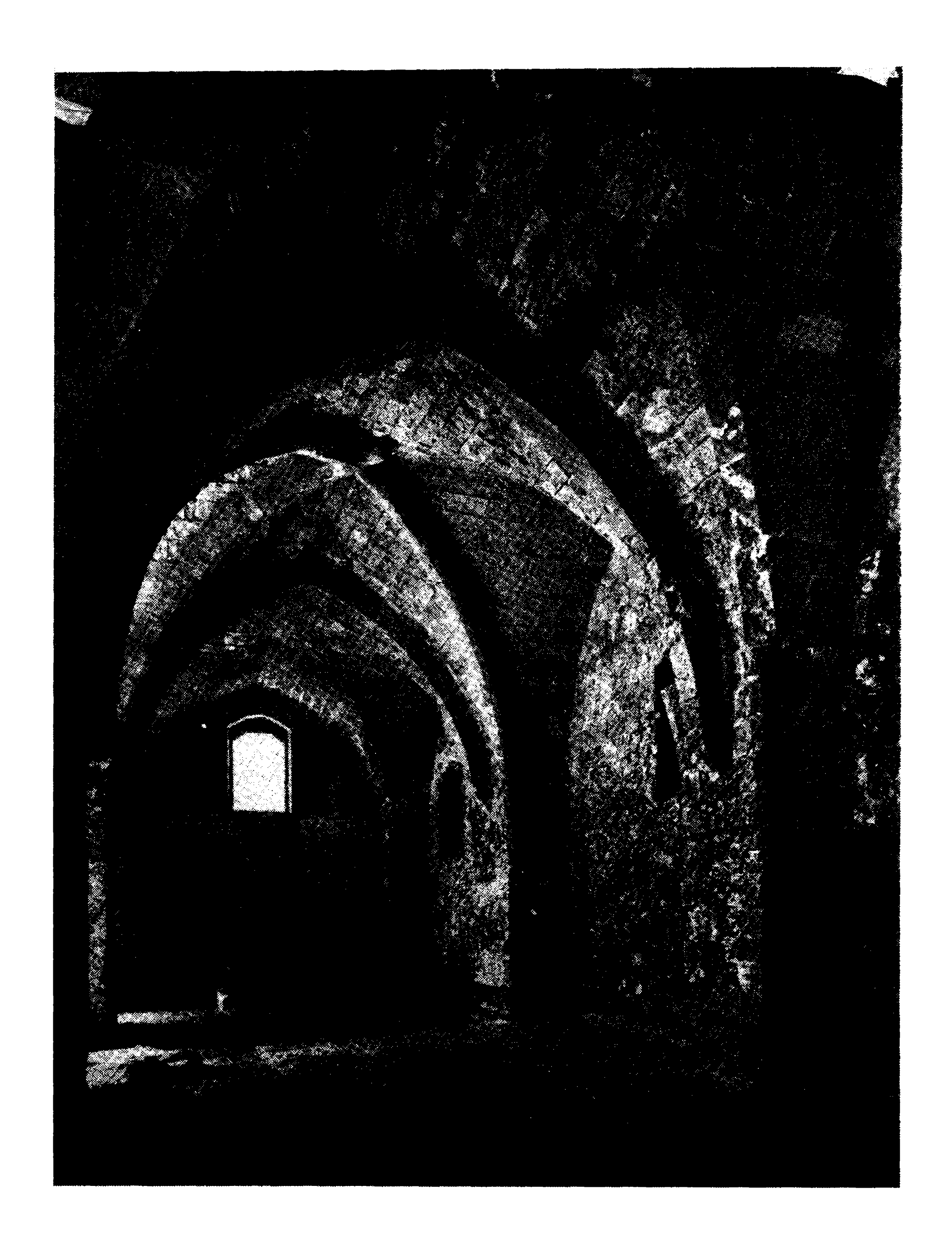


فماغوستا : الامام - كاتدرائية القديس نيقولا

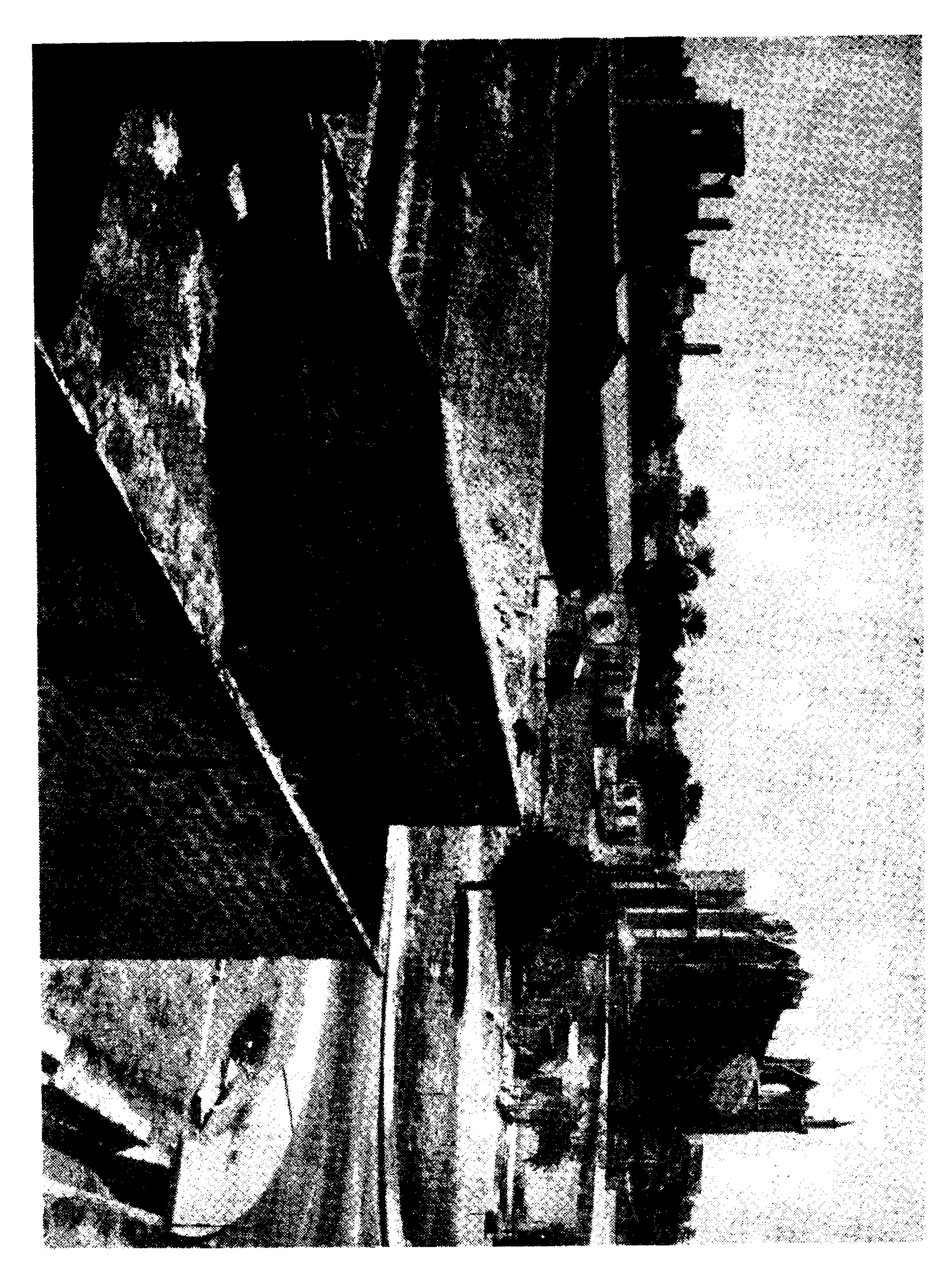


فماغوستا

الخلف ـ البوابة الرئيسة للقلعة. ويعلوها أسد القديس مارك.



فماغوستا - الامام - غرفة الطابق الأرضي - على الجانب الشمالي لحصن البحر.



فماغوستا

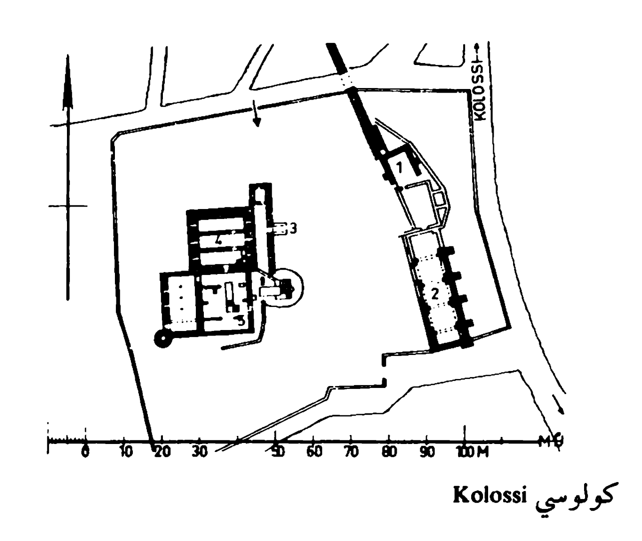
الخلف ـ منظر حصن بوابة البحر ـ والى اليسار كاتدرائية القديس جورج.

سادساً: قلعة كولوسي[1].

هي قلعة تقع في قرية جنوب قبرص. وتبعد ستة أميال غربي ليماسول، على الطريق الى بافوس. وقد زالت معظم معالم القلعة، ولم يبق منها سوى برجها المحصن الضخم. وتوجد إلى الجنوب من هذا البرج بعض مبان متهدمة. كما يقوم بناء ذو عقود مع اكتاف داعمة قوية ـ هو بناء معمل السكر سابقاً ـ مع أطلال مطحنة تكملها ساقية الطاحون، الى الشرق من البرج المذكور مباشرة. وثمة صهاريج مياه في قبو البرج المحصن والمؤلف من ثلاث طبقات، ومخازن في الطابق الأرضي، وحجرة استقبال ـ انتظار ـ. ومطبخ في الطابق الأول. وغرفتي نوم بسقف ذو عقود في الأعلى. ولم تتوافر معلومات دقيقة عن القلعة الأولى التي شيدت في كولوسي. ولكن من المحتمل أن يكون الموقع قد شغل قديماً بمعقل بزنطي صغير. إلا أن القلعة كانت موجودة بالتأكيد عندما قرر ملك قبرص منحها للفرسان الرهبان بعد أن طردهم المسلمون من عكا، فعمل مقدم الطائفة على جعل قلعة كولوسي مقراً له، ومركزاً لممتلكات الطائفة الغنية التي كانت تضم العديد من القرى والكروم. وقد تعرضت كولوسي بعدئذ لاغارات الجنويين سنة ١٣٧٣م وسنة ١٤٠٢م، ثم لهجوم المماليك من مصر سنة ١٤٢٥م. فعمل مقدم الطائفة على تشييد البرج المحصن (١٤٥٠ ـ ١٤٦٨م) والذي حمل الى جانب شعار من بناه، شعارات مملكة القدس وقبرص وأرمينيا وسواها. وقد أصابت هزة أرضية القلعة بأضرار بالغة سنة ١٥٦٨م. وفي سنة ١٥٧٠م، انتقلت قبرص وممتلكات الطائفة الى الأتراك العثمانيين الذين أعادوا بناء معمل تكرير السكر.

---

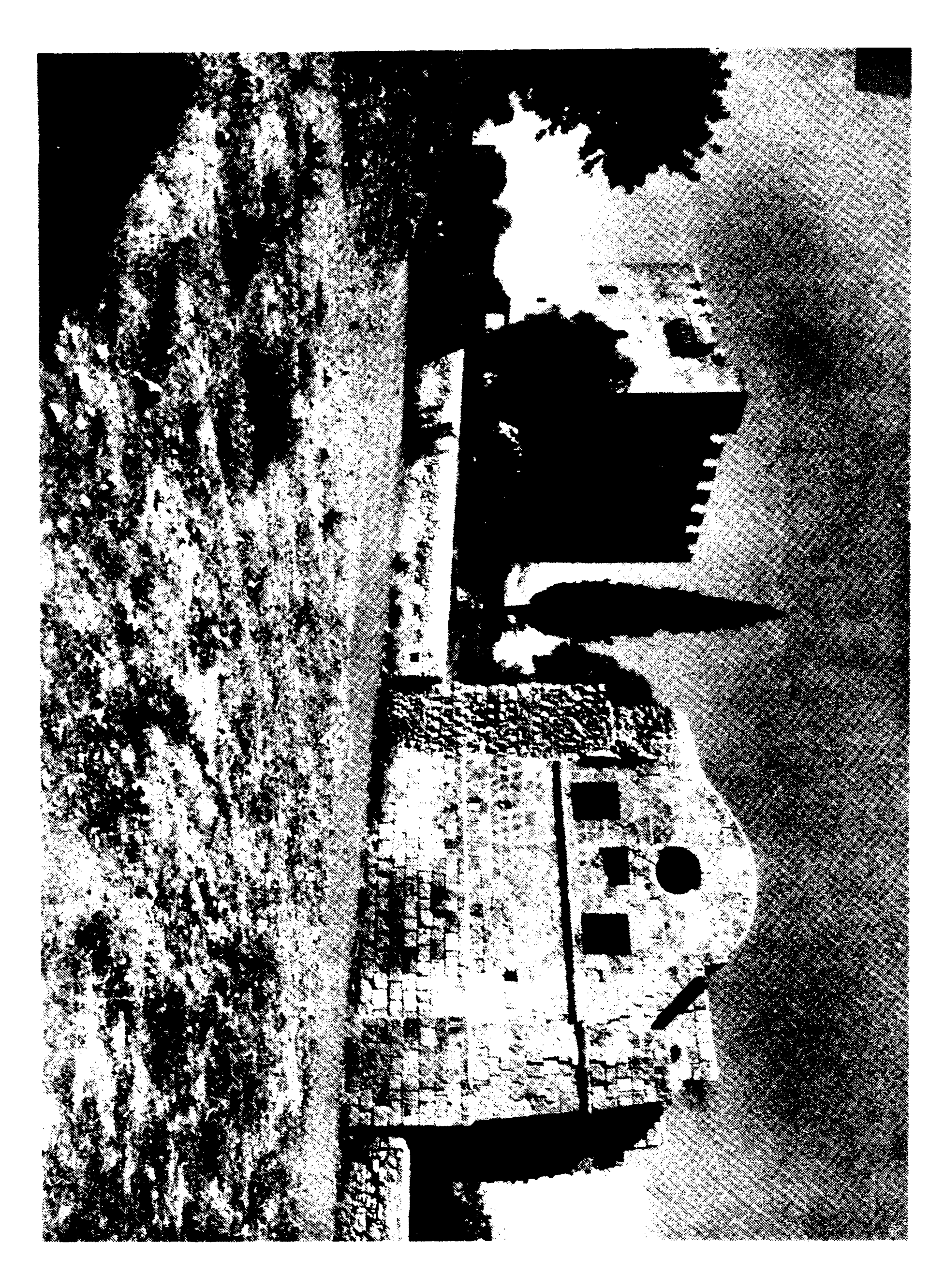
(١) كولوسي: (KOLOSSI) باليونانية، وبالفرنجية كولوسو: (COLOSSO).



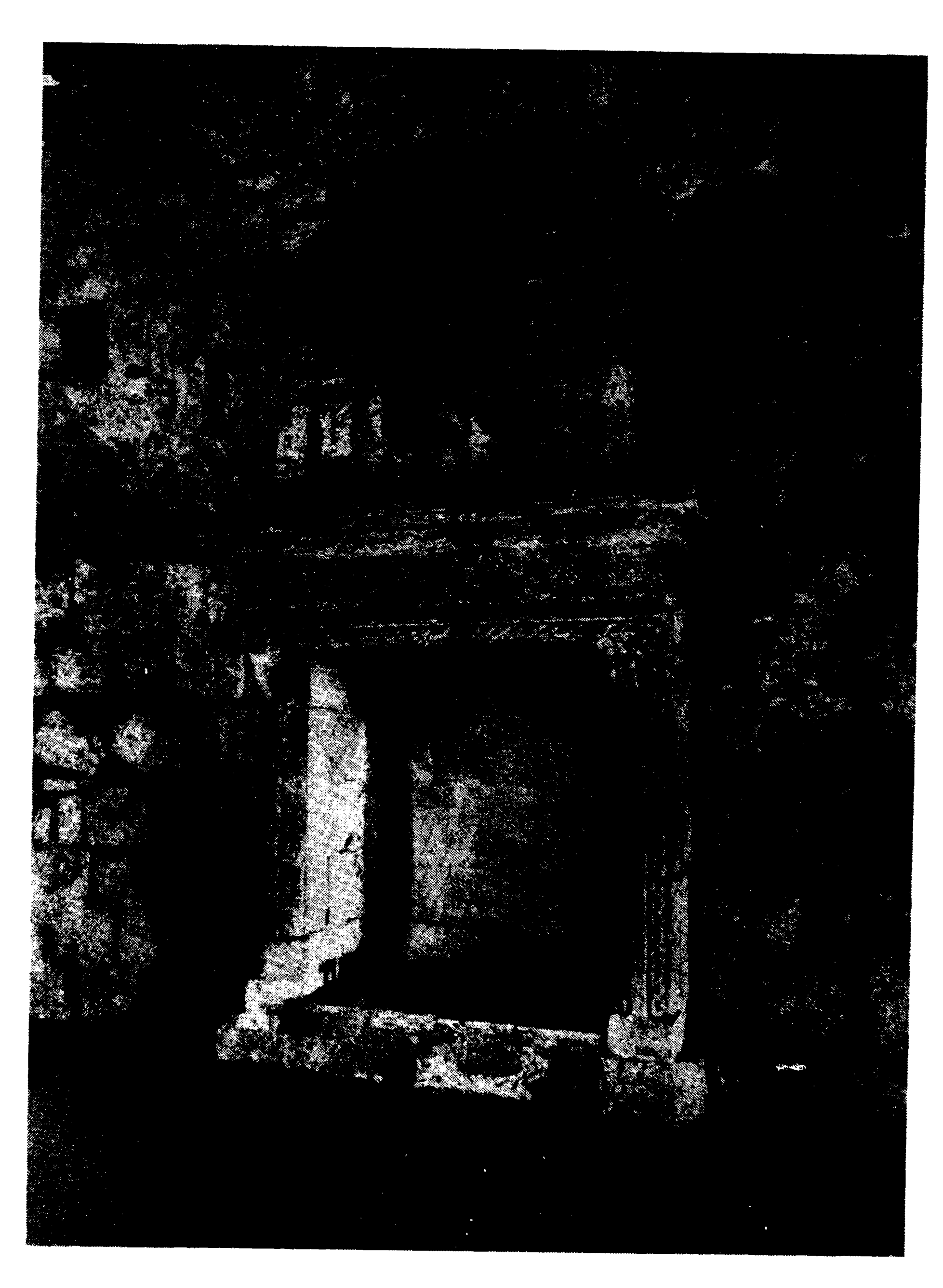
كولوسي Kolossi

مخطط أرضي لأملاك الأسبتارية، المقياس ١/٢٠٠٠.

١ ـ الطاحون وساقية الطاحون، ٢ ـ معمل تكرير السكر السابق، ٣ و ٥ ـ مبان خارجية، ٤ ـ البرج المحصن.



كولوسي: الامام ـ منظر عام من جهة الجنوب الشرقي مع معمل تكرير السكر في مقدمة الصورة.



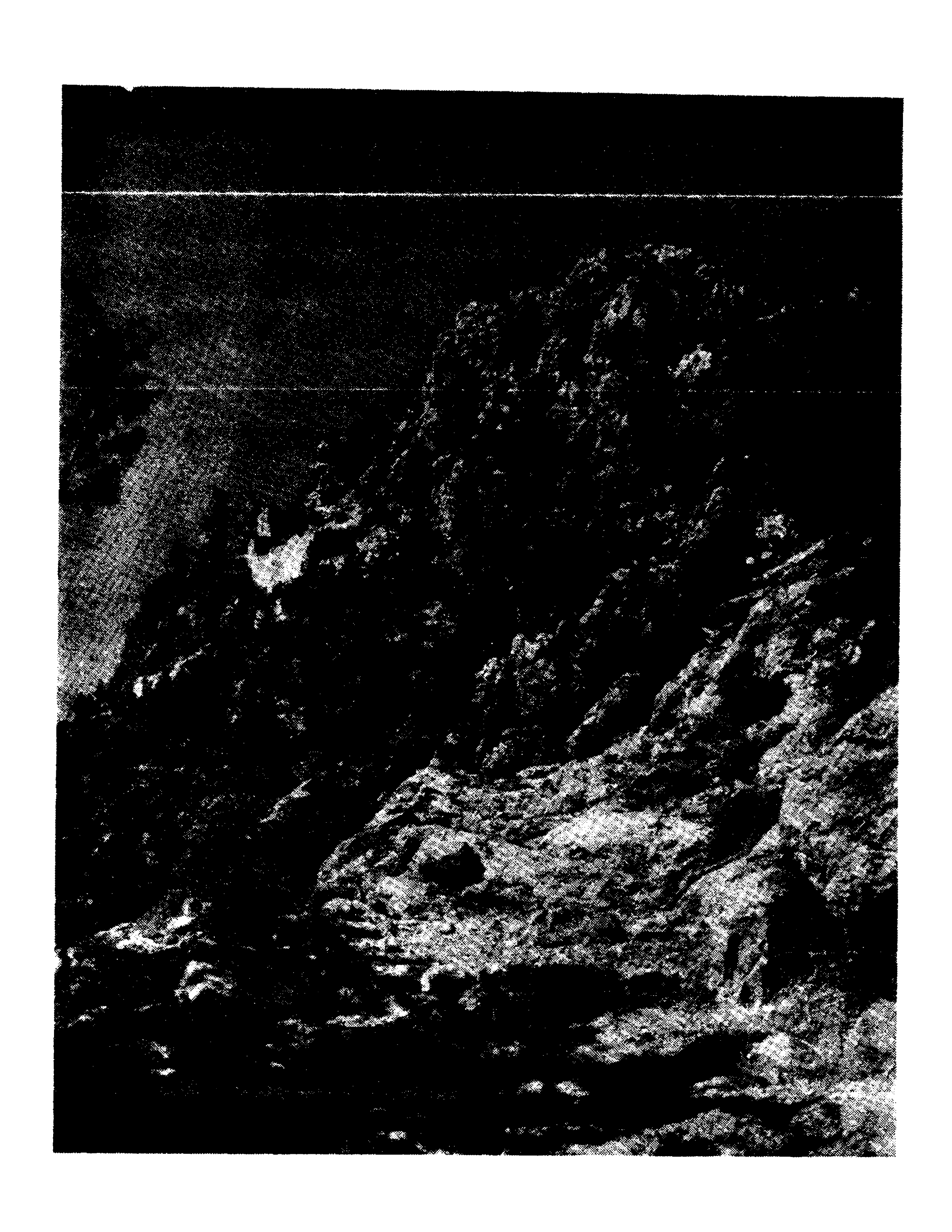
كولوسي

سابعاً: قلعة بوفافنتو [1] .

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص، على بعد نحو ستة أميال إلى الجنوب الشرقي من كيرينيا. وقد تمركزت القلعة بين الجروف شديدة الانحدار، من السلسلة الشمالية، على ارتفاع زاد على ثلاثة آلاف متر. وهي على اتصال مباشر بالنظر مع كيرينيا ومع قلعة القنطرة. وقد استخدمت لفترة طويلة، بسبب موقعها الملائم، مركزاً لاضرام النيران، كإشارات انذار وتحذير، عند اقتراب السفن الغريبة من الجزيرة. وهي تتألف من قلعة سفلية مبنية فوق السفح الجنوبي. وتحوي مخازن وأماكن لإقامة الحامية، ومن قلعة علوية على ارتفاع ثمانين قدماً تقريباً عن الأولى. وقد صمم مخططها المحروم من التناظر والتناسق ليتكيف مع طبيعة الأرض الجبلية. ولقد كان دور قلعة بوفافنتو مشابهاً لدور سواها من قلاع قبرص وتحصيناتها.

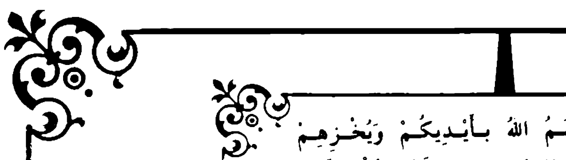
---

(١) بوفافنتو: (BOUFFAVENTO) بالفرنجية ـ وباللاتينية بوفيفنت: (BUFEVENT) وبوفافان: (BUFFAVENT) الخ... كذلك تسمى ليونته: (LEONTE) وقصر الأسد: (CHATEAU DU LION) وقصر الملكة: (CHATEAU DE LA REINE).



يوفاڤنتو المظهر الجنوبي للأطلال





﴿قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ★ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. صدق الله العظيم - الجزء العاشر - سورة التوبة - الآية: ١٤ و ١٥.

الفصل الثالث

الحروب الصليبية وفن الحرب

- ١ - الصمود في حوار الارادات المتصارعة.
- ٢ - التوازن الاستراتيجي - والتفوق.
- ٣ - العنف والتطرف في الحروب الصليبية.
- ٤ - الصراع السياسي والصراع المسلح.
- ٥ - العامل الاقتصادي - والانسان المسلم.
- ٦ - قصة المعركة الإسلامية وتطورها.
- ٧ - التجربة التاريخية للحروب الصليبية.
- ٨ - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

١ ـ الصمود في حوار الإرادات المتصارعة.

جاء الفرنج الصليبيون بثقل عددهم وعدتهم، حاملين أحقادهم التي غذتهم بها الكنيسة البابوية زمناً طويلاً، وكانت هجمتهم ثقيلة إلى درجة أذهلت كل ذات حمل عن حملها، وإلى حد أن وضعت كل انسان مسلم أمام ابتلاء لم يعرفه منذ ظهور الإسلام. وهذا ما يفسر ارتداد بعض المسلمين الى النصرانية، فالمسلم لا يرتد إلا إذا نزل به الروع ثقيلاً إلى درجة زادت عن قدرة احتماله. وقد تناقل المسلمون، في مدنهم وقراهم، في سهولهم وجبالهم، أنباء هجمة الفرنج الثقيلة، وما رافق هذه الهجمة من مذابح وحشية، وجرائم عجزت الأقلام عن تصويرها. وبالرغم من ذلك كله، فقد أظهر العرض السابق لمسيرة الأحداث، مدى الصمود الرائع لجمهور المسلمين. فقد اصطدم الفرنج الصليبيون بمقاومة عنيفة حيثما ساروا، وحيثما اتجهوا. وكان صمود المسلمين للهجمة الصليبية رغم ثقلها وشدة وطأتها، هو البداية فقط لخط المقاومة المتصاعد. فقد قرر المسلمون ومنذ البداية، أنه لا مكان على أرض المسلمين وفي بلاد الإسلام إلا للإسلام والمسلمين، وأنه لا بد من لفظ هذا الجسم الغريب، وإعادته من حيث جاء.

ولقد جاءت الأحداث والشواهد، في كل مناسبة لتؤكد تصميم المسلمين على بلوغ هذه الغاية، مهما تطاول الزمن. وكان من أبرز هذه الشواهد:

١ ـ صناعة منبر المسجد الأقصى في حلب قبل إعادة فتح القدس بسنوات كثيرة.

٢ ـ توقيت كل هدنة تم عقدها بين المسلمين والفرنج بموعد محدد وزمن معلوم. وكان هذا التوقيت يسجل بالنسبة للفرنج بالتاريخ الميلادي، وبالنسبة للمسلمين بالتاريخ الهجري. ولهذا كان من الطبيعي، ونظراً لاختلاف عدد أيام السنة بين التقويمين الميلادي والهجري، أن تحدد مدة الهدنة بالسنين والشهور والأيام. بحيث يتم استئناف الحرب مع انتهاء مدة الهدنة.

ومقابل ذلك، فقد كان لدى الفرنج تصميم مماثل على تطوير هجومهم والاحتفاظ بما يمكن لهم الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، وقد عبر هذا التصميم عن ذاته بشواهد كثيرة أيضاً منها:

١ ـ الابقاء على تسمية مملكة القدس، وتناقل التاج الملكي وذلك بعد أن طرد المسلمون الفرنج من القدس وأزالوا وجودهم.

٢ ـ اغتنام كل فرصة ممكنة لتجريد حملات جديدة من أجل استعادة ما يفقده الفرنج في حروبهم مع المسلمين. وهكذا جاءت حملة صليبية بعد ضياع امارة الرها من الفرنج. وجاءت حملة ثانية بعد طرد الفرنج من القدس. وجاءت حملة بعد القضاء على وجود الفرنج في انطاكية.

وهكذا، ومع توافر التصميم لدى الأطراف المتصارعة لبلوغ غايات متضادة، كان من طبيعة الأمور أن يصمد الطرفان المتصارعان ـ المسلمون والفرنج ـ في مواقعهما، لا تضعف من جندهما إرادة، ولا تتزعزع من قيادتهما ثقة بحتمية بلوغ الهدف النهائي. فكانت الانتصارات والهزائم عبر مسيرة الصراع الشاقة والطويلة، مجرد نقاط علام أو مؤشرات لمرحلة من مراحل الصراع لا أكثر ولا أقل. أما النتيجة النهائية، فتقررها الإرادة الأكثر تصميماً، والأصدق ايماناً، والأشد عزماً، فكان لا بد بالتالي من استمرار الصراع المسلح، وتصعيده، كلما توافرت الظروف والامكانات للطرفين المتصارعين.

لقد استمرت الحرب على أرض بلاد الشام زهاء مئتي من السنون، لم تخمد جذوة الحرب فيها، ولا انطفأت نار القتال. فكان كل عمل قتالي يصطدم بعمل قتالي مضاد، وكان كل تحد يفرضه أحد الأطراف يصطدم باستجابة الطرف المقابل على هذا التحدي. ولم يعد أي من الأطراف المتصارعة يجهل قدرة الطرف المقابل، أو ينخدع بأعماله، أو يستسلم لنواياه، وأدى ذلك بالضرورة إلى تعقيدات شديدة سواء في ادارة الحرب، أو في ممارسة الأعمال القتالية (على مستوى العمليات) أو في خوض المعركة (على المستوى التعبوي أو التكتيكي). وبات الاختبار الحقيقي للصمود في حوار

الارادات المتصارعة، هو في إضافة عوامل جديدة الى محصلة العوامل المتشابكة في صلب الصراع المسلح: مثل القدرة البشرية، والقدرة الاقتصادية والقدرة السياسية. وإذا كانت المرحلة الأولى التي امتدت زهاء ثلاثة أرباع القرن - حتى معركة حطين - قد تميزت بروعة أعمالها القتالية المجردة من المماحكات السياسية، فقد حملت المراحل التالية مزيجاً معقداً من العوامل المختلفة والتي كان يطفو بعضها على السطح ليحتل المرتبة الأولى في مجموعة عوامل الصراع، ثم لا يلبث أن يتراجع ليفسح المجال أمام عامل آخر. وخلال ذلك كله بقي خط الصراع المسلح ثابتاً ومستقراً، يتمسك به كل طرف عندما تتساقط أهمية العوامل الأخرى، أو تنحسر، بسبب وصولها إلى مآزق حقيقية لا يمكن حلّها إلا بالعودة والاحتكام الى السلاح.

لقد كان من طبيعة الأمور ألا تتساوى أو تتعادل إرادة الصراع على جبهتي الصراع، بل وحتى على الجبهة الواحدة، سواء بسبب الاختلاف في تقويم المواقف، أو بسبب التباين في وجهات النظر من هذه المواقف، أو حتى لأسباب شخصية. مما كان يؤدي الى الصراع داخل الجبهة الواحدة. وإذا كانت انتصارات الفرنج في المرحلة الأولى قد أخفت كثيراً من تناقضات الفرنج، وصراعاتهم، واختلافاتهم، وحتى فضائحهم التي كمنت في صلب الكنيسة - أداة التحريض - فان ذلك قد طفح على السطح بوضوح في المراحل التالية، وهو ما عبرت عنه باسهاب التقارير التي جمعها البابا غريغوري العاشر، والتي تحدثت باسهاب عن «**المنازعات بين الملوك والنبلاء، وفساد رجال الدين، وسوء استخدامهم صكوك الغفران. واقدام رجال الكنيسة على انفاق الأموال في اقتناء الخيول الفارهة، والقرود الأليفة. وعدم اسهام رجال الدين بتأدية الضرائب اللازمة لتمويل الحملات الصليبية**».

ولهذا لم يكن أمراً غريباً أن يتحدث شاعر الفرنج - همبرت - بمرارة وحزن: «**عن ضياع المزايا الروحية التي وعد بها المحارب الصليبي**». وأن يعلن كثير من الشعراء الغنائيين - التروبادور - في قصائدهم التي حظيت بانتشار واسع في وسط المحاربين الصليبيين: «**بأنه لم يعد لله أهمية في الحروب الصليبية**». **وأنه «لا فائدة**

من المضي في الاستسلام لما اعتقده من امثال الملك لويس التاسع - من أن الهزائم والاهانات هي في مصلحة النفس».

ولقد سار الأمر على النقيض من ذلك على جبهة المسلمين. فقد حدثت انحرافات كثيرة، غير أن الانتصارات قد عملت هنا بدورها على إذابة وصهر التناقضات، والقضاء على الخلافات. وكانت المنافسة مستمرة بين امراء المسلمين وملوكهم - عامة - لتقديم البدائل الأفضل والحلول الأمثل. وكان لجمهور المسلمين دوره الأساسي والحاسم في دعم ارادة الصمود. فإذا كانت هذه الارادة تتغذى لدى الفرنج الصليبيين من امثولات رجال الكنيسة، والملوك والأمراء - الذين كان يفتقر معظمهم للاخلاص والصدق. فقد كانت هذه الإرادة تتغذى لدى المسلمين من جمهور المسلمين ذاته، الذي كان يوجه أعمال الملوك والامراء والسلاطين. ويرفدها بالدعم القوي، وفقاً لما أبرزته الوقائع والأحداث على امتداد صفحة الحروب الصليبية. ومن هنا جاء الاختلاف الحاسم في موارد إرادة الصراع بين إرادة تأتي - اغراء وفرضاً من القيادة - وبين ارادة تنبع من الأعماق في وسط القاعدة الكبيرة لدى جماهير المسلمين. ولقد حفظت الأوابد التاريخية للمسلمين شواهد مثيرة ومذهلة عن مواقف جماهير المسلمين في مختلف الحالات. فقد كانوا يمنحون ثقتهم دونما حدود، لمن يعمل مخلصاً في جهده وجهادة، ويحجبون ثقتهم، ويمتنعون عن دعم كل مقصر أو متهاون - وكان ذلك يدفع سلاطين المسلمين للمزيد من المنافسة من أجل الحصول على دعم المجاهدين في سبيل الله، وتأييدهم، واكتساب ثقتهم. وإذا ظهر في وسط الفرنج رجال توافرت لهم فضائل الصدق في القول والاخلاص في العمل. من أمثال الملك لويس التاسع -. فان قائمة ملوك المسلمين الذين ضارعوه في فضائله، ونافسوه بتفوق كبير في صدقه واخلاصه هي أكبر من أن تدخل في حصر. ولم يكن عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والمظفر قطوز والسلطان قلاوون والأشرف خليل، سوى رجال احتلوا ذروة هرم ضخم من الامثولات الرائعة التي لم تجد لها نداً عند الفرنج.

لقد كان الصراع المسلح على أرض أندلس المسلمين مجالاً للاحتكاك الدائم. وقد

عكفت الكنيسة على جمع المعلومات من شبكات جاسوسيتها المنتشرة في كل مكان، عبر الأديرة والكنس. فحاولت عند تنظيم الحملات الصليبية محاكاة المسلمين في طرائقهم وعقائدهم. ولم تكن قصة (صكوك الغفران) و (فرض الصوم في أيام معينة) سوى محاكاة للفرائض التي جاء بها الإسلام. وهنا ظهر الفارق المميز بين ما أنزله الله فوقر في قلوب المؤمنين وعقولهم، وبين ما وضعه الناس، فأثار حماسة بعضهم الى حين، وفتن عقول آخرين إلى حين أيضاً، وعندما انزاحت الغشاوة، وتساقطت الأقنعة الوضعية، ظهر زيف ما وضعه الانسان وأصالة ما أنزله الله. واصطدم الباطل بالحق، فانتصر الحق ودفع الباطل وأسقطه.

كان اعتماد المسلمين في حروبهم الصليبية - كما كان شأنهم دائماً - على عاملين أساسيين الاخوة الإسلامية في الله، والالتزام بفريضة الجهاد في سبيل الله. وهذا مما ساعد المسلمين على الاستعانة بعضهم ببعض، وشد أزر بعضهم ببعض. وكان فرسان المسلمين ينطلقون من خوارزم - من أقصى الشرق ليرفدوا إخوانهم في الشام. فكان في ذلك بعض عدتهم في الصمود عبر حوار الارادات المتصارعة.

رب قائل: وكيف كان المسلمون يعتمدون في حروبهم على شدّ أزرهم بعضهم ببعض، وهم الذين كانوا يقتتلون كلما توافرت لهم فرصة للاقتتال؟ ثم ألم يحدث في مرات كثيرة أن تعاون المسلمون والفرنج ضد المسلمين، على نحو ما حدث عندما سارت جيوش بلاد الشام مع الفرنج لقتال المسلمين المماليك في مصر؟. ثم هل كانت هذه الميزة حكراً على المسلمين ووقفاً لهم، أم شاركهم فيها الفرنج الذين عملوا جميعاً تحت راية الصليب؟ للرد على مثل هذه التساؤلات يمكن العودة إلى مسيرة الأحداث والوقائع ذاتها، فعندما سارت الجيوش الإسلامية جنباً إلى جنب مع الفرنج، ووقفت في تنظيم القتال، رفضت جماهير المسلمين حمل السلاح بعضها ضد بعض، فهرب جيش حمص وهرب جيش الكرك، وهرب جيش دمشق، وتركوا جيش الفرنج وحده في مواجهة مسلمي مصر. والأمثلة بعد ذلك كثيرة. أما فيما يتعلق التزام المسلمين بفريضة الجهاد في سبيل الله، فالأمثلة بدورها واضحة في كل موقف وفي كل معركة. إذ لولا

هذا الالتزام، لما تمكن المسلمون من متابعة الصراع رغم الاحباطات المستمرة ـ لاسيما في المرحلة الأولى ـ ورغم ظواهر الوحشية التي لازمت هجمات الفرنج والمغول على السواء. فأعمال الاستباحة والابادة الاجماعية والنهب والتدمير كافية لالقاء الروع في قلوب جميع الناس. إلا من عصم الايمان قلبه من الخوف فكانت إحدى الحسنيين هي هدف وجوده وغايته، وكان هؤلاء من الكثرة مما جعل من المحال على الفرنج وأحزابهم القضاء على الإسلام وأهله.

هذا لا يعني بداهة أن الكنيسة ـ وسلطة البابا ـ لم تفلح في توحيد جهد الفرنج تحت راية الصليب. وخلق نوع من الاخوة بين رفاق السلاح. غير أن هذه الاخوة بقيت محكومة بالمصلحة الدنيوية. فكان مثلها كمثل الاخوة التي نشأت بين المسلمين والفرنج في ظروف معينة، فلما ظهر زيف هذه المصلحة. أو انهارت عوامل تكوينها، زالت الاخوة. وهذا ما تصوره بوضوح عمليات تدمير القسطنطينية على أيدي الفرنج الصليبيين. وكذلك قيام الفرنج بغزو قبرص ونهبها. بالاضافة الى تلك الصراعات المستمرة بين الجنويين والبنادقة وبينهم وبين فرنج الغرب. ثم هل كان الحصول على (صكوك الغفران) وبيعها أكثر من غطاء مادي لتغطية الافتقار للايمان الحقيقي. إذ لو كان الحافز هو الايمان الحقيقي لما كانت هناك حاجة للصكوك المادية لتثبيت العلاقة بين الانسان وربه على أيدي تجار الصكوك.

هذا لا يعني بداهة عدم توافر إرادة الصراع لدى الفرنج، إذ لولا هذه الارادة لما سارت جموع الفرنج من كل فجّ عميق، من أرجاء الغرب للوصول الى فلسطين. ولولا هذه الارادة لما ظهرت إرادة الحوار لدى الأطراف المتصارعة، ولانتهى الصراع بمجرد انتصار أحد الأطراف. ولكن الصمود والاستمرار عبر أجيال متتالية حتى بلوغ الهدف هو المقياس لقوة الارادة. وقد برهن المسلمون أنهم هم الأقوى.

٢ ـ التوازن الاستراتيجي ـ والتفوق .

انتصر الفرنج الصليبيون انتصاراً حاسماً بقواتهم المتعاونة، على قوات المسلمين المتفرقة. فأقاموا إماراتهم ومملكتهم على أرض بلاد الشام، وذلك خلال السنوات الأولى من هجومهم الشامل. وانصرف امراء المدن المسلمين في بلاد الشام لتنظيم الدفاع ضد الوافدة الجديدة، وأخذت الحرب بين الفرنج والمسلمين شكل حرب استنزاف حقيقية بين هذه الوافدة التي تحاول التوسع والانتشار، وبين قوات المسلمين التي حاولت حصار قوات الوافدة في حدود معينة، غير معترف بها، ولكنها تشكلت بما فرضته القوة من واقع. ولهذا أخذ الصراع خلال هذه المرحلة يتركز حول هذه الحدود التي مثلتها القلاع والتحصينات.

وأفاد المسلمون من تفوقهم الكبير في أساليب الحرب الهجومية ـ أو حرب الحركة ـ لحرمان الفرنج من حرية العمل العسكري، وذلك من خلال التوسع بأعمال الكمائن والاغارات.

فأمكن خلال سنوات قليلة استنزاف قوة الفرنج الصليبيين، وطردهم من أول إمارة أقاموها على أرض بلاد الشام ـ وهي إمارة الرها ـ. ولقد كان انتصار المسلمين ـ رغم أنه لم يحظ كثيراً باهتمام الباحثين والمؤرخين ـ في القديم والحديث ـ انتصاراً ضخماً لا يقل في حجمه واتساعه عن انتصارهم في حطين أو في عين جالوت. فقد عرف المسلمون من خلاله أن باستطاعتهم الانتصار على هذه القوة التي ظهرت للوهلة الأولى بأنها قوة لا تقهر. كما عرف الفرنج أن انتصار المسلمين في الرها هو بداية تحول حاسم سيتطور بسرعة، فبادروا لارسال حملتهم الصليبية الثانية.

وكان انتصار المسلمين في الرهاء مؤشراً على حدوث نوع من التوازن

الاستراتيجي في القوى. فكانت الحملة الثانية هي من أجل تحطيم هذا التوازن، وإعادة الفرنج إلى الموقع المتفوق الذي احتلوه في هجومهم الأول.

وأدرك أمراء الموصل ـ الزنكيون ـ أنه لا بد من التحرك ـ سراعاً ـ للمحافظة على هذا التوازن، وذلك بإضافة قوى جديدة في إطار جهد موحد. مع الاستمرار في استنزاف قوة الفرنج. وهكذا أخذ العمل منذ هذه المرحلة شكلاً مميزاً وأكثر تعقيداً مما كان عليه في المرحلة السابقة.

إذ انتقل العمل ليشمل جبهتي الصراع، فكانت كل إضافة لقوى المسلمين تساعد على تحقيق المزيد من الاستنزاف لقوى الفرنج. كما كان كل استنزاف لهذه القوى يضيف رفداً جديداً يساعد على الاحتفاظ بالتوازن الاستراتيجي.

وبذلك تم توحيد قوى المسلمين في بلاد الشام تحت راية الجهاد في سبيل الله والتي حمل لواءها الزنكيون. وعندما حاول الفرنج الفرار من الضغط الذي يتعرضون له في بلاد الشام، إلى منطقة الضغط الأضعف ـ في مصر ـ بادر نور الدين زنكي لارسال الحملات المتتالية الى مصر (وهي ثلاث حملات على نحو ما سبق عرضه). وبذلك أمكن فرض الحصار على امارات الفرنج، وتم تقييد حرية عملهم العسكري. وقد تأكدت حقيقة وصول المسلمين إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي من خلال إحباط الجهد الذي بذلته الحملة الصليبية الثانية لإعادة الفرنج لموقع التفوق. واستمر المسلمون في استنزاف قدرة الفرنج، وتدمير قواتهم تدميراً منهجياً منظماً، حيث أمكن حصرهم في الشمال، وانتزاع عدد كبير من الحصون والقلاع التي سيطروا عليها في هجومهم الشامل الأول.

جاء الأيوبيون ـ بقيادة صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وقد أصبح سبيل العمل واضحاً. وأصبح النهج محدداً. وقد حاول الفرنج بأكثر مما يستطيعون، تحقيق أهداف ثلاثة: **أولها** توسيع مجال حرية العمل العسكري ـ فكانت الهجمات على الجليل، وفي الشمال، وغزو البلاد المقدسة ـ الحجاز ـ تعبيراً عن الضيق الذي كان يفرضه المسلمون على الفرنج والذي حرم الفرنج من استخدام قدرتهم القتالية. **وثانيها ـ الحصول على موارد اقتصادية زراعية وتموينية وبشرية تساعد على دعم القدرة القتالية وتأمين**

متطلباتها. وقد تمثل ذلك بهجوم الفرنج على القوافل التجارية للمسلمين، وعلى قراهم ومزارعهم، ونهبها. **وثالثها** ـ حرمان قوات المسلمين من ميزتها الأساسية وهي تفوقها في حرب الحركة ـ الهجومية، وذلك بالظهور في مناطق الضغط الأضعف، مثل هجومهم على دمشق خلال فترة وجود صلاح الدين وجيشه في بلاد الشام. ومثل محاولة قطع حركة الاتصال المستمر بين بلاد الشام ومصر. وكان رد صلاح الدين واضحاً وتمثل بما يلي:

أولاً ـ متابعة استنزاف قدرة الفرنج الاقتصادية والبشرية، بتنظيم هجمات متتالية على ـ ممتلكات الفرنج ـ سواء في الجليل، أو في الشمال (حول انطاكية) للقيام بتدمير القرى واحراق الحقول والمزارع، ونهب كل ما يمكن أن يفيد الفرنج ويدعم قدرتهم القتالية.

ثانياً ـ متابعة حشد قوى المسلمين وزجها في إطار قوة متكاملة. وتنظيم أعمالها بصورة متناسقة.

ثالثاً ـ عدم الانسياق ـ أو الرد ـ لما كان الفرنج يخططون له ويعملون. فعندما بلغه ما قام به الفرنج ـ وهو في شمال بلاد الشام ـ من أعمال تدميرية ونهب في الجنوب، لم يتحول عن هدفه، وأطلق مقولته الشهيرة: «يملكون قرى ويخربونها، ونملك مدناً نتقوى بها عليهم».

وقد عبرت هذه المقولة عن عاملي التوازن الاستراتيجي: تدمير القدرة القتالية للعدو ـ البشرية والاقتصادية والمعنوية ـ وإضافة قوى جديدة لجبهة المسلمين.

وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن العمل على الجبهة الداخلية للعدو قد شمل الإفادة من التناقضات بين مراكز قوى العدو وضرب بعضها ببعض لاضعافها جيعاً، مما يزيد بالتالي من قدرة المسلمين. وقد عمل نور الدين محمود بن عماد الدين على الإفادة من أمير الأرمن ودعمه ببعض قوات المسلمين لتدمير القوى المضادة في أرمينية. وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي عندما أفاد من كونت طرابلس ريموند للعمل ضد الفرنج مما أدى إلى انتصار المسلمين في صفورية ـ على الداوية

والاسبتارية ـ قبل معركة حطين مباشرة. وقد أدرك الزنكيون ومن بعدهم الأيوبيون أن ما يمكن تسميته ـ بالتوازن الاستراتيجي في المصطلحات الحديثة ما هو إلا مرحلة مرنة ومتحولة للوصول إلى التفوق وأن التفوق والمحافظة عليه هو الهدف، ولهذا فعندما أدرك صلاح الدين أنه أحرز هذا التفوق، صمم على زج القوى في حطين. وقاوم رغبات أمرائه الذين أرادوا الاستمرار في حرب الاستنزاف، وتجنب زج كل قوى المسلمين ضد كل قوى الفرنج. وقد أكد ذلك الحوار والنقاش الذي دار في المؤتمر السابق ليوم حطين، أن أمراء المسلمين قد عرفوا أهمية حرب الاستنزاف للابقاء على التوازن الاستراتيجي، فقد كانت حرب الاستنزاف هذه، واشتباكاتها الظافرة، تزيد في كل يوم من قدرة المسلمين، وتضعف يوماً بعد يوم من قدرة الفرنج. ولهذا فقد اعتقد الامراء الذين أيدوا فكرة الاستمرار في حرب الاستنزاف أنه بالمستطاع تدمير قوات الفرنج دونما حاجة للبحث عن الحسم في الصراع المسلح. أما صلاح الدين فقد عرف أن التوازن ما هو إلا مرحلة للوصول إلى التفوق. وأن تأكيد الوصول الى هذا التفوق لا يتحقق إلا من خلال المعركة الحاسمة. ومقابل ذلك، فقد عرف الفرنج أنه لا قبل لهم بمتابعة حرب الاستنزاف، إذ كانوا يخسرون كل يوم من القوى ما لا يستطيعون تعويضه، وقد أكدت مناقشات الفرنج التي سبقت حطين أن قادتهم كانوا يبحثون عن المعركة الحاسمة، لا حباً في المعركة أو رغبة فيها، وإنما تعلقاً بأمل أن يؤدي الحسم إلى إيقاف الاستنزاف. وكان ذلك يعني ببساطة أن الفرنج كانوا يجهلون حقيقة الموقف على جبهتي الصراع، فيما كان أمراء المسلمين وقادتهم يعرفون عن قناعة، ويدركون عن وعي، متحولات الصراع في كل مرحلة من المراحل.

خلف المسلمون وراءهم، على ذرى حطين، مسألة التوازن الاستراتيجي، فقد تم لهم تدمير الكتلة الرئيسة لجيوش الفرنج، ولم يبق في مدنهم وحصونهم وقلاعهم إلا الحاميات الدفاعية المحرومة من القدرة الحركية. وبات باستطاعة الجيوش الإسلامية تحقيق التفوق في كل موقع، فانطلقت جيوشهم تجوب بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها وهي تجتاح كل ما تستطيع اجتياحه. وذهل الغرب لهذا التحول، رغم أنه كان متوقعاً، إذ كانت نذره وبواكيره قد أنبأت منذ عهد بعيد بحدوثه. فقذفت انكلترا

وفرنسا وألمانيا وسائر دول الغرب بتجمع صليبي جديد في محاولة لإعادة التوازن المفقود. واستطاعت هذه الحملة الصليبية الضخمة تجميد الأوضاع. غير أنها لم تتمكن من سلب المسلمين مواقع تفوقهم، ولم تتمكن من رفع قدرة الفرنج إلى موقع التوازن الاستراتيجي. وعاد المسلمون إلى استثمار تفوقهم في أساليب العمليات وفي تفوقهم التعبوي - التكتيكي - لاستنزاف قوة الفرنج في معارك متتالية واشتباكات مستمرة.

وتابع الفرنج ارسال موجات الدعم المتتالية، والحملات المتتابعة، غير أن الاستنزاف المستمر - مادياً ومعنوياً، اقتصادياً وبشرياً - لم يترك للفرنج فرصة بناء قوة جديدة تساعد على استعادة التوازن. وهكذا أخذت المدن والقلاع في العودة إلى أصحابها المسلمين. وأدرك ملوك الغرب، وامرائه، ومقاتليه، أن المشروع الصليبي هو مشروع خاسر، ولا يحقق الفائدة المرجوة، وأنه من المحال إمداده بالقدرة المستمرة، ولهذا فعندما جاءت الضربات النهائية، لم ينهض أحد من ملوك الغرب لانقاذ ما كان قد بقي للفرنج من وجود على أرض بلاد الشام. وأمحت من على الأرض وزالت حتى بقايا قوات الفرنج.

لقد حاول الفرنج، عندما فقدوا توازنهم الاستراتيجي، استعادة هذا التوازن باستخدام سياسة استراتيجية مزدوجة، **أولها** تجزئة جبهة العالم الإسلامي وتفتيتها من الداخل، سواء بالهجوم عليها مباشرة - وذلك بتوجيه الحملات إلى مصر لعزلها عن بلاد الشام - وهي الحملات التي تم تدميرها مرة في دمياط والثانية في المنصورة. أو بواسطة استخدام بعض مراكز القوى الداخلية (مثل تحالف لويس التاسع مع الباطنية - الاسماعيلية). أو بواسطة استثمار التناقضات بين أمراء المسلمين وحكامهم. غير أن هذه السياسة فشلت أمام صمود المسلمين. **أما ثانيها** - فهو قذف قوات من خارج ساحة المعركة. وإذا كان وقود الصليبية قد عجز عن امداد آلة الحرب بمتطلباتها. فقد تكون قوة المغول التتار قادرة على تأمين الوقود اللازم لاضعاف الإسلام والمسلمين. وهنا كان دور المسلمين في مواجهة التتار، مماثلاً لدورهم في مواجهة الفرنج. فقد انطلق المغول التتار بجحافلهم الضخمة من جوف آسيا. وأمكن لهم اجتياح سيبيريا واوروبا الشرقية بسرعة مذهلة وبمقاومة لا تكاد تذكر. ولكن هذه

الجحافل اصطدمت منذ انطلاقتها بالقوات الإسلامية في أقصى الشرق. وحملت الدولة الخوارزمية عبء المواجهة الأولى، حيث دارت معارك ضارية، استنزفت كثيراً من قدرة المغول. وعلى الرغم من استخدام المغول التتار الأساليب الوحشية كالإبادة والتدمير لكل ما على سطح الأرض من مظاهر الحياة، بهدف ادخال الرعب في قلوب المسلمين، وحملهم على الاستسلام دونما مقاومة. إلا أن هذه المقاومة لم تتوقف، وقد كان من الغريب حقاً - بالنسبة للفرنج والمغول على السواء - أن تصمد المدن الإسلامية في وجه المغول التتار، وأن تقاوم جحافل البرابرة، قدر استطاعتها بل وبأكثر من استطاعتها، رغم معرفتها بما ينتظرها على أيدي الغزاة التتار.

وهكذا استمر المسلمون في استنزاف قدرة التتار واضعافها حتى إذا ما وصل سيلهم إلى فلسطين، كان قد بلغ غايته. وهذا لا يعني أن المغول في هذه المرحلة قد فقدوا كل قوتهم. ولكنهم وصلوا إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي مع جيش مصر. وجاء تفوق المسلمين في أساليب العمليات لينقل المسلمين من موقع التوازن إلى موقع التفوق الاستراتيجي. فقد أعد المظفر قطوز لجيش المغول كميناً في التلال المحيطة بعين جالوت، وعمل على استدراج خصمه المغولي كتبغا إلى موضع الكمين، وعمل على تدمير جيشه وإبادته. فكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة التي لم يشهد تاريخ فن الحرب إلا نماذج قليلة لها (مثل معركة كاني بقيادة هاني بعل) حيث تم تدمير جيش بكامله في كمين محكم. ولقد حاول هولاكو بعد ذلك استعادة التوازن المفقود. كما حاول خليفته (الايلخان أباقا - أو أباكه) استعادة هذا التوازن عندما زجّ جيشاً من مائة ألف مقاتل. إلا أن هذا الجيش لم يتمكن من تجاوز حدود سوريا الوسطى (حمص). حيث تعرض الهجوم الجديد لما كان قد تعرض له جيش كتبغا في عين جالوت.

لقد برهنت هذه التجارب بمجموعها على أن قضية التوازن الاستراتيجي، في الحروب الصليبية القديمة لم تكن قضية جامدة، بل إنها تميزت بكل الخصائص الملازمة لمضمون التوازن الاستراتيجي، وأهمها: المرونة، والتحول، والمرحلية. وتعني المرونة هنا التكيف مع الظروف الزمنية والمكانية لمسرح العمليات. ويعني التحول أنه باستطاعة أحد

الأطراف اختيار وسائل العمليات المناسبة لاضعاف قوة خصمه ودعم قدرته الذاتية على حساب خصمه.

أما المرحلية فتعني أن التوازن الاستراتيجي ليس غاية في ذاته، وليس مرحلة يمكن التوقف عندها، وإنما هو عتبة للوصول الى موقع التفوق.

ولقد برهن العرض السابق أن المسلمين لم يحاولوا أبداً الموازنة بين حجم قوى العدو، وحجم قواتهم الذاتية. إذ أن رصيدهم المعنوي الهائل - الايمان - وثقتهم المطلقة بتفوقهم في أساليب العمليات كان هو المعاوض لهم عن تفوق العدو - العددي -. ويفسر ذلك صمود المسلمين أمام ثقل الهجمات التي تعرضوا لها، وتجاوزهم للمحن والكوارث التي نزلت بساحتهم. وهذا لا يعني أنهم كانوا يهملون قضية التفوق المادي بدلالة اهتمامهم بتأمين أكبر حشد ممكن من القوى البشرية المقاتلة للوصول الى التوازن مع العدو، ثم تجاوز هذا التوازن الى مرحلة التفوق. وهنا وفي مجال البحث عن التفوق بالقوى يمكن الإشارة إلى ما اتبعه الظاهر بيبرس في مواجهة التفوق الكبير للمغول، فقد أفاد بيبرس من المسلمين التتار (القبيلة الذهبية بقيادة الخان بركة) ووجههم ضد المغول الوثنيين. ولم يكن ذلك إلا تطويراً للتحالفات التي استخدمها المسلمون في مرات كثيرة ضد الفرنج الصليبيين، من أجل تأمين التوازن الاستراتيجي لا على مستوى جبهة الصراع - في بلاد الشام - وانما على المستوى الاستراتيجي الشامل.

يظهر ذلك أن قضية (التوازن الاستراتيجي) في الحروب الصليبية القديمة قد أخذت شكلاً معقداً، شمل التحالفات العسكرية، كما شمل كافة عوامل الصراع، الاقتصادية والمعنوية والبشرية والاستعداد القتالي، والفضائل الحربية للمقاتلين. وكان تفوق المسلمين في تطبيق مبادىء الحرب: المبادأة والمباغتة وأمن القوات، والتأمين الإداري للقوات، ثم مهارتهم الكبيرة في أساليب حرب الحركة، واستخدام القدرة الحركية في الهجوم، هو العامل الأساسي والحاسم الذي استنزف القدرة القتالية للفرنج، ثم للمغول، ونقل المسلمين من مواقع الدفاع الاستراتيجي ثم الى موقع التوازن، **ثم إلى مواقع الهجوم الاستراتيجي الشامل. ولقد اعتمد المسلمون في حربهم الطويلة الأمد على**

محصلة العوامل الخارجية والداخلية. غير أن اعتمادهم الأساسي بقي ثابتاً وهو الاعتماد على الصراع المسلح باعتباره الوسيلة الوحيدة لحل التناقضات التي بقيت ملازمة للحروب الصليبية ومرافقة لها، منذ بدايتها وحتى نهايتها. فقد جاء الفرنج من كل أرجاء الغرب لاقامة كياناتهم بقوة السلاح. واستمروا في الاحتكام للسلاح من أجل تحقيق أهدافهم. ولم يكن باستطاعة المسلمين اختيار سبيل آخر سوى الاستجابة للتحدي الذي فرضته قوة السلاح.

٢ ـ العنف والتطرف في الحروب الصليبية.

عرف المسلمون في الحروب الصليبية نوعاً من العنف ومن التطرف لم يعهدوه ولم يعرفوه من قبل، فكثيراً ما جابهتهم مقاومات عاتية في فتوحاتهم، ورغم ذلك فقد عمدوا وهم في نشوة انتصارهم على منح الأمان لكل من لا يحمل السلاح. ذلك أن المسلمين يتعاملون مع الحرب على أساس أنها مرحلة للوصول الى السلم والأمن وتعريف الناس بدين الإسلام وفضائل المسلمين، فكان العنف يصل ذروته وأقصى شدته في ميدان القتال، ثم يتحول الى رحمة ورأفة وأخوة لمن يقبل على دين الله، ودون قهر لمن يعرض عن ذلك ويقبل البقاء على دينه والالتزام بشروط المسلمين: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

فكانت الجزية لقاء الذمة التي يمنحها المسلمون لأهل الذمة. أما أعمال الإبادة الاجماعية، وأما الاستباحة، وأما النهب وانتهاك الحرمات، فلم تعرفها المدن التي فتحها المسلمون الذين كانوا يتطلعون أبداً، ومن خلال الحرب، إلى إعادة بناء مجتمع ما بعد الحرب على أسس وقواعد جديدة حدد الإسلام أصولها ومرتكزاتها. ولهذا فقد صدم المسلمون صدمة عنيفة لما ارتكبه الفرنج الصليبيون من المذابح وما مارسوه من الجرائم على امتداد مسيرتهم في بلاد الشام، بداية من أنطاكية ونهاية بمذبحة القدس. وكانت دماء المسلمين التي أريقت ظلماً أو غدراً هي السد الأول الذي انتصب قائماً ليمنع كل تفاهم بين المسلمين وبين أعداء الدين. وقد حار المسلمون في تفسير هذه الظاهرة، غير أن أعداء المسلمين ذاتهم أوضحوا مقاصدهم الكامنة وراء هذه المذابح: لقد كانوا يريدون الأرض خالية من السكان لإقامة اماراتهم وممالكهم، ويريدون الأرض لتوزيعها على كبار رجال الحملات الصليبية. وكانوا يريدون من خلال أعمال الإرهاب أيضاً نشر هالة من الرعب تساعدهم على تغطية ضعف قدرتهم البشرية المقاتلة. ولكن

روح الحقد التي غرسها رجال الكنيسة واستثمروها لتنفيذ أهدافهم لم تلبث أن خمدت جذوتها في نفوس الرجال الذين استوطنوا في بلاد الشام، وعرفوا المسلمين وفضائلهم. فكان لا بد من إمداد الصليبية بدم جديد يحمل روح الحقد ذاتها، فكانت الموجات المتتالية للفرنج الصليبيين هي الدم الحاقد الذي كان ينكأ باستمرار جراح المسلمين الدامية، ويجعلهم يعيشون دائماً ذكريات المذابح التي ارتكبها الفرنج الصليبيون عند قدومهم إلى بلاد الشام للمرة الأولى ويجعلهم يربطون ربطاً محكماً بين جرائم الفرنج القديمة وجرائمهم المتتالية. وبالاضافة إلى ذلك فقد أفرزت الروح الصليبية التي زرعت الكنيسة بذورها، مجموعات من الطوائف الدينية التي أخذت على عاتقها الابقاء على جذوة العداء متقدة، وروح الصليبية مسعرة.

لقد نشأت الطوائف الدينية العسكرية، على أنقاض طائفة دينية نظمت في الأساس لخدمة المسيحيين، فالمعروف أن جماعة من المسيحيين المتدينين بمدينة أمالفي★ قد حصلت في سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م على إجازة من الفاطميين الذين كانوا يحكمون القدس باقامة نزل يؤوي جماعة من المتدينيين الأمالفيين الذين يعملون لخدمة الحجاج الفقراء. وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق الذي اشتهر بالاحسان عندما كان بطريركاً في الاسكندرية في فترة الفتح الإسلامي. وكان معظم القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين الذين تولى رئاستهم مقدم كان اسمه جيرار ـ عندما استولى الفرنج الصليبيون على القدس. وقد أفاد جيرار هذا من معرفته بالاقليم والسكان، فوضع نفسه وطائفته في خدمة ملك القدس وحكومته الجديدة، وحصل منها على أحباس ـ أوقاف ـ وانحاز عدد كبير من الحجاج لطائفته، التي لم تلبث أن أضحت طائفة مستقلة، تدين للبابا مباشرة بالولاء والطاعة، فزاد ما يجري بذله لها من الأراضي، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد إليهم من دخل. وجرى تسميتها (بطائفة الاسبتارية) وجرى أيضاً إحلال يوحنا الانجيلي محل يوحنا المتصدق★★. وعندما توفي هذا الجيرار سنة ٥١٢ هـ=١١١٨ م، خلفه راهب فرنسي

(★) أمالفي: (AMALFI) مدينة ايطالية تحتل موقعاً جبلاً على خليج سالرن.

(★★) فرسان الاسبتارية: (HOSPITALIERS DE SAINT-JEAN) هي الطائفة الدينية التي نظمت في القدس، =

اسمه (ريموند لو بوييه). اشتهر بتطوير عمل طائفته من إرشاد الحجاج وإيوائهم إلى تنظيم طائفة من الفرسان المقاتلين، الذين يعاهدون على التقشف والطهارة والطاعة، وينذرون أنفسهم لقتال الوثنيين (المسلمين).

واتخذ فرسان الاسبتارية شارة تميزهم عن سواهم وذلك بأن جعلوا صليباً أبيضاً على أرديتهم التي يلبسونها فوق ثياب القتال.

وساعد على هذا التطور ما حدث في تلك السنة ذاتها (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) حيث تقدم فارس من شامبانيا ـ اسمه هيو باينز ـ الى ملك القدس بلدوين الأول، وأقنعه بضرورة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري، ووافق الملك على الفكرة، وسمح لمقدم هذه الطائفة ولرجاله بالنزول في جناح بالقصر الملكي (بساحة المعبد ـ وهو المسجد الأقصى) ومن هنا حملت هذه الطائفة اسم (الداوية ـ أو فرسان المعبـد)★ ولم تلبث هذه الطائفة أن انتظمت في ثلاث طبقات: الفرسان، وكلهم من أصل نبيل. ثم الأجناد من البورجوازية، واعتبروا بأنهم هم ساسة الجماعة ومراقبيها، وأما الطبقة الثالثة فتألفت من رجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية، وقاموا بكل ما لا يمت للعسكرية بصلة من الصلات.

واتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم فوضعه الفرسان على أرديتهم البيضاء، ووضعه الأجناد على أرديتهم السوداء.

وكان من أول الواجبات التي تعاهد فرسان الداوية على الاضطلاع بها هي حماية الطريق الممتد من الساحل الى القدس، من هجمات المسلمين. ثم لم يلبثوا أن شاركوا في كل حملة نظمتها مملكة القدس. وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً وهو يتجول في بلاد أوروبا لحشد المتطوعين لطائفته.

بذل ملك القدس بلدوين للطائفتين كل دعم وتأييد، رغم أنهما كانتا مستقلتين عن

= وحصلت على عدد من القلاع والحصون في بلاد الشام وانتقلت عند خروج الفرنج وطردهم من عكا الى قبرص ثم الى رودس، ثم إلى مالطا.

(★) الداويـة ـ أو فرسان المعبد: (KNIGHTS-TEMPLAR).

سلطته، فلم تدينا بالطاعة والولاء إلا للبابا. ولم تتضمن الاقطاعات الكبيرة التي وهبها الملك وأتباعه للطائفتين أي شرط يلزم هؤلاء الرهبان الفرسان بالقتال مع جيش الملك. ولكنهم لم يبلغوا على كل حال، درجة من الثراء تسمح لهم بتحدي سلطة الملك، إلا بعد أن انقضى جيل على قيام مملكة الفرنج الصليبيين في القدس. ولكنهم في الوقت ذاته، أمدوا المملكة بما كانت تحتاجه وهو جيش منظم يضم جنداً مدربين يستطيع دعم الملك بامداد منتظم من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن الواجب أفكار تتعلق بالطموح الشخصي أو الربح الخاص.

تطور نمو الطوائف الدينية العسكرية باستمرار، سواء في زيادة عدد رجالها، أو في تعاظم ثروتها وممتلكاتها، حتى وصلت في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م (سنة وقوع معركة حطين) إلى أن أصبحت هي التي تمتلك أكبر مساحة من الأراضي والاقطاعات في بلاد الشام، وذلك بفضل ما حصلت عليه من الهبات والأوقاف ـ الأحباس ـ وبما دأبت عليه باستمرار من ضم للأراضي. وانحاز الى صفوف هذه الطوائف عدد كبير من النبلاء. واضطرد قدوم المتطوعين من الغرب للانضمام إليها. ولم يكن عدد أفراد هذه الطوائف ثابتاً، بسبب تباين أعداد من ينضم إليها في كل سنة ومن يقتل منها، والمعروف أن طائفة الاسبتارية قد أرسلت مع قوات الحملة على مصر (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) خمسمائة فارس تقريباً. كما شارك في معركة حطين ثلثمائة فارس. وكان هؤلاء من فرسان الطائفة في مملكة القدس، فقط، وكانت أعداد كبيرة منهم قد أقامت على شكل حاميات ثابتة في القلاع والحصون والمدن في كل امارة من إمارات الفرنج. ويظهر أن طائفة الاسبتارية كانت أكبر حجماً من طائفة الداوية. وتولى الاسبتارية والداوية حراسة الطرق، وخاصة منها الطريق الى المواضع المقدسة للاغتسال في نهر الأردن. وتميزت طائفة الداوية باهتمامها الكبير بالأمور الحربية. وما حازوه من الشهرة يرجع الى شدة بأسهم في الأعمال القتالية الهجومية. هذا مع ممارسة أعمال الصيرفة، والتجارة وعقد الصفقات، مما ساعدهم على إقامة علاقات مع المسلمين. وتوطيد صلاتهم مع طائفة الاسماعيلية (الحشاشين أو الباطنية).

عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة الى بلاد الشام (سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٦ م). ثم

عادت الى بلادها ممزقة. تركت في بلاد الشام طائفة من الالمان الذين تم تنظيمهم بصورة مماثلة لتنظيمي طائفتي الاسبتارية والداوية. وقد عـرفـت هـذه الطـائفـة التي اعتمدت بصورة أساسية على المقاتلين الألمان، باسم (طائفة فرسان التيوتون) وتلقت هذه الطائفة دعم ملك القدس ومباركة البابا، وتم الاعتراف بها على أنها طائفة عسكرية. وحصلت على اقطاعات وقلاع خاصة بها.

لقد ظهر خلال عرض الأحداث في الفصلين السابقين ما قامت به هذه الطوائف من أعمال قتالية، فكانت رأس الحربة في كل معركة، وكانت العامل المحرض وراء كل اشتباك. وهي الأشد وطأة على المسلمين بما كانت تمارسه من تحريض، وما تنشره من الأحقاد ومشاعر الكراهية، ولهذا اختصها المسلمون بالقتل كلما ظفروا برجالها. فلما طرد المسلمون بقايا الفرنج من بلاد الشام. تابعت هذه الطوائف التي عاشت للحرب ومن أجل الحرب وعلى حساب الحرب، دورها في التحريض على تجريد حملات جديدة، وبث روح الصليبية في الغرب، وأظهر البابا عطفه على مقدمي هذه الطوائف، ومهد لهم الطريق للاتصال المباشر بملوك الغرب. غير أن هؤلاء ـ وخاصة ملك فرنسا فيليب ـ قد غيروا مواقفهم من هذه الطوائف بعد أن انتهى دورها.

لقد وجدت هذه الطوائف أنها فقدت مجال العمل الذي عاشت له، فمضت طائفة فرسان التيوتون الى بلاد البلطيق لتقوم بفتحها وتستقر فيها. أما طائفة الاسبتارية، فقد عملت بما توافر لها من الثروة على شراء جزيرتي كوس وليروس، وانطلقت منها للسيطرة على بقية جزر أرخبيل الدوديكانيز. وجعلت من رودس التي احتلتها بجهد وعناء، قاعدة لها. وحافظت على وجودها حتى القرن العشرين. أما طائفة الداوية، فكانت أكثر ثراء، إلا أنها كانت أكثر قدرة على إثارة العداء. والمعروف أنها ظلت زمناً طويلاً وهي تحتكر أعمال الصيرفة في العالم، وأكبر قوة لاقراض المال والحصول على الربا الفاحش. وأحرزت نجاحاً كبيراً في ممارسة مهنة لا تحظى بالاحترام. وأدى نشاطهم المالي إلى إقامة اتصالات وثيقة بالمسلمين، واتخذ كثير منهم أصدقاء لهم من المسلمين (الباطنية أو الاسماعيلية) واهتموا بالديانة والدراسات الإسلامية. وشاع عن الداوية بأنهم يدرسون وراء أسوار قلاعهم فلسفات غريبة، ويمارسون أعمالاً وصفت

بالهرطقة. وكان للمبتدئين ـ المريدين ـ شعائر منافية للدين والأخلاق. وكثر الحديث عما يصحب ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة. فلما كان شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٣٠٧ م. أصدر ملك فرنسا فيليب بالقاء القبض على كل من كان في فرنسا من رجال الداوية، ومحاكمتهم بجرائم الألحاد التي صاغها رجال من الداوية ذاتهم، أعلنوا توبتهم، وجمعت الاعترافات. فلما كان ربيع السنة التالية، أصدر البابا الأوامر إلى كل أمير بالقاء القبض على الداوية في بلاده. ومصادرة ممتلكاتهم. وتعرض كثير منهم للقتل والحرق في فرنسا. بينما ألقي بهم في جميع أنحاء أوروبا في السجون.

هكذا انتهى أمر الفئة الباغية التي أفرزتها الحروب الصليبية، واستخدمتها عندما كانت هناك حاجة لاستخدامها، ثم دمرتها بعد أن تحولت إلى عبء ثقيل يرهق كاهلها. ولم يبق من وجود هذه الطائفة سوى ما زرعته من الحقد والكراهية والعنف والتطرف. وقد أكلت النار بعضها بعضاً إذ لم تجد ما تأكله.

٤ ـ الصراع السياسي والصراع المسلح.

عندما احتل الفرنج الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. عرض الكامل بن الملك العادل الأيوبي على الفرنج أن يعيد إليهم القدس مقابل انسحابهم من مصر، فرفضوا إلى أن تم طردهم من مصر بالقوة. وعندما عاد الفرنج الى دمياط سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م، عرض الاخوة الأيوبيين عرضاً مماثلاً فرفضوه، إلى أن تم أسر ملكهم لويس التاسع وتطويق قواتهم في المنصورة، وطردهم من مصر بقوة السلاح، وقبل ذلك، وفي سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م هاجم الفرنج مصر، واحتلوا سواحلها، فعقد الملك العادل هدنة مع الفرنج. وأعطاهم يافا مقابل خروجهم من مصر ويمكن اعتبار هذه النماذج الثلاثة امثولات لاقتران الصراع السياسي بالصراع المسلح في الحروب الصليبية القديمة. أما ما حدث سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م عندما أعاد الملك الكامل مدينة القدس الى الفرنج بموجب هدنة تم عقدها مع امبراطور الغرب وملك ألمانيا ـ فريدريك الثاني ـ. فيمكن اعتبارها صراعاً سياسياً جرى تحت قعقعة السلاح، ولكن بدون اللجوء الى استخدامه. والأمثلة بعد ذلك كثيرة جداً، مما تضمنه عرض الأحداث في الفصلين السابقين، ولقد جاء الفرنج بجحافلهم لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية تندمج جميعها في تيار ديني ـ صليبي ـ فكان لا بد من أن يشمل الصراع المسلح عوامل الصراع السياسي. ويظهر أن الهجمة الصليبية الأولى قد حققت تلك الأهداف جميعها. ولهذا فقد هيمن الصراع المسلح على جميع الأهداف وجعلها تابعة له. واستمر الصراع المسلح هو المهيمن حتى يوم حطين. وإذ ذاك تبين للفرنج أنه من المحال عليهم المحافظة على وجودهم، والابقاء على كياناتهم، بالاحتكام إلى السلاح دائماً، وأنه لا بد من البحث عن وسيلة للتعايش مع المسلمين. وقد برزت هذه الحقيقة واضحة في محاولات فريدريك الثاني لاستعادة القدس ـ دون أي اشتباك أو معركة ـ وعندما تم له ذلك، عاد إلى بلاده. ثم تأكدت هذه الحقيقة مرة أخرى،

وبشكل أكثر وضوحاً، عندما قدم ملك فرنسا لويس التاسع على رأس حملته، واحتل دمياط. فنصحه الفرنج المقيمين في بلاد الشام بقبول مبادلة القدس بالانسحاب من دمياط، غير أن ملك فرنسا المشبع بروح الصليبية الأولى، امتنع عن اجراء حوار سياسي مع المسلمين. فهو ما جاء على رأس جيشه إلا لقتال الكفار ـ المسلمين ـ. وإذ تم أسره وتدمير جيشه، أصبح مقتنعاً بأهمية الصراع السياسي، وتبين له فائدة هذا الصراع عندما استطاع أن ينتزع مكاسب من جميع أمراء المسلمين والافادة من صراعاتهم الداخلية، لضرب بعضهم ببعض، واستثمار التناقضات لحل مشكلات الفرنج على حساب المسلمين وبلادهم. واستمر بعد ذلك الصراع السياسي والصراع الاقتصادي في ممارسة الدور المهيمن ـ بصورة عامة ـ على الصراع السياسي، والموجه له. ولكن بقي الصراع المسلح هو الأداة النهائية لحل التناقضات، عندما تصل هذه التناقضات إلى مأزق صعب لا يمكن حله إلا بالعودة الى الاحتكام للسلاح. وهذا ما يفسر تباعد الحدود الزمنية الفاصلة بين المعارك الكبيرة والاشتباكات الحاسمة.

تظهر عملية استعراض الأحداث والوقائع المرتبطة بالصراع السياسي مجموعة من الحقائق:

أولها: لقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول تحقيق أكبر قدر من المكاسب التي لم يتمكن من تحقيقها بقوة السلاح. وأن هذه المكاسب ذات صفة مرحلية، غير ثابتة ولا مستقرة، نظراً لاعتقاد الأطراف المتصارعة بأنها لا تمثل حتى الحدود الدنيا من أهدافها، غير أن ظروف الصراع المسلح ـ الداخلية والخارجية ـ قد فرضت اللجوء اليها وقبولها.

وثانيها: واستناداً الى الحقيقة السابقة، فقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول استثمار كافة الظروف الداخلية والخارجية من أجل إعادة بناء قدرته الذاتية، وتنظيم قواته المقاتلة، ودعم جبهته الداخلية، وتسوية مشكلاته، استعداداً لالغاء المكاسب السياسية، وزيادة هامش العمل العسكري بما يتوافق وأهداف الصراع الأساسية.

وثالثها: واستناداً الى الحقيقة السابقة أيضاً، فقد كانت التسويات السياسية لا تحظى باحترام المقاتلين على جبهتي الصراع، نظراً لتناقضها مع الأهداف التي تكونت القناعة بفائدتها وأهميتها عبر الصراع المسلح المرير، وعبر التوجيه الفكري والديني، فكانت مقاومتها التدرجية على مستوى المقاتلين هي البداية ـ دائماً ـ للعودة الى الصراع المسلح.

ورابعها: أن هذه التسويات لم تكن باستمرار متوافقة مع مراكز القوى المختلفة على جبهتي الصراع، ولا منسجمة مع مصالحها، مما كان يفسح المجال للصراعات الداخلية وتفتيت القوى الكامنة في جبهات الصراع. وكانت القيادة الأقوى، هي القيادة التي تستطيع الهيمنة على مراكز القوى المتنافرة. وحملها بالإكراه على قبول التسويات السلمية. غير أن هذا الإكراه لم يكن ليزيل عامل (المصلحة). فكان ضعف الضغط القيادي لسبب من الأسباب الطبيعية أو الاصطناعية ـ الانفعالية ـ كافياً لإعادة تفجير الموقف.

وخامسها: أنه كلما توافرت للقيادة مركزية قوية، كلما أمكن للتسويات السياسية، أن تحقق نجاحات أكبر، وأن تتضمن قدراً أقل من الخسائر والتنازلات. وكلما تنافرت مراكز القوى وتمزقت كلما حقق أحد الأطراف ـ الذي يمارس المركزية القوية في القيادة ـ أن يحقق مكاسب أكبر على حساب مراكز القوى المتنافرة.

لقد جاءت الحملة الصليبية الثالثة، وخاض قائدها (ريتشارد قلب الأسد) صراعاً مريراً ضد قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ولكنه عندما أدرك أنه من المحال عليه وعلى قواته الوصول الى القدس. وأنه من الصعب الحصول على انتصارات حاسمة. اكتفى بما حققه من انجاز وهو تجميد قوات المسلمين وحرمانها من فرصة تطوير مكتسباتها وأعمالها القتالية، وشرع في إجراء المفاوضات مع صلاح الدين، وقد استمرت هذه المفاوضات زهاء عام كامل، وتخللتها معارك واشتباكات كثيرة. حاول الطرفان بواسطتها الحصول على انجازات تساعد على دعم الحوار السياسي. وفي النهاية، وعندما تم الاتفاق السياسي، لم يتضمن أكثر من تجميد للوضع العسكري وبصورة مؤقتة.

ومقابل ذلك، وعلى الرغم من الفشل الذريع والهزيمة المنكرة التي نزلت بقوات الفرنج في المنصورة، فقد استطاع لويس التاسع تحقيق مكتسبات كثيرة لم يكن يحلم بها وهو أسير في المنصورة. ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتمزق جبهة المسلمين وتنافر أقطابها وصراع ملوكها وامرائها. وتكررت هذه الظاهرة ذاتها عندما جاء فريدريك الثاني، فأفاد من تمزق الجبهة الإسلامية لانتزاع المكاسب من كل امراء المسلمين المتصارعين.

لقد سبقت الإشارة إلى أن الصلح الذي عقده فريدريك الثاني مع السلطان الكامل (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) والتي قضت باعادة القدس الى الفرنج، لم تعجب المسلمين ولم تحظ برضى الفرنج. فقد وجد الفرنج أنها لا تحقق الحد الأدنى من طمعهم، ووجد فيها المسلمون غدراً بتضحياتهم وجهودهم: وتفريطاً بما أحرزوه بقوة السلاح. وكان الوفاء لأرواح الشهداء، وتضحياتهم عاملاً وضعه الطرفان في اعتبارهما، مما حمل مجاهدي المسلمين ومقاتلي الفرنج على رفض الاتفاق، الذي لم يعمر طويلاً على كل حال، إذ سرعان ما اندفعت جماهير المسلمين لاحباط الجهود السلمية، فتم طرد الفرنج نهائياً من القدس (على أيدي الخوارزمية). وسبقت الإشارة أيضاً إلى أن هذه الاتفاقات قد أدت أحياناً إلى نشوب صراعات دامية بين الفرنج ـ مثل ذلك القتال العنيف الذي اندلع بين البنادقة والبيازنة والجنويين ـ على امتداد ساحل بلاد الشام، والذي استمر طويلاً، واستنزف كثيراً من قدرة الفرنج وامكاناتهم.

لقد عرف ملوك الفرنج ما بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وتناقضات فاستثمروها. غير أن ملوك المسلمين وامرائهم لم يكونوا أقل معرفة بالفرنج وما بين مراكز القوى المختلفة من تناقضات. وقد أمكن لهم في مرات كثيرة استثمار هذه التناقضات بصورة جيدة لتمزيق الجبهة الداخلية للفرنج وإضعافها واستنزافها. وقد أظهر ملوك المسلمين وامراءهم ـ عامة ـ كفاءة عالية في استخدام قدرتهم العسكرية لتعميق التناقضات بين الفرنج ومراكز قواهم المختلفة، فكانوا يمنحون حمايتهم ورعايتهم للمتعاونين معهم من الفرنج، في حين يشتدون في حربهم وعدائهم لمن يعادونهم. مما حمل ملوك الفرنج وامرائهم على التماس صداقة أمراء المسلمين، والتعاون معهم إلى درجة التحالف في مرات كثيرة.

لم يكن ملوك المسلمين وامرائهم يخافون من العمل السياسي، طالما أن هذا العمل لا ينتقص من قدراتهم الذاتية، ولا يحد من حرية عملهم العسكري إلا بقدر ما يحد أيضاً من حرية العمل العسكري للفرنج ذاتهم. وكانوا على ثقة دائماً أن الصراعات بين مراكز القوى للفرنج، وأن التكوين العدائي للفرنج، وأن الدور الذي تمارسه الطوائف الدينية والعناصر المتطرفة، سيفجر في النهاية كل جهد سياسي، وأنه لا بد من استئناف الحرب، ولعل هذا السبب هو الذي حمل مؤرخي المسلمين على التمسك باصطلاح (الهدنة) عند عقد كل اتفاق سياسي بين المسلمين والفرنج.

وعرف المسلمون منذ البداية أن كيانات الفرنج على أرض بلاد الشام، ومملكتهم، وإماراتهم، مرتبطة برباط - أو بروابط - وثيقة بملوك الغرب، ولهذا فقد حرصوا على خوض الصراع السياسي - الديني - معهم. وأمكن لهم اصطناع صداقات كانت مفيدة في كثير من الأحيان، مثل تلك التي انعقدت أواصرها بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد. ومثل صداقة فريدريك الثاني مع الكامل، ومثلها صداقة ادوارد ملك انكلترا والظاهر بيبرس. وكذلك صداقة ملك صقلية - شارل انجو - مع بيبرس وقلاوون. وأفاد المسلمون من هذه الصداقات لكبح جماح تطرف الفرنج، وإثارة التناقضات بينهم، بل إن فريدريك الثاني كان يزود الكامل بالمعلومات عن الحملات الصليبية المحتملة (حملة لويس التاسع التي انتهت في تونس). ويتبادل الرسائل في بعض القضايا، غير أن العمل السياسي من خلال هذه العلاقات لم يعطل من مسيرة الصراع المسلح، ولم يكن بديلاً عنها، وانما استخدم لدعم الصراع المسلح وتطويره. وذلك لايمان المسلمين وقادتهم ايماناً مطلقاً بحتمية انتصار الحل العسكري في النهاية، فكان عملهم السياسي مع ملوك الغرب هو لاقناعهم بصورة مباشرة بعقم مشروعهم الصليبي وعدم فائدته، بينما كان الحسم على أرض القتال هو وسيلة الاقناع المباشرة.

وهكذا عمل المسلمون على تحويل الكيانات الصليبية إلى أعباء مرهقة، أرهقت ملوك الغرب، واستنزفتهم، وجعلتهم يقفون في النهاية موقف المتفرج عندما انهارت عكا - آخر كيانات الفرنج التي بقيت على أرض الشام -. ولعل من المثير حقاً ملاحظة أن الصراع السياسي الذي برز أكثر من سواه قد جاء مقترناً باسماء كبار

الرجال في المعسكرين المتصارعين على جبهتي القتال، على نحو ما سبق ذكره. بينما جاءت الجهود السياسية الفاشلة على أيدي قادة صغار أو فاشلين من أمثال ملك فرنسا لويس التاسع الذي جلب لبلاده من المآسي ما لم يجلبها سواه. وحمل لقواته من الفشل ما لم يحملها سواه.

هناك حقيقة لا بد من الاشارة إليها، لقد أسهم الصراع السياسي اسهاماً كبيراً في الابقاء على وجود الفرنج في بلاد الشام. فقد وصل الفرنج واحتلوا القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وفتح المسلمون عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. والمعروف أن ما جرى بعد حطين من صراعات سياسية وحملات صليبية هي التي أبقت على وجود الفرنج زهاء مئة عام ونيف. غير أنه من المحال إعطاء الصراع السياسي أكثر من دوره في تأخير طرد الفرنج من بلاد الشام. إذ أسهمت في ذلك أيضاً مجموعة من العوامل، منها هجوم المغول التتار ـ ومنها حملات الفرنج على مصر. ومنها صراعات المسلمين على الجبهة الداخلية. وإذا كان للصراع السياسي دوره، فهو لا يتجاوز حدود إعطاء فترات متباعدة بين الأعمال القتالية، التي كانت تعمل دائماً على إحراق المراحل الزمنية، والتعجيل بمسيرة الأحداث، ودفعها حتى نهايتها القصوى بسرعة مذهلة.

٥ ـ العامل الاقتصادي ـ والانسان المسلم.

عندما حاصر المسلمون قوات الفرنج، القائمة على حصار عكا (سنة ست وثمانين وخسمائة) أورد المؤرخ ابن الأثير العبارة التالية: «اشتد الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا. وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان. منهم الأمير اسامة مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام وغيره. ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب ـ الذي كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم. وكذلك من عسقلان وغيرها. ولولا ذلك لهلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر».

والسؤال الذي يفرض ذاته هنا هو: «هل كان المسلمون يرغبون ببقاء الفرنج في بلادهم؟ ولماذا لم يتركوهم وشأنهم حتى يهلكوا جوعاً؟». وقد يكون من الصعب الاجابة على مثل هذا السؤال بمعزل عن مجموعة العلاقات التجارية والاقتصادية التي جرت أثناء فترة الحروب الصليبية. فالمعروف أن الامارات الصليبية التي أقيمت على امتداد سواحل بلاد الشام. قد جعلت موانىء التجارة مع الغرب في قبضة الفرنج الصليبيين. ولكن المسلمين احتفظوا بسيطرتهم الاقتصادية، إذ كانت قوافلهم هي التي تنقل المنتجات الزراعية والصناعات المختلفة من سائر المشرق الإسلامي. فأفاد الفرنج من الرسوم التي فرضوها على مرور هذه المتاجر. وبذلك استمر تدفق التجارة بصورة منتظمة. وقام تعاون وثيق بين تجار المسلمين وتجار الفرنج في سواحل بلاد الشام. وخاصة البنادقة والجنويين والبيازنة الذين احتكرت أساطيلهم نقل التجارة عبر البحر الى سائر أرجاء أوروبا. وقد وجد تجار المسلمون أن الفرصة مؤاتية لاستثمار ضائقة الفرنج، وبيع منتجاتهم بأثمان مرتفعة، وكان المسلمون يتقوون بما يحصلون عليه من الأرباح لدعم قدرتهم الذاتية ـ لاسيما وأنه قد ظهر للمسلمين أن الفرنج قد صمدوا

للضائقة التي نزلت بهم -. وأدركو أن مثل هذه الضائقة لا يمكن لها أن تقضي على وجود الفرنج. فكان في رأيهم استثمارها والإفادة منها.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف مضاد جاء بعد اثني وسبعين عاماً، ففي سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م. خرج المظفر قطوز بجيش المسلمين الضخم من مصر لقتال المغول التتار، واضطر للسير على امتداد الساحل للوصول الى الشمال، كما اضطر للحصول على المواد التموينية والامدادات لجيشه الكبير، فأرسل سفارة إلى عكا. ووافق الفرنج على السماح لجيش المسلمين بالمرور من أراضيهم، وقدموا له ما يحتاجه، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك عندما استضافوا أمراء الجيش في عكا، واستقبلوهم ونظموا لهم الزيارات، ولم يكن ذلك مجرد ظاهرة من ظواهر الفروسية التي اشتهرت بها حروب القرون الوسطى، بقدر ما كانت استجابة طبيعية لمتطلبات التعايش خلال فترة حروب استمرت مائتي عام. ولقد أفاد الفرنج - مرحلياً - بالحصول على أموال وخيول وسواها دعمت من قدرتهم الحربية. وهكذا كان التعاون التجاري ذو هدف واضح وهو دعم القدرة القتالية الذاتية للطرفين المتصارعين.

لقد عرفت الحرب الصليبية القديمة نوعاً مميزاً من الحرب الاقتصادية ذات الظواهر المتعددة، والأشكال المتنوعة: منها التدمير المتبادل للموارد الزراعية، ومنها النهب المتبادل للقرى والمدن، ومنها استخدام الأسرى لأعمال الزراعة والصناعة والبناء، ومنها الهجوم على القوافل التجارية. ومنها أيضاً أعمال الحصار والتطويق والعزل للمدن والحصون. وكانت البداية على أيدي الفرنج عندما عملوا على تدمير كل ما يصادفونه في طريقهم خلال هجومهم الأول. ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم هم الخاسرون من هذا التدمير، إذ بقي الشريط الساحلي، وما يتضمنه من المزارع والحقول هو موردهم الحياتي الأول، وعليه يعتمدون في تأمين متطلباتهم التموينية. كما كانت مواردهم البشرية موجهة بصورة أساسية للحرب لا للزراعة والبناء والصناعة، ولم تكن لديهم أصلاً المهارات الصناعية التي عرفتها أقطار العالم الإسلامي، وخاصة ما اشتهرت به بلاد الشام وصناعها من المهارات. فتوقفوا عن أعمال الإبادة، وأخذوا في الاحتفاظ بالأسرى لاستخدامهم للبناء والزراعة والصناعة. وقد بقي هذا شأنهم حتى وقت

متأخر. وقد ظهر ذلك واضحاً أيام الظاهر بيبرس، عندما اشترط بيبرس اطلاق سراح أسرى المسلمين الذين يحتفظون بهم، قبل أي اتفاق. وعندما رفض الداوية - خاصة - اطلاق سراح المسلمين - وعمال الصناعة منهم بصورة محددة -. غضب بيبرس، وامتنع عن الاتفاق مع الفرنج، وشن عليهم حرباً شعواء هدفها الأساسي تحرير أسرى المسلمين.

أدرك المسلمون أهمية الخنق الاقتصادي في تضييق الخناق على الفرنج، منذ البداية، فأخذوا في تدمير المزارع والحقول تدميراً منهجياً منظماً، بداية من أقصى الشمال وحتى أقصى الجنوب، وانطلقت سراياهم وكتائبهم وهي تجوب المناطق التي فرض الفرنج سيطرتهم عليها، لتنهب قطعان الماشية ولتدمر المزارع ولتحرق الحقول. وإذ تأكدت للمسلمين أهمية الخنق الاقتصادي أصبحت الإغارات على ممتلكات الفرنج تحتل المرتبة الأولى في سلم الأفضليات، وتسبق وترافق كل عملية هجومية كبرى. وقد اضطر الفرنج نتيجة لذلك الى التماس متطلباتهم الحياتية تارة من قبرص، وتارة من بلاد البيزنطيين - الروم - أو منهما معاً ومن سواهما، ووصل الأمر أحياناً إلى تنظيم أعمال هجومية كبيرة للحصول على المواد التموينية، وكان المسلمون يعرفون ذلك، فيعدون العدة لمجابهة هجمات الفرنج المتوقعة وإحباطها، بل إن مثل هذا الصراع حول الموارد الاقتصادية، كثيراً ما أخذ شكل نزاع مثير، حيث يباغت الفرنج بعض الأقاليم للاستيلاء على قطعان الماشية والخيول والأغنام، فتسرع قوات المسلمين لنصب الكمائن ومطاردة المؤخرات حتى يتم لها استرداد (الغنيمة). وكان الصراع على الموارد الاقتصادية في مرات كثيرة هو العامل الأساسي لتفجير الحرب وتصعيد الصراع المسلح. والمعروف أن أحد العوامل التي فجرت الصراع وأدت إلى وقوع معركة حطين، كانت قيام أمير الكرك - رينالد شاتيون - على قافلة من قوافل المسلمين، ونهبها.

ومقابل ذلك، أظهر المسلمون اهتماماً كبيراً بتنمية مواردهم الاقتصادية - الزراعية والصناعية - لتلبية متطلبات الحرب. وكان الزنكيون هم أول من أدرك ضرورة تنمية الموارد الزراعية، فعملوا على استصلاح الاقليم المحيط بالموصل، حتى أصبح حقولاً

زراعية متصلة، وحتى تحول إلى منطقة مكتظة بالسكان، تضج بالحياة، بعد أن كانت خراباً. واستمروا على هذا النهج وطوروه في سائر بلاد الشام. ولم يكن جهدهم لضم مصر لمسيرة الجهاد في سبيل الله، إلا ليتقوى بها المسلمون على أعدائهم، وللإفادة من مواردها البشرية والزراعية. فربطوا بذلك بين التكامل الاقتصادي والكمون الحربي في صورته البسيطة الأولى. وإذ لجأ الفرنج للإفادة من أسرى المسلمين لاعمال الزراعة والبناء، فليس هناك ما يمنع من استخدام الوسيلة ذاتها، لاسيما وأنه توافر في مصر في بعض الأوقات آلاف الأسرى - الذين فاقوا في عددهم ما ضمته جيوش مدن الفرنج من أعداد المقاتلين - فتم توجيههم لاعمال الزراعة والبناء وسواها من الأعمال التي تتطلب جهد الطاقة البشرية. فكان الفرنج هم الخاسرون دائماً، إذ بينما كانت المساحات الزراعية التي استولى عليها الفرنج محدودة وضيقة. كان لدى المسلمين من الموارد الهائلة ما يضمن لهم الامداد المنتظم لقواتهم. فكانت أعمال التدمير المتبادلة تلحق الضرر بالفرنج أضعافاً عما كانت تلحقه بالمسلمين. هذا بالاضافة إلى امتلاك المسلمين قدرات أكبر وامكانات أوفر لحماية اقتصادهم وممتلكاتهم ضد هجمات الفرنج المباغتة، نظراً لتفوقهم في أساليب الحركة، وفي الأساليب الهجومية.

لقد أثار المسلمون أكثر من حرب ضارية، بسبب استيلاء الفرنج على قافلة تجارية، أو بسبب إغاراتهم العنيفة على اقليم من أقاليم بلاد الشام ونهبه وتدميره. وقد يبدو ذلك غريباً للوهلة الأولى، إذ قد لا يستحق ضياع قطيع من قطعان الأغنام، أو فقد قافلة من القوافل، إجراء مثل تلك الحشود، وتحمل مثل تلك المشقة، والتعرض لمثل تلك الخسائر، لاسيما وقد ملك الفرنج مدناً ومناطق أكثر قيمة من القطيع أو القافلة. غير أن المسلمين لم تكن نظرتهم محددة بالقيم المادية، بل كان ما هو أكثر أهمية بالنسبة لهم: المحافظة على أمن المسلمين وروحهم المعنوية، واستعدادهم القتالي. وهنا يظهر الفارق المميز بين حرص الفرنج على استعادة أسراهم وبين حرص المسلمين على استعادة أسراهم. فلقد كان الفرنج يرغبون في استعادة الأسرى لزيادة قدرتهم القتالية والانتاجية والإدارية، في حين كان المسلمون يعملون على استعادة الأسرى حفاظاً على فضائل المسلمين وتجنيبهم مذلة الأسر، ومهانة فقد الحرية، وحملهم على الاعتزاز بالأمة

التي إليها ينتسبون، ومن أجل قضيتها يحاربون فَيُقْتَلونَ، وَيَقْتُلونَ، ويؤسرون ويأسرون. وكان هذا الرباط المعنوي أشد قداسة وأكثر أهمية بالنسبة للمسلمين، وقد تكون النتيجة المباشرة واحدة بالنسبة للطرفين المتصارعين، غير أن النتيجة غير المباشرة - أو البعيدة - كانت مختلفة تماماً، إذ أنها زادت من تلاحم المسلمين وتماسكهم، بينما أدت الى تفتت الجبهة الداخلية للفرنج وضعفها.

لقد بقي الإنسان المسلم عزيزاً على الدولة الإسلامية، كريماً على الأمة الإسلامية، رغم ما أنزلته الحروب الصليبية بساحته من النكبات، وما تعرض له من البلاء والابتلاء. ولقد أظهر عرض الأحداث مدى اهتمام أمراء المسلمين بجندهم وأمتهم - لا باعتبارهم قدرة انتاجية، ولا باعتبارهم قدرة مقاتلة - بل باعتبارهم كرماء لما كرّمهم الله به من الإسلام ولهذا فكان كل عمل يقوم به الفرنج ضد المسلمين كان امراء المسلمين يقابلونه برد أقوى، وأكثر عنفاً. وصحيح أنهم لم يستطيعوا مجاراة الفرنج بفظائعهم ومذابحهم، بسبب تناقض هذه الفظائع والجرائم مع الفضائل الحربيـة للمسلمين، إلا أنهم كانوا في ميادين القتال أشد بأساً على الفرنج، وأقسى انتقاماً، غضباً لله ودينه وأمته، (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

وقد ظهر ذلك بوضوح أكبر في صراعات المسلمين بعضهم ضد بعض، إذ كان الصراع لا يتجاوز على الأكثر حدود الحصار، والاشتباكات الثانوية. وكثيراً ما حدث أن تنازل أحد الأطراف عن حقه رغم ما يمتلكه من القدرة والقوة، حقناً لدماء المسلمين، وحفظاً لقدراتهم، بينما كان الصراع الداخلي للفرنج يأخذ شكلاً وحشياً رهيباً لا رحمة فيه، مثل ما تعرضت له القسطنطينية على يد الفرنج من نهب وتدمير واستباحة (سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م). وكذلك ما حدث من قبل، عندما أغرت الكنوز والثروات المتراكمة في قبرص، أحد الأمراء الفرنج - رينالد شاتيون - بقيادة حملة إلى قبرص (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م). وصفتها المصادر التاريخية بما يلي:

« وصار الفرنج والأرمن يذرعون الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، ينهبون ويسلبون كل ما أبصروه من العمائر؛ من الكنائس والأديرة والدكاكين والمنازل الخاصة. وأشعلوا الحرائق في المحصولات الزراعية، وقاموا بتطويق القطعان

وساقوها مع جميع سكان الجزيرة الى الساحل. فانتهكت أعراض النساء، وتعرض للقتل الأطفال والشيوخ لعجزهم عن المسير، وما أجروه من القتل والنهب بلغ من اتساع نطاقه ما قد يحسدهم عليه الهون أو المغول... ولم تنتعش أبداً جزيرة قبرص من التخريب الذي أحدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن».

فهل من الغريب إن تلاحم العامل الاقتصادي، بالعامل البشري، وتلاحم العامل المادي بالعامل المعنوي، وتلاحمت قاعدة جبهة المسلمين وقيادتها، في إطار الهدف الكبير الذي هو الدفاع عن الإسلام وأهله ضد أشرس وأقوى حرب عرفها التاريخ في القديم والحديث؟ وهل من الغريب أن ينتصر المسلمون، وقد توافرت لهم العوامل الأساسية لاحراز أي نصر؟. لم يكن ذلك أمراً غريباً، غير أن الظاهرة المثيرة حقاً هي تكامل عوامل الصراع بصورة مذهلة، وتوازنها، وتضافرها في إطار هدف الحرب، وهو الهدف الذي صهر في بوتقته كافة التناقضات التي كانت تنشب بصورة طبيعية بين المسلمين، والتي حاول الفرنج استثمارها بكل جهد مستطاع، فنجحوا أحياناً، وفشلوا في النهاية. وكان فشلهم من دروس التاريخ التي لا تنسى.

٦ ـ قصة المعركة الإسلامية وتطورها.

لقد أظهر عرض الأحداث الأشكال المختلفة للمعركة الإسلامية خلال فترة الحروب الصليبية. وأكد هذا العرض تطور المعركة الإسلامية تطوراً كبيراً، ولكن هذا التطور بقي محدداً بخصائص فن الحرب الإسلامي وقواعده، ولعل من أبرز أشكال المعركة في هذه الحقبة، المعركة التصادمية، والمعركة الدفاعية، والهجوم على القلاع والحصون. ونظراً لاتساع مسرح العمليات، فقد تطور اسلوب تعبئة القوات وحشدها، وزجها في المعركة. وتلخصت قصة المعركة بصورة عامة بما يلي:

تتجمع جيوش المسلمين في بداية فصل الربيع، وتسير نحو هدفها، الذي غالباً ما يكون امارة من امارات الفرنج أو مدينة من مدنهم، فتنضم إليها جيوش المدن القريبة من الهدف، وتكون طلائع المسلمين وشبكات استطلاعهم واستخباراتهم ـ جاسوسيتهم ـ قد اندفعت أمام الجيوش لجمع المعلومات وتحديد قوة العدو، وأهدافه وتحركاته، وكثيراً ما تعمل هذه المقدمات على الايقاع بمقدمات العدو، (في كمائن) أو تباغتها بهجمات سريعة، فتقتل من تقتله منها وتأسر من تستطيع أسره. ثم هي تخبر أمير الجيش ـ القائد العام ـ بما يتوافر لها من المعلومات، فيتحرك الجيش نحو جيش العدو في ترتيب المسير، حتى إذا ما وصل الجيشان إلى ساحة المعركة، نظم الطرفان قواتها على الشكل المعهود، مقدمة، وميمنة وقلب وميسرة، ومؤخرة وهذا هو التنظيم الذي كان يعرف باسم (المصاف). وتبدأ المعركة بالاشتباكات ثم تطور إلى قتال عنيف غالباً ما ينتهي بالحسم لمصلحة أحد الطرفين، وقد ينتهي بدون حسم، فينسحب الطرفان، وقد نزلت بقواتها الخسائر، ويحق لكل طرف أن يزعم لنفسه النصر. طالما أنه لازال يحتفظ بكتلة جيشه الرئيسة وهي في حالة سليمة وقادرة على خوض المعركة من جديد. وقد يجد أحد الطرفين أنه لا يحقق كسباً من خلال المعركة، فيبادر الى الانسحاب دون قتال.

لقد أظهر المسلمون تفوقهم في هذا النوع من المعارك، إذ كانوا يحرصون على اختيار الأرض المناسبة لحرب الحركة، والتي تسمح لهم باجراء التطويق المزدوج، والتي تتوافر فيها امكانات انتشار القوات واخفائها وتمويهها. فكانوا يعملون على نشر قواتهم خلف التلال، ويدفعون قوة كافية للاشتباك مع الفرنج، ثم يتظاهرون بالهزيمة (يتطاردون أمامهم) مما يغري قوات الفرنج للانقضاض بكل ثقلهم على القوة التي تواجههم، غير مدركين أن هذه القوة ليست إلا قسماً من الجيش الأساسي. وعندها يجدون أنفسهم وقد أحيط بهم من كل جانب، فتتحول المعركة الى مذبحة قاسية. وتحاول قوات الفرنج الخروج من دائرة الحصار، فتفشل في ذلك، إلا فلولاً ممزقة منها تحمل جراحها لتخبر عما تعرضت له قوات الفرنج من كارثة. وقد جرت معركة حطين على هذا النحو، ومثلها كانت معركة عين جالوت، ومثلها أيضاً معركة المنصورة، وكثير من المعارك الكبرى وحتى الصغرى.

لقد عرف الفرنج تفوق المسلمين عليهم في أساليب حرب الحركة، فحاولوا تجنب الاغراء الذي كان يقدمه لهم المسلمون لجرهم إلى أرض القتل، وامتنعوا عن المطاردة في كثير من الأحيان، الأمر الذي حرمهم من القدرة على الحسم في ميدان المعركة. وبات باستطاعة المسلمين إذا ما استعصى عليهم إحراز النصر، الانسحاب الى موقع قريب، وإعادة تنظيم قواتهم، أو استقدام قوات دعم إضافية لخوض المعركة ذاتها أو البحث عن معركة جديدة. كما حاول الفرنج اللجوء إلى إقامة الموانع، وحفر الخنادق، لحرمان المسلمين من ميزة تفوقهم في حرب الحركة، إلا أنه كان باستطاعة المسلمين الافادة من نقطة ضعف في تنظيم العدو القتالي للانقضاض عليه. ولقد تطلب ذلك بالضرورة، إجراء عمليات الاستطلاع بالقوة - الاغارات والهجمات المباغتة والانسحاب - لمعرفة حدود التنظيم القتالي للفرنج، وطبيعته، وقوته، من أجل توجيه القوات نحو الهجوم الحاسم الذي يبدأ عادة بتطويق العدو وحصاره.

كانت قوات الفرنج تحاول قدر المستطاع تجنب الصدام في المعركة التصادمية، إلا إذا أمكن لها تحقيق المباغتة. وكان يتم لها ذلك في بعض الأحيان، وعندها تمسك

بالمبادأة، وتزج بقواتها لخوض معركة ضارية. وعندها كانت قوات المسلمين إما أن تخوض المعركة مرغمة ـ في ظروف غير مناسبة، وغالباً ما كانت تدفع الثمن غالياً، وتنسحب إذا ما استعصى عليها تحقيق النصر، وإما أن تنسحب تحت حماية مؤخرات قوية. لتعيد تنظيم قواتها. ومهما كان عليه الأمر، فقد تميزت هذه المعارك التصادمية بالعنف الشديد، والذي وصفه المؤرخون بعبارات دقيقة مثل: «اشتد القتال بين الطرفين، حتى أفرغ الصبر، وحتى ظن الطرفان أنه الهلاك والفناء». ومثل «اقتتل الناس قتالاً لم يسمع بمثله أحد أو عرفه». وسوى ذلك من التعابير التي تبرز مدى ما كان عليه القتال من الشراسة والضـراوة، حيث يحاول كل طرف انتزاع النصر مهما بلغ الثمن، ومهما تطلب ذلك النصر من التضحيات. على أنه كان بالمستطاع في كثير من الأحيان تجنب المعركة التصادمية، نظراً لما تتضمنه من المجازفات والمخاطرات والنتائج غير المضمونه. والاستعاضة عنها بتوجيه الضربات الى المناطق الأضعف والأقل مقاومة. ومثال ما كان يفعله الطرفان عند علمهما بحشد قواتها في منطقة معينة، فيتم توجيه الضربات العنيفة الى مناطق بعيدة جداً عن مناطق الحشد. وقد حدث في مرات كثيرة أن وجه المسلمون ضرباتهم الى مناطق الجليل، أو بلاد الساحل، عندما تكون قوات الفرنج محتشدة في الشمال. أو توجيه الضربات الى الشمال عندما تكون قوات الفرنج محتشدة في الجنوب. وقد فعل الفرنج مثل ذلك. حيث كانوا يركزون ضرباتهم على مناطق الفراغ، أو مناطق الضعف، بحيث يحققون أكبر قدر من المكاسب المادية والمعنوية، بثمن مقبول أو محتمل. حتى إذا ما توافرت لهم المعلومات عن تحرك جيوش كبيرة من المسلمين لقتالهم. انسحبوا سراعاً وعادوا الى قواعدهم ـ مدنهم واماراتهم ـ مكتفين بما حققوه من نصر، وما حصلوا عليه من الغنائم.

أدرك المسلمون منذ البداية أن الإمارات التي أقامها الفرنج على أرض بلاد الشام، تشكل مع مملكة القدس جبهة واحدة، وأن هذه الامارات، مع مملكتها، ما هي إلا قواعد للعدوان والتوسع. ولهذا فقد تركز الجهد الأساسي للمسلمين لحصر هذه (الممتلكات) التي سيطر عليها الفرنج، ضمن حدودها، وبذلوا كل ما في وسعهم لاستنزافها وعدم السماح لها بالتوسع. ولهذا كانت أي ضربة على أي إمارة تحقق

الهدف، بشرط أن تستنزف هذه الضربات من جهد الفرنج وقدراتهم بأكثر ما تلحق الضرر بالمسلمين. ولذا كان تجنب المعركة الحاسمة ـ التصادمية ـ من مصلحتهم. وكان الفرنج بدورهم يريدون المحافظة على قواعدهم التي استولوا عليها، ومن ثم متابعة التوسع. فكانت ضرباتهم في مناطق الفراغ ـ أو النقاط الضعيفة، وتجنب المعركة التصادمية، هو في مصلحتهم. ولـذا تميز الصراع بالمسيرات الطويلة والهجمات العنيفة، والانسحاب السريع. وكان كل طرف يحقق كسباً في منطقة من المناطق، أو في إمارة من الامارات، ليخسر ـ عـن طيبة خاطر ـ في مناطق أخرى. ولهذا تداخلت الحدود ـ كتداخل أسنان المشط ـ وبرزت القلاع والحصون على خطوط غير منتظمة. إلا أنها ذات أهمية طبوغرافية ـ جيواستراتيجية حاسمة.

لقد ظهرت للمسلمين فائدة التعامل مع جبهة الفرنج على أنها جبهة واحدة في مناسبات كثيرة، كان أولها وأوضحها عندما توجهت قوات المسلمين الى مصر. ففي المرات الثلاث ـ أو الحملات الثلاث ـ واجه أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ـ ثقل قوات الفرنج المتفوقة على أرض مصر. فما كان من نور الدين زنكي إلا أن قام بهجمات ضخمة هدد فيها امارات الفرنج ومملكتهم في القدس تهديداً خطيراً مما أرغمهم على الانسحاب من مصر وتخفيف الضغط عن قوات المسلمين فيها. وحدث مثل ذلك أيضاً أثناء حملة ملـك فـرنسـا ـ لـويس التـاسـع ـ على دميـاط والمنصورة. وتكررت هذه الظاهرة. مما أرغم الفرنج على الاحتفاظ بقوات كافية في قلاعهم وحصونهم ومدنهم، للدفاع عنها وحمايتها، الأمر الذي أدى بالتالي إلى حرمان الفرنج من قدرتهم الحركية، ووضع حداً لحرية عملهم العسكري، وبهذا صار باستطاعة المسلمين حشد أكبر قدر من قواتهم للاستيلاء على الهدف الذي يريدون، وإعادة فتح القلعة والحصن الذي يرغبون ويصممون. وتحولت بذلك كافة مراكز الفرنج القوية إلى نقاط ضعيفة، مما ساعد على إعادة فتحها وطرد الفرنج منها.

يظهر ذلك بوضوح مدى التطور الكبير، والتعقيد الشديد الذي بلغه فن الحرب الإسلامي، أيام الحروب الصليبية. ولم يكن هذا التطور وذاك التعقيد مقتصراً على المفاهيم أو الأسس الاستراتيجية، وإدارة الحرب، وإنما كان شاملاً

لفن العمليات وحتى المستوى التعبوي ـ أو التكتيكي ـ. ولئن كان الفضل في هذا التكامل يعود الى المذهب العسكري الإسلامي الذي تحددت معالمه منذ الأيام الأولى لفتوح العرب المسلمين، فان الفضل في تطوره وارتقائه إنما يعود لقادة الحرب الكبار الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية من بين صفوف الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وذلك دونما انتقاص لجهود الحشود الهائلة من جند الله، المجاهدين في سبيله، والذين كان لتضحياتهم وصدق جهدهم وجهادهم ما ساعد على هذا التطور.

اضطلعت البحرية الإسلامية التي اتخذت من الموانيء المصرية قواعد لها، بدور كبير في الصراع ضد الفرنج الصليبيين. وكان من أهم الواجبات التي نفذتها:

١ ـ نقل القوات والامدادات للمدن الإسلامية الساحلية عند تعرضها للحصار.

٢ ـ احكام الحصار على مدن الفرنج الساحلية بالتعاون مع القوات البرية.

٣ ـ مهاجمة أساطيل الفرنج وقواعدهم في قبرص وعلى سواحل بلاد الشام.

٤ ـ التعرض لاساطيل الفرنج وسفنهم التجارية وقوافل امداداتهم البحرية.

٥ ـ مطاردة قوات الفرنج في البحر الأحمر ـ مثل مطاردتها لقوات رينالد شاتيون الذي حاول غزو الحجاز ـ.

٦ ـ التعاون مع القوات البرية في عمليات خاصة (مثل حصار القوات الفرنسية في دمياط).

ومن الواضح أن هذه الواجبات مماثلة لواجبات القوات البرية. ومتكاملة معها. فهي بذلك النموذج البسيط لما هي واجبات القوات في الأزمنة الحديثة، مما يؤكد مرة أخرى التطور الكبير الذي بلغه فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية. ولقد تميزت الأعمال البحرية الإسلامية بالروح الهجومية، مثلها كمثل الأعمال البرية. كما اشتركت مع القوات البرية. بميزة امتلاك القدرة الحركية العالية واستخدام هذه القدرة في القتال لتحقيق هدف الحرب. ولقد برزت في هذا المضمار أسماء عدد من أمراء البحر، لعل أوفرهم خطأ هو (حسام الدين لؤلؤ) الذي اقترن اسمه بالأعمال القتالية الكبرى في أيام صلاح الدين الأيوبي، والذي أمكن له تحقيق انتصارات حاسمة

على القوات البحرية للفرنج. ولقد تعرضت البحرية الإسلامية لكوارث ونكبات بغير أنها كانت قادرة باستمرار على استعادة قدرتها وامكاناتها بسرعة، واستئناف دورها في حمل راية الجهاد في سبيل الله، حيثما تستطيع أن تحملها مياه البحار.

لقد كان من أهم الشروط الواجب توافرها في مثل هذه الحرب المعقدة. على مستوى ادارة الحرب، هو تأمين شبكة دقيقة من الاتصالات لتأمين تنسيق التعاون بين القوات البرية المنتشرة على مساحات واسعة، وللحصول على المعلومات وارسال الأوامر بسرعة، وتنظيم التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية. ولقد أظهر نور الدين محمود - زنكي - اهتماماً كبيراً في تنظيم شبكة الحمام الزاجل (الهوادي). مع تنظيم شبكة السعاة في كافة البلاد. فبات باستطاعة القائد الحصول على المعلومات واتخاذ القرارات وتنفيذها في الوقت المناسب. ولقد ظهرت فائدة هذا التنظيم في مناسبات كثيرة حيث كانت القوات البرية والقوات البحرية تعمل بتنسيق تام وتعاون مطلق، رغم تباعد المسافات، ورغم اختلاف القيادات وتباين أساليب عمل قواتها. ويعتبر ذلك برهاناً غير مباشر لما كانت عليه القيادات من التفاهم والانسجام والاخلاص في العمل.

لم يكن ذلك الانسجام والتعاون ليتحقق على كل حال، لو لم تتوافر للقوات الإسلامية فضيلة (الاستعداد الدائم للقتال) إذ كثيراً ما كان الفرنج يقررون القيام بهجوم كبير في الوقت الذي يكون فيه القائد الأعلى (السلطان أو الملك) قد حرف جيوشه إلى بلادها بعد موسم قتالي صعب وبعد غربة طويلة عن الأهل والأوطان واستعداداً لموسم القتال التالي وعندها يضطر القائد الأعلى لاستدعاء جيوش المدن والأقاليم على عجل، فتتقدم هذه الجيوش سراعاً لتصل في الزمان المحدد الى المكان المعين كمنطقة حشد، لتبدأ دورة قتالية جديدة. وكثيراً ما حدث أيضاً أن وصلت قوات دعم كبيرة للفرنج التي لم تكن تنتظر طويلاً على الساحل لتبادر بالهجوم. وفي أحيان أخرى كانت جيوش المسلمين، تصاب بانتكاسة، أو تجد نفسها أمام موقف يتطلب إجراء حشد أكبر للقوى. مما يتطلب بالضرورة استنفار جيوش المسلمين التي برهنت الأحداث أنها كانت على استعداد دائم للقتال ولتلبية كل نداء إلى حيث يتطلب

الموقف. ولعل الظاهرة المثيرة في ذلك كله هو أن استدعاء الجيوش العاجل، كان يأتي غالباً في أعقاب حدث هام، أو مذبحة يتعرض لها المسلمون، وكان من طبيعة الأمور ـ وفي ذاك العصر خاصة بحسب الشواهد التاريخية المتوافرة، ومنها تجارب الحروب الصليبية ذاتها ـ أن تظهر الجيوش نوعاً من التقاعس أو التكاسل، في حين كان موقف الجيوش الإسلامية مناقضاً، إذ كانت النكبات والكوارث تزيد من مشاعر الغضب، وتحفز على المزيد من خوض غمار القتال. وقد يكون من الصعب تفسير هذه الظاهرة بغير إرجاعها إلى موقعها من فن الحرب الإسلامي المستند في مرتكزاته وقواعده إلى الدين الإسلامي.

وكما كان دور الدين الإسلامي، ومذهبه العسكري، أساسياً وحاسماً في الاعداد القتالي للقوات، فقد كان دوره مماثلاً في تنظيم العلاقة بين قادة المسلمين وقواتهم؛ ولقد كان أمراء الزنكيين والأيوبيين والمماليك، نسيجاً واحداً رغم تباين قبائلهم واختلاف شعوبهم وتباعد مواطنهم وظروف نشوئهم وبروزهم على سطح الأحداث. فقد كانوا جميعاً نماذج رائعة في التجرد والاخلاص والتضحية وسواها من الفضائل القيادية والفضائل الحربية، إنها لا تختلف أبداً عن نماذج السلف الصالح من أمثال خالد ابن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي وسواهم ممن لا يطالهم حصر. ولا يجمعهم إحصاء. فكانت علاقتهم بجندهم قائمة على العمل المشترك للهدف الواحد، ولهذا لم تكن هذه العلاقة هي علاقة مصلحة ـ ولو أنه كان من مصلحة الأمراء وجندهم إقامة مثل هذه العلاقة والمحافظة عليها ـ بل كانت علاقة نبيلة لارتباطها بالهدف النبيل للحرب ذاتها. وهو الهدف الذي كان يضمن التلاحم بين جماهير المسلمين وبين جندهم وقيادتهم التي تمثل القيادة السياسية والقيادة العسكرية ـ بمفهوم الأزمنة الحديثة ـ. وكان دور القيادة أيضاً هو تنسيق الجهد العسكري مع جهد القاعدة الواسعة لجماهير المسلمين.

ما من حاجة للحديث عن مكان القائد في المعركة أيام الحروب الصليبية، إذ أن مكانه بقي ثابتاً ولم يتغير. فهو مع المقدمة والطلائع في التقدم، وهو مع المؤخرة ـ الساقة ـ أثناء التراجع والانسحاب. وهو في القلب عند اتخاذ النظام القتالي

(الصف). وهو مع أحد الجناحين بحسب ما يتطلبه الموقف، إنه دائماً يستأثر بمواطن الخطر، ولم يكن ذاك حباً بالخطر والمجازفة، وإنما لاتخاذ القرار المناسب وتنفيذه مباشرة، في أشد مواطن الخطر الحاحاً، ولطالما أشفق أمراء المسلمين، وشيوخهم، على قائدهم الأعلى من استئثاره بمواطن الخطر، ولطالما التمسوا منه الاشفاق على المسلمين من مكروه ينزل بهم، إن أصابه مكروه. وغريب ما في الأمر أن الاجابة التي جاءت على لسان ذاك النفر من القادة الكبار:

«ومن أنا حتى يقال هذا، الله الذي حفظ الإسلام وأهله، هو الذي يتكفل بهم».

وكما كان موقعه في الحرب، كان موقفه أيضاً في الادارة والحكم، حيث كانت ممارسة هذه الادارة التنقل باستمرار، بين عاصمة وأخرى، وقرية وأخرى، لحث المسلمين على الجهاد، وتعبئة قواهم. والنظر في أمورهم، ومعالجة مشكلاتهم، وتأمين متطلباتهم على أسس الحق والعدالة وقواعد الشرع الإسلامي، مستعيناً في سلمه وحربه بكبار رجال الدين والفقهاء المخلصين والعلماء الصالحين.

لقد جاء الفرنج الصليبيين الى بلاد الشام، وظهروا على أنهم قوة مجهولة المعالم، مجهولة القوة، مجهولة الهدف، وتعامل المسلمون مع مجموعة من القوى المجهولة، فكانت معاركهم الأولى، رغم ما ظهر فيها من البطولات، ورغم ما تميزت به من المهارات والكفاءات القيادية إلا أنها كانت معارك استطلاع بالقوة - إذا ما جاز التعبير - هدفها التعرف على هذا المجهول، وتحديد النهج الأمثل للتعامل معه، فكانت تلك المعارك برهاناً على تفوق المسلمين في فن العمليات، وفي الأساليب التعبوية - التكتيكية - ثم أخذت ملامح الصراع أشكالها الواضحة على مستوى السياسة - الاستراتيجية. وكان الفضل في ذلك لجماهير المسلمين وقياداتهم على السواء. حيث كانت عيون المسلمين ترصد بدقة أعمال العدو، وتنظيماته، وقواته، ومواطن ضعفه وقوته. ثم تتناقل هذه المعرفة في وسط الجماهير وقياداتهم، مما أسهم في صياغة المفاهيم المشتركة للصراع، غير أن ذلك لا ينتقص من دور القيادات الإسلامية في تنظيم

شبكات العيون ـ الجاسوسية ـ التي كانت ترفد الامراء بفيض من المعلومات الدقيقة والتي كانت في كثير من الأحيان تستخلص من قلب مراكز القوى المعادية، ومن مقر قياداتهم. وكانت هذه المعرفة ـ للعدو ـ هي أساس كل تطور أحرزته المعركة الإسلامية، وهي أساس الارتقاء بفن الحرب الإسلامي الى المرتبة التي بلغها، والتي أرسلت بظلالها إلى الأزمنة الحديثة. فلا غرابة بعد هذا إن أصبحت معارك الحروب الصليبية موضع أبحاث كثيرة ـ معاصرة ـ. حيث يكتشف الباحثون في كل يوم آفاقاً جديدة لم يسبق ارتيادها، أو يخرجون بنتائج ودروس مستخلصة تغاير أو تتكامل مع ما سبقها من العبر والدروس.

٧ ـ التجربة التاريخية للحروب الصليبية.

ومضت أزمنة ودهور، والجدل مستمر بشأن المعركة الإسلامية أيام الحروب الصليبية. وكثيراً ما يتركز الجدل على (فن الحرب) و (إدارة الحرب) و (فن العمليات) و (الأساليب التعبوية ـ التكتيكية). وما كان يقابلها لدى الفرنج. وقد يكون من طبيعة الأمور أن تتباين وجهات النظر، وأن تختلف الآراء. فهل كان انتصار المسلمين على الفرنج هو انتصار للهجوم على الدفاع؟ وهل كان انتصار المسلمين هو تأكيد على انعدام دور القلاع والتحصينات ونذيراً بزوال أهميتها؟ وهل انتصر المسلمون بفضل وحدتهم السياسية (الدينية) بينما كان ضعف هذه الوحدة في القيادة السياسية للفرنج هو سبب فشلهم وهل كان ما توافر للجيوش الإسلامية من قيادات تميزت بكفاءتها القيادية العالية هو العامل فيما أحرزه المسلمون من انتصارات؟ وهل كان اختلاف الطبيعة الجغرافية ـ الطبوغرافية ـ بين مسرح العمليات الأوروبي، ومسرح العمليات في بلاد الشام، هو السبب فيما أحرزه المسلمون من انتصارات على الفرنج انتهت بالنصر الكبير في طرد الفرنج من بلاد الشام؟ هذه التساؤلات، وأمثالها كثير ـ لا يدخل تحت حصر ـ هي بعض ما تضمنته أبحاث الغربيين. وفي الحقيقة فان استعراضها يظهر أنها جميعها جزئيات في مسألة أشد عمقاً، وأكثر اتساعاً. وهذه المسألة تكمن في (مفهوم الحرب ذاتها) وفي (عدالة قضيتها). غير أنه قد يكون من المناسب التعرض لبعض ما جاء فيها. وأولها على سبيل المثال: العلاقة بين الهجوم والدفاع، وأي من الاثنين هو الشكل الأقوى في الحرب؟ لقد جاء الفرنج من كل أرجاء الغرب، واجتاحوا بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها، فهل كانت مسيرتهم الطويلة واجتياحهم لبلاد الشام هو عملية دفاعية؟ من الصعب القبول بهذه المقولة، واعتبار أن التزام الفرنج بالدفاع هو الذي جعلهم يخسرون معاركهم وحروبهم، إذ أن الفرنج استمروا في ممارسة الأعمال الهجومية حتى المرحلة الأخيرة من وجودهم على أرض الشام. ولقد كانت

هجماتهم المتتالية على مصر، ثم هجماتهم السنوية - الدورية - على بلاد المسلمين في الشام، إنما هو برهان ثابت على امتلاكهم للقدرة الحركية العالية، واستخدام هذه كثير لا يدخل تحت مصر هي بعض ما تضمنته أي رد الغربيين. وفي الحقيقة فإن اشواطها يظهر أنها جميعها جزئيات في مسألة أشد عمقاً، وأكثر اتساعاً. وهذه المسألة القدرة في الأعمال الهجومية. ولكن المسلمين تفوقوا على الفرنج في مجال السياسة الاستراتيجية كما تفوقوا عليهم في فن العمليات، فحرموهم من حرية عملهم العسكري، واستنزفوا قدرتهم، فأمكن لهم الانتصار عليهم. أما الاعتماد على قصة القلاع والتحصينات التي استخدمها الفرنج في بلاد الشام، وأقاموا فيها، واعتبارها شاهداً على نهج الفرنج الدفاعي، فهي قصة تفتقر للدقة والواقعية، إذ برهن عرض الأحداث أن هذه القلاع والتحصينات ما كانت - بالنسبة للفرنج - إلا القواعد المتقدمة للعدوان والتوسع على حساب بلاد المسلمين. أما عن قصة نجاح المسلمين في إعادة فتح القلاع والحصون - دفعة واحدة - فهي ليست قصة انتصار الهجوم على الدفاع - ولو أن الهجوم هو الذي ينتصر عادة على الدفاع - بقدر ما هي انتصار التفوق الاستراتيجي، على الضعف الاستراتيجي. إذ أصبح باستطاعة المسلمين وقد امتلكوا هذا التفوق، أن يحشدوا القوى والوسائط الكافية، وأن يعيدوا فتح القلاع والحصون بعد حرمانها من كل امكانات الدعم الخارجي.

وهنا لا بد من القول أيضاً أن المسلمين قد أظهروا تفوقاً واضحاً في التعامل مع القلاع والحصون، وفي استخدام وسائل الحصار (المنجنيقات والأبراج وسواها) وفي أعمال النقب والتفجير. ولكن ذلك كله لم يكن ليضمن تحقيق مثل تلك الانتصارات الرائعة، بمثل تلك التضحيات البسيطة نسبياً - أو المقبولة -. لو لم يمتلك المسلمون ميزة التفوق الاستراتيجي - على نحو ما سبق ذكره -. أما عن القلاع ودورها التاريخي في الدفاع، فهو أمر لا يقبل الجدل أو المناقشة، فالمعروف أن الدفاع والهجوم هما مرحلتان متكاملتان، لا غنى لأحداهما عن الأخرى، وقد كان دور القلاع والتحصينات في الماضي مماثلاً تماماً لما هو عليه دور التحصينات الدفاعية في الأزمنة الحديثة، وقد عرف المسلمون ذلك وأتقنوه، كما عرفه الفرنج أيضاً واستخدموه، بدلالة إقامة القلاع والحصون في مناطق الحدود بين دول أوروبا، لاسيما في الفترة التي

أعقبت الحروب الصليبية، حيث أخذ الأوروبيون عن المسلمين كثيراً من فن بناء القلاع وتحصينها وتزيينها واستمر ذلك حتى استخدام البارود في المدفعية فانتقلت القلاع والتحصينات من الذرى والقمم لتأخذ مكانها في باطن الأرض. وجاءت النار النووية لتزيد من عمق هذه التحصينات بعيداً عن ظاهر الأرض.

يمكن الانتقال بعدئـذ إلى مـا قيـل عـن تفـوق المسلمين في وحـدتهم السيـاسيـة ـ الدينية ـ رغم ما وقع بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وصلت في مرات كثيرة الى الحرب. فتلك حقيقة لا تقبل الجدل، إلا أنه لا بد من التوقف مرة أخرى عند بعض ظواهر هذه الوحدة وعوامل تمزقها.

لقد كانت الوحدة بين أقطار العالم الإسلامي هي الحالة الطبيعية التي فرضها الإسلام في تنظيم المجتمع الإسلامي، غير أن هذه الوحدة كانت تتعرض بصورة استثنائية للتمزق ـ لعامل شخصي أو مصلحي عارض ـ فكان يتم قتال الفئة الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله ـ القاضي بالطاعة والجماعة، وتبعاً لذلك كان هذا الذي يخرج عن الجماعة، أو ذاك الذي يقاتل لوحدة الجماعة يحتكمون الى المسلمين، وكانت موازين هذا الاحتكام هي العمل لخير الإسلام والمسلمين. فكان المتخاصمون كل يبذل جهداً أكبر لما فيه هذا الخير، ولما تقتضيه مصلحة المسلمين ومن هنا كانت الخصومات والمنافسات سرعان ما تنجلي عن وحدة اتفاق، نظراً لوحدة الهدف. وقد حدث كثيراً أن استعان بعض أمراء المسلمين بالفرنج، واستنصروا بهم على اخوانهم المسلمين، ثم لم يلبثوا أن سارعوا للندم والتوبة، فأعادوا تقويم مواقفهم، وارتضوا بحكم الطاعة والجماعة. وقد حدثت أمثولات مشابهة لدى الفرنج، كما كان موقف كونت طرابلس ـ ريموند ـ قبل معركة حطين، غير أنها كانت حالة استثنائية بينما كان النقيض هو الحالة الاستثنائية عند المسلمين الذين كانت الطاعة والجماعة هي أساس تنظيم مجتمعهم وحياتهم.

وقد يكون من طبيعة الأمور في مجتمع هذه سماته، وهذه فضائله، وقد جابه التحديات الثقيلة، أن ينجب أجيالاً من القادة الذين توافرت لهم كفاءة قيادية عالية ـ على مختلف المستويات القيادية ـ مثل ذلك كمثل ما حدث في عهد النبوة، عندما

أنجب المجتمع العربي الإسلامي أجيالاً من القادة، لم تعرف الدنيا نظيراً لهم ولا مثيلاً في تجردهم واخلاصهم وكفاءتهم. وتقود هذه المقارنة الى حقيقة ثابتة ومعروفة - بالنسبة للمسلمين على الأقل - وهي أن الفضل في تكوين مثل هذه الفئة القيادية، إنما يعود الى مدرسة الإسلام الدينية، التي صاغت للمسلمين مذهبهم العسكري، وحددت لهم نهجهم الواضح في أمور سلمهم وحربهم.

لقد زعم الباحثون والمؤرخون الغربيون - فيما زعموه - أن فشل الحروب الصليبية، إنما يعود في قسم كبير منه لاختلاف الطبيعة الجغرافية والطبوغرافية، حيث كانت السهول الفسيحة، والصحارى الممتدة، تسمح للمسلمين باظهار تفوقهم في حرب الحركة. بينما اعتاد المقاتل الصليبي على إظهار تفوقه في المناطق الجبلية ومناطق الغابات التي تسمح بالاختفاء والتمويه وتنظيم الدفاع، وتحقيق الهجوم المباغت. وقد لا تكون هناك حاجة للرد على مثل هذه المزاعم. فلقد خاض العرب المسلمون حروبهم، وانطلقوا من صحراء الجزيرة إلى رحاب الدنيا التي ضمت السهول والجبال، المناطق الحارة والمناطق الباردة، الغابات والمناطق الجرداء، واستطاعوا التعامل مع البيئات الطبوغرافية المختلفة والأجواء المناخية المتباينة، فسارت جيوشهم عبر الصحارى المقفرة الى الغابات المكتظة ومن السهول الرحبة الى الجبال الوعرة. وقد جاء الخلف من المسلمين فساروا على هدى أسلافهم، ولم تشكل لا الموانع الطبيعية ولا الظروف الجوية عوائق أمام مسيرتهم الظافرة. ومقابل ذلك، فقد جاء الفرنج الى بلاد الشام، واجتاحوها وأقاموا إماراتهم على أرضها، وبذلك أكدوا أن الأحوال الجوية واختلاف الطبيعة الجغرافية، لم تشكل عائقاً أمامهم. واستقر الفرنج في بلاد الشام زهاء مئتي عام. وتوالدت أجيال منهم على أرض بلاد الشام، فصاروا من حيث التكيف مع المناخ والتكيف مع الطبيعة الجيواستراتيجية مثلهم كمثل المسلمين سواء بسواء. وبالاضافة إلى ذلك، فان الامارات التي أقاموا حكمهم فيها: (الرهاء، انطاكية، طرابلس، صيدا، القدس) تشابه في كثير من ملامحها بعض أقاليم أوروبا، بجبالها وغاباتها، بأمطارها واعتدال مناخها، بأنهارها ومياهها. ولا ريب أن العامل الجغرافي، وعامل المناخ، من العوامل التي تلقي بثقلها في تحديد مجريات الأعمال القتالية، لاسيما في الأزمنة الغابرة، غير أنها هنا لم تكن ذات ثقل كبير، وإذا كان لها شيء من الثقل، فهو ثقل يقع على

عاتق الأطراف المتحاربة جميعها، وليس على عاتق طرف دون الآخرين.

يمكن بعد ذلك تجاوز كل ما يحتمل قوله من الحجج والذرائع لتعليل فشل الحملات الصليبية القديمة، من وجهة نظر الغربيين، ذلك أن تلك الحجج والذرائع جميعها تتجاوز حقيقة أساسية وثابتة، وهي أن الإسلام وجنده كانوا أقوى من الفرنج في عقيدتهم الدينية، وفي مذهبهم العسكري، وهذا هو سبب انتصارهم. وأما ما قيل بعدئذ من الحجج، وما يحتمل أيضاً قوله، فهو ليس إلا تمسك بالظواهر، وإلا إمعاناً في التضليل والخداع - خداع الآخرين وليس خداع الذات - إذ أن أصحاب تلك التفاسير يعرفون يقيناً السبب الحقيقي لانتصار الإسلام وأهله.

لقد زعم كثير من المؤرخين والباحثين الغربيين أنهم لم يجدوا في المذهب العسكري الإسلامي، وفي فن الحرب الإسلامي ما يمكن تعلمه، بينما وجدوا في كثير من العلوم والفنون والآداب ما يمكن تعلمه. وقد يكون ذلك صحيحاً في مجال فن الحرب، إذ أن التعلم يتطلب استعداداً مسبقاً للتعلم، كما يتطلب تطوراً فكرياً مناسباً. ويظهر أن الفرنج في تلك الحقبة كانوا يفتقرون لمثل ذاك الاستعداد، فاستعصى عليهم اكتساب العلم والمعرفة، واكتفوا باكتساب الظواهر فقط، وقد جاءت تفسيراتهم وتعليلاتهم بعدئذ موجهة لهذه الظواهر. فماذا يتعلمون من المسلمين وهم الذين جاؤوا لمحاربتهم؟ - عقيدتهم الدينية ومذهبهم العسكري المستند إليها؟ أم فضائل المسلمين الحربية والمستندة الى شريعة الله؟ أم مؤهلات القيادة الإسلامية والتي حدد الإسلام قواعدها ومرتكزاتها؟. وإذن فقد كان إعراض الفرنج عن التعلم ليس جهلاً أو تجاهلاً، وإنما كان إمعاناً في الضلال وإيغالاً في الجحود والانكار. ولم يكن باستطاعة المسلمين بداهة فرض علومهم العسكرية وفق الحرب المتوافر لهم على الفرنج، وهم على مثل هذه الحالة من التعصب الأعمى والانغلاق الفكري.

قام الفرنج الصليبيون بعد أن تم طردهم من بلاد الشام بتنظيم حملة صليبية جديدة، انطلقت من قبرص، وهاجمت الاسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) ونهبتها ودمرتها. وقد جاء في تاريخ الحروب الصليبية (٣/٧٤٦) ما يلي:

«احتفل الصليبيون بانتصارهم، بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها، وما وقع

من الحرب المقدسة التي استمرت نحو مئتي وخمسين عاماً، لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية. فما أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ١٠٩٩ م. وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م) ولم يبلغ المسلمون هذه القسوة والوحشية عند استيلائهم على أنطاكية أو عكا».

والمعروف أيضاً أن الصليبيين لم يتوقفوا عن الكيد للإسلام والمسلمين، بما عمر قلوبهم من الحقد الأسود والكراهية البغيضة ضد الإسلام وأهله. ووقع على عاتق الاتراك العثمانيين عبء مواجهة الحملات الصليبية ونقلها إلى أوروبا. وكان منها الحملة الشهيرة باسم حملة نيقوبوليس (سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م). والتي جاء في المصدر السابق ذاته (٧٦٤/٣) بصددها ما يلي: «وصلت الجيوش الغربية الى بودا - بست، وقد ضمت ما زاد على مئة ألف عسكري... ولم يكن السلطان العثماني بايزيد من جانبه متواكلاً، فعندما بلغته الانباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجر، كان يحاصر القسطنطينية، فبادر بايزيد على الفور الى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر، وتوجه بهم صوب الشمال، الى نهر الدانوب. وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل.

على أن فرسان الغرب لم يتعلموا شيئاً من تجربة استمرت ثلاثة قرون، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في - بودا - نصح ملك المجر سيجسموند - باتخاذ خطة الدفاع إذ كان يعلم ما عليه قوة خصمه. فاعتقد أنه لمن الخير أن يستدرجوا الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها... غير أن حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير، فيتغلبون على الأتراك، وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الأناضول، الى بلاد الشام، والى القدس ذاتها. وكان العساكر من العنف ما حمل سيجسموند على الاذعان».

والمعروف أن هذه الحملة الضخمة التي اعتبرت أضخم حملة حشدها الغرب للقضاء على المسلمين، قد تحطمت وتمزقت عندما وصلت الى نيقوبوليس واصطدمت بقوات الاتراك المسلمين، الذين نظمهم السلطان بايزيد تنظيماً رائعاً، بذات الطريقة التي جرت عليها احداث معارك المسلمين في حطين وعين جالوت وسواها.

هكذا لم يتعلم الفرنج الصليبيين شيئاً لا من فضائل المسلمين، ولا من طرائقهم القتالية. وأساليبهم التعبوية - التكتيكية -. وقد يكون من غير المهم أن يتعلم الفرنج الصليبيون شيئاً من المسلمين، بل لعله من الخير للمسلمين ألا يتعلموا، ولكن ما بال المسلمين يهجرون تجربتهم الذاتية، وما ضمته من دروس وعظات لازالت تحتفظ بكل فائدتها وقيمتها وأهميتها؟ أم تراهم صرفوا عنها - بتخطيط اعدائهم وتنفيذه - فانصرفوا طائعين مختارين للأخذ بما يضرهم ولا ما ينفعهم بشأنهم في هذا كمثل شأنهم في سائر أمور دينهم ودنياهم؟.

وتبقى التجربة التاريخية للحروب الصليبية، محتفظة بالكثير الكثير من قيمتها وفائدتها، لا بالنسبة لفن الحرب فقط، وإنما أيضاً بما رافق هذه الحرب من تطورات على مستوى السياسة الاستراتيجية، وعلى مستوى اقتصاد الحرب، وعلى المستوى الاجتماعي، وحتى على المستوى السكاني - الديموغرافي -.

لقد تميزت الحروب الحديثة بتعقيدها الكبير، على كافة الصعد والمستويات، بداية من إدارة الحرب ونهاية بتنفيذ أعمالها القتالية على مستوى الوحدات الصغرى. واختلطت فيها أعمال الهجوم بالتنظيم الدفاعي، واشتبكت فيها عمليات القوات النظامية بعمليات الانصار والعصابات (الحروب الثورية). وقد أظهر عرض الأعمال القتالية في الحروب الصليبية القديمة أنها كانت على مثل هذا المستوى من التعقيد. وليست هذه هي الصلة أو الرابطة الوحيدة التي تصل تجربة الماضي بحروب الأزمنة الحديثة، بل هناك الكثير من الظواهر المشتركة: وهل هناك ثمة اختلاف كبير بين توصية - ريتشارد قلب الأسد. بتوجيه الحملات الصليبية الى مصر لعزلها عن عالمها الإسلامي. وبين المحاولات الحديثة للحملات الصليبية الراهنة لعزل مصر عن عالمها العربي - الإسلامي؟. وهل تختلف المحاولات الصليبية القديمة عن الحملة الحديثة من حيث إصرارها على الاحتفاظ بالقدس وإبقائها تحت حكم أعداء الإسلام والمسلمين؟. ثم هل يختلف تعاون المغول - التتار مع الفرنج في الأزمنة القديمة، رغم ما بين المعسكرين المتناقضين، عن تعاون مراكز القوى المعادية للإسلام وأهله في الأزمنة الحديثة؟

٨ - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

ما أشد ضراوة تلك الحروب والحملات الصليبية التي شنها الغرب على الإسلام والمسلمين. فبينما كان المسلمون على أرض الأندلس يخوضون حرباً لا هوادة فيها، كان إخوانهم في المغرب العربي - الإسلامي وفي جزائر البحر الأبيض المتوسط - ينازعون الفرنج الصليبيين ويقاتلوهم على كل شبر، فيما كان المسلمون في بلاد الشام يجابهون الفرنج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق، وكلهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ونهض المسلمون في كل مكان، وقد عرفوا أن الله متم نوره ولو كره الكافرون. وما كان عليهم إلا أن ينصروا الله حتى يتم الله وعده وينصر عباده. وصدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله وعده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

لقد تداعت الدنيا على المسلمين، وضاقت على المسلمين بما رحبت، وفي وسط ظلمة الليل القاتمة، حيث زلزلت الأرض زلزالها، وأذهل الروع كل ذات حمل عن حملها، ما وهن المسلمون ولا ضعفوا، ما اهتز منهم اليقين، ولا ضاع منهم الحجى، ولا ذهب عنهم الادراك والوعي، وكان ذلك من أروع ما أبرزته التجربة التاريخية. للحروب الصليبية القديمة. فعندما وصلت حملة الفرنج الصليبيين الى دمياط، ظن الناس - من المسلمين وغير المسلمين - أن الدنيا قد مادت بهم أو كادت - ووصلت القلوب الى الحناجر، فماذا سيكون من أمر المسلمين وقد أوشك الفرنج على امتلاك مصر فيما كانت حشود المغول التتار تدق بعنف أبواب العراق بعد أن اجتاحت كل أقاليم المشرق العربي - الإسلامي.

وأشرقت ظلمة الليل بانتصار المسلمين في المنصورة. وانزاح الهم عن صدور المسلمين. ومرة أخرى. أدلهمت ظلمة الليل، فقد اجتاح المغول التتار عاصمة الإسلام

والمسلمين ـ بغداد ـ. وأزالوا الخلافة أساس وحدة الطاعة والجماعة ـ ومضوا في زحفهم الظافر فاجتاحوا بلاد الشام، ودقوا أبواب مصر بقوة وعنف. وكان أمراً غريباً أن يقدم المظفر قطوز على شنق رسل هولاكو الذين جاؤوا ـ وهم يتوقعون استلام وثيقة استسلام مصر. فأي قوة هذه التي اعتمدها قطوز وهو يرفض التحدي الذي فرضه عليه المغول التتار؟ إنها قوة الايمان، لا أكثر ولا أقل. وبروح الايمان هذه، قاد قطوز جيشه الى فلسطين، وتبددت الظلمة مرة أخرى، وأشرق الضوء الباهر من عين جالوت، فأعاد لدينا المسلمين بهجتها وصفاءها.

لم تكن الحملات الصليبية التي عرفها المسلمون في بلاد الشام إلا فصلاً محدداً من فصول الصراع المرير الذي خاضه المسلمون في تلك الحقبة التاريخية، فبينما كان المسلمون في الشام يمارسون تجاربهم القتالية مع الفرنج الصليبيين، كان إخوانهم في أقصى المشرق يمارسون تجارب مماثلة مع المغول التتار، ومع بلاد الهند، حيث استمر الصراع عشرات السنين، قبل أن يتمكن المغول من الوصول الى بلاد العراق والشام. ولم تكن فصول هذا الصراع أقل عنفاً ولا أقل إثارة من تلك التي عرفها الفرنج في بلاد الشام.

ومن الشمال، من أقصى الشمال، انحدر الكرج في حملات سنوية أو دورية منتظمة للاغارة على بلاد المسلمين في بلاد فارس، وفي أذربيجان، وفي أي بلاد تصله قواتهم، وكان على المسلمين هناك أن يخوضوا حرباً ضارية ضد الغزو والأعمال العدوانية المتكررة.

هكذا اشغل كل اقليم من أقاليم المسلمين بهمومه وبمتاعبه، وبمشكلاته، وحمل المسلمون السلاح في كل مكان، ضد من يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وبأيديهم وبسلاحهم وبكل ما يستطيعون حشده من أجهزة القتل والابادة.

وكأن ذلك كله لم يكن كافياً، وكأن كل مسلم يحتاج كل قوى الدنيا حتى تنال منه. وكأن كل مسلم حقاً أقوى من كل قوى الشر والعدوان ـ ولم يطاله إلا ما كتبه الله له. فانتصر في كل مكان، وكان كل نصر على أي جبهة من الجبهات هو انتصار

لكافة المسلمين في كل مكان، ولعل أكبر انتصار حققه المسلمون هو انتصارهم على أعداء الداخل، الذين شكلوا أعظم ابتلاء على أمة المسلمين، وشعوبها المختلفة.

كان الباطنية ـ أو الاسماعيلية ـ قد نشروا شبكاتهم المنظمة في جميع بلاد المسلمين، وأفادوا من انصراف المسلمين لقتال أعداء الخارج، ليشهروا سيوفهم في ظهور المسلمين. ونال المسلمين منهم بلاء عظيم، فقد وجهوا حقدهم الدفين ضد شيوخ الإسلام ـ السنة ـ وعلمائهم وامرائهم وقادتهم. وقتلوا خيار المسلمين غدراً. ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل الخطر الداخلي، فوجهوا ما يستطيعونه من جهد للقضاء على أعداء الداخل. ولكن لم يكن لديهم لا القوى، ولا الظروف الزمنية، ولا الامكانات، لاستئصال شأفتهم وتدميرهم، فاستشاط شرهم وقويت شوكتهم، وعم بلاؤهم، وظن المسلمون أنه لا خلاص منهم، وأثناء ذلك كان هؤلاء يتعرضون لضغوط داخلية وخارجية، فهم مسلمون في اعتقادهم وهم حرب على المسلمين في واقعهم وحقيقتهم، وإذ هم وصلوا إلى ما يريدونه، وجدوا أنهم في ضلال بعيد، مما حمل زعيمهم على حمل طائفته للعودة للإسلام (سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م) وهو ما ورد في التاريخ بالنص التالي: «أظهر الإسماعيلية، ومقدمهم جلال الدين من سلالة حسن بن الصباح، الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها. وأمر بإقامة الصلوات، وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام. وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج، فأكرمت ببغداد اكراماً عظيماً، وكذلك بطريق مكة». أما الضغوط الخارجية، فكانت الخضوع للطوائف الدينية للفرنج (الداوية والاسبتارية) ودفع الاتاوة والجزية لها. وعداء المغول التتار. وقد أدى ذلك في النهاية الى تدمير هذه الطائفة تدميراً مذهلاً على أيدي المغول ـ التتار، مما أرغمهم في النهاية على العمل تحت راية الإسلام والمسلمين. فكان شأنهم كشأن الطوائف الدينية التي أقامها ونضمها الفرنج للكيد للمسلمين. ثم ما لبثوا أن دمروها. ويعتبر ذلك بدوره تجربة تاريخية مثيرة. إذ أن قيام الكيانات المستقلة بقوة السلاح، والعنف، والتطرف، لن يحمل إلا على العنف المضاد والمزيد من التطرف. مما يؤدي بالتالي إلى تدمير أعداء الداخل الذين يريدون الخروج على الجماعة وقهرها بقوة الارهاب.

كيف استطاعت الأمة الإسلامية أن تنتصر على أعداء الداخل وأعداء الخارج؟

كيف استطاع المسلمون الانتصار على ذاتهم وعلى أعدائهم؟.

كيف استطاع المسلمون تجاوز نقاط ضعفهم، والافادة من مواقع قوتهم؟.

ذلك ليس سرهم، وإنما هو سر الإسلام العظيم، الذي انتصر به المسلمون على أنفسهم، وعلى أعدائهم، فنصرهم الله على ذواتهم وعلى أعدائهم.

لم يكن طريق الانتصار سهلاً، فكم كان حجم جيوش الاعداء التي حاولت تدمير الإسلام وأهله؟ قد يكون من المؤسف حقاً عدم توافر بيانات دقيقة عن عدد الجيوش أو الحملات الضخمة التي غزت بلاد الإسلام. ولكنها كانت بالتأكيد أكبر عدداً وأوفر عتاداً مما كان لدى المسلمين. ورغم ذلك فقد نجح المسلمون في القضاء على كل تهديد داخلي وخارجي.

لقد عرف كل مسلم، وكل بلد اسلامي، كبر أو صغر، أنه لا حصن له إلا بالإسلام، فتحصن به وامتنع. وحمل كل مسلم راية الجهاد في سبيل الله، فكان فرض الجهاد هو الذي حفظ للإسلام ولأهله وجودهم.

لقد عملت هذه الحروب والتحديات على تبديل البنية السكانية ـ الديموغرافية ـ للمسلمين في بلاد الشام. فعندما جاء الفرنج الى بلاد الشام. كانت كثير من امارات المدن بيد العرب المسلمين ـ من أمثال بنو عمار في طرابلس وبنو منقذ في شيزر وبنو كنانة في مصر. فدمر الفرنج قوة العرب المسلمين، ولم يعد لهم وجود ولا ذكر، غير أن وجودهم وتأثيرهم بقي قوياً في التوجيه الديني وفي ممارسة القيادة على مستوى جماهير المسلمين. ولم يكن من المهم بالنسبة للعرب المسلمين ممارسة القيادة العليا، ولكن كان من المهم بالنسبة لهم هو انتصار الإسلام وأهله، وقد تحقق لهم ما أرادوه.

لقد كانت حرباً واحدة ذات هدف واحد رغم امتداد جبهتها الواسعة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. ولقد حاول بعض امراء المسلمين ـ مثل صلاح الدين الأيوبي ـ الحصول على دعم من ملوك المغرب والاندلس، معتبراً أن الجبهة الرئيسة

هي جبهة بلاد الشام، غير أن اتساع الحرب وضراوتها لم تترك مجالاً لأي قطر إسلامي، أن يدعم قطراً آخر، وجاء الإسلام لنصرة الجميع، فمن قلب المغول التتار، ظهر الإسلام وانتصر، ومن قلب الفرنج ظهر الإسلام وانتصر، إذ كانت شعوب الترك والتتار قد انسابت عبر سهوب اوروبا الشرقية لتشل حركة الفرنج. وظهرت العلاقة الثابتة بين انتصار الإسلام بأهله، وبين انتصار المسلمين بالإسلام. وحافظت هذه العلاقة على صحتها وعلى قيمتها، منذ ظهور الإسلام وحتى الأزمنة الحديثة.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجابهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخلية والخارجية، ويتطلع المسلمون الى العرب المسلمين الذين أصبحوا شتاتاً لا عرباً ولا مسلمين، وقد فقدوا الأرض التي يستندون إليها. وهل يمكن لنصر أن يتحقق بدون قاعدة؟ وأين هي هذه القاعدة؟ لطالما تعب الباحثون في بحثهم عن هذه الأرض في حضارة الغرب وفي عقائد الشرق فما وجدوها لا هنا ولا هناك، وكل يتمسك بما اعتقده أنه الأرض أو القاعدة التي يمكن الاستناد إليها، وبذلك ضاعت عن الأبصار أن هذه الأرض التي يزعمون أنها هي المناسبة، ماهي إلا جزء من الحرب الشاملة ضد الإسلام وأهله، ولكن لئن ضاعت هذه الرؤية عن البعض، فانها لم تغب عن أبصار معظم المسلمين ـ والعرب المسلمين بخاصة ـ مما أكدته شواهد لا نهاية لها. فهل تعيش الأمة العربية الإسلامية والشعوب الإسلامية مرحلة المخاض العسير في البحث عن صلاح الدين أو الظاهر بيبرس؟ يقيناً لا، وإنما بحثها هو لاعادة الفضائل والقيم التي حفظت للإسلام وأهله وجودهم، فلولا فرض الجهاد في سبيل الله، ما رفع كل مسلم حيثما كان سلاحه بحثاً عن إحد الحسنيين. ولولا البحث عن الطاعة والجماعة ما توحدت قوى المسلمين.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجابهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخلية والخارجية، وقد تنوعت طرائق هذه الحرب، وتطورت أساليبها، وتعقدت ظواهرها، غير أنها لازالت تحتفظ بجميع أهدافها. ولعل استعراض مسيرة الأحداث في النصف القرن الماضي كافية لاقناع كل ذي عينين ـ إذا ما أراد إمعان النظر في حقيقة الأمور ـ بالحاجة لإعادة تقويم كل ما حدث،

والانطلاق من جديد على قاعدة ما يسمى (بالأصالة الذاتية) والتي استخدمت بديلاً عن فضائل الإسلام ودين الإسلام، خوفاً أو ضعفاً من ذكر الإسلام وأهله. غير أن مسيرة الأحداث وتطوراتها سترغم كل معاند، وكل مكابر، بأنه لا سبيل غير سبيل الإسلام وتلك هي تجربة الحروب الصليبية التي بدأت ولما تصل إلى نهايتها. فقد توقفت الحملات الصليبية، ولا زالت الحرب المستمرة على أشدها. وتقدم هذه التجربة التاريخية الفذة معيناً لا ينضب وذخراً لا ينفذ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بسام العسلي

قراءات

القدس في يومين مشهودين

دخل الفرنج الصليبيون مدينة القدس يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. ولبثوا فيها اسبوعاً وهم يقتلون المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي - وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقره. ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء. وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم، أفطروا، فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفا بن عقيل وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن سماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلاساني، فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة. واختلف السلاطين الأتراك، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبو مظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرصة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي ... تواري حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم، يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضباً ... ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا ... فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

* * *

كان ذلك هو اليوم الأول ـ أما اليوم الثاني فكان يوم ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) حيث أعاد المسلمون فتح القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وتضمنت

قصة ذلك اليوم المشهود - كما وردت في التراث:

كان صلاح الدين قد أقام بظاهر عسقلان حتى فتحها، وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها، ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون، وأرسل الى مصر - بواسطة الحمام الزاجل - يستدعي اسطوله الذي سار فور وصول الاستدعاء، في جمع من المقاتلة بقيادة مقدم الاسطول الحاجب - حسام الدين لؤلؤ - وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقام الاسطول في البحر يقطع الطريق على الفرنج، كلما رأى لهم مركباً غنمه، وشانياً أخذه. وسار صلاح الدين عن عسقلان الى القدس. وكان بها البطرك المعظم عندهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبها أيضاً صاحب الرملة باليان ابن بيرزان وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك. وبها أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي وغيرها، فاحتشد في القدس كثير من الخلق يرون جميعاً أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون القدس ويأخذوها منهم، ويرون أن بذل نفوسهم وأموالهم وأولادهم هو بعض ما يجب عليهم من أجل الدفاع عن القدس وتحصينها، فعملوا خلال تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً. وصعدوا على سور القدس، بحدهم وحديدهم، مجتمعين على حفظها والدفاع عنها بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونها بحسب استطاعتهم، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منها والنزول عليها. ولما اقترب صلاح الدين منها، تقدم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر. فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه، فأهم المسلمين قتله، وفجعوا بفقده، وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلما نزلوا عليه، رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة ومن الضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله، لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، نحو باب عمود أو كنيسة صهيون. فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب، ونزلها، ونصب

تلك الليلة المنجنيقات، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها. ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون. وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم.

فانتقل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاص والعام. فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم. ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار، ليتمكن المسلمون من النقب، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس إلى صلاح الدين. فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان، امتنع من إجابتهم، وقال:

«لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها».

فلما رجع الرسل خائبين محرومين، أرسل ـ باليان بن بيرزان ـ وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده ورغب في الأمان وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس من ذلك قال له:

«أيها السلطان! اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله

تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، وظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم. وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً. ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع. ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير. ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً».

عاد صلاح الدين فاستشار أصحابه، فأجمعوا على إجابة الفرنج على طلبهم الى الأمان واستقر الاتفاق على أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير. فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً. فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه، أصبح مملوكاً. فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك.

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب. وكان يوماً مشهوداً. ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره.

ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم. فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة. واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبأ. ولو أديت فيه الأمانة، لملأ الخزائن وعم الناس. فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان. ولا عجب في ذلك، فقد اجتمع في القدس كل من في تلك النواحي من البلاد التي فتحها المسلمون. حتى امتلأت الطرق والكنائس بهم، وحتى صار الانسان لا يقدر أن يمشي - لشدة الزحام - ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار.

وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي. وأخذ أسيراً ستة عشر ألف ما بين رجل وامرأة وصبي. كما أن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالقدس، فيطلقهم ويأخذ قطيعتهم. وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها. واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل. وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به، هي ومن معها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم. فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها. وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها، كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتته وأقامت عنده. وأتته أيضاً امرأة صاحب الكرك، البرنس أرناط (أو رينالد شاتيون) وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته لك. فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه، فلم يطلق ولدها ولكن أطلق مالها ومن تبعها. وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة ـ القيامة ـ وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين. فقيل له ليأخذ ما معه، يقوي به المسلمين. فقال: «لا أغدر به». ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير. وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور.

كان الفرنج قد وضعوا على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون يوم الجمعة، تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره، المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً. وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً. فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها.

فلما ملك المسلمون البلد، وفارقه الكفار، أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها.

القديم. فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، فأعيد إلى الأول. وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس. ففعل ذلك أجمع. ولما كان الجمعة الأخرى ـ رابع شعبان ـ صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة.

وعندما أذن المؤذنون للصلاة، قبل الزوال، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال.

ولم يكن للمسجد خطيب معين، فأصدر السلطان صلاح الدين ـ المرسوم الصلاحي ـ وهو في قبة الصخرة أن يكون قاضي دمشق محي الدين بن الزكي هو الخطيب والإمام في ذلك اليوم. فلبس محي الدين بن الزكي الخلعة السوداء. وبدأ خطبته بقوله:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾

ثم أورد تحميدات القرآن كلها إلى أن قال: الحمدلله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من ظله وهطله، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليفته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه، ونصرة أنصاره، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أجهاره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رافع الشكر وداحض الشرك ورافض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى،

عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وسلم، وعلى خليفته الصديق السابق إلى الايمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان. وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن. وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

تهنئة وتغبيطاً للحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس، الذي من فضائله ومآثره أنه أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه. ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق. وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق. وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء وقد أسس على التقوى من أول يوم.

ثم ذكر تمام الخطبتين، ثم دعا للخليفة الناصر العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس. واستمر القاضي ابن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وإماماً برسم الصلوات الخمس. وأمر أن يعمل له منبر. فقيل له إن نور الدين ـ زنكي ـ كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه. وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس. فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله. فأمر باحضاره فحمل من حلب، ونصب بالقدس. وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة. وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله. ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه. فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه، قد ادخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصور.

وكان الفرنج قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها. وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة. يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها. وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها. بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها. فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها. فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة. ورتب القراء. وأدر عليهم الوظائف الكثيرة. فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً. وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً. وأما الفرنج من أهله، فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وما لا يطيقون حمله. وباعوا ذلك بأرخص الأثمان. فاشتراه التجار من أهل العسكر، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فانهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاستقروا.

وعادت القدس للإسلام وأهله

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الفهارس العامة للجزء الرابع من فن الحرب

١ – فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٢ - فهرس المواقع والأماكن الجغرافية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٣ ـ فهرس الشعوب والقبائل والجماعات والفرق

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

٤ ـ فهرس الأديان والمذاهب

هذا الكتاب

موسوعة تاريخية عسكرية تقدم لك المعرفة بتاريخ الأمة العربية وأعمال الفتوحات العظمى التي عاشتها على امتداد أربعة عشر قرناً من عمر الزمن هو تاريخ الأمة العربية الإسلامية منذ أن أضاءت الدنيا وأشرقت برسالة الإسلام وحتى اليوم.

● تبرز الحنكة العسكرية والإدارية التي تميز بها القائد المسلم بحسه العربي الذي فطر عليه في تطبيق مبادىء الحرب في الاستراتيجية والتنفيذ في ميدان المعركة، وفي فن القيادة وكفاءتها والروح المعنوية العالية للمقاتلين سواء بسواء في الحروب النظامية أو الحروب الثورية الداخلية وقمع الفتن بإيمان راسخ بنصر من الله وتأييده.

● **تشمل:**

- □ عهود الخلفاء الراشدين والامويين للأعمال القتالية في الشمال والشرق والغرب والأندلس وجنوب أوروبة والغزوات البحرية.
- □ الجهاد على جهة الروم في العهد العباسي وعلى ثغور الهند والحروب البحرية وغزو التتار لبلاد الإسلام وتمزيق قواتهم في معركة عين جالوت
- □ الغزو الصليبي لبلاد الإسلام في الحملات الصليبية المتتالية ومعركة حطين وتحرير القدس وطرد الصليبيين الفرنج وتصفية وجودهم في الشرق.
- □ ظهور العثمانيين وحملهم راية الجهاد وفتح القسطنطينية والتوغل في اوروبا شمالاً وغرباً والتوسع في آسيا والحروب مع الروسيا

● مرجع هام يحتاج إليه:

- □ تلميذ التاريخ وأستاذه
- □ العسكري في ممارسته لفنه وعلمه
- □ المؤرخ في تقصيه للحقائق التاريخية
- □ كل مواطن عربي تواق للاستزاده بمعرفة تاريخ امته